محمد أبو زهرة

المعجزة الكبرى

القرآن

نزوله - كتابته - جمعه - إعجازه
جدله - علومه - تفسيره
حكم الغناء به

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

محمد أبو زهرة

المعجزة الكبرى

القرآن

نزوله - كتابته - جمعه - إعجازه

جدله - علومه - تفسيره - حكم الغناء به

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية :

« الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ، قيما لينذر بأساً شديداً من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا، ماكثين فيه أبداً ، وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ، مالهم به من علم ، ولا لآبائهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذباً [1] » .

والصلاة والسلام على محمد الذى أرسل للعالمين بشيراً ونذيراً ، وأنزل عليه الكتاب المبين حجة باقية شـــامخة إلى يوم الدين . ورضى الله عن صحابته الأكرمين ، الذين بلغوا من بعده شريعة القرآن ، ومعه العدل والقسطاس المستقيم .

١ — أما بعد فقد اتجهت النفس متسامية إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أتعرف سيرته الطاهرة العطرة لأقتبس من نور هديه ، وأتنسم نسيم عرفه ، ولأشاهد إرهاصات النبوة ، بل الإعجاز فى حياته الأولى كما أيده الله تعالى بالمعجزات فى حياته الثانية بعد أن بعث رحمة للعـالمين ، وقد تابعنا حياته عليه السلام الأولى ثم تسامينا إلى متابعة حياته الثانية بعد أن نادى فى الجزيرة العربية بصوته القوى العميق يدعو إلى التوحيد فى وسط الوثنية ، وهو يصبر ويصابر ، ويجاهد ويناضل ، ويلاقى الأذى ، والمؤمنون الصادقون الذين آمنوا معه يعذبون ، وقلوبهم مطمئنة بالإيمان لا ينطقون بالكفر ، ولو مزق الأذى أجسامهم ، وطواغيت الشرك يتمتعون بالإيذاء ، بينما أهل الإيمان يرضون بالعذاب عن الكفران ، وقد أخذ النبى من بعد ذلك يعرض نفسه على القبائل ، تمهيداً لبناء دولة الإسلام الفاضلة ، فى غير مكة وأخذ النور يسرى فى ظلمات الجاهلية ، منبثقاً من مكة ، وإن لم يستضىء

(١) الكهف : ١ — ٥

أهلها بنوره لعمى البصائر « وإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

والمعجزة الخالدة التى يتحدى بها قريشاً وسائر العرب هى « القرآن الكريم » ، ورأينا من مساوقة الحوادث أن نتكلم فى هذه المعجزة الكبرى ، على أن يكون كلامنا فيها تبعياً وليس أصلياً ، وبالعرض ، لا بالذات .

٢ — ولكن ما إن قاربنا نوره ، حتى بهرنا ضياؤه ، واستغرق نفوسنا سناؤه ، وانتقلت نفوسنا إلى الاتجاه إليه قاصدين ذاته أصلا ، لا تبعاً للسيرة ، ولو كانت سيرة من نزل عليه القرآن ، وخاطب فى ظله الأجيال ، سيدنا الهادى رسول الله رب العالمين .

وقد حاولنا أن نملأ نفوسنا من ينابيع الهداية فيه ، وأن نشفى أمراض قلوبنا بما فيه من دواء ، وأن نكشف الغمة بما فيه من حكم وعبر .

لذلك صار القرآن وعلم القرآن ، وكل ما يتعلق به هدفاً لنا مقصوداً ، وأملا منشوداً لا نبغى سواه ، ولا نطلب غيره .

فكان لزاماً علينا أن نخص كتاب الله ببحث ودراسة ، وأن نخرج من ذلك البحث كتاباً نرجو أن يكون قيما فى ذاته ، وإن كان لا يعلو إلى حيث يكون مناسباً لموضوعه ، فموضوعه أعلى من أن تناهده همتنا ، وأن تتسامى إليه عزيمتنا ، لأنه كتاب الله تعالى ، وأنى لضعيف مثلى أن يصل إلى وصفه أو التعريف به ، إنه فوق منال أعلى القوى إدراكاً ، وأعظم النفوس إشراقاً .

(أ) وقد اتجهت ابتداء إلى بيان نزول القرآن منجماً ، وحكمته مستمداً هذه الحكمة من نص القرآن ، وما أحاط بالتنزيل ووجوب حفظه فى الصدور ، ثم بينت أنه كتب فى حياة الرسول ، وأن النبى عليه السلام كان يملى الآية أو الآيات التى تنزل عليه على كتاب الوحى ، حتى إذا تم نزوله ، كانت كتابته قد

تمت، وقراءته بهذا الترتيب الذى نراه فى الآيات والسور ، قد كملت . وقد تكلمت من بعد ذلك فى جمع المكتوب فى عهد الصديقين أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما ، ثم فى عهد ذى النورين عثمان رضى الله تعالى عنه .

(ب) وقد اتجهت إلى الحق فى وسط ما أثاره بعض العلماء من خلافات حول أحرف القرآن الكريم ، وقراءاته ونزوله، وقد أسرف بعض العلماء على أنفسهم وعلى الحق ، فأثاروا أقوالا باطلة ماكان من المعقول إثارتها ، حتى إن بعض المغرمين بالجمع ، ونقل الخلاف قالوا أموراً تخالف نص القرآن الكريم، فيما ذكر من نزوله ، وتهافتت الأقوال ، حتى وجدنا الذين لا يرجون للإسلام وقارا يتعلقون بأقوال ذكرت لهؤلاء ، كقول بعضهم إن هناك رأياً يقول إن القرآن نزل على قلب النبي عليه الصلاة والسلام بالمعنى واللفظ للنبي ، ونسوا قوله تعالى معلماً للنبي عليه السلام القراءة والنطق بها : « لا تحرك به لسانك ، لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه »(١) ، فإن ذلك صريح فى أن القرآن نزل على النبي عليه السلام باللفظ والمعنى والقراءة ، وإن ذلك عليه إجماع المسلمين ، والعلم به علم ضرورى ومن يخالفه يخرج من إطار الإسلام . وقد صرح القرآن الكريم بأن الله تعالى هو الذى رتل القرآن . فقال تعالى « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا »(٢) .

(ح) ولقد تكلمنا من بعد ذلك فى إعجاز القرآن ، وبينا وجوه الإعجاز ، ودفعنا القول بالصرفة دفعاً ، ثم تكلمنا فى علم الكتاب، وجدل القرآن ، وتفسير القرآن ، ومناهج التفسير ، وبينا التفسير بالأثر ، ومقامه من التفسير بالرأى ، وأن الرأى يجب ألا يناقض المأثور وأن التفسير باللغة والأثر مفتاح التفسير بالرأى .

(١) القيامة : ١٦ — ١٩ (٢) الفرقان : ٣٢

(د) وتكلمنا فى الغناء بالقرآن وتحريمه، والتغنى الجائز المأثور، وإبطال ما سواه، وسرنا فى طريق الحق الذى لا عوج فيه، ولا أمت.

٣ — وإنا نحمد الله تعالى على ما اختبرنا به فى أثناء كتابة ما كتبناه لقد اختبرنا الله تعالى فى أول كتابة ما كتبنا عن القرآن فانقطعنا عن الاتصال بالصحف السيارة. نخاطب المسلمين من فوق منبرها، وقطعنا عن المجلات العلمية نوجه الفكر الإسلامى من طريقها، ومن كل طرق الإعلام فلا نصل إليها، وكان الهم الأكبر أن انقطعنا عن دروسنا، وعن المحاضرات العامة.

ولكن القرآن آنسنا فى وحدتنا، وأزال غربتنا، فكان العزاء النفسى والجلاء الروحى، واختبرنا الله تعالى بالضر كما اختبر نبيه أيوب إذ قال «إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين[1]» وإنه وإن تشابه المرض فإنه يختلف المقام فهذا نبى يوحى إليه، ونحن من الأتباع، ونرجو أن نكون من الأبرار فى اتباع النبيين، لزمنا المرض المقعد نحو شهرين، فكان ألم الابتعاد عن القرآن أكبر من ألم المرض الممض، ولقد من الله تعالى بالشفاء، فخرجنا من الداء العقام، وما منعتنا وعثاء المرض فعدنا إلى القرآن، نقبس من نوره، ونعبق من عرفه، فهو أنس المستوحش، وسمير المستغرب، فآنسنا بعد طول الغياب. ومنحنا الله تعالى به العافية، فوفقنا لأن نقطع كل ما أردنا عرضه فى مدة المرض، وكأنا فى مجموع ما بلينا فى طول المدة أصحاء فى أبداننا، لأنه سلمت نفوسنا من السقام، بفضل القرآن.

واختبرنا الله تعالى من بعد بهم واصب بأن أصاب رفيقة حياتى كسر أقعدها، وأقعدنى بالغم الشديد والكرب البعيد الأثر، العميق فى النفس.

ولكن أنس القرآن خفف همى، وكشف غمى، لأنه ملأها إيمانا بقضاء الله وقدره، ووضع فى نفوسنا الصبر الجميل، من غير أنين، ولا ضجر،

---

(١) الأنبياء: ٨٣

ولكن برضا لما أراد ، وهو اللطيف الخبير ، وهو الشافى فى المرض والجابر فى الكسر ، والمعين فى الشدة ، ولا رجاء فى غيره .

هذه أمور جرت لنا ، ونحن نكتب فى المعجزة الكبرى ، فما عوقت، وما منعت ، وما أيئست .

اللهم احفظنا بالقرآن ، وآنسنا بنوره ، ووفقنا للقيام بحقه آحاداً وجماعات ، وإنك وحدك القائم على كل شىء ، اللهم قنا شر نفوسنا ، واحفظ الأمة ، من فساد يعم ، وشر يطم ، اللهم إنك عفو قدير فاعف عنا ، ولا تؤاخذنا بما تكسب أيدينا، وارفع عنا المقت الذى حل بنا ، إنك عوننا ، وأنت نعم المعين .

أول رمضان سنة ١٣٩٠ ﻫ

٣١ أكتوبر سنة ١٩٧٠ م

محمد أبو زهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المعجزة الكبرى

تمهيد :

١ – يسير الكون على سنن قد سنت . ونظم قد أحكمت ، وارتباط بين الأسباب والمسببات العادية لا يتخلف، وإن تخلفت المسببات عن أسبابها ووجدت الأمور منفكة عن علتها ، كالولد يولد من غير أب، وكالحركة تجىء من جامد لا يتحرك كعصا، ونار تنكفىء وقد أوقدت، إذا كان ذلك الانقطاع بين الأسباب العادية وسبباتها. حكم العقل بأن الذى فعل ذلك فوق الأسباب العاديه ومسبباتها ، ولوساير العقل منطقه إلى أقصى مداه ، (وليس بعيداً فى حكم المنطق العقلى المستقيم الذى يصل إلى المدى من أقربه) فإنه لابد واصل إلى أن الذى خرق العادات وخالف أسبابها ومسبباتها ، لابد أن يكون خالقها وموجدها . وإذا كان القصور العقلى لا يصل إلى هذه الغاية ، فإنه لابد واصل إلى أن خرق هذه العادات لابد أن يكون لغاية، وإنه إذا وجدت هذه الغاية وبينت مقاصدها، وعلم أن ذلك الخرق لهذه الغاية تبين معه صدق ما يدعى ، وإنه يعلم من وراء ذلك الخالق الحكيم ، المسيطر على كل شىء الذى يفعل ما يريد ، ولا يقيده نظام خلقه ، ولا عادات أوجدها .

لذلك كان الأمر الخارق للعادة حجة الصدق لمن يدعى أنه يتكلم عن الخالق الحكيم الفعال لما يريد ، لأنه لا يغير العادات سواه، وإن الصادق يعلن دعواه ، ويقيم ذلك برهاناً عليها ، ويتحدى الناس أن يفعلوا مثلها ، ويسمى فى هذه الحال إنه معجزة .

ولذلك عرفوها بأنها الأمر الخارق للعادة الذى يدعى به من جرى على يديه أنه نبى من عند الله تعالى ، ويتحداهم أن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين

وإن المعجزة المادية تتحدى بنفسها مع ادعاء الرسالة ، فإن النار لا تنطفىء من تلقاء نفسها ، إذ يلقى فيها إبراهيم عليه السلام فتكون برداً

وسلاماً عليه ، فلا يحترق ،وكالعصا الذى تتحرك وتتلوى كأنها ثعبان مبين وليست سحراً ، كما أدرك الساحرون ، وكانوا أول المؤمنين ، وكإبراء عيسى للأكمه والأبرص بإذن الله،وكإحيائه الموتى بإذن الله ، فما كان له أن يطلب منهم أن يأتوا بمثلها ، والقصور بين ، والعجز واضح ، ومع ذلك فالتحدى قائم ، والعجز ثابت ، والحجة قائمة ، وكان عليهم أن يؤمنوا بالحق إذ جاءهم .

وهناك بجوار المعجزة المادية معجزة هى شىء قائم بذاته ثابت ، ولكن الإعجاز فيه أمر لا يدرك بالحس ولكن يدرك بالدراسة والفحص ، وقد يدعى بعض من لا يسبر غوره ،ويعرف أمره أنه يستطيع أن يأتى بمثله وما هو بمستطيع ، وأنه فى قدرته ، وليس بقادر عليه ، وهو من غرور النفس،أو ادعاء القدرة أو اللجاجة فى الأفكار ، والمباهتة المناهضة للحقائق .

وإن ذلك يكون فى المعجزة التى تكون من نوع الكلام ، وهى معجزة القرآن الكريم فقد كان الغرور يوهم بعض المخاطبين به أن عندهم القدرة على الإتيان ، بمثله ، فكان لا بد من كشف هذا الغرور ، وإزالة تلك الغشية الباطلة ،ليتبين وضح الحق، ولذلك طالبهم الله تعالى بأن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين فى مثل قوله تعالى « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداء كم من دون الله إن كنتم صادقين[1] » . وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وقرر سبحانه أن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثله ، فقال تعالى « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا[2] » .

٢ — وهنا يسأل سائل لماذا كانت معجزة إبراهيم ناراً موقدة صارت برداً وسلاماً ، ومعجزة موسى عليه السلام كانت عصا صارت حية تسعى ، وغيرها أيده الله به إلى تسع آيات كلها كانت مادية حسية ، وكذلك كانت

(١) البقرة : ٢٣ (٢) الإسراء : ٨٨

معجزة عيسى عليه السلام إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، وإنزال مائدة من السماء، بل كانت ولادته ذاتها معجزة حسية إذ ولد من غير أب، وتكلم فى المهد صبياً، إذ قال: «إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً، وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً [1]».

لماذا كانت معجزات الأنبياء السابقة حسية على ذلك النحو، ومعجزة محمد صلى الله عليه وسلم معنوية فقد كانت بياناً يتلى، وذكراً حكيما، يحفظ فيه بيان الشرائع المحكمة الخالدة.

قبل أن نخوض فى الإجابة عن السؤال الوارد فى موضعه، نقرر أن كون المعجزة مادية حسية تبهر الأعين بادىء الرأى لا يدل على علو المنزلة، أو عكسها، ولكنها حكمة الله تعالى العليم بكل شىء، القادر على كل شىء، والله تعالى فضل بعض الرسل على بعض، فمنهم من كلم الله ورفع بعضهم فوق بعض درجات، ولكن ليست الرفعة بكون الآيات مادية حسية، بل بأمور قدرها الحكيم العليم الذى له وحده حق نوع التفضيل والرفعة.

ونعود بعد ذلك إلى الإجابة عن السؤال الوارد، فنقول: إن العلماء قالوا إن كل معجزة مناسبة للعصر الذى أرسل فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إذ تكون هادية ومرشدة، وخرقها للعادات الجارية يكون أوضح، ومناسبتها لرسالة النبي المبعوث يكون دليلا على كمال الرسالة وعموم شمولها لكل الأزمنة.

وقد نخالفهم فى بعض ما ذكروا أو نوافقهم، فنرى أن إبراهيم جاء فى قوم كانوا على مقربة من عبدة النار، فكان فى إطفاء الله تعالى للنار من غير سبب ظاهر بيان بعجز النار التى تعبد.

---

(١) مريم: ٣٠ — ٣٣

ونوافقهم فى أن معجزات موسى عليه السلام كانت مناسبة لأهل مصر لأن السحر والكهانة كانا فيهم، وقد كان للسحرة مكانة عندهم، وبقية المعجزات كانت متعلقة بالزرع وآفاته، وهم أهل زرع وضرع من أقدم العصور، كما قال تعالى: «فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين، ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك، ولنرسلن معك بنى إسرائيل، فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون[1]» وهكذا كانت تسع آيات حسية مناسبة لأهل مصر، وبنى إسرائيل[2]، فكانوا يقولون إنه سحر، واقرأ قوله تعالى: «ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم، فقال فرعون، إنى لأظنك ياموسى مسحوراً، قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض، بصائر وإنى لأظنك يا فرعون مثبوراً».

٣ — هذه معجزات إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام وهى مناسبة لزمنهما، وكذلك معجزة عيسى عليه الصلاة والسلام كانت مناسبة لعصره، لا لأن عصره شاع فيه علم الطب كما يقول بعض علماء الكلام، لأن علم الطب لم يكن رائجاً بين بنى إسرائيل، فلم يكن بينهم علم أبقراط، كما قرر رينان فى كتابه «حياة يسوع» بل إن معجزاته كانت من ذلك النوع لسبب آخر يجب أن نتلمسه من غضون التاريخ، ومن حال بنى إسرائيل، ذلك أن العصر كان عصراً مادياً يؤمن بالمادة ولا يؤمن بالغيب، بل كان من اليهود من لا يؤمن باليوم الآخر، وإنك لترى أن التوراة التى بأيدينا، وهى ميراثهم من التوراة التى حرفت، تقرر أن نفس الإنسان هى دمه.

وكان بجوار هذه الروح المادية التى سادت بنى إسرائيل استجابة لما هو سائد فى عصرهم الرومانى الذى كان يؤمن بالمادة، كان بجوار هذا إيمان

---

(١) الأعراف: ١٣٣ — ١٣٥ (٢) الإسراء: ١٠١ — ١٠٢

بالأسباب العادية والمسببات ، بحيث يعتقدون أنه لا يمكن أن ينفك السبب عن مسببه ، واللازم عن ملزومه ، فلا توجد نتائج من غير سبب عادى ، فلا ولد من غير والد ، ولا حياة تكون بعد موت من يموت ، فلا يرتد حيا ، وقد عجزت الأسباب عن أن يرتد حياً من يموت ، وعجزت الأسباب عن أن يرتد بصيراً من يولد أعمى .

لقد سادت الفلسفة الأيونية ، والفلسفة اليونانية التى تقرر لزوم الأسباب العادية ، حتى لقد فرضوا أن الأشياء نشأت عن الخالق لها بقانون السببية ، فقالوا إن الكون نشأ عن المنشىء الأول نشوء المسبب عن سببه بلا إرادة مختارة منشئة . لقد قرروا أن قانون الأسباب هو الذى يحكم كل شىء .

لذلك كانت معجزات عيسى عليه السلام متضمنة الرد والتنبيه فى أمرين أولهما — بيان سلطان الروح ، فقد ظهرت الروح مسيطرة موجهة مرشدة فى أنه كان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم ، وفى أنه عليه السلام أحيا الموتى بإذن الله ، وأخرجهم من قبورهم بإذن الله ، وأنزل عليه مائدة من السماء بإذن الله تعالى .

وثانيهما أنه كانت معجزاته عليه السلام هادمة لارتباط الأسباب العادية بمسبباتها، لقد ولد من غير أب ، والأسباب العادية تقرر أنه لا مولود من غير والد، وتكلم فى المهد صبياً ، وذلك غير المقرر فى الأسباب والمسببات، وأخبر عن بعض المغيب عنه ،وذلك غير الأسباب العادية التى توجب المعاينة فى صدق الإخبار . وأحيا الموتى بإذن الله ، وذلك ما لا يتحقق فى الأسباب العادية.

وهكذا نجد معجزات عيسى عليه السلام ورسالته كانت إيقاظاً شديداً لعصره ، وتنبيهاً لمكان الروح ، وسلطانها ، وبيانا لمقدرة الله تعالى ، وأنه الفعال لما يريد ، فكانت رسالته ومعجزاته مناسبة لعصره .

معجزة القرآن

وكل معجزات الأنبياء إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم سواء أكانت مادية فى كونها ، أم كانت متضمنة معانى روحية ـ كانت من النوع الذى يحس بالرؤية . ويكون من بعدها التأمل ، وليس من النوع الذى يكون بالتأمل ، ولا يدرك إلا بالتأمل ، وإن كان قائما ثابتا فى الوجود من غير ريب ، وكانت حوادث تقع ، ولا تبقى ، ولا يبقى منها إلا الإخبار بها ، فلا يعرفها على اليقين إلا من عاينها .

٤ ـ ولكن معجزة محمد عليه السلام كانت من نوع آخر ، لم يكن حادثة تقع ، وتزول من غير بقاء لها إلا بالخبر ، بل كانت قائمة تخاطب الأجيال ، يراها ويقرؤها الناس فى كل عصر ، ونقول إنها مناسبة لرسالة النبى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، لعمومها فى الأجيال ، ولمكانته بين الرسل ، ومقامه فى هذا الوجود الإنسانى إلى يوم القيامة .

إن معجزات الأنبياء السابقين لا يعلم وقوعها على وجه اليقين إلا من القرآن ، فهو الذى سجل معجزات نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، ولولا أنه سجلها ماعلمها الناس ، وإذا كانت بعض الكتب القائمة اليوم ذكرت بعضها فقد ذكرته مشوبا بأمور غير صادقة كإخبارهم بأن لوطا كان مخموراً فوقع على ابنتيه ، وما يكتب فيه مثل هذا عن بعض النبيين لا يمكن أن يكون مقبول الخبر عن سائرهم ومعجزاتهم .

ونقول : إن معجزة محمد عليه السلام كانت القرآن ، لقد أجرى الله تعالى على يديه خوارق عادات أخرى مثل إخباره عن بعض ما يغيب عن حسه ، ومثل حنين الجذع إليه ، ومثل بكاء الناقة عنده ، ومثل الإسراء والمعراج ، ولكن لم يتحد إلا بالقرآن الكريم ، ولم ير المشركون صرحاً شامخاً يتحداهم به سوى القرآن الكريم .

ولماذا كانت معجزة محمد عليه السلام القرآن ، وما كان يرجو الاتباع إلا به ، ولقد روى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال «ما من نبي إلا أوتى ، ما مثله آمن به البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحى به إلى ، وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » ومن هذا يتبين جواب ذلك السؤال ، وهذا لأن رسالة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خالدة ، لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم خاتم النبيين ، ولا نبي بعده ، فيجب أن تكون معجزته مناسبة لهذه الرسالة الخالدة الباقية التى لا يحدها زمان فى المستقبل ، بل تبقى إلى يوم القيامة ولا تكون معجزته واقعة تنقضى ، وتنتهى بانتهاء الزمن الذى وجدت فيه بل تبقى الحجة ما بقيت الشريعة ، وذلك محقق فى القرآن فهو حجة قائمة على العرب والعجم إلى يوم الدين ، وهو معجز لكل الخلائق ، وذلك ما نتصدى لبعضه ، والله هو المعين .

المعجزة الخالدة

٥ – تلك المعجزة الخالدة هي القرآن الذي يتحدى الأجيال كلها أن يأتوا بمثله، ولو اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً كما ذكر الله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هو حجة الله على خلقه، وحجة النبي في رسالته، وسجل الشريعة المحكم في بيانه، وهو المرجع عند الاختلاف والحكم العدل عند الافتراق، وهو الطريق المستقيم المرشد عند الاعوجاج، من سلكه وصل، ومن لجأ إليه اهتدى.

روى الترمذي بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكرم وجهه في الجنة أنه قال: « سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول « ستكون فتن كقطع الليل المظلم، قلت: يارسول الله وما المخرج منها ؟ قال: كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم. وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين ونوره المبين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد، من علم علمه سبق، ومن قال به صدق ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم، خذها إليك يا أعور ».

وقد رواه الحارث الهمذاني برواية الترمذي، وقد حسن رواية الحارث كثيرون من المحدثين، منهم الفقيه المحدث ابن عبد البر، وإن الذين اتهموا

حارثاً فيهم نزعة أمويه ، ومنهم الشعبي ، وقد قال فيه ابن عبد البر : « أظن الشعبي عوقب لقول فى الحارث الهمذانى » « حدثنى الحارث وكان أحد الكذابين » .

وأنه فى معنى هذا الحديث ما روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه، إذ جاء أنه فيما روى عنه « إن هذا القرآن مأدبة الله تعالى فتعلموا من مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن هو حبل الله والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة من تمسك به ، ونجاة من اتبعه ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب ، ولا تنقضى عجائبه ، فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات » .

وإن هذه الأخبار ومثلها كثير تدل على منزلة القرآن فى الإسلام، وأنه العصمة من الزيغ ، وأنه المرجع المتبع ، وأنه يشتمل على شرائع الإسلام كلها ، وأنه بذلك هو الحكم بين الناس الذى لا يضل حكمه ، وأن من تركه من جبار قصم الله تعالى ظهره، وأنه لا تتشعب الآراء فى حقيقته إذا استقامت الأفهام ، ولم تضل المدارك .

والعلماء يجدون فيه المعين الذى لا ينضب، والثروة الإسلامية التى لا تنفد فيه حكم الأمور كلها ما وقع ، وما لم يقع ، وأن كل ما فيه حق ، وأنه مصلحة الدنيا والأخرى ، ما من خبر إلا له فى القرآن أصل معتمد ، و نص يمكن الحمل عليه ، فما ترك الله الإنسان سدى . وقد قال تعالى وقوله الحق : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » . وفيه عبر الماضين وأخبار كل النبيين ، فهو كتاب الله الكامل ، فيه معانى كل الكتب المنزلة على الرسل ، وفيه أخبار أولئك الرسل مع أقوامهم، وفيه المثلات المرشدة، والعظات الموجهة، وفيه أعلى الآداب الإنسانية وأقوم السلوك الكامل للخلق أجمعين ، وفيه تعليم الإنسان الاتجاه إلى الكون وتعرف ما فيه، والأخذ بالعلم من قوادمه

(١) الأنعام : ٣٨

وخوافيه وفيه الدعوة إلى العلم بكل ضروبه ، علم الإنسان ، وعلم النفس ، وعلم الكون ، وإلى العلم بالنجوم فى مسالكها ، والسموات فى أفلاكها ، والأرض فى طبقاتها ، فيه الدعوة إلى العلم بما لم يعلم ، وطلب فى كل مداركه.

خاطب الله تعالى به أولياءه فعرفوه ، وأصحاب العقول المستقيمة فأدركوه ، وكان حقاً كما قال تعالى « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعاً»[١]، ذلك هو كتاب الله تعالى بما حمل من معان وتكليف ، وما كساه الله تعالى به من روعة وتشريف ، وهو كما وصفه الله تعالى بقوله : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله »[٢] .

---

(١) الرعد : ٣١ . (٢) الزمر : ٢٣ .

القسم الأول

نزول القرآن

٦ — من وقت أن من الله تعالى على الإنسانية بالبعث المحمدى ابتدأ نزول القرآن ، فأول آية نزلت كانت الخطاب من الله تعالى بالتكليف الذى كلفه تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام بحمل الرسالة إلى خلقه ، فقد نزلت أول آية ، وهى « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم[١] » فكان هذا إيذانا بأن دين العلم قد وجب تبليغه ، وأن كتاب العلم قد ثبت تنزيله ، وأن إعلاء شأن الفكر قد جاء به خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، وفيه إيماء إلى أن الإسلام والعلم يجتمعان ، ولا يتناقضان أبداً .

توالى نزول القرآن منجماً فى مدة الرسالة المحمدية التى استمرت ثلاثاً وعشرين سنة يدعو فيها بالحق ، وإلى صراط مستقيم ، ينير السبيل ، ويهدى للتى هى أقوم .

فكانت الآيات القرآنية تنزل وقتاً بعد آخر ، وكان التحدى بما نزل وإن لم يكن ما نزل كل القرآن ، لأن كل جزء منه ينطبق عليه اسم الكتاب ، بل القرآن ، إذ أن التحدى يقع به ، والمعجزة تتحقق فيه ، فقد تحدى أهل مكة أن يأتوا بمثله ، ولم يكن قد نزل كله ، فقد قال تعالى فى سورة يونس ، وهى مكية : « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله ، أفلا تعقلون ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون[٢] » وجاء التحدى فى هذه السورة أيضاً فقال تعالى : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه ، من رب العالمين ، أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله ، إن كنتم صادقين[٣] » وجاء فى سورة هود ،

---

(١) العلق : ١ـ٥ . (٢) الآيتان : ١٦ ، ١٧ (٣) الآيتان : ٣٧ ، ٣٨ .

وهى مكية : « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سورة مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله ، إن كنتم صادقين »[١] .

ومن هذا كله يتبين أن بعض القرآن قرآن يتحدى فيه ، فهو الكتاب الكامل فى كله ، والكامل فى جزئه ، وهو معجز فى أجزائه ، كما هو معجز فى ذاته ، وإن شئت فقل إنه معجزات متضافرة ؛ وإذا كان لموسى تسع آيات بينات فلمحمد مئات من المعجزات البينات .

حكمة نزوله منجما

٧ — وقد يسأل سائل لماذا نزل القرآن منجماً ، ولم ينزل دفعة واحدة ، كما نزلت الألواح العشر على موسى عليه السلام ، وكما نزل الزبور على داوود ؟ وإن مثل هذا السؤال جاء على ألسنة المشركين معترضين ، متخذين منه سبيلا للجاجتهم، وقد نقل القرآن الكريم عنهم ذلك ورده ، فقد قال تعالى : « وقال الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا »[٢] .

ونرى أن النص الكريم قد نقل اعتراض المشركين ، ورده سبحانه وتعالى عليهم ، وقد تضمن الرد ثلاثة أمور تومىء إلى السبب فى نزوله منجما :

أولها : تثبيت فؤاد الرسول بموالاة الوحى بالقرآن فإن موالاته فيها أنس للنبي عليه الصلاة والسلام ، وتثبيت لعزيمته ، وتأييد مستمر له ، فيقوم بحق الدعوة بالجهاد فى سبيلها ، وإذا كان المرء يستأنس بوليه إذا والى الاتصال به فكيف لا يستأنس رسول الله تعالى بلقاء الروح الأمين الذى يجيئه بكلام رب العالمين ، فى موالاة مستمرة .

ثانيها : أن تثبيت الفؤاد بنزول القرآن يكون بحفظ ما ينزل عليه جزءاً جزءاً ، ذلك أن هذا القرآن نزل ليحفظ فى الأجيال كلها جيلا بعد

---

(١) الآية : ١٣   (١) الفرقان : ٣٢

جيل ، وما يحفظ في الصدور لا يعتريه التغيير ولا التبديل ، وما يكتب في السطور قد يعتريه المحو والإثبات والتحريف والتصحيف ، ولأن الله تعالى كتب للقرآن أن يحفظ ، كان يحفظ جزءاً جزءاً ، وكان ينزل بجزءاً ليسهل ذلك الحفظ ، وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حريصاً على أن يحفظه عند نزوله ، فكان يردد ما يتلوه عليه جبريل ويتعجل حفظه ، وقد قال الله سبحانه وتعالى لنبيه في ذلك : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه[١] » ، وترى من هذا النص حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أن يحفظ ما يوحى إليه ، فيحرك به لسانه ، مستعجلا الحفظ فينبهه الله تعالى إلى أنه يتولى جمعه وإقراءه له ، وأنه مبينه ، وحافظه ، كما قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[٢].

الأمر الثالث : هو ترتيل القرآن ، بتعليم تلاوته وإن هذا النص يستفاد منه أن تلاوة القرآن وطريق ترتيله هي من تعليم الله تعالى ، إذ أنه سبحانه وتعالى ينسب الترتيل إليه تعالت قدرته وكلماته ، وعظم بيانه ، فنحن بقراءتنا وترتيلنا إن أحكمناه ، إنما نتبع ما علم الله تعالى نبيه من ترتيل محكم ، جاء به التنزيل ، وأمر به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في قوله تعالى :- « ورتل القرآن ترتيلا[٣] » ، وما كان تعليم هذا الترتيل المنزل من عند الله تعالى ليتوافر إذا لم ينزل القرآن منجما ، فلو نزل جملة واحدة ما تمكن النبي عليه السلام من تعلم الترتيل ، ولو علمه الله تعالى بغير تنجيمه ما كان في الإمكان أن يعلمه قومه وهم حملته إلى الأجيال من بعده .

هذا ما يستفاد من النص الكريم المتلو ، وعبارته السامية فيه واضحة بينة تشرق بمعانيه العالية الهادية الموجهة المرشدة .

وهناك سبب آخر لنزول القرآن منجما نلمسه من حال العرب ، ومن شئونهم ، ذلك أن العرب كانوا أمة أمية ، والكتابة فيهم

---

(١) القيامة : ١٦ – ١٩ (٢) الحجر : ٩ (٣) المزمل : ٤

ليست رائجة ، بل يندر فيهم من يعرفها ، وأندر منه من يتقنها ، فما كان فى استطاعتهم أن يكتبوا القرآن كله إذا نزل جملة واحدة ، إذ يكون بسوره وآياته عسيراً عليهم أن يكتبوه ، وإن كتبوه لا يعدموا الخطأ والتصحيف والتحريف .

ولقـــد كان من فائدة إنزال القرآن منجما أنه كان ينزل لمناسبات ولأحداث فيكون فى هذه الأحداث بعض البيان لأحكامه والمبين الأول هو النبي صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم[1]» .

المكى والمدنى

٨ — كان نزول القرآن منجماً ، سبباً فى أن بعضه نزل بمكة وبعضه نزل بالمدينة،فكان منه المكى ومنه المـــدنى ، فالمكى ما نزل قبل الهجرة ، والمدنى ما نزل بعد الهجرة ، فما نزل بعد الهجرة ، ولو بمكة يسمى مدنياً ، وما نزل قبل الهجرة يسمى مكياً ، فالتقسيم زمانى ، وليس بمكانى ، ليست العبرة بمكان النزول ، إنما العبرة فيه بزمانه .

والآيات المكية فيها بيان العقيدة الإسلامية، وبطلان عبادة الأوثان، ومجادلة المشركين والدعوة إلى التوحيد ، ومخاطبة العرب ، وفيها قصص الأنبياء الذين جاءوا إلى بلاد العرب ولهم آثار فى أجزائها تنادى بما صنع أقوامهم ، وما أصابهم الله تعالى بكفرهم من حاصب ، ومن خسف جعل عالى ديارهم سافلها ، ومن ريح صرصر عاتية .

ولم يكن فى الآيات المكية أحكام للمعاملات ، وإن كان فيها إشارات إلى المحرمات كالخمر والربا فقد قال تعالى مشيراً إلى أن الخمر أمر غير حسن: «ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ، إن فى ذلك

---

(١) النحل : ٤٤ .

لآية لقوم يعقلون »[1] . فإن هـذا النص الـكريم يشير إلى أن الخمر ليست أمراً حسناً ، لأنه سبحانه وتعـالى جعلهـا مقابلة الأمر الحسن ، ولا يقابل الحسن إلا القبيح ، أوعلى الأقل الأمر غيرالحسن .

ولقد جاء أيضاً فى سورة الروم مايشير إلى أن الربا أمر غير مستحسن فقد قال تعالى فى سورة الروم : « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلايربو عندالله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون »[2] .

وإن عدم وجود أحـكام للمعاملات فى مكة سببه أن الدولة التى كانت قائمة كانت دولة شرك ، وإن من المستحيل أن تنفذ أحكام المعاملات الإسلامية فى ظلها ، وكان الاتجاه الأول إلى إخراجها من الشرك وإدخالها فى التوحيد أولا ، ثم من بعد ذلك تـكون الدولة الإسلامية المنفذة ، ولـكن المحرمات كانت ثابتة من أول تشريع الإسلام ، وإن كان مسكوتاً عنهـا . فلم تـكن موضع إباحة ، بل كانت موضع سكوت وعفو حتى ينزل التشريع بتحريمها تحريماً قاطعاً ، فما كانت الخمر مباحة ، ولـكن كان مسكوتا عنها ، أو كانت فى مرتبة العفو كما يقول علماء الأصول ، حتى إذا كان المنع الصريح فى المدينة ، كان معه العقاب ، وهكذا كل ما كان مسكوتا عنه لم يـكن موضع إباحة .

ولمـا انتقل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إلى المدينة كان التنظيم الـكامل للمعاملات لأنه وجدت دولة إسلامية فاضلة ، تنظم العلاقات بين النـاس ، وتقوم على تنفيذها ، والقضاء بها ، فنظم التعامل ، وابتدأ بأعلى أنواع التعاون بين الناس وهو الإخاء الذى آخى فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، والأنصار بعضهم مع بعض ، والمهـاجرين بعضهم مع بعض ، وشرعت النظم الاجتماعية ، والمعاملات الإنسانية . من أحكام للبيوع والمزارعات ، وتحريم للربوبات وغيرها ، وفرضية الصدقات وتنظيمها ، وإعطـاء الفقير حقـه ، والتنظيم الاجتماعى الـكامل ، وشرعت الزواجر

---

(١) النحل : ٦٧ .　(٢) الآية : ٣٨ .

الاجتماعية من حدود وقصاص . وسنت الأحكام الفاصلة بين الحقوق ، وفتح باب الجهاد ، ووضعت نظم الحرب ، وقامت العلاقات الدولية على أسس متينة محكمة ، يراعى فيها حق العدو ، كما يلاحظ حق الولى على سواء لأن المبادىء المدنية فى الإسلام قامت على إعطاء كل ذى حق حقه من غير بخس ولا شطط ، ولا مجاوزة للحد ولا اعتداء .

ويلاحظ أن مبادى العدالة جاءت مع وجود الشريعة الإسلامية ، وقد دعا إليها القرآن الكريم فى مكة والمدينة ؛ لأن العدالة حق ابتدائى لا يختلف فى دولة عن دولة ، فهو يتعلق بالنفس الإنسانية فى ذاتها .

فالأمر بالعدالة والإحسان والوفاء بالعهد جاء فى سورة النحل ، وهى مكية عند نظر الأكثرين ، لأن الله تعالى يقول فيها وهو أحكم القائلين : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ، وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ،أن تكون أمة هى أربى من أمة »(١) .

ولقد أحصى القرطبي فى تفسيره الجامع لأحكام القرآن السور المدنية ، فقال: « عن قتادة نزل بالمدينة من القرآن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال وبراءة والرعد والنحل والحج والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والرحمن والحديد ، والمجادلة والحشر ، والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق ويأيها النبي لم تحرم إلى رأس العشر وإذا زلزلت وإذا جاء نصر الله — هذه السور نزلت بالمدينة . وسائر القرآن نزل بمكة .

ويلاحظ أنه جعل سورة النحل من الصور المدنية . ولكن المذكور فى المصاحف التى بين أيدينا أنها مكية ، ولعل فيها روايتين .

---

(١) الآيات : ٩٠-٩٢ .

كتابة القرآن وجمعه

٩ — منذ ابتدأ نزول القرآن الكريم على الرسول الأمين ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يحفظه ، ويأمر من حوله ممن يحسنون الكتابة أن يكتبوه ، وقد سمى أولئك الذين كتبوا القرآن بكتاب الوحى ، ومنهم عبد الله بن مسعود ، وعلى بن أبى طالب ، وزيد بن ثابت ، وغيرهم كثير ممن كانوا يحضرون إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم غب نزول الوحى بالقرآن عليه ، فيملى عليهم ما نزل ، ويعلمن ما حفظه فيحفظه الكثيرون من الصحابة وخصوصا من كانوا له عليه الصلاة والسلام ملازمين ، وعلى مقربة منه صلى الله تعالى عليه وسلم .

وكان نزول القرآن على غير الترتيب الذى نقرؤه الآن فى السور الكريمة ، بل كان ذلك الترتيب من بعد النزول بعمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بوحى من الله تعالى ، فكان يقول عليه الصلاة والسلام ضعوا آية كذا فى موضع كذا من سورة كذا، فتكون بجوارها متسقة متلاحقة المعنى مترابطة متناسقة اللفظ ، تلتقى بها كأنها لقف معها ، وكأنهما كلام واحد قيل فى زمن واحد ، أحدهما لاحق ، والآخر سابق ، وكأن المتكلم قالهما فى نفس واحد ، من غير زمن بينهما يتراخى ، أو يتباعد ، وذلك من سر الإعجاز ، ولا غرابة فى ذلك ، لأن القائل واحد ، وهو الله سبحانه وتعالى العليم الخبير الذى لا تجرى عليه الأزمان ولا يحد قوله بالأوقات والأزمان لأنه هو خالق الأزمان والمحيط بكل شىء علما .

ولذلك كان ترتيب القرآن الكريم فى كل سورة بتنزيل من الله تعالى .

وكان من الصحابة من يحفظه كله ، فكان عبد الله بن مسعود يحفظ المكى ، ويحفظ المدنى ، ولكن الرواة قالوا إنه عرض على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المكى فقط . وكذلك جمع أبىّ المدنى ، وقالوا

إنه عرض على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما جمعه بعد الهجرة وأكبر العرض هو عرض زيد بن ثابت رضي الله تبارك وتعالى عنه ، فقد كان سنة وفاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد كان بعد أن قرأ الرسول الأمين على روح القدس جبريل القرآن مرتباً ذلك الترتيب الموحى به الذى نقرأ به القرآن الكريم .

وإن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا وقد جمع القرآن في صدره طائفة من الصحابة ، قيل إن عددهم مائة أو يزيدون ، ونحن نرى أنهم كانوا أكثر من ذلك عدداً ، فإنه قتل من القراء فى إحدى مواقع الردة عدد يزيد على السبعين ، وقيل على سبعمائة ، وربما كان الأول أدق ، فإذا كان ذلك العدد مقتولا فالباقى بحمد الله تعالى أكثر ، وإن كان قتل سبعين قد هال المؤمن الثاقب النظر عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وجزاه عن الإسلام خيراً .

وإذا كان بعض الكاتبين ذكر أن الحفاظ للقرآن من الصحابة أربعةهم على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه، ومعاذ بن جبل وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت ، فذلك ليس من قبيل الإحصاء ولا من قبيل التعيين العددى فإن العدد أكبر من ذلك .

والأمر الآخر الذى يجب التنبيه إليه هو أن القرآن كله كان مكتوبا عند الصحابة ، وإذا كان لم يكن كله مكتوباً عند بعضهم . أو عند واحد منهم بعينه ، فإن ذلك لم يكن منفياً عن جميعهم ، فهو مكتوب كله عند جميعهم ، وما ينقص من عند واحد يكمله ما عند الآخرين ، وهكذا تضافروا جميعاً على نقله مكتوباً ، وإن تقاصر بعضهم عن كتابته كل الآخر ، وكان الكمال النقلى جماعياً وليس آحادياً .

وقد يسأل سائل ، لماذا كان الجامعون له فى الصدور كثيرين ، وقد حفظوه كاملا غير منقوص ، ولم يوجد من جمعه فى السطور جمعاً كاملا ،

ونجيب عن ذلك بجوابين — أحدهما — من واقع حياة العرب ، فقدكانوا أميين،والجيدمنهم للكتابةقليل ، وأدوات الكتابة غير موفوره ، ومايكتب عليه غير معدّ لها ، فكانوا يكتبون على الأديم ، وعلى لخاف الأشجار ، وعلى العسب ، وغير ذلك مما لا يعد للكتابة ، فكان الغريب أن تكون كتابة ، فضلا عن أن تكون كتابة كاملة للقرآن عند الواحد من الصحابة ، وكتابته كاملة عند الجميع كانت بتوفيق الله تعالى ومن عنايته بكتابه الكريم.

والجواب الثانى: أن ذلك من عمل الله تعالى، لأن الله تعالى العليم الحكيم جعل حفظ القرآن الكريم فى الصدور ابتداء وانتهاء،وفى السطور احتياطاً ولتكون كتابته من بعد ذلك صحيحة من كل وجوهها ، لا يعتريها تصحيف ، ولا تحريف ، وإن تواتر القرآن الكريم عن رسول الله يكون كما تلقاه عن ربه العليم الحكيم ، والتواتر يكون بالتلقى فى الصدور لا فى السطور ، ولا يكون تواتر فى مكتوب إلا إذا قرىء المكتوب على من أخذ عنه وأجازه ، فالمكتوب يحتاج فى نقله إلى الإجازة القولية،والإجازة القولية لاتحتاج إلى كتابة إلا بمقدار تسجيل الإجازة .

* * *

ترك محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الدنيا والأمة على بينة من أمر القرآن ،قد استحفظوه ، وحفظوه، وكتبوه وحمله رسول الحقيقة أمانة الخليقة ، وهو القرآن الحكم فى هذا الوجود الإنسانى، فماذا كان من بعده.

جمع القرآن الكريم بعد الرسول

١٠ — انتقل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وقد حفظ عدد كبير من الصحابة يبلغ حد التواتر القرآن كله كاملا غير منقوص لم يتركوا منه كلمة إلا حفظوها ، وعلموا أين نزلت ، ومتى نزلت ، وعلموا معناها من صاحب الرسالة عليه السلام ، حتى إنه ليروى عن عثمان بن عفان أنه كان يقول كنا إذا حفظنا عشر آيات من القرآن سألنا الرسول عليه السلام عن معناها فيبينها لنا :

ترك الرسول لصحابته القرآن ، وهو أعظم ثروة إنسانية مثرية فى هذا الوجود ، وقد أدركوا حق الأمانة وأنهم حاملوها إلى الأخلاف من بعدهم كاملة ، كما تسلموها ، فكان حرصهم عليها أشد من حرصهم على أنفسهم ، لأنهم فانون ، وهى الباقية ، وهى تراث النبوة ، وسجل الرسالات الإلهية، لذلك كانوا يحافظون عليها ، وعلى الذين حملوها فى صدورهم .

ولقد هال عمر بن الخطاب أنه قد استحر القتال بين المؤمنين الأولين (وكثير منهم من حفظة القرآن الكريم) ، وبين أهل الردة فى موقعة اليمامة وقتل منهم فيما قيل سبعمائة كما جاء فى الجامع الكبير للقرطبي ، فأشار عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه على أبى بكر بجمع القرآن مخافة أن يموت أشياخ القراء كأبى وابن مسعود وزيد ، فندبا زيد بن ثابت إلى ذلك فجمعه بعد تعب شديد » .

روى البخارى عن زيد بن ثابت قال : أرسل إلى أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة ، وعنده عمر ، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن كلها ، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه ، وإنى لأرى أن يجمع القرآن قال أبو بكر فقلت لعمر: كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله تعالى

عليه وسلم ، فقال هو والله خير ، فلم يزل يراجعني ، حتى شرح الله لذلك صدري ، ورأيت الذى رأى عمر . قال زيد ، وعنده عمر جالس لا يتكلم فقال لى أبو بكر إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن ، قلت كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم !!. فقال أبو بكر : هو والله خير ، فلم أزل أراجعه ، حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر » .

اختار أبو بكر كما ترى فى رواية البخارى ورواية غيره من أصحاب الصحاح زيداً ليقوم مع من يستعين به من حفظة القرآن ، وكان اختياره لزيد لأسباب جمة - أولها - ما اشتهر به بين الصحابة من العلم والفقه ، وثانيها - لأنه من كتبة الوحى الملازمين ، لا الذين كتبوا مرة أومرتين ، وأخذوا لقب كاتب الوحى شرفا ، وثالثها - أنه ممن حفظوا القرآن وجمعوه فى صدورهم ، فكان حقيقاً أن يجمعه مسطوراً بعد أن جمعه محفوظاً ، ورابعها - أنه عرض القرآن على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى السنة التى انتقل فيها النبى عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى كما قدمنا .

١١ — حمل زيد ما هو أشد حملا من الجبال ، لأنه يحمل أثقل موازين الهداية فى هذا الوجود الإنسانى ، وهو وديعة الله تعالى إلى الوجود الإنسانى إلى أن تزول السموات والأرض .

وما كان لمن يحمل مثل هذا الحمل أن ينفرد بالعبء فقد استعان بالحفظة الكرام من صحابة النبى الأعلام ، وسلك فى سبيل الجمع الخطة المثلى ، فما كان ليعتمد على حفظه ، وإنه لحافظ ، ولا على حفظ من استعان بهم ، وإنهم لحفاظ أمناء ولكنه كان لا بد أن يعتمد على أمر مادى ، يرى بالحس لا يحفظ بالقلب وحده ، فكان لا بد أن يرى ما حفظه مكتوبا فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن يشهد شاهدان بأنهما هكذا رأوا ذلك المكتوب فى عصر النبى

صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبإملائه عليه الصلاة ، وقد تتبع القرآن بذلك آية آية ، لا يكتب إلا مارآه مكتوبا عن النبي عليه السلام فى عهده ، ويشهد شاهدان أنهما هكذا رأيا ذلك المكتوب فى عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ونقلاه ، أو يرى ذلك المكتوب عند اثنين ، فهو شهادة كاملة منهما ، وقد حصل على القرآن كله مكتوبا بنصاب الشهادة فى عصر النبي عليه السلام ، فما كان إلا أن نقل المكتوب فى عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنه وجد آيتين لم يشهد أثنان بأنهما كتبتا فى عصر النبي صلى الله تعالى ، بل شهد واحد فقط ، وهو خزيمه بن ثابت الأنصارى وهو قوله تعالى : «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم» لم يجدهما إلا عند خزيمة ، وقد قال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تكريماً له شهادتك باثنين .

وروى أنه لم يجد آية أخرى إلا خزيمة ، وهى قوله تعالى : «من المؤمنين رجال صدقوا ما عهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ؛ ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » .

هذا هو السلك الذى سلكه المؤمن الحافظ الذى اختاره أبو بكر لحمل التبعة مع من اختار ولنترك الكلمة له ، أى لزيد فهو يشير إلى ما سلكه فهو يقول فيما رواه البخارى : « قمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والاكتاف والعسف وصدور الرجال، حتى وجدت آيتين من سورة التوبة مع خزيمة الأنصارى ، لم أجدهما مع غيره « لقد جاءكم رسول من أنفسكم

والآية الأخرى التى لم يجدها إلا عند خزيمة أيضا جاء فيها عنه فى رواية البخارى أيضا : وعن زيد بن ثابت لما نسختنا فى المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله تعالى عليه وسلم يقرؤها ، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصارى الذى جعل الله تعالى شهادته

بشهادة رجلين «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه[١]». وقد علق على ذلك القرطبي فكانت الأولى من سورة براءة فى الجمع الأول على ماقاله البخارى والترمذى وفى الجمع الثانى فقدت آية من سورة الأحزاب .

وهذا يدل على أن الجمع الثانى اتبع فيه ما اتبع فى الجمع الأول بالبحث عن الآيات مكتوبة فى عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وأن يشهد اثنان بكتابتها فى عصره، أو توجد عند اثنين ، فوجودها عندهما شهادتان، والجمع الثانى كان فى عهد عثمان .

ولكن قد يسأل سائل ، لماذا كان نصاب الشهادة كاملا فى الجمع الذى حدث فى عهد أبى بكر ، ثم لم يوجد النصاب فى بعض الآى عند الجمع الثانى؟ نقول إن فرض ذلك يتحقق بغياب أحد ركنى النصاب عن المدينة، أو موته ولكن الله تعالى حافظ كتابه فى هذا الوجود كوعده بحفظه وإنه منجز ماوعد : «إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون[٢]» ، ولذلك كان الشاهد فى الثانى هو الشاهد فى الأول ، وهو خزيمة الأنصارى الذى جعل النبي صلى الله عليه وسلم شهادته باثنين، فالنصاب كان كاملا .

١٢ — ولا نترك الكلام فى هذا العمل الجليل الذى اشترك فيه أبو بكر وعمر ، وحمل عبئه زيد بن ثابت مع جمع من المهاجرين والأنصار . ، من غير أن نقرر حقيقتين ثابتتين ، تدلان على إجماع الأمة كلها على حماية القرآن الكريم من التحريف والتغيير والتبديل وأنه مصون بصيانة الله سبحانه وتعالى له، ومحفوظ بحفظه ، وإلهام المؤمنين بالقيام عليه وحياطته .

الأولى — أن عمل زيد رضى الله عنه لم يكن كتابة مبتدأة ، ولكنه إعادة لمكتوب ، فقد كتب كله فى عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،

---

(١) الأحزاب : ٢٣ .　　(٢) الحجر : ٩ .

وعمل زيد الابتدائى هو البحث عن الرقاع والعظام التى كان قد كتب عليها والتأكد من سلامتها ، بأمرين بشهادة اثنين على الرقعة التى توجد فيها الآية أو الآيتان أو الآيات ، وبحفظ زيد نفسه وبالحافظين من الصحابة ، وقد كانوا الجم الغفير والعدد الكبير ، فما كان لأحد أن يقول إن زيداً كتب من غير أصل مادى قائم ، بل إنه أخذ من أصل قائم ثابت مادى .

وبذلك نقرر أن ما كتبه زيد هو تماما ما كتب فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه ليس كتابة زيد ، بل هو ما كتب فى عصره عليه الصلاة والسلام ، وما أملاه ، وما حفظه الروح القدس .

وإذا كان ما كتبه عثمان من بعد ذلك قد قوبل بما كتب فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فالمصحف العثمانى الذى بقى بخطه إلى اليوم هو مطابق تمام المطابقة لما كتب فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه يجب ألا يخرج عنه قارىء فى قراءة بزيادة حرف أو نقص ، قد تكون القراءات متغيرة فى أصوات المقروء وأشكال النطق ، ولكن لا يمكن أن تكون متغيرة بزيادة أو نقص ، فذلك هو الخروج عن الرسم الذى وضع فى عصر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بإقراره عليه الصلاة والسلام .

الأمر الثانى — أن عمل زيد لم يكن عملا آحاديا ، بل كان عملا جماعياً من مشيخة صحابة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ذلك أن زيداً بطبيعة عمله أعلن بين الناس ما يريد ، ليأتيه كل من عنده من القرآن ما هو مكتوب بما عنده ، وقد علموا مقدار ما ينبغى لكتاب الله من عناية ، فذهبوا إليه وذهب إليهم ، وتضافر معه من كانوا يعاونونه غير مدخرين جهداً إلا بذلوه فى عناية المؤمن بكتاب الله تعالى الذى يؤمن به .

ولما أتم زيد ما كتب ، تذاكره الناس ، وتعرفوه وأقروه ، فكان المكتوب متواتراً بالكتابة ومتواتراً بالحفظ فى الصدور ، وما تم هذا

لكتاب فى الوجود غير القرآن ، ولا يهمنا أن يقر ذلك المعاندون أم لا يقروه فذلك إيماننا ، والحجة القاطعة لا يضيرها ارتياب فى غير موضعه ، بل الحقائق ناصعة ، والبينات قائمة ثابتة ، وهى فى حكم البدهيات القاطعة ، ومن يرتاب فى أمر عقلى لا ريب فيه ، فهو يضل نفسه ، ولا يضر غيره ، والحق أبلج ، والباطل لجلج ، إذن فلا عجب فى أمر المعاندين الضالين .

إنما العجب كل العجب فى أمر الذين يضلون فى طلب الحق ، فيتيهون فى ظلمات الروايات المدسوسة المكذوبة ولا حول ولا قوة إلا بالله .

جمع القرآن فى عهد عثمان أو الأحرف السبع

١٣ — جمع القرآن كله فى عهد الشيخين أبى بكر وعمر ، وقد أودعه عمر حفصة أم المؤمنين ، ليكون مصونا يرجع إليه لا ليتلى منه ، فالتلاوة استمرت كما كانت فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تتلقى من أفواه الرجال مرتلة ، كما تلقوها عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليبقى القرآن محفوظا فى صدور المؤمنين بنصه وتلاوته .

وإن النص المكتوب واحد ، لا تغير فيه ، وهو يحتمل عدة قراءات ، وقد ذكروا أن القراءة المتواترة لا تكون مقبولة إلا إذا كانت موافقة للنص المكتوب غير زائدة ، ولا ناقصة ، فهى شاملة للقراءات كلها .

ولقد أجيز فى أول نزول القرآن أن يقرأ على لغات سبع من لهجات العرب كلها يمنيها ونزارها ، لأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لم يجهل شيئاً منها . ولذلك روى البخارى أن القرآن نزل على سبعة أحرف نسخت ست وبقيت واحدة ، وروى مسلم عن أبى بن كعب أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان عند أضاءة بنى غفار (وهو غدير صغير عندهم) فأتاه جبريل عليه السلام فقال له : إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرف ، فقال : أسأل معافاته ومغفرته ، وإن أمتى لا تطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية فقال إن الله

يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرفين ، فقال : أسأل الله تعالى معافاته ومغفرته ، وإن أمتى لاتطيق ذلك ، ثم جاء الثالثة فقال إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على ثلاثة أحرف . فقال أسأل الله تعالى معافاته ومغفرته ، وإن أمتى لاتطيق ذلك ، ثم جاء الرابعة ، فقال : إن الله تعالى يأمرك أن تقرىء أمتك على سبعة أحرف ، فأيما حرف قد قرءوا عليه فقد أصابوا ، وروى الترمذى عن أبى بن كعب ، قال لقى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جبريل فقال « يا جبريل إنى بعثت لأمة أمية منها العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لا يقرأ كتاباً قط ، فقال لى : يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف وهذا حديث صحيح .

وقد قال القرطبي فى كتابه الجامع الكبير لأحكام القرآن : « ثبت فى الأمهات البخارى ومسلم والموطأ وأبى داود والنسائى وغيرها من المصنفات والمسندات قصة عمر مع هشام بن حكيم ، وهو الذى صرح فيه بأن عمر سمع هشاما يقرأ بحروف لم يسمعها ، فأخذه إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأقر ما قرأ هشام ، وأقر ماقرأ عمر ثم قال . « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » .

١٤ — وإننا إذا تأملنا ما جاء فى هذه الأخبار الصحاح ننتهى إلى أن العرب ما كانت تطاوع ألسنتهم حرف القرآن ، ففيهم الرجل الشيخ والمرأة العجوز اللذان جمد لسانهما على لهجتهما فلا يطاوعهما على النطق الصحيح بلهجة لم يعرفوها ، ولم يلوكوها من قبل ، فكان لابد أن تمرن ألسنتهم أمداً على لغة القرآن حتى تلين وتألف النطق بكلماته على اللغة التى بقيت.

وتفسير الأحرف باللهجات أو لغات العرب ما بين مضرية وربعية ونزارية وقرشية وغيرها هو التفسير الذى اختاره ابن جرير الطبرى ، وكثيرون من الرواة ، وهو الذى يتفق مع النسق التاريخى فى الجمع الذى اضطر ذو النورين عثمان رضى الله تعالى عنه لأن يقوم به ، وارتضاه

الصحابة ، وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه لو كنت مكانه ما عملت إلا ما عمل .

ولقد ذكر القرطبى أن هذه الأحرف باقية فى القرآن لم ينسخ منها حرف ، ولكنى أرى أن النسق التاريخى الذى أشرنا إليه من قبل يوجب أن يكون حرف واحد قد بقى ، وهو لغة قريش ، وهو الذى كتب عثمان مصحفه عليه ، وكان من قبل مكتوباً عليه كما سنبين أنه لم يأت قط بما يخالف المصحف المحفوظ عند أم المؤمنين حفصة عند ما قابله به .

وقبل أن ننتقل إلى ما فعل الإمام عثمان رضى الله تبارك وتعالى عنه لا بد أن نذكر حقيقتين دل عليهما المأثور عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والسياق التاريخى :

أولهما — أن الذى كتب فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يعتره تغيير ، ولم تجر عليه الحروف السبعة ، وأن الحروف السبعة كانت فى قراءة القرآن ، لا فى كتابته. وأن استئذان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان فى القراءة لا فى الكتابة .

ثانيهما — أن استئذان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان ليسهل على أمته حتى تلين ألسنتهم ، وتستقيم على النطق باللغة التى اختارها الله تعالى لقرآنه المنزل من عنده وهو العليم ، وهى لغة قريش فى جل ما أنزل الله تعالت كلماته ، فكانت لغة قريش لغة الأدب فى الجاهلية والإسلام فكان من منطق الحوادث أن يكون أعلى الكلام ينزل فى ثوب أعلى اللغات العربية إذ كانت لغة الشعر والأدب .

١٥ — ولننتقل بعد ذلك إلى جمع ذى النورين عثمان رضى الله عنه ، ومكانه من جمع الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما ، وجزاهما عن الإسلام خيراً .

تفرق الصحابة من المهاجرين والأنصار ، وقد كان عمر رضى الله تبارك

وتعالى عنه آخذاً بحجزات الصحابة وخصوصاً كبارهم يمنعهم من مغادرة الحرمين ، فاختلف الناس فى القراءة ، ومنهم من كان يقرأ بالقراءات أو اللغات المختلفة التى ما كانت القراءة بها إلا ترخيصاً مؤقتاً حتى تلين الألسنة إلى لغة القرآن ، وإنها لواحدة ، وإن اختلفت القراءات المتواترة فى ظلها ما بين حذف للهمزة فى النطق ، وإن كانت باقية فى مصحف عثمان تقرأ فيه مثبتة وغير مثبتة كالأرض ، والارض ومن اختلاف فى الشكل يدل فى كل شكل على معنى صحيح يصلح أن يكون مقصوداً فى القرآن ، ويكون الجمع صحيحاً ، مثل أنفسكم « بضم الفاء » ، وأنفسكم « بفتحها » ، ومثل فتبينوا بالباء بعد التاء ، والثاء بعد التاء وبعدها باء ثم تاء .

وما كان اختلاف القراء فى الأمصار فى عهد عثمان فى هذه القراءات المشهورة بيننا الآن إنما كان الاختلاف فى اللغات التى كان مرخصا بها ، فمنهم من لم يعلم نسخها ، عند قراءة جبريل للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى العرضات الأخيرة .

لقد اشتد الأمر فى ذلك ، وعظم اختلافهم وتشبث كل فريق بما يقرأ ، زاعماً أن غيره هو الباطل الذى لاريب فيه ، ووقع الخلاف بين أهل العراق وأهل الشام عند ما اجتمعوا فى غزوة أرمينية ، فقرأت كل طائفة بما روى لها ، وتنازعوا أمرهم بينهم ، وأظهر بعضهم تكفير بعض ، وتبرأ بعضهم ، وكان معهم حذيفة بن اليمان كما ذكر البخارى والترمذى وقد ذكرا أن حذيفة عند ما آب من هذه الغزوة دخل إلى عثمان قبل أن يدخل إلى أهله فقال : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك . قال عثمان : فيماذا ؟ قال فى كتاب الله ، إنى حضرت هذه الغزوة ، وجمعت ناساً من العراق والشام والحجاز ، ووصف له ما كان من الاختلاف والتكفير ، وقال إنى أخشى عليهم أن يختلفوا فى كتابهم ، كما اختلف اليهود .

أفزع هذا الأمر عثمان التقى ، كما أفزع المؤمنين الذى علموا ذلك النبأ الخطير . ولكن الفزع لم يوهن العزيمة بل شحذها ، ولم يضعف الإرادة بل حفزها ، وكانت عزمة ذى النورين عثمان .

لقد أحضر النسخة المحفوظة عند أم المؤمنين حفصة لتكون الإمام الذى يحتكم إليه فيما هو مقدم عليه ، وجمع من الصحابة الحافظين الكرام بضعة على رأسهم زيد بن ثابت الجامع الأول ، والثقة الثبت الذى كان له فضل التثبت فى كل كلمة وآية .

وقد قال له عثمان رضى الله تعالى عنه عند ما ندبه لذلك العمل الجليل إنى مدخل معك رجلا فصيحا لبيباً فاكتباه ، وما اختلفتما فيه فارفعاه إلىّ فجعل معه إبان وسعيد بن العاص ، فلما بلغا فى الكتابة قوله تعالى « إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم [1] » قال زيد فقلت التابوه وقال سعيد بن العاص التابوت فرفعنا الأمر إلى عثمان ، فكتب التابوت .

وكان جملة من ضمهم إلى زيد ثلاثة هم عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص الذى ذكرناه وعبد الرحمن بن الحارث ، وقال لهـذا الرهط من قريش ما اختلفتم فيه أنتم وزيد ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه نزل بلسانهم .

ويظهر أن سيدنا عثمان لم يكتف بهؤلاء الأربعة ، بل كان يضم إلى معاونتهم من يكون عنده علم بالقرآن يعاونهم فى كتابته ، ولقد روى ابن عساكر أن عثمان دعا إلى هذه المعاونة فقال إن عثمان خطب يومئذ فى الناس وعزم على كل رجل عنده شىء من كتاب الله لما جاء به ، ويقول ابن عساكر فكان الرجل يجىء بالورقة والأديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة ، ثم دعاهم رجلا رجلا ، فناشدهم : أسمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو أملاه عليك ، وهكذا كان يتثبت فى الرواية ، كما كان التثبت من زيد

---

(١) البقرة : ٢٤٨ .

ومن معه ، والذى كتب المصحف الأول الذى أودع أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها وعن أبيها فاروق الإسلام .

وقد أتم زيد ومن معه جمع القرآن ، ولكن عثمان لا يكتفى ، بل إنه يسير فى الاستيثاق إلى أقصى مداه ، فيحضر مصحف أم المؤمنين حفصة ، ويعرض المصحف الجديد ، فيجدهما يتوافقان تمام التوافق ، لا يزيد أحدهما عن الآخر حرفاً ولا ينقص عنه ، حتى لقد فهم بعض العلماء أن جمع عثمان كان نسخاً لما جاء فى الصحف المحفوظة عند أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها وعن أبيها الفاروق ، وجاء ذكر ذلك فى بعض الروايات تسامحاً ، ولكن الحقيقة أنه ما كان نسخاً ، بل قام بالتحريات كلها ، حتى جمع ما جمع ، وكان التوافق الكامل الذى بذل دلالة قاطعة على صدق الجمعين ، وعلى تواتر القرآن الكريم مكتوباً ، ومحفوظاً وبذلك حفظه الله تعالى وصانه .

ولقد قال الطبرى إن الصحف التى كانت عند حفصة جعلت إماما فى هذا الجمع الأخير ، ويقول القرطبي « هذا صحيح » ومعنى صحته أنه بعد الجمع قام به زيد بأمر عثمان ، وعاونه المؤمنون الحافظون قد روجع على مصحف حفصة ، رضى الله عنها وكانت هى المقياس لصحته ، فبالمقابلة بينهما بعد الجمع تبينت صحتهما بصفة قاطعة ، لا ريب فيها . فكانت هذه الإمامة ، حتى ظن أنه نسخ منها .

١٦ — ويلاحظ أمران - أولهما : أن عثمان رضى الله عنه كان غرضه من إعادة جمع المصحف هو أن يكتبه على حرف واحد من الحروف السبعة أى اللهجات واللغات السبع فما كان جمعه إلا لإثبات الحرف الباقى الذى روى مكتوباً عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليجتمع عليه المسلمون ، ولا يكونوا متفرقين ، وأن يكون ذلك موافقاً للمكتوب فى عهد الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم .

جاء فى القرطبي « قال كثير من علمائنا كالداودى ، وابن أبى صفرة هذه القراءات السبع التى تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هى الأحرف السبعة التى اتسعت الصحابة فى القراءة بها ، وإنما هى راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذى جمع عليه عثمان ، ذكره ابن النحاس وغيره » .

الأمر الثانى : أن عثمان رضى الله تبارك وتعالى عنه حسم مادة الفتنة بذلك الجمع ، وعمل ما كان ينبغى أن يعمل . ولذلك نسخ من هذا الذى جمعه نسخاً على قدر الأقاليم العربية ، فأرسل إلى كل إقليم نسخة كانت هى الأصل لهذا الإقليم ، فأرسل إلى مصر ، وإلى الشام . وإلى مكة واليمن والبحرين والبصرة ، والكوفة ، وحبس بالمدينة مصحفاً كان هو الإمام لكل هذه النسخ ، وهو المرجع الأول فى الدولة ، ترجع إليه كل المصاحف ، وهو الحاكم عليها .

وإذا كان هو الأصل لكل هذه المصاحف فيجب القول بأنه لا اختلاف بينها لأنه الحكم ، وأنها صور لنسخة واحدة ، ويلاحظ أن الإمام العظيم عثمان قد كتب المصحف خالياً من النقط والشكل ، كما كان المصحف الموجود عند حفصة خالياً من النقط والشكل ، ولم يكن نقط وشكل إلا بعد ذلك .

ولكن لماذا خلا من ذلك ؟ والجواب عن ذلك أن القرآن له قراءات مختلفة هى سبع قراءات ، وليست هى الحروف كما ذكرنا من قبل ، ولكى يكون المكتوب محتملا لهذه القراءات المروية بطرق متواترة كلها كان لا بد أن يكون غير منقوط ولا مشكول ، كما ذكرنا فى اختلاف القراءة فى أنفسكم وكما ذكرنا فى اختلاف القراءة فى فتبينوا . وما كان يمكن أن يحتمل النص القراءتين إذا كان منقوطا ومشكولا .

ومن جهة أخرى آن الأساس فى تواتر القرآن هو الحفظ فى الصدور لا فى السطور، حتى لا يعتريه المحو والإثبات فلو كان القرآن منقوطا ومشكولا لااستغنى طالب القرآن عن أن يقرئه مقرىء، فلا يكون التواتر الصحيح الذى يقتضى الإجازة ممن أقرأه، ولقد جاء التحريف فى الكتب الأخرى لاعتمادها على المكتوب فى السطور . لا المحفوظ فى الصدور .

ومن جهة ثالثة إن ترتيل القرآن، كما أثرعن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لابد منه كما قال تعالى: «ورتلناه ترتيلا» [1] وإن ذلك لايتم إلا إذا كان القرآن يقرأ على مقرىء يجيزه حفظاً وقراءة وترتيلا .

١٧ — وإن الرواية الصحيحة بينة مستقيمة لامجال للشك فيها، وهى تدل على أمور ثلاثة قطعية فى ثبوتها وهى :

أولا — على أن النص الذى كان عند حفصة، هو النص المكتوب فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو ذاته النص المكتوب فى مصحف عثمان رضى الله عنه، فلا يصح الزيادة عليه ولا يصح النقص .

ثانياً — على أن القرآن كتب بلغة قريش، وهى الحرف الذى استقرت القراءة عليه، وما كان الترخيص بالقراءة بالحروف الأخرى إلا مؤقتاً حتى تطوع الألسنة لحرف قريش، ولقد جاء فى القرطبى : «إن القرآن نزل بلغة قريش معناه عندى فى الأغلب والله أعلم ؛ لأن غير لغة قريش موجود فى صحيح القراءات من تحقيق الهمزة ونحوها، وقريش لاتهمز» .

ومؤدى هذا الكلام أن الألفاظ والأساليب والمنهج القرآنى أنزل على لغة قريش، ولكن الحركات التى تعترى بنية الكلمة من همز أو إمالة أو نحو ذلك جاء على لهجات من غير قريش ورويت كلها عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

---

(١) الفرقان : ٣٢

ثالثها — أن مصحف عثمان رضى الله تبارك وتعالى عنه يجب أن تكون كل قراءة قرآنية متفقة مع نصه ، وأن الشك فيه كفر ، وأن الزيادة عليه لاتجوز ، وإنه القرآن المتواتر الخالد إلى يوم القيامة .

١٨ — إذا كانت هذه حقائق ثابتة تواترت فى الأجيال ، فلماذا كانت الروايات الغريبة البعيدة عن معنى تواتر القرآن الكريم التى احتوتها بطون بعض الكتب كالبرهان للزركشى ، والإتقان للسيوطى التى تجمع كما تجمع حاطب ليل يجمع الحطب والأفاعى مع أن القرآن كالبناء الشامخ الأملس الذى لا يعلق به غبار ؟

قد أجاب عن ذلك الكاتب الكبير المسلم المرحوم مصطفى صادق الرافعى[1] ، فقال فى كتابه إعجاز القرآن « ونحن ما رأينا الروايات تختلف فى شىء من الأشياء فضل اختلاف ، وتقسم فى الرد والتأويل كل طريق وعر ، كما رأينا من أمرها فيما عدا نصوص ألفاظ القرآن ، فإن هذه الألفاظ متواترة إجماعاً ، لا يتدارأ فيها الرواة من علامتهم ، ومن نزل ، وإنما كان ذلك لأن القرآن أصل الدين ، وما اختلفوا فيه إلا من بعد اتساع الفتن ، وحين تألب الأحداث ، وحين رجع بعض الناس من النفاق إلى أشد من الأعرابية الأولى ، وزاغ أكثرهم عن موقع اليقين من نفسه فاجترءوا على حدود الله تعالى ، وضربتهم الفتن ، والشبهات ، مقبلا بمدبر ، ومدبراً بمقبل ، فصار كل من نزع إلى الخلاف يريد أن يجد من القرآن ، ما يختلف معه ، أو يختلف به ، وهيهات ذلك ، إلا أن يتدسس فى الرواية بمكروه يكون معه التأويل والأباطيل ، وإلا أن يفتح الكلمة السيئة ، ويبالغ فى الحمل على ذمته ، والعنف بها فى أشياء لاترد إلى الله ولا إلى الرسول ، ولا يعرفها الذين يستنبطون من الحق ، بل لا يعرفون لها فى الحق وجهاً . . ونحسب أن أكثر هذا مما افترته الملحدة ، وتزيدت به الفئة

---

(١) توفى سنة ١٩٣٧م .

الغالية ، وهم فرق كثيرة يختلفون فيه بغياً بينهم ، وكلهم يرجع إلى القرآن بزعمه ، ويرى فيه حجته على مذهبه ، وبينته على دعواه ، ثم أهل الزيغ والعصبية لآرائهم بالحق والباطل ، ثم ضعاف الرواة ممن لا يميزون ، أوممن تعارضهم الغفلة فى التمييز . . وذلك سواد كله ظلمات بعضها فوق بعض ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور [1] .

وإن ذلك الذى ذكره الكاتب الإسلامى الكبير حق لاريب فيه ، فإن هذه الروايات التى جمعها من لا يفرق بين الحابل والنابل ، وبين الحطب والأفعى ، إنما كانت بعد الفتن ، ولعل للإسرائيليات دورها الخفى المسموم وأن الذين تولوها غلاة الفرق ، والرواة الذين لا يميزون أو يغفلون مالا يدركون .

ألم تر إلى أولئك الغلاة يطعنون فى عثمان رضى الله عنه ، ويجعلون من أسباب الطعن ، أنه جمع المصحف وجعل له إماماً ، عند مارأى الاختلاف قدتفاقم، وأنه جمعهم على ما كتب فى عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. ورأى على رضى الله عنه مثيرى الفتنة بعد مقتل الشهيد عثمان ، فقال رضى الله عنه وكرم الله وجهه : «يا معشر الناس اتقوا الله ، وإياكم والغلو فى عثمان وقولكم حرق المصاحف، فوالله ما حرقها إلا على ملأ منا أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم — وروى عن عمر بن سعيد أنه قال : «قال على بن أبى طالب : لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت مثل الذى فعل عثمان.

تحريق غير المصحف الإمام وغير ما نسخ منه

١٩ — كانت الفتنة قد بلغت ذروتها وخب فيها الذين يريدونها ، ووضعوا ،وكان قد دخل فى الإسلام الذين يريدون أن ينتقموا منه لدولهم التى غزاها نور الإسلام ، وانفتح فى قلوب الأكثرين باب الهداية ،

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ٤٢ .

ووجدوا فى القرآن السبيل إلى ما أرادوا أن يهدموه وهو الإسلام، ليقتلعوه من جذوره، ويأتوه من قواعده، فجاءوا من القرآن عماده، ونور الله المبين، وحبله المتين.

وكان السبيل إحياء الأحرف التى نسخت، فاندسوا بين المسلمين يحيون المقبور، ويروجون المهجور، ويبثون روح الشك والريب فيما هو متواتر ثابت.

وقد انبرى لهم ذو النورين، واجتث شرهم، فجمع المصحف الإمام على الطريق المأمون الذى كان مستوثقاً غير متظنن، ومتأكداً غير متشكك فكان ما كتب فى عهده هو عين ما كتب فى عهد الشيخين أبى بكر وعمر، وما كتب فى عهد الشيخين هو عين ما أملى فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وما حفظه أصحابه فى صدورهم.

حتى إذا تم له ما احتسبه عند الله على ملأ من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذين شاهدوا وعاينوا واتبعوا عن بينة، وفيهم الكثيرون ممن حفظوا القرآن كله كعلى كرم الله وجهه، ومعاذ بن جبل، فكان التواتر الكامل والصيانة الكاملة والاستحفاظ على كتاب الله تعالى.

فلم يبق إلا أن يزيلوا غيره من المصاحف، لأنها كتبت بغير حرف قريش أو به وبحروف أخرى، فأحرقها جميعا، ولم يبق إلا المصحف الإمام وما نسخ منه، فلا يرجع إلى سواه، ولا يعتمد على غيره، ولو بقيت مصاحف غيره، لكان الاحتجاج بها، ولعادت الفتنة جذعا، وكان التشكيك والريب، وقد حفظ الله تعالى كتابه.

حرق عثمان المكتوب كله، ولم يبق منه شيئاً، ورد إلى السيدة أم المؤمنين حفصة المصحف الذى كان مودعا عندها، والذى كان إماما لمصحف عثمان، كما قرر بحق ابن جرير الطبرى، وقد رده إليها لموعدة وعدها إياها فوفى بوعده، ولكنها لما توفيت أمر عبد الله بن عمر أن يحرق

المصحف الذى كان عندها ، وروى أنها توفيت رضى الله عنها فى عهد معاوية ابن أبى سفيان ، وأن الذى حرق المصحف الذى عندها والى المدينة مروان ابن الحكم ، ومهما يكن اختلاف الرواية فى تاريخ وفاتها ، فإن عثمان رضى الله عنه قد قرر أن يحرق بعد وفاتها .

وهنا يسأل المؤرخ إذا حرق عثمان المصاحف الأخرى لما أثارته من فتنة ، ولأنه كان فيها حروف أخرى غير حرف قريش فلماذا قرر حرق المصحف الذى عند حفصة ، وقد كان إمام مصحفه ، والمرجع الذى وزن به صحة ما كتب فى عهده ، حتى إنه قيل إن المصحف الذى كتب فى عهده قد نسخ منه نسخاً ؟

ونقول فى الجواب عن ذلك إن المصحف أودع حفصة رضى الله عنها وعن أبيها لأنها كانت حريصة على أن يبقى عندها وما أراد الرجل الطيب عثمان أن يحرمها مما أرادت ، فأعاده إليها ، ولكنه الحريص على القرآن خشى أن يقع فى يد أحد ، فيمحو فيه ويثبت ، ويقول قد غير ما عندكم ، وها هوذا الأصل ، فاحتكموا إليه ، ويكون صالحاً للاحتكام ، فأمر أن يحرق بعد وفاتها ، وما أبقاه عندها فى حياتها إلا مرضاة لها ، فاحتاط للقرآن ، وما أعنتها ، رضى الله تعالى عن ذى النورين بما صنع ، وأكرمه فى مثواه ، ورضى عنه وأرضاه .

ترتيب الآيات والسور

٢٠ — أجمع العلماء على أن الآيات رتبت بتنزيل من الله تعالى ، فكانت الآية إذا نزلت يقول عليه السلام لكاتبه ولصحابته ضعوها فى موضع كذا من سورة كذا ، وتكون لفقاً مع التى وضعت بجوارها ، وتكونان نسقا بيانيا، هو الإعجاز ، وإنه يدل على وحدة المنزل وهو الله سبحانه وتعالى ، وإن الآيات المكية كانت توضع فى السور المكية ، والمدنية كانت كذلك توضع فى المدنية، إلا بعض آيات مدنية وضعت فى سور مكية ونبه إليها.

على ذلك انعقد الإجماع ، وكانت العرضة الأخيرة التى قرأ فيها النبي على جبريل بترتيب الآيات ذلك الترتيب ، ومن أنكر ذلك أو حاول تغييره فقد أنكر ما عرف من الدين بالضرورة، وخرج عن إطار الإسلام، وحاول التغيير والتبديل ، فتلك الدعوات المنحرفة التى تدعو إلى ترتيب القرآن على حسب النزول ، أو على حسب الموضوعات هى خروج على الإسلام ، يبثه بعض الذين لا يرجون للإسلام وقاراً ، إذ يجعلون القرآن عضين ، ويخالفون التنزيل ، ويعارضون الوحى ، وذلك خروج عن الإسلام .

هذا ترتيب الآيات ، أما ترتيب السور فإنه من الثابت أن المصحف الإمام كان على هذا الترتيب ، وقالوا إنه ما ارتضاه زيد بن ثابت ، ووافقه عليه الشيخان أبو بكر وعمر وصحابة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وذو النورين عثمان وهو المتبع ، فلا يغير ولا يبدل ، وقد قيل إن بعض الصحابة كان له مصحف بغير هذا الترتيب ، فكان لأبى مصحف ، وكان لعلى كرم الله وجهه مصحف ،وقد نقل ابن النديم فى الفهرس أنه كان على حسب ترتيب النزول ، وأنه ابتدأ بقوله تعالى « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق» وهى أول آية نزلت .

ولكن العرضة الأخيرة من جبريل كان على هذا الترتيب ، البقرة ثم آل عمران على ما والاها .

ولقد جاء فى الجامع الكبير للقرطبي ما نصه « ذكر ابن وهب فى جامعه : قال سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يسأل ، لم قدمت البقرة وآل عمران ، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة ، وإنما نزلتا بالمدينة . فقال ربيعة ، قد قدمتا وألف القرآن على علم ممن ألفه ، وقد اجتمعوا على العلم بذلك ، فهذا مما ينتهى إليه » .

قال ابن مسعود : « من منكم كان متأسياً ، فليتأس بأصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، وأقومها هدياً ، وأحسنها حالا ، اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإقامة دينه ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » .

ولقد قال الإمام مالك رضى الله تعالى عنه ، إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وذكر أبو بكر الأنبارى كما نقل عنه القرطبي : « أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا ، ثم فرق على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى عشرين سنة ، وكانت السورة تنزل ، والآية جوابا لمستجيب يسأل ، ويقف جبريل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على موضع السورة والآية ، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف ، فكله عن محمد خاتم النبيين عليه السلام من رب العالمين ، فمن أخر سورة مقدمة أو قدم أخرى ، فهو كمن أفسد نظم الآيات ، وغير الحروف والكلمات ، ولا اعتراض على أهل الحق فى تقديم البقرة على الأنعام ، والأنعام نزلت قبل البقرة ، لأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ عنه هذا الترتيب ، وهو كان يقول : « ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن ، وكان جبريل عليه السلام يقفه على مكان الآيات » .

ومن هذه الروايات المختلفة المؤتلفة المجمعة على أن ترتيب السور بتوقيف يتبين أن المصحف الإمام هو الذى يصور العرضة الأخيرة للقرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

ولكن ماذا يقال عن الروايات التى جاءت بأنه كان لأبى مصحف بغير هذا الترتيب ، ولعلى رضى الله عنه وكرم الله وجهه مصحف كان بترتيب النزول ؟ لنا فى الإجابة عن ذلك السؤال طريقان :

أولهما — أن نعتبر ما عليه الكثرة الكاثرة التى تكاد تكون إجماعا يؤخذ به ، ويكون ذلك الإجماع دليلا على ضعف ماعداه وأنه لا يؤخذ به لعدم صحة السند .

ثانيهما — أننا نقول إن ذلك كان قبل العرضة الأخيرة ، وفى العرضة الأخيرة وضعت السور فى مواضعها ، وهذا ما اختاره القرطبي وغيره ، فقد قال : «أما ما روى من اختلاف مصحف أبى وعلى وعبد الله بن مسعود فإنما كان قبل العرض الأخير ، وإن رسول الله تعالى رتب لهم ترتيب السور بعد ، إن لم يكن فعل ذلك من قبل .

وننتهى من هذا إلى أن ترتيب السور كترتيب الآيات كان بوحى من الله العلى الحكيم .

قراءات القرآن

٢١ — يقرأ القرآن الكريم بقراءات مختلفة ، مختلفة فى حركات أواخر الكلمات أو فى بناء الكلمة ، أو فى الوقوف فى أواخر الكلمات ، أو فى الهمزات قطعاً ووصلا ، كهمزة الأرض ، فهى تقرأ موصولة ومقطوعة ، وهكذا ، وإنه يجب التنبيه فى هذا إلى أمرين :

أولهما — أن قراءات القرآن المتواترة ليست هى الأحرف السبعة كما ذكرنا ، بل إن الرأى القويم الذى انتهى إليه الباحثون كابن جرير [1] الطبرى وغيره إلى أن القراءات كلها تنتهى إلى حرف واحد ، وهو الذى كتب به المصحف المحفوظ عند أم المؤمنين حفصة وهو الذى جمعه عثمان بن عفان رضى الله عنه . وألزم به الأقاليم الإسلامية ، وهو مطابق تمام المطابقة

---

(١) توفى سنة ٣١٠ هـ

للمصحف الذى كتب فى عهد أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما ، وهو الذى حفظ فى بيت أم المؤمنين حفصة رضى الله تعالى عنها وعن أبيها الفاروق .

الأمر الثانى — أن هـذه القراءات تنتهى فى نهايتها إلى أنها من ترتيل القرآن الذى رتله الله سبحانه وتعالى ، وتفضل بنسبته إلى ذاته الكريمة العلية فقال تبارك وتعالى ، « ورتلنـاه ترتيلا »[1] فهى الأصوات التى أثرت عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإذا كان فيها موسيق ، إن صح لنا أن نقول عنها هذا التعبير ، فهى الأصوات القرآنية التى اتبعناها عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهى فى مدها وغنها ، وإهمازها ، وإهمال همزاتها ، وإمالتها وإقامتها ، أصوات القرآن المأثورة ، إذ أن القراءة سنة متبعة وإن اختلاف القراءات الصحيحة وكلها متواترة عن الصحابة الذين أقرأهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأعلمهم طرق الأداء التى تعلمها عن ربه ، كما يشير إلى ذلك ما تلونا من قبل ، وهو قوله تعالى : «لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه ، فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه[2] » .

فـكانت القراءة التى وعد الله تعالى ، نبيه عليه السلام ، هى الترتيل ، وهى تلك القراءات المأثورة عن صحابة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الذين تلقوها عن النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد رأيت أنه تلقاها عن ربه .

وهذه القراءات نجد الاختلاف فيها ، مع أنها تنتهى جميعاً إلى المورد العذب ، والمنهل السائغ وهو تلاوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم التى تلقاها عن ربه — ليس اختلاف تضاد فى المعانى ، أو اختلاف تباين فى الألفاظ بل يكون الاختلاف .

أولا — فى شكل آخر الـكلمات أو بنيتها ، مما يجعلها جميعاً فى دائرة العربية الفصحى ، بل أفصح هذه اللغة المتسقة فى ألفاظها ، وتآخى عباراتها ورنة موسيقاها ، والتواؤم بين ألفاظها ومعانيها .

---

(١) الفرقان : ٣٢ .
(٢) القيامة : ١٦ — ١٩ .

وثانياً — فى المد فى الحروف ، من حيث الطول والقصر ، وكون المد لازما أو غير لازم ، وكل ذلك مع التآخى فى النطق فى القراءة الواحدة فكل قراءة متناسقة فى ألفاظها من حيث البنية للكلمة ، ومن حيث طول المد أو قصره .

وثالثها — من حيث الإمالة ، والإقامة فى الحروف ، كالوقوف بالإمالة فى التاء المربوطة وعدم الإمالة فيها .

ورابعها — من حيث النقط ومن حيث شكل البنية فى مثل قوله تعالى : «يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين»(١) فقد وردت فيها قراءتان متواترتان ، فتبينوا وقراءة أخرى «فتثبتوا» ، وهما متلاقيتان ، فالأولى طالبت بالتبين المطلق ، والأخرى بينت طريق التبين ، وهو التثبت بتحرى الإثبات ، فإن لم تكن طرق الإثبات ، ولا دليل على القول ، فإنه يرد الكلام ، ولا يتمسك بما قيل متظننا فيها من غير دليل ، وكلتا القراءتين مروية بسند متواتر . لا مجال للريب فيه ، فكانت إحدى القراءتين مفسرة للأخرى .

وخامسها — زيادة بعض الحروف ، فى قراءة ، ونقصها فى أخرى ، مثل زيادة الواو فى قراءة . وزيادة من فى أخرى وهذه نادرة لم أرها إلا فى حالتين اثنتين ، فقط ، فقد ذكر ابن الجزرى إمام القراء المتأخرين المتوفى سنة ٨٢٣ هـ . إن ابن عامر ، وهو من القراء السبعة يقرأ «قالوا اتخذ الله ولدا»(٢) وقرأ غيره : «وقالوا اتخذ الله ولدا» وإن حذف الواو ثابت فى المصحف الشامى ، وكان ابن كثير يقرأ «تجرى من تحتها الأنهار» وقراءة غيرها تجرى تحتها الأنهار ، ومفهوم كلام ابن الجزرى أن القراءتين متواترتان ، وإن هذا يؤدى إلى أمر جوهرى ، وهو أن المصاحف فى هذا الموضع ليست نسخا متحدة اتحاداً كاملا منسوخة كلها من المصحف الإمام وهو المصحف

---

(١) الحجرات : ٦ (٢) يونس : ٦٨

الذى احتفظ به الإمام عثمان فى دار الخلافة ، وقد اتفقت الروايات على أنه لم يكن كالمصحف الشامى الذى كان على قراءة ابن عامر، لأن مصحف الشام خالف كل المصاحف فى نقص الواو ـ ومنها المصحف الإمام مصحف عثمان وبذلك يكون الرجوع لمصحف عثمان وما نقل عنه من المصاحف ، وهو المصحف المجموع فى عهد الشيخين أبى بكر وعمر وحفظ عند حفصة وهو أيضاً المتطابق مع المكتوب فى عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وكذلك الأمر فى زيادة (من) فى قراءة ابن كثير المتفق مع المصحف المكى ، وغيره من المصاحف ومنه المصحف الإمام على عدم زيادة من فى الآية التى زيدت فيها فى المصحف المكى .

وإن النتيجة لهذا أن نقول إن الأصل هو المصحف الإمام مصحف المدينة يقبل ما يتفق معه ،وينعقد الإجماع عليه ومالا يتفق معه ينظر فيه ، وربما كان رده أظهر ، لولا ما يقال من أن القراءة بالزيادة ليست آحاداً ولاشاذة ، بل متواترة .

ومن أجل ذلك حاول القرطبي التوفيق بين الزيادة ، وحذفها ، فقال : « وما وجد بين هؤلاء القراء السبعة من الاختلاف فى حروف يزيدها بعضهم ،وينقصها بعضهم ، فذلك لأن كلا منهم اعتمد على ما بلغه فى مصحفه ورواه ، إذ كان عثمان كتب تلك المواضع فى بعض النسخ ، ولم يكتبها فى بعض إشعاراً بأن كل ذلك صحيح وأن القراءة بكل منها جائزة .

رواة القراءات :

٢٢ — كانت القراءات معروفة فى عصر الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، وقد تلقوها جميعاً عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد ذكرنا أن مصحف الإمام عثمان والإمامين من قبله ، وما كتب فى عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،كان غير منقوط ولا مشكول لكى يحتمل القراءات

كلها ، ولكيلا يعتمد القارىء على المكتوب ، بل يتلقى المقروء بالتلقى ليصل السند إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد قال بعضهم إن الخط فى عصر النبي عليه السلام كان غير منقوط ولا مشكول ، لأن العربية لغة بيان وإفصاح وتعبير ، وانسجام بين ألفاظها ، وتآخ بين أساليبها ، فلا تعتمد على المكتوب بل على المقروء ونغماته ، وتآخى عباراته من غير تجافى اللفظ عن المعنى ، ولا المعنى عن اللفظ .

ولما أخذت العجمة تغزو اللسان العربى ابتدءوا بنقط القرآن وشكله فى عهد عبد الملك بن مروان من غير بعد عن القراءات ، ومن غير اعتماد على المكتوب ، بل يكون مع المكتوب ضرورة الإقراء من حافظ ، وبذلك أمكن اجتماع الشكل والنقط مع الرواية وتواتر القراءة ، وتعرف أوجه القراءات المنقولة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان فى الصحابة من يقرىء الناس ، ويعلمهم وجوه القراءات .

وقد اشتهر بإقراء الناس للقرآن ، وتعريفهم أوجه قراءاته طائفة من الصحابة قد احتجزوا عن الخروج إلى ميادين الفتح ، ليعلموا الناس ويفقهوهم فى دينهم ، ويقرئوهم القرآن الكريم .

ومن هؤلاء عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب فارس الإسلام احتجز عن الجهاد بالسيف ، ليكون له جهاد العلم والقرآن . وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود ، وأبو الدرداء .

وعن هؤلاء أخذ كثيرون من الصحابة والتابعون وأقرءوهم القرآن بوجوه القراءات ، وكلها يتفق مع المكتوب عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

ولما أخذ المقرئون للقرآن من الصحابة ينقرضون حمل التابعون ذلك العبء الكريم ، فقاموا بحقه ويظهر أن المقرىء كان يقرىء طالب القرآن

القراءات كلها ، ويختار منها ما يطوع له لسانه ، من غير اعوجاج ، فكان الصحابه وكبار التابعين يقرئون بالأوجه كلها ولكن يختار المستحفظ ما يقوى عليه لسانه .

وفى آخر عصر التابعين خلف من بعد قراء الصحابة والتابعين خلف طيب ، وجد التخصص فى قراءة من القراءات أولى من حفظ جميعها ، فإنه إذا كان ذلك فى طاقة الصحابة ومن داناهم من كبار التابعين ، فمن وراءهم دون ذلك ، إذ أخذت الطبيعة العربية تضعف عن حمل العبء كاملا ، فعنى من أفاضل القراء من صغار التابعين ، وتابعى التابعين برواية كل واحد منهم قراءة واحدة ليسهل عليه نطقها ورووها متواترة فكانت الرحال تشد إليهم يتلقون عنهم ، ويأخذون بما يقرئه كل واحد .

واشتهر من هؤلاء الذين خلفوا عهد الحفاظ من الصحابة الذين كانوا يقرئون الناس من صحابة وتابعين — اشتهر سبعة كانوا من بعد أئمة القراء .

وهم عبد الله بن عامر المتوفى سنة ١١٨ هـ ، وعبد الله بن كثير المتوفى سنة ١٢٠ هـ — وعاصم بن مهدله الأسدى المتوفى سنة ١٢٨هـ ، وأبو عمرو ابن العلاء شيخ الرواة المتوفى سنة ١٥٤هـ ، وحمزة بن حبيب الزيات العجلى المتوفى سنة ١٥٦هـ ، ونافع بن نعيم المتوفى سنة ١٦٩هـ ، وعلى بن حمزة الكسائى إمام الكوفيين المتوفى سنة ١٥٩ هـ وقراءات هؤلاء السبعة هى المتفق عليها التى نالت الإجماع ، ولكل واحدة منها سندها المتصل المتواتر ، وطريقه وهو محفوظ فى علم القراءات ، وأجمع المسلمون على التواتر فيها .

وقد ألحق علماء القراءات وأهل الخبرة فيها ثلاثة غيرهم صحت قراءتهم ، وثبت تواترها وهم أبو جعفر يزيد بن القعاع المتوفى سنة ١٣٢هـ ، ويعقوب ابن إسحق الحضرى المتوفى سنة ١٨٥ هـ وخلف بن هشام .

وقراءات هؤلاء بإضافتها إلى القراءات السبع تكون عشرة كاملة .

أقسام القراءات :

٢٢ — لا عبرة إلا بالقراءات المتواترة لأنها هى التى تتناسب مع تواتر القرآن ، وحفظه فى الأجيال إلى يوم القيامة ، وسد السبيل للريب ، فلا يأتيه فى أى ناحية من نواحيه ، لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ولأن الله تعالى قد وعد بحفظه فقال « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون[1] » والله تعالى لا يخلف الميعاد .

ولكن مع ذلك قرر علماء القراءات أن هناك ماروى بطريق الآحاد، وهناك الشاذ ، وإن كان الاثنان لم يبلغا درجة أن تكون معتبرة أو لائقة بالقرآن .

ولذلك قسموا القراءات إلى أقسام ثلاثة :

أولها — القراءات المتواترة ، وهى حجة فى التلاوة ، وليس لمؤمن بالقرآن أن ينكرها ، وإذا كان قد روى عن الزمخشرى[2] إنكار بعض القراءات أوردها مستنكراً لها ، فإن ذلك النوع ليس من القراءات المتواترة ، وما كان لمثل الزمخشرى فى علمه ومكانته وإيمانه أن ينكر متواترا ، والذين يستمسكون بمثل قوله ، لا يأخذون إلا بحبل واه ، يهوى بهم إلى نار جهنم ، لأنه رضى الله تبارك وتعالى عنه ، ما أنكر متواتراً ، ولكنهم يطيرون وراء كل ريح يحسبونها هادمة ، ولكن ما هم ببالغيه ، ودون ذلك دق أعناقهم .

وشروط القراءة المتواترة ثلاثة :

أولها — أن تكون موافقة للمصحف الإمام ، لأنه الأصل المعتمد عليه ، وهو المرجع ، وهو صورة صادقة للمكتوب فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيكون بالتزامه القرآن متواتراً قراءة ، وكتابة والله سبحانه وتعالى هو الحافظ له إلى يوم الدين :

(١) الحجر : ٩

(٢) توفى سنة ٥٣٨ هـ

الشرط الثانى : التواتر فى السند بأن يرويه جمع عن جمع حتى عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

الشرط الثالث : أن يكون موافقاً للمنهاج العربى الثابت فى اللغة ، وليس معنى ذلك أن تكون أقوال النحويين حاكمة على القرآن بالصحة ، فإنه هو الحاكم عليه ، وهو أقوى حجج النحويين فى إثبات ما يثبتون ، ونفى ما ينفون، ولكن معنى ذلك ألا يكون فيه ما يخالف الأسلوب العربى فى مفرداته وفى جمله وعباراته .

القسم الثانى : القراءة غير المتواترة ، وقد رويت بطريق الآحاد ، ولم تبلغ فى روايتها حد التواتر ، وهذه يكون رواتها عدولا ، لم يثبت عليهم ريبة اتهام فى قول أو عمل ، وهذه يقرأ القرآن بها ، وخصوصاً إذا وافقت المتواتر بشرط موافقتها للمصحف الإمام وهو متواتر فتكون فى معنى المتواترة ، وموافقتها للمنهاج العربى ، فلا يكون فيها ما يخالف المنهاج العربى .

والقسم الثالث : الشاذة وهى المخالفة للمصحف الإمام ، ولم تثبت بسند صحيح ، ولو بطريق الآحاد .

وإنى أرى ألا يقبل إلا المتواتر .

ويجب التنبيه إلى أمر وهو أن القراءات السبع المنسوبة للقراء السبعة قيل إنها لا تخلو من شاذ مرفوض ، وإن كانت فى جملتها مشهورة جاء فى كتاب إعجاز القرآن للمرحوم الكاتب الكبير مصطفى صادق الرافعى رضى الله عنه نقلا ما نصه :

«لا تخلو إحدى القراءات من شواذ فيها حتى السبع المشهورة ، فإن فيها من ذلك أشياء».

وازن بين هذا ، وبين القراءتين اللتين زيدت فى إحداهما واو ، وقيل إنها موافقة للمصحف الشامى .

وفى الأخرى من وقيل إنها موافقة للمصحف المكى .

فائدة وجوه القراءات :

٢٣ — إن القراءات كما ذكرنا هى ترتيل القرآن الذى علمنا الله تعالى إياه على لسان نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم إذ علمه ربه ونسب الترتيل إلى ذاته العلية ، فقال تعالى : « ورتلناه ترتيلا »[١] وأمر نبيه بهذا الترتيل هو ومن اتبعه فقال تعالت كلماته : « ورتل القرآن ترتيلا »[٢] فكانت القراءات التى نزل بها القرآن هى تصريف ذلك الترتيل وتنويعه وكما أن المعانى القرآنية صرفها الله تعالى من الاستفهام إلى التقرير ، ومن الاستنكار والتوبيخ إلى التهذيب والتأديب ، وكما صرف الله آياته كما قال تعالى : « وكذلك نصرف الآيات ، وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون »[٣] ، فقد صرف تلاوته وترتيله ، فكان الترتيل فى التأليف الصوتى ، والتناسق فى النطق ، وتنوع ذلك التناسق من ارتفاع ومد طويل ،إلى خفض ومد قصير ،مما يشبه التأليف الموسيقى ، وإن كان أعلى لأنه ليس من صنع البشر ، ويجد القارىء فى ذلك التنويع ما يجعله يترنم بالقرآن فى إجلاله ، وروعة بيانه ودقة معانيه .

وأمر ثان يبدو فى تنويع القراءات مع ثبوت تواترها وأنها عن الله العلى القدير ، نجد أن اختيار قراءة من القراءات فى المقام الذى تناسبه يكون توضيحا للمعنى ، ومناسباً المؤدى ، فمثلا قراءة الإمالة تكون فى الموضع اللين والخطاب الرفيق ، ويتركها القارىء الفاهم فى موضع التهديد والإنذار إلى قراءة أخرى تناسب التهديد والإنذار الشديد ، فمثلا فى سورة الحاقة لا يعمد المرتل المدرك إلى اللين فى الوقوف على التاء ، لأنه لا يتناسب مع موضوع التهديد الذى اشتملت عليه السورة كلها ، وقد نبهنا بعض القراء الذى كان يختار اللين ، فتنبه، وما عاود أمامنا ما كان يفعل .

---

(١) الفرقان : ٣٢ (٢) المزمل : ٤ (٣) الأنعام : ١٠٥

وأمر ثالث فى تعدد القراءات فوق ما فيها من مراعاة مقتضى المعانى . وفوق ما فيها من ترتيل هو موسيق القرآن ، إن صح لنا هذا التعبير مع أن القرآن فى مقام أعلى وأسمى ، ذلك الأمر أن تنوع القراءات فيه تسهيل على القارىء العربى ، فقد تصعب عليه قراءة ، إذ لا تطاوعها طبيعته أو سليقته اللغوية .

وهناك أمر رابع فى تنوع القراءات ، وهو أن يكون مجموع القراءتين — وكلتاهما قرآن — دالا على معنيين فى لفظ واحد متلاقيين غير متضادين ، فمثلا قراءة « لقد جاءكم رسول من أنفسكم[1] » بضم الفاء يدل على أنه من العرب ، والعرب قومه ، وذوو رحمه القريبة ، أو البعيدة ، وإذا اجتمعت معها القراءة بفتح الفاء كانت الآية دالة بهذه القراءة على أنه من أوسط القوم وأعلاهم ، فالقراءتان والكلمة واحدة تدلان بالنص على معنيين غير متضادين ، وكلاهما صحيح صادق ، فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان من العرب ، وكان من أنفسهم ترتبط مشاعره بمشاعرهم يحس بما يحسون ، وهو مندمج فيهم ، وقريب منهم ، ثم كان مع هذا القرب النفسى من أعلى العرب منزلة ، وأكرمهم ، وكذلك يكون الأنبياء من أوساط الأقوام الذى يتسامون عن سفساف الأمور ، ويتجهون إلى معاليها .

وقد يقول قائل إن قراءة أنفسكم بفتح الفاء تدل على الأمرين ، فهى تدل على أنه من أعلى قريش وسطاً ، وتدل على أنه منهم ، ونقول فى الجواب عن ذلك إنها تدل بالنص على الشرف ، وأنه من أعلى القوم ، ولا يفيد بالقصد والذات أنه من نفس العرب ، ومن ذاتيتهم ، وأنه يحس بإحساسهم ، لا تدل قراءة الفتح على ذلك بالنص ، وبيان امتزاج نفسه عليه السلام بأنفسهم ، وإن هذا لابد منه ليشعر بشعورهم ، ويشاركهم بوجدانه وإحساسه ، ويجذبهم إليه بقوة الامتزاج النفسى ، كما يعينهم بالدليل ، وبالحق فى ذاته ، وبما آتاه الله تعالى من بينات باهرات .

---

(1) التوبة : ١٢٨

وقد يكون اختلاف القراءة فيه كمال التوضيح البيانى من غير قصور فى إحداهما ، ولكن بالقراءتين يكون البيان كاملا ، مثل قراءة قوله تعالى:- «يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا[1]» فإن قوله تعالى : «فتبينوا» تقرأ «فتثبتوا» ، ولا شك أن المعنى فى القراءتين هو ألا يؤخذ الساعى بالنميمة أو الساعى بالأذى ، أو المفسد بين الناس لا يصدق قوله ابتداء وألا ينساق وراء ما يثيره القول من عاطفة جامحة أحيانا قد تدفع إلى الشر عن غير بينة . فالله تعالت آياته ينبه إلى أنه لا يجوز التصديق إلا بعد التبين ، والتبين يكون بطرائق مختلفة منها ما يكون بطرق الإثبات من بينات، ومنها ما يكون بالقرائن ، ومنها ما يكون بربط الأمور الواقعة بالأمر المخبر عنه ، وهكذا ، فالقراءتان : تبين إحداهما التبين بالطرق المختلفة والثانية تبين أن أسلم الطرق هو تعرف الأمر بما يثبت من أقوال الصادقين المؤمنين .

وإنه قد يكون اختلاف القراءات مؤديا إلى بيان حكم بقراءة ، وحكم متمم له بقراءة أخرى فتستفاد الأحكام فى أوجز تعبير على ما فيه فى تغيير القراءة من اختلاف فى نغم الترتيل ، وموسيقا البيان القرآنى الذى يساميه .

وقد قال فى هذا المعنى الكاتب الكبير المرحوم مصطفى صادق الرافعى «وثالثة تلحق بمعانى الإعجاز ، وهى أن تكون الألفاظ فى اختلاف بعض صورها مما يتهيأ معه استنباط حكم أو تحقيق معنى من معانى الشريعة ، ولذا كانت القراءات من حجة الفقهاء فى الاستنباط والاجتهاد ، وهذا المعنى مما انفرد به القرآن الكريم ، ثم هو مما لا يستطيعه لغوى أو بيانى فى تصوير خيال فضلا عن تقرير شريعة» .

ولذلك تجد الفقهاء فى استدلالاتهم الفقهية يقولون الحجة فيه قراءة كذا ، وهى لا تكون مناقضة للقراءة الأخرى وربما تكون القراءة دالة على حكم آخر غير مناقض للحكم الذى دلت عليه القراءة المستشهد بها ،

---

(١) الحجرات : ٦

فتكون الآية بالقراءتين دالة على حكمين متلاقيين غير متناقضين ، وذلك من الإيجاز المعجز الذى لا يوجد فى كلام الناس ، ولكنه موجود فى كلام خالق الناس .

٢٤ – هذا ونختم الكلام فى القراءات بكلمة مأثورة للصحابى الفقيه عبد الله بن مسعود ، فهو يقول :

«لا تنازعوا فى القرآن فإنه لا يختلف ، ولا يتلاشى ، ولا ينفد لكثرة الرد وإنه شريعة الإسلام وحدوده وفرائضه ولو كان شىء من الحرفين (أى القراءتين) ينهى عن شىء يأمر به الآخر ، كان ذلك الاختلاف ، ولكنه جامع ذلك كله لا تختلف فيه الحدود ولا الفرائض ، ولا شىء من شرائع الإسلام ، ولقد رأيتنا نتنازع عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيأمرنا فنقرأ عليه ، فيخبرنا أن كلنا محسن ، ولو أن أحداً أعلم بما أنزل الله على رسوله منى لطلبته ، حتى أزداد علماً إلى علمى ، ولقد قرأت من لسان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سبعين سورة ، وقد كنت علمت أنه يعرض عليه القرآن فى رمضان ، حتى كان عام قبض فعرض عليه مرتين ، فكنت إذا فرغ أقرأ عليه ، فيخبرنى أنى محسن » .

اللهم احفظنا بالقرآن ، واجعله محفوظا بيننا كما وعدت إنك لا تخلف الميعاد ، ووفقنا للعمل به .

الباب الثاني

إعجاز القرآن

إعجاز القرآن

٢٥ — ذكر المؤرخون ما كان عليه العرب من تلق لديانات النبيين السابقين، حتى قال قائل المؤرخين وأهل السير: إن نوحاً عليه السلام كان بعثه فيهم، وكذلك كان إدريس، وصالح، وشعيب، وهود، وإبراهيم وإسماعيل، فكانت مهداً للرسالة الإلهية.

وإذا كان لذلك أثر أو دلالة، فهو أن العرب قوم فيهم ثقافة وأديان، وقد وضحنا ذلك عند الكلام فى حكمة اختيار العرب لأن يكونوا موضع الرسالة الخالدة رسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم (فيما كتبنا فى سيرة الرسول عليه السلام).

وإذا كان العرب فى عصر الرسالة المحمدية كانت فيهم بداوة سائدة، وحضارة قليلة، فأكثر العرب، أو الصحراء العربية إن استثنينا اليمن والحيرة، وما يصاقب الفرس، والشام ومايصاقب الرومان — كانت البداوة فيهم غالبة ولكنهم فى بدوهم وحضرهم، فى مدرهم وو برهم امتازوا من بين معاصريهم بالنزوع إلى الكلام الطيب، وكانت سيادة الأمية فيهم سبباً فى أن أرهفوا كلمات لغتهم، وأسلوب خطابهم، وملاحظة جرس الكلمات، وموسيقى العبارات وانسجام الحروف، ومؤاخاة المعانى للألفاظ، حتى إن النطق يدل على المعنى، وفى مترادف الكلمات ما يدل على أن المعانى كانت ملاحظة فى كل لفظ، فالأسد يقال له أسد، وليث وغضنفر، وغير ذلك من المترادفات لمعنى السبع، فكلمة غضنفر تقال له فى حال عنفه وفتكه، وكلمة ليث تقال فى حال ثباته ورباطة جأشه، وهكذا تجد النطق متلاقياً مع المعنى، فهما متساوقان، المعنى ملاحظ فى النطق، والنطق لابس للمعنى، وكلاهما يحيط بصاحبه ويؤاخيه ولا ينفصل عنه.

وفى الأسلوب الذى يصوره الإعراب تجد الانقطاع عن النسق الإعرابى فى القول يتغير بتغيير وجه الإعراب ، من غير خطأ ، بل يقصد معنى من معانى التخصيص يكون النطق فى الانقطاع قائماً مقام وضع خطوط تحت الكلمات، كما يفعل الكاتبون غير الأميين ، وهكذا كان النطق قائماً مقام خطوط الكاتبين فى تنبيهها ، وشدة الاختصاص فى دقة المعانى ، فهى بحق لغة إفصاح ، وذلك لقوة المدارك ، وعلو الأفكار ، والنزوع إلى السمو والمعالى مع الأمية ، وغلبة البدوية .

وقد ظهر ذلك فى أمرين : أحدهما أن الجزء الذى دخلته حضارة من البلاد العربية كاليمن والحيرة والبحرين لم تكن عندهم فصاحة كالذين لم تسيطر عليهم الحضارة فى قوة الإفصاح والبيان وسلامة التعبير ، فلم تكن اليمنية كالعدنانية . ولا لغة أهل البادية كلغة قريش ، لأن قريشاً قد قاربت، وذاقت بعض الحضارة ، وبقيت أميتها .

الأمر الثانى — فى المسابقات البيانية التى كانت تعقد فى الأسواق فى موسم الحج فى عكاظ ، ومجنة وذى المجاز ، فقد كانت فيها تجارة المادة ، وتجارة البيان معاً ، فقد كان فى الأولى زاد الجسم ، وفى الثانية زاد النفس ، كما ظهر ذلك فى الشعر ومسابقاته ، فمن معلقات تعلق فى أستار الكعبة ، وحوليات يقطع الحول فى نسج خيالها ، وصوغ عباراتها التى تصغى إليها الأفئدة .

ولو أنك وازنت بين العرب وغيرهم ممن هم فى مثل حالهم من البداوة الغالبة ، لوجدتهم فى السماك الأعزل وغيرهم فى الحضيض الأوهد ، فلا يزال الحاضرون من غير العرب يجدون فى شعر زهير بن أبى سلمى حكمة البيان الشعرى ، وفى شعر امرىء القيس قوة الوصف وفورة الشباب ، وفى شعر عنترة قوة البأس ولطف التشبيب والغزل ، وفى شعر طرفة قوة النفس الثائرة ، وهكذا لو وازنت بين هذه الآثار، وما بقى من شعر اليونان والرومان

لوجدتها لا تقل عنها فى إحكام الفكرة ، وسلامة التفكير ، ولكن تزيد عليها فى حلاوة النغم ، وتساوق الفكر ، وتآخى الألفاظ مع المعانى .

نعم إن الأدب القصصى فى اليونان كثير ، وهو خلاصة ماعندهم ولبه ، وهو عند العرب قليل أو أقل من القليل ، والسبب فى ذلك هو أن هذا ثمرة الكتابة التى تتيح للكاتب فرصة التأليف وتلفيق الوقائع ، بحيث تكون كل واقعة لفق الأخرى مسلسلة معها ، فى خيال متسق ، وهكذا .

أما العرب الذين غلبت عليهم الأمية مع تذوق القول ، وتخير خيره ، واستهجان هجينه ، فإن أدبهم يكون باللمح السريع ، والنظر الخاطف أحياناً والمتبصر المتدبر فى أكثر الأحيان عند الذين أوتوا فكراً وعقلا وإدراكا وفى الجملة لا وسط بين كلامهم وجنانهم ، ولا زمن مستغرق بين خاطرهم وقولهم ، فتكون خيالاتهم فيها جمال اللمح ، وقوة اللحظ ، وسرعة الإدراك .

٢٦ — ولذلك أجمع المؤرخون فى القديم والحديث على أن العرب لهم مآثر فى البيان ، وذوق الكلام ، والتفريق بين كريمه وسقيمه ، وجميله وهجينه .

ولنترك الكلمة للقاضى عياض المتوفى سنة ٥٤٤ ﻫ يصف بيانهم فى كتابه الشفاء ، فهو يقول : « خصوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم ، وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان ، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب ، وجعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقة ، وفيهم غريزة وقوة ، يأتون منه على البديهة بالعجب ، ويدلون به إلى كل سبب ، فيخطبون بديها فى المقامات ، وشديد الخطب ، ويرتجزون به بين الطعن والضرب ويمدحون ويقدحون ، ويتوسلون ويتوصلون ، ويرفعون ويضعون ، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل ، فيخدعون الألباب ، ويذللون الصعاب ، ويذهبون الإحن ويهيجون الدمن ، ويجرئون الجبان ... منهم البدوى ذو اللفظ الجزل والقول الفصل ، والكلام الفخم

والطبع الجوهرى ، والمنزع القوى ، ومنهم الحضرى (أى ساكن المدن) ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، والكلمات الجامعة ، والطبع السهل، والتصرف فى القول القليل الكلفة ، الكثير الرونق الرقيق الحاشية ، إلى آخر ما ذكره عياض فى بيان بلاغة العرب، ومقدار إدراكهم لجمال الكلمات فى رنينها ، كما يدرك الصيرفى رنين الحلى الكريمة غير الزائفة ، من بين ما يعرض له .

تلك كانت حال العرب فى جاهليتهم ، كانت جهلا بالدين مع بقايا ملة إبراهيم ، وليسوا جهالا فى البيان ومعرفة أسرار البلاغة يدركونه بلحظ الحال ، لا بإمعان عقـــل وطول تفكير يدركونه بنغماته ومعانيه فى لمح الفكر ، من غير طول المكث .

لذلك كان المناسب لمثل هؤلاء الذين تلقوا دعوة محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخاطبهم القرآن الكريم ابتداء أن تكون المعجزة من النوع الذى يحسنونه ، ليعرفوا مقدار علوه عن الطاقة فالمعجزة بلاشك تناسبهم فوق مناسبتها لموضـوع الرسالة وعموم أزمانها وخلودها إلى يوم القيامة ، وقد بينا ذلك فى أول الكلام ، فإذا كانت معجزة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من نوع الكلام السامى فوق طاقة الناس فإنها تكون مناسبة لمن تلقوها فى أول أمرها ومناسبة لخلودها .

إننا لا ننفى الآن ، ولم ننف من قبل أنها مناسبة لعصر نزولها ، ولكننا نقول أيضا إنها أشد مناسبة لموضوع الرسالة وخلودها، وبقائها إلى يوم القيامة.

إن القرآن فى أعلى درجات البيان من حيث لفظه ، ومن حيث نغماته ، ومن حيث مغازيه ومن حيث الصور البيانية التى تكون فى ألفاظه وعباراته ، حتى إن كل عبارة تلقى فى الفكر والخيال بصورة بيانية كاملة فى روعتها ، ودقة تصويرها ، بل إن كل كلمة لها صورة بيانية تنبثق منها منفردة، وبتآخيها مع أخواتها فى العبارة تتكون صورة بيانية أخرى ، فوق أن الرنين الموسيقى

تنفعل به الأسماع إلى القلوب في معان محكمة ، وحقائق بينة ، وشرائع منظمة للعلاقات والسلوك الإنسانى القويم ، الهادى إلى الصراط المستقيم .

التقى فى المعجزة الكبرى للنبي صلى الله عليه وسلم وهى القرآن المبين — معنيان ، أصيب بهما هدفان :

أولهما — أنه المناسب الذى يعرف به العرب معنى الشيء الخارق لما عرف ، الخارج عن طاقتهم ، فإنه لا يدرك أثر ذلك إلا هم ، ولا يعرف مقامه إلا من على شاكلتهم من معرفة مقام القول ، ومنزلة البيان .

وثانيهما — أن كونه من نوع الكلام الموحى به الباقى الخالد الذى حفظه الله تعالى ، ووعد بحفظه إلى يوم القيامة كما تلونا من قبل « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون »[1] وذلك يناسب رسالته التى هى خاتم الرسائل الإلهية التى جاء بها محمد رسول الله تعالى خاتم النبيين ، بصريح القرآن الكريم ، فلا نبوة بعد النبي صلى الله عليه وسلم .

فكان المناسب أن تكون المعجزة من نوع الكلام الخالد الباقى ، كما روى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « ما من نبي إلا أوتى ما مثله آمن عليه البشر ، وكان الذى أوتيته وحياً أوحى به إلى ، وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً إلى يوم القيامة » كما روينا من قبل ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وإنه معجزة للخليقة كلها ، وفيه الدليل على أنه من عند الله للناس أجمعين ، فهو إن جاء بلسان العرب ، وفيه أعلى درجات البيان العربى ، يشتمل فى ثناياه على ما يعجز الناس أجمعين ، فإذا كان قد أعجز العرب ببيانه فقد أعجز الناس أجمعين بمعانيه ، وشرائعه وما اشتمل عليه من علوم ، بل بمبانيه أيضاً . قال منزله عز من قائل « قل لئن اجتمعت الإنس

---

(١) الحجر : ٩

والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »[١] تعالت كلمات الله تعالى .

تلقى العرب للقرآن

٢٧ — كلف محمد عليه الصلاة والسلام أن يستعد للقاء الرسالة الإلهية لينشر التوحيد والخلق المستقيم والعبادة الخالصة لله تعالى بين الناس ، وكان تكليفه بالقرآن وأول نزوله : فقال له جل جلاله : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم »[٢] .

تقدم محمد للدعوة إلى ربه معتمداً على أمرين بعد تأييد الله تعالى له وإعزازه ، ومصابرته وأخذهم بالحسنى .

اعتمد أولا على الحق الذى يدعو إليه ، فالحق ذاته قوة لا تعدلها قوة عند النفوس التى لم تتعوج بمفاسد العصبية ، أو التقليد الأصم عن الحق ، فذكر لهم التوحيد ، وقد كانوا على إدراك له فى الجملة كما بينا عند الكلام فى القسم التاريخى عن بقاء فى بعض المأثورات عن إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة ، وأتم التسليم .

وكان التنبيه إلى أن الأوثان لا يعقل أن تعبد ، وإزالة ما حولها من أوهام ، وما علق بها من خرافات ما أنزل الله بها من سلطان ، وقد بين ذلك محمد عليه السلام على أكمل وجه .

واعتمد مع نور الحق فى ذاته على نور القرآن المبين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهو فى هدأة الداعى الرشيد يدعوهم إلى

---

(١) الإسراء : ٨٨ (٢) العلق : ١ — ٥ .

هجر عبادة الأوثان ، ويقرأ عليهم القرآن الكريم ، ففي دعوة الحق ، وفي القرآن البرهان القاطع والضوء اللامع .

كانوا ينفرون من الحق المجرد ، لأنه يخالف ما ألفوا ، وما وجدوا عليه آباءهم : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ، ولا يهتدون »[1] .

ولكنهم إذا استمعوا إلى القرآن تحيرت الأفهام ، واضطربت أحوالهم بين قديم ألفوه ، وحق في القرآن عرفوه ، فهم يحاورون في الحق ، ولكن لا يدرون ماذا يدفعون به القرآن الذي يحمله ، ويدعو إليه وإلى ما جاء به ، وإنهم بذوقهم البياني يجدون أنه فوق كل كلام ، ولا يمكن أن يجرى به لسان من ألسنتهم وأمثالهم بل لا يمكن أن يأتي به محمد من عنده ، لأنهم من قبل عرفوا كلامه ، وقد رأوه عالياً في جوامع كلمه ، ولكن القرآن أعلى من طاقة الإنسان ومن طاقة محمد ذاته .

ماذا يقولون فيه ؟ أيقولون إنه باطل وقد كبروا ماهو دونه من قصيد ورجز ، إن في ذلك كانت الحيرة ، وهم من الناحية البيانية لم يتهافتوا ، ولم يسفوا في القول ؛ وإذا كان فيهم حمقى حاولوا أن يحاوروه ، أو ادعوا أنهم يحاورونه ، وعرضوا ما قالوا ، فنال الاستضحاك والسخرية ، وزاد القرآن الكريم مكانة وتقديراً ، وما كان لأمثال أبي سفيان والوليد بن المغيرة ، أن يسفوا بأنفسهم ذلك الإسفاف ، بل إنه لم يسف إلى هذا عمرو ابن هشام (أبو جهل) لأنه يعلم مقدار علوه ، فلا يتهافت إلى إنكار مكانته في البيان ، فهو يستبيح أذى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأذى أصحابه ، ولا يستبيح الطعن في مقام القرآن البياني ؛ لأنه يلحقه الطعن بالأذى والتصغير ، ولا يلحق محمداً الذي نزل القرآن عليه وخاطب به الناس أجمعين ، ولنذكر

---

(١) البقرة : ١٧٠ .

لك أخبار من سمع القرآن ، وخر بين يديه صاغراً مع شـــدة العداوة والملاحاة واللدد والخصومة ، والبقاء على الكفر ، والإصرار على الشرك .

٢٨ — (ا) سمعه الوليد بن المغـــيرة فرق له رقة لم تعرف فيه نحو الإسلام فخشى أبو جهل (عمرو بن هشام) أن يسير فى الطريق القويم إلى الإسلام ، فأنكر عليه أبو جهل حاله ، ولكنه لم يستطع أن يقول فى القرآن شيئاً ، فقال له الوليد :

« والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار منى ، أعرف رجزها وقصيدها ، والله مايشبه الذى يقوله شيئاً من ذلك . إن له لحلاوة ، وإن عليه الطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، ما يقول هذا بشر » .

ولقد اجتمعت قريش عند الوليد يتذاكرون ماذا يقولون فى القرآن ، وقد رأوا العرب يفدون ، ويستمعون إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيبلغ القرآن منهم أعماق نفوسهم ، فكيف يصدونهم عن ذكر الله وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ، فأتمروا ، واجتمعوا حول الوليد ، ليتعلموا ماذاهم قائلون لمنع الحق ، وقد قال لهم أولا الحق على ريب فى نفسه :

قال لهم الوليد العارف الضال : إن وفود العرب ترد ، فأجمعوا فيه رأياً لا يكذب بعضكم بعضا .

قالوا نقول « كاهن » .

قال والله ما هو بكاهن ، ما هو بزمزمته ، ولا سجعه .

قالوا : « مجنون » ، قال ما هو بمجنون ، ولا بخنقه ، ولا بوسوسته .

قالوا فنقول « شاعر » :

قال ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ، ومبسوطه ومقبوضه ما هو بشاعر .

قالوا فنقول « ساحر » .

قال ما هو بساحر ولا نفثه ولا عقده .

قالوا فما تقول أنت ؟

قال ما أنتم بقائلين فى هذا شيئاً ، إلا وأنا أعرف أنه باطل ، وإن كان أقرب القول إنه ساحر فإنه سحر يفرق بين المرء وابنه ، والمرء وأخيه ، والمرء وزوجه ، والمرء وعشيرته ، فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس .

(ب) ولنذكر خبر عتبة بن أبى ربيعة ، فقد سمع القرآن وهو على الشرك ، ومن كبراء قريش ، فأدرك بذوقه البيانى مقام القرآن ، وقال مقالة الحق « والله قدسمعت قولا ما سمعت مثله قط ماهو بالشعر ولا بالكهانة» .

(ح) وقد ورد فى حديث إسلام أبى ذر الغفارى أنه قال : « ما سمعت بأشعر من أخى أنيس ، لقــد ناقض اثنى عشر شاعراً فى الجاهلية ، أنا أحدهم ، وقد انطلق إلى مكة ، وجاء أنيس إلى أبى ذر بخبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال أبو ذر فما يقول الناس ؟ قال يقولون شاعر كاهن ساحر ، لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعته على أوزان الشعر ، فلم يلتئم ، وما يلتئم على لسان أحــد ، وإنه لصادق وإنهم لكاذبون .

(د) إن كبار المعارضين للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم خافوا على أنفسهم من أن يؤثر القرآن فيهم واستحبوا الكفر على الإيمان واستحبوا العمى على الهدى ، ولذلك تفاهموا فيما بينهم ألا يسمعوا لهذا القرآن ؛ لأن الذين يسمعونه يتأثرون بما فيه من علو بيان ، وأنه فوق طاقة البشر ، ووجدوا الناس يؤمنون به فرادى ، ومنهم كبراء كانوا ذوى مقام وجبروت . فوجدوا الإيمان يقوى ويكثر أهله ، والشرك يضعف وينقص

عدده ، تفاهموا على ألا يسمعوا لهذا القرآن كما أشرنا . وإن يهرجوا بالقول عند سماعه ، ولقد حكى الله سبحانه وتعالى عنهم ذلك ، فقال تعالى « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ، لعلكم تغلبون »[١].

(هـ) ولقد كانوا إذا تلى عليهم القرآن لا ينقده كبراؤهم ، وإن كان السفهاء السفسافون منهم يتطاولون لحمقهم ، أما الذين أوتوا حظاً من الإدراك ، ولو أعمتهم العصبية وأبعدتهم عن الإيمان ، فإنهم يفرون من مواجهة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ويقولون « قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب »[٢] .

(و) وإن الله سبحانه وتعالى لم يتركهم فى هـذا العجز الصامت الذى يفرون فيه من المواجهة ، ولا يريدون المناصبة ، بل يكتفون بالسكوت العاجز ، ويحاولون التمويه على غيرهم ، كما كفروا فى أنفسهم بالحق ، وقد عرفوه بل تحـــداهم أن يأتوا بمثله ، ليثير حميتهم أو يؤمنوا به . وليبين ضعفهم أو يستسلموا ، فقال تعالى : « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين[٣] » أى أنه إذا كان قد نسبه لله تعالى افتراء وهو منه ، فمحمد منكم ، فأتوا بمثله إن كنتم صادقين ، وادعوا شهداء ليشهدوا لكم أو عليكم .

وادعوا أن ما فيه غير صادق فتحداهم سبحانه وتعالى أن يأتوا بمفترى يكون فى مثل بيانه ، فقال تعالى : « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين[٤] » .

٢٩ — وننتهى من ذلك إلى حقيقتين ثابتتين نشير إليهما بالإجمال ، وسنتعرض ببعض التفصيل عند الكلام عن وجوه الإعجاز .

الحقيقة الأولى أن قريشاً مع شدة ملاحاتها للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومع أن القرآن قد ذكر آباءهم بغير ما يحبون ، وذكر أوثانهم بغير ما يؤمنون

---

(١) فصلت : ٢٦ (٢) فصلت : ٥
(٣) يونس : ٣٨ (٤) هود : ١٣

لم يتحركوا لأن يقولوا مثله ، وأذعنوا لبلاغته وقوته ، وما أسلم عمر بن الخطاب إلا بعد أن قرأ فيه ، وكذلك جُبَيْر بن مطعم ، وإن القرآن تحداهم ، أن يأتوا بمثله ، فما فعلوا ، بل ما تحرك العقلاء منهم لأن يفعلوا حتى لا يسفوا فى تفكيرهم وهم أمام رجل كبير فى قومه وعقله ، ومعه آيات الله تعالى البينات ، فدل هذا على عجز مطلق .

الحقيقة الثانية : أن القرآن جذب العرب إلى الإيمان بما فيه من روعة ، وقوة بيان ، وإيجاز معجز وأقوال محكمة ، وقصص تطول وتقصر ، وهى مملوءة بالعبر فى طولها وقصرها ، وإطنابها الرائع وإيجازها الذى لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أوفاها بالعبارة الناصعة ، والإشارة الواضحة فما كان الإيمان نتيجة تحد للمقاويل منهم وعجز ، وإن كان العجز ثابتاً ، وإنما كان الإيمان ثابتا بالقرآن فهو الذى جذب إلى الإيمان بما فيه من بيان أدركوا أنه فوق طاقة البشر ، وأنه حقائق ثابتة كما قال تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله قوى عزيز »(١) .

وإن الثابت مع ذلك أنه لم يحاول أحد من أهل البيان أن يأتى بمثله ، ولم يعرف ذلك ، وإذا كان التاريخ قد ذكر شيئاً من هذه المحاولة ، فإنه كان فى أيام الردة من مسيلمة الكذاب وأشباهه ، وإن هذا الجزء الذى رواه التاريخ الذى روى تلك الكلمات التى حاول بها مسيلمة الكذاب أن يجارى فيها القرآن ، يبين مقدار إدراك المشركين ، إذ لم يحاولوا المجاراة ، حتى لا يسفوا ، ويكونوا أضحوكة بين العرب ، وموضع سخرية ، يسخرون بعقولهم ، ولننقل لك ما نقله الباقلانى(٢) فى إعجاز القرآن ليتعجب ، وليتبصر

---

(١) الحديد : ٢٥ .

(٢) توفى سنة ٤٠٣ هـ .

الناظر ، كما قال الباقلانى، فإنه على سخافته قدأضل ، وعلى ركاكته قد أزل، لأن الزلل سابق على سماعه ، والكفر سابق على ابتداعه وميدان الجهل واسع ، والحماقة لها أهل ، وميدانها عندهم ، ونحن إذا قلنا إن المشركين ضلوا ، فهم فى عقولهم كانوا أوسع إدراكا ، وإن جحدوا .

انظر ما قال المجهول يحاكى القرآن « والليل الأطقم ، والذئب الأدلم ، والجذع الأزلم ما انتهكت أسيد من أحرم» لقد قال هذا افض خلاف وقع فى قوم من أصحابه : إنه ليس جديراً بأن يسمى كلاماً فضلا عن أن يكون له فصاحة أو بلاغة أو أى نوع من الإدراك البيانى .

وهو يقول فى الحكم فى هذا الخلاف أيضاً .

« والليل الدامس ، والذئب الهامس ماقطعت أسيد من رطب ولا يابس»

وكان يقول : « ضفدع بنت ضفدعين نقى ما تنقين أعلاك فى الماء وأسفلك فى الطين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين ، لنا نصف الأرض ، ولقريش نصفها » .

وقالت سجاح بنت الحارث بن عقبان ، وكانت تتنبأ ، فاجتمع مسيلمة معها ، فقالت له ما أوحى إليك قال أوحى إلى « إن الله خلق النساء أفواجا، وجعل الرجال لهن أزواجا ، فنولج فيهن قعسا إيلاجا ثم نخرجها إذا شئنا إخراجاً ، فينتجن سخالا نتاجا ، فقالت أشهد أنك نبي[١]» .

٣٠ ـ هذه تفاهات القول التى نقلت عن الذين حاولوا معارضة القرآن ، وقد أسفوا فى القول ، وهبطوا فى التفكير ، بما لم يرد أن ينحدر إليه أرباب البيان من قريش ، لأنهم يعرفون مقام مايسمعون من كلام رب العالمين ، استطاعوا أن يجحدوا الحق وقد عرفوه ، ولم يستطيعوا أن ينزلوا

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٤٠ (طبع دار المعارف تحقيق أحمد صقر) .

بمقامهم من الإدراك البيانى فيفندوا بيانهم وذوقهم الكلامى ، وإن ارتضوا أن يفسدوا عقائدهم ، ويكابروا فى دينهم ، ويكذبوا رسالة ربهم .

وقد يقول قائل : إن التاريخ الإسلامى لم يرو غير الذين صدقوا وآمنوا فحذفوا ما كانت فيه معارضة للقرآن الكريم ، وذلك كلام قيل من الأفاكين ، ويرده أمران :

أولهما — أنه ما كان يمكن أن يعم الإيمان ، وثمة معارضون للقرآن فى جد لا لهو فيه ، ولا عبث .

ثانيهما — أن أعداء الإسلام كانوا فى كل زمان منذ ظهر محمد إلى أن قبضه الله تعالى ، ودخل الناس فى دين الله تعالى أفواجا أفواجا ، فالزنادقة كانوا منبثين فى مشارق الأرض ومغاربها ، لا يألون المسلمين وبالا ، وكان أعداء الإسلام فى أوساط المسلمين وبين ظهرانيهم فبثوا فيهم الأفكار المنحرفة ، والأقوال الهادمة ، والمذاهب المخربة ، وأولئك ما كانوا ليستروا الكلام الذى عورض به القرآن ، إذ يرون فيه هدم الأصل ، وأقصى ما استطاع أولئك الزنادقة أن يفعلوه هو أن يدعوا أن عبد الله بن المقفع[1] اتجه إلى أن يكتب كتابا يعارض به القرآن ، وهو إن صح كلامهم فيه يدل على أنه نوى ولم يفعل ، ولو فعل لنظرنا إلى ما أتى به . وإننا نشك فى أصل صحته ، ولكنهم يريدون أن يثيروا الغبار ، والغبار قد يغشى الأعين المريضة ، وإن كان قد أراد هذا فهو دليل على حمقه ، ويثبت زندقته التى اتهم بها ، وأنه أشاع ذلك توهينا ، وإن علم أن المحاولة فوق طاقة البشر .

---

(١) توفى سنة : ١٥٨ هـ .

سر الإعجاز

٣١ — عجز العرب عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ثابت ثبوتاً لا مجال للريب فيه ، لا يرتاب فيه مؤمن ، ولا يجحده ، ولا يمارى فيه إلا من يهمل عقله ، ويسقط من حساب المفكرين، فعلى ذلك تواترت الأخبار ، واتفقت الأمصار ، لا فرق بين عدو وولى .

وإنه واضح من سياق الأخبار المتواترة أن عجزهم اقترن بثلاثة أمور:

أولها — إعجابهم بعلوه عن أن يصل إليه أحد من البشر ، ولم يحاول أحد من عقلاء المشركين أن يسف فيحاول المحاكاة إلا من اتصف بالحماقة فكانت حماقته ضعفين أحدهما فى محاولته ، وثانيهما فى نتائج هذه المحاولة إذ جاء بلغو من القول لا يحتسب فى عداد الكلام ، فضلا عن أن يشاهد أبلغ كلام أنزله تعالى فى البشر .

ولقد سببوا عجزهم بأنه يعلو ولا يعلى عليه ، وأن له حلاوة ، وعليه طلاوة ، وأن أعلاه مثمر وأسفله مغدق. وقد قال ذلك المغيرة فى جمعهم ، فما أنكروا عليه حكمه على القرآن الذى سمعه ، ولكن أنكروا عليه أنه تحت تأثير هذا ترك جماعتهم ، وكأنهم أقروه على الوصف الذى وصف به القرآن ، ولكن أنكروا عليه الإيمان ، وجحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم كما وصفهم القرآن الكريم .

ثانيها — أنهم كانوا مع شركهم . واستكراه نفوسهم لعدم الإقرار به ينجذبون إليه ، ويريدون أن يسمعوه ، استطابة لما فيه من لفظ ذى نغم يجذب ، وعبارات مشرقة ـ ونظم منفرد أجمل من سمط اللآلىء ، ولأنهم عرفوا ميلهم إلى استماعه ، وأثره فى نفوسهم ، تواصوا ألا يسمعوه ، وأن يلغوا عند سماعه ، ولكن الذين تواصوا ذلك التواصى ذهب كل واحد منهم

منفرداً ، ولكن الاستخفاء استعلن عندما التقوا جميعاً ، ورأوا أنفسهم مجتمعين ، وليس كل منهم منفرداً ، وقد علموا أن التواصى على عــــدم الاستماع لا جدوى فيه ، فتواصوا على الجحود والإنكار ، فلم يكن تواصيهم على الحق ، ولكن كان على الباطل .

ثالثها – أن أشدهم عناداً كان أقربهم إيماناً إذا قرأ القرآن صغى قلبه إلى الإيمان ، وإلى الاستجابة لداعيه ، فقد سمع أبو ذر الغفارى القرآن ، فآمن ، وسمعه أخوه أنيس ، فأذعن لعلو بلاغته عن مستوى البشر ، وسمعه جبير بن مطعم فآمن ، وقرأه عمر بن الخطاب ، فانخلع قلبه من الشرك وطغيانه ، إلى الإيمان ، وأن يكون فاروق الإسلام الذى كان إيمانه فارقاً بين الاستخفاء والإعلان ، بين ظهور الحق وخفوته .

إن هذه الأمور التى اقترنت بعجز العرب عن أن يأتوا بمثله دلت على أمرين بدهيين :

أولهما أن الأساس فى عجزهم هو ما فيه من بلاغة ورنة قول ، ونغمة بيان أدركوها بذوقهم البيانى ، وهم الذين يذوقون بأسماعهم ، كما يذوق الطعام بفمه ، وأنه لم يكن عجزهم سلبياً ، بل كان من كثيرين منهم إيجابياً يتبعه العمل ويقترن بالإيمان بأنه من عند الله تعالى أى أن وجه الإعجاز فيه أمر ذاتى فيه ، وليس منعاً سلبياً .

الأمر الثانى الذى تدل عليه هذه الأمور التى اقترنت بالعجز عن محاكاته ، هو أن القرآن مع بيانه العالى الذى لا يعالى ، فيه من العلوم ما لم يكونوا يعرفونه ، فيه الشرائع المحكمة التى تنظم العلاقات بين الآحاد الأقربين . وغيرهم ، فيه علم الميراث ، وفيه علم الأحكام المختصة بالأسر ، وفيه بيان خلق الإنسان من سلالة من طين ، وفيه توجيه النظر إلى الكون وما يشتمل عليه ، وفيه من حقائق مالا يعلمه إلا اللطيف الخبير ، الذى خلق فسوى ، والذى أحاط بكل شىء علماً .

وفيه القصص والعبرة ، وما كانوا يعلمون شيئاً من ذاك من قبله ، فيه قصة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، وقصة بناء الكعبة . إذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، وفيه أنبياء البلاد العربية التي تعلن آثار الأقوام وما أنزله الله تعالى بهم ، وفيه قصة موسى عليه السلام ، وفيه قصة مريم ، وتربيتها ، وكيف اختصموا في كفالتها ، وكيف يستخدمون القرعة بالسهام لتكون كفالتها لمن تكون السهام له : « وما كنت لديهم ، إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم ، إذ يختصمون[١] » .

قرءوا ذلك وسمعوه ، فكان المعجز لهذه الأمور الذاتية ، لا لأمور أخرى ليست من القرآن .

الصرفة

٣٢ — عرف العرب أنهم عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن ، وعللوا عجزهم بما استرعاهم ما فيه من حلاوة اللفظ ، وطلاوة المعنى والتركيب . وعمق ما اشتمل حتى إنه مغدق في جذوره كلما تكشف القارىء عن عمقه رأى ما لا يصل إليه البشر ، وكلما اتجه إلى أعلاه وجد ثمراً شهياً .

هذا أمر ظاهر ، ولكن الفلسفة التي تسيطر على عقول بعض الناس ، ولا تكون فيها ثمرة ناضجة قد يتجهون بها إلى كل ما يرونه بديئاً في التفكير سواء أكان متصلا بالحق المجرد أم لم يكن متصلا ، وسواء أكان متفقا مع الإيمان والواقع أم لم يكن ، بل إن المتفلسفين ربما اتجهوا إلى الفكرة ، لا لأصالتها ، ولكن لغرابتها ، ولا لأنها لا بد منها لتحقيق الحق وإبطال الباطل ، ولكن للترف العقلي لا يفرقون بين أمر يتصل بالإيمان ، وأمر لا صلة له بالإيمان .

وإن بعض المتفلسفين من علماء المسلمين اطلعوا على أقوال البراهمة في

---

(١) آل عمران: ٤٤

كتابهم « الفيدا » وهو الذى يشتمل على مجموعة من الأشعار ليس فى كلام الناس ما يماثلها فى زعمهم ، ويقول جمهور علمائهم إن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها ، لأنه براهما صرفهم عن أن يأتوا بمثلها .

يقول فى ذلك أبو الريحان[1] البيرونى فى كتابه « ماللهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة ما نصه :

« إن خاصتهم يقولون إن فى مقدورهم أن يأتوا بأمثالها ، ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراما لها » .

ولم يبين البيرونى وجه المنع أهو منع تكليفى يسبقه الإيمان بهذه الكتب وتكون دلائل وجوب الإيمان من نواح أخرى ، أم هو منع تكوينى بمعنى أن برهما صرفهم بمقتضى التكوين عن أن يأتوا بمثلها ، والأخير هو الظاهر لأنه هو الذى يتفق مع قول جمهور علمائهم ، وما اشتهروا من أن القول بالصرفة نبع فى واديهم .

٣٣ — وعندما دخلت الأفكار الهندية فى عهد أبى جعفر[2] المنصور ، ومن والاه من حكام بنى العباس ، تلقف الذين يحبون كل وافد من الأفكار ويركنون إلى الاستغراب فى أقوالهم فدفعتهم الفلسفة إلى أن يعتنقوا ذلك القول ، ويطبقوه على القرآن ، وإن كان لا ينطبق ، فقال قائلهم ، إن العرب إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن ، ما كان عجزهم لأمر ذاتى من ألفاظه ومعانيه ونسجه ونظمه ، بل كان لأن الله تعالى صرفهم عن أن يأتوا بمثله

وإن رواج تلك الفكرة يؤدى إلى أمرين : أولهما ـ أن القرآن الكريم ليس فى درجة من البلاغة والفصاحة تمنع محاكاته ، وتعجز القدر البشرية عن أن تأتى بمثله فالعجز ليس من صفات القرآن الذاتية

وثانيهما — الحكم بأنه ككلام الناس لا يزيد عليه شىء فى بلاغته ، أو فى معانيه .

---

(١) توفى سنة : ٤٣٠ هـ (٢) ثانى خلفاء بنى العباس توفى سنة ١٥٦ هـ

وإن مذهب الصرفة قد وجد من يقوله من علماء الفلسفة الكلامية وغيرها بل وجد من يقوله من بين الذين أنكروا الرأى فى الفقه ، وهو مع جموده فى الفقه . من أبلغ الكتاب والشعراء .

ولنترك الكلمة للباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣هـ فى كتابه إعجاز القرآن ، قال رضى الله تبارك وتعالى عنه .

« فإن قيل فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات وتصرفهم فى أجناس الفصاحات ، وهلا قلتم إن من قدر على جميع هذه الوجوه بوجه من هذه الطرق الغريبة كان على مثل نظم القرآن قادراً ، وإنما يصرفه الله عنه ضرب من الصرف ، أو يمنعه من الإتيان بمثله ضرب من المنع ، أو تقصر دواعيه إليه دونه مع قدرته عليه ليتكامل ما أراده الله تعالى من الدلالة ، ويحصل ما قصده من إيجاب الحجة ، لأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلهما ، وإذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية إلى الأولى ، وكذلك الثالثة حتى يتكامل قدر الآية والصورة[1] » .

ونرى من هذا أن القائلين بهذا القول يشككون فى مرتبة القرآن وكونه من عند الله تعالى من غير أن يقدموا دليلا ، بل إن القصد الذى يبدو من لحن القول والدعوى هو التشكيك المجرد فى علو البلاغة القرآنية ، ومن وراء ذلك التشكيك ما يريدون من توهين ثم دعاوى بأنه من صنع محمد عليه السلام وهكذا يسير الخط من احتمالات تنافى الواقع إلى توهين لأمر القرآن ، إلى ادعاء أنه ليس من عند الله .

٣٤ - وإن القول بالصرفة ثبت أول نبت فى رواق الفلسفة الكلامية ،

---

(١) اعجاز القرآن للباقلانى ص ٤١ طبع المعارف .

قاله شيخ من شيوخهم . وهو إبراهيم بن سيار الشهير بالنظام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ ، فهو أول من جاهر به ، وأعلنه ودعا إليه ، ولاحى عنه كأنه مسألة من مسائل علم الكلام ، ونقول إنه أول من جهر به ، ولا نقول إنه أول من فكر فيه ، أو أول من ابتدأ القول به ، لأن الأفكار لا يعرف ابتداؤها وهى تتكون فى خلاياها ، بل لا تعرف إلا بعد أن تظهر ، ويجاهر بها .

جاهر بها ، وكان ذا فصح وبيان وحجة وبرهان ، وإن لم يكن مستقيم الفكر بل إنه يظن الظن ، فيحسبه يقينا ثم يبنى عليه ويقايس ، ويصحح القياس ، والتنظير بين الأشياء ، بينما الأصل ذاته يحتاج إلى قياس صحيح .

ولقد نقده تلميذه الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ الذى كان معجباً بشخصه ، غير آخذ برأيه ، وقال فيه ذاكراً عيبه ، فقال :

إنما عيبه الذى لا يفارقه سوء ظنه وجودة قياسه على العارض والخاطر ، والسابق الذى لا يوثق بمثله ، فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذى قاس عليه ، كان أمره على الخلاف ، ولكنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه ، وينسى أن بدء أمره كان ظناً ، فإذا أتقن ذلك وأيقن جزم عليه ، وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر فى صحة معناه ولكنه كان لا يقول سمعت ولا رأيت ، وكأن كلامه خرج مخرج الشهادة القاطعة فلم يشك السامع أنه إنما حكاه عن سماع قد امتحنه ، أو عن معاينة قد بهرته » .

لم يوافق التلميذ أستاذه ، لم يوافق الجاحظ شيخ الكتاب المسلمين ، وأكبر ناقد بين الناقدين شيخه ، وإذا كان إبراهيم بن سيار قد اشتهر بالبيان ، وسرعة الجواب ، ولسن القول ، فقد اشتهر الجاحظ بأنه ذواق الكلام وصيرفى البيان ، فإن خالف من يتسرع فى الخبر ، ويبنى عليه ، فهى مخالفة الخبير العارف بتصريف القول ، وأفانين التعبير والتفكير .

ولم يكن رد الجاحظ على شيخه رد المجادل المحاور ، ولكنه كان بالعمل، فقد كان أول من كتب فى إعجاز القرآن من الناحية البيانية ، ليكون الرد على الصرفة ببيان الإعجاز الذاتى .

ولقد أشار إلى رد الجاحظ الذين كتبوا فى الإعجاز ومنهم الباقلانى ، وممن نسب إليه القول بالصرفة الشريف المرتضى من الشيعة ، وفسر الصرفة بأن الله تعالى سلبهم العلوم التى يحتاج إليها فى معارضة القرآن والإتيان بمثله ، ومؤدى كلامه أنهم أوتوا المقدرة على المعارضة بما كانوا عليه من بيان وبلاغة وفصاحة ، فهم قادرون على النظم ، والعبارات ، ولكن ليست عندهم المقدرة بسبب أنهم لم يعطوا العلم الذى يستطيعون به محاكاة القرآن فى معناه .

وإن هذا القول ينافيه أن الله سبحانه وتعالى طالب بأن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات وأعفاهم من أن يكون كلامهم مشتملا على ما فى القرآن من علم ، واقتصر على التحدى بالنظم والعبارة واللفظ .

فهذا القول نوع من الصرفة ، ونفى للإعجاز الذاتى ، ويختلف مع ما اشتمل عليه القرآن .

وممن قالوا بالصرفة الفقيه البليغ العنيف المتشدد ابن حزم[1] الأندلسى ، فقد قال فى كتاب الفصل فى سبب الإعجاز : « لم يقل أحد إن كلام غير الله تعالى معجز ، لكن لما قاله الله تعالى ، وجعله كلاماً له ، أصاره معجزاً ، ومنع من مماثلته ، ثم قال : وهذا برهان كان لا يحتاج إلى غيره .

وإن ذلك الكلام يبدو بادىء الرأى غريباً من ابن حزم ، ولكن المتأمل فيه يجده سائراً على مذهبه فى نفى الرأى . والحكم بظاهر القول من غير تعليل ، فالاتجاه إلى تعليل الإعجاز بأن السبب فيه بلاغته التى علت عن طاقة العرب ، والتى جعلتهم يخرون صاغرين بين يديه من غير مراء

(١) توفى سنة ٤٥٦ هـ .

ولا جدال يعد تعليلا ، وهو من باب الرأى الذى ينفيه ، والتعليل الذى يجافيه ، فلابد أن يبحث عن سبب غير ما ذكر الله تعالى .

٣٤ — وإننا نرى أنه بعد كلام النظام صارت فكرة الإعجاز بالصرفة مجال اختلاف بين العلماء ما بين مقرر لها وما بين مستنكر . وقد آن لنا أن نبين بطلان هذه الفكرة من أساسها ، وإن دلائل البطلان قائمة ثابتة مأخوذة من الوقائع التاريخية والموازنات الحقيقية الثابتة .

(أ) منها ، ماذكرنا من قبل أن العرب عندما تلقوا القرآن راعهم بيانه، وأثار إعجابهم أسلوبه وعباراته، وقالوا مارأينامثله شعراً ولا نثراً، فكان العجز لذاته ، لا لشيء خارج عنه ، وما لنا نفترض ما لم يقولوا وما لم يفعلوا ، ومالم يقدروا ، إلا أن يكون ذلك تمويهاً ، وإنكاراً للواقع المستقر، بفرض وهمى.

(ب) وأيضاً فإنه لو كان العجز لأمر خارجى لا لأمر ذاتى فيه بأن تكون عندهم القدرة على أن يأتوا بمثله ولكن صرفوا ، فإن ذلك يقتضى أن يثبت أولا أنهم قادرون على مثله ، وهم أولا قد نفوا ذلك عن قدرهم ، وليس لنا أن نفرض لهم قدرة قد نفوها عن أنفسهم ، ولو كانوا قادرين لكان من كلامهم قبل نزول القرآن عليهم مايكون متماثلا فى نسقه ونسجه ، وله مثل رنينه وصوره البيانية فى شعر أو نثر ، ولكن المتتبع للمأثورات العربية ، فى الجاهلية والإسلام لا يجد فيها ما يقارب القرآن فى ألفاظه أو معانيه أو صوره البيانية .

ولذا لجأ الباقلانى[1] فى كتابه إعجاز القرآن إلى الموازنة بين القرآن ، وبين المعروف من أبلغ الكلام فى الجاهلية ، ويقول فى ذلك « لو كانوا صرفوا على ما ادعاه لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به فى الفصاحة والبلاغة ، وحسن النظم ، وعجيب التأليف ، لأنهم لم يتحدوا به ، ولم تلزمهم حجته ، فإذا لم يوجد فى كلام قبله مثله علم أنه ما ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان ... »

---

(١) توفى سنة ٤٠٣ هـ .

(ج) وإننا لو قلنا إن الذى منع العرب من الإتيان بمثله هو الصرفة ما كان القرآن هو المعجز ، إنما يكون العجز منهم ، ولم يكونوا عاجزين ، وإنما يكونون قد أعجزهم الله ، ولم يعجزهم القرآن ذاته ، وقد كان القرآن هو معجزة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والقول بالصرفة ينفى عنه خواص الإعجاز .

وإن معجزات النبيين السابقين ما كان فى طاقة الناس أن يأتوا بمثلها فى ذاتها ، ولم يكن بصرف الناس أن يأتوا بمثلها ، فمعجزة العصا ، وتسع الآيات التى لموسى عليه السلام ما كان العجز من الناس بالصرف ولكن بالعجز الحقيق . فلماذا لا تكون معجزة النبي محمد عليه السلام كسائر المعجزات ، وهى أجل وأعظم .

(د) وإن الله تعالى قد وصف القرآن بأوصاف ذاتية تجعله فى منزلة لا تصل إليها معجزات أخرى، فكانت هذه توجب أن يكون إعجازه ذاتياً . ولقد قال تعالت كلماته : « ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض ، أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعاً »(١) .

ويقول جل من قائل : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد »(٢) .

وإذا كان القرآن بهذه الأوصاف التى وصفه بها منزله سبحانه وتعالى ، أفيقال بعد ذلك إن الناس يستطيعون أن يأتوا بمثله ؟ اللهم إن ذلك بهتان عظيم .

(هـ) وإن مثل الذين يقولون إن إعجاز القرآن بالصرفة كمثل الذين قالوا إن القرآن سحر يؤثر .

---

(١) الرعد : ٣١ . (٢) الزمر : ٢٣ .

وقد أثبت ذلك الرافعى فى كتابه إعجاز القرآن ، فقال : « وعلى الجملة فإن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب إن هذا إلا سحر يؤثر ، وهذا زعم رده الله تعالى على أهله ، وأكذبهم فيه ، وجعل القول فيه ضرباً من العمى « أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون »[١] .

وإن التشابه بين القول بالصرفة والقول بأنه سحر أن الامتناع عن المماثلة فى كليهما من خارج الشىء لا من ذاته فالقول بالصرفة يفيد أن العرب لم يكونوا عاجزين ، ولكن حيل بينهم وبين العمل على المماثلة وكذلك الأمر فى السحر يشدهم ، حتى يعجزوا .

ولقد سبق أن علل المشركون عجزهم بعد التفكير والتقدير بأنه سحر يؤثر :

قال تعالت كلماته فى شأن الوليد بن المغيرة : « ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر »[٢] .

هذا ما وصل إليه الوليد بن المغيرة بعد أن قدر ودبر فى ملأ من قومه ، يجىء كاتب متفلسف فيأتى بهذا القول من غير تقدير ولا تدبير .

٣٥ — ومهما يكن من بطلان هذه الفكرة ، فقد أدت إلى إنشاء علوم البلاغة فى ظل القرآن ، فاتجه الكاتبون إلى بيان أسرار البلاغة فى هذا الكتاب المبين ، المنزل من عند الله الحكيم ، قرآناً عربياً ، فكان هذا الباطل سبباً فى خير كثير ، وكما يقول المثل السائر « رب ضارة نافعة » ، فقد تولد عن

---

(١) الطور : ١٥

(٢) المدثر : ١١ — ٢٥

هـذا الباطل دفاع حكيم ، ولدت منه علوم البلاغة العربية ، وكما تولد عن الخطأ فى تلاوة آية « علم النحو » تولدت علوم البلاغة العربية . وإن أكثر ما كتب الأولون فى البلاغة والفصاحة كان فى ظل القرآن، ومحاولة لبيان إعجازه.

وإن أول ما كتب فى إعجاز القرآن من ناحية البيان كان فى الوقت الذى جاء فيه القول بالصرفة ، بين نفى وإثبات كما أشرنا ، وأول من عرف أنه تصدى للكلام فى الإعجاز فى نظم القرآن هو الجاحظ ، تلميذ النظام ، الذى أنكر عليه قوله ، وعابه فى منهاجه الفكرى من أنه يظن الظن ، ثم يجعله أصلا يجرى عليه القياس مصححا لقياسه بالمنطق، والعيب فى أصل القول الذى بنى عليه ، لا فى الأقيسة التى أجرى بها مشابهاته ، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل .

وقد كتب فى ذلك كتابه النظم ، وقد عابه الباقلانى ، ليدفع بذلك التسليم له بالسبق ، ولأنه معتزلى . ولكن الجاحظ فى كتابات له كثيرة غير كتابه النظم ، كان يذكر مواضع من إعجاز القرآن فى آيات يتعرض للقول فيها ، ليبين مقامها من البيان ، فهو فى كتاب الحيوان يذكر أنه جمع آيات من القرآن يعرف مقامها فى البيـان ، فهو يقول : « ولى كتاب جمعت فيه آياً من القران ليعرف بها ما بين الإيجاز والحذف ، وبين الزوائد والفضول والاستعارات ، فإذا قرأتها رأيت فضلها فى الإيجاز والجمع للمعانى الكثيرة ، والألفاظ القليلة ، فمنها قوله تعالى حين وصف خمر أهل الجنة « لا يصدعون عنها ولا ينزفون »[1] وهاتان الكلمتان جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا ، وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة « لا مقطوعة ولا ممنوعة »[2] جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعانى .

وهذا الكتاب الذى أشار إليه لم يكشف فى التراث الإسلامى، ولكنه يدل على أن الجاحظ كان يتعرض لأسرار الإعجاز ، كلما لمح بريق الإعجاز فى آياته .

---

(١) الواقعة : ١٩.

(٢) الواقعة : ٣٣ .

ولكن التعصب المذهبي يستهين بكلام الجاحظ في إعجاز القرآن بل إنه يتحامل عليه في كتابته كلها فيقول في ذلك الباقلاني الأشعري عن الجاحظ أحد شيوخ المعتزلة : «كذلك يزعم زاعمون أن كلام الجاحظ من السمت الذي لا يؤخذ فيه، والباب الذي لا يذهب عنه، وأنت تجد قوماً يرون كلامه قريباً ، ومنهاجه معيباً، ونطاق قوله ضيقاً، حتى يستعين بكلام غيره ، ويفزع إلى ما يوشح به كلامه ، من بيت سائر أو مثل نادر، وحكمة ممهدة منقولة ، وقصة عجيبة مأثورة ، وأما كلامه في أثناء ذلك ، فسطور قليلة وألفاظ يسيرة . . . فإذا أردت أن تحقق ذلك فانظر في كتبه في نظم القرآن وفي الرد على النصارى وفي خبر الواحد ، وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى» [1] .

ولقد جاء من بعد نظم القرآن للجاحظ الذي كان رداً عملياً على كلام النظام الذي أدخله من الهند ، وهو مذهب الصرفة جاء بعده أول كلام واجه الصرفة في إعجاز القرآن ، وهو كتاب إعجاز القرآن لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي المتوفى سنة ٣٠٦ هجرية أي بعد موت الجاحظ بنحو ستين سنة ، وهو صورة المجاوبة التي كانت دفعا لمذهب الصرفة الذي بلبل الأفكار ، وكان بين ممانعة من الأكثرين ، ومجاوبة من القلة ، حتى صارت نادرة ، وحتى طواه التاريخ وهو في هذا قد طرق باب البلاغة طرقا قويا ، وأصل الأصول المشتقة من كلام العرب ونظمها وطبقها على القرآن ، وثبت من التطبيق أنه أعلاها .

وهذا الكتاب يعد أصلا بني عليه ، فقد شرحه عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ في شرحا مطولا ، وأودع ذلك الشرح كتابا سماه المعتضد، وله شرح آخر أصغر منه .

---

(١) إعجاز القرآن ص ٣٧٧ .

وهكذا كل كاتب يقيم بناء يكمله من يجيء بعده ، فالواسطى أكمل البناء الذى وضعه الجاحظ ، أو بنى عليه ، وترك لغيره أن يكمل البناء .

وجاء عبد القاهر الجرجانى فبنى على ما وضع الواسطى ، وكان كتابه دلائل الإعجاز قد أوفى على ما وضع الجاحظ والواسطى .

وفى الزمن الذى سار فيه الجاحظ والواسطى من بعده ، والجرجانى من بعدهما ، وانتهى إلى تلك الثروة المثرية فى باب الإعجاز البلاغى للقرآن ، كانت هناك محاولة أخرى ، فى طريق مواز لذلك الطريق .

فقد وضع أبو عيسى الرمانى المتوفى سنة ٣٨٢هـ كتابه فى الإعجاز ، فوضع بناء ثالثاً ، غير بناء الجاحظ والواسطى ثم جاء الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣هـ فوضع كتابه إعجاز القرآن ، ويلاحظ أن تاريخه سابق على دلائل الإعجاز ، وأحسب أن من الحق علينا أن نقول إن دلائل الإعجاز ، لم يبن على الواسطى فقط ، بل إنه أخذ من كل الينابيع التى سبقته وإن القارىء له يجد فيه كل مزايا من سبقه ، وفيه زيادة جديرة بالأخذ ، بل أساس لعلوم البلاغة كلها مستقاة من القرآن ، وموضحة لأوجه البلاغة فيه أولا ، وعلوه على كل كلام ثانياً ، ثم فيه وضع مقاييس ضابطة لكل كلام بليغ ثالثاً .

فكتاب الباقلانى ، قد تعرض للإعجاز بالمواجهة ابتداء ، ولم يسق علم البلاغة ، ابتداء ، ثم يتعرض للإعجاز انتهاء ولكنه جعل الأصل فى الكلام الإعجاز ، ثم البلاغة تابعة له تبعية الدليل للمدلول ، والبرهان للدعوى ، والمقدمة للنتيجة .

ويلاحظ على هذا الكتاب أنه لم يشر إلى ماسبقه إلا الجاحظ ، فقد أشار إليه إشارة لا تكريم فيها ، ولكن فيها استهجان واستصغار لما كتبه ، ولم يشر أى إشارة إلى ما كتبه الواسطى ، وما كتبه الرمانى ، وقد سبقاه

وكان ثانيهما على مقربة من زمانه ، مع أنه أخذ من الرمانى قطعاً ولم يذكر اسمه .

ومهما يكن الأمر بالنسبة لمن سبقوه فى القول ، وإهمال ذكرهم ، فهو الكتاب الذى اختص بأن يكون فى الإعجاز ابتداء ، كما أشرنا ، وقد وفى فيه بأمهات المسائل .

ويقول فيه الرافعى المتوفى سنة ١٩٣٧ م فى كتابه إعجاز القرآن «على أن كتاب الباقلانى ، وإن كان فيه الجيد الكثير وكان الرجل قد هذبه وصفاه ، وتصنع له ، إلا أنه لم يملك فيه بادرة عابها هو من غيره ، ولم يتحاش وجها من التأفف لم يرضه من سواه ، وخرج كتابه كما قال هو فى كتاب الجاحظ ، لم يكشف عما يلتبس فى أكثر هذا ... وقد حشر إليه أمثلة من كل قبيل من النظم والنثر ، ذهبت بأكثره ، وغمرت جملته ، وعدها فى محاسنه ، وهى من عيوبه ثم يقول : «وكان الباقلانى ، رحمه الله وأثابه ، واسع الحيلة فى العبارة مبسوط اللسان إلى مدى بعيد ؛ يذهب فى ذلك مذهب الجاحظ ، ومذهب مقلده ؛ على بعد وتمكن ؛ وحسن تصرف ، فجاء كتابه ؛ وكأنه فى غير ما وضع له لما فيه من الإغراق فى الحشد ، والمبالغة فى الاستعانة ؛ والاستراحة إلى النقل» .

والرافعى بهذا ينتقد الباقلانى ، ويصفه بمثل ما وصف هو به الجاحظ .

ومن حق العلم على العالم ألا يتنقص غيره ؛ وأن يعرف اللاحق ؛ أنه متمم لما بدأ السابق ؛ غير ناكر لفضل ، ولا باخس لحظ .

وهكذا فى عصر الباقلانى ومن بعده ؛ حتى كان آخرها تأليفاً من حيث القيمة العلمية ، والدرجة البيانية كتاب إعجاز القرآن للرافعى رحمه الله تعالى ؛ وأثابه ، وجزاه عن الإسلام خيراً .

وجوه الإعجاز

٣٧ – نقصد بوجوه الإعجاز الأمور التى اشتمل عليها القرآن ، وهى تدل على أنه من عند الله ، وما كان فى استطاعة أحد أن يأتى ، بمثله ، وما كان فى استطاعة الجن والإنس أن يأتوا بمثله ، ولنتجه إلى أقوال العلماء فى هذه الوجوه ؛ ثم نتجه بعد ذلك إلى بيان ما نقصد إلى بيانه من بحثنا هذا الذى نضرع إلى الله أن يمن علينا بالتوفيق فيه كما من علينا من قبل، فنحن نعيش فيما نكتب ونبحث تحت فيض الله تعالى وتوفيقه ، ولولا توفيقه سبحانه وتعالى ما وصلنا إلى شىء !

يعد صاحب الشفاء أوجه الإعجاز فى القرآن فيحصرها فى أربعة :

أولها – حسن تأليفه ، والتئام كلمه وفصاحته وبلاغته الخارقة لما عند العرب ..

وثانيها – صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ، ومناهج نظمها ونثرها الذى جاء عليه ، ووقفته عند مقاطع آيه ، وانتهت فواصل كلماته ، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له ، ولا استطاع أحد مماثلة منه .

وثالثها – ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات وما لم يكن ولم يقع فوجد كما ورد على الوجه الذى أخبر كقوله تعالى : « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين[1] ، وكقوله : « غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين[2] . إلى آخر ذلك من الأمور المغيبة التى أخبر القرآن عنها قبل وقوعها ، فوقعت كما أخبر .

---

(١) الفتح : ٢٧ .

(٢) الروم : ٢ – ٣.

ورابعها — ما أخبر به من أخبار القرون والأمم البائدة ، والشرائع الدائرة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذى قطع عمره فى تعلم ذلك فيورده النبي صلى الله عليه وسلم على وجهه ويأتى به على نصه ، فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه ، وأن مثله عليه السلام لم ينله بتعليم ، وقد علموا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أمى لا يقرأ ولا اشتغل بمدارسة .

هذا ما ذكره القاضى عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ فى وجوه الإعجاز ، ونجد الأمرين الأولين يتعلقان بالناحية البيانية فى القرآن وإن كان أولهما يتعلق بتأليف كلماته ، وتناسقها مـــع فصاحتها وسلامتها وخلوها من الحوشى ، والثانى بصورة النظم ومع تخالف حقيقتهما نجد كلا منهما ينتهى إلى الناحية البيانية .

أما الأمران الآخران ، فإنهما يتعلقان بصدق الأخبار التى اشتمل عليها القرآن الكريم، بيد أن الأول يتعلق بالإخبار عن الغيب فى المستقبل الذى لا يعلمه إلا الله تعالى ، والثانى يتعلق بالإخبار عن الماضى .

٣٨ — وذكر القرطبي المتوفى سنة ٦٨٤هـ فى تفسيره أن أوجه إعجاز القرآن عشرة .

١ — منها النظم البديع المخالف لكل نظم معهود فى لسان العرب وغيرهم لأن نظمه ليس من نظم الشعر فى شىء ، ولذلك قال رب العزة . « وما علمناه الشعر ، وما ينبغى له »(١) .

٢ — ومنها الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

٣ — ومنها الجزالة التى لا تصح من مخلوق بحال من الأحوال ، وتأمل ذلك فى سورة « ق والقرآن المجيد إلى آخرها»(٢) .

---

(١) يس : ٦٩ .

(٢) ق : ١ — ٤٥ .

وقوله تعالى: «والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة[١]» إلى آخر السورة وقد ضرب على ذلك الأمثلة الكثيرة .

وهذه الأمور الثلاثة كما نقل القرطبي عن ابن الحصار من النظم والجزالة لازمة فى كل سورة بعيدة عن سائر كلام البشر وبها وقع التحدى والتعجيز .

٤ — ومنها التصرف فى لسان العرب على وجه لا يستقل به عربى ، حتى يقع منها الاتفاق على وجه لا يستقل به عربى حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته فى وضع كل كلمة وكل حرف فى موضعه (باعتبار أن القرآن الكريم فيه الكلمات من لهجات العرب ، أو لغاتهم) .

٥ — ومنها الإخبار عن الأمور التى تقدمت فى أول الدنيا إلى وقت نزوله من أمى ، ما كان يتلو من قبله من كتاب ، ولا يخطه بيمينه ، فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها ، والقرون الخالية فى دهرها ، وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه وتحدوه من قصة أهل الكهف وشأن موسى والخضر عليهما السلام ، وحال ذى القرنين فجاءهم وهو الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب وليس له بذلك علم بما عرفوا من الكتب السالفة صحته قال القاضى ابن الطيب[٢] ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن العلم وإذا كان معروفاً أنه لم يكن ملابساً لأهل الآثار ، وحملة الأخبار ، ولا متردداً إلى المتعلم منهم ، وما كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه — علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحى .

٦ — ومنها الوفاء بالوعد المدرك بالحس فى العيان ، فى كل ما وعد الله سبحانه ، وينقسم: إلى أخباره المطلقة كوعد الله بنصر رسوله عليه السلام ، وإخراج الذين أخرجوا والقسم الثانى وعد مقيد بشرط . كقوله تعالى «ومن يتوكل على الله فهو حسبه[٣]» .

---

(١) الزمر : ٦٧ . (٢) المتوفى سنة ٤٠٣ هـ . (٣) الطلاق : ٣ .

٧ — ومنها الإخبار عن المغيبات فى المستقبل التى لا يطلع عليها إلا بالوحى ، فمن ذلك ما وعد الله به نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على كل الأديان ، بقوله تعالى : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله »(١) ففعل ذلك .

٨ — ومنها ما تضمنه القرآن من العلم الذى هو قوام الأنام فى الحلال والحرام وسائر الأحكام .

٩ — ومنها الحكم البالغة التى لم تجر العادة بأن تصدر فى كثرتها وشرفها من آدمى .

١٠ — ومنها التناسب فى جميع ما تضمنته ظاهراً وباطناً من غير اختلاف ، قال الله تعالى : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً(٢) .

بعد أن ذكر القرطبى هذه العشرة قال :

« قلت فهذه عشرة أوجه ذكرها علماؤنا رحمة الله تعالى عليهم ، ووجه حادى عشر قاله النظام وبعض القدرية إن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته والصرفة عند التحدى بمثله ، وأن المنع والصرفة هو المعجزة ، دون ذات القرآن ، ذلك أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحديهم بأن يأتوا بسورة من مثله ، وهذا فاسد ، لأن الإجماع قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز ، فلو قلنا إن المنع والصرفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزاً وذلك خلاف الإجماع ، وإذا كان كذلك علم أن نفس القرآن هو المعجز ، وأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة إذ لم يوجد كلام قط على هذا الوجه ، فلما لم يكن كذلك مألوفاً معتاداً منهم دل على أن المنع والصرفة لم يكن معجزاً

---

(١) التوبة : ٣٣ .

(٢) النساء : ٨٢ .

٣٨ — ومن هذا نرى أن القرطبي قد أتى بوجوه كثيرة عدها من إعجاز القرآن ، وقدذكر عشرة ، وإنه لكي يكون استقراؤه كاملا لا نقص فيه أتى بالصرفة ، وعدها وجها من الوجوه عند بعضهم ، وقد رددناها كما ردها هو ، وانتهى إلى أن إعجاز القرآن ذاتي ، وليس من أمر خارج . وأقمنا كما أقام الدليل على ذلك ، مما لا يجعل موضعاً لهذا القول ، وبينا مصدرها الهندي ، وأنها فكرة دخيلة على المسلمين ، والحقائق تخالفها ، والوقائع تجافيها .

ولكن يجب أن يلاحظ فيما أحصاه القرطبي ، والقاضي عياض أمران :

١ — أولهما — أن الأقسام التي ذكراها يتداخل بعضها في بعض ، أو أنهما جعلا ما يتعلق بالنظم جزءاً منه خاصا بفصاحة القول وجزءاً يتعلق بالنظم وجزءاً يتعلق بالأسلوب ، وجزءاً يتعلق بالجزالة ، وجزءاً يتعلق بالتصرف في القول وكل ذلك يتعلق بالمنهج البياني القرآني ، وهذه الكلمة تجمع تلك الأقسام كلها ، فلا تخرج من عمومها خارجة .

والأمر الثاني — أن بعض هذه الوجوه تحدى بها القرآن الكريم ، فقد تحداهم الله تعالى أن يأتوا بمثله ولو عشر سور مفتريات والوجوه الأخرى لم يتحد بها القرآن الكريم ، وإن كانت من عند الله تعالى العليم الحكيم ، مثل إخباره عن أمور مغيبة في المستقبل ، ثم وقوعها ، كما أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه .

وإخباره عن الأمم السابقة ، وإخباره عن شأن عبد الله الصالح مع موسى نبي الله تعالى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ، ومثل قصة أهل الكهف ، وذي القرنين ، فذكر هذا في القرآن الذي نزل على أمي لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يجلس إلى معلم دليل على أنه من عند الله سبحانه وتعالى .

ومن هذه الأحكام الشرعية التي اشتمل عليها القرآن ، فإنها لا يمكن أن تكون من عند محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بل هي من عند الله .

وقد كتبنا في هذه عدة بحوث في إحدى المجلات(١) الإسلامية ، بعنوان (شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله) جمعتها إحدى الهيئات الإسلامية في رسالة ، ونشرتها ، وترجمتها إلى الفرنسية والإنجليزية ، وقد أقمنا الدليل على أن تلك الشريعة المحكمة لا يمكن أن يأتي بها أمي لا يقرأ ولا يكتب ، وقد نشأ في بلد أمي ليس به مدرسة ولا مكتب دراسة ، وهي في أحكامها ، لا يمكن أن تكون إلا من عند الله تعالى .

وكتبنا بحثاً وازنا فيه بين شريعة القرآن وقانون الرومان في الملكية بالخلافة ، وذكرنا أن قانون الرومان قد تكون في نحو ثلاثة عشر قرناً ، ومع ذلك هو في الملكية بالخلافة لا يوازن بشريعة القرآن إلا إذا وازنا بين عصا هشة وسيف بتار ، فلا يمكن أن يأتي به محمد من عنده ، بل هو من عند الله تعالى .

والأوروبيون القانونيون يرون في قانون الميراث في القرآن أن العقل البشري لم يصل إلى الآن إلى خير منه، ونحن لهذا نقرر أن ما ذكره القرطبي غير الصرفة يدل على أن القرآن كله جملة وتفصيلا هو من عند الله سبحانه وتعالى العليم الخبير .

ولكن نرى أن الله تعالى تحدى العرب أن يأتوا بمثله ولو مفترى، فكان التحدي للعرب ابتداء بالمنهج البياني للقرآن ، وهو الذي استرعى ألبابهم . ولعله لم تكن بلغت مداركهم العقلية والقانونية أن يعرفوا مدى ما في أحكام القرآن من تنظيم سليم للمجتمع ، فيه المصلحة الإنسانية العالية التي تعلو على تفكير البشر ، وإن كان فيهم ذوق بياني يذوقون به الألفاظ الفخمة القوية

---

(١) مجلة « المسلمون » ومجلس الشئون الإسلامية هو الذي جمع هذه البحوث ؛ وترجمها الى الإنجليزية والفرنسية .

فى رنينها ، المصورة للمعانى فى أحوالها الصوتية وتكوين حروفها ، ومرامى عباراتها ، ويدركون فى ذلك المعنى السليم من غير إجهاد فيدركون ما هو جيد المعنى فى ذاته من غير أن يتعرفوا فلسفة قانونية أو عقلية أو كونية ، وفى القرآن ما يرضيهم ويملأ نفوسهم ، ويعجزون عن أن يأتوا بمثله .

وإن القرآن فيه الشريعة الباقية الخالدة ، وهو يخاطب الأجيال كلها ، والأجناس كلها العرب والعجم ، والبيض والسود والأحمر والأصفر ، فليس مافيه من الاعجاز خاصاً بالعرب ، وإنما إعجازه يعم الجنس البشرى كله لأنه يخاطب الجميع ، ويطالب الناس قاطبة بأحكامه . وفيه البينات المثبتة لكل جنس .

وعلى ذلك نقسم وجوه الإعجاز التى اشتمل عليها القرآن إلى قسمين :

أولهما : ما يتعلق بالمنهاج البيانى ؛ وهذا النوع من الإعجاز أول من يخاطب به العرب ، لما ذكرنا فى صدر كلامنا من أنه جاء بلغتهم ، ولأنهم كانوا بمقتضى بداوتهم مع استقامة تفكيرهم ، ومع وجود نبوات سابقة فيهم أبقت بعض العلم . وبمقتضى ثقافتهم اللسانية وعنايتهم بلغتهم كانوا أكثر الناس إدراكا لمعنى الإعجاز فى القرآن من ناحية بيانه ، ونغمه ، وجزالته وكذلك كان الأمر منهم ، وكانوا هم المخاطبين أولا به ، وبعجزهم قام البرهان الأول .

القسم الثانى : الإعجاز بما اشتمل عليه من ذكر لأخبار السابقين ، ولأخبار مستقبلة ، وقعت كما ذكر ، واشتماله على علوم كونية وحقائق لم تكن معروفة فى عصر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد أتى بها القرآن ، وتقررت حقائقها من بعد وكذلك ما اشتمل عليه من شرائع أثبت الوجود الإنسانى أنها أصلح من غيرها وأنها وحدها العادلة ، وإن هذا النوع معجزة للأجيال كلها ، وهو يحتاج فى بيانه إلى مجلدات ضخام ، ولذلك نتجه ابتداء إلى القسم الخاص بالبلاغة ، وهو الأول .

الإعجاز البلاغى

٣٩ — أخذنا أولا من أسباب الإعجاز ذلك السبب ، لأنه الواضح بالنسبة للعرب ، ولأنه هو الذى شده به العرب عند أول نزوله لخيرهم ، وهم المدركون لأساليبه، العارفون لمناهجه، الذين يذوقون القول بأسماعهم ، ويدركونه بعقولهم ، ويعرفون مواضع الكمال ، ومواضع النقص فى كل ما يسمعون من شعر ، حتى إنهم يتجهون إلى مواضع الحسن ، والمآخذ التى تؤخذ بلقانة فطروا عليها ، ولباقة عرفوا بها .

ولنسق لك مثلا من نقدهم ، فلقد عرض بيتان فى سوق عكاظ على الخنساء لحسان بن ثابت رضى الله عنهما ، فلمحت بقوة الملاحظة الناقدة ما فيهما من عيوب تخفى إلا على من يذوق الكلام ذوقا ، ويدرك معانيه وألفاظه بأرب وفكر مستقيم .

قال حسان رضى الله عنه :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى ... وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق ... فأكرم بنا خالا، وأكرم بنا ابنا

فقالت الخنساء ضعفت افتخارك ، وأنزرته فى ثمانية مواضع ، قالت : قلت لنا الجفنات ، والجفنات ما دون العشر ولو قلت الجفان لكان أكثر ، وقلت : الغر ، والغرة البياض فى الجبهة ، ولو قلت البيض ، لكان أكثر اتساعا . وقلت يلمعن ، واللمعان شىء يأتى بعد الشىء ، ولو قلت : يشرقن لكان أكثر ، لأن الإشراق أدوم من اللمعان ، وقلت بالضحى ، ولو قلت بالدجى ، لكان أبلغ فى المديح ، لأن الضيف أكثر طروقا بالليل ، وقلت أسيافنا ، والأسياف دون العشرة ، ولو قلت سيوفنا لكان أكثر ، وقلت يقطرن ، فدللت على قلة القتل ، ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب

الدم ، وقلت دما ، والدماء أكثر من الدم ،وفخرت بمن ولدت . ولم تفتخر بمن ولدوك اهـ[1].

سقنا ذلك الخبر ، وهو صورة لما كان عليه الذوق البيانى ، وإن كان هنالك شك فى روايته ، فإنه يدل على أن روح النقد بالذوق المرهف كان مشهوراً بين العرب وكثيراً .

وأذكر أن نقاد العرب كانوا يستنكرون بيت امرىء القيس الذى يقول فيه فى معلقته :

أغرك منى أن حبك قاتلى   وأنك مهما تأمرى القلب يفعلى

فقد قالوا إن البيت لا يصدر من عاشق برح به الحب ، وأحس بلطف العشق ، وقالوا إن الغانية إذا لم تغتر بالحب ففيم تغتر ، كأنه يقول لها إن كنت مغرورة بحبي فإنى تاركك ، وهكذا ، وما ذلك شأن المحب اللهج .

٤٠ — هؤلاء الذواقون للبيان الذين مرنت أسماعهم ، وألسنتهم على القول البليغ وإدراك مراميه يستوى فى ذلك أهل المدر ، وأهل الوبر ، فأهل الوبر استفرغوا ذكاءهم فى تعرف الكلام البليغ ، والترنم بالشعر رجزه وقصيده ولم يكن عندهم مايزجون فيه وقتهم إلا سماع الكلام الطيب، وترديده ، وروايته ونقله ، يرطبون به ألسنتهم فى حلهم وترحالهم ، وانتجاعهم إلى مواطن الكلأ ،وينابيع المياه ، قد صفت نفوسهم صفاء السماء التى تظلهم مع قوة الشكيمة التى اكتسبوها من وعورة الصحراء ولأوائها ، وقسوة الحياة وغلظتها ، ومع الرضا والقناعة التى اتسمت بها النفس العربية.

وأهل المدر وهم سكان القرى كأهل مكة والطائف ويثرب ، وقد كانوا قوماً تجراً ، من غير أن يخلوا من الشكيمة العربية ، قد كانت القبائل تجىء

---

(١) هامش إعجاز القرآن للرافعي ص ٢٥٥ .

إليهم، أو يلتقون بهم فى مواسم الحج وأسواقه التى كانت تعقد لتبادل السلع، وتبادل الفكر، والكلم المحكم، ويكون التبارى بين الشعراء والخطباء وكانت مكة، وما حولها تشبه بعض الحدائق العامة فى البلاد الأوربية تلقى فيها الخطب، ويتبارى فيها المتكلمون وحسبك أن تعلم أن قس بن ساعدة الإيادى ألقى خطبته التى ذكر فيها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى عكاظ فى موسم الحج.

هؤلاء الذين كانت الكلمة البليغة تقع من نفوسهم موقع الموسيقى فتطربهم، والقصيدة الطويلة فتهزهم، وكان حداؤهم لإبلهم رجزاً، وتدليلهم لأبنائهم أنماطاً من البيان، هؤلاء هم الذين خاطبهم القرآن فرأوا فيه نوعاً من البيان لم يعرفوه من قبل، فانجذبوا إليه، وأقروا بتأثيره، ولم يستطيعوا أن يماروا فيه، بل خروا صاغرين أمام بلاغته، معترفين بأنه يسمو على قدرهم، ويعلو على طاقاتهم، كفروا بما يدعو إليه، ولم ينكروا تأثيره، لاحوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى دعوته إلى التوحيد، وتماروا فيه، مع بداهته، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينالوا من القرآن، ولما دبروا وقدروا فى أمره، قالوا إنه سحر يؤثر وذلك يتضمن الإقرار باستيلائه على نفوسهم وعلوه على كلامهم، وإن كان من نوعه، وسمو معانيه، وإن كانت حروفه فى صياغة من حروفهم، وكلماتهم.

وجوه الإعجاز البلاغى

٤١ — إن كل شىء فى القرآن معجز من حيث قوة الموسيقى فى حروفه، وتآخيها فى كلماته، وتلاقى الكلمات فى عباراته ونظمه المحكم فى رنينه، وما وصل إليه من تأليف بين الكلمات، وكون كل كلمة لفقا مع أختها، وكأنما نسيج كل واحدة قطعة منه تكمل صورته، وتوحد غايته، ومعانيه تجدها مؤتلفة مع ألفاظه، وكأن المعانى جاءت مؤاخية للألفاظ وكأن الألفاظ قطعت لها، وسويت على حجمها.

ثم هو الذى يدركه كل ذى قوة فكرية بمقدار إدراكه والمعنى صحيح فى كل إدراك صحيح ، وفى كل ذى طاقة سليم ، بلا تخالف ، يسمعه المؤمن فيقر به ، ويؤمن بما جاء فيه ، ويسمعه المخالف ، فيدرك الحق من ثنايا كلماته ومعانيه إن أخلص فى جانب الحق ، وإن لم يؤمن فإنه يدرك ما فى القرآن من خواص لا يصل إليها كلام كائناً من كان قائله .

جاء فى كتاب الشفاء للقاضى عياض : «حكى أن عمر بن الخطاب رضى الله تبارك وتعالى عنه كان يوما نائماً فى المسجد فإذا هو برجل قائم على رأسه يتشهد شهادة الحق ، فاستخبره ، فأعلمه أنه من بطارقة الروم ممن يحسن كلام العرب وغيرها ، وأنه سمع رجلا من أسرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأملتها ، فإذا قد جمع فيها ما أنزل على عيسى بن مريم من أحوال الدنيا والآخرة وهى «ومن يطع الله ورسوله ، ويخش الله ويتقه الآية »[1] وحكى الأصمعى أنه سمع كلام جارية ، فقال لها قاتلك الله ما أفصحك! فقالت أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى: «وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين»[2] ، فجمع فى آية واحدة بين أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، وبشارتين . فهذا نوع من إعجازه منفرد بذاته غير مضاف إلى غيره على التحقيق»[3] .

وهكذا نرى كل إعجاز القرآن من نواح شتى ، ربما تعز على الاستقراء ، فى موسيقاه لا يسع سامعه إلا أن يصغى بقلبه ، وقد رأيت كيف كان العرب يتفقون على ألا يسمعوا لهذا القرآن ويلغوا فيه ثم يذهب إليه المتفقون فرادى ، فيلتقون جماعة .

---

(١) النور : ٥٢ (٢) القصص : ٧

(٣) الشفاء للقاضى عياض ج١ ص١٦٩ .

ولقد كان لموسيقى القرآن ونظمه روعة عند كل سامع ، حتى من لا يفهم العربية ، فإن لكلماته ونظمه ، ومده وغنه ، ونهاية فواصله ، ووقفه ـ ما يسترعى من لا يفهم العربية ، وإذا كان لا يفهم معنى الكلمات ، فإن النغم يعطيه صوراً رائعة .

وإن كل كلمة من كلماته تعطى صورة بيانية ، وكل عبارة تجتمع من كلمات لها صورة بيانية رائعة تصور المعانى كالصورة الكاملة فى تصويرها ، التى تتكون أجزاؤها من صور ، وتتجمع من الصور صورة متناسقة .

وإنه لأجل هذا يصعب على الكاتب أن يأتى بكل وجوه الإعجاز البيانى ولكنه يقارب ولا يباعد .

ولنذكر ستة وجوه نتكلم فيها عسانا نصل إلى تقريب معانى الإعجاز من غير حد ولا استقراء كامل وهى :

١ — الألفاظ والحروف

٢ — الأسلوب ، وما يكون من صور بيانية .

٣ — التصريف فى القول والمعانى .

٤ — النظم وفواصل الكلم .

٥ — الإيجاز المعجز والحكم والأمثال والإخبار عن الغيب .

٦ — جدل القرآن .

١ ــ ألفاظ القرآن وحروفه

٤٢ ــ قبل أن نخوض فيما اختصت به ألفاظ القرآن من جمال ودقة وإحكام، وما اشتملت كل كلمة مع أخواتها وجاراتها من صور بيانية لكل واحدة منفردة، ثم ما اشتملت عليه مجتمعة من معنى ذلك، نذكر أن العلماء اختلفوا قديما وامتد خلافهم إلى المتأخرين تكلموا واختلفوا فى أساس الفصاحة أو البلاغة، وهما غير مختلفين فى الماصدق، وإن اختلفوا فى التعريف اللفظى لحقيقة الفصاحة وحقيقة البلاغة.

قال بعض علماء البيان وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١هـ. إن اللفظ والحروف ليس لهما أثر فى كون الكلام بليغاً أو غير بليغ، إنما الأثر فى مجموع مايدل عليه النظم، وشكل النظم ليس هو المؤثر وحده، إنما تساوق المعانى وتلاقى الألفاظ وتآخيها فى تكوين هذا المعنى المؤثر، فيقول رضى الله عنه فى كتابه دلائل الإعجاز ما نصه:

«ينبغى أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها فى التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التى بها يكون الكلم إخباراً وأمراً ونهياً واستخباراً وتعجباً، وتؤدى فى الجملة معنى من المعانى التى لاسبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة، هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل فى الدلالة، حتى تكون هذه أدل على معناها الذى وضعت له من صاحبتها على ماهى مرسومة به» ثم يقول رضى الله عنه.

«هل يقع فى وهم أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية، أو أن تكون حروف هذه أخف، وامتزاجها أحسن وهل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعانى جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها، وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة وفى خلافها قلقة ونابية ومستكرهة إلا

وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما ، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم ، وأن الأولى لم تلتق بالثانية فى معناها . وأن الثانية لم تصلح أن تكون لفقاً للتالية فى مؤداها . وهل تشك إذا فكرت فى قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى ، وغيض المـــاء ، وقضى الأمر واستوت على الجودى ، وقيل بعداً للقوم الظالمين[1] » فتجلى لك منها الإعجاز ، وبهرك الذى ترى وتسمع ، إنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة ، والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذا الكلام بعضه ببعض ، وإنه لم يعرض لها الشرف إلامن حيث لاقت الأولى الثانية ، والثالثة الرابعة ، وهكذا إلى أن تستقربها إلى آخرها ، وأن الفضل نتائج ما بينها ، وحصل من مجموعها .. إن شككت فتأمل : هل ترى لفظة بحيث لو أخذت من بين أخواتهـا وأفردت أدت من الفصاحة ما تؤديه ، وهى فى مكانها من الآية ، « ابلعى » واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ماقبلها ، وإلى ما بعدها ، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها ... ومعلوم أن مبدأ العظمة فى الآية فى أن نوديت الأرض ، ثم أمرت . ثم كان النداء بيا دون أى .. ثم إضافة المـاء إلى الكاف دون أن يقال ابلعى المـاء ... إلى آخر ما قال :

ويستدل على أن الكلمة ليس لها فصاحة ولا بلاغة فى ذاتها أن الكلمة تروق فى موضع ولا تروق فى آخر فى كلام الناس ، فلو كانت الكلمة إذا حسنت كان حسنها من ذاتها ، لاستحسنت دائماً ، وما استهجنت أبداً .

وينتهى من هذا إلى أن جمال الكلام ليس فى توالى ألفاظه فى النطق ، بل إن تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل .

ويسترسل الجرجانى فى إثبات أن الكلمات ليست لها فصاحة ذاتية ، إنما بلاغتها فى اجتماعها مع غيرها فى تلاقى المعانى ، وأنه ليس للألفاظ

---

(١) هود : ٤٤

ولا للحروف حسن ذاتى منفرد، ولا قبح ذاتى منفرد، إنما حسنها فى تلاقيها مع أخواتها فى الدلالة وتساوق المعانى وما تنتجه من صور بيانية، ومراتب أهل البيان فى مقدار قدرتهم على اختيار الألفاظ المتآخية فى معانيها، ويفهم من كلامه أن النظم لا يلتفت إليه وحده إنما يلتفت إلى معانيه أيضاً وأنه يريد من النظم الكلمات لاذات الكلام كله برناته القوية، أو الهادئة التى تنساب فى النفس، وتتغلغل فيها حتى تصل إلى أعماقها.

٤٣ — هذا رأى الجرجانى، وله مقامه، يقصر البلاغة والفصاحة، على الأسلوب ومجموع العبارات التى تتضافر فى الدلالة على معان متآخية، وتتآخى الألفاظ فى الدلالة على هذه المعانى.

وهناك فريق آخر، ومن هؤلاء الجاحظ يرون للحروف، وللكلمات فصاحة، عندما تتلاءم حروفها ولا تتجافى مخارجها ولا يكون فيها تكرار فلا فصاحة فى مثل ما رواه الجاحظ.

وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر

فإن تكرار الحروف جعلها غير متلائمة، وغير سهلة فى النطق.

وقد عقد ابن الأثير فى كتابه المثل السائر فصلا فيما ذكر فيه فصاحة الكلمات، وقبحها فى رنينها وفى تآخى حروفها وقال إن من الكلمات ماله نغمة أوتار، ومنها ماله صوت حمار، وضرب على ذلك الأمثال، فقال إن كلمة السيف لها مرادف، وهو الخنشليل، فهل هما متماثلتان فى الفصاحة والنغمة الصوتية، ومثل كلمة غصن، وكلمة عسلوج بمعنى الغصن، فهل هما متماثلتان فى النغمة وسهولة النطق.

ويبدو من كتاب إعجاز القرآن للباقلانى أنه يرى أن للكلمات ذاتها فصاحة خاصة، وأن تخيرها يدل على قدرة قائلها، وعلو بيانه، فإذا كانت المعانى البلاغية لجملة القول، فى اختيار الألفاظ المتناسبة فى موسيقاها، وفى

نغمتها وفى رنتها قوية أو هادئة على حسب المقام ، فللفظ دخل فى الاختيار ويقول فى ذلك الباقلانى :

قد علم أن تخير الألفاظ للمعانى المتداولة المألوفة ، والأسباب الدائرة بين الناس أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة ،وأسباب مؤسسة مستحدثة ، فإذا برع اللفظ فى المعنى البارع كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع فى المعنى المتداول المتكرر ، والأمر المتقرر المتصور ثم انضاف إلى ذلك التصرف البديع فى الوجوه التى تتضمن تأييد ما يبتدأ تأسيسه ، ويراد تحقيقه بأن التفاضل فى البراعة والفصاحة ، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعانى والمعانى وفقها لا يفضل أحدهما على الآخر ، فالبراعة أظهر » . ثم يقول :

« وأنت ترى جمال الكلمة من القرآن يتمثل فى تضاعيف كلام كثير ، وهى غرة جبينه ، وواسطة عقده ، والمنادى على نفسه بتميزه ، وتخصصه ، برونقه وجماله ، واعتراضه فى حسنه ومائه »(١) .

ومن هذا النقل يتبين أن الباقلانى يرى أن ألفاظ القرآن غرة فى كل كلام ، وأن لها رونقاً ، وأن لها دخلا فى إعجازه ، وأن صورة الكلمة ومخارج حروفها لها روعة ذاتية ، لأن ذلك من عند العزيز الحكيم .

وإن المتأخرين ممن كتبوا فى إعجاز القرآن رأوا أن فى الكلمة فى القرآن بلاغة خاصة بأدائها ، بمدها وغنها ، وبأصواتها الموسيقية ، وبنغماتها الحلوة ، فلا يمكن أن يكون التآخى بينها وبين أخواتها فى المعانى فقط ، بل إن التآخى ، كما هو ثابت فى المعانى ثابت فى الموسيقى ، وإذا كان الله تعالى قد اختار للقرآن ترتيلا يبدو فيه نغمه ومده ، وزنين ألفاظه ، فلابد أن تكون ألفاظه قد اختيرت لمزية فى كل كلمة لا فى مجموعها فقط ، ومن

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٦٤ .

أنصار الرأى الذى نظر إلى فصاحة الكلمة الرافعى رحمه الله تعالى، ورضى عنه، فى كتابه إعجاز القرآن، فقد قال :

«لما قرىء عليهم القرآن رأوا حروفه فى كلماته، وكلماته فى جمله ألحاناً لغوية رائعة كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هى توقيعها، فلم يفتهم هذا المعنى، وأنه أمر لاقبل لهم به، وكان ذلك أبين فى عجزهم، حتى إن من عارضه منهم كمسيلمة جنح فى خرافاته إلى ماحسبه نظماً موسيقياً أو باباً منه، وطوى عما وراء ذلك من التصرف فى اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البيانى، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية، إنما هى فى أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ماعداها، وليس يتفق ذلك فى شىء من كلام العرب، إلا أن يكون وزناً من الشعر أو السجع، وهو بهذا لايرى رأى الجرجانى فى أن الكلمات ليس لها مزايا خاصة، والله أعلم.

٤٤ — هذان رأيان يبدو أنهما متعارضان فى كون فصاحة الكلمة جزءاً من البلاغة أو الفصاحة، وإن لم يكن بينهما فرق، فالأول لاينظر إلى الجزء وهو الكلمة، بل لاينظر إلا إلى المجموع المؤتلف، والآخر ينظر إلى الأجزاء وإلى المجموع معاً، بل لا يرى المجموع يكون بليغاً إلا إذا انتهى إلى ألحان مؤتلفة، من حروف فى كلمات، متآلفة، وكلمات فى أسلوب مؤتلف فى نغماته وترتيله، وتناسق بيانه.

ولا شك أن الكلمة وحدها من غير أن تكون فى مجموعة، ليس لها بلاغة ولامؤدى، فكلمة شجر من غير أن تكون فى كلام ليس لها مؤدى إلا أن تكون فى جملة مفيدة، تؤدى معنى، وتكون بحروفها وقوتها أولينها متآخية مع أخواتها من الكلام، ولكن لابد للكلمة مع الكلمات الأخرى من أن تكون متلاقية فى لحن القول والمراد منه، وتحقيقه، فهى وحدها لا تؤدى منفردة، ولكن بضمها إلى أخرى يكون المعنى القوى، ويكون النغم الجميل ويكون الترتيل الذى يملأ النفوس، وتطمئن

به ، وتقشعر منه الأبدان إن أنذر ، وتهدأ إن بشر ، وتتفكر العقول إن دعا إلى التأمل .

ومن أنصار هذا المذهب الخطابى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ ، فهو يقول فى رسالته .

« واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف ، متضمنا أصح المعانى من توحيد له عزت قدرته ، وتنزيه له فى صفاته ، ودعاء إلى طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها ، واضعا كل شىء ، ومنها فى موضعه الذى لا يرى شىء أولى منه ، ولا يرى فى صورة العقل أليق منه »(١).

وفى الحقيقة ـ أن الخطابى ينظر إلى الأسلوب على أساس أن الألفاظ قوامه ، وهى دعامة بنيانه ، حتى إن القرآن الكريم لو حاولت أن تنزع كلمة من جملة لتضع غيرها المرادفة لها ، لاختل البناء ، واضطرب ، وهو يقول فى ذلك « اعلم أن عمود هذه البلاغة التى تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التى تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذى إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذى يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذى يكون معه سقوط البلاغة ، ذلك أن فى الكلام ألفاظاً متقاربة فى المعانى . ويحسب أكثر الناس أنها متساوية فى إفادة بيان مراد الخطاب » .

وبهذا انتهى إلى أن الألفاظ فى الكلام البليغ لها مقصد خاص من المتكلم ، إما لنغمتها وإما لمعناها أو هما معاً . ولا يكون مرادفها صالحا . لأن يحل محلها .

---

(١) رسالة الخطابى ص ٩ فى ضمن رسائل ثلاث فى إعجاز القرآن والخطابى توفى سنة ٣٨٨ .

٤٥ — وكون كل كلمة لهـا لحن قائم بذاته لانحسب أن الجرجانى ينـكره . ولـكن مذهبه البلاغى باعتباره من علماء البيان يجعله يتجه إلى العبارة المتآلفة . والأسلوب الذى تتلاقى معانيه . ولا يتجه ابتداء إلى الألفاظ . ولعله أيضاً يقبل أن تـكون الألفاظ متآخية النغم مؤتلفة الألحان متلاقية فى الـ تيل . وهو يقرره على أنه فرض مقبول فيقول رضى الله عنه فى تلاؤم الحروف فى الـكلمات .

« إن أخذنا بأن يكون تلاؤم الحروف فى الـكلمات وجهاً من وجوه البلاغة وداخلاً فى عداد مايفاضل به بين كلام وكلام على الجملة لم يكن لهذا ضرر علينا ، لأنه ليس بأكثر من أن يعمد إلى الفصاحة فيخرجها من حيز البلاغة والبيان ، وأن تـكون نظيرة لها ، وفى عـــداد ماهو شبيههما من البراعة والجزالة وأشباه ذلك مما ينبيء عن شرف النظم ، وعن المزايا التى شرحت لك أمرها ، وأعلمتك جنسها ، أو بجعلها اسماً مشتركا ، يقـع تارة لما تقع عليه تلك ، وأخرى لما يرجع إلى سلامة اللفظ مما يثقل على اللسان ، وليس واحد من الأمرين بقادح فيما نحن بصدده ، وإن تعسف متعسف فى تلازم الحروف ، فبلغ به أن يكون الأصل فى الإعجاز ، وأخرج سائر ما ذكروه فى أقسام البلاغة من أن يكون له مدخل أو تأثير فيما له كان القرآن معجزاً ، كان الوجه أن يقال له : إنه يلزمك على قياس قولك أن تجوز أن يكون هنا نظم للألفاظ ، وترتيب لاعلى نسق المعانى ، لاعلى وجه يقصد به الفائدة ، ثم يكون مع ذلك معجزاً وكنى فساداً .

وينتهى القول فى هذا إلى أن الخلاف بين الجرجانى والخطابى والجاحظ وغيرهما يكون فى أمرين غير جوهريين .

أولهما — أن الجرجانى لايعتبر للألفاظ منفردة فصاحة أو بلاغة إلا فى ضمن كلام مجتمع ، وحينئذ يكون التآخى أولا وبالذات فى المعانى ، وكون الألفاظ واضحة الدلالة على هذه المعانى ، والتآخى يكون فى المعانى ابتداء .

ثانيهما — أنه لا يعتبر الفصاحة غير البلاغة ، لأن الفصاحة عند من يفرقون بين الفصاحة والبلاغة تكون فى تلاؤم الحروف وتلاؤم الكلمات ، وللألفاظ كما قال ابن الأثير جمال أوتار أحياناً ، وغير ذلك أحياناً .

وإن ذلك اختلاف اصطلاح ، ولا مشاحة فى الاصطلاح ، إنما المشاحة تكون فى المعانى الجوهرية ، لا فى الاصطلاح ولا فى الأمور الشكلية .

ويسلم الجرجانى بأن للألفاظ جمالا ، وأنها فى النظم تكون لنغماتها ، وألحانها مساعدات للمعانى ، ولكنه يمنع منعاً مطلقاً ، ونحن معه أن تكون الألفاظ وحدها والكلمات منفردة سبباً للإعجاز ، إنما الإعجاز يكون فى أمور كثيرة منها تناسق الكلمات ، وماتشعه من معان وأخيلة بيانية فى وسط أسلوب مكتمل البنان يلتقى بنغمه وفواصله ، وصوره البيانية . مع الألفاظ المحكمة . والمعانى السليمة التى لم يكن للناس عهد بها من قبل .

نظرات فى ألفاظ القرآن

٤٦ — إن الألفاظ فى ضمن الأسلوب البيانى الرائع ، ونعتقد مؤمنين أن كل لفظ فى القرآن له معنى قائم بذاته وفيه إشعاع نورانى يتضافر مع جملته ، ويساعد بعضه بعضا فى المعانى العامة للأسلوب والعبارات الجامعة. وإن العبارات مجتمعة يساعد بعضها بعضاً .

ولسنا نستطيع إحصاء تلك النواحى فى جمال ألفاظ القرآن إحصاء ، ولكنا نضرب من الأمثال على مقدار طاقتنا ، ومن غير أن نصل إلى أقصى الغاية وإنما نسدد ونقارب ، بل المقاربة فوق طاقتنا ، وقد سبقنا إلى تلك المحاولة فحول البيان .

اقرأ قوله تعالى : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون »[١]

---

(١) النحل : ١١٢ .

إذا قرأنا ، ورددنا البصر كرتين ، وجـــدنا كل كلمة فى حيزها ، لا تفارقه ، ولو فارقته لوجدناه فارغا لا يملؤه غيرها . ولنبتد بالإشارة إلى ما فى كل كلمة مما اختصت به .

الأولى — كلمة آمنة ، فالأمن معناه عدم الخوف من مغير يغير عليهم ، أو عدو يساورهم ، ولعل ذلك إشارة إلى مكة أو أن هذه القرية هى هى ، كما قال تعالى «أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمناً ، ويتخطف النـاس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون(١)» فتجد فى هذه الـكلمة إشارة إلى نعمة ليست لغيرهم ، واختصوا بها دون الناس أجمعين .

الثانية — كلمة «مطمئنة» فمعنى الاطمئنان يتصل بالنفس . فهى قد منحها الله تعالى القرار ، والسكون والدعة من غير ضعف ، ومع هذه الدعة كان هو يقويها ويثبتها ، مع ما أعطاهم الله من سلطان أدبى على العرب ، وهم ملتقى اجتماعهم ومستقر شعائرهم الدينية ، ومقامهم الـكريم الطيب ، فـكل هذا يشع من كلمة مطمئنة .

الثالثة — يأتيها رزقها — فإن هـذا يشير إلى سهولة الحياة . وأنه لا يأتيهم كسائر العرب بانتجاع الـكلأ . والتنقل فى الصحراء لا ينالون الحياة إلا بشق الأنفس . وبذرقهم فى طلبهم الرزق حر الحياة وقرها .

الرابعة - كلمة - رغداً ؛ فالرغد هو الرزق الطيب المذاق المرىء . غير الوبىء وهو الواسع الـكثير ، فهم فى رزق يأتيهم سهلا طيباً ، واسعاً مريئاً ، لا وباء فيه .

ولـكنهم كفروا بهذه الأنعم كلها فأى صورة بيانية أروع من هـــذه الصورة ، وتجد الـكلمات الأربع متآخية فى معانيها ، متلاقية فى ألحانها منسجمة فى نغماتها ، وكل كلمة منها تعطى صورة بيانية ، فآمنة فيها صورة البلد الذى لا يساوره عدو فى وسط موطن فيه يتخطف الناس ، ومطمئنة

(١) العنكبوت ٦٧ .

يشير إلى الاطمئنان النفسى الساكن القار كالماء الساكن الذى لاتعبث به الرياح ، ويأتيها رزقها طيباً من كل مكان تشير إلى المكانة التجارية التى يأتيها الخير من كل بلد قاص ودان ، وأن لهم رحلة الشتاء .

وإن مجموع الكلمات مع ماتشمه كل واحدة من معان وصور ، يصور حال جماعة من الناس على هذه الأمور المجتمعة غير المفترقة ، وكلها فيوض من أنعم الله تعالى ، ومع ذلك تكفر هذه النعم ، فلاتشكر ، بل تجحد الحق ولا تؤمن ، وهنا تجىء الصورة الثانيـــة من عقاب ، ومؤاخذة على ما ارتكبوا من كفر بأنعم الله ، ونجد أن كلمة أنعم فيها فصاحة وصورة بيانية، إذ أنهم لم يكفروا بواحدة ، بل كفروا بها كلها ، فكان الجحود أشد، والضلال أبعد ، ولكلمة أنعم نغمة هادئة مع سعة المعنى فى الكلمة ، إذ أنها نعم متضافرة ، وفيوض خير من الله تعالى متكاثرة .

هذه حال ما أفاض الله تعالى به عليهم ، كانت فيها صور النعم واضحة كلا وجزءاً فى كل كلمة سيقت لذلك .

فلننتقل من الآية الكريمة إلى الصورة التى حلت محل الأولى ، ولننظر إلى الكلمات السامية كلمة كلمة ثم ننظر إلى الصورة التى تتكون من هذه الكلمات التى كانت كل منها صورة قائمة بذاتها ، وهى أيضاً جزء من الصورة الكبرى التى يكونها المثل القرآنى السامى .

الكلمة الأولى : أذاقها الله فى التعبير بأذاق إشارة إلى أن الإيلام مس نفوسهم ، وبعد أن كانوا فى ترف صاروا يذوقون الضر .

يقول الزمخشرى[1] فى معنى الإذاقة . الإذاقة قد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها فى البلايا والشدائد ، وما يمس الناس منها ، فيقولون ذاق فلان البؤس ، والضرر ، وأذاقه العذاب ، شبه مايدرك من أثر الضرر والألم

---

(١) هو محمود بن عمر الزمخشرى إمام عصره فى اللغة والتفسير والحديث توفى سنة ٥٣٨ هـ.

بما يدرك من طعم المر ، ونرى من التعبير والتقابل ، أنهم بعدما سكن قلوبهم من اطمئنان ، وما كان من العيش الرغد ذاقوا الجوع ، وبما منحوا من أمن ، ذاقوا الخوف ، وهكذا تجد التقابل .

والكلمة الثانية : لباس الجوع والخوف ، فيها صورة بيانية رائعة، فهى تصور الجوع والخوف كأنه لباس لبسهم وأحاط بهم إحاطة الدائرة بقطرها، لا يخرجون منه إلا إليه ، ولا يدورون إلا فى دائرته ، وإن ذلك بلا ريب يفيد الإحاطة الشاملة الكاملة التى لا يستطيعون منها فكاكا ، وهذا يفيد استمراره وتجدده آناً بعد آن ؛ ولقد قال الزمخشرى « وإن اللباس قد شبه به لاشتماله على اللابس ، ماغشى الإنسان والتبس به من بعض الحوادث ، وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف ، فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس ،كأنه قيل ماغشيهم من الجوع والخوف » .

ومهما يكن تصوير إمام البلاغة الزمخشرى من أن التعبير باللباس يفيد أنه غشيهم وأحاط بهم فإن فى الكلام صورة بيانية تصور حالهم بعد الأنعم التى أنعم بها عليهم ،وكفروا بها من أنهم فى صورة من كان لابساً للجوع والخوف ، وهم يذوقونه ،كمن يلبس ملبساً كله قتاد ، يجرح أجسامهم ، ويدمى جلدهم، بيد أن هذا لا يدمى الجلد ، ولكن يمس الحشا بالجوع ، والنفس بذهاب الأمن والاستقرار ، وإنا نجد أن هذه الصورة البيانية التى يصورها القرآن قد تضافرت الكلمات فى تكوينها فاشترك فيها التعبير بأذاقهم ، والتعبير باللباس ، وكون اللباس جوعا وخوفا ، ولباس الجوع والخوف أشد إيلاما من لباس الشوك ، لأن الشوك يؤذى الجلد حساً ، ولباس الجوع والخوف يؤذى الجسم ، ويؤذى النفس وإذا قوبلت هذه الصورة عند الكفر بالصورة الأولى من أمن واطمئنان ، ورخاء فى العيش وطيبه واتساعه ، وجدت الفارق بين صورة النعمة التى كفروا بها والشقاء الدائم بعد الكفر .

ومن ذلك يتبين مقام كل كلمة فى تكوين الصورة العامة ، فوق النغمة الهادئة ، والتصور الحكيم .

٤٧ — ولننتقل إلى مثال آخر ، لا نختاره من القرآن اختياراً ، ولكن نأخذه من غير تخير ، لأن التخير يكون فيما يكون فيه المختار ، وغير المختار ، وكتاب الله تعالى كله خيار ، وكله فوق طاقة البشر ، ولأن الذى يختار يفرض من نفسه حكما ، ومن يكون حاكما على كتاب الله تعالى ؟ إنما يحكم على الكتاب من أنزل الكتاب ، الذى تعهد بحفظه ، وإنما نحن نتلمسه ونطلبه من الكتاب من غير تخير ، لأنه فوق طاقتنا ، وفوق التخير .

اقرأ قوله تعالى « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ، ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر كان يئوسا ، قل كل يعمل على شاكلته ، فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا »[1].

اقرأ هذه الآية ، وقف عند كلماتها وتأمل فى تآخى نغمها ، وتآخى معانيها وتصويرها فى جملتها للنفس الإنسانية ـ الكلمة الأولى ـ أنعمنا ، فقد أضافها الله تعالى إليه وإنعام الله تعالى فيض ، وإسباغ يغمر صاحبه ، والإنعام من الله تعالى يقتضى الشكر كما قال تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد »[2] . وكان هذا يقتضى إقبال الإنسان عليه سبحانه ، والإقبال بالطاعة ، ولكنه لم يقبل بل كفر وطغى أن رآه استغنى .

الكلمة الثانية — أعرض ، وهى كناية عن البعد عن الله تعالى وعدم الإقبال عليه تعالى الله علواً كبيراً وأصل أعرض فى المعنى الحسى أن يولى عرض وجهه بألا يقبل على الله تعالى ، ويطلب المزيد من النعم بالطاعات يقدمها ، ويحب الله تعالى ويخلص له إذ أنعم ، ولكنه يظن أنه استغنى ،

---

(١) الإسراء : ٨٣ — ٨٤

(٢) إبراهيم : ٧

وعند ظن الاستغناء يكون الطغيان ، ويكون ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، ووراء ذلك الفساد الكبير ، والشر المستطير .

الكلمة الثالثة : نأى بجانبه — النأى هو البعد . وكلمة بجانبه ، مؤداها اتخاذ جانب آخر غير جانب الله تعالى فيسير فى ضلاله البعيد ، ويقول الزمخشرى : إن كلمة نأى بجانبه تأكيد لمعنى — أعرض — ونقول إنها تأكيد لمعنى الإعراض من حيث إنه الخطوة التالية بعد الإعراض ، فالإعراض عن الكلام عدم الإصاخة إليه ، وعدم الالتفات إلى دعوة الحق ، وإن هذه خطوة يكون من بعد أن يبتعد عن الله تعالى ، ويجافيه وترى من هذا أن الكلمات من حيث السياق يأخذ بعضها بحجز بعض فى نغم مؤتلف من حيث إن كل معنى يعقبه أخ له مترتب عليه متناسق معه .

ومن مجموع هذه الكلمات يتبين كيف كان أثر النعمة كفراً بها ، وكيف يتدرج الكفر بها ، حتى يكون البعد التام عن الله ، فتكون الطاعة فى جانب ونفس المنعم عليه فى جانب آخر ، وهو جانب العصيان والضلال البعيد ، ثم الطغيان من وراء ذلك .

والصورة البيانية من هذا الكلام قد تضافرت فى تكوينها الألفاظ كلها مجتمعة ، وكل كلمة صـــورة بيانية فى ذاتها ، فإنعام الله تعالى يعطى صورة بيانية للمنعم وفيض نعمه تعالى ، والإعراض بتلقيها بجانب الوجه صورة حسية ، ثم النأى من بعد ذلك .

هذه صورة المنعم عليه فى جحود نفسه ، وعدم التفاتها إلى الاعتراف بالنعم وشكرها ، مع أن شكر المنعم واجب عقلا ، وهو منبعث الضمير الطيب الطاهر .

لننتقل من هذه الصورة التى تصورها الكلمات منفردة إذ كل كلمة صورة بيانية رائعة ثم هى بتضامنها وتلاؤمها تعطى صورة كاملة لنفس

كفرت بأنعم الله وبطرت معيشتها واتخذتها سبيلا لظلم العباد ، والكفر برب الناس ملك الناس .

ثم نتجه إلى صورة تلك النفس ، وقد أصابها الشر ، ولم تنل النعمة ، وهنا كلمتان كلتاهما تصور صورة من نزول الضر ، وأعقابه فى النفس الجاحدة ، الكلمتان هما مسه الشر ، وكان يئوسا . إن المس وهو الإصابة بالشر ، وإن التعبير بمس يفيد أن الإصابة بالشر ولو خفيفة تصيب من النفس ما تجعلها يائسة ، والشر كل مالا يرغب فيه ، ويطلق على الأمور الضارة حسياً ونفسياً ، وعلى الأمور القبيحة خلقياً والتعبير بالشر هنا يشمل الضار ، كقوله « وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه[1] » ويشمل نتائج الطغيان والعصيان فيكبه الله تعالى على وجهه ، ويشمل العقاب الذى ينزله جزاء لما ارتكب ، وإذا كان قد جحد بنعمة الله تعالى ، إذ أنعم بها ، وأعرض ، ونأى بجانبه ، فإن النفس التى تطغى بالنعمة تذل وتهون وتضعف بسلبها ويصيبها اليأس المطلق إذا نزلت بها النقمة .

الكلمة الثانية كان يئوسا وهنا نجد كلمـــة كان الدالة على اللزوم والاستمرار ككان فى قوله تعالى « وكان الله غفورا رحيما[2] » ، وكلمة يئوسا بصيغة المبالغة الدالة على لزوم اليأس وإيغاله فى النفس وعدم افتراقه عنها ، فيكون فى حال بؤس مستمر ، ويأس دائم ، يكفر — إذا أنعم الله عليه ويصاب بالطغيان ، ويكفر إذا اختبره الله تعالى بالشر يصيبه .

ولا شك أن هذه الجمل السامية ، والكلمات تصور حال إنسان غير قار ، ولا ثابت تبطره النعمة ، ويؤنسه الاختبار ، وكل ذلك فى ألفاظ منسجمة فى نغماتها ، متضافرة فى معانيها ، تدل على النفس المنحرفة ، وتصورها .

---

(١) يونس : ١٢ (٢) النساء : ٩٦

ولقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله تعالى : « قل كل يعمل على شاكلته ، فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا »(١) وهنا نجد النص الكريم يفيد ما يدل على أن الناس جميعا ليسوا سواء فى ذلك ، فنهم شقى على الصورة التى ذكرها سبحانه ومنهم سعيد ، وهم الصابرون الذين لا تضطرب نفوسهم بنازلة تنزل ، ولا يطغون بنعمة تسبغ وكأن هذه الجملة فى موضع التخصيص من عموم الإنسان المذكورة أولا كالاستثناء فى قوله تعالى: «ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ، ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور ، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير»(٢) .

والكلمة السامية قل كل يعمل على شاكلته ، نجد فيها ثلاث كلمات منها ينبثق نور ، فالأمر للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يقول ذلك فيه ما يصور أن بعض الناس كذلك وأن فى الناس من ليسوا كذلك ، فدلت كلمة «قل» التى تتضمن الرد على هذا الاعتراض المفروض ، وانتقل الكلام من ضمير المتكلم من الذات العلية إلى الخطاب الذى أمر به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأن الأمر تنبيه ، يتولاه صاحب الرسالة المتكلم عن الله نازلا إلى مرتبة المعترضين ليواجههم بالرد ، وفى ذلك فضل تنبيه وتقريب ، وذات الانتقال من المتكلم إلى المخاطب فيه تجديد بيانى ، وتصوير بلاغى ، والشاكلة-الهيئة والصورة والسجية ، والمنهج الذى يخطه لنفسه ، ويسير عليه من الضلالة كالأولين والهدى للمهتدين ، والشاكلة تطلق على الطريقة ، ويقول الزمخشرى إنها من قولهم : طريق ذو شواكل ، الطرق التى تتشعب منها .

وفى هذا الكلام معان دقيقة تنبعث من صور الكلمات ، ومرامى العبارات ، وحسن المقابلات ، إن الناس قسمان قسم شاكلته ، تلتى النعمة

---

(١) الإسراء : ٨٤ (٢) هود : ٩ — ١١

بالإعراض ، ووراء الإعراض الظلم والطغيان والفساد فى الأرض ، وقسم صابر ضابط لنفسه ، لا تبطره النعمة ، بل يصبر عليها فيطيع الله ، ويقوم بحق شكرها ، والأول مضطرب النفس غير منضبط القلب تطغيه النعمة فيستكبر ، وتوئسه النقمة ، فيكفر باليأس من رحمة الله .

وإن لله تعالى العلم الكامل بالصنفين ، وهو مجاز للفريقين ، وقد ختم النص الكريم بقوله تعالت كلمته « فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا » وهنا نجد المعانى تشع بنورها من هذه الكلمات .

فأولا — الفاء التى تفيد ترتب الجزاء على الأعمال ، وثانياً التعبير بربكم الذى فيه الإشارة إلى أنه هو الذى خلق فسوى وهو المربى المكمل — الهادى كلا إلى غايته ، وثالثاً — ترتب العلم الكامل على كونه الخالق ، ورابعاً — ذكر العلم الكامل بأفعل التفضيل الذى يدل على أنه لا علم فوقه إن كان ثمة تفاضل ، وخامساً — التعبير عن الجزاء بأنه أثر للهداية ، وأن الله تعالى أعلم بالمهتدين ، وسادساً — التعبير بأفعل التفضيل فى أهدى . أى أنه العالم بمن اهتدى بعد أن يغفر الله ، وسابعاً — فى التمييز بكلمة سبيلا ، وفيه بيان بعد نوع من الإبهام ، وبذلك يكون العلم متمكنا فضل تمكين ، علم بالهداية وعلم بمناهجها ، وهو السبيل القويم .

٤٨ — بعد هذا النظر السريع إلى تلك الآية نتجه إلى آية أخرى نجد فيها الكلمة تدل على معنى لو غيرت بغيرها مما يكون فى معناها ظاهراً ، مرادفا لها بادى الرأى ، لا يمكن أن يؤدى المعنى الذى يشرق منها ، ويجتمع به فى الدلالة صورة اللفظ ، وإشراق المدلول .

اقرأ قوله تعالى : « والصبح إذا تنفس[١] » فإننا لو أردنا تغيير كلمة من هاتين الكلمتين لتغيرت الصورة البيانية ، ولننظر فيهما .

---

(١) التكوير : ١٨

الكلمة الأولى ، وهى الصبح ، فإنها تدل على النور الذى يتخلل الظلمة ، ويسرى فيها شيئاً فشيئا وينبعث فى هذا الوجود ، فيملؤه نوراً ، وتنبعث من بعده الحياة ، ويخرج الناس إلى معايشهم بعد سبات الليل وسكنه ، وما يغشى به الكون من لباس الظلمة .

ولا شك أن كلمة الفجر قد تدل على بعض معانى كلمة الصبح ، والعلماء يعدونهما من المترادفين ، ولكن عند التحقيق نجد كلمة الفجر تدل على معنى شق الظلمة ، وعلى مجرد ابتداء نهاية الظلمة ، ولذلك يقترن بها ذكر الليالى ، كما قال تعالى : « والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر [1] » فقد كان ذكر الليالى مع للفجر متناسباً ، لأن الليل متآخ مع الفجر فى معناه ، وقصد به مجرد نهاية الليالى .

ولكن كلمة الصبح لوحظ فيها الإشارة إلى ابتداء النهار ، فإذا كان وقت الفجر والصبح واحداً ، فإن الفجر فيه بيان إنهاء الليل ، والصبح ابتداء النهار ، ولذا يستحسن الناس أن يقال طلع الفجر ، ولا يقال طلع الصبح ، بل يقال أشرق الصبح ، وهنا نجد المعنى واحداً فى الجملة ، ولكن الدلالة اللغوية الدقيقة مختلفة ، فهذا إشراق ، وذاك إنهاء .

والكلمة الثانية — كلمة — تنفس — فإن كلمة التنفس فى ذاتها تدل على بدء مظاهر الحياة شيئاً فشيئا ، ذلك لأن أصل التنفس من النفس ، وهى الحياة ، وهى أيضاً الريح ، وهى الحركة الدائمة المستمرة ، فى الداخل والخارج ، فهى تشمل مايدخل فى النفس من أسباب الحياة ، وما يخرج منها لتستمر الحياة ، ويقال نفس عنى أى فرج عنى ، وبذلك يكون كلمة التنفس يندرج فيها ثلاثة معان تتصل بالحياة الدائمة المستمرة أولها التنفس بمعنى الحياة ، وثانيها حركتها واستمرارها ، وثالثها تدرجها فى الظهور شيئاً

---

(١) الفجر : ١ — ٣

فشيئا ، ولو أنك وضعت كلمة أشرق بدل تنفس ، كأن يقال ، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى : « والصبح إذا أشرق » ، أو أصبح أو أنار أو أضاء ، فإن كلمة منها أو كلمات لا تقوم مقام تنفس ، ولا تغنى غناءها .

ولو أننا تركنا لفظ تنفس بانفرادها ، وتابعناها مقترنة بكلمة الصبح ، وهو النور الذى يبتدىء به النهار ونظرنا مايصوره قوله تعالى : (والصبح إذا تنفس) ورأينا كل حى فى الوجود ، يفيض عليه الإصباح بالعمل والحركة فالندى يصيب الزهور ، والضوء يضىء الحدائق الغناء والطيور تزقزق بموسيقاها وينبعث كل من فى الوجود خارجا من لباس الليل إلى معاش النهار ، فالزارع يخرج إلى حقله ، والماشية تنبعث من مرابضها ناعقة ، فرحة ، سائرة إلى المراعى ترعاها ، والكلأ تنتجعه ، والصبيان يخرجون من أكنانهم كما تخرج الطير من أكنانها ، وكل ما فى الوجود يخرج مما يخفيه الظلام .

وهكذا نجد كل مظاهر الحياة تندرج فى الظهور ، حتى يصل إلى الضحا فيكون المعترك القوى الصاخب اللاغب ، فهل ترى كلمة تدل على هذه المعانى أبلغ من كلمة : والصبح إذا تنفس ، وبهذا يتبين أن ألفاظ القرآن الكريم كل كلمة فى حيزها ، لا يملأ غيرها فى موضعها فراغها .

٤٩ — بعد هذا البيان الذى حاولنا فيه أن نتسامى إلى أن نذكر مواضع البلاغة أو الفصاحة فى كل الكلمات التى سقناها وتلونا آياتها ، وكون كل كلمة فى موضعها ذات بلاغة خاصة تصور صورة بيانية رائعة ، وهى مع أخواتها تتلاقى فى صورة كاملة ، لها أطياف تروع القارىء ، وتستولى على لب المتفهم .

ولننتقل الآن من الألفاظ إلى عبارات لها معان لا يحل محلها فى نسجها ولا فى مدلولها مايقوم مقامها ، ولنذكر منها أربع آيات .

أولاها قوله تعالى «واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه

الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض، واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون »[١]

وإن هاتين الآيتين الكريمتين تصوران رجلا آتاه الله تعالى العلم بالآيات الموجبة التصديق بالحق ، وأن هذه الآيات أحاطت بقلبه ونفسه ، حتى لا مناص من إنكارها كما يحيط الإهاب بالجسم ولكنه ترك الأخذ بالهدى استجابة لداعي الشيطان وصار من الضالين الذى أغواهم إبليس اللعين ، فكان مثله كمثل من ينسلخ عن الإهاب الذى لبسه ولصق بجسمه ، ولو شاء الله تعالى لرفعه من كبوة الضلال بما آتاه الله تعالى من علم ، ولكنه هو الذى انحط إلى الأرض ونزل إليها ، بسبب هواه فصار مثله كمثل الكلب يلهث دائماً ، إن ترك يلهث ، وإن حمل عليه يلهث ، ولننظر فى الكلمات التى تشتمل عليها هذه الآيات .

الكلمة الأولى — انسلخ — والسلخ نزع جلد الحيوان يقال سلخته فانسلخ ، ووضع هذه الكلمة . فى ذلك النص الكريم له معنى لا يوجد فى لفظ غيره ، وهو يشير إلى أن البينات والآية المعلمة للحق أحاطت به ، واصقت بنفسه واتصلت بعقله اتصال إهاب الحيوان بلحمه ، ولكنه انسلخ من هذه البينات فكلمة انسلخ فيها استعارة ، فشبه الكفر والفساد ، بالانسلاخ فى الأهاب لكمال الملازمة ، ولأن الانسلاخ يكون بمعاناة وعنف ، إذ أن مادة المطاوعة لا تكون إلا للأفعال التى تحتاج إلى معالجة ، فلا يقال كسرت القلم فانكسر ، ولا يقال كسرت الزجاج فانكسر ، ولكن يقال كسرت الباب فانكسر ، ويقال طويت الحديد فانطوى ، فكان هذا تصويرا لإثبات أن الكفر ضد الفطرة ، وأنه يحتاج إلى معاناة للنفس ، ومقاومة لدواعي الهدى ، ولكنها لا تكون إلا اتباعا لهوى الشيطان .

---

(١) الأعراف : ١٧٥ — ١٧٦ .

الكلمة الثانية – أتبعه الشيطان : أى لحقه الشيطان ، فإنه يقال أتبعه إذا لحقه ، ومن ذلك قوله تعالى «فأتبعوهم مشرقين»(١) وقوله تعالى «فأتبع سبباً»(٢) ، وقوله تعالى : «وأتبعناهم فى هـذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين»(٣) «وإن وضع هـذه الكلمة فى هذا الموضع لهو وضع بلاغى عميق ، ففيه إشارة إلى أن الشيطان إنما يلاحق الذين يتركون الآيات، ولا يعملون على الأخذ بموجب البينات ، فأول دركات الضلال هو ترك الدلالة المعلمة للحق مع قوة سلطانها ، وإذا تركها فإن الشيطان يلحقه ، ويأخذ به إلى آخر غايات الضلال ، وإذا وصل إلى هذه الدرجة صار من الغاوين ، والغواية معناها الجهل المردى ، الذى يصحبه اعتقاد فاسد مردود وكأنه بهذا الانسلاخ من موجبات المعرفة ، ودواعى الحقيقة ينقلب من عالم بالبينات مدرك لها إلى جاهل أرداه جهله فى الفساد .

الكلمة الثالثة – «أخلد إلى الأرض» ومعنى أخلد إلى الأرض ركن إليها يحسب أن الركون إليها يجعله خالداً ، ويجعله باقياً مستمراً ، وهو يريد البقاء على أى صورة وإن مقابلة هـذه الكلمة بقوله تعالى «ولو شئنا لرفعناه بها» أى بالبينات يفيد أنه اختار الاستفال بدل الارتفاع ، والضعة بدل الرفعة ، ويكون فى هذا إثبات أن الرفعة تكون بطلب الحق والإيمان والاستجابة لبيناته ، وعدم الانخلاع من موجبها .

وكل هذه المعانى تشرق من مقابلة الارتفاع بالإخلاد إلى الأرض .

وهنا نجد صورة رائعة تلتقى فيها أطياف مميزة بألفاظ مصورة ، فهى تصور شخصاً أفاض الله تعالى عليه بأسباب الإيمان بالحق ، والتصقت به ، حتى صارت كأنها جزء من كيانه ، وقد اتصلت ببنائه ، ولكنه بسبب أنه

---

(١) الشعراء : ٦٠
(٢) الكهف : ٨٥
(٣) القصص : ٤٢

أخلد إلى الأرض وكان نزوعه متصلا بأعلاقه قد سلخ البينات الملتصقة بها بانغماس فى الضلال متكرر مستمر ، حتى انسلخ من الهداية ، وفى ذلك إشارة بيانية إلى أنه ترك الهداية بعد عمل مستمر قام به ، فهو قد ابتدأ فى الشر متبعاً هواه ثم كرره حتى كون له خطوطاً فى نفسه ، وتكرر حتى صارت الخطوط مجارى ، فكان الانسلاخ وبعد الانسلاخ وجد الشيطان طريقه فاتبعه بغية الضلال ، وقد مثله تعالى بمثال آخر ، وذكر له صورة أخرى .

وذكر فى الكلمة الرابعة : « فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، واللهث كما يقول علماء اللغة أن يخرج الحيوان لسانه مرطبا بلعابه فى حال عطشه أو جوعه أو إعيائه ، أو إهاجته ، وذعره ، ويقولون إن أخس أحوال الكلب أن يكون منه اللهث فى كل أحواله ، فإنه يكون مكروباً دائماً ؛ وقد ذكر القرآن الكريم حال من ينسلخ من الهداية إلى الغواية بأنه يكون فى حال هياج نفسى مستمر لا يستقر على قرار ، ولا يسكن على حال ؛ إذ أن الهداية إيمان ، والإيمان اطمئنان وقرار ، ومن يكفر بالله ، وينسلخ على هدايته اتباعا لهواه يكون فى لهج مستمر ، فيكون كالكلب فى أخس أحواله وأذلها ، إن هيج لهث ، وبدت صورته شوهاء ، وإن سكت عنه بدا على هذه الصورة .

وإن هذا تصوير واضح لمن غلب عليه هواه ، إذ تغلب عليه شقوته ، ويكون فى اضطراب ، وشعور بحرمان دائم يستقر فى نفسه ؛ لأن الهوى يجعل النفس طلعة تتطلع ولا تهدأ ولا تستقر ، ولا تطمئن .

ونرى من هذه الآية وما سبقتها كيف يكون كل لفظ مؤدياً معنى خاصاً يقصد ، ويعطى صورة من البيان لها أطياف كأطياف صورة التصور الحسية التى تصورها يد صناع لمصور ماهر ، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى ،

ومن مجموع هذه الصور المتكونة من الكلمات تتكون صورة كلية يتمثل فيها أعلى صور البيان .

٥٠ — ولننتقل من هذه الصورة الرائعة التى تتكون من مجموع صور بيانية للعبارات إلى صورة بيانية لبيان حال ، ماينزل بالكفار يوم القيامة ، ولا يصح أن يجول بخاطر أحد أننا نبحث فى ألفاظ القرآن الكريم متخيرين ، بل نفتح فنجد الأمثال الواضحة من غير تحر ولا تخير .

لقد قال تعالى فى سورة الدخان فى تصوير غذاء المشركين يوم القيامة ، وترى كل كلمة من النص تبين صورة مؤلمة مزعجة لما يتناولون ، ويشترك فى الصورة نغمة الكلمات ونسقها ، وتآخيها .

اقرأ قوله تعالى : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم » (١) .

ولننظر إليها ، ونبين ما فيها من صورة بيانية ، تتخذ منها ومن أخواتها صور بيانية لأغلاظ عيش وأقسى حياة ، وكيف يكون الغذاء كله إيلاما لا إشباع فيه ، وإيذاء لا متعة معه ثم يختم القول بتهكم على من كان يحسب نفسه عزيزاً كريماً ، والمؤمنين أراذل منبوذين .

أول هذه الكلمات شجرة الزقوم ـ وهذا استعمال قرآنى لم يكن كثيراً عند العرب ، وإن كان أصل اشتقاقه من لغتهم ، والزقوم صيغة مبالغة من الزقم ، والزقم إعطاء الطعام الكريه أو الأمر الكريه ، ويقال تزقم إذا ابتلع شيئاً كريهاً غير مرغوب فيه ، بل تنفر عنه الطباع وتستكرهه .

فشجرة الزقوم الشجرة التى لا تثمر إلا ثمراً كريهاً تعافه النفوس ، ولا يناله المتناول إلا مكرها بإكراه من ذى جبروت ، أو من جوع ، أو

---

(١) الدخان : ٤٣ — ٤٩

من يكون فى حال من يريد تناول أى شىء مهما يكن ذلك الشىء ، ومهما يكن مذاقه ، ومهما تكن وباءته ، والتعبير بشجرة الزقوم فيه إشارة إلى أنه طعام مثمر مستمر ، لأن ثمراته الوبيئة الكريهة لا تنقطع ، فهى فى شجرة دائمة الإثمار .

وفى هذه الآية يذكرها ، وفى آية أخرى يذكر سبحانه أنها تنبت فى أصل الجحيم ، فهى من ثمرات شجر جهنم ، وفى ذلك تصوير لحال الطعام ، وتصوير لحال المقام ، وكيف أن المترف فى الدنيا يتنقل من واد نيرانى إلى واد مثله وكل حياته منها ، فإقامته فيها وغذاؤه من ثمار أشجارها ، وبئس مثوى الكافرين .

الكلمة الثانية : طعام الأثيم — يقول الذين تكلموا فى ألفاظ القرآن إن الإثم الأمر المبطىء عن الخير ، المعوق عنه أو المؤخر له وعبر عنها بكلمة أثيم ، وهى صيغة مبالغة من أثم وصفة مشبهة تدل على حال دائمة مستمرة ، فهى تدل على أنه فعل الإثم كثيراً ، ولذلك وصف بصيغة الصفة المشبهة ، وهو حال دائمة عنده ، إذ الصفة المشبهة تقتضى أن يكون الموصوف بها فى حال دائمة فى صفتها لا تفارقه ولا يفارقها ، وهنا معنيان كلاهما يدل على بلاغة اللفظ ، وعظم مؤداه —

أول المعنيين . ذكر الوصف الذى يشير إلى أن سبب ذلك الجزاء هو الإثم الدائم الكثير الذى كان منه فى الدنيا ، فالجزاء من جنس العمل ، والعدل يقتضى ألا يتساوى المسىء بالمحسن ، فهل يستوى الأعمى والبصير ؟ —

ثانيهما ، أن لذلك الثمر الكريه الذى تثمره شجرة من نار جهنم هو الطعام الدائم المستمر الذى لا يقدم للطغاة إلا هو ، فلا يذوقون طيباً ، لأنهم لم يذيقوا الناس فى الدنيا طيباً ، وهل يكون جزاء الخبيث إلا خبثاً .

الكلمة الثالثة : كالمهل يغلى فى البطون ـ والمهل دودى الزيت أى الراسب أو بقايا الزيت ، وتكون مادة سوداء معتمة ، ثم هى فى ذاتها شىء ردىء

وأعطاه القرآن وصفاً ، وهو أنه يغلى فى البطون ، فهو بقايا رديئة أصابها العطن ، لغليانها إما لحموضتها ، إذ تغلى كالأشياء المعطنة التى تتخمر ، وتغلى بالزبد ، وإما لأنها تكون ذات حرارة شديدة تغلى من شدة هذه الحرارة ، ولعل غليانها من الأمرين فهى متعفنة تغلى بالزبد من الحموضة ، أو هى حارة تغلى منها البطون لشدة الحرارة ، وفى كلتا الصورتين تدخل على البطون غذاء وبيئاً ، إن كان فيه مادة الغذاء ، وليس غذاء مريئاً ، فهو إن يمنع غائلة الموت ، ويبق ، فإنما يبقى لتستمر الآلام ، وتكون حياته نكداً ، فطعام كريه فى مذاقه ، وبىء فى مآله ، مؤلم فى كل أحواله .

وقد يقال إن الأظهر هنا أن الغليان من العفونة التى تكون من بقايا هذا الزيت ، لأن التشبيه جاء بعد ذلك فى قوله تعالى «كغلى الحميم» ، وهو الماء الحار إذا بلغ أقصى درجة الحرارة ، فغلا واشتد غليانه ، والجواب أن الزيت يغلى من شدة الحرارة كغليان الماء ، وهو فى هذه الحال يكون أشد ، لأنه يكون فى درجة حرارة أعلى ، وكان تشبيهه بالماء للتصوير والتقريب ، وكثير من تشبيهات القرآن للتقريب والتصوير ، فالغليان يكون بالعفونة ، وبالحرارة معاً .

الكلمتان الثالثة والرابعة : «خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم» فإن كل كلمة من هذه الكلمات تصور صورة عنيفة لهذا الذى عصى وغوى ، وضل إذ حسب أنه استغنى .

فكلمة الأخذ تنبىء عن القبض بعنف ، وقد كان فى القرآن الكريم ما يدل على العنف فيها كما قال تعالى : «وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد [1]» ، وكان الأخذ بأمر الله للملائكة غلاظ شداد ، فكان الأخذ فى ذاته شديداً ، وكان الآخذون أشداء ، وتحميلهم

---

(١) هود : ١٠٢

هنا مع وصفهم فى آية أخرى بأنهم غلاظ شداد ، فيه إرهاب وبيان لعظم الأخذ بالآخذين .

وقد فسر سبحانه فى الآية بما يدل على شدة الأخذ ، وبيان أنه نوع خاص منه ، إذ قال سبحانه « فاعتلوه » إذ العتل هو الأخذ بمجامع الشيء والإحاطة به وجره بالقهر والعنف ، فإذا كان الأخذ فى ذاته عنيفاً ، فهو فى هذا النص أشد عنفاً ، إذ هو جر وإحاطة قوية بالمأخوذ ، وإن الأخذ بهذه الصورة من جر عنيف وإحاطة فيه ما يدل على الإهانة ، والتحقير ، وخصوصاً إذا كانوا يحسبون أنهم وحدهم الكرام ، وغير أراذل دونهم فإن الأخذ بطريق العتل يعطى صورة المهانة التى يكون عليها من يستكبرون على الحق أن يتبعوه ، ويتبع الحق أهواءهم ، وفى هذا بيان أن هذا العنف جزاء وفاق ، لما كان منهم من غطرسة مقيتة ، فإنهم سيعاملون بمثلها يوم القيامة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

الكلمتان الخامسة والسادسة : « إلى سواء الجحيم » فكلمة سواء معناها المكان المتوسط ، والجحيم النار المتأججة التى تكون فى مهواة ، والصورة التى توضحها كل كلمة من هذه أنه يؤخذ عنوة ويوضع فى وسط النيران المتأججة التى تشتعل وتتأجج مرتفعة من وهدة جهنم إلى أعلى ، ويلقى فى المكان المتوسط بحيث لا يكون قادراً على الخروج منها ، إذ لا يكون فى طرف من أطرافها ليستطيع أن يخرج منها ، بل هو فى وسطها لا ينتقل إلا إليها ، وليته يستمر على حاله لم يجىء له عذاب من خارجها ، بل إنه يجيئه العذاب من الخارج ، فيلتقى عذاب الداخل والخارج معاً بل يجىء ما تدل عليه العبارات التالية :

الكلمات السابعة والثامنة والتاسعة : « ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم » والصب هو نزول الماء من أعلى إلى أسفل ، ويكون متدفقاً مندفعاً ، وهو مرتفع من فوق رأس الأثيم من عذاب الحميم ، فالصب فى ذاته من عل

يؤلم ولو كان ماء بارداً . فكيف الحال إذا كان عذاباً ، فهو صب لا لأجل التبريد ، ولكن لأجل التعذيب ، والإضافة هنا بيانية أى عذاب هو الحميم وهو السائل الحر الشديد الحرارة ، فهو عذاب ينزل فوق الرأس ، فيذيب أديمه ، ويصهره دهنا .

وباجتماع الآيات من أولها يكون العذاب المهين فى غذاء من المهل من الزيت الردىء يغلى فى البطن من شدة العفن ، ويغلى من شدة الحرارة ، ويساق فى هذه الحال مأخوذاً أخذاً عنيفاً محيطاً بمجامعه إلى وسط جهنم ، ثم ينزل من فوق رأسه عذاب هو سائل شديد الحرارة ، يصب على رأسه صباً عنيفاً يذيب كل ما يقع عليه .

ومع هذا العذاب المهين المؤلم الشديد يوجد عذاب معنوى بالتهكم عليه فيقول لسان الحال «ذق إنك أنت العزيز الكريم » ليعلم أنه كان طاغياً .

٥١ — هذه جمل من الآيات الكريمة تسامينا فحاولنا أن نسمو إلى ألفاظ قرآنية مشرقة بمعان ، وكل كلمة منها لها طيف خاص بها ، وتدل على معان عميقة تصور ناحية بيانية تبدو واضحة فى انضمامها لغيرها ، وتتكون من مجموع الصور البيانية للكلمات صورة بيانية رائعة ، وإذا كان لكل صورة حسية أطياف تعطى الصورة حيوية ، فالصور البيانية لها أطياف عالية ، تعطى الصورة روعة عالية ، لا توجد فى أى كلام غير القرآن الكريم .

وإن الصور البيانية القرآنية تبدو أوضحها تكون فى القصص القرآنى وإن كان كل البيان القرآنى رائعاً واضحاً ، فإن القرآن فى وصف الحوار والأجواء الفكرية والاعتقادية يصورها تصويراً واضحاً ، فإذا وصف حالا لرجل تجده يصور قلبه وخواطره .

اقرأ قوله تعالى : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال يا موسى : إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج إنى لك من الناصحين ، فخرج منها

خائفاً يترقب ، قال رب نجنى من القوم الظالمين ، (١) هذه القصة بسياقها كل لفظ منها ينبىء عن معنى اللهفة والحذر فهذا الرجل الناصح الأمين تجده يسعى من أقصى المدينة ، والتعبير بأقصى يدل على المحبة الخالصة الطيبة ، ثم كلمة يسعى تدل على أنه جاء عدواً لاقرار عنده ، ولا اطمئنان ، وقوله « إن الملأ » وهم كبار القوم يدبرون الأمر ليقتلوك .

واستجاب موسى لنصيحة الرجل الأمين ، فخرج خائفاً يترقب « انظر إلى كلمة يترقب » فهو ينظر يميناً وشمالا وأماماً وخلفاً يترقب من يأتيه من أمامه ، ومن يأتيه من ورائه ومن يأتيه من شماله ومن يمينه ، وكلمة يترقب تصور تلك الحال ، وتصور النفس المحترسة الآخذة تجدها فى اطمئنان نفسى ، واحتراس من غير اضطراب ، فالمترقب الخائف غير المضطرب الخائف ، لأن الخائف المضطرب لا يحسن الترقب ولا الحذر ، فيصيبه الهلع فيخاف من غير مخوف ، ويقع بهلعه وفزعه فيما يخشاه ، ولفظ القرآن الكريم ينبىء عن هذه المعانى السامية . والكلمات صور لمعان حسية ومعنوية ، ظاهرة وباطنة والله سبحانه السميع العليم ، الحكيم الذى أنزل كتابه المبين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

---

(١) القصص : ٢٠ — ٢١

الكلمة مع أخواتها والعبارات مع رفيقاتها

٥٢ — قلنا إن للكلمة إشراقاً خاصاً ، فكل كلمة لها إشعاع فكرى ، ولكنها لا يبدو منها ذلك الإشعاع ، والبلاغة البيانية إلا مع أخت لها تناسبها ، وتتلاقى فكرياً معها ، فمثلا كلمة تنفس التى ذكرناها فى قوله تعالى «والصبح إذا تنفس» لا ينبعث منها ذلك الإشعاع الفكرى إلا إذا كانت كلمة الصبح معها ، فلابد لكى يكون ذلك الإشعاع المعنوى مع صحيحاً واضحاً مؤدياً إلى غايته من أنه يكون مقترنا بالصبح ، ومع أن الإشعاع منها وحدها ، إلا أنه لا يضىء إلا مع كلمة الصبح ، وكلمة الصبح لا تفترق عن كلمة الفجر ، إلا إذا كان يتبعه التنفس ؛ والإسفار فالصبح والتنفس متلازمان ، وإن كان كل منهما مؤديا معنى مستقلا ، والتلازم كان بألا يتبين ذلك المعنى الاستقلالى إلا بضم الأخرى إلى الأولى .

وذلك ما أشرنا إليه فى ابتداء الكلام فى بلاغة الكلمة القرآنية ، وما ارتضاه الجرجانى الذى حمل عبء القول عن نفى بلاغة اللفظ المنفرد ، فقيد نفيه بأن يكون مستقلا منفرداً ، فإذا انضم إلى غيره بدت بلاغة الكلمة فى أنه يكون لها صورة بيانية ، وبانضمامها تكون لها صورة بيانية من الهيئة المجتمعة .

وقد راجعنا من بعد ذلك القاضى عبد الجبار[1] فى كتابه إعجاز القرآن ، فوجدناه يقرر فصاحة الكلمة منفردة ، ولكن لا تبدو بلاغة معانيها إلا إذا تضامت مع غيرها فهو يقول :

« اعلم أن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلام ، وإنما تظهر فى الكلام

(١) هو القاضى أبو الحسن عبد الجبار توفى سنة ٤١٥ هـ .

بالضم على طريقة مخصوصة ، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة ابتداء ، وقد يجوز أن تكون هذه الصفة بالمواضعة التى تتناول الضم ، وقد تكون بالإعراب الذى له مدخل فيه ، وقد تكون بالموقع ، وليس لهذه الأقسام رابع ، لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة ، أو حركاتها ، أو موقعها ، ولا بد من هذا الاعتبار فى كل كلمة ، ثم لا بد من اعتبار مثله فى الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض ، لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة ، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها ، فعلى هذا الوجه الذى ذكرناه إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها .

هذا كلام من ذلك الإمام المعتزلى ، نهج فيه نهجاً فلسفياً ، ولكنه يؤدى إلى ما قصدنا إلى بيانه ، ولعله يريد من المواضعة الوضع اللغوى للكلمة ، ويشمل ذلك الأصل اللغوى ، والحقيقة العرفية ، والمجاز والاستعارة والتشبيه ، وغير ذلك ، ويريد من الموقع موقع الكلمة من أخواتها من غير تنافر بينهما ، بحيث تكون الكلمة لفق أختها ، متناسقة متناسبة ولعله يريد من موقع اختيار الكلمة فى وضعها بأن تكون فاعلا أو مفعولا أو حالا ، أو فيها اختصاص ، إذ عبر بالإشارة القريبة ، وهكذا ، فهو لم ينظر إلى بنية الكلمة وحدها بل نظر إلى موقعها من الإعراب .

وعلى ذلك نرى أن الكلمة البليغة تظهر بلاغتها مع أخواتها ، وأن الكلمة قد تكون بليغة فى موضع ، ولا تكون بليغة فى موضع آخر فى كلام الناس ، أما القرآن فالكلمة تكون بليغة دائماً ، لأن منزل القرآن وهو الله تعالى يضع الكلمات فى مواضعها ، وفى الكلام الذى ينسب إلى الناس قد تكون اللفظة فى موضع بليغة ، وفى غيره غير ذلك ، ولذلك يقول عبد الجبار فى تفاوت كلام الناس « لا بد فى الكلامين اللذين أحدهما يكون أفصح من الآخر أن يكون إنما زاد عليه بكل ذلك أو ببعضه (أى بالأمور السابقة) ولا يمتنع فى اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت فى معنى تكون أفصح منها إذا استعملت فى غيره » والله أعلم .

٢ ـ الأسلوب القرآنى

٥٣ ـ قد تكلمنا فى سابق قولنا فى ألفاظ القرآن المفردة، أن اللفظ المفرد له بلاغة خاصة فى ضمن الأسلوب وأن كل كلمة فى جملة من الكلام تدل بمفردها على معان تتساوق مع المعنى الجلى للكلام، وأن كل كلمة تكون بمفردها صورة بيانية تكون جزءاً من الصورة العامة للقول وقلنا إن ذلك ليس معناه أن الكلمة لو جردت من الكلام تعطى وحدها ذلك الإشراق . ولكن ينبثق نورها بالتضام مع غيرها من غير أن يفنى ضوؤها فى ضوئه، ولا تنمحى صورتها البيانية التى أشرقت بهذا التضام .

وقلنا إن ذلك لم ينكره أحد حتى الجرجانى[1] الذى تشدد فى اعتبار الأسلوب وحده هو سر الإعجاز، من غير التفات إلى معانى المفردات .

وإذا أردنا أن نحرر القول الذى رآه الأكثرون، وخالف فيه الجرجانى ومن لف لفه، فإننا نقول إن كلمات القرآن لها فى تناسق حروفها، وتلاقى مخارجها إشراق بلاغى، ولكن لا ينكشف ذلك الإشراق إلا بالتضام، أى أن الإشراق ذاتى، وهو الأصل، ولكن شرط ظهوره، تضام الكلمة مع غيرها.

وفى هذا المقام نتكلم على الأسلوب والصور البيانية التى تتكون منه والتآخى بين ألفاظه فى النغم وفى تناسق القول، بحيث تكون كل كلمة فى موضعها الذى وضعت لا تنفر من أختها، ولا يمكن تغييرها وكأن الكلمات فى الأسلوب نجوم السماء وأبراجها، لا تزايل أماكنها، ولا تخرج من مواطنها، ويقول فى ذلك القاضى عياض فى الشفاء :

«الوجه الثانى من إعجازه صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب، ومناهج نظمها ونثرها الذى جاء عليه . ولم

---

(١) هو عبد القاهر الجرجانى توفى سنة ٤٧١ هـ .

يوجد قبله ولا بعده نظير له ، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه ، بل حارت فيه عقولهم ، وتدلهت دونه أحلامهم ، ولم يهتدوا إلى مثله فى جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر[١]

وإن الإسلوب هو الصورة البيانية التى تظهر فى معنى رائع ، وكلام مشرق ، يثير فى النفس أخيلة الحقيقة يصورها ويبينها ، ويحس الإنسان فيها بأطياف المعانى ، كما يحس بأطياف الصورة على حسب تثقيف الصور ، وحسن الاختيار فى ألوان الصورة ، فللأساليب ألوان تحسن ، وتنسق ، وتصريف فى أوضاعها كما قال تعالى: « انظر كيف نصرف الآيات لقوم يفقهون »[٢] .

ولقد قال فى هذا المعنى الخطابى[٣] فى رسالة إعجاز القرآن : « وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنها لجام الألفاظ ، وزمام المعانى ، وبه تنتظم أجزاء الكلام ، ويلتئم بعضه ببعضه ، فتقوم له صورة فى النفس فيتكلم بها البيان » وإذا كان الأمر فى ذلك على ما وصفناه ، فقد علم أنه ليس المفرد بذرب اللسان وطلاقته كافياً فى هذا الشان ، ولا كل من أوتى حظاً من بديهة حاضرة ، وعارضة كان ناهضاً بحمله ومضطلعاً بعبئه ، ما لم يجمع إليهما سائر الشروط التى ذكرناها على الوجه الذى حددناه ، وأنى لهم ذلك ، ومن لهم به : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بهذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً »[٤].

وإن الشروط التى ذكرها فى آنف قوله هو اختيار الألفاظ من ناحية معانيها ، وقوة تماسكها بعضها ببعض وأشار إلى أن الألفاظ قد تكون مترادفة فى الظاهر ، ولكن عند التحقق فى مرماها يكون الاختلاف ، وإن كان المعنى الجلى واحداً .

(١) الشفاء جـ ١ ص ١٧٦ .

(٢) الأنعام : ٦٥ .

(٣) أديب لغوى محدث توفى سنة ٣٨٨ هـ .

(٤) رسالة الخطابى ص ٣٧ ــ الإسراء : ٨٨

وإن الناظر إلى أسلوب القرآن الكريم فى الخطاب والبيان ، يجده مختلفاً ، فمثلا أحياناً يكون بالاستفهام والاستفهام أحياناً للتوبيخ ، وأحياناً للتقرير وأحياناً يكون للتنبيه ، والكلام يكون بإطناب لا حشو فيه قط ومعاذ الله أن يكون فى كلامه تعالى ما يشبهه ، وفى الإطناب يكون تكرار القول ، وأحياناً يكون الكلام إيجاز ليس فيه إخلال ، وأحياناً يكون الكلام تهديداً تضطرب له القلوب وتفزع ، وأحياناً يكون توجيهاً يدعو إلى التأمل والفكر وأحياناً ببيان أحكام الحلال والحرام وتوجيه أنظار المكلفين إلى حكمها ، وكل ذلك فى أسلوب متناسب مؤتلفة ألفاظه ، ومؤتلفة معانيه ، بحيث يتكون من الجميع صورة بيانية متناسقة فى معانيها مؤتلفة فى ألفاظها لا ينبو واحد منها فى لفظ أو معنى بل يتآخى الجميع .

التآلف فى الألفاظ والمعانى :

٥٤ – التآلف فى الألفاظ ، بألا تكون بينها نفرة فى المخارج ، ولا نفرة فى النغم ، بل يتلاقى نغمها ، وتسهل مخارجها فلا تكون واحدة نابيه عن أختها ، بل تتآلف وتتآخى فى نسق واحد ، بحيث لا تبدو واحدة بنطق غير مؤتلف مع نطق تاليتها ، أو كما قال الجرجانى فى دلائل الإعجاز ، كل كلمة لقف مع أختها ، ولو حاولت أن تنزع كلمة لتضع مكانها أخرى فى معناها ، ما ائتلف السياق ولا انسجم الأسلوب ، ويقول فى هذا الباقلانى فى كتابه (إعجاز القرآن) :

« واعلم أن هذا علم شريف المحل ، عظيم المكان قليل الطلاب ضعيف الأصحاب ، ليست له عشيرة تحميه ، ولا أهل بيت ، عصمة تفطن لما فيه ، وهو أذق من السحر ، وأهول من البحر .. وكيف لا يكون كذلك وأنت تحسب أن وضع الصبح ، فى موضع الفجر يحسن فى كل كلام ، إلا أن يكون شعراً أو سجعاً ، وليس كذلك فإن إحدى اللفظتين قد تنفر فى موضع ،

وتزل عن مكان لا تزل فيه اللفظة الأخرى ، بل تتمكن فيه ، وتضرب بجرانها ، وتراها فى مظانها ، وتجدها فى غير منازعة فى أوطانها ، وتجد الأخرى لو وضعت فى موضعها لكانت فى محل نفار ، ومرمى شرار ، ونابية عن استقرار[1] .

هذا ما ذكره الباقلانى فى كتابه . وإذا اطرحنا مافيه من سجع لم يجىء على رسله ، واتجهنا إلى ما يرمى إليه وجدناه سليما دقيقاً ، وإنه لا ينطبق على كلام كما ينطبق على القرآن ، ومقام القرآن الكريم فيه مقام الذروة والسنام .

وإن التأليف ليس فقط فى نسق الألفاظ ونغمها ، بل إنه يشمل التآخى فى المعانى كالتآخى فى المبانى ، فلا يكون معنى لفظ نافراً من المعنى الذى يجاوره ، ويتألف من الألفاظ والمعانى وما توعزه من أخيلة ، وما تثيره من معان متداعية يدعو بعضها بعضاً . ويتألف منها علم زاخر ، كثير خصب ، وقد عبر عن هذا المعنى الوليد بن المغيرة بقوله: «إن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق » .

ولنذكر لك شاهداً على ما نقول . هو قصة الأعرابى الذى سمع قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم[2] » فأخطأ القارىء وقال غفور رحيم ، فقال الأعرابى، إنه يقطع الأيدى نكالا ، فلا يتفق القول ، فراجع القارىء نفسه وأدرك المعنى .

٥٥ — وإن التآخى فى المعانى والألفاظ ونسقها ونغمها ومعانيها ، واضح فى كل آيات القرآن ، لا فى آية دون أخرى ولا فى سورة دون

---

(١) إعجاز القرآن ص ٢٨٠ طبع المعارف .
(٢) المائدة : ٣٨ .

سورة . فلا تجد فى لفظ معنى يوجه الخاطر إلى ناحية ، ويليه آخر يوجهه إلى ناحيـة أخرى ، بل تجد النواحى متحدة إما بالتقابل وإما بالتلاصق والمجاورة وفى كلتا الحالين، تجد معنى كل لفظ يمهد لمعنى اللفظ الآخر فلا تنافر فى المعانى ، كما لا تنافر فى الألفاظ وهما فى مجموعهما ينسابان فى النفس غذاء رطيباً مريئاً ، ونميراً عذباً سلسبيلا .

وقد ساق الباقلانى آيات ليست مختارة اختياراً ، لأن آيات القرآن كلها لا نظير لها ، فليس اختيار من ينتقى ، لأن كله خير وسنذكر آيات مما ذكر وأخرى لم يذكر كنا نفتح الكتاب ، فيبدو نوره فنقبس منه قبسة .

اقرأ قوله تعـالى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ، ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور»[١] .

هذه الآيات الكريمة بعباراتها وإشاراتها البيانية ، وسياقها تدل على ابتداء الرسالة المحمدية ، وانتهاء أمر الناس فى الأخذ بها ، وعاقبة من اهتدى ومن ضل وعصى وغوى .

وإذا نظرت الآيات الكريمات مع ماسبقها ، وجدتها كلاما متآخياً ، يندمج بعضه فى بعضه فى ائتلاف ، لا نفرة فيه ، فالآية قبلها تبين طرق كلام الله تعالى لخلقه ، لقد قال تعالى قبل هذه الآيات : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا ، فيوحى بإذنه ما يشاء ، إنه على حكيم »[٢] .

ولنبتدىء بالإشارات البيانية التى وعدنا أن ننبه إلى بعضها ، فليست لنا

---

(١) الشورى : ٥٢ ، ٥٣

(٢) الشوري : ٥١

الطاقة إلى إدراك كلها ، ولعل غيرنا يدرك بعضاً آخر ، ولا أحسب أننا جميعاً نصل إلى كنه إشاراتها .

فهنا نجد كلمة كذلك تربط هذه الآيات بما فيها ، فهي تدل على المؤاخاة بينهما ، وهي تشير إلى علو الله في المعنى الذي قرره « إنه على حكيم » ، وتشير إلى حكمة اختيار الطريقة في الرسالة المحمدية .

ولننظر في الألفاظ نجد التآلف بينها في النطق والنغم ، أفلا نجد ائتلافاً بين كلمة أوحينا ، وكلمة روحاً ، وكلمة من أمرنا ، لا أنبه إلى ما فيه من تآلف في النطق ، وتآخى في المخارج والنغم فذلك بين لا يحتاج إلى بيان ، وهو يتصل بالذوق والجرس في السمع ، فهو يدرك بالحس ، ولا ينبه إليه بالمعنى .

ولكن نريد أن ننبه إلى التآخى في المعنى لكل كلمة سيقت ، وما تتسع له كل واحدة من معان تتلاقى مع أخواتها ، وتأتلف ، فتعطى صورة بيانية رائعة .

فكلمة أوحينا تدل على أن خطاب الله تعالى لرسله لا يكون جهراً يعلمه كل واحد ، ويسمعه كل إنسان ، فهو خطاب لرسول ، والرساله بمجرى الأمور تكون بين المرسل ، وبين من يرسله ، والتعبير بأوحينا أبطال لقول من يقولون أرنا الله جهرة ، أو قول من يقولون عن جهل بالله ورسالاته الذين يقولون « لولا أنزل عليه ملك » أى نراه ونحسه ولذا رد الله تعالى قولهم بقوله « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ، ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون »(١) .

فكلمة أوحينا مع حلاوة لفظها فيها إشارة إلى هذه المعانى وفى عمومها ،

---

(١) الأنعام ٨ ، ٩ .

ولم يبين نوع الوحى ، إذ هو على ضروب مختلفة متعددة بالنسبة لخطاب الله تعالى لأنبيائه عامة وبالنسبة لمحمد خاتم النبيين خاصة . وذلك إما برسول يشاهد يرى ويسمع كلامه كتبليغ جبريل للنبي (يراها النبي عليه السلام وحده) وإما بإلقاء فى الروع كما قال عليه السلام : « إن روح القدس نفث فى روعى » وإما بمخاطبة لله تعالى وسماع كلامه سبحانه من غير حس ، كما كان فى المعراج وفرض الصلوات .

وبكل تلك الأنواع والطرق كان وحى الله تعالى لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم .

ونجد فى إضافة الإيحاء إلى الله تعالى بيان عظمة الوحى ، وكون الإيحاء إلى النبي مخاطباً له جل جلاله إعلاء لشأنه وبذلك تتآخى فى رفع شأن الرسالة والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقوله تعالى « روحاً من أمرنا » والروح هنا قال أكثر المفسرين للقرآن جبريل ، ونرى أنها تشمل جبريل عليه السلام فقد سماه الله تعالى روح القدس ، ويكون معنى الإيحاء الإرسال ، ويشمل القرآن ، ويشمل الشريعة نفسها ، وتسميتها بالروح لما فيها من معنى البقاء والحياة إلى يوم القيامة وإضافتها إلى من أمر الله تعالى لتشريفها وتشريف من جاءت إليه وبعث باسمها وهكذا نجد مع ائتلاف الألفاظ فى النسق والنغم وجرس الكلام تآخيا فى المعانى ، فإنها كلها تدل على شرفها بعظم مصدرها وهو الله تعالى ، وكبر المعانى فى ذاتها ، فكان لها شرف المعانى ، وكان لها شرف أنها من الله تعالى فأى كلام بليغ يصل إلى كل هذا فى التآلف بين المعانى والألفاظ .

٥٦ — والآية السامية تحوى فى سياقها ، دليل الرسالة ، فيقول تعالى « ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان » وإن هذا النص الكريم مع إيجازه يرمى إلى ثلاث حقائق :

الأولى : أنه ما كان يعلم علم الكتابة فلم يكن قارئاً ، ولا كاتباً ، وعبر هنا عن العلم بالدراية ، لأن الدراية علم يأتى بالتعلم والممارسة ، فهو علم كسبى ، وأنه ما كان يعلم بالدراية ، ونفى الدراية فى الإيمان ، لأنه لم يكن هناك من يلقنه علم الإيمان إلا أن يكون إلهاماً من الله ، تعاونه الفطرة المستقيمة ، وقد يقال إن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان مؤمناً منذ بلغ التمييز وقبل ذلك ، فكيف كان لا يدرى الإيمان ، والجواب عن ذلك أنه كان موحداً ، ولكن بقية ما يقتضيه الإيمان من صلوات وزكوات وتنظيم للمجتمع ، وطرق التعامل السليم ، ما كان يدريه ، وبهذا يفسر قوله تعالى « ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى[1] » .

الثانية : أن فى هذا الكلام السامى حجة على أن القرآن من عند الله تعالى ، وأن محمداً لم يأت به من عنده ، لأنه ما كان يقرأ ولا يكتب ، وهذا كما قال الله تعالى فى سورة أخرى ، « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك ، إذا لارتاب المبطلون[2] » .

الثالثة : أن قوله « ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان » الدراية داخلة على الاستفهام ، فنفى الدراية متجه إلى الحقيقة أى أنه ما كان يدرى حقيقة الكتاب ، ولا تفصيل الإيمان ، وهذه تأكيد لنفى العلم بالكتاب علم دراية ، ونفى العلم بتفاصيل الإيمان علم دراية .

ولا شك أن كل كلمة من هذا النص وما سبقه تتآخى مع ما بعدها وما قبلها فى تقرير حقيقة ثابتة ، وهى أن القرآن روح من عند الله ، وكل روح فيها حياة ، وحياته فى الشريعة التى أنزلها ، والتوحيد الذى دعا إليه ، والحق الذى أثبته ، والصلاح الذى بثه ، ودفع الفساد فى الأرض ، ولكن القرآن

---

(١) الضحى : ٦ ، ٧

(٢) العنكبوت : ٤٨

نور هذا الوجود ، « ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا » .

٥٧ — وننظر فى النص ، وانسجام ألفاظه ، وتلاقى معانيه ، وإنك تجد للاستدراك هنا موضعاً طيباً ، إذ أن النص الكريم السابق كان فيه نفى الدراية عن حقيقة الكتاب وعن حقيقة الإيمان والاستدراك هنا لا يفيد أن نفى الدراية دائم ، بل إنه ينتهى بعلم الكتاب الذى هو النور الذى يهدى به الله تعالى .

ولنترك الكلمة للباقلانى فى الإعجاز فهو يقول :

« جعله سبحانه وتعالى روحاً لأنه يحي الخلق ، فله فضل الأرواح فى الأحياء ، وجعله نوراً ، لأنه يضىء ضياء الشمس فى الآفاق ، ثم أضاف وقوع الهداية إلى مشيئته ، ووقف وقوع الاسترشاد به على إرادته . وبين أنه لم يكن ليهتدى إليه . لولا توفيقه ، ولم يكن ليعلم ما فى الكتاب ولا الإيمان لولا تعليمه ، وأنه لم يكن ليهتدى لولا هداه فقد صار يهتدى ، ولم يكن من قبل ذلك ليهتدى ، أى أن القرآن الكريم قبل نزوله ما كان النبى يدرى ما الكتاب ولا الإيمان وبعد نزوله اهتدى ، وعلم ، وبلغ مرتبة أن يحمل الهداية والإرشاد للناس بعد أن كان لا يدرى الكتاب ولا تفصيل الإيمان وهذا يفيد أن القرآن تعليم الله للنبى ، وللناس من بعده » .

وأن الكلام السامى « ولكن جعلناه نوراً » فى هذا استعارة تمثيلية أى أنه هو كالنور المضىء الذى لا يضل فيه السارى ، ولا يختفى على من يبصر بسببه شىء ، بل إن فيه تأكيد التشبيه بجعله هو النور ، وأن الذين لا يبصرون حقائقه ، وما فيه من علم ، العيب فيهم ، وليس فيه ، والنقص منهم ، وليس منه ، وإضافة جعله نوراً إلى الله تعالى تشريف له فوق تشريف ، وهو يتفق مع النسق الذى ابتدأ به النص الكريم ، ولكن مع أنه النور الذى يهدى — لا يهتدى به الناس من غير أن يكون ذلك بمشيئة الله تعالى ، فقال سبحانه من نشاء

من عبادنا ، فبين سبحانه سلطانه على القلوب ، وخص بالهداية من شرفه بأنه من عباده تعالى سلطانه ، وقام عدله ، وفى هذا إشارة بيانية إلى أن الذى شاء الله تعالى هدايته هو من خلص نفسه ، وجعلها لله وحده ، وشرف بأنه من عباد الله لا من إخوان الشياطين .

ولقد شرف الله تعالى نبيه بأن نسب إليه هداية الإرشاد ، وبيان السبيل فهو نور معه نور الكتاب ، ولذا قال تعالى :

« وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » أكد الله تعالى عمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ببيان سبيل الحق ، والدعوة إليه ، وأنه المستقيم الذى لا عوج فيه ، ولا اضطراب .

فهنا هدايتان أولاهما هداية التوجيه والإرشاد وبيان الحق ، ودعوته وهى للرسل ، لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، فمن علم واستنار واهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما الله بظلام للعبيد والهداية الثانية العليا . وهى امتلاء القلب بالإيمان بعد أن سار فى طريقه وأرشد إليه ، وهذا لمن يشاء الله هدايته من عباده المؤمنين .

وقد ذكر الله تعالى من بعد ذلك الحكم العدل بإعطاء الطائع جزاءه من ثواب ، وما يستحقه العاصى من عقاب ، فقال : ألا إلى الله تصير الأمور ، أى وإليه وحده مآل الأعمال كلها ، وكل امرىء بما كسب رهين فمن عمل صالحا فله جزاؤه ومن عصى وبقى نال عاقبة ما عمل .

ونرى من هذا تآخى المعانى فى الآيات . وتسلسل ما ترمى إليه ، فبين أولا بعث النبي عليه السلام ، وإعطاءه الدليل بمعجزة القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وذكر ثانيا الحجة على صدق القرآن ، ثم أشار إلى أنه نور ، وذكر أن النبي عليه السلام عمله الإرشاد وبيان الحق والطريق إليه ، وأن الهداية من بعد ذلك .

هذا تآخى المعانى ، وكون كل معنى مقدم للذى يليه ، والتالى مبنى عليه ودعامة لمـا بعده ، أما تآلف الألفاظ فى النغم ، والحروف ، فأمر فوق طاقة البشر .

وإنه ليتألف من هذا الـكلام صور بيانية للوحى ، والقرآن ونوره وهداية الأنبياء وموضعها ، وهداية الله تعالى ، وثمرتها فى القلوب وكونه لعباد الله المخلصين ، لا لعبدة أهوائهم وشهواتهم .

صورة بيانية للطمع والشح ثم الندم

٥٨ – تلك صورة لمن سيطر عليهم الشح فذاقوا عاقبته ، ثم تنادوا بالتوبة والتلاوة . قال تعالى :

« إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم فتنادوا مصبحين : أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ، فانطلقوا ، وهم يتخافتون ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا إنا لضالون ، بل نحن محرومون . قال أوسطهم : ألم أقل لكم لولا تسبحون ، قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ، كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون[1] » .

سبحان الله تعالت كلماته ، وعز قرآنه ، وعلا بيانه ، ولعل من فضول القول أن أقول إن الآيات تصوير رائع لنفس الشحيح . وحرصه ، وندمه إن ذلك من فضول القول : لأن القرآن كله رائع لا يصل إلى روعته كلام مطلقا ، ولا يستطيعه قائل .

إن الآيات الكريمة فيها (١) صورة بيانية لنفس الحريص الغافل عن سلطان الله تعالى (٢) وصورة بيانيه لغفلة الحريص عن قضاء الله تعالى ، وأن كل شيء عنده بحساب (٣) وفيها بيان لحال المناعين للخير . وما يدور فى نفوسهم (٤) وصورة بيانية للندم كيف يدخل النفوس بعد التنبه . (٥) ثم حال الندم وما يليه من توبة نصوح . (٦) ثم بيان حال الرجاء فى رضا الله تعالى .

---

(١) القلم : ١٧ – ٣٣ .

وقبل أن نتكلم فى تلك الصور البيانية نقول إن الألفاظ ليس فيها نبوة تبدو ، ولو بترجيع النظر كرات ، والتناسق فيها متوافق النغم تفيد برنينها ، وتصل إلى القلوب فى عميقها ، والمعانى متآخية تتجه كلها إلى تصوير الطامعين أهل الشح ، وكيف يبتدىء بالحرص العنيف ، المغالى فيه ، وتغليب الطمع فى كل شىء ، والاستيثاق من تحقق ما يطمع فيه ، كما يصور له الطمع ، ثم يشتد المنع حتى يكون لكل خير ، ثم تكون المفاجأة .

هذا وإن مجال التصوير يظهر فى أن الموضوع كله ذكر مثلا لكل مناع للخير ، لأنه ذو مال وبنين ، ودفعه غروره ، بما آتاه الله من مال ، ثم كفر به ، واعتدى ، وكانت عاقبته أنه حرم مما طغى به وصار يوم القيامة أمام الجزاء الأليم بيد أن أولئك أصحاب الجنة وهى الحديقة المثمرة، كانت لديهم فرصة الرجاء بعد الندم ، أما هؤلاء فقد فاتت فرصه الرجاء ولات حين مناص ، ولنذكر بعد ذلك ما نستطيع الإشارة إليه من النواحى البيانية .

٥٩ — الصورة الأولى صورة الطمع المتغلغل فى النفس الذى ينسيها كل شىء ما عدا ما تطمع به النفس ، فقد قال إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون.

اختبرهم الله تعالى بالطمع كما اختبر أصحاب البستان المثمر ، ونرى التشبيه هو ما يسمى بالتشبيه التمثيلى ، وهو تشبيه حال الطاغين المعتدين أن رأوهم استغنوا لأنهم ذوو مال وبنين ، فغلبهم الطمع ، حتى أوباهم فى أسوأ الأحوال ، والعناد مع الله تعالى ، بحال أهل الحديقة إذ غرهم الغرور فظنوا أنهم واصلون إلى ما يبتغون ، وأقسموا على ذلك غير مقدرين عاقبة ، ولا حسابا لما يأتى به الله تعالى . والتشبيه بلا ريب للتقريب ، لا للمساواة ، لأن حال الكفار أشد عتواً وأبلغ غروراً ، وهكذا كل تشبيهات حال القيامة وما وراءها بحال ما يقع ليس للتساوى أو لأن المشبه به أبلغ فى

وجه الشبه ، ولكن لتقريب الغائب بتصويره بالحاضر، ومثل ذلك تصوير المعنويات بالمحسوسات ، وما يكون من جزاء وعقاب هو من المحسوسات ، ولكنه غائب .

وهنا فى النص نجد تصوير النفس الطامعة ؛ إذ أنها لشدة رغبتها تتصور محل الطمع واقعا لا محالة ، ولذلك أقسموا جاهدين فى قسمهم ليصرمنها ، أى ليقطعنها قطعا يستأصلونها من أدناها ، وهذا اللفظ فى هذا المقام أبلغ من القطع ؛ لأن الصرم قطع من الجذور ، أى هو قريب من القلع ، ولتصورهم استجابة لطمعهم أنهم واصلون أكدوا الصرم باللام ونون التوكيد الثقيلة ، ولشدة الطمع لم يتوقعوا تخلفا قط ، ولذلك لم يستثنوا ، فلم يقولوا إن شاء الله ، أو لا ، لأن حرصهم ورغبتهم الجامحة أنستهم الله تعالى . ولأن تطلعهم إلى ما تهوى أنفسهم لم تجعل لاحتمال التخلف موضعا فى عقولهم ، وكانت اللهفة والحرص على التنفيذ قد جعلاهم معجلين التنفيذ ، فهم يبكرون به مصبحين غير متلبثين ولا متأخرين لأن القطع أمر محبوب ، لا يرون معه إبطاء ، ولا تريثا ، بل يستعجلون ما يريدون بل ما يهوون .

وقد صور الله سبحانه وتعالى غفلتهم عما يقدره الله تعالى ، مع أنه متحقق ، فهم يقدرون ويرغبون ، ويستعجلون ، والله من ورائهم محيط ، وقد صورت الآية الكريمة قدر الله تعالى بقوله تعالت كلماته : « فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم » الطائف العارض الذى يعرض ليلا من ريح صرصر عاتية ، أو عواصف تقتلع الأشجار ، وتلقى بالثمار ، وهذا الطائف بأمر الله تعالى ، فكل شىء فى الوجود بإرادة الله تعالى القدير ، والصريم الأخشاب المتراكمة ، أو الأشجار القائمة المصروم ثمرها المقطوع منها ما أينعت ، وهذا بلا شك تصور بين ، لما

يجريه الله تعالى فى الأرزاق ، ومهما يقدر الإنسان فى كسب الرزق ويحاول التحكم فيه ، فإن الله تعالى فوق ما يقدر .

ونرى من هذا تصوير ما نفوسهم ، وبيان ما يحيط بهم فى بيان متماسك فى ألفاظه ، متآخ فى معانيه .

٦٠ — ولقد صور سبحانه وتعالى صورة الحرص ، ومنع الخير فى أعنف صوره النفسية ، فقال تعالت كلماته « فتنادوا مصبحين ، أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين » .

أنزل الله بالحديقة ما أنزل وهم لا يعلمون ، فكان حرصهم على ما هو عليه ، وتعجلهم لجنى الثمار ، كما هو ، وقد صور الله تعالى ذلك بذكر حالهم أنهم تنادوا ، أى نادى بعضهم بعضا مجمعين على ما أرادوا ، أن أصبحوا فى الغد مبكرين على زرعكم وثماركم الذى حرثتم أرضه ، وأصلحتم ثمره ، إن كنتم تريدون قطعه ، وقطف ينعه ، ويلاحظ أن التعبير بصارمين ، فيه معنى الإرادة الصارمة للقطع الذى لا ريب فيه .

وإن معنى التعجل والحرص قد أكد بقوله تعالى حكاية عنهم « فانطلقوا وهم يتخافتون ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين » هذه النصوص تصور اجتماعاً وافتراقاً ، فقد اجتمعوا على نية القطع ، واجتمعوا على المسارعة فيه ، واجتمعوا على أمر خبيث لم يعلنوه ، ولكن اتفقوا عليه فى تخافت وإسرار ، واجتماع على تلك النية الخبيثة ، وإن كلمة يتخافتون تصوير لحالهم الحسى ولأمرهم النفسى ، ولمعنى المنع ، فإن الامتناع عن الخير ، لا يكون إلا بإصرار النفوس ، والتفاهم فى سر ، ولا يكون فى جهر ، فتخافتوا على ألا يعطوا مسكيناً ، وعبر عن المنع عن إعطاء المسكين بمنعه من الدخول ، فهم لا يمنعون العطاء فقط ، بل يمنعونه من الدخول بنهى مؤكد ، وبإصرار

على المنع ، ولو بالدفع أو القهر . فضلا عن الطرد والنهر ، وإغلاق الأبواب وإقامة الحراس المانعين ، وأكدوا تنفيذ فكرتهم بما حكى الله عنهم من تأكيد المنع بالنون الثقيلة . هذه أحوال اجتماعهم ، أما افتراقهم فهو دخولهم على الحديقة ، متفرقين كل فى جانب منها ، ودل على ذلك قوله فانطلقوا فهم ذهبوا ليقطعوا ، ويجمعوا كل فى جانب تجمعهم فكرة التعجل ، والتصميم ، والإلحاف فى منع المساكين ، وقال تعالى فى تصوير تعجلهم مع سيطرة فكرة المنع عليهم « وغدوا على حرد قادرين » فغدوا معناها أقدموا فى باكورة الغداة . والحرد معنـاه المنع والتشدد فيه ، والمعنى أنهم أصبحوا قاصدين القطع ، ومعتزمين المنع من حق الفقير بل منع دخوله ، وموضع قادرين هنا هو وصفهم بالقوة على العمل والتنفيذ والمنع بكل وسائل .

هذا تصوير لا تعرف اللغات تصويراً للحرص والتعجل ، والاستيثاق بالإيمان وعدم التردد فيما يعملون ، ونية السوء ، والتخافت فيها — مثله ، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

٦١ — ولكن الآيات الكريمات بعد تصوير حالهم هذه فى التعجل والحرص ، لتصوير المفاجأة ، وتنبيه المفاجأة للغافل وإيقاظها للضمير النائم ، وإثارتها للوجدان الساهى ، فيقول سبحانه فى رؤيتهم لتهدم ما بنوا عليه إشباع طمعهم ، وما حملهم على نية الشر ، فقال تعالت كلماته ! .

« فلما رأوها قالوا إنا لضالون ، بل نحن محرومون » .

كانت المفاجأة بمقدار الحرص والطمع . واسترسالهم فى المطامع المادية حتى استأثروا بها ، ولم يعطوا منها حق الفقير المسكين والسائل والمحروم ، وإذا كان حرصهم بلغ أقصاه ، فالمفاجأة بالحرمان كانت أشد وقعاً ، أصابتهم بالحيرة الشديدة ، والضلال البعيد ، وأول الضلال أنهم توهموها غير أرضهم ،

فلما استيقنوا أحسوا بضلال آخر معنوى أشد فتكا فى النفوس وتأثيراً فى القلوب . وهو إحساسهم بالضلال المعنوى إذ قدروا ، ولم يدركوا تقدير الله ، وحسبوا أن الأمر إليهم وحدهم ، والله فوقهم ، فلما أدركوا ضلال تفكيرهم قرروا الحقيقة الثانية ، وهى أن الله تعالى قدر حرمانهم ، وماقدره نافذ لامحالةولذا قالوا كما حكى الله عنهم مؤكدين «بل نحن محرومون» فالإضراب معناه هنا أنهم ترقوا من حال الضلال المؤكد إلى حال الإيمان بالحرمان المؤكد .

وإن قوله تعالى عنهم «بل نحن محرومون» بعد «إنا لضالون» فيه إشارة واضحة إلى الأسف والألم المرير ، ألم الضال ، والحرمان من الهداية ، ثم الحرمان المطلق من الثمرات التى طمعوا فيها ، وتخافتوا على ألا يعطوا الفقير ،

وإذا كان قد اجتمعوا على ما كان منهم أولا ، فقد اجتمعوا على المفاجأة والحرمان ثانياً ، ولكن يظهر أن الشر لا يمكن الإجماع عليه دائماً ، بل لابد من قائم لله تعالى بحجة ، وإذا لم يستمع له قول ابتداء فإن قوله سيكون له صدى فى النتيجة بعد أن تتبدى الأمور وتنجلى .

وكذلك كانت حال أصحاب الجنة ، فقد كان فيهم رشيد ينبههم إلى خطأ ما أزمعوا أن يفعلوه ، وقد حكاه الله سبحانه وتعالى بقوله . «قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون» .

الأوسط هو الأمثل ، والوسط فى أوصاف الخير هو الأمثل دائماً ، ومن ذلك قوله تعالى: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا»(١) وهذا الأمثل عندما رأى حالهم وتدبيرهم وطمعهم ، ومايسرون به ومايجهرون ، ومايتخافتون وما يعلنون لاحظ أنهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، فكان لابد لكى يدركوا صالح أمورهم أن يؤمنوا بالله وأن يذكروه فى أعمالهم ظاهرة وباطنة ،

---

(١) البقرة : ١٤٣

فهم لا ينقصهم الجد فى العمل ، ولكن ينقصهم الإيمان ، فقال لهم «لولا تسبحون» أى هل تسبحون وتنزهون الله تعالى ، وتقدسونه ، وتعلمون أنه القاهر فوق كل شىء ، وأنه العليم الحكيم ، وهنا كان فيما حكاه الله تعالى بالتعبير «ألم أقل لكم لولا تسبحون» الاستفهام الداخل على النفى فى معنى الإثبات ؛ لأن نفى النفى إثبات ، وهو يدل على التوبيخ ، وتذكيرهم بأنهم لم يفعلوا ما فعلوا فاقدين للمنبه المرشد ، فقد أرشدهم إلى الطريقة المثلى والمنهاج الأسلم ، وهو الإيمان بالله تعالى وتقديسه وتنزيهه ، والإحساس بأنه الغالب على كل شىء القاهر فوق عباده .

٦٢ — إن المفاجأة مع التذكير ، ووجود الضمير والنفس اللوامة من شأنها أن تحيي موات القلوب ، وخصوصاً أنه وجد من بينهم من ربط بين الحرمان الذى فوجئوا به ، والضلال الذى كان من نسيان ربهم ، وحرصهم وطمعهم ، وتفاهمهم على حرمان الضعيف مما أخرج الله تعالى من الأرض كان ذلك كله سبيل الهداية التى تجىء ، ومن القارعة التى تقرع الحس والنفس تنبهوا فعلموا ما ينقصهم ، وأنهم لهجوا فى الدنيا ، ولم يذكروا الله تعالى خالق السموات ، فقالوا فيما حكى الله تعالى عنهم «قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين» .

بعد أن تنبهوا من غفلتهم ، واستأنسوا بالحق من تذكير أمثلهم طريقة استجابت نفوسهم لداعيه . وعلموا أمرين : علموا أنهم كانوا غافلين عن ربهم ، وعلموا أنهم ظلموا أنفسهم وظلموا الناس فيما تخافتوا به ، قالوا فى إعلان إيمانهم بالله ، «سبحان ربنا» نقدس وننزه ونسلم أمورنا ، لربنا الذى خلقنا وربانا وهو الحى القيوم القائم على كل شىء . فرجعوا بذلك إلى الله تعالى خالق كل شىء ، ولكن لا يكون الرجوع كاملا ، إلا إذا تابوا توبة نصوحاً ، وأحسنوا التوبة وأول طريق للتوبة الإقرار بالذنب إقرار

من يحس بذل المعصية ، وذل الذنب قربه ، كما يقول ابن عطاء الله السكندرى « إن معصية أورثت ذلا خير من طاعة أورثت دلا » ولهذا الإحساس بالذنب ، قالوا مؤكدين القول « إنا كنا ظالمين » لقـــد ظلموا أنفسهم بطمعهم وحرصهم ، ونسيان ربهم ، وظلموا الناس بمنع الفقراء من حقهم وإن الإحساس بألم المعصية من شأنه أن يجعل كل واحد يلقى تبعة التقصير أو التنبه على غيرهم ، فهم كانوا مجتمعين على طمعهم وحرصهم وتعجلهم ، ولكنهم بعد أن أحسوا بجرمهم أخذ كل واحد يتبرأ من أنه الذى ابتدأ بالدعوة بالمعصية ، وأن الآخر هو الذى دعا فأجاب ، ولذا قال الله تعالى حكاية عنهم بعد أن دخل الإيمان قلوبهم وأشربوا حبه « فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون » كل واحد منهم يلقى على الآخر لوما ، لا كل اللوم ، فإنهم جميعاً ملومون لأنهم جميعا . نووا ، وهموا أن ينفذوا مانووا ، والتلاوم هنا ليس هو الاختلاف الذميم ، ولكنه من الإحساس الكريم ، إذ أنهم أحسوا بأن عبء المعصية كاملا ينوء بكل واحد منهم ، فيريد أن يلقى جزءا منه على صاحب له وإن اتفاقهم لايجىء من غير داع منهم ، فإذا كان أوسطهم دعاهم إلى الخير ، ولم يستجيبوا ، فقد وجد منهم من دعا إلى الشر واستجابوا له ، وكان شرهم متعدد الأطراف ، فكان من كل منهم من دعا إلى ناحية دون الأخرى ، وهنا نجد أن التعبير بالتلاوم لا يدل على الفرقة والانقسام ، بل إنه فى هذا لا ينافى الالتئام .

وإنهم ينتهون من هذا التلاوم الذى ابتدأ بالألم من عبء المعصية ينتهون بعد التلاوم لفرط إحساسهم بالندم إلى أن يقولوا « قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين » كان الإقرار بالذنب فى هذه المرة أقوى من الإقرار أولا، لأنهم أحسوا بالهلاك الشديد ينزل بهم ، قالوا منادين الويل : يا ويلنا » أى أيها الويل النازل باستحقاق أقبل فإن ذلك وقتك ونحن موضعه ولا نتزايل عنه ولا نخرج، وعللوا الويل الذى يستحقونه بأنهم كانوا طاغين، والطغيان دائما

يؤدى إلى الظلم ، فإذا كانوا فى الآية السابقة قد اعترفوا بالظلم ففى هـذا النص السامى اعترفوا بسببه ، وهو الطغيان ، والطغيان يجعل صاحبه يحسب أن قدرته ليس فوقها قدرة ، والإحساس بالطغيان يبتدىء من وقت أن يحس الشخص بأنه استغنى عن معونة غيره ، كما قال الله تعالى : «إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى(١) » وقد ظنوا أنهم لا يحتاجون إلى معونة أحد ، وأن الله لا يمنعهم خـــيراً أوتوه ، وأن الأرض أرضهم والعمل عملهم ، والـكسب كسبهم وحسبوا أن الثمرات آتية لامحالة .

بعد ذلك اتجهوا خاضعين إلى ربهم معتقدين أن الخير بيـده ، وأن لاسلطان إلا سلطانه فاتجهوا بالرجاء بعد أن رأوا المنع جهارا نهارا وقالوا راجين «عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها ، إنا إلى ربنا راغبون» هنا كان التفويض كاملا ، وإن ذلك النص الـكريم يفيـد فى تفويضهم ثلاثة أمور فى أجمل تعبير من الله تعالى عن ضمائرهم الخائفة ، بعد أن خلعوا أرداء الطغيان .

أولها — الرجاء ، والرجاء يتضمن معنى التفويض من ناحية أنهم لا يرجون إلا من الله ، ومن ناحية أن كل ما يكون من الله تعالى — خير ، فإذا كان نزل بهم ما يكرهون ، فعسى أن يكون الخير فى هذا الحرمان ، كما قال تعالى «فعسى أن تـكرهوا شيئاً ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً»(٢) ومن الخير أن هذبت نفوسهم ، وإذا كان حالهم من قبل حال طغيان وغرور ، فعسى أن يعطيهم الله تعالى بديلا لمـا منعوه ، ويكون مع الاطمئنان .

ثانيها — الاتجاه إلى الله تعالى مالك أمورهم ، ومربيهم ، والـكالىء لهم والحامى ، والشعور بالمساواة مع المساكين فى ربوبية الله الخالق لكل شىء .

ثالثها — قولهم : «إنا إلى ربنا راغبون» ولا أحسب أنه يمكن أن نضع كلمة مكان راغبون ، مع إلى ، وتجد فى هذا التعبير إشارات بيانية رائعة ،

---

(١) العلق : ٦ ، ٧ (٢) النساء : ١٩

أولاها فى تكرار كلمة ربنا للشعور بنعمه سبحانه الظاهرة والباطنة والثانية فى تقديم الجار والمجرور على خبر إن ، فإن ذلك التقديم للقصر ، وهو يفيد أنهم لا يرغبون فى مال ولا نشب ، ولا يحسبون شيئاً يمكن أن يكون بغير إرادة ربنا، إذ كانوا قد حسبوا أنهم بجهودهم يصلون ويمنعون الماعون، ويقسمون ألا يدخلنها مسكين ، ولكنهم الآن لا يتجهون إلا إلى الله تعالى العلى القدير ، والتعبير براغبون يفيد أنهم يسيرون فى طريق الله تعالى وحده برغبة ومحبة ، فهم يطلبون طريق الله تعالى لا خوفاً من عقابه ، ولا رجاء لثوابه فقط ، ولكن محبة لذاته العلية ، فانتقلوا من دركة العصيان إلى مرتبة المحبة وطلب الرضوان .

٦٣ - ونرى فى هذه الآيات الكريمة المصورة لتلك القصة التى تشتمل على العبرة الواضحة فيها تتلاقى المعانى وكل معنى ردف لما سبقه ، ومقدم لما يليه فى تآخ بين جزئياته ، وتعانق مع كلياته ، كل جزء من الكلام يوعز لما يليه ، وفيها الألفاظ مؤتلفة فى نغم يهز النفس وتآلف بين الألفاظ مفردة ، وجملا ، وفيها تصوير للنفس الإنسانية كيف يدخل إليها الطمع ، ومع الطمع الشح ، وإذا سكن الشح قلباً دخل منه الظلم وهضم الحقوق ، وإنه لكى ينجو المؤمن من أن يكون ظالما عليه أن يراقب مداخل الشح إلى نفسه ، فإن سد طرقها إليها ، فقد فاز ، وكان عادلا ، كما قال تعالى فى سورة أخرى: «ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون»(١) فإن وراء الشح الهلاك ، ووراء السماحة الفوز .

وإن الآيات تصور لنا حال من يغتر ، ومن يطغيه الاستغناء ، ومن يحرم نعمة الاعتماد على الله تعالى والتفويض إليه ، ثم حاله عندما يفاجأ ، فيجد قدر الله تعالى أمامه يرد عليه طغيانه ، ثم تصور النفس التائبة ، وذلك كلام العزيز الحميد .

---

(١) الحشر . ٩

النفس الفرعونية

٦٤ — وإذا كانت هذه الآيات التى تلوناها تصور النفس التى تطغى أن رأتها استغنت ، وحسبت أنه لا قدر فوق ماتقدر ، وكيف تفاجأ بقدر الله فتتنبه ، فقد صور الله تعالى فى كتابه العظيم،النفس التى تطغى، فتتغطرس فتتحكم فى الرقاب ، وتفرق بين العباد ، فهذه يأخذها الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، ولا مكان لتوبتها ، إذ تفاجأ ، لأنه لايكفر ذنوب العباد إلا ردها ، ولاسبيل لرد ما فعلوه ، ثم كان فسادهم ، وتضييعهم الناس ، ولذلك يؤخذون بذنوبهم . واقرأ قوله تعالى : « إن فرعون علا فى الأرض ، وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين(١) » .

ولا شك أن نسج الآيات متماسك ، بخيوط دقيقة غير قابلة لأن تنقطع وهى واضحة فى تصوير الحاكم الفاسد كيف يعلو فى الأرض ، وكيف يتحكم ، وقد قال فى صيغة العبارة الباقلانى بالنسبة للآية الأولى :

« هذه تشتمل على ست كلمات ،سناؤها وضياؤها على ما ترى،وسلاستها وماؤها على ما تشاهد ، ورونقها على ما تعاين ، وفصاحتها على ما تعرف .

وهى تشتمل على جملة وتفصيل ، وجامعة وتفسير ، ذكر العلو فى الأرض باستضعاف الخلق بذبح الولدان ، وسبى النساء وإذا تحكم فى هذين الأمرين ، فما ظنك بما دونهما ، لأن النفوس لا تطمئن على هـذا الظلم ، والقلوب لا تقر على هذا الجور ، ثم ذكر الفاصلة التى أوغلت فى التأكيد ، وكفت فى التنظيم ، وردت آخر الكلام على أوله ، وعطفت عجزه على صدره .

ثم ذكر وعده بالتخليص بقوله ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، وهذا من التأليف بين المؤتلف ، والجمع بين المستأنس(٢) .

---

(١) القصص : ٤ ، ٥

(٢) إعجاز القرآن ص ٢٩٥

هذا ما ذكره الباقلانى من ناحية التآخى فى الألفاظ والالتحام فى نسجها ، وإنك لتجد ذلك التآخى فى سوق العلو الذى تعالى به وهو فى الأرض، فقال تعالى «علا فى الأرض» فهو علو من فى الأرض ، ولاصق بها ، فليس يعلو إلى السماء ، ولكنه مستمر فى الأرض ، فهو استعلاء . وليس بعلو ، والاستعلاء طلب للعلو ، أو الإحساس به ، وليس قائما على أى اعتبار ، فكان ذلك التقابل فى اللفظ من حيث الانسجام ، ومن حيث المعنى فيه دليلا على أنه استكبار وليس علواً فى ذاته .

ولكن كيف يستقيم له هذا العلو ، وهو لاصق فى الأرض متنقل فيها ، إنما هو الغلو فى الكبر، وحمل الناس على الإقرار أو السكوت، أو ظهور الرضا وما هم براضين ، لأن أساس الرضا التخير ولا اختيار ، فإن لم يكن فلا رضا

ولننتقل من ذلك النص المصور للاستعلاء الكاذب الظالم إلى ما سلكه لحمل الناس على السكوت عنه ، أو الخضوع له كارهين وإن مردت نفوسهم على الخضوع ، حتى صاروا كالطائعين ، وذلة الإحساس بالتحكم قارة فى نفوسهم حتى أخضعتها ، فجعلتها خانعة . وأظهرتها راضية ، ولا رضا عندها لأنه لا اختيار لها فيما تختار .

ذكر سبحانه ما سلكه فرعون كما يسلكه أى طاغية من طواغيت هذه الدنيا الذين يظهرون فى كل زمن ، وفى أرض كأرض مصر ، وناس كناسها ، كما أشار إلى أنه عمل على تفريق جمعهم ، وتشتيت أفكارهم ، وصاروا متفرقين فى ذات نفوسهم ولا تجمعهم جامعة حق ، ولا ثورة على ظلم ، بل كان يقول لهم فى استكبار «أنا ربكم الأعلى» ، ويقول فى استنكار «ما علمت لكم من إله غيرى»(١).

وقد قال تعالى فيما سلكه «وجعل أهلها شيعاً» ، وهنا نجد كلمات ثلاثا ،

---

(١) القصص : ٣٨ .

كل واحدة منها تنبىء عن قصد الفرقة والانقسام بعد الوحدة والالتئام ، فكلمة جعل هى بمعنى صير . وهى تدل على أنهم كانوا متحدين فى المشاعر والأحاسيس متفقين فى المنازع ، والمطامح والآمال فجعلهم متفرقين منتشرين فى غير اجتماع ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، والكلمة الثانية أهلها فهم كانوا قبلها أهلا - أى أنهم كانوا مجتمعين غير منقسمين ، فلكى يعلو عليهم أجمعين فرق جمعهم وشتت شملهم ، فكيف يعلو إنسان مهما يكن طاغوته ومهما تكن قسوته وغلظته وحياته على قوم متحدين مجتمعين ، ولكنه يخذل بينهم ، ثم يملك عليهم .

والكلمة الثالثة كلمة شيعة ، فإن الشياع يتضمن معنى الانتشار ، وأن يقوى جزء على الآخر يحسب كل جزء منهم أنه أقوى من الآخر ، وأنه لا تربطه به رابطة ، ولا يجمعهم به قومية أو رحم ، أو تشابك المصالح ، ودفع المضار ، فإذا كانوا كذلك استعلى واستكبر ، ولا يجد من يرده عن غيه ، ويقمعه فى شره ، فيكون الهلاك ، وتقطع الأسباب .

وإن النتيجة التى تكون أثراً لذلك ، أن يجعل من طائفة منهم بطانة له ، وجنداً يستنصر بهم ويتخذهم أسواطاً يضرب بها غيرهم ، ويتحكم فى جمعهم ، ولذلك قال تعالى فى ذكر هذه النتيجة الحتمية التى تتبع التفرق تبعية المسبب لسببه ، والنتيجة المقدمة : « يستضعف طائفة منهم » أى يصور طائفة منهم ضعفاء ، أو يطلب ضعف طائفة منهم ، ويتتبعه ، وهنا إشارة بيانية رائعة لا تكون إلا فى القرآن الكريم ، وهذه الإشارة هو أنه ذكر الطائفة المستضعفة ، ولم يذكر الطائفة التى جعل فيها قوته يضرب بها رقاب الناس ، والسبب فى أنه تعالى لم يذكرها موصوفة بالقوة ، لأنها وإن لبست لبوس القوة ليست فى حقيقة - أمرها قوية فى شىء ، لأنها ليس لها اختيار فيما اختارت ، ولأنها لا تملك من أمرها شيئاً بل مسخرة لطغواه ، مرادة له ، وليست بمريدة فيما تفعل ، والقوى هو الذى يفعل ما يريد هو لا ما يريده غيره ، ويعمل ليرضى شهوة نفسه لا ما يرضى غيره وليس هو من تكون

إرادته فانية فى إرادة غيره قد ليس جلد النمر ، وما هو إها به ، وإذا كانت الطائفة المستضعفة إيذاؤها بدنى مادى . فهؤلاء الذين ظهروا بمظهر القوة إيذاؤهم معنوى ، وهو فناء إنسانيتهم وإرادتهم وتفكيرهم ، وكل مكونات الإنسان الكامل ، فهم ضعفاء ، وإن ظهروا كأنهم الأقوياء ، فجنود السلطان الغاشم لا يعتبرون الأقوياء ، لأنهم أداة طائعة ، وإمعات طامعة .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ذكر الضعفاء تمهيداً لبيان مظاهر الطغيان الذى يفعله الملوك مع من يتحكمون فيهم بحكم الهون والفساد ، لا بحكم المصلحة والرشاد ، وأنهم يرتكبون أقصى ما تتصوره العقول من تذبيح وتقتيل ، ولذا قال تعالى «يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم» وإن ذلك شأن الطغيان دائماً ، يقتل نخوة الأمة بقتل شبابها ، أو زجهم فى غيابات السجون من غير أمد ، ومن غير حكم ، كما رأينا فى حكم الدكتاتورية فى ألمانيا ، وفى إيطاليا ، وهكذا ، وقد رأينا مثل ذلك فى العراق .

وقد ختم الله تعالت كلماته بالنص السامى بالباعث على الطغيان والتحكم والاستعلاء ، وتفريق الأمة ، فقال : «إنه كان من المفسدين» أى أن الفساد مستحكم متغلغل فى أطواء نفسه ، وقد بعثه على جعل الأمة متفرقة ، وتحكيم طائفة فى طائفة ، فأغرى بينهم بالعداوة والبغضاء ، يحس كل فريق منهم بأنه مظلوم ، وظالمه هو الفريق الآخر ، يتظالمون فيما بينهم ، ويتعادون ، ليتمكن الظالم من ظلمهم والتحكم فى رقابهم ، وأن يقول لهم «أنا ربكم الأعلى» ولا ينكر أحد ، ولو فى قلبه ؛ لأن كل فريق يتهم الآخر بأنه عين عليه ، ويريد النكاية به .

وقد أكد سبحانه وصف الإفساد فيهم بإن وبكان الدالة على أن الفساد كان فى الماضى ، ومستمر فى الحاضر ، وببيان أنه داخل فى ضمن المفسدين فى الأرض إخوان إبليس ، وينطبق عليه قوله تعالى فى شأن الظالمين الذين

يمنون الناس الأمانى ويكذبون ويخالفون ، « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما فى قلبه ، وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد(١) » .

وإن هذا الوصف الذى ساقه الله تعالى للوالى الفاسد ، هو وصف فرعون ، ومن استعلى واستكبر ، ووصف لكل طاغية من طغاة الدنيا يمنى الناس بالأمانى ، حتى إنه ليصور لهم أنه سيجعل لهم الأرض نعيما ، وخيراتها لبناً وعسلا ، حتى إذا حكم تحكم ، وكان شهوته نظاماً ، وهواه حكما ولا بدأن يرضى الناس حكومته طوعاً أو كرهاً ، ومن قال له اتق الله قطع عنقه ، أو سلط عليه كلابه الذين جعلوا أنفسهم ملكا له ، يملك رقابهم ، ويظنون أنفسهم الأحرار ، وهم العبيد حقاً .

٦٥ — هذا ما تصوره الآيات فى وصف فرعون وأمثاله من الطواغيت الذين يظهرون فى العصور المختلفة ، وإذا لم يتسموا باسم فرعون ، ففيهم صفاته وفعاله ، وفى أتباعه أوصاف أتباعه ، والمستضعفون ما كولون فى عهدوهم ، كما هم ما كولون فى عهده .

وبعد تصوير الله تعالى طغيان فرعون ، كان من نسق البيان الرائع أن يذكر نهايته ، وأنه إذا وصل الطغيان إلى أقصى حده ، كانت النهاية ، ولذا ذكر سبحانه وتعالى فى مقابل إرادته الإفساد، وكونه متغلغلا فى كيانه ذكر فى مقابله إرادة الله تعالى ، وإرادته سبحانه فوق كل إرادة ، ولو كانت طغيان فرعون ، ولذا قال سبحانه فى بيان إرادته ، « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون(٢) » .

---

(١) البقرة : ٢٠٤ — ٢٠٦

(٢) القصص : ٥ ، ٦

إرادة طاغية مغرورة مستكبرة ، وهى إرادة الطغيان ، وإرادة كريمة معطية مانحة مانعة من الشر والعيث ، وهى إرادة الله سبحانه وتعالى ، فهو سبحانه يمن على المستضعفين ، ونجد هنا تعميما فى المن ، فلم يذكر سبحانه وتعالى ما يمن به ، بل كان التعميم ، فهو سبحانه يمن عليهم بالحرية بعد الاستعباد ، ويمن عليهم بالقوة بعد الضعف ، ويمن عليهم بالعزة بعد الذلة ويمن عليهم بالثمرات بعد الجدب ، وهكذا تتعدد النعم التى يمن بها سبحانه « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها[١] . وكل هذه المعانى هى بعض ما تدل عليه كلمة نمن ، وخص سبحانه من بين هذه النعم التى يمن بها نعمة كبيرة هى الخلاص من حكم فرعون إلى أن يكونوا أئمة ، أى ولاة لأنفسهم لا يملك أحد التحكم فيهم ولا السيطرة ، فكل حر أمير فى نفسه ، ويجعل منهم أمراءهم وأولياء أمورهم ، لا يفرض عليهم أمير لا يرضونه ولا ولى من غيرهم ، وآراؤهم فى حكمهم هى الغالبة فلا يحكمهم متحكم ، ولا يسير أمورهم متغلب ، فانظر كيف جمعت الكلمة كل هذه المعانى ، وجاءت من بعد ذلك كلمة تدل على كمال إرادته سبحانه فى هذا الوجود فقال « ونجعلهم الوارثين » ونجد أنه سبحانه لم يبين الموروث ، وفيه إشارة إلى عموم ما آل إليهم ، إذ أنهم سيخلفونه فى جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، ولكن يكون لهم هذا إذا استقاموا على طريقة الحق ، ولم يخرجوا عن جادته ومنهاجه ، وغير ذلك .

بعد هذا يبين سبحانه وتعالى أن طغيان فرعون انتهى بالفناء وأن يذوق عاقبة أمره ، كما اغتر أصحاب الحديقة بحديقتهم المذكورة ، فقال تعالت كلماته .

« ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

---

(١) ابراهيم : ٣٤

التمكين كان بإعطاء سلطان لهم فى الأرض ، إذا استطاعوا القيام بحق التمكين ، فإنه يحتاج إلى قوى نفسية عالية وإدراك لمعنى العزة والكرامة ، ولم يمردوا على الذلة والمهانة .

ثم يبين سبحانه عاقبة الظلم ، وأنه لم يدفع المحذور ، فقال تعالى : «ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون» .

لقد كان فرعون وحده ووزيره ، وجنودمعهما تابعين غير مستقلين فى فكرة أو إرادة منهم ما كانوا ما يحذرون ، وهو أن يدبر الناس ما ينتقضون به على حكمهما ، أو يقتلوا فرعون ، فقد أراهم رب العالمين ، فكان موت فرعون على ما قدره الله تعالى لموسى عليه السلام ومن معه وهكذا كل طاغية ، يطغى ويستبد ، ويرتكب الفجور فى كل ناحية ، حذر أن تخرج خارجة ، وبعد أن يكون منه وما يكون من مثل ما فعل فرعون ، ثم تكون من بعد كلمة الله تعالى هى العليا ، ويقع المحذور فى وقت لا يملك الرجوع ، كما قال فرعون ، قد أدركه الغرق . قال «آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ، آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ، فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون»(١) .

٦٦ — وبعد ذلك البيان الذى حاولنا به الوصول إلى بعض أسرار المعانى القرآنية التى تعلو ولا يعلى عليها ، واليانعة الثمار الدانية القطوف فى أعلاها ، والثروة الخصبة المملوءة حياة فى أدناها . كما قال البليغ العربى القرشى نريد أن نشير إشارة إلى ما وصل إليه تفكيرنا فى إجمال ما سبق ، فنجد :

أولا — اتساق العبارة فى المقابلة بين العلو المصطنع والالتصاق

---

(١) يونس : ٩٠ — ٩٢

بالأرض ، الذى يفيد مع هذه المقابلة اللفظية أنه سيطر على الأرض واستمكن فيها وتحكم حتى ساغ له أن يقول : « أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى »(١) .

ثانياً — أن التعبير باستضعاف طائفة منهم فيه إشارة إلى أن الضعف ليس طبيعياً فطرياً ، ولكنه يكون بالاستضعاف وأن كل من يراد على الضعف لا يستسلم فيستضعف ، بل يقاوم ويناضل ، فيموت عزيزاً ، أو يمنحه الله تعالى القوة وإن الرضا بالذل يؤدى إلى الموت ، وطلب العزة يؤدى إلى الحياة ، وكما قال خليفة رسول الله أبو بكر رضى الله تعالى عنه : « اطلب الموت توهب لك الحياة » .

وثالثاً — أن الاستضعاف يؤدى إلى الموت لا محالة ، ويكون الموت على نحو لا كرامة فيه ، وصوره سبحانه وتعالى بقوله تعالى :

« يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم » فهو موت ذليل فيه خسة الذل، وقتل النخوة ، أما الموت فى سبيل الكرامة فهو موت عزيز كريم ، ورحم الله الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إذ يقول : « إن موتاً فى سبيل الحق هو عين البقاء ، وحياة فى ذل هى عين الفناء .

رابعاً — أن القوة تكون للقوى بتمكين الله تعالى وبمشيئته ، وذلك بأن يهيء الأسباب ليستبدلوا بضعفهم قوة فيمنحهم الأمن ، وذلك بأن يجعلهم يشعرون بأنهم سادة ، وليسوا عبيداً ، وهذا يتضمنه التعبير بقوله تعالى ونجعلهم أئمة ، أى يجعلهم مسيطرين على أنفسهم ، كما نوهنا فيما ذكرنا من قوله تعالى كما من الله تعالى على بنى إسرائيل إذ جعلهم مالكين لأنفسهم مسيطرين على أمورهم إذقال تعالى : « وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا

---

(١) الزخرف : ٥١

نعمة الله عليكم ، إذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكا ، وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين(١)، ومعنى جعلهم ملوكا أنه سبحانه وتعالى جعلهم أحراراً يملكون شئون أنفسهم . ويتولون أمورهم لا مسيطر يسيطر عليهم .

هذه نظرات إلى النص القرآنى الكريم فى بعض شأن فرعون ومآله، ومن يجرى فى حكم شعبه على طريقته ، ويتحكم فى الرقاب تحكمه ، ونجد فيه جمال اللفظ ، وجمال القصص ، والألفاظ التى تشع منها المعانى كأنها الضياء المتلألىء والماء العذب النمير الذى ينساب فى النفس المؤمنة ، والله سبحانه هو العلى الحكيم ، وكلامه هو النور المبين الهادى إلى رب العالمين .

(١) المائدة : ٢٠

قوة البلاغة فى الأسلوب من كلمات متآلفة

٦٧ – يقول الخطابى فى رسالته فى إعجاز القرآن فى بيان البلاغة القرآنية : « اعلم أن عمود هذه البلاغة التى تجمع لها هذه الصفات هو بوضع كل نوع من الألفاظ التى تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذى إذا أبدل مكانه غيره ، جاء منه إما تبدل المعنى الذى يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذى يكون منه سقوط البلاغة ، ذلك أن فى الكلام ألفاظاً متقاربة فى المعانى ، يحسب أكثر الناس أنها متساوية فى إفادة بيان مراد الخطاب كالعلم والمعرفة ، والحمد والشكر ، والبخل والشح ، وكالنعت والصفة ، وكقولك اقعد واجلس وبلى ونعم ، والأمر فى ترتيبها بخلاف ذلك ، لأن لكل لفظة خاصة تتميز بها عن صاحبتها .

وهكذا يسترسل فى بيان التفرقة بين الألفاظ ، ويضرب الأمثلة فى القرآن ، وفى اللغة فى التفرقة بين الألفاظ التى يزعم أنها تدل على معنى واحد يؤديه كل واحد منها من غير افتراق فى المؤدى مع أن المؤدى مختلف متباين .

وإنه يذكر أن ألفاظ القرآن مختارة تدل على أدق معانيها ، فمثلا ذكر عن إخوة يوسف عليه السلام أنهم قالوا أكله الذئب ، ولم يقولوا افترسه ، لأنهم لو قالوا افترسه لطالبهم ببعض أثره ، والأكل إفناء الجسم فى جسم .

وإن الخطابى ليقول فى بحثه القيم : « اعلم أن القرآن إنما صار معجزاً ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح

المعانى من توحيد له عزت قدرته ، وتنزيه له فى صفاته ، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهاج عبادته من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ونهى عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها ، واضعاً كل شىء منها فى موضعه الذى لا يرى شىء أولى منه ، ولا يرى فى صورة العقل أمر أليق منه » .

وإذا كانت ألفاظ القرآن ومعانيه لها ذلك المكان الأسمى الذى لا يمكن أن يناهد إلى سمائه إنسان أو جن، شرقى أو غربى ، فإن فى القرآن مع جمال الألفاظ ورونق الأسلوب ، خاصة لا يصل إليها أحد فى الألفاظ والأسلوب والمعانى .

وقد قسم الخطابى الكلام البليغ إلى أجناس ثلاثة ، ومراتبها فى نسبة التبيان متفاوتة ودرجاتها فى البلاغة متباينة غير متساوية فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز الطلق السهل ، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود ، دون النوع الهجين المذموم الذى لا يوجد فى القرآن شىء منه البتة » .

وإن هذا الكلام لا يمكن أن يمر من غير أن نبدى عليه ملاحظة لاحظناها، إنه يفرض أن الكلام البليغ يتفاوت بتفاوته فى الجزالة والسلاسة والسهولة ، وهذا يوهم أن القرآن الكريم تتفاوت بلاغته ، وهذا الزعم باطل ، فالقرآن كله رتبة واحدة فى البلاغة فى المنزلة التى لا يمكن أن يسمو إليها بليغ ، لأن البلاغة أن يكون الكلام موافقاً لمقتضى الحال،فالعبارات الجزلة القوية تكون فى موضع الإنذار ، والعبارات السهلة غير المسترسلة تكون فى التبشير ، والعبارات المسترسلة فى مواضع التنبيه إلى وجوب التفكير والتدبير ، وكل بليغ فى موضعه ، ولا يختار سواه ، فلا تكون عبارات الإنذار كعبارات التبشير ، ولا تكون عبارات الدعوة إلى التأمل

كعبارات التهديد والتخويف ، هذه ملاحظة أبديناها ، على عبارة الخطابي ، وكان حقاً علينا أن نبديها فلا نجعلها تمر بغير تعليق .

وإن الخطابي قد بين أن القرآن الكريم قد اشتمل على الأجناس الثلاثة في عبارات قيمة حازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة ، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتى الفخامة ، والعذوبة ، وهما على الانفراد كالمتضادين ؛ لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعا من الوعورة ، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبو كل واحد منهما عن الآخر فضيلة خص بها القرآن ، يسرها الله بلطيف قدرته من أمره ، ليكون آية بينة ودلالة على صحة ما دعا إليه من أمور دينه ، وإنما تعذر على البشر . الإتيان بمثله لأسباب ؛ منها أن علمهم بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها غير كامل ، ولا تدرك أفهامهم جميع وجوه النظم التي بها يكون ائتلافها ، وارتباط بعضها ببعض ، فيتوصلون باختيار الأفضل من الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله ، ... وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة لفظ حامل ، ومعنى قائم ، ورباط لهما ناظم .

وإنا نوافق الخطابي في أن عدم قدرة البلغاء من الناس على الإتيان بمثل القرآن من أسبابه نقص علمهم باللغة ، جزلها وسهلها ، وعدم علمهم بالمعاني وأنى يكون علمهم بجوار علم الله تعالى الذي أحاط بكل شيء علما .

ونقول من ناحية ثانية : إن البلغاء من الناس يختلفون جزالة وسهولة واسترسالا ، تبعاً لطبائعهم وبيئاتهم وما يتجهون إليه ، فالفرزدق كان يميل إلى اختيار الألفاظ القوية ، أو الحوشية ، ويتقحم بذلك الوعر من القول وقالوا إنه كان يحاول أن ينهج نهج البدويين من الجاهليين ، وجرير يتخير السهل العذب من الألفاظ ، وكذلك كان الأمر في شعراء الجاهلية

فامرؤ القيس كان يتخير الوعر الجزل من الألفاظ ، وهو يقيم فى الصحراء العربية ، ولانت ألفاظه لما كرثته الكوارث ، ورحل إلى أنقرة ، وهكذا.. فكان من البلغاء من البشر من غلبت عليهم عذوبة الألفاظ ، ومنهم من غلبت عليه جزالتها وقوتها ، بل وعورتها ، ويختلف الرجل الواحد باختلاف حاله ، وتغير البيئات عليه .

هذا فى بلاغة البشر ، أما القرآن فبلاغته من عند الله خالق كل شىء القادر على كل شىء ، والخالق للناس وبيئاتهم ، فكان فى كلامه المبين ، كل أجناس القول ومناهج البيان بلا تفاوت فى البلاغة القرآنية ، وإن اختلفت ألوان الألفاظ وأجناسها بين جزل قوى . وعذب سهل ، وكلام مرسل ينساب فى النفس انسياب النمير ، وكل فى موضعه .

التلاؤم

٦٨ — يقصد بالتلاؤم فى الأسلوب أن تأتلف مخارج الحروف والكلمات كما ذكرنا ، والانسجام فى النغم بينها ، ويعد القاضى عبد الجبار أن تآخى النغم فى الألفاظ والحروف من حلاوة الكلام ومحسناته ، ولكنا نقول إنها بالنسبة للقرآن الكريم من تأثيره فى النفوس ، فهو فى القرآن طريق الوصول إلى القلوب ، وإن نظمه على ماسنبين يسير هو وأسلوبه بألفاظه ومعانيه إلى القلوب ليأخذها من طبعها الأرضى ليعلو بها إلى الأفق السماوى .

ويذكر أبو عيسى الرمانى فائدة التلاؤم فيقول : « والفائدة فى التلاؤم حسن الكلام فى السمع ، وسهولته فى اللفظ ، وتقبل النفس لمعناه ، لما يرد عليها من حسن الصورة ، وطريق الدلالة ، ومثل ذلك مثل قراءة الكتاب فى أحسن ما يكون الخط والحرف وقراءته فى أقبح ما يكون من الحرف والخط ، فذلك متفاوت فى الصورة . وإن كانت المعانى واحدة » .

وإن الكلام يذاق كما يذاق الطعام ، فكلما كان التنسيق والتلاؤم حسن في الذوق .

وإن لغتنا العربية لغة نطق ابتداء ، وصارت من بعد لغة كتابة ، ولم تنفصل عنها خاصتها ، فهى نطق وكتابة ، ولذلك كان لمخارج الحروف أثر في فصاحة الكلام . ولا شك أن مخارج الحروف مختلفة منها ما يكون في أقصى الحلق ومنها ما هو من أدنى الفم . ومنها ما هو في الوسط بينهما ، فالتلاؤم فيها بأن تكون الكلمة حروفها متقاربة المخارج ، والكلمات متقاربة المخارج ليسهل النطق على اللسان ، وتتقبله الأسماع .

فإذا أضيف إلى ذلك التآخى في المعانى كان التلاؤم الكامل ، والأسلوب الرائع ، وذلك ما جاء في القرآن .

٣ — تصريف البيان

٦٩ — اختلفت مناهج البلغاء كتاباً وشعراء، كل يجيد منهاجاً معيناً ويمتاز فيه، ويكون من الأوساط فى غيره أو دون الأوساط، فمنهم من يجيد الوصف، ويحكى الأشياء لقارئه كأنه يراها، ومنهم من يجيد القول الوعر العنيف، ولا يكون منه السهل الميسر، ومنهم من يجيد شعر الغزل، ولا يجيد غيره، ومنهم من يجيد القول الساخر، ولا يجيد القول الجاد كما نرى فى بعض كتاب العصر، ومنهم من يجيد الكتابة فى السياسة، فإذا كتب فى غيرها هان وابتذل ومنهم من يجيد الكتابة فى التحليل، وإثارة التأمل، وهكذا، وقل من يجيد الدخول إلى الكلام البليغ فى أكثر من باب أو بابين ويكونان متآخيين، غير متناقضين.

أما القرآن المعجز الذى هو فوق قدر البشر، فإن البلاغة فيه فى كل أبواب القول، وهى فى كل باب تعلو علواً كبيراً عن المجيدين فى هذا الباب وحده، ولذلك كان تصريف القول فيه من تهديد وإنذار وتبشير، وإثارة للتأمل، ودعوة للتفكير فى آيات الله تعالى الكونية والقرآنية، والتفكير فى النفس وفى الحس، كل ذلك من دلائل الإعجاز وسره.

ولقد قال سبحانه فى ذلك: «ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا، وما يزيدهم إلا نفوراً»(١). أى أن التصرف لزيادة التنبيه، وكلما زاد تنبيههم بالحق وإرشادهم ازدادوا نفوراً، فزادوا كفراً وقال تعالى «ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل، فأبى أكثر الناس إلا كفوراً»(٢) أى أن الله تعالى صرف فى القرآن بضرب الأمثال وبيان الأحوال، رجاء أن يؤمنوا، ولكن سبق الكفر إليهم جعلهم يأبون الإيمان بالله والخضوع

---

(١) الإسراء: ٤١. (٢) الإسراء: ٨٩.

له ، فزادوا نفوراً عن الحقائق كما ينفر المريض السقيم عن الدواء الناجع ، والغذاء الصالح وقال تعالى « ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلا(١) » ذكر الله تعالى أنه يصرف القرآن بذكر الأمثال والأحوال، ولكن الذين سبق الضلال إليهم يجادلون والجدل فى الحق الواضح ، المبين يطمس الحقائق ، ويطفىء النور ، ويختفى نور الحق وسط الأقوال المتضاربة والأهواء المتنازعة .

وقال تعالى : « وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً ، وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً »(٢) .

وقال تعالى : « انظر كيف نصرف الآيات ، ثم هم يصدفون »(٣) .

وقال تعالى : « انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون(٤) .

وقال تعالى: « وكذلك نصرف الآيات ، وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون »(٥) أى نصرف الآيات ليفقهوه ويدركوا الحق إن كانوا غير ضالين ، ولم يطمس على قلوبهم وليقولوا درست وتعلمت ويكذبوا إن طمس على قلوبهم ولم يؤمنوا بالحق . كما قالوا يعلمه غيره ، ورد تعالى عليه بقوله : « لسان الذى يلحدون إليه أعجمى . وهذا لسان عربى مبين(٦) وقال تعالى: كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون(٧) .

٧٠ — وبهذه النصوص الكريمة تبين أن القرآن كان يصرف الآيات بمعنى أنه يتضمن الأمر بالتوحيد والتكليفات الشرعية التى بها إصلاح المجتمع وتكوين مدنية فاضلة تحترم فيها حقوق الإنسان احتراماً كاملا ، بأوجه

---

(١) الكهف : ٥٤ .
(٢) طه : ١١٣ .
(٣) الأنعام : ٤٦ .
(٤) الأنعام : ٦٥ .
(٥) الأنعام : ١٠٥ .
(٦) النحل : ١٠٣ .
(٧) الأعراف ٥٨ .

مختلفة من البيان ، من تهديد وإنذار إلى تبشير ، وتوبيخ واستنكار ودعوة إلى التأمل فى خلق الله تعـــالى ، وفى الأنفس ، ومن قصص يدركها أولو الألباب لسياق العبر والمثلات ، وهكذا تتنوع أساليب القول ومنـاهج التأثير ، لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وإن التصريف فى القرآن الكريم على ضربين أحدهما — فى المعانى ، وثانيهما فى الألفاظ والأساليب ، فأما التصرف فى المعانى ، فإن المؤدى فى جملته يكون واحداً ، ولكن يختلف فى دلالته بالنسبة للسياق ، فالقصة الواحدة كقصة نوح تذكر فى القرآن فى عدة مواضع ، ولكن لها فى كل مرة عبرة ، وهذا تصريف فى المعانى وإن كانت الألفاظ تختلف أو تتقارب أو تتحد العبارات فى بعض الأحيان ، ولقد قال فى تصريف المعانى الرمانى فى رسالته إعجاز القرآن : « وهذا الضرب من التصرف فيه بيان عجيب يظهر فيه المعنى بما يكتنفه من المعانى التى تظهره وتدل عليه ، وتصريف المعنى فى الدلالات المختلفة قد جاء فى القرآن فى غير قصة . منها قصة موسى عليه السلام فى سورة الأعراف وفى طه والشعراء . لوجوه من الحكمة ، منها التصرف فى البلاغة من غير نقصان ، ومنها تمكين العبرة والموعظة[1] » .

٧١ — وأول تصريف فى مناحى القول فى القرآن يكون فى السور ، فنها الطويل التى يجد فيها القارىء أبواب العلم الإسلامى المختلفة من بيان الوحدانية ، وبطلان الوثنية ، وتوجيه الأنظار إلى الكون ، وما فيه من دلالة على قدرة ، والأرض وما حوت من كنوز وزروع وثمار ، ومن اتصال الأرض بالسماء بالمطر الذى يكون غيثاً يحيى الأرض ، وينبت الزرع ، ويسقى كل حى ، ومن شرائع فيها المصلحة الإنسانية وكرامة الإنسان ، وتكريمه بالعقل .

---

(١) رسالة الرومانى من مجموع الرسائل فى إعجاز القرآن ص ١٠١ .

وفيها القصار التى يسهل على القارىء حفظها ، وأن يعيها صدره لما فيها من جمل قصار يسهل وعيها والاعتبار بها ، وذكرها فى صلواته ، وفيها بيان الوحدانية وذكر اليوم الآخر ، وفى بعضها تجد أحكاماً شرعية ، مثل قوله تعالى فى سورة الكوثر « إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر » ، ففيها ذكر لليوم الآخر ومقام النبي عليه السلام ، ومقام الشانئين الذين عادوه ، وعادوا الحق معه وحكم الأضحية .

واقرأ قوله تعالى : « والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » ، ففى هذه السورة القصيرة جماع الخصال الإنسانية التى تصلح الآحاد والجماعات ، وهى الإيمان الذى يعمر القلوب، ويوجه الجوارح ، فلاصلاح لإنسان أو جماعة إلا إذا صلحت القلوب ، وأثمر الإيمان العمل الصالح فى الآحاد ، وكانت الجماعة كلها للحق تتواصى عليه وتتعاون ، فما صلح قوم ضاع الحق بينهم، وتخاذلوا فى نصرته ، وإن السبيل إلى احتمال أعباء الحق ، هو الصبر ، فإن الصبر فيه ضبط النفس ، والابتعاد عن الشهوات وجعلها خاضعة للعقل ، بحيث تكون أمة ذلولا لا سيداً مطاعا وما تخاذل قوم عن نصرة الحق إلا لأن الشهوات قد استولت على نفوسهم ، وصار السائد على الجماعة الهوى المطاع ، والشح المتبع ، ولذلك نص الله سبحانه وتعالى على أن الجماعة الفاضلة هى التى تتواصى على الحق ، فلا يذل صاحب حق ، ولا يعلو أهل الباطل ، وتتواصى على الصبر ، وضبط النفس ، وقدعها عن أهوائها ، وشهواتها .

وفى القرآن السور المتوسطة التى ليست بالطوال ولا القصار ، ومنها ما يقرب من الطوال ومنها ما هو قريب من القصار ، وهى مشتملة على جل مقاصد الشريعة الإسلامية فى عبارة موجزة ، مثيرة ولكن بوضوح ، ومبينة ، ولكن بإيجاز .

وكأن الله سبحانه وتعالى بذلك التصريف فى السور بين الطويل ، والمتوسط والقصير ، وكلها فى أعلى درجات البلاغة يقدم مائدته الكبرى ، وهى القرآن للناس أجمعين ذوى العلم الذين يتسع علمهم للإحاطة بالسور الطوال وما فيها من علم بالشريعة وما فيها من علم الكون الذى لا يحيط به من دونهم ، وهم أوتوا مدارك تسموا إليها ، وتستخرج من كنوزها جواهر .

وأعطى الذين يشغلهم أسباب الرزق عن الإحاطة قصار السور ، وفيها غناء لا قصور فيه ، بل إنه كمال فى كمال .

وبين هؤلاء وأولئك الذين يطلبون السور المتوسطة طولا ، وهم الشادون فى العلم الذين لهم من وقتهم ما يمكنهم أكثر ممن كانت لهم قصار السور .

وقد يقول قائل هل تقسيم القرآن إلى سور قصار وما بينها تنزيل من الله تعالى ! .

ونقول فى الجواب عن ذلك : إن ترتيب السور بوحى من الله تعالى ، وقد بينا ذلك فيما أسلفنا من قول فى جمع القرآن .

التكرار فى القرآن

٧٢ — كانت السور منها القصار، ومنها الطوال، وأن الجميع بترتيب من الوحى الإلهى ولم يكن من عمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من غير وحى، بل هو من توقيف الله تعالى، ووحيه، وإن وضع الآيات بعضها بجوار بعض من وحى الله تعالى، إذ كانت الآية إذا نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم أمر بوضعها فى مكانها من السورة التى يعينها بالوحى. النازل عليه، والذى كان لا ينى عن الاتصال به فيما يتعلق بالقرآن الكريم، وإن ذلك من الإعجاز إذ أن الآيتين المتلاصقتين مع أنهما قد تكونان نزلتا فى زمنين متباعدين، نجد أن كل واحدة لقف للأخرى، وهما صنوان متلازمتان متآخيتان، وذلك من سر الإعجاز ودلائله، إذ أن التناسق البيانى بينهما متصل، والمعانى متلاقية، وكل واحدة منهما تتم الأخرى فى الموضوع فى أحيان كثيرة، وفى التوجيه النفسى، والتوائد المعنوى بينهما، بحيث لا يتصور القارىء للقرآن الكريم، أو المستمع لترتيله والمدرك لنغمه لا يحسب أن بينهما فارقاً زمنياً فى النزول.

وبجوار طول السور وقصرها، مع الإعجاز فى كلها قد نجد فى القرآن تكراراً، وهو من تصريف البيان، لا من الإطناب المجرد، إنما هو لمقاصد ولتوجيه النظر، ومناسبة المقام، ولقد لاحظ ذلك الأقدمون الذين تكلموا فى سر الإعجاز وقد قال فى ذلك الجاحظ فى كتابه الحيوان.

« رأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحى والحذف، وإذا خاطب بنى إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطا وزاد فى الكلام ».

وإنا نقدر كلام الجاحظ حق قدره ، وإن ذلك واضح فى كثير من آى القرآن ، وإن الأعراب الذين يعتمدون على ذاكرتهم لأنهم أميون يناسبهم الكلام الموجز ، وأحياناً يغنى فيهم لمح القول ولحنه وإشاراته ، ولكن نلاحظ ثلاثة أمور :

أولها — أنه قال وزاد فى الكلام ، وإنا لا نحسب أن هذه الكلمة تتفق مع بلاغة القرآن ولا مقامه ، فليس فى القرآن زائد ، وإن أطنب فى القول ، لأن الزيادة تتسم بالحشو ، ومحال ذلك فى أبلغ القول الذى نزل من عندالله تعالى ، ولعله أرادمعنى البسط والإطناب ، لاأصل الزيادة ،ولا يمكن أن يكون قد أراد الحشو ، ولكن مع كل نقول هذه العبارة ليست سائغة .

الثانى — أن الآيات المكية وقدكان الخطاب لعبدة الأوثان ، فإنا نجد فيها بسطاً فىالقول ، وخصوصاً فىالاستدلال من الكون على أن اللهسبحانه وتعالى خالقه ، وفى الاستدلال بعجزهم ، والالتجاء إليه سبحانه :

اقرأقوله تعالى :« أمن خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أ إله مع الله ، بل هم قوم يعدلون ، أمنجعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا أ إله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون أمن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض أ إله مع الله قليلا ما تذكرون ، أمن يهديكم فىظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أ إله مع الله تعالى الله عما يشركون أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض أ إله مع الله ، قل هاتوا برهانكم ، إن كنتم صادقين »[1] .

(١) النمل ٦٠ — ٦٤

وإن هذا الكلام الكريم لا يمكن أن يكون خطاباً لليهود وحدهم ، وإنما هو خطاب للعرب ، ولم يكن باللمح والإشارة . بل كان بالتصريح والعبارة، فلم يكن بالإيجاز ، وإن كان الإيجاز القرآني من نوع الإعجاز . بل كان بالإطناب المتسق المبين ، وكان فيه بعض التكرار وهو تكرار في موضعه ، لأن التوجيه إلى النظر فيما تحت أيديهم هو في ذاته مقدمة لنتيجة وهي الوحدانية للمعبود ما دامت وحدانية الخالق قد ثبتت بهذا الكلام ، فكان لا بد أن تذكر النتيجة أمام كل مقدمة ، لأنها وحدها دليل ، ولو لم تذكر النتيجة أمام كل مقدمة ، لكانت النتيجة ثمرة لمجموعهما ، مع أن كل واحدة منهما صالحة لأن تكون الوحدانية نتيجة لها ، دون أن تنضم معها غيرها .

الملاحظة الثالثة ، وهي مبنية على الملاحظة السابقة ، أن الإيجاز والإطناب يكون لكل موضعه ، ومقامه ، فلكل مقام مقتضاه الذي توجه أحوال البيان المعجز .

وقد لاحظنا أن مقام الاستدلال على الوحدانية من المواضع التي يحسن فيها الإطناب ، وكلام الله تعالى اتجه إلى ذلك ، كما رأينا في الآية السابقة ، وكما نرى في سورة الرحمن فإنها تذكير بنعم الله تعالى . وكل نعمة كفروا إذ استعملوها في غير موضعها ، وفي غير أمر الله تعالى ونهيه ، وإذا كان جزاء النعم كفراً بالمنعم ، وإشراك غيره معه في العبادة ، فقد قال تعالى في سورة الرحمن « الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ، والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف ، والريحان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان

من مارج من نار فبأى آلاء ربكما تكذبان ، رب المشرقين ، ورب المغربين فبأى آلاء ربكما تكذبان ... إلى آخر السورة الكريمة .

وهكذا نجد بعد كل نص سام تتبين فيه نعمة الخالق بديع السموات والأرض يكون تذكيراً بنعم الله ، ووجوب شكرها بالطاعة وتجنب المعصية والإقرار بوحدانية المعبود ، وألا يعبدوا غيره سبحانه وتعالى ، وفى ذلك إشارة إلى أن كل نعمة من هذه النعم ، وبينة من هذه البينات توجب وحدها الشكر ، وتوجب الإقرار بوحدانية الله سبحانه وتعالى .

قصص القرآن من الناحية البيانية

٧٤ – ومن المواضع التى يحسن فيها الإطناب ، بل التكرار أحياناً قصص القرآن ، ولا نذكره هنا من ناحية أنه من وجوه الإعجاز فى ذاته ، فلذلك موضع خاص من القول ، إنما نذكره من ناحية التكرار فيه ، وموضع ذلك من سر الإعجاز ، وبلاغة القرآن التى لا تساميها بلاغة فى الوجود ، وإن ذلك التكرار من تصريف القول الذى هو وجه من وجوه البيان القرآنى الذى قصد إليه الكتاب العزيز .

لقد تكررت قصص الأنبياء ، فذكرت قصة نوح عدة مرات بالإطناب أحياناً ، والإيجاز أحياناً ، وذكرت قصة عيسى عدة مرات ، وذكرت قصة إبراهيم عدة مرات ، وذكرت قصة موسى عدة مرات ، وإنه يبدو بادى الرأى أن ذلك من مكرور القول . وفيه التكرار ، فما وجه البلاغة فى هذا التكرار .

إننا إذا نظرنا نظرة فاحصة تليق بمقام القرآن ، ومكانته فى البيان العربى ، نجد أن التكرار فيه له مغزى ، ذلك أن القرآن ليس كتاب قصص وليس كالروايات القصصية التى تذكر الحوادث المتخيلة أو الواقعة .

إنما قصص القرآن ، وهو قصص لأمور واقعة ، يساق للعبر وإعطاء المثلات ، وبيان مكان الضالين ومنزلة المهتدين ، وعاقبة الضلال وعاقبة الهداية ، وبيان ما يقاوم به النبيون ، ووراءهم كل الدعاة للحق ، فهو قصص للعبرة بين الواقعات ، لا لمجرد المتعة من الاستماع ، والقراءة ، ولذلك قال الله تعالى فى آخر قصة نبى الله يوسف عليه السلام ، « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه

وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »(١) .

ولكى يتبين القارىء الكريم ، أن التكرار بسبب تعدد العبر التى هى المقصد الأول من القصص ، نذكر قصة إبراهيم وقصة موسى عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ، فإنهما ذكرتا كثيراً فى القرآن الكريم .

قصة ابراهيم

٧٥ — ذكرت قصة إبراهيم فى القرآن عدة مرات ، لتعدد العبر فيها ، وإن إبراهيم كان أبا العرب فقصصه له مقامه عندالعرب ، ونذكر من قصصه بعضه لا كله ، فإنه ليس هذا مقام ذكره فى القرآن .

(ا) أول مانذكر من قصة إبراهيم ، هو مايربطه بالعرب ، وما كان شرف العرب به وهو بناء الكعبة ، فقد ذكر هذا البناء الذى قام به ، وعاونه فيه ابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، وبإبراهيم وإسماعيل تشرف العرب ، بأنهم سلالتهما ، وبالبيت الحرام اعتزوا ، وعلوا فى العرب ، إذ كان مثابة للناس وأمناً ، وقد قال تعالى فى هذا البناء الذى قام بأمر ربانى :

« وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال إنى جاعلك للناس إماماً ، قال ومن ذريتى ، قال لا ينال عهدى الظالمين ، وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين ، والركع السجود ، وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمنا ، وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر ، فأمتعه قليلا ، ثم اضطره إلى عذاب النار ، وبئس المصير ؛ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت

---

(١) يوسف : ١١١ .

السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم »(١).

ثم بين سبحانه وتعالى من بعد ذلك بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه كان استجابة لدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وبذلك تتبين الصلة بين الإسلام ودعوة إبراهيم ، فإذا كان العرب يفتخرون بإبراهيم عليه السلام ، فهذه دعوته قد استجيبت فى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم .

(ب) نجد بعد هذه القصة قصة النفس البشرية فى نبي الفطرة إبراهيم عليه السلام ، إذ النفوس ولو كانت مؤمنة تتمتع بكثرة الدليل ، لتزداد إيماناً ، وإن كان أصل الإيمان قائماً ، فزيادة البينات تزيد المؤمن إيماناً ، وتزيد الجاحد كفراً وعناداً .

واقرأ قصة طلبه زيادة الإيمان : « وإذ قال إبراهيم : رب أرنى كيف تحيي الموتى . قال أولم تؤمن قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبي ، قال فخذ أربعة من الطير ، فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعهن يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم »(٢) .

ومن قبل ذلك فى الذكر كانت قصته مع الملك عندما ناقشه فى إثبات وجود الله وكيف استطاع إبراهيم عليه السلام أن يفحمه إذ هو لا يؤمن إلا بالمحسوس، إذ قال تعالى : « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم ربى الذى يحي ويميت قال أنا أحيي وأميت ، قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين »(٣) .

---

(١) البقرة: ١٢٤ — ١٢٨ .
(٢) البقرة: ٢٦٠
(٣) البقرة: ٢٥٨ .

ونرى فى قصة إبراهيم والطير أنه صور النفس الإنسانية ، ولو كانت نفس نبى مؤمن يدعو إلى تكشف المجهول ، وتعرف المستور ، والمؤمنون يهديهم الله تعالى ، ومن لا يريدون الهداية يتركون فى غيهم يعمهون .

وفى قصه إبراهيم مع الملك نجد إبراهيم الأريب يأخذ بالطريق الذى يحسم الخلاف دون الطريق الذى يحدث لجاجةمن غير إفحام ، إذ الملك فهم أن القتل إماتة وتركه إحياء ، فلم يسترسل رسول الله الفطين الأريب فى تعريف للموت والحياة ، بل عمد إلى ما يفحمه حسياً ، فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين .

ومن هذا نرى أنه ليس ثمة تكرار فى المعانى والعبر والعظات ، وإن كان الموضوع فى الأحوال الثلاث يتعلق بإبراهيم عليه السلام .

(جـ) ولننتقل إلى قصة أخرى موضوعها يتعلق أيضاً بإبراهيم عليه السلام ، وهو تدرج النفس الإنسانية فى الاتجاه إلى طلب الحقيقة الإلهية ، والإيمان بالوحدانية كيف ابتدأ إبراهيم عليه السلام تأمله فى الكون ليتعرف من الوجود سر الوجود ، وعظمة الخالق ، فأول ما استرعاه نجم ساطع تألق ، فحسبه ربه ، ولكن الرب موجود دائما ، فلما غاب نفر مما زعم ثم رأى القمر ، فحسبه كذلك ، ثم رأى الشمس ، وهكذا حتى هدى إلى أن سر الوجود يجب أن يكون غير هذا كله ، فاتجه إلى الله ، وإليك القصة كما ذكرها القرآن ، وكما وقعت ، قال تعالى : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ، إنى أراك وقومك فى ضلال مبين ، وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ، قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت ، قال

يا قوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، وحاجه قومه . قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً ، وسع ربى كل شىء علماً أفلا تتذكرون »(١)

ونرى من هذه القصة أنها مغايرة تمام المغايرة لما سبق ، وإن كانت غير معارضة لها ، بل هى متممة ، ولا تكرار فى القصص ، إنما الموضوع ، وهو إبراهيم عليه السلام هو المتكرر ، ونرى أنه ابتدأ بنفى عبادة الأصنام على أساس أن البديهة تدعو إلى ذلك ، وأن ضلال العقل هو الذى يؤدى إلى عبادتها ، ثم أخذ يبين أن طريق اليقين يبتدىء بالشك فى صدق ما تضل فيه الأفهام ، فأخذ يعرض على عقله ما يتصور أن يكون فيه نفع ، فاتجه إلى الكوكب السارى ثم إلى القمر المنير ، ثم إلى الشمس السراج ، فوجد أن كل ذلك يأفل ، ويجرى عليه تغير ، فاتجه إلى خالق ذلك كله ، ولذلك يقول بعض العلماء ، ومنهم ابن حزم الظاهرى إن إدراك الله ضرورى إذا استقامت الفطرة ، ولم تركس فى ضلال الأوهام .

(د) انتقل سيدنا الخليل من الاهتداء إلى الله تعالى إلى عمل إيجابى نحو الأصنام دفعه الشباب ونور الله إلى أن يحطمها ، وهذا يجىء فى قصص القرآن الكريم ، فيذكر سبحانه أنه عقب أن نال إبراهيم رشده ، وهو فى حياطة الله ، تقدم ليثبت ضلال عبادتها ، وأنها لا تضر ، ولا تنفع ، فحطمها ، ويقول سبحانه وتعالى فى ذلك :

« ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ، وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ، قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن ، وأنا على ذلكم من

---

(١) الأنعام : ٧٤ ــ ٨٠

الشاهدين ، وتالله لأكيدن أصنامكم ، بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ، قالوا من فعل هـــذا بآلهتنا ، إنه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ، قالوا أأنت فعلت هـذا بآلهتنا يا إبراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ، فرجعوا إلى أنفسهم ، فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رءوسهم ، لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ، قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم . إن كنتم فاعلين قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين[١] (صدق الله تعالى العظيم) .

هذه قصة من قصص إبراهيم عليه السلام . ذكرها القرآن الكريم فى موضع غير المواضع السابقة ، ولا ترى تكراراً فيها ، وإذا كان قد ذكر فى قصة تتبع الكواكب والقمر والشمس الحكم على أبيه وقومه بالضلال ، فقد ذكر ذلك مجملا فى الأول ، أما هنا فقد ذكر المناقشة التى جرت بينهم فى ذلك ، ثم ذكر تدبيره فى حطم الأصنام ، وإثبات عجز الأصنام بالدليل القاطع ثم نجاته من النار ، فكان بهذا مثبتاً بالعمل أنهم لا ينفعون ولا يضرون ، ولما سألوه عما فعل بالأصنام قال متهكماً : « بل فعـــله كبيرهم » ، فأنطقهم بضلالهم إذ نكسوا ثم قالوا لقد علمت ماهؤلاء ينطقون ، وقد أثبت الواقع أيضاً أن الله وحده هو الذى يضر وينفع إذ جعل سبحانه وتعالى النار « برداً وسلاماً على إبراهيم » .

وهنا لا نجد تكراراً مطلقاً ، وإن الموضوع واحد ، فهذه قصة إبراهيم ولكن فرقت فى أبواب شتى لأن النسق القرآنى المعجز اقتضى ذلك ، إذ

---

(١) الأنبياء : ٥١ — ٧٠

يكون كل جزء مكوناً لقصة ذات عبرة مستقلة فى ذاتها ، فهى قصة واحدة الموضوع ، فى قصص متعددة العبر .

(ﻫ) ولندخل إلى جزء آخر من قصة إبراهيم ، ونراه مستقلا غير مكرر ، وهو صلة إبراهيم بأبيه ، وكيف كان حريصاً عليه مع رفق الدعوة وإحسان البنوة ، وطرق الهداية الرشيدة ، يقول الله تعالى حكاية عن إبراهيم بعد أن صار صديقاً نبياً .

« واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً ، إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغنى عنك شيئاً ، يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك ، فاتبعنى أهدك صراطاً سويا ، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً ، قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم. لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى ملياً ، قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا »[1] .

وهنا نجد رفق الدعوة التى تفيض بحنان البنوة فى عباراتها ، وفى نغماتها الهادئة ، وفى معانيها العاطفة ، ولا يمكن أن يوجد فى أى لغة فى أى كلام عبارات تفيض برفق الدعوة ، والعطف ، والرعاية بمثل هذه العبارات لأنها كلام العليم الحكيم العزيز الكريم .

وبمقدار ما فى عبارات الابن من رفق واسترضاء واستعطاف كانت عبارات الأب كما صورها القرآن جفوة ، وكأنها الجنادل تصك الآذان ، ولم يمنع ذلك الابن العطوف من أن يعد أباه بأن يستغفر له ربه ، لأن له مكانه عند الله تعالى « إنه كان بى حفياً » .

---

(١) مريم : ٤١ — ٤٧

ولكن الله تعالى يخبره بأنه ليس له أن يستغفر لأبيه ، لأن كل امرىء بما كسب رهين ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وكل إنسان وما قدمت يداه ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وقد نهى الله تعالى عن الاستغفار للمشركين ، وعفا عن إبراهيم إذ استغفر لأبيه ولكنه أمره بالبراءة منه فتبرأ ، وقال تعالى فى ذلك :

« ما كان للنبي والذين آمنوا معه أن يستغفروا للمشركين ، ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم »(١) .

هذه قصة إبراهيم عليه السلام قبضنا منها قبضة ، لكيلا يتوهم القارىء للقرآن ، أو المستمع لتلاوته أن فيها معانى مكررة وألفاظا مرددة ، ومنها يتبين أنه لا تكرار قط فيها ، ولكن حكمة العليم الخبير تعالت كلماته اقتضت ذكرها متفرقة الأجزاء فى مواضع ، لتكون كل عبرة بجوار خبرها فى القصة ، ولو اجتمعت فى مكان واحد ، لاختلطت العبرة بالقصة الخبرية وما تميزت كل عبرة تميزاً يجعلها كونا مستقلا مقصوداً بالذات ، وبقية الأجزاء التى لم نرطب قلدنا بذكرها لا تكرار فيها بل كل واحدة لها عبرتها .

قصة موسى عليه السلام :

٧٦ - قصة سيدنا موسى ذكرت فى القرآن الكريم كثيراً ، لأنه هو الذى نزلت عليه التوراة ، وفيها المبادىء المقررة فى الشرائع السماوية ، وكثير من أحكام المعاملات فيها لم ينسخ ، بل جلها صدق عليه القرآن الكريم ، كما وصفه الله تعالى إذ قال سبحانه « ومصدقا لما بين يدى من التوراة »(٢)

---

(١) التوبة : ١١٣ — ١١٤

(٢) آل عمران : ٥٠

ولأنها تبين أحوال اليهود ، ولأن فيها أوصافهم الحقيقية من الشك والتردد فى الحق، وخذلانه ، وما وسموا به من خنوع وخضوع إلى آخر ما ذكره القرآن عنهم ، وكل ذكر لهم يجىء معه ذكر لنبى من الأنبياء ، ففيهم تجارب الإنسانية الفاسدة ، وحالهم فى هذه الأيام هى امتداد لما ذكره القرآن من أوصافهم

وإن المتتبع لقصة سيدنا موسى فى القرآن يجدها متعددة العبر ، فى جهاده ، وفى قومه ، وفيما لقيه ، وهو من أولى العزم من الرسل الذين جاهدوا فى الله حق جهاده ، ففى كل واقعة من وقائع حياته عبرة . ولا تكرار بالقدر الذى يتوهمه التالى للقرآن أو المستمع لتلاوته ، ولنقبس قبسات من ميلاده إلى جلاده مع فرعون الطاغية الذى كان من أغنى ملوك العالمين ، وأشدهم طغيانا ، ولسنا نحصى كل المواضع بل نذكر ما يتوهم فيه التكرار من قصد لجديد .

(١) أول ما نتجه إليه هو ميلاده ، وما أحيط به من خوارق للعادات ، فقد قال تعالى فى سورة القصص « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين: فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزنا ، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ، وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا ، أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون . وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدى به ، لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ، وقالت لأخته قصيه ، فبصرت به عن جنب ، وهم لا يشعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون ، فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ، ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون »(١)

---

(١) القصص : ٧ — ١٣

وفى هذه القصة نجد عدة خوارق للعادات اقترنت بنبي الله موسى عليه السلام فى نشأته . فقد ولد ، فخافت عليه أمه ، إذ أن فرعون اللعين الذى يعد أستاذاً لكل طاغية فى الأرض ، كان يرهق بنى إسرائيل ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم لكيلا تكون منهم فى القابل قوة تناوىء حكمه ، وترد طغيانه ، ولكن الله تعالى ألهم نفس أمه الصافية ، أن تصنع له تابوتاً ، وتلق فيه فلذة كبدها ، وتدفعه إلى البحر ، فكان الوحى أو الإلهام صادقاً كل الصدق، مصدقاً كل التصديق ، فالتقطه آل فرعون ليكون المصير والمآل أن ينجو ، وأن تكون رسالته عدوا للشرك ، وحزنا على آل فرعون ، إذ أنه سيقاوم فرعون ، ويقتلعه من أرض مصر . وقد وهب قلب امرأة فرعون الرحمة لهذا الملق فى اليم ، وقد ألهم الله أم موسى أن تتقصاه ، حتى تعرف أنه آل أمره إلى بيت فرعون ، ويجىء الأمر الثالث الخارق للعادة ، فيمتنع الرضيع عن المراضع بأمر الله التكوينى ، وتعرف أخته التى تقصت أخباره . فتدلهم -وهى المترقبة المترصدة- على من يكفله ، تدلهم على أمه ، وبذلك يرده الله تعالى إليها ، كما وعد ، وهو أصدق الواعدين ، وقد اقترنت هذه الخوارق بنشأة موسى ، كما تقترن الخوارق بنشأة كل رسول من رب العالمين ، وقد رأيناها من بعده مقترنة بولادة محمد خاتم الأنبياء ، وآخر لبنة فى صرح النبوة ، مما هو مذكور فى السيرة النبوية العطرة،وإن سورة القصص يرى التالى لها المتتبع للقصة أنها ذكرت بالإجمال ولادته ونشأته فى بيت فرعون إلى أن أرسله الله رسولا نبياً ، ولاقى فرعون فى عزمة المؤيد من الله تعالى ، وفيها ختام حياة فرعون ، وما انتهى إليه من غرق فى اليم .

ابتدأت بعد نشأته . ببيان أنه فهم طغيان فرعون ، ولظلمه لبنى مصر عامة ، وتخصيصه بنى إسرائيل بظلم خاص . فيقول الله سبحانه « ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ، وكذلك نجزى المحسنين ، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان هـذا من شيعته ، وهذا من

عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه . . قال هـذا من عمل الشيطان ، إنه عدو مضل مبين ، قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ، قال رب بما أنعمت علىّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين »[١]

أدرك موسى بنفاذ بصيرته القدرة على الحكم على الأمور والعلم بمداخلها ، فأعطاه الله تعالى حكمة وعلما وخرج من سجن القصر إلى حيث الشعب يتحسس الأمور ، ويتعرف مقتضياتها ، وغاياتها ومآلاتها ، فدخل المدينة فى وقت لا يعلم أهلها أنه من قصر فرعون ، ورأى الإسرائيلى الذى يدل ظاهر الحال على أنه من المظلومين ، يقتتل مع المصرى الذى يدل ظاهر الحال على أنه من الظالمين ، فاستنصر به الذى من شيعته على الذى من عدوه وقتله ولكنه ندم ، إذ قتل قبل أن يتبين ، وتاب إلى الله ، واعتزم على ألا يعود لمثلها .

ولكن تتكرر المأساة ، وتعاوده رغبته الانتصار لمن هو من شيعته ، فينبهه الآخر إلى أنه لا يصح أن يكون جباراً فى الأرض ، إذ جاء من شيعته من يستنصر به على مصرى آخر فيعرفه المصرى فينبهه .

عندئذ يحس الطيب الأمين الذى أراد الله تعالى له أن يكون من المصطفين الأخيار . بأنه صار فى خطر أن يبطش به فرعون وأعوانه ، وقد جاء النذير بذلك ، « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج إنى لك من الناصحين ، فخرج منها خائفاً يترقب . قال رب نجنى من القوم الظالمين »[١]

خرج من المدائن إلى حيث الأمن والاستقرار ، خرج إلى الصحراء ،

---

(١) القصص : ١٤ — ١٧

(٢) القصص ٢٠ ، ٢١

حيث السماء الصافية ، والنور المشرق ، فتوجه تلقاء مدين ، وارتبطت حاله بشعيب كبير مدين ، وخاطبه الله تعالى من وراء الشجرة ، وقد آنس ناراً ذهب ليصطلى هو وأهله بها ، فهداه الله تعالى ، وبعثه إلى فرعون وقومه ليلقى الطاغى الأول فى العالم . وأعطى المعجزة الأولى ، وكانت لأن الله تعالى يخاطبه ، وقد قال الله تعالى لما أتى إلى جذوة النار : « فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين ، وأن ألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ، ولم يعقب ، ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم إليك جناحك من الرهب ، فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه ، إنهم كانوا قوما فاسقين ، قال رب إنى قتلت منهم نفسا ، وأخاف أن يقتلون ، وأخى هرون هو أفصح منى لسانا ، فأرسله معى ردءاً يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون ، قال سنشد عضدك بأخيك ، ونجعل لكما سلطانا ، فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ، فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ماهذا إلا سحر مفترى ، وماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ، وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ، ومن تكون له عاقبة الدار ، إنه لا يفلح الظالمون ، وقال فرعون ياأيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيرى ، فأوقد لى يا هامان على الطين ، فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه من الكاذبين . واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق ، وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ، فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين »[1] .

إلى هنا بين القرآن حياة الكليم عليه السلام من وقت أن نشأ رضيعا ، وكيف مَلَأَتْه عناية الله تعالى ، وهو يتدرج ، حتى صار شاباً سوياً ، قادراً ، ورأى الظلم عيانا ، وصقلته الحاجة الشديدة ، حتى صاح ضارعاً إلى ربه

---

(١) القصص : ٣٠ — ٤٠

« إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير » فصار من تربى فى ترف فرعون فى حاجة إلى عيش الكفاف ، ووجده فى أن يكون أجيرا لشعيب بمهر إحدى ابنتيه ، فالتقى فيه ترف النعمة ابتداء حتى زهد فيه ، لما تأشب حياته فيه من إحساس مرير بالظلم فأقبل على الشعب يعيش فى وسطه عيشا مريرا ، ولكنه هنىء ، وحياة لاغبة ، ولكنها فى راحة الضمير والوجدان .

عندئذ بدت أرهاص النبوة ، ثم كانت الرسالة ، وشعر بشدة التكليف ؛ لأنه سيكون فى مواجهة فرعون الذى قتل من قومه نفسا ، والتقى فرعون بطغوانه ، وجهله ، فحسب أن الله فى السماء الدنيا ، وأراد أن يتخذ الأسباب للارتفاع إليه . ومع جهله بالحقائق الإلهية استكبر هو وجنده ، فكأن الجند فى جانبه ، والشعب ليس فى جانبه ، أو هو مغلوب على أمره لا يحرك ساكناً حيث يجب أن يتحرك ، ولا يدفع ظلماً يجب أن يدفع ، ثم نزل العقاب بفرعون وجنده ، فألقوا فى البحر . هذه قصة موسى رضيعا ، فشاباً قوياً ، فأجيراً فتياً ، فمبعوثاً نبياً ، فمجاهداً مجالداً ، حتى أدال الله تعالى من الطاغى المتغطرس .

٧٧ — جاء بعد هذا الإجمال تفصيل لما ذكر بالإجمال من الوقائع ، وكان فى التفصيل ذكر للنعم التى أنعم الله بها على موسى .

وأول تفصيل كان فى ذكر التأهب للقاء فرعون ، فقد توقع أنه سيلقى عنتاً ، وما ذكر من بعض التكرار فلأنه لا بد منه ليقوى موسى على اللقاء ، وليذكر بالنعم التى أنقذته سابقاً ، ليعلم أن الله تعالى معه ومؤيده ومنقذه ، ذكره بنعمه عليه رضيعا ثم كيف ابتدأ التكليف ، ثم كيف استعان بأخيه ، ثم كيف استعد للقاء الرهيب ، إذ قال : « رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيراً من أهلى هرون أخي ، اشدد به أزري وأشركه فى أمري كي نسبحك كثيراً

ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً قال قد أوتيت سؤلك ياموسى ، ولقد مننا عليك مرة أخرى »[1] ثم ذكره بعظم مننه السابقة ليتأكد أن الله تعالى مؤيده بنصره ، وليعلم أنه مهما يكن أمر فرعون ، فإن الله تعالى لن يمكنه منهما .

ثم جاء التكليف بالرسالة ومخاطبة فرعون نتيجة للآيات التى ذكرها أولا ، ثم ذكرها ثانياً ليربط التكليف بها ، وهذا نص التكليف الخطير : « اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى ، قالا ربنا ، إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى ، فأتياه ، فقولا له إنا رسولا ربك ، فأرسل معنا بنى إسرائيل ، ولا تعذبهم ، قد جئناك بآية من ربك ، والسلام على من اتبع الهدى »[2] .

وفى هذا النص دعاهم إلى التقدم برقيق القول إرشاداً لسبيل الدعوة ، إذ هى تكون بالتى هى أحسن ليلين الطاغى وليسكن النافر ، وقد أبديا لله سبحانه الخوف من أن يطغى ، فوعدهما سبحانه بأنه سيكون معهما ، وقد سبق القول ، بسابغ نعمه ، وصادق وعده ، وكان لا بد من ذكر ذلك عند دعوتهما إلى ذلك الإقدام الخطير .

وقد كانت إجابة فرعون أن سألهما عن ربهما فأجابا قائلا أحـــدهما ومصدقاً من الآخر : « قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، قال فما بال القرون الأولى ، قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ، الذى جعل لكم الأرض مهداً ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى .. »[3].

وأخذا يذكران أسباب الهداية مبينين حقائق الوجود كله ، ولما تقدم

---

(١) طه : ٢٥ ــ ٣٧ (٢) طه : ٤٣ ــ ٤٧ . (٣) طه : ٥٠ ــ ٥٤ .

موسى له بالعصا التى قلبت ثعباناً مبيناً وقال سبحانه « ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى » لم يفكر فرعون إلا فى سلطانه ومن استرقهم ، فقال : أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى، فلنأتينك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى(١) » . التقى السحرة وموسى ، ووقعت المعارك بين الحق يؤيده الله ، والسحر يؤيده الباطل ، والله يطمئن عبده الرسول وقد رأى السحرة فيقول له : « لا تخف إنك أنت الأعلى »(٢) .

وقد كانت نتيجة المعركة بين الحق والباطل أن خر السحرة ساجدين لله، وهنا تتجلى الحقيقة، ويتجلى الفداء فى سبيل الحق والطغيان الفرعونى الذى يستكثر أن من المصريين من يذعن للحق قبل أن يأذن الطاغوت الأثيم ، وينذر بالعذاب العسير ، وقال « آمنتم له قبل أن آذن لكم ، إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى »(٣).

وهنا تتجلى قوة الإيمان لأنه إذا سكن القلب، واطمأنت به النفس هان تهديد العباد ولو كان من فرعون ذى الأوتاد ، « قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات ، والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ، وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى ، إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ، ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا »(٤).

وينتهى هذا الجزء من قصة موسى وفرعون بأنه مقصد قائم بذاته ، وهو تفصيل اللقاء بين الحق يؤيده الدليل ، وبين الباطل يؤيده الطاغوت،

---

(١) طه : ٥٧ — ٥٨ . (٢) طه : ٦٨ . (٣) طه : ٧١ .
(٤) طه : ٧٢ — ٧٥ .

وفيه قوة الإيمان عند المؤمن ، وما جاء من ذكر لآلاء سبق بيان فيها ، فلكى يتخذ من التأييد الأول والوعد به وصدق الوعد دليلا على صدق الوعد الجديد ، وقد اشتدت الشديدة .

الدعوة فى أوساط الشعب

٧٨ — سرت الدعوة بين المصريين سريان النور فى الظلمة ، ومع قوة فرعون الطاغية سرت الدعوة بين الشعب ، بل كان من ملأ فرعون نفسه من آمن ، ودعا إلى الإيمان ، وتجرى المجاوبة فى ربوع مصر حاضرها وريفها ، وفرعون يرعد ويبرق ، ويهدد ، ولا مستمع يستمع ، لأن الحق أبلج ، فالله تعالى يقول عنه : « فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه ، واستحيوا نساءهم ، وما كيد الكافرين إلا فى ضلال ، وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه ، إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ، وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ، وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ، يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ، قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ، وقال الذى آمن يا قوم ، إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلماً للعباد ، ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين ، ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب »(١) .

---

(١) غافر : ٢٥ — ٣٤ .

استمرت المجاوبة بين الذين آمنوا وبين فرعون ، وكان فرعون ومن معه يصدون عن سبيل الله تعالى . والذين آمنوا يدعون إلى سبيل الرشاد « وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ، ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هى دار القرار » إلى قوله تعالى « وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة ، وتدعوننى إلى النار تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ، لا جرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله ، وأن المسرفين هم أصحاب النار ، فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ، فوقاه الله سيئات ما مكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب »(١) .

استمرت المجاوبة بين الحق والباطل ، فى داخل الشعب المصرى ، وبين آل فرعون والمؤمن ، ولعله ـ والعلم لله وحده ـ أن الذين آمنوا من آل فرعون وأهل مصر عدد قليل كالذين آمنوا بمحمد من بعد قد كانوا عدداً قليلا ، ومن الضعفاء ، فكان لابد من هجرة موسى من مصر ، كما هاجر محمد من مكة إلى المدينة ، وكان معه الذين اتبعوه بإحسان ، ونالهم ما نالهم من الأذى .

خروج بنى اسرائيل وموسى من مصر :

٧٩ — كان أتباع موسى عليه السلام من بنى إسرائيل الذى جاء لاستنقاذهم ، وبعث للدعوة إلى الوحدانية أولا ، واستنقاذ المظلومين من الظالمين ثانياً ، فكان لابد من الهجرة ، ومن أراد أن يلحق بهم من المصريين .

لقد جاء الأمر بالهجرة وأن تكون ليلا ، كما كانت هجرة محمد عليه السلام خفية ، وقد ساق سبحانه وتعالى قبل الخروج قصة الدعوة الموسوية ، وما

---

(١) : غافر ٣٨ — ٤٥ .

لاقته من فرعون وشيعته . ليتبين أنه لا أمل فى إيمان غير الذين آمنوا من قبل ، لذلك جاء الأمر بالهجرة كما جاء بعـــد ذلك الأمر بالهجرة لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم قال تعالى فى ذلك : « وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى ، إنكم متبعون ، فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ، إن هؤلاء لشرذمة قليلون ، وإنهم لنا لغائظون ، وإنا لجميع حذرون ، فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، كذلك وأورثناها بنى إسرائيل ، فأتبعوهم مشرقين ، فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ، قال كلا إن معى ربى سيهدين ، فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وأزلفنا ثم الآخرين ، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ، ثم أغرقنا الآخرين »(١) .

انتهى أمر فرعون بهذا الإغراق ، ولكنه لما أوشك على الغرق جاء إليه الإيمان متأخراً ، فكانت المعجزة أن الله أبقاه مثلا للآخرين ولن الله يقول مفصلا مهلكه من غير تكرار ، وإن ذكر المقدمات مفصلا ، قال سبحانه : « وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيـــاً وعدواً ، حتى إذا أدركه الغرق قال ، آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ، الآن وقد عصيت من قبل ، وكنت من المفسدين ، فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون »(٢) .

انتهى فرعون ، ونلاحظ هنا ثلاث ملاحظات :

أولها : أن فرعون كان دائماً يذكر جنوده على أنهم الذين يوالونه فى طغيانه ، ويمالئونه فى عدوانه ، وينصرونه ، والشعب لا يذكر فى مقام المناصرة لفرعون .

---

(١) الشعراء : ٥٢ — ٦٤ . (٢) يونس : ٩٠ — ٩٢ .

وثانيها: أن الذين آمنوا من الشعب عدد لا يكون كثرة تهز ملك فرعون، وإذا كانوا كثرة لم يذكروا مع فرعون لأنهم فريسته ، فلم ينصروا بكثرتهم دعوة موسى ، وكانوا كشأنهم فيما يتعلق بملوكهم إن خالفوا الحق نافق منهم من ينافق ، وتملق من يتملق ، والشعب وقف موقف النظارة ، ولذلك كانت الهجرة إذ قل النصير المؤيد ، وكثر العدو المناهض .

ثالثها : أن الله تعالى أجرى على يد موسى معجزات تتصل بمصر الزراعية كما ذكر فى سورة الأعراف ، لقد ذكر فى السورة موسى وفرعون ، وذكرت هنا كما ذكرت فى غيره العصا والسحرة وكررت لأنها المعجزة الكبرى التى تحدى بها ، كما كان القرآن الكريم يذكر كثيراً فى القرآن لأنه المعجزة الكبرى التى جاء بها محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد اختبر الله تعالى آل فرعون بمعجزات زراعية تتعلق بالزرع والضرع ، فقال تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ، ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ، فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ، وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ، فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ، ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى إسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون . فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا ، وكانوا عنها غافلين »(١) .

وهكذا توالت المعجزات حتى بلغت تسعاً ، كما قال تعالى : « ولقد آتينا

---

(١) الأعراف ١٣٠ — ١٣٦

موسى تسع آيات بينات ، فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم ، فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورا ، قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ، وإنى لأظنك يا فرعون مثبورا ، فأراد أن يستفزهم من الأرض ، فأغرقناه ومن معه جميعا ، وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض ، فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً ، وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً»[1] .

هذه قصة موسى مع فرعون ومع أهل مصر قد ذكرنا جزءا منها ، وهى فى فصول متعددة من أجزاء القرآن الكريم ، ونلاحظ مع بلاغة القصص وقوة تأثيره الذى قد نتكلم عليه من بعد ، أنه لا تكرار فى جزء من القصة فلا يكرر جزء بمعناه فى آيات واحدة ، بل يذكر أيضاً بمعناه فى آيات أخرى ، وإن كل جزء من القصة اتجه فى معناه وجزئياته ، وغاياته ومراميه إلى مقصد بل لكل جزء معنى سيق له لم يُسَق له غيره ، وإذا كانت بعض العبارات أو المعانى تكررت ، فإن ذلك لبيان المقصد الأصلى من الجزء ، فمثلا رأينا فى لقاء موسى لفرعون ذكرت عبارات النعم وهو رضيع ، وكيف سهل الله سبيل العيش الرغيد ، ليبين له سبحانه أنه معه فى لقاء فرعون ، كما كان مع أمه فى إلقائه فى اليم ، ليلقى فرعون وهو رابط الجأش ، وهكذا نجد تكرار بعض المعانى ، لأنها ذكرت فى موضعها الأول مقصودة ، وذكرت فى موضعها الثانى تمهيداً لقصده ، وتثبيتاً لمغزاه ، فالتكرار لم يكن لمجرد التكرار ، بل هو تجديد للمعانى ، وليس ترديدا ، والفرق بين التجديد ومجرد الترديد أن الترديد يكون تكراراً لا غاية لها ، أو يكون لمجرد التوكيد ، أما التجديد فى تكرار اللفظ فإنه يكون لغاية بعده لا تتم إلا به .

---

(١) الإسراء ١٠١ — ١٠٥

موسى مع بنى إسرائيل

٨٠ — قد قسمت قصة موسى فى القرآن إلى قسمين: أحدهما ما كان وهو فى مصر يجاهد فرعون ويجالده، وقد أشرنا فيه إلى أنه لم يكن تكرار إلا لتجديد الأمر، إذ يكون تمهيداً للمقصد من الجزء لا يتم البيان إلا به، أو هو مقدمة يتلوها الجزء الذى سيق له القول، وكان لقصد غير الأول .

أما القسم الثانى فهو ما كان بعد الهجرة إلى الطور، وصار موسى مع بنى إسرائيل، وقد خلصوا من فرعون وجنده، وفى هذا القسم تلقى الألواح وعلم التوراة، ولاقى المرارة فيها من بنى إسرائيل وضعفهم وتقليدهم كما لاقى من قبل الجهاد مع فرعون .

وفى قصة بنى إسرائيل مع موسى عليه السلام يتبين ما يكون عليه قوم قد مردوا على الخنوع، وضعفت فيهم النفوس، واستمرءوا الهون من الحياة، ورضوا بالمكان الدون واستقروا فيه،

انتقل بهم موسى عليه السلام إلى الطور، فأرسل الله لهم السلوى والمن طعاما، وأظل الله تعالى عليهم بالغمام حتى لا تلفحهم شمس الصحراء ثم توالت عليهم النعم، وتوالت خوارق العادات، ولقد ذكرت الآيات القرآنية فى أول سورة البقرة بعض أخبارهم، فقال تعالى:

« يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم، وأنى فضلتكم على العالمين [1]، واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئا، ولا يقبل منها شفاعة، ولا يؤخذ منها عدل ولاهم ينصرون، وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب؛ يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم، وإذ فرقنا بكم البحر، فأنجيناكم، وأغرقنا آل فرعون، وأنتم

(١) هو تفضيل نسبى، وليس تفضيلا ذاتيا، وذلك لأن الله اختارهم بقيادة موسى لمقاومة فرعون، ولأنه فضلهم واختار بعض الأنبياء منهم، وقد عصوا فأنكروا نعمة الله فاستحقوا سخطه .

تنظرون ، وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة، ثم اتخذتم العجل من بعده، وأنتم ظالمون ، ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون ، وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون . وإذ قال موسى لقومه ، يا قوم، إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم ، فتاب عليكم ، إنه هو التواب الرحيم ، وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون. ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ، وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى ، كلوا من طيبات ما رزقناكم ، وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ؛ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا ، وادخلوا الباب سجداً ، وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين ، فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم ، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون . وإذ استسقى موسى لقومه ، فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، قد علم كل أناس مشربهم ، كلوا واشربوا من رزق الله ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصراً ، فإن لكم ماسألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا ، وكانوا يعتدون ، إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ، خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ، ثم توليتم من بعد ذلك ، فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين . ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت ، فقلنا لهم

كونوا قردة خاسئين ، فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين وإذ قال موسى لقومه ، إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى : قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر ، عوان بين ذلك ، فافعلوا ماتؤمرون. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها ؛ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين؛ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون ، قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، مسلمة لاشية فيها ، قالوا الآن جئت بالحق ، فذبحوها وما كادوا يفعلون . وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها ، والله مخرج ما كنتم تكتمون ، فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ، ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون»[1] صدق الله العظيم

وفى هذه النصوص السامية المعجزة المحكمة نجد القرآن الكريم يذكر بنى إسرائيل بأن الله تعالى خصهم بنعم لم يعطها غيرهم ، وأنه فضلهم فى عصرهم بأن جعل منهم الذين يقاومون طاغوتاً من أعظم طواغيت الأرض، وخصهم بكثرة المعجزات التى تجرى على أيدى نبيهم الذى هو من أولى العزم من الرسل ، وأنه سبحانه جعل من ذرية يعقوب أبيهم أنبياء كثيرين ومرسلين ، ومع هذه النعم المتضافرة ، والآيات المتكاثرة يكفرون بالنعمة ويبطرون معيشتهم ، ويتخذون تفضيل الله لهم تفضيلا نسبياً فى عصرهم ذريعة للكفر بالنعمة ، لا نشكرها ، وإن الله قد أخذ عليهم الميثاق ألا يعبدوا غيره ولا يؤمنوا إلا به ، ولكن نفوسهم التى مردت على التقليد والخنوع

---

(١) البقرة : ٤٧ — ٧٤

للقوى ، سولت لهم أن يعبدوا العجل ، كما كان يعبده المصريون ، وفعلوا ذلك تقليداً ، وخضوعا للأهواء ، وتركوا وراءهم ظهرياً أوامر الله تعالى الذى أنقذهم من ظلم فرعون الذى كان يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ويأمرهم الله تعالى بأن يدخلوا متطامنين خاضعين فيحرفون كلام الله تعالى عن مواضعه ، ويمن الله تعالى عليهم بخير الطعام ، وأطيبه فيأخذهم الإلف إلى مادونه ، ويستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، لأنهم خاضعون لأهوائهم غير مستطيبين لرزق ربهم ، ويرون المعجزة نهاراً ، وينعمون بها ، إذ يطلبون الماء فلا يجدونه فيأمر الله نبيه موسى الكليم بأن يضرب الحجر بالعصا ، فينبعث اثنى عشرة عيناً ، ويكون لفرقهم الاثنتى عشرة مشاربهم « قد علم كل أناس مشربهم»(١) .

ومع هذه النعم المتوالية والآيات البينات الباهرة يأمرهم الله تعالى بالطاعات ويأخذ عليهم الميثاق ، ويؤكده بأن يرفع عليهم الطور حتى يصير كأنه ظلة فوقهم تأكيداً للميثاق بالآية التى اقترنت به ، ومع ذلك لا يطيعون عامدين ، إذ يتولون معرضين عن ذلك البيان الموثق ، لأنهم قد طبعوا على الجحود ، وكانوا مضرب المثل فيه ، وإذا كانت الآيات قد تضافرت بالبيان عليهم ، فإن الله تعالى جعل فيهم ومنهم آية بينة تدل على أن الجحود لا ينشأ عن نقص الدليل ، بل يكون مع تضافر البينات ، فتزيدهم الآيات كفراً وعناداً .

وإن الله تعالى يأمرهم بيوم السبت لكى يكون لهم راحة واستجماما ، وأن يبتعدوا فيه عن المادة ويعكفوا على أنفسهم يهذبونها ويفطمونها عن دواعى المادة ، فيذهب شرههم المادى ، ورغبتهم فى طلب المادة إلى أن يعملوا فيه شرها وطمعا فيمسخ الله تعالى نفوسهم قردة تنزو مثلها ، وخنازير تطلب الخسائس طلبها .

---

(١) سورة البقرة : ٦٠

«إن الله تعالى يختبرهم فى إيمانهم بأن يذبحوا بقرة، ولكنهم تأثراً بالمصريين وما كانوا عليه من عبادة العجل ، يترددون فى ذبح البقرة فيجادلون فى ذبحها متجاهلين أمرها ، ولو أتوا إلى أى بقرة فذبحوها لكان فى ذلك الاستجابة الكاملة ، ولكنهم يثيرون الريب حول الطلب ، سألوا عن حقيقتها ، وعن كونها صغيرة أو كبيرة ، فأجيبوا ، ثم سألوا عن لونها ، فأجيبوا ، ثم سألوا عن كونها متخذة معلوفة للنماء والتوالد ، أم هى ذلول عاملة ، فذبحوها وما كادوا يفعلون تقليداً للمصريين وتأثراً بأفكارهم ، وأوهامهم فى دينهم .

هذه قصة بنى إسرائيل فى تلقيهم لأوامر الله تعالى ، وما جاء من القرآن خاصاً بهم فى عهد موسى عليه الصلاة والسلام فهو لمقاصد أخرى من أجزاء القصة كما ذكرنا فى قصة موسى ذاته .

بنو إسرائيل والأرض المقدسة

٨١ — لم يكن بنو إسرائيل فى عهد موسى إلا قوما أذلهم الخضوع وضربت عليهم الذلة ، وأرمضتهم الطاعة الذليلة التى كانت رقا أو مايشبهه، وقد بدا ضعف نفوسهم فى عهد موسى ، فقد أراد أن يدخل بهم الأرض المقدسة ، فضعفوا ووهنوا ، وتلمسوا لأنفسهم المعاذير ، وما هى إلا معاذير المستكين المؤثر للاستكانة ، والرضا من الحياة بأدناها .

طالبهم موسى أن يدخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لهم أن يدخلوها ، ولنسمع إلى كتاب الله تعالى يحكى حالهم من الجبن والخنوع والذل .

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكاً ، وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ، يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ،

ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ، قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون. قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ، ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه ، فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ، قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون. قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال ، فإنها محرمة عليهم أربعين سنة . يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين(١) ».

هذا نص القرآن الكريم فى قصة جبن اليهود وتخاذلهم عن أن يدخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله سبحانه وتعالى عليهم أن يدخلوها ، ويجب أن ننبه هنا إلى أن المراد أن الله تعالى كتب عليهم أن يدخلوها ، لا أنه كتبها لهم ملكا دائماً مستمراً باقياً ، يطالبون بحقه ، وإن ذلك هو مفهوم الكتابة ، ويستفاد من النص الكريم ذلك ، أن النص الكريم ليس فيه أنه كتبها لهم ، بل كتب فقط عليهم أن يدخلوها ، إذ يقول سبحانه عن طلب موسى منهم الدخول : « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » فالكتابة التى فرضها الله تعالى هو الدخول وهو واجب وليس بحق ، فلم يكتب لهم أرضاً ، بل فرض عليهم أمراً بدليل عودة الضمير على الدخول المكتوب لا على الأرض .

ولكن منطق الحوادث يوجب عليهم أن يدخلوها ، ليقيموا فيها شعائر الموسوية ، إذ أنهم خرجوا من مصر لعدم صلاحيتها لأن تقوم فيها شرائع موسى ، كما لم تصلح مكة ، لأن تكون موطن الشرع الإسلامى إلا بعد أن

---

(١) المائدة ٢٠ ، ٢٦

تحطيم الأوثان ، وأن يمنع المشركون من دخولها ، لأنهم نجس لا يدخلون المسجد الحرام بعد عامهم .

وإن دخولهم فيها كان لأجل إقامة التوراة فيها ، وجعلها الحكم الذى لا ترد حكومته ، وما كانت لذواتهم ، فلم تكن لأنهم بنو إسرائيل ، بحيث يكون الاستحقاق ذاتياً ، أو ميراثاً يرثه الأخلاف عن الأسلاف ، وقد انتهى عهد موسى ، وانتهى شرعه ، وحالت أحوالهم و وتغيرت أمورهم وليست الأرض ميراثاً يؤخذ ، إنما الأمر هو الدخول لإقامة الشريعة الموسوية ، وقد نسخت بشريعة محمد ، فصارت الخلافة النبوية إلى محمد خاتم النبيين ، فقومه الذين يقيمون شرع الله هم أهلها ، والذين يجب عليهم أن يدخلوها آمنين مطمئنين ، فليست أرض الله ميراثاً يورث للذوات ، إنما هى مقام الشرع الناسخ لا المنسوخ .

ويلاحظ من بعد ذلك أمور ثلاثة قد أشارت إليها الآيات الكريمات:

أولها — أن الاسترخاء والضعف النفسى قد أصابهم بسبب ترفهم أولا ، واستضعافهم ثانياً ، وطغيان فرعون فى حكمهم ثالثاً ، وبأنهم حرموا حب الفداء ، وإذا حرم قوم حب الفداء هانت عليهم أنفسهم ورزقوا الوهن ؛ وكذلك بنو إسرائيل ، فقد خافوا من غير مخوف ، وماتت فيهم النخوة ، كما تدل الآيات الكريمات .

وثانيها — أن ضعفهم أفقدهم قوة الإيمان ، والشك فى حكم الديان ، حتى إنهم ليقولون لموسى عليه السلام اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . وذلك تهكم يدل على وهن إيمانهم ، كما وهنت نفوسهم .

وثالثها — أن الأمم لا تتربى إلا بتعود خشونة العيش ، كما تعودت نعومته ، وأن تذوق جشبه كما ذاقت حلاوته ، ولذلك بين الله سبحانه

وتعالى أنه لا يمكن أن يدخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله تعالى عليهم أن يدخلوها قال «فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض» .

وهذا كما يبدو من الآية تحريم كونى ، أى أنه لا يمكن أن يستطيعوا الدخول إلى الأرض المقدسة مقاتلين مجاهدين إلا بعد أن يذهب عنهم ذل الوهن ، ويأتى جيل جديد قد ذاق طعم الشدة ، وعلم الحياة نضالا ، ولم يعلمها استكانة وضعفاً ، والتقدير بالأربعين ، لا أحسب أنه يقصد به العدد ولكن يقصد به الكثرة التى تنشىء جيلا تربى فى شظف العيش وصلابة الحياة وقسوتها .

ولقد أخذ هذه الحقيقة القرآنية ابن خلدون ، وجعل أساس قوة الأمم شدة الحياة وصلابتها ، فإنها إذا استرخت أدال الله منها بقوم أولى بأس شديد تربوا فى البداوة ، وذاقوا بأساءها .

٢ ـ قصص القرآن لون من تصريف بيانه

٨٢ ـ ذكرنا أن البيان القرآنى فيه تصريف القول على ألوان متعددة متباينة فى حقيقتها متلاقية فى غايتها ، ولا يمكن أن يكون لكلام بشر مع سمو البلاغة ، وبلوغها المقام الذى لا يناصى فى كل أصنافها ، بل لا يمكن أن يبلغ الغاية فى صنف واحد من أصنافها ، وقد ذكرنا ما فى القرآن من إطناب من غير تكرار ، وذكرنا مايتوهم فيه التكرار فى القصص وبينا أنه لا تكرار يعد ترديدا ولو على سبيل التوكيد ، إنما ما يتوهم فيه التكرار إنما هو تجديد المعنى لغاية أخرى ومقصد آخر ، وكان الذكر لما يتوهم تكراره فيه كمال المعنى ، ولا يمكن أن يستغنى القول عنه ، إنما التكرار المردود يكون فيما لو حذق المتوهم تكراره ما نقصت الغاية ، وما اختل بيان المقصد ، وتكرار القرآن ليس على هذا بل هو تكميل لابد منه ، وتتميم لا يستغنى عنه ، وذلك يكون فى القصص ، وفى الاستدلال بآيات الله تعالى الكونية ، على وحدة من خلق وكوّن وأبدع ، وقد ضربنا على ذلك الأمثال .

والآن نذكر القصص القرآنى على أنه لون من تصريف البيان القرآنى ، وتغير أشكاله كما ذكر الله تعالى فى القرآن ، ولقد صرفنا فى هذا القرآن من كل مثل .

إن القصص القرآنى فيه العبرة ، وما ذكرت قصة إلا كان معها عبرة أو عبر ، وفيها المثلات لمن عصوا وتركوا أمر ربهم ، وفيها بيان ما نزل بالأقوياء الذين غرهم الغرور ، والجبابرة الذين طغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد ، والله من ورائهم محيط .

وإن القصص فيه إيناس صاحب الرسالة المحمدية بأخبار أخوانه من المصطفين الأخيار ، وإثبات قوله ، فقد كانت تلك الأخبار الصادقة

ما كانت لتعلم إلا لمن شاهد ، وما شاهد أحداثها وهو لا يزال فى بطن الغيب ، كما قال سبحانه وتعالى عقب قصة مريم : « وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، ولما كنت لديهم ، إذ يختصمون »[١] .
وكما قال فى قصة موسى عليه السلام ووقائعها ، فقد قال تعالى : « وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين ، ولكنا أنشأنا قروناً ، فتطاول عليهم العمر ، وما كنت ثاوياً فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، ولكنا كنا مرسلين ، وما كنت بجانب الطور ، إذ نادينا ، ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون »[٢].

لم يكن محمد مشاهداً الأحداث التى جاء القرآن الكريم بقصصها ، وهى صادقة ، وثابتة فى الصادق من أخبار النبيين فى كتبهم التى يتداولها أهل الكتاب ، ولم يتناولها التحريف .

ولم يكن بمكة مدرسة لاهوت ، بل لم يكن بمكة يهود ، ولا نصارى إلا خمار ألحدوا بأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ منه كذباً وبهتاناً ، فقال الله تعالى رداً عليهم « لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين »[٣] .

وكانت مكة بلداً أمياً ، ليس به علم . ولا رياسات ، إلا مباريات رياسية فى البيان ، وكان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون »[٤] .

لذلك نقول : إن القصص القرآنى ذاته فيه إعجاز ذكره الكتاب جاء

---

(١) آل عمران ٤٤ .
(٢) القصص ٤٤ ـــ ٤٦ .
(٣) النحل ١٠٣ .
(٤) العنكبوت ٤٨ .

على لسان أمي لا يقرأ ولا يكتب ، إذ هو النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل .

ويتساءل أي تال للقرآن من أين جاء محمد بهذا القصص الحق ، وهو لم يشاهد وقائعه ، ولم يقرأها ، لأنه لم يكن قارئاً ، إنه من عند الله العزيز الحكيم علام الغيوب ، وبذلك كان القصص الصادق من التحدي .

التصريف البياني في قصص القرآن :

ذكر الله تعالى الحقائق الإسلامية في القصص ، فلم يكن عبرة فقط ، بل كان بياناً لحقائق الإسلام ، فتجد فيه بياناً لعقيدة التوحيد ، والبرهان عليها جاء في سياق القصص عن النبيين السابقين . فقد رأيت في قصص سيدنا إبراهيم عليه السلام ، كيف كانت الدعوة إلى التوحيد ، وكيف أبطل عبادة الأوثان بأنها لا تضر ولا تنفع ، وأنه جعلها جذاذاً إلا كبيراً لهم . وأنهم أرادوا عقوبته بالحرق بالنار ، فجعلها الله تعالى برداً وسلاماً على إبراهيم .

واقرأ بعض القصص عن سيدنا نوح الأب الثاني للبشر ، تر الأدلة على التوحيد بأن تجد في بعضها أدلة التوحيد تساق للضالين ، ويوجه أنظارهم إلى الكون وما فيه ، فقد قال تعالى :

« قال ياقوم إني لكم نذير مبين ، أن اعبدوا الله واتقوه ، وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى ، إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ، قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهاراً ، فلم يزدهم دعائي إلا فراراً ، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم ، وأصروا ، واستكبروا استكباراً . ثم إني دعوتهم جهاراً ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا ، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم

جنات ، ويجعل لكم أنهارا ، مالكم لا ترجون لله وقاراً ، وقد خلقكم أطواراً ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ، وجعل القمر فيهن نوراً ، وجعل الشمس سراجا ، والله أنبتكم من الأرض نباتاً ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ، والله جعل لكم الأرض بساطاً ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا »[1] .

ألم تر فى هذه النصوص السامية تسلية واضحة للنبي صلى الله عليه وسلم ، إذ فيها بيان مالقيه نوح ، وكيف كانت الأدلة القاطعة لا تزيدهم إلا نفوراً من الحق وفراراً من اتباعه ، وإصراراً على الباطل ، وفى كل ذلك عزاء للنبي صلى الله عليه وسلم لئلا تذهب نفسه حسرات على كفر الكافرين وجحودهم بعد الأدلة القاطعة .

ومع هذا العزاء الروحى ، والعبرة التى تريح الدعاة إلى الحق ، نجد فى السياق البرهنة على التوحيد ، وأن الله تعالى وحده هو الخالق ، وأنه بالتالى المستحق للعبادة وحده ، فلا معبود سواه .

وسوق الأدلة على التوحيد فى سياق قصة ، يجعله يسرى إلى النفس من غير مقاومة ، وتكراره يجعله يخط فى النفس خطوطاً ، وتتعمق الخطوط فيكون الإيمان .

وإنك لترى الدعوة إلى التوحيد واضحة فى قصة يوسف عليه السلام ، فهو فى السجن يدعو إلى التوحيد وعبادة الله وحده ، ويجعل سلواه ، وهو فى السجن الدعوة إلى الوحدانية ، وسوق الأدلة ، فالله تعالى يحكى عنه أنه يقول لصاحبه فى السجن : « قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمنى ربى ، إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ، ويعقوب

---

(١) نوح : ٢ — ٢٠

ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، ياصاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون(١) .

انظر إلى الاستدلال القيم على أن الواحد الأحد ؛ خير من أرباب متفرقين ، يتيه العقل فيهم ، وأنهم لا حقائق لهم تتعلق بالألوهية ثم يذكر ذلك عقب أن بين تأويل ما عجز عنه المؤلون من رؤى ، وقال إنه قد علمه ربه .

ثم انظر إلى هذا القصص وذكر التوحيد يجيء فى أثناء السجن بسبب فرية نسائية افترينها عليه ، ويجيء فى وسط قصة نسوة المدينة ، إنه يكون طريفاً ، فيكون له تأثير أقوى وأشد .

٨٤ — وليس القصص القرآنى فيه إثبات أن الله وحده هو المستحق للعبادة ، وبطلان عبادة الأوثان التى هى أسماء سموها هم وآباؤهم ما أنزل الله تعالى بها من سلطان ، بل فيها إثبات الوحدانية أمام الذين يدعون ألوهية المسيح عليه السلام .

واقرأ قصة عيسى عليه السلام ؛ فإن فيها الدليل على أنه ليس إلا عبداً لله تعالى ، ولقد قال سبحانه وتعالى فى ذلك : « ياأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السموات وما فى الأرض ،

---

(١) يوسف : ٣٧ ـ ٤٠

وكفى بالله وكيلا ، لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً »(١).

ونرى من هذا أن ذكر قصة عيسى أو ذكر جزء منها اقترن ببيان وحدانية الله ، وإثبات بطلان أن الله تعالى ثالث ثلاثة ، وساق الدليل ، وهو أن الله تعالى خالق كل شيء وله كل مافى السموات والأرض ، وصلة كل مخلوق كمثيله وإن اختلف طريق غيره فصلة المسيح عليه السلام بالله من حيث الخلق والتكوين كصلته بأى مخلوق سواه ، ولا يؤثر فى هذه الصلة التكوينية أنه عبد ممتاز ، وأنه رسول من رب العالمين ، وإن كانت طريقة تكوينه أنه وجد من غير أب ، فإن ذلك لا يجعله إلها أو ابن إله ، كما قال تعالى فى مقام آخر فيه إشارة إلى قصة عيسى ، إذ قال الله تعالى « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون (٢) » .

واقرأ قصة أخرى لسيدنا عيسى عليه السلام ، فقد قال الله تعالى : « وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ، ثم تاب الله عليهم ، ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون ، لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ، وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ، ما المسيح ابن مريم إلا رسول ، قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون ، قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعا ، والله هو السميع العليم »(٣) .

---

(١) النساء : ١٧١ ، ١٧٢ . (٢) آل عمران : ٥٩

(٣) المائدة : ٧١ ، ٧٦ .

ما أنهاكم عنه » وفى ذلك إشارة إلى أن من يدعو إلى أمر يهدمه إن خالفه فى عمله ، وأن الاستجابة إلى الداعى إلى الخير تقتضى أن يكون الداعى مستجيبا له وهكذا ، فإن الله تعالى يأخذ على بنى إسرائيل ، أنهم يأمرون الناس بالبر ، وينسون أنفسهم ، فقد قال تعالى « أتأمرون الناس بالبر ، وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون »[١] .

ميزان العدالة فى الحكم :

٨٦ — ويبين الله سبحانه وتعالى بطريق القصص القرآنى ـ لأنه من تصريف البيان ، كما أشرنا ـ أن مقياس الحكم العادل إدراك الحق ، وألا يجعل القاضى أو الحاكم للهوى سلطاناً فى الحكم . فإن كان الهوى كان الشطط فى الحكم ، ومظنة الوقوع فى الظلم ، وإن كان الحاكم لا بد أن يكون مدركا للحق فلا بد من عنصر العلم ، وإبعاد الهوى .

واقرأ قصة داوود عليه السلام الذى أعطاه الله الملك والحكمة ، فاقرأ العبارات السامية التالية :

« وهل أتاك نبأ الخصم ، إذ تسوروا المحراب ، إذ دخلوا على داوود ففزع منهم ، قالوا لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا إلى سواء الصراط ، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها ، وعزنى فى الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ، ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داوود أنما فتناه ، فاستغفر ربه ، وخر راكعاً وأناب ، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ، يا داوود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب »[٢].

---

(١) البقرة : ٤٤ .   (٢) ص : ٢١ — ٢٦ .

منكم آمنوا بالذى أرسلت به ، وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين»(١) .

أما ترى فى هذا النص القرآنى الذى تتضمنه قصة شعيب عليه السلام دعوة صريحة إلى ناحيـة عملية ، تتصل بالإصلاح الاجتماعى ، ومنع الفساد فى الأرض ، والقيام بحق الأمانة فى التعامل .

وفى موضع آخر من قصة شعيب نجده يكرر الدعوة ، ثم يبين سبحانه كيف تقاوم دعوة الحق بالإصرار على الشر ، وكيف كان الإصرار عليه إلى أن يديل الله تعالى بما ينزل بالعصاة ، وبما يؤدى إلى فساد أخلاق الأمة ، لقد قال الله تعالى حكاية لقول شعيب: «قال يا قوم اعبـدوا الله مالـكم من إله غيره ولا تنقصوا المـكيال والميزان ، إنى أراكم بخير ، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المـكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، بقية الله خير لـكم، إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ ، قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ، قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقاً حسنا، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب »(٢).

ونرى من هذه المجاوبة أنهم يصرون على ماهم عليه ، ويعدون إرشادهم إلى الحق فى المعاملة ، تدخلا فى شئونهم المـالية ، وكأنهم يظنون أن شئون المال لا صلة له بالتدين ، كما يجرى على ألسنة بعض الذين لايريدون بالدين الحق وقارا ، ويبين سيدنا شعيب عليه السلام أنه إذ ينهاهم ، هو أول من يتمسك بألا يفعل مانهى عنه ، إذ يقول عليه السلام : «وما أريد أن أخالفـكم إلى

---

(١) الأعراف : ٨٥ — ٨٧ .

(٢) هود : ٨٤ — ٨٨ .

ما أنهاكم عنه ، وفى ذلك إشارة إلى أن من يدعو إلى أمر يهدمه إن خالفه فى عمله ، وأن الاستجابة إلى الداعى إلى الخير تقتضى أن يكون الداعى مستجيبا له وهكذا ، فإن الله تعالى يأخذ على بنى إسرائيل ، أنهم يأمرون الناس بالبر ، وينسون أنفسهم ، فقد قال تعالى «أتأمرون الناس بالبر ، وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون»(١) .

ميزان العدالة فى الحكم :

٨٦ — ويبين الله سبحانه وتعالى بطريق القصص القرآنى ـ لأنه من تصريف البيان ، كما أشرنا ـ أن مقياس الحكم العادل إدراك الحق ، وألا يجعل القاضى أو الحاكم للهوى سلطاناً فى الحكم . فإن كان الهوى كان الشطط فى الحكم ، ومظنة الوقوع فى الظلم ، وإن كان الحاكم لا بد أن يكون مدركا للحق فلا بد من عنصر العلم ، وإبعاد الهوى .

واقرأ قصة داوود عليه السلام الذى أعطاه الله الملك والحكمة ، فاقرأ العبارات السامية التالية :

«وهل أتاك نبأ الخصم ، إذ تسوروا المحراب ، إذ دخلوا على داوود ففزع منهم ، قالوا لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا إلى سواء الصراط ، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها ، وعزنى فى الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ، ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داوود أنما فتناه ، فاستغفر ربه ، وخر راكعاً وأناب ، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ، يا داوود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب»(٢) .

---

(١) البقرة : ٤٤ .   (٢) ص : ٢١ — ٢٦ .

هنا نجد القصة عن نبي الله داود عليه السلام تتضمن ثلاثة أمور فى التنبيه على كل واحدة منها تنبيه إلى أمثل الطرق للوصول إلى العدل فى الأحكام .

أولها : أنه سبق إلى الحكم من غير أن يستمع إلى كلام الخصم ، فقضى لأحد الخصمين ، قبل أن يستمع إلى كلام الآخر ، فإن ذلك مدرجة الظلم ، بل قد يكون ظلماً .

ثانيها : أنه لم يكتف بالحكم فى القضية المعروضة ، بل عمم الحكم ، والقضاء يكون فى القضية المدروسة ، ولا يتجاوزها .

الأمر الثالث ، وهو يفصل التفرقة بين الحكم الظالم والحكم العادل ، أن الحكم العادل لا يكون بالهوى والشهوة وأما الحكم الظالم فإنه يكون تحت سلطان الهوى والشهوة وإن الملوك والحكام المستبدين يكون مصدر شرهم أهواؤهم ، فهم يتبعون أهواءهم فيما يحكمون به ، وما ينزلونه بالناس ، فهم يسنون النظم تبعاً لأهوائهم ، ويطبقونها تبعاً لأهوائهم ويجعلون شيعتهم تسارع إلى تنفيذ أهوائهم ، ولا يفهمون المصلحة إلا تابعة لأهوائهم ، فإذا نهى الله تعالى نبيه داود عن اتباع الهوى وهو خليفة حاكم ، فإنما نهاه عما يؤدى إلى فساد الحكم ، وبهذا يتبين أن حكم الهوى كان مصدر فساد الحكم فى الماضى ، كما هو مصدر الفساد فى كل الأزمان ، وذكر ذلك فى قصة من قصص القرآن يزيد المبدأ تبييناً وتأكيداً ، وقد بينا أن ذكر أى أمر فى قصة يجعله يسرى فى النفوس . ويدخل إلى الضمائر إن كان فيها استعداد للحق .

ولا شك أن هذا كله يدل على أن القرآن يصرف فيه سبحانه البيان تصريفاً ليكون أقرب إلى التأثير والدفع إلى العمل ، وليس ذكر القصص للعبرة فقط ، بل هو مرشد وهاد مع ذلك إلى أقوم السبيل ، والله أعلم .

بيان بعض الاحكام بالقصص القرآنى :

٨٧ — من صور التصريف البيانى بالقصص القرآنى بيان بعض

الأحكام الشرعية ، فإن ذلك يثبت هذه الأحكام ويدعمها ، لأنها تكون أحكاماً متفقاً عليها فى كل الشرائع السماوية ، وبيان أنها غير قابلة للنسخ ، وأنها مؤكدة ثابتة . وفى القصة تكون حكمة شرعيتها قائمة والغاية منها ثابتة ، ولنذكر من ذلك قصة قابيل وهابيل ولدى آدم .

فقد قال الله تعالى فيها : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر ، قال لأقتلنك ، قال إنما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك ، إنى أخاف الله رب العالمين ، إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك ، فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين ، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين ، فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ، ليريه كيف يوارى سوءة أخيه ، قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى ، فأصبح من النادمين(١) » .

هذه القصة تثبت أن الغيرة والحسد يؤديان إلى الاعتداء ، وأن ذلك يحدث بين أقرب الناس بعضهم لبعض ، وأنه لا علاج للحسد بإخراجه من النفوس ، فهو فيها دفين ، نعم إنه مرض ، ولكنه مرض لا يمكن أن يكون منه شفاء ، والناس ليسوا سواء فمنهم شقى وسعيد .

وإذا كان الأمر كذلك فلا علاج إلا ببتر من استكن فى قلبه إن تعدى استجابة له ، والاعتبار فى النظم لصلاح الجماعة ، لا لصلاح الآحاد فقط ، ولذلك قال الله تعالى عقب ذكر قصة ولدى آدم :

« من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس

---

(١) المائدة : ٢٧ — ٣١ .

جميعاً ، ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ، ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون[1] » .

وإنا لنرى هذا القصص الحكم قد ارتبط فيه الحكم بسببه ، فهو فى جزء من القصص ذكر سبحانه ما كان بين الأخ وأخيه من محاربته فطرة الأخوة الرابطة ، وأنه حمل نفسه حملا على ارتكاب جريمته ، إذ هى مخالفة للطبائع السليمة ، ولذلك قال سبحانه وتعالى « فطوعت له نفسه » حتى إذا تمت الجريمة رأى بشاعتها فى جثة أخيه ، فأراد أن يواريه فضل ، حتى رأى غراباً يبحث فى الأرض ليوارى جثة غراب مثله ، وعندئذ بدا له جهله ، وندم إذ رأى غرابا هو أحن على أخيه منه ، وهو أعلم كيف يوارى سوءة أخيه .

وما كانت أمور الناس لتترك فوضى ، يجرم من يجرم ثم يندم ، فكانت شرعية القصاص ، لأن الاعتداء بالقتل اعتداء على حق الحياة فى كل إنسان ، ومن قتل نفساً بغير حق فهو على استعداد لقتل غيرها فى عمله تمريض النفوس الإنسانية لاعتداء المعتدين المفسدين ، ومن أحياها بالقصاص من القاتل ، فكأنما أحيا الناس أجمعين ، كما قال تعالى : « ولكم فى القصاص حياة[2] » .

وإن هذا يدل على أن شريعة القصاص شريعة أزلية خالدة باقية ، وأنها كانت فى الشرائع السابقة ، ولم تخل شريعة من شرائع النبيين الكرام منها ، ولقد ذكرت بحكمتها ، ونتيجتها ، وهى إحياء الأمة وإهمالها أماتة لها .

ولا شك أن ذلك تصريف بيانى قرآنى فى بيان الأحكام .

وقد جاءت الأحكام أكثر تفصيلا فى بيان القصاص فى الأطراف مع النفس فى قصص عن بنى إسرائيل ، والتوراة وما جاء فيها . ولنتل على القارىء

---

(١) المائدة : ٣٢ .

(٢) البقرة : ١٧٩ .

الكريم ما جاء فى ذلك ، وإن كنا سنتلو أكثر مما تلونا من الماضى ولقد قال الله تعالى فى وصف بعض بنى إسرائيل فى عصر النبى صلى الله عليه تعالى وسلم الذين أرادوا أن ينفروا من حكم التوراة فى بجرم ارتكب جريمة لاجئين إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حاسبين أن عنده حكما أخف من حكم التوراة ، لهوى فى نفوسهم . قال تعالى : «سماعون للكذب أكالون للسحت ، فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ، وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ، ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ، إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص ، فمن تصدق به ، فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الظالمون ، وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ، ومصدقها لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ، وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمناً عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً . فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ، وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله

أن يصيبهم ببعض ذنوبهم . وإن كثيراً من الناس لفاسقون ، أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون[١]»

وترى من هذا النص الكريم بياناً للأحكام الشرعية الخاصة بالقصاص فى تفصيل محكم مستقر مقنع ، فهو يجعل القصاص فى الأطراف ، كما هو ثابت فى النفس ، بل إنه يثبت القصاص فى الجروح ، ويوثق الأحكام بأنها نفذت فى الإنجيل ، إذ جاء الإنجيل مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، ويوثقها بأن القرآن مصدق لما جاء فى التوراة ، ولكن له هيمنة ، وسلطان ، يبقى ما يبقى ، وينسخ ما ينسخ ، وما يثبت أنه نسخ من أحكامها ، فهو منسوخ ، لأن له الهيمنة الكاملة .

وفى القصاص الشريعة باقية . وفى التوراة كما هو فى القرآن جواز العفو عن القصاص ، إذ يقول سبحانه فمن تصدق به ، فهو كفارة له . والقصاص ثبت بالقرآن ، فالله تعالى يقول :

« يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ، ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون» [٢]

وهكذا نجد ذكر الأحكام الثابتة التى لم يعترها تغيير ونسخ بطريق القصص نوع من تصريف البيان وتثبيت الأحكام .

---

(١) المائدة : ٤٢ — ٥٠ .

(٢) البقرة : ١٧٨ — ١٧٩ .

أسلوب القصص فى القرآن

٨٨ – قد ذكرنا فى القول السابق ما يختص به أسلوب القرآن من صور بيانية فى ألفاظه فكل لفظ يعطى صورة بيانية ، يناسب المقام الذى ذكر فيه ، ويتجمع من الأسلوب صورة بيانية تكون الصور اللفظية أجزاء فيها ، وإن كان لها صفة الاستقلال ، ومن المجموع تتكون صور تصور المعانى ويكون لها أطياف فى اجتماعها وانفرادها .

وذلك ثابت فى أسلوب القصص ، كما هو ثابت فى كل أساليب القرآن الكريم من غير تخصيص فيها ، بل كلها درجة واحدة يعجز البشر عن أن يصلوا إليها ، فكل لفظ له إشعاع نورانى يشع منه ، وكل جملة ينبثق منها النور الإلهى الذى تنطفىء بجواره كل الأنوار .

ومع هذا فالقصص القرآنى باعتباره قصصاً فيه أخبار عن أمم ووقائع وأنبياء يجادلون أممهم وأشخاص يعاندونهم وإن القصص يمتاز مع الصور البيانية التى تنبعث من الكلام مجرداً ، صور أخرى تصور الأشخاص والوقائع والمشاهد فإذا ذكرت حال شخص صور تصويراً واضحاً كأنك تراه وتشاهده ، والعبارات تصور حاله من خوف ، أو حنان ، أو انزعاج أو جحود ، وكأن المعانى صور واضحة فى الشخص المتحدث عنه ، ولو أن مصوراً متحركا يصور الشخص فى مشهد من مشاهد الذعر ، ما كان أكثر تصويرا من الألفاظ القرآنية والأساليب فى تصويرها .

ولنذكر فى ذلك بعض ما تلونا من قبل ، لنعيد تلاوة حال أم موسى ، وقد ولدت ولدها ، وهى تعلم أن فرعون يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، وتضطرها الفطرة الملهمة التى كانت بمثابة وحى أو هى وحى لها أن تلقى ولدها فى اليم ، لأنها خير لها أنه يلقى لقدر الله تعالى وقضائه من أن يذبح بين

يديها ، وهذا ما نعيد تلاوته ، وما أطيب القرآن فى إعادة تلاوته « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه ، فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ، فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ، وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ، وهم لا يشعرون ، وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كانت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ، وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب ، وهم لا يشعرون ، وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون »[1] .

إن القصة ترينا صورة أم مضطربة منزعجة خائفة لما أثقلت ألقت حملها ، فإذا إثقال جديد ، إنها تريد نجاته ، فيعلوها الاضطراب والخوف والفزع ، وإذ الإلهام يجيئها بإلقائه باليم مع إثلاج قلبها بألا تخاف ، وألا تحزن ، ومن الله تعالى عليها بالاطمئنان بأنه سيعود إليها ، وهكذا يكون الاطمئنان فى موطن الخوف ، والقرار فى موطن الاضطراب ، والسكون فى موطن الهلع ، يغيب عنها فلذة كبدها فيفرغ قلبها ، ويغلب الفزع على الاطمئنان وهى تغالب حال الفزع بحال الاطمئنان إلى أن وعد الله تعالى بالاطمئنان ويصطرع الأمران فى نفسها ، يغلب الإلهام فتطمئن ، ويغلب الفزع القلبي فتكاد تبدى أمرها ، وتظهر سرها ، ولو علم به أعداؤه وأعداؤها أعداء الله تعالى ؛ ولكن الله تعالى يربط على قلبها بالصبر وهى تصبر ولكنها لا تسكن بل تتحرك بعمل ، فترسل أخته لتتقصى أخباره ، وتتعرف أحواله فترى المعجزة الكبرى ، إذ يمتنع عن المراضع ، حتى يعود إلى أمه وتأخذه أخته إلى الأم التى تضطرب بين اليأس والرجاء ، بين الأمل الباسم والحرمان الدائم .

---

(١) القصص : ٧ — ١٢ .

اقرأ النص القرآنى ، وتراه مصورا الحال تلك الأم الرءوم ، فهل تجد مصوراً متحركا أو واقفاً يستطيع تصوير هذه الحال ، ولكنه القصص القرآنى المصور الذى نزل من عند الله تعالى .

٨٩ — ولنعد إلى قصة موسى وقد تربى فى قصر فرعون ، حيث الترف والبطر ، وفى جو الغطرسة والسلطان ومن يدعى لنفسه الألوهية ، فهل شعر موسى بما يشعر به المترفون المسرفون ، الذين يستعبدون الناس ولكنه فى الوقت ذاته كان يعيش فى أحضان قومه ، حيث كان على كثب ممن يقتل فرعون أبناءهم ، ويستحيى نساءهم فهو البعيد عنهم بحسه القريب منهم بنفسه ، يعيش معهم ، وإن جفاهم فى المسكن والإقامة ، ولذلك كان القريب فى قصر فرعون المستأنس بمن يؤويهم فرعون ، فيعيش معهم .

ولقد بدا ذلك على أكمله يوم أن بلغ رشده ، واستطاع أن يخرج من محبس فرعون فى النعيم ، ويلاقى الحياة التى يلاقيها قومه ، ولقد قص الله سبحانه وتعالى قصصه بعد أن بلغ رشده ، وصار رجلا سوياً ، فى أسلوب ينم على الرغبة فى الجهاد وتحمل شدائد الحياة ، فيقول سبحانه فى أحسن قصص مصور « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين ، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها»[1] .

خرج موسى من المحبس ، ودخل المدينة ، وأهلها لا يتوقعون أن يخرج رجل فى ظل القصر ، إلى حيث الشعب ، ينازل من ينازل ويسالم من يسالم إلى حيث الحياة اللاغبة العاملة ، فكان ذلك مفاجأة ، عبر عنها القرآن بقوله على حين غفلة من أهلها ، خرج ونفسه مملوءة غيظا على الذين كانوا أداة فى يد فرعون يسوم بهم الناس عذابا ، فوجد مصريا يقتل واحداً من شيعته فسارع إليه زعمه أنه اليهودى يعتدى عليه ، فاندفع فقتل المصرى .

---

(١) القصص : ١٤ ، ١٥ .

ولكنه وقد استرجع ضميره الذى كان فى غفوة بسبب العداوة المستحكمة بين المتصرين ، وبسبب ما رأى من فرعون ومن معه من جند وأشياع ، وأهل مصر صامتون كدأبهم عندما يرون ظلماً عنيفاً صارخاً يقفون كالنظارة ، لا يتحركون لظلم واقع ، ولا لهتم مستحكم مانع .

وتكررت المأساة بين اليهودى الذى استنصره بالأمس ومصرى آخر فيقوى صوت الضمير على استغاثة اليهودى ، ويعلم أنه فرعونى ضال كثير الشكاس ، وأن المصرى مظلوم فى معاملته ، ولكنه مع ذلك تغالبه فى نفسه مشاعر ، فيهم بأن يبطش بالذى هو عدو لهما . عندئذ نطق المصرى لائماً ، مذكراً بأنه يريد أن يكون جباراً فى الأرض ، وما يريد أن يكون من المصلحين الذين يعملون على الإصلاح بين المتخاصمين من غير إضافة اعتداء إلى اعتداء ، ويقول له فى عتب لائم « إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين »[1].

وموسى فى نفس حائرة بين عز الدنيا وقد تركه وراء ظهره ، وجعل نداءه دبر أذنه ، وبين الحق والعدل والإخلاص وهو إلى الثانى يميل ، ومن الأول ينفر ، وبينا هو على هذه الحال يتردد بين ماض مريح ، وجديد يريد أن يخوض فى شدائده ، ليعيش كما يعيش قومه ، فيشاركهم فى ضرائهم ، وإذا النذير ينذره : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج إنى لك من الناصحين[2] » قضى الأمر ، وانتهت الحيرة ، واستقبل الحياة الجديدة بلأوائها وجهاً لوجه ، ولنترك القول لكتاب الله تعالى يذكر لنا حاله من بعد ذلك الإنذار . إذ نجد التصوير الذى تعجز عنه كل أدوات التصوير الساكن والمتحرك ، وهو يصور موسى قد أحس بخطر قوم فرعون ، وفرعون ، وآل مصر ، يترقبونه ، فالله يقول

---

(١) القصص : ١٩ .   (٢) القصص : ٢٠ .

فى كلام مصور للأرواح والأشباح : « فخرج منها خائفاً يترقب ، قال رب نجنى من القوم الظالمين ، ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ، ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال ماخطبكما ، قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل ، فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير » (١)

تصوير للحيرة . فربيب النعمة خائف يترقب المتتبع ، والمترصد ، ويتوجه من ريف مصر وخضرته إلى لفح الصحراء وجدبها ثم هو يحس بالحاجة ، وهو الذى كان يتناول ويرمى ، وإذ لفحته الشمس آوى إلى الظل ، لايرجو إلا الله ويعلم أن الله تعالى لا يتخلى عنه .

وإنى مهما أحاول من تصوير للقصة بعبارتى ، فلن نصل إلى ما يقع فى نفس القارىء إذا تلاها مجردة من غير تعليق عليها ، إنها تصور ربيب النعمة فى صورة كأنها المرئية ، وكأنها مشاهدة محسوسة ، وليس أخباراً مكتوبة أو متلوة .

إنه حائر ، فيفاجأ بإحدى المرأتين تأتيه تمشى على استحياء ، وهى تدعوه إلى أبيها ليجزيه أجر ماسقى لهما ، ويذهب الشاب القوى إلى الشيخ الضعيف ، وهنا يرى الشجرة الوارفة ، فى وسط الصحراء ، ويجد الحياة الزوجية ، وراحة الحياة بعد شقائها ، ويذوق طعم الدنيا ، ولم يكن فى بيت فرعون يذوقها ، ذلك أن النعيم معنى نسبي لايذوقه إلا من ذاق الألم فى هذه الدنيا ، والنعيم من غير ألم يرنقه يكون راحة عفنة ، فموسى عليه السلام ، بعد أن نال عيشه بالكد واللغوب ، وعاش بين الرجاء والخوف أحس بطعم الحياة ومعناها ، وتأهب للرسالة ، لأن الرسالة لاتكون إلا لمن اصطفاهم الله تعالى

---

(١) القصص : ٢١ — ٢٤ .

ممن ذاقوا طعم الحاجة وعزة الحق ، ولم يترفوا بالنعيم ، وكذلك أمر النبيين والصديقين ، وكذلك كان تاريخ كل الأنبياء ، وخصوصاً أولى العزم من الرسل .

هذا وإنا نطالب القارىء أن يقرأ أى جزء من قصة موسى فإنك تراه مصوراً للموقف الذى يعرض له أبدع تصوير ؛ وكأنك تشاهد ، ولا تسمع وتتلو ، وإنه لهو القصص الحق .

٩٠ — وإنك إذا قرأت مجادلة المشركين مع نبى من الأنبياء ، كنوح وإبراهيم وعيسى . وشعيب وهود ، تحس بأنك تشاهد مشهداً مرئياً ، لا أنك تستمع إلى كلام متلو ، فتنتقل أنت وعقلك وجوارحك كلها إلى هذا المشهد الكريم الذى يصور عقلية الذين يجادلون ، وما يبذله الرسول ، وما يتحمله فى سبيل إقناعهم ، أو إلزامهم كلمة التقوى ، ولا يريدونها ، اقرأ مجادلة نوح عليه السلام لقومه ، وهم يجادلون فى الله ، ونوح يريد أن يهديهم بأمر الله تعالى ، واتل قوله تعالى « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين ، ألا تعبدوا إلا الله ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ، ما نراك إلا بشراً مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل . بل نظنكم كاذبين ، قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده ، فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ، ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقو ربهم ، ولكنى أراكم قوماً تجهلون ، وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم ، أفلا تذكرون ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إنى ملك ، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا . الله أعلم بما فى أنفسهم ، إنى إذا لمن الظالمين ، قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا

إن كنت من الصادقين ، قال إنما يأتيكم به الله إن شاء ، وما أنتم بمعجزين [1] » .

هذا مشهد من مشاهد القول تجد فيه مناقشة قوية بين دعوة الحق ، وجحود أهل الباطل ، وتراه كأنه مصور أمام البصيرة وترى فيه صاحب الحق يدلى بالبينات ، والحق وحده أبلج ، وترى فيه أهل الباطل يتخذون من الحس دليلا على الحق ، وحسهم كاذب ، فيستدلون على أن الدعوة ليست دعوة حق بأن أتباعها الفقراء الأرذلون فى أعينهم الذين يزدرونهم والنبى عليه السلام يجادلهم بالتى هى أحسن ، وهو يسوق البينات ، ولكنهم يتبرمون بدعوة الحق .

ولاشك أن العبارات لا تدل على المعانى المقصودة فقط ، بل وضعت الألفاظ ، ومعانيها ، وأطيافها فى بيان مصور يسكن به الخيال والنفس ، كأنه واقع محسوس ، لا قصص متلو فقط .

وبعد ذلك بين الله تعالى لنوح أنهم لا يؤمنون ، ولم يبق إلا إنزال العقاب بهم ، واقرأ صورة العقاب تراه قصصاً مجرداً ، ولكنه مشهد واضح بيّن يصل إلى درجة المرئى للقارىء المتنبه اقرأ قوله تعالى :

« وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ، ويصنع الفلك ، وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال : إن تسخروا منا ، فإنا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم ، حتى إذا جاء أمرنا ، وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ، وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم ، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان

---

(١) هود : ٢٥ ، ٣٣ .

فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، قال لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ، وقيل ياأرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين ، ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ، قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ، قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم »[1] .

ذلك هو بعض قصص نوح عليه السلام من وقت أن يئس من إيمانهم وأخبره ربه العليم الحكيم أنه بلغ الحجة وحقق الرسالة ، وأنه لن يؤمن أحد من قومه لم يكن قد آمن . وأن العقاب نازل لا محالة ، وترى كل نص من نصوص هذا الجزء من القصة مصوراً بيانياً لما أنزله تعالى ، فترى جزءاً يصور كيف أخذ نوح يبنى . سفينته ، والقوم ينظرون إليه ساخرين غير عالمين بالعاقبة التى تنتظرهم ، والغاية التى قدرها الله تعالى من هذا البناء والخيال يرى الصورة من وراء العبارات كأنها بين يديه حقيقة بالعيان ، وليس خبراً من الأخبار ، وإن كان يذكر فى أعلى صور القصص المصور ، ثم ترى الإيذان بالابتعاد عن موطن الغرق ، وقد فار التنور . وإنى قد أدرك من هذا أنها كانت تسير بالبخار إذ فار التنور فتحركت بعد أن فار ، والله تعالى أعلم بمراده ، وإن كان اللفظ دالا ، بل هو مصور لتنور فار فحرك ببخاره ماحرك من آلات تسيير السفينة ، وتجرى بهم فى موج كالجبال والقارىء يرى فى هذا صوراً تثير الخيال ، وتجعل الخبر مرئياً أو كالمرئى ؛

(١) هود : ٣٦ — ٤٨ .

وإن ذكر الموج فى هذا المقام يصور كيف كان السيل عارماً ، وأنه لم يكن غيثاً حتى لم يبق إلا من خرج بالسفينة نجيا .

ثم نجد فى ذلك القصص أمراً معنوياً مصوراً كأنه ملموس ، وهو حنان الأب ، ورفقه بولده ، فقد رأينا فى النبى المجاهد عاطفة الأبوة تعلو ، فينادى ابنه وكأننا نسمع النداء فى مشهد من مشاهد الأبوة ، ثم نجد الابن ، وقد غره غرور الصبا ، والابتعاد عن التصديق ، حتى حسب أنه بمنجاة من الغرق إذ اعتصم بجبل آوى إليه ، وحال بينه وبين أبيه الموج ، فكان من المغرقين ، والأب تنفطر نفسه ، فتغلبه شفقة الأبوة عن رؤية أمارات الموت ، ويتجه إلى ربه باكياً حزيناً إذ نجا أهله إلا ابنه ، فيقول ، وكأننا من فرط التصوير نسمع أنين الأب ، بعد أن نجا كل من فى السفينة ، وقد استوت فى طريقها وهلك الظالمون ، يضرع إلى ربه يقول إن ابنى من أهلى ، وكان قد وعده ربه بأن ينجى أهله ، فيقول إن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين ، وهنا نجد رب العالمين يبين أنه داخل فى عموم الكافرين ، لأنه كفر ، وأهلك هم الذين آمنوا ، ولم يعارضوك . ويقول سبحانه : « إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس به علم ، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين » .

تعارض العطف مع الواجب ، فتحت قوة العاطفة الأبوية نطق بما نطق فنبهه الله تعالى إلى الواجب ، ولم ينبه غافلا ، ولكنه نبه يقظاً مؤمناً ضارعاً وإن كان قد ناجى ربه بصوت البشرية ، فتاب ، وقال « رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين

القصص الحق المصور فى أهل الكهف،

١٥ — ومن أروع القصص القرآنى المصور فى صدقه ، وسرد حقائقه قصة أهل الكهف التى هى آية وحدها فى التصوير البيانى القصصى الصادق ، وهى فى كل جزئيه تصور الأمر كأنه مرئى بالحس ، لا مذكور بالخبر وحده

واقرأ قوله تعالى : « أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ، إذ أوى الفتية إلى الكهف ، فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيء لنا من أمرنا رشدا ، فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عدداً ، ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ، نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً ، لقد قلنا إذاً شططا ، هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، وإذ اعتزلتموهم ومايعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقا ، وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ، ذلك من آيات الله ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ، وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ، ولملئت منهم رعبا ، وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً ، فليأتكم برزق منه ، وليتلطف ، ولا يشعرن بكم أحداً ، إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم ، أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبدا ، وكذلك أعثرنا عليهم ، ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لاريب فيها ، إذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً ، سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربى أعلم بعدتهم ، مايعلمهم إلا قليل ، فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ، ولا تستفت فيهم منهم أحداً ، ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ، واذكر ربك إذا نسيت ،

وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا ، ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع مالهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحداً » .

هذه قصة أهل الكهف ، والرقيم ، وهو الحجر الذى رقم عليه أنه رمز لمأواهم ليكونوا عبرة ، وليكونوا دليلا ناطقا ، على الإيمان بالبعث والنشور وإن الذين يجحدون بهما يرونهما عيانا فيهم ، إذ بعثهم الله سبحانه وتعالى ، وقد حسبوا أنهم مضى عليهم يوم أو بعض يوم .

والقصة الكريمة كما ذكرها القرآن الكريم فى قصصه الحق لها مشاهد تذكر كأنها ترى ، وكأن الإنسان يعاين وقائعها ، فى أسلوب قرآنى قصصى تؤخذ منه مغزى القصة فى غير التباس ، ولا ارتياب .

المشهد الأول : إواء فتية آمنوا بربهم ، وزادهم الله تعالى هدى ، وقد فروا من الوثنية إلى الوحدانية ، ومن الوثنيين إلى جوار ربهم ، وقد ربط الله على قلوبهم . فاستمسكوا بإيمانهم ، واعتصموا بربهم ، وكان الإيمان قد سكن وعاء القلوب ، فربط الله تعالى بالصبر حتى لا يخرج من وعائه الذى استقر فيه ، واطمأن ، فلا يتشعع أمام أى حادث وإن الإيمان إذ سكن ، واطمأنوا كانت رحمة الله تعالى أن ضرب على آذانهم بمعنى أنه خيم عليها ، فأصبحت لا تسمع لغو الحديث ، وإنهم إذا آووا إلى الكهف قطعهم الله تعالى عن لغو الوثنية وظلم أهلها ، فاجتمع لهم الانزواء عن الناس ، والبعد عنهم بالحس ، فلا يرون الناس ، ولا يسمعون عنهم ، وساروا فى غيبوبة كأنهم الموتى ، وليسوا أمواتاً ، وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ، وكل ذلك فى تصوير قصصى كأن التالى للقرآن يراهم ، وهم يهرعون إلى الكهف يأوون راجين الرحمة والرشاد ، مبتعدين عن الآثام ، وما فى الدنيا ، وقد زادهم الله تعالى ، فجعلهم رقوداً ، وهنا نجد الصورة واضحة أن

---

(١) الكهف : ٩ — ٢٦ .

نائماً يظن أنهم أيقاظ ، وهم رقود، وقد بقوا على ذلك سنين عددا تجاوزت ثلاثمائة .

والمشهد الثانى : بعثهم ، وقد اختلف الناس فى أمر المدة التى استمروها فى الكهف ، وقد مرت الأجيال ، وهم يحسبون أنهم أيقاظ ، فقد استمروا كما ذكر فى القرآن الكريم ثلاثمائة سنة وزادوا تسعاً .

ويجىء بعد البعث الكلام فى المدة التى مكثوها ، والسبب فى اختيار مأواهم ، فقص الله خبرهم بالحق تفصيلا بعد أن ذكره إجمالا ، لقد قاموا من سباتهم ، وهم يرددون إيمانهم بالله تعالى ، واعتراضهم على أقوامهم ، ويحكون ما كان منهم مع أقوامهم «هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين » وأن قومهم اعتزلوهم ، وهم لا يعبدون إلا الله تعالى ، ونرى الصورة القصصية واضحة بينة ، هادية مرشدة تصور الملاحاة بينهم وبين أقوامهم ، حتى اعتزلوهم معتصمين بربهم ، مؤمنين به ، وهذا المشهد كل أجزائه واضحة ، حتى إنه يصور الكهف ومن فيه وخرجوا منه فى مشهد واضح بين ، هو كالعيان بتصوير القرآن الكريم .

والمشهد الثالث : منظرهم وهم رقود ، وحال الكهف ، وصورته ، فهم فى فجوة منه ، يتجهون فيه إلى الشمال والشمس تخرج لهم من الشرق يميناً ، وتودع الكون فى غربهم . فالشمس والهواء ، يحيطان بهم ، وذلك أصلح مكان ، إذ يستقبل الشمس فى غدوها طالعة ، وفى غروبها رائحة ، والهواء من البحر يجىء إليهم ، فينعشهم نسيمه العليل . فأسباب الحياة الطيبة قائمة ومهيـــأة لهم ، وهم رقود ، وإن كان الرائى يحسبهم أيقاظاً ، والوصف القصصى مصور المكان كأن القارىء للقرآن يراه ، وهو يتلو كتاب الله تعالى .

وإنهم فى هذه المنامة يتقلبون كالأيقاظ الأحياء بإرادة الله تعالى وأمره الكونى ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، ولا يترك القرآن الكريم من

الصورة المكانية شيئاً إلا بينه ، وصوره ، فيذكرهم وكلبهم يحرسهم وهو بالوصيد ، وهو فجوة بالجبل الذى فيه الكهف ، فالتصوير القصصى كامل يرى فيه القارىء صورة للمكان ، وكأنها مصورة بصورة باهرة ، وليست كلاماً متلواً ، ولكنه كلام الله تعالى العزيز الحكيم .

وإن المكان فيه رهبة ، وحالهم فيها هيبة ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ، ولملئت منهم رعباً .

المشهد الرابع : الذى تصوره القصة ، وقصص القرآن كله حق لا ريب فيه ، وهو تيقظهم بعد الرقدة ، وحالهم ، وقد رأوا الحياة اللاغبة التى كانوا عنها غافلين ، وكانوا فيها راقدين ، وأول سؤال توجهوا به ، سألوا به أنفسهم ، كم لبثوا فى منامهم ، وقد سألهم هـذا السؤال واحد منهم ، فقالوا كأنهم مجمعون لبثوا يوماً أو بعض يوم ،ولكنهم كشأنهم لم يتخبطوا، ولعلهم ظنوا أن المدة أطول من ذلك ، ولذلك قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ، وهنا نجدهم اتجهوا إلى الحياة يطلبون رزقهم ، ومعهم نقود فضية قد ضربت منذ تسع وثلاثمائة سنة تكشف للناس عن أمرهم ، وكانوا ككل أهل الإيمان أهل تسامح ، فقد طلبوا من مبعوثهم أن يتلطف ، وألا يشعر بهم أحداً ، حتى لا يكون منهم أذى ويظهر أنهم بهـذه النقود عثر الناس على أمرهم ، وعرفوا حقيقتهم ، وكان إلهام الله بذلك ليعرف الناس حقيقتهم وتكون حياتهم فى الكهف ورقدتهم فيه دليلا محسوساً على أن وعد الله تعالى بالقيامة حق ، ولذا قال سبحانه « وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها ، إذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ، ربهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً » وهـذه كلها مشاهد فى القصة تعاين فيه أحداثها فى قصص محكم .

التصريف فى صور العبارات القرآنية

٩٢ — من أدل شيء على بلوغ القرآن أعلى درجات البلاغة ، تصريف المعانى والألفاظ فى كل باب من أبواب القول ، وقد أشرنا إلى ذلك فى أول كلامنا فى بيان تصريف الكلام القرآنى ، وتصريف القول يتناول الألفاظ ، وتصريف الألفاظ يتضمن لا محاله تصريف المعانى ، لأنه لا مرادف فى القرآن ، ولا يوجد لفظان يؤديان معنى واحداً ، من حيث الإحكام والدقة ، ولا يوجد أسلوب يؤدى معنى يؤديه الأسلوب الآخر ، وإن كان يبدو بادى الرأى أن المعنيين يتحدان فى جوهر المعنى ، ولكن عند التأمل فى الإشارات البيانية التى تشير إليها الألفاظ ، والتى تطيف حولها ، وتشع منها ، تجدها مختلفة ، وإن كل تغيير فى العبارات القرآنية عن أخواتها فى مثل موضوعها يحدث تغييراً فى المرامى ، ولمح القول ، حتى الوقوف والفواصل تؤدى باختلاف نغمها مالا تؤديه مثيلاتها مما هو فى موضوعها ، وإن النغمات القرآنية التى تتخالف أحياناً تكون كل نغمة فى مقامها تومىء بموسيقاها إلى إشارة لا تومىء إليها نغمة أخرى لآية فى هذا الموضوع نفسه .

ولنضرب فى ذلك بعض الأمثـــال فى الاختلاف فى الأسلوب ، والموضوع واحد ، وتغير المعانى قوة ورفقاً . وكل فيما يناسبه .

الاستفهام والنفى :

٩٣ — لاشك أن النفى المجرد ، والنفى بطريق الاستفهام كلاهما يدل على أصل النفى . ولكن النفى بطريق الاستفهام أقوى دلالة فى معنى النفى ، لأن النفى بالاستفهام فيه معنى أن المخاطب سبق إلى النفى ، فكان النفى من القائل ، والإقرار به من المخاطب ، اقرأ قوله تعالى فى ادعاء المشركين أن

الله تعالى حرم بعض الأطعمة ، فنفى الله سبحانه وتعالى ذلك بقوله : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؛ إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون ، قل فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين ، قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا، فإن شهدوا فلا تشهد معهم، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون[١] »، ألا ترى أن هذا الاستفهام للنفى ، إذ المعنى الجلى « ماعندكم من علم بأن الله تعالى حرم عليكم إن أنتم إلا تخرصون ؛ تتوهمون ماليس له حقيقة واقعا .

ولا شك أن المجيء بصورة استفهام فيه مزيتان إحداهما تنبيه إلى أنه كان يجب عليهم قبل أن يعتقدوا أن يتعرفوا الدليل الذي يسوغ لهم العلم حتى لا يقولوا على الله ما لا يعلمون . والثانية — أن فى الاستفهام حملا لهم على أن يقروا بالنفى ، وفوق ذلك كله فإن سياق الكلام فيه توبيخ لهم لأنهم بنوا عقائدهم على أمور باطلة ، لا أساس لها من حق ولا علم، وإن هذا نوع من الاستفهام الذى يراد به النفى يعبر عنـــه علماء البلاغة بأنه استفهام إنكارى؛ لإنكار وقوع موضع الإنكار ، وهناك إنكار يقال له إنكار الواقع، وهو يكون فى معنى التوبيخ على ماوقع على أنه لا أصل له .

اقرأ قوله تعالى : «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق[٢]». وهذا إنكار لما وقع منهم، وإنكار الواقع توبيخ ، ذلك لأن المشركين كانوا يوجبون الطواف عراة ، وكانوا يحرمون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، والله سبحانه وتعالى نفى ذلك التحريم الواقع منهم بهذه الصيغة « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » والنفى بصيغة هذا الاستفهام فيه مبالغة ، لأن فيه إشارة إلى أنه لا يسوغ لعاقل أن يكون منه ذلك التحريم ، لأنه عمل غير معقول فى ذاته ، إذ المؤدى: لا أحد حرم زينة الله من لباس ساتر ، ولا أحد يحرم طيبات الرزق

---

(١) الأنعام : ١٤٨ — ١٥٠ (٢) الأعراف : ٣٢

التى لا خبث فيها من حيث الحقيقة ، ولا من حيث المعنى ، مادام طريق الكسب طيباً ، وأن الله لا يأمر إلا بالقسط الذى يتفق مع الفطرة ، ولذا قال تعالى من بعد ذلك ، قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون(١)» .

وقال سبحانه من قبل هذه الآيات : قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تعودون ، فريقاً هدى ، وفريقاً حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون ، يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين(٢)» .

٩٤ — وقد ذكر عبد القاهر فى كتابه دلائل الإعجاز الحكمة فى سبب تسمية الاستفهام بالإنكارى ، سواء أكان لإنكار الوقوع بمعنى النفى أو لإنكار الواقع ، بمعنى التوبيخ ، فقال رضى الله تعالى عنه .

« واعلم أننا وإن كنا نفسر الاستفهام فى مثل هذا الإنكار بالنفى ، فإن الذى هو محض المعنى أنه ليتبين السامع ، حتى يرجع إلى نفسه ، فيخجل ويرتدع ، ويبين الجواب ، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل ما لا يقدر عليه ، فإذا ثبت على دعواه قيل له فافعل فيفضحه ذلك وإما لأنه هم بأن يفعل ما لا يستصوب فعله . فإذا روجع فيه تنبه ، وعرف الخطأ وإما لأنه جوز وجود أمر لا يجوز مثله ، فإذا ثبت على تجويزه وبخ على تعنته ، وقيل له فأرناه فى موضع وفى حال ، وأقم شاهداً على أنه كان فى وقت ، ولو كان يكون للإنكار ، وكان المعنى فيه من بدء الأمر لكان ينبغى ألا يجىء فيما يقوله عاقل : إنه يكون حتى ينكر عليه ، كقولهم أتصعدا بى إلى السماء ، أتستطيع أن تنقل الجبال ، ألى رد ما قضى من سبيل .

(١) الأعراف : ٣٣
(٢) الأعراف : ٢٩ — ٣١

ومؤدى هذا الكلام أن الإنكار إذا كان نفياً لوقوع أمر ، فمؤداه أن الأمر لا يقع ، ولا يعقل أن يقع ، فهو نفى مؤكد ، إذ هو ليس نفياً للفعل فقط ، بل هو نفى له مع بيان أنه لا ينبغى ولا يجوز أن يقع ، وإذا كان الفعل قد وقع فهو توبيخ على الوقوع ، واستنكار له ، كما رأيت فى قوله تعالى : «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق[١]» ويلاحظ أن الإنكار سواء أكان إنكاراً للوقوع بمعنى النفى أم إنكاراً للواقع بمعنى التوبيخ ، فإن فيه حمل الفاعل على الإقرار بالنفى أو إثبات ما أوجب التوبيخ .

٩٥ — ومن الاستفهام فى القرآن ما يكون لبيان الاستحالة ، وهو يقارب فى معناه معنى إنكار الوقوع إلى حد أنه يكون احتمال غير معقول ، ومن ذلك قوله تعالى «أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى» ، بمعنى أنك تخلق فيهم بصراً يبصرون به وإن هذا فيه استفهام إنكارى ، وفيه استعارة تمثيلية ، فقد مثلت حالهم بحال الأصم الذى لا يسمع ، أو فى آذانه وقر ، وبحال من فقد البصر ، وإن من يطلب هدا يتهم كمن يطلب السمع من الأصم ، أو يطلب الإبصار ممن فقد البصر ، فالاستفهام لاستحالة موضوع السؤال وأنه لا يقع .

ومن ذلك أيضاً الاستفهام الذى عبر به القرآن عن حال الجاحدين الذين يتوهمون أن الفقراء فى الدنيا لا يمكن أن يكونوا هم أول المهتدين متوهمين أن الفضل بسعة الرزق وكثرة المال ، لا بالتقوى والمسارعة إلى الخير . فالله تعالى يصور حالهم بهذا الاستفهام ، فيقول تبارك وتعالى : « وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا[٢] » فالاستفهام على مقتضى نظرهم يوجب ألا يكون الله تعالى من عليهم قبلهم ، وذلك من فساد القياس ، إذ قاسوا الفضل بمقياس المادة ولم يقيسوه بمقياس الفضيلة والتقوى والمسارعة إلى الخير .

---

(١) الزخرف : ٤٠ (٢) الأنعام : ٥٣

ومن الاستفهام الذى ينبىء عن استحالة الجواب ، قوله تعالى آمراً نبيه :

« قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ، ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى، وأمرنا لنسلم لرب العالمين[1]» فى فالاستفهام هنا واضح أنه لبيان إستحالة أن يدعو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مايدعون من دون الله تعالى ، وإن حالهم فى عقيدتهم الباطلة ، كحال من يسير فى بيداء وقد استهوته الشياطين الصارخة فاندفع إلى غير هدى حتى تاه فى المهمة القفر ، وله أصحاب ينادونه فلا يستجيب لهم لأن الباطل قد ضرب على قلبه ، ولأن استهواء الشياطين قد غلب عليه .

ومن قبيل الاستفهام الداخل على ما لا يجوز التغيير فيه ما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام ، وقومه يحاجونه يريدون أن يردوه ، فقد قال تعالى « وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدانِ[2]» .

ومن الاستفهام الذى يدل على استحالة موضوعه ماذكره سبحانه وتعالى من أنه يوجه إلى السيد المسيح عيسى عليه السلام يوم القيامة ، إذ يقول سبحانه : « وإذ قال الله : ياعيسى بن مريم ، أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ماليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب ، ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شىء شهيد. إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم[3]» .

وهنا نجد تلك المجاوبة التى أعلمنا سبحانه وتعالى أنها ستكون بينه

(١) الأنعام : ٧١

(٢) الأنعام : ٨٠

(٣) المائدة : ١١٦ — ١١٨

وبين المسيح عيسى بن مريم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم كان الاستفهام فيها لبيان استحالة أن ابن مريم قال لهم اعبدونى وأمى إلهين من دون الله ولذلك جاءت الإجابة على السؤال باستحالة موضوعه ، وأنه ما كان ولا يمكن أن يكون من عبد الله ورسوله عيسى عليه السلام .

٩٦ — ومن الصيغ الاستفهامية تلك التى تجىء فى القرآن الكريم ما يكون للإفحام ، والرد ، كالرد بالصيغة الاستفهامية ، إذ يقول سبحانه وتعالى عنهم . « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما ، وإليه المصير[1] » .

وإن ذلك الاستفهام مع دلالته على استنكار قولهم فيه دلالتان أخريان : إحداهما — إعلامهم بأنه سيعذبهم بذنوبهم وأنهم ماخوذون بما يقترفون من سيئات ، وما يجترحون من مآثم ومظالم . الثانية — الدلالة على أن عمل الخير له ثوابه ، وعمل السوء له عقابه ، وأن من يقول غير ذلك فهو مبطل ، وما كان لهم أن يدعوا محبة الله ، وأنهم منه بمنزلة الأبناء من الآباء ومع ذلك يعصونه ، وينشرون فى الأرض الفساد .

فهذا استفهام مع ما فيه من إحكام واستنكار يتضمن معانى سامية فيها التهديد لمن يعصى ، والتبشير لمن أطاع .

وهناك لون من ألوان الاستنكار يكون منصباً على المساواة الظالمة بين الخير الأدنى ، وما هو أعلى منه ، كما فى قوله تعالى : « أجعلتم سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام ، كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ، لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين[2] » .

لقد كانت قريش تتنافس على السقاية وسدانة البيت الحرام ، وتسابق

---

(١) المائدة ١٨ (٢) التوبة : ١٩

إلى عمارته إن احتاج إلى عمارة ويحسبون أن ذلك يجعل لهم فضلا على الناس ولو كانوا مشركين ، وقد قرر سبحانه أن الإيمان بالله ورسوله ، والجهاد فى سبيله ، والتقدم لفداء الحق ونصرته لا يساويه مجرد السقاية والسدانة والعمارة ، ولو كان لبيت الله الحرام الذى هو مثابة للناس وأمن ، فالإيمان والعمل الإيجابى لنفع الناس وحماية الحق والذود عنه ، هو فى المكانة السامية وقد أتى سبحانه بذلك فى صيغة استفهام إنكارى ، وهو منصب على التسوية بين الأمرين، وهو استنكار فيه توبيخ، وفيه إبطال للباطل، وإحقاق للحق ، وإعلاء لشأن الإيمان والجهاد ، وأنه فوق كل شأن .

ومن الاستفهام الذى يحكى عن المشركين الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ما يذكر على سبيل الاستغراب ، وظن الاستحالة ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن المشركين: «وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ، قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ، قل الذى فطركم أول مرة،فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا[1] » .

ومثل ذلك قوله تعالى فى سورة الرعد : « وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد ، أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال فى أعناقهم، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون[2] » .

وإن هذه الاستفهامات هى من قبيل الإنكار ، والاستغراب ، فترى المشركين يعلنون إنكارهم للبعث ،ويستغربون أن يكون ، يستغربون البعث فى ذاته ، ويقرنون ذلك بحال الذين يموتون من بعثرة أجسامهم بعد أن يصيروا رفاتا ، ويضيفون إلى استغراب البعث فى ذاته ما يقررونه فى اعتقادهم من أحوالهم ، يحسبون أنها تبرر الإنكار ، أو تزيد الاستغراب ، فيسألون من الذى يبعثهم من مراقدهم ويوهم قولهم أن ذلك غريب .

---

(١) الإسراء : ٤٩ — ٥١ (٢) الرعد: ٥

وفى سورة الرعد فى النص الذى نقلناه يستغربون ويتعجبون يبين الله تعالى أن موضوع العجب هو عجبهم ، لأن البعث فيه سر الوجود ، إذ أنهم لم يخلقوا عبثا ، وإذا كان الابتداء ليس فيه عجب ، فالإعادة ليس فيها عجب أيضاً ، فالاستغراب موضوعه استغرابهم هم .

وإنا نجد فى كل الأمثلة التى ذكرناها فى الاستفهام تصريفا فى القول يوجد جدة فى جملة عن سابقتها، وإنه لو كان النفى أو الاستغراب والتعجب أو الاستنكار والتوبيخ بلغة واحدة ما كان التنويع فى التعبير ، الذى هو ميزة لكل كلام ، فضلا عن أبلغ كلام رأته الإنسانية ، لأنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وإنه بديع فى نسقه ، فى أعلى درجات من الإبداع ، وإنه كما قال الكافر الذى سمعه : يعلو ، ولا يعلى عليه ، وإنه ذو القطوف الدانية ، والجمال دائماً .

٩٧ — ومن الاستفهام ما يكون تقريراً للواقع ، وذلك يكون فى الحال التى تستوجب العجب ، أو توجب الاستنكار ، إذ يكون الواقع المقرر مستنكراً ، لأنه ليس من صنيع أهل الإيمان ، ولا مما تستسيغه الفطرة السليمة ، أو تستحسنه الأخلاق الحكيمة ، اقرأ قوله تعالى: «أرأيت الذى يكذب بالدين ، فذلك الذى يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون[1]» .

وإن هذا الاستفهام التقريرى الذى يؤكد الرؤية العالمة من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فإن معنى أرأيت ، لقد رأيت الذين يكذبون بالدين ، وإن مجىء العبارة بطريق الاستفهام فيه تأكيد لمعنى الرؤية لأولئك الذين اتصفوا بهذه الصفات الغريبة التى تتماسك كل صفة مع أختها ، كأنها ملازمة لها لا تفترق عنها ، وكأنها منها ، فالتكذيب بالدين هو صفة الجاحدين ، لا يؤمنون بالحق ، ولا يهتدون بهديه ، وأولئك دأبهم النفرة من الناس ،

---

(١) سورة الماعون

وألا تكون فيهم رحمة بالضعيف ، فهم يقهرون اليتيم ويذلونه ويرهقون، ويمنعون كل عون ، إذ يمنعون الذكوات التي هي عون الأقوياء للضعفاء ، وهم لا يتذكرون ربهم ، ولا يدنون منه ، حتى في الصلاة ، وصلاتهم ويل عليهم ، وليست قربة لهم ، وهي محسوبة عليهم على أنها من السيئات ، ولا تحسب لهم على أنها من القربات ، وهم في أعمالهم يراءون ، والرياء شرك خفي ، ومن تصدق يرائي فقد أشرك ، ومن صام يرائي فقد أشرك .

وإن موضع الاستفهام هنا لا يغني عنه التقرير المجرد ، لأن مؤدى الاستفهام أن المخاطب قد سئل عن الرؤية مثلا ، فأجاب عنها بالإيجاب ، فكان تقرير الواقعة بإقرار من المسئول ، فهو تقرير معه التصديق وهو مع ذلك تنبيه إلى الصفات المرذولة التي اتصف بها أولئك الجاحدون بأصل الدين ، من قهر اليتيم ، ومنع المسكين ، والصلاة الساهية عن معنى القرب إلى الله تعالى ، وهم يراءون الناس ويمنعون كل عون حقيق .

ومن الاستفهام التقريري الذي يثير الانتباه إلى الحقائق التي يتضمنها قوله تعالى : « قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ، وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ، ثم هم يصدفون ، قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة ، هل يهلك إلا القوم الظالمون[١] » .

وإن هذه الآيات الكريمات فيها عدة استفهامات أولها تقريري ، وهو تقرير الرؤية كأنهم سئلوا عنها . فأجابوا بالإيجاب ، فكان التقرير مؤيداً بالإقرار ، وكان حكما مؤيداً بالدليل ، وهو الإقرار سلطان الأدلة والاستفهام كان موضع الاستفهام الأول ، وهو قوله تعالى «إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم» وهو استفهام في معنى النفي ، فهو إنكاري ، أي أنه لا إله غير الله يأتيكم فهو يتضمن مع النفي إقراراً من السامعين بأنه لا إله غيره وإثارة العجب ممن لا يقرون بهذه الحقيقة

---

(١) الأنعام : ٤٦ ، ٤٧

فهى موضع البرهان وقد تضمن النص الكريم استفهاماً ثالثاً لتوجيه النظر إلى مايصرفه القرآن من أدلة مختلفة ، وذلك الاستفهام توجيهى تنبيهى تقريرى ، وهو قوله تعالى : « انظر كيف نصرف الآيات ، ثم هم يصدقون» فقوله كيف نصرف الآيات فيه توجيه النظر إلى تصريف للآيات ، وجاء بصيغة الاستفهام لتصوير التصريف فى الآيات التى أنزلها الله تعالى، أو كانت فى الكون ، وما كان ذلك التصور لها ليتحقق إذا لم تكن الدعوة إلى النظر ، ثم الاستفهام الذى يأخذ النظر ليضعه على ذلك التصريف ، ثم كان الاستفهام متضمناً معنى الاستنكار لحالهم ، إذ أنهم مع تصريف الآيات وجعلها فى صورها جديدة تسترعى الالتفات والاتجاه إلى إدراكها ، والتنبه لها ، ومع ذلك -لكثرة جحودهم ولجاجة الباطل فى نفوسهم- يعرضون ، ولا تستولى عليه نفوسهم ، كشأن الفكرة المجددة ، فإنها تسترعى الأفهام وتأخذ بالألباب ، ولكنهم عموا ، فلا يجديهم تصريف ، ولا يأخذ بألبابهم تجديد الأسلوب لأنهم معرضون ، إنك لا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين.

وفى النص استفهام تقريرى على منهاج لا يعرف إلا فى القرآن ، فإنى لم أقرأ كثيراً فى غير القرآن ذلك المنهاج الاستفهامى إذ يقول سبحانه «أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون[1]» فالتعبير فى الاستفهام -أرأيتكم- ليس مشهوراً فى الأساليب العربية ، ونجد هنا الخطاب تكرر فيه ، فالتاء المفتوحة خطاب ، والكاف خطاب التاء خطاب للمفرد ، والكاف خطاب للجمع ، والتاء متجهة إلى مخاطبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والكاف متجهة إلى خطاب الجمع ، فاجتمع خطاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخطاب الجماعة ، وذلك لأن فى الاستفهام تقريراً لرؤية النبى عليه الصلاة والسلام وتقريراً لرؤية كل المخاطبين بالقرآن الكريم ، وكان لا بد لاجتماع الخطابين ، خطاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم

(١) الأنعام: ٤٧

ليقرر الواقع وهو علمه عليه السلام ، وتقرير الحقيقة الثابتة للناس أجمعين ، وهى أن عذاب الله الذى يجىء بغتة فى خفاء ، أو جهرة فى وضح النهار لا يهلك إلا القوم الظالمون فهو جاء لأجلهم منصباً عليهم ، وهنا أمران يجب التنبيه إليهما .

— أولهما — أن الزمخشرى ، ومن حاكاه ، كالبيضاوى وغيره قالوا إن الكاف حرف لتأكيد الخطاب لا موضع لها من الإعراب فهى ليست ضميراً ، ولكنها من الحروف التى تبنى على غير محل من الإعراب ، وحجتهم أن رأى استوفت المفعولين من غير تقدير الكاف فى موضع الضمير ، ونحن نميل إلى أنها ليست زائدة ، لتأكيد الكلام ، وليست حرفاً ، ولكنها اسم بمعنى أنفسكم ويكون تأويل القول على هذا أرأيت أنفسكم ، وجمع ليشمل كل الناس ، وكل المخاطبين ، وعلى هذا التأويل يكون المعنى أرأيت أيها النبي الناس ، وقد صاروا عرضة لعذاب يعم الجميع أم يخص الظالمين الذين ظلموا أنفسهم وظلموا الناس وظلموا العقل فضلوا وأضلوا كثيراً ، وأفسدوا فى الأرض والله لا يحب الفساد .

— الأمر الثانى — أن قوله تعالى : « هل يهلك إلا القوم الظالمون فيه استفهام إنكارى بمعنى إنكار الوقوع والمعنى لا يهلك إلا القوم الظالمون . واقترن الكلام بالوصف يدل على سبب استحقاق الهلاك . وهو الظلم ، فبظلم منهم هلكوا ، وكان ذلك تأكيداً للنفى بذكر السبب فى أنهم اختصوا بالهلاك.

ومن هذا النوع فى الاستفهام الذى اقترن بتاء الخطاب والكاف ، وكان كلاهما بالمفرد قوله تعالى : « أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة ، لأحتنكن ذريته إلا قليلا ، قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً[1] » .

والله سبحانه وتعالى يحكى عن إبليس اللعين قوله وهو يخاطب رب العالمين والاستفهام لتقرير الواقع ، لا لنفيه والكاف على قول الزمخشرى هى

(١) الإسراء : ٦٢ ، ٦٣

تأكيد لمعنى التأكيد، ونحن نرجح ذلك، لأن التاء مفرد والكاف مفرد، وهو تأكيد لفظى يتوافق المؤكد مع المؤكد فى الإفراد والجمع، أما الاستفهام السابق فمعنى التأكيد فيه بعيد، للتخالف فى الإفراد والجمع، وهذا النوع من البيان لتصريف القول، وقد ذكر طبيعة إبليس الفاسدة بأنه سيجعل ذلك الذى كرمه تعالى عليه الهلاك لذريته إلا قليلا، وهذا من غرور أبليس، ومن يسكن الشيطان قلوبهم، وهذا كقوله: «لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين».

ونلاحظ أن خول الاستفهام على رأى، مع وجود ضميرى خطاب فى جملة واحدة أو على قول الزمخشرى ضمير خطاب وحرف خطاب — هو استعمال قرآنى، لا أعرف أن العرب قد استعملوه كثيراً قبل القرآن، وفيه من معانى الاستنكار أو التنبيه أو التعجب فى أبلغ صور. وإن هذا من سر الإعجاز، ودليل على أن القرآن لم يكن علمه البيانى عند العرب من قبله.

٩٨ — والاستفهام أحياناً يكون للتسوية «بين أمرين، ويكون هذا لبيان وحدة النتيجة والغاية مثل قوله تعالى «إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون[١]» وإن أداة الاستفهام فى هذه ليست للاستفهام الحقيقى، ولا للإنكار ولا للتعجب، ولا لغير ذلك مما ذكرناه مقاصد للاستفهام، وفى النص القرآنى تأكيد لجحود الذين كفروا، والإشارة إلى أنهم سبقوا إلى الجحود، فالأدلة مهما تكن قوية لا تجد مكاناً فارغاً لتملأه ولكنها تجد قلباً مملوءاً جحوداً، فلا سبيل لأن يدخل الحق، ومن ذلك قوله «سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص[٢]».

فهنا كانت التسوية بين أمرين من حيث الانتهاء إلى نتيجة واحدة، فإن الأمر الذى لا يكون ثمة مفر منه، يستوى فيه الصبر والجزع من حيث

---

(١) البقرة: ٦ (٢) ابراهيم: ٢١

إن كليهما لا يدفع المحظور ، وإن كان الصبر أجدى لأنه يوجد فى الجملة قراراً ورضاً وتقديراً للأمر . كما قال عليه الصلاة السلام «إن صبرتم أجرتم ، وإن جزعتم وزرتم» .

وقد تكون ألف الاستفهام للترديد بين أمرين فى ظاهر القول ، وليست الغاية متحدة ، والعقل يقرر صدق أحدهما كما فى قوله : «أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ، ورفع سمكها فسواها وأغطش ليلها[1]» فإن هذا الاستفهام ليس فيه تسوية بين أمرين فى الحكم أو النتيجة والغاية ، بل المعقول يثبت أحدهما ، وينقض الآخر بدليل من العقل والحس ، فإنه لاشك أن الأشد خلقا هو الأكبر حسا ، والأعظم تأثيراً ، والأدق إحكاما ، وهو السماء بما تصف فيها ، وإذا كان سبحانه مالك السموات والأرض ، وما بينهما ، وما فيهما ، من دابة فهو على ما يشاء قدير .

ومؤدى هذا الكلام نفى سلبى ، وحكم إيجابى ، فأما النفى السلبى فهو أن الإنسان ليس أشد خلقا ، وأما الحكم الايجابى ، فهو بيان سلطان الله سبحانه وتعالى القاهر فوق كل شىء .

وهذا النوع من الترديد إنما يكون دائما لحمل المخاطب على الحكم الصحيح فهو لا يدل على التسوية ، بل يدل على التفرق فى الحكم ولينطقوا بالصواب أو ليلتزموا به ، إن لم ينطقوا ، أو ليفحموا إن لم يسترشدوا وضلوا ، وهو استدلال على الحكم ومن ذلك النوع من الاستفهام قوله تعالت كلماته .

«أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم ، وننشئكم فيما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ، أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون ، إنا لمغرمون ، بل نحن محرومون ، أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن

---

(١) النازعات : ٢٧ — ٢٩ .

المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون. أفرأيتم النار التي تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ، ومتاعا للمقوين[١]» ونرى هذه الاستفهامات المتقابلة التي يجيء فيها بين الاستفهامين لفظ أم التي تدل على التعادل بالظاهر من اللفظ ، ولكنها ليست متعادلة من ناحية الحقيقة الثابتة فهي مقابلة بين حق وباطل ، للتنبيه على الحق بالدليل والتنبيه بالاستفهام بطريق التقابل ، فإذا كان التقابل بين أن يكونوا هم الخالقين للأنفس في ظهور الآباء وبطون الأمهات إذ أن الخالق هو الله سبحانه : فالفطرة والبداهة والحس تقرران الأول فالحكم بلا ريب ينتهي بمقتضى التقابل هو أن الخالق هو الله سبحانه ، وكذلك الأمر في الزرع ، وكذلك الأمر في الماء ، وكذلك الأمر في النار .

فهو استفهام ليس على حقيقته ، ولا للإنكار المجرد ، ولكنه للتنبيه ، والاستدلال على الحق بالإشارة إلى البطلان الذي يكون في الجانب المقابل للحق ، فإنه إذا بطل النقيض كان الحكم بصحة نقيضه ، فإذا كان التردد بين كونهم الخالقين ، والخالق هو الله ، وتأكد بالحس بطلان وصفهم بالخلق فقد ثبتت صفة الخلق لله تعالى ، وبذلك يكون الاستفهام للتنبيه والاستدلال ، كقوله تعالى ، «وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين[٢]» .

ومن ذلك النوع ما حكاه الله تعالى عن سيدنا يوسف وهو يقول لصاحبي السجن : «أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار[٣]» فإن هذا التقابل بين باطل تثبت البداهة بطلانه ، وإذا بطل أحد المتقابلين صدق فكان الاستفهام للتنبيه إلى الحق مؤيداً بالدليل القاطع .

٩٩ — والاستفهام للتنبيه كثير في القرآن ، وكذلك لإثارة العجب حول ما يدعون من ترهات وأباطيل وبيان وجه غرابتها ولا يمكن إحصاء ذلك ، واستقراؤه وتتبعه ، ولكن يمكن ضرب الأمثال ، وما يذكر يكون شاهداً

(١) الواقعة : ٥٧ — ٧٣ .
(٢) سبأ : ٢٤ .
(٣) يوسف : ٣٩ .

على ما لم نرطب ألسنتنا بتلاوته ، ولا أسماعنا بالاستماع له والإنصات والتدبر فيه .

اقرأ قوله تعالى : «هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل حنيذ ، فقربه إليهم قال ألا تأكلون ، فأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف ، وبشروه بغلام عليم ، فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها ، وقالت عجوز عقيم[1] إلى آخر القصة ، وترى القصة ابتدأت بالاستفهام للتشويق ، وللتنبيه إلى الاستماع ، وقد ابتدأت بعبارة فيها إجمال لتكون تمهيداً لما يجئ بعد ذلك من التفصيل .

ومن الاستفهام الذى للتنبيه إلى قدرة الله تعالى ، وهم لا ينكرون الجواب فيكون الاستفهام للإقرار به وتقريره قوله تعالى : «قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون ، فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ، كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ، قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، فأنى تؤفكون ، قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ، قل الله يهدى للحق ، أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع ، أمن لا يهدى إلا أن يهدى ، فما لكم كيف تحكمون ، وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ، إن الله عليم بما يفعلون[2] » .

ففى الآية الأولى كانت أربعة استفهامات عن الرزق من يرزقه وعمن يملك السمع والأبصار فيسلبهما إن شاء ويبقيهما ، ويردهما إن سلبهما ، وسألهم عمن يخرج الحى من الميت ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله فى إجابة هذه الأسئلة ، فجاء الاستفهام الأخير فى هذه محرضا على التقوى ، إذ أن التقوى

---

(١) الذريات : ٢٤-٢٩ .

(٢) يونس : ٣١-٣٦ .

كانت من نتائج إقرارهم بالإجابة الصادقة عن هذه الأسئلة التقريرية التنبيهية إذ أن العبادة لا تكون إلا للخالق وحده ، فالمعبود الذى يستحق أن يكون إلها هو الخالق النافع الضار .

ونرى أن الأسئلة كانت إجابتها بالإيجاب لا بالسلب وبين سبحانه وتعالى ماترتب على الإيجاب بإقرارهم الصريح ، وهو أن تمتلىء قلوبهم بتقوى الله تعالى ، فلا تعبد غيره .

وجاءت بعد ذلك الآيات أسئلة الإجابة فى بعضها بالسلب لأنها خاصة بما يشركون بها عبادة الله سبحانه وتعالى من أوثان ، وغيرها .

الاستفهام الأول كان عن شركائهم هل يفعلون ماقرروا أن الله يفعله ، ولسان حالهم أن يجيبوا بالسلب لأنهم يرون أنهم لا يضرون ولا ينفعون ، وسألهم عمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ولسان حالهم يقول الله .

وهكذا نرى أن الاستفهام فى كل هذه المقامات فى القرآن كان لإثارة التنبيه إلى الحقائق ، وإذ انتبهت العقول اتجهت إلى طلب الحق فى غير عوج بل بطريق مستقيم .

وإنى أحسب أنه بعد أن نزل القرآن وأشرب الناس مناهجه ومسالكه ، كان من أجود الطرق التعليمية إثارة الانتباه بالاستفهام تنبيهاً إلى مايوجه إلى التلاميذ من علم ، فكان استفهام القرآن موضحاً أقوم المسالك للتنبيه إلى الحقائق وإثارة الأفهام إليها ، وتفتيح الذهن لتدخل عليه المعانى ، والحقائق العلمية .

١٠٠ — وإن القرآن سلك فى الاستفهام مسلكا لم نره كثير الاستعمال عند العرب من قبل نزول القرآن ، ولكنه شاع بعد نزوله من غير سمو إلى مسالك القرآن ، وهو دخول أداة الاستفهام على حرف النفى ، مثل قوله تعالى « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ، ومالها من فروج ، والأرض مددناها ،

وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيهامن كل زوج بهيج، بتصره وذكرى لكل عبد منيب، وانزلنا من السماء ماء مباركا ، فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لهاطلع نضيد، رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج(١) .

فأنت ترى من السياق القرآنى أن همزة الاستفهام دخلت على لم التى هى حرف نفى ، فالاستفهام دخل على حرف نفى وجاء بينهما فاء هى للدلالة على أن السؤال مرتب على ما كان قبله ، وماقبله كان تعجباً من أمر البعث ؛ إذ قالوا أئذا متنا وكنا ترابا ، ذلك رجع بعيد ، وأنهم كذبوا بالحق لما جاءهم فكانت الآيات التى وليت الاستفهام رداً على تكذيبهم ، وفيها الدلالة على إثبات ما أنكروا ، فالفاء للدلالة على ترتيب الاستفهام ، ولكنها أخرت عن أداة الاستفهام ، لأن الاستفهام له الصدارة ، فهى مؤخرة عن تقديم فى نسق الترتيب الفكرى .

والاستفهام الداخل على النفى مؤداه الحث على النظر ، لأن الاستفهام عن نفى النظر ، وتقرير عدم النظر ، فإذا كان الاستفهام ابتداء يقرر أنهم لم ينظروا ، وفى النظر تعرف لآيات الله تعالى فى الكون ، فالاستفهام وحرف النفى يدلان على الإثبات وهو هنا طلب النظر ، فكأن المعنى على هذا المنطق المستقيم ثبت أنكم لم تنظروا ، فالواجب أن تنظروا فالاستفهام ابتداء كما يبدو من سياق الكلام يقرر أنهم لم ينظروا ، لأن عدم النظر كان موضع الاستفهام ، ومن المقررات البلاغية أن الاستفهام دائماً يدخل على ما يكون موضع شك ، ويقدم فيه ما يكون موضع الشك ، فإذا كان موضع وقوع الفعل . كان الاستفهام مسلطا على الفعل ؛ مثل قول الموحدين للوثنيين : « أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا(٢) » ، فهنا نجد موضع الاستنكار هو ذات الفعل ، فكان عقب أداة الاستفهام ، وإذا كان الفعل

---

(١) ق : ٦ — ١١ .

(٢) الأنعام : ٧١ .

قد وقع ، وموضع الشك هو الفاعل ، فإنه يجيء وراء الاستفهام ؛ كقوله تعالى حكاية عن قوم إبراهيم إذ رأوا أصناما جذاذا ، قال الله تعالى عنهم أنهم قالوا له « أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم(١) » فالفعل ثابت بالعيان أمامهم ، ولكن الفاعل هو الذى يريدون البحث عنه ومعرفته .

وبهذا المنطق البيانى نرى أن الاستفهام فى هذا النص أفلم ينظروا داخل على الفعل المنفى ، فإذا كانت الهمزة للتنبيه أو التقرير ، أو التوبيخ ، لأنهم لم ينظروا ، وهو الراجح فى نظرى فيكون لإنكار الوقوع وإنكار الواقع ، وإذا كانوا يوبخون لأنهم لم ينظروا ، فالتوبيخ يكون دعوة للفعل ، وحثاً على النظر .

ومن الاستفهام الداخل على النفى ، قوله تعالى فى قصص القرآن عن أنبائهم : « ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم ، قوم نوح ، وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات ، فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض(٢) » ، ونجد فى الاستفهام الذى صدرت به الآية الكريمة أن همزة الاستفهام دخلت على (لم) النافية ، فكان موضع الاستفهام عدم إتيان نبأ الذين من قبلهم ، ولو سرنا على ما يقتضيه السياق اللفظى للنص السامى يكون الاستفهام عن عدم الوقوع ومعناه أنه لم يأتكم ، وإذا كان الاستفهام للتقرير أو التنبيه فمؤداه أنه لم يأتكم ذلك ، وفى هذا تشويق لمعرفته ، وتوجيه لطلبه ، ولذلك جاء من بعد ذلك النبأ عن الرسل السابقين ، ويكون فى هذا تثبيت الخبر لمن يطلبه مصغيا إلى حقائقه ، معتبراً بعبره .

ولقد جرت بين كتاب علم البلاغة كلمة نفى النفى إثبات ، ويطبقونه على

---

(١) الأنبياء : ٦٢

(٢) ابراهيم : ٩ — ١٠

استفهام يدخل على فعل منفى فيكون الاستفهام داخلا على منفى ، والاستفهام نفى ، فيكون نفيا لنفى ، ونفى النفى إثبات ، وإن ذلك يسير إذا كان الاستفهام للإنكار ، إنكار الوقوع ، فيكون إنكارا المنفى فيكون إثباتا ، وقد قلنا إنه حتى فى هـــذه الحال ، لا يخلو الاستفهام من تنبيه ، وإقرار بما جاء الاستفهام عنـه ، ولـكن الاستفهام الداخل على النفى يتضمن الحث على طلب الأمر المنفى الذى دخل عليه الاستفهام كما رأيت فى قوله تعالى « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم » كما تلونا من قبل ، وقد يكون إلى تلقى علم ما نفى فى حيز الاستفهام كما رأيت فى الآية السابقة .

وقد يتضمن الحث على العمل ، والتحريض عليه إذا كان ذلك العمل غير محقق فى الوجود ، أو هناك شروع فى تحقيقه ، وذلك يكون غالبا عند نفى الأمر المستقبل كما نرى فى قوله تعالى : «ألا تقاتلون قوما نـكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول ، وهم بدءوكم أول مرة ، أتخشونهم ، فالله أحق أن تخشوه ، إن كنتم مؤمنين ، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء[١] » .

ونرى من ذلك أن الاستفهام دخل على النفى ، وهو عدم القتال أو عدم الأهبة له ، والاستعداد للتقدم ، فالمستفهم عنه عدم القتال والاستعداد له وقد وجدت أسبابه ، وتعددت موجباته ، فـكان الاستنـكار منصبا على النفى ، والاستنـكار لحال مستمرة ، حث على تغييرها ، وإذا كان الاستنـكار على ما وقع توبيخا لمن أوقعه ، فالاستنـكار لأمر لم يقع بظاهر الحال واستصحابها تحريض على تغييرها ، وتوجيه للإتيان بها .

وإن الاستفهام الذى ينطبق عليه قول بعض الـكتاب فى علم البلاغة

---

(١) التوبة : ١٣ — ١٥ .

وهو نفى النفى إثبات يكون فى مثل قوله تعالى « ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقه فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى[١] » وترى من هـذا أن الاستفهام دخل على المنفى ، فكان إنكاريا لنفى الوقوع ، فنفى على زعمهم القائل أنه لم يك فى نشأته من منى ، أو كانوا عن ذلك فى غفلة ساهين وكانوا فى حاجة إلى التذكير ، والإحساس بمبدئهم ، ليعرفوا منتهاهم ، وأن الذى أوجدهم من منى يمنى أشخاصاً ذكورا وإناثا قادر على إعادتهم ، كما بدأهم يعودون .

فالاستنكار لجهلهم هـذه الحقيقة ، أو تجاهلهم ، وكأنهم لا يعلمون ، فاستنكر هذا عليهم فكان نفيا مستنكرا لحال التجاهل .

ولا شك أن هذا فيه تنبيه ، وفيه لوم على تجاهلهم تلك الحقيقة ، وبيان أنه يجب عليهم أن يعرفوها ، ليكونوا فى تذكر دائم بقدرة الله تعالى فى تدرجهم فى الوجود من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ، ويعلموا بذلك قدرة الله تعالى على الإعادة .

ومن الاستفهام الداخل على النفى الذى من قبيل أن نفى النفى إثبات ، التنبيه إلى أن النبي يصنع على عين الله تعالى ، ويتولاه وألا يكون فى يأس من رحمة الله تعالى ؛ لأنه فى ولايته ، ولا يضيع من يكون فى ولاية الله تعالى . ومن ذلك قوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك ، فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا ، فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب »[٢] .

فإن الاستفهام هنا لإنكار الوقوع ، أى لإنكار أن الله تعالى لم يشرح صدر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليتلقى الوحى الذى أوحى به إليه ،

---

(١) القيامة : ٣٧ـ ٤٠ . (٢) الانشراح كلها

وإذا كان الإنكار نفيا فالمؤدى للقول : قد شرحنا صدرك ، وكان الاستفهام للنفى .

١٠١ — وإننا فى ختام هذا البحث من التصريف البيانى فى القرآن نقرر بالنسبة للاستفهام فيه ، أن الاستفهام باب من تصريف القول فى القرآن ، وفيـــه من أسرار الإعجاز ما فيه ، فمن الاستفهام ما يكون بعبارات تتفق مع النسق العربى السليم ، ولكنه لم يعرف بين البلغاء قبل القرآن وإنى أرى أن أكثر صيغ الاستفهام التى جاء بها القرآن غير مسبوقة قبله ، وإن الاستفهام كان يستعمل أحيانا للتنبيه ، وأحيانا للاستدلال ، وأحيانا للتعجب ، وأحيانا ليوجه الأنظار إلى الكون وما فيه ، وما يجرى بين الناس ، وإن ذلك كله مما يدل على علو القرآن على مستوى ما كان عليه أكبر البلغاء ، وأقواهم سلطانا فى الأسلوب العربى .

الحقيقة والتشبيه والاستعارة فى القرآن

١٠٢ – هذا باب من أبواب تصريف القول فى القرآن ، وضرب الأمثال به ، والحقيقة فى اصطلاحنا ليست مقابلة للمجاز بكل فروعه ، فقط بل هى مقابلة للمجاز والتشبيه والاستعارة ، وهى ضرب من ضروب المجاز ، وإذا كان علماء البلاغة يعدون التشبيه من قبيل الحقيقة ، إذ أن أساس الحقيقة فى نظرهم أن يستعمل اللفظ فيما وضع له والتشبيهات التى تكون بأدوات التشبيه الألفاظ موضوعة فى مواضعها ، والمجاز الذى يقابل الحقيقة أن تكون الكلمة غير دالة على غير ما وضعت لعلاقة بين المعنى الأصلى ، والمعنى الذى استعملت فيه مع قرينة دالة على هـــذا ، وعدم إرادة المعنى الأصلى .

ذلك هو اصطلاح علماء البلاغة ، ولا غبار عليه ، ولكنا فى مقام الإعجاز القرآنى نذكر الحقيقة ـ غير المجاز ، وغير التشبيه ، ونريد الحقيقة المجردة ، أى استعمال الألفاظ فيما وضعت له من غير ذكر مقابلة بين لفظ ولفظ طريق التشبيه الذى يجمل المعانى أو يقربها ، أو يأتى بصورة بيانية تلتقى فيها الحقيقة مع إثارة خيال يكون كأطياف الصور .

فالحقيقة التى نطلق عليها حقيقة ونحن نتكلم فى القرآن ما تدل عليه الألفاظ فى أصل وضعها من غير مجاز ، ولا استعانة بتشبيه ، ولا مشاحة فى الاصطلاح ، ونتكلم هنا فى الحقيقة ، والتشبيه ، والاستعارة التى هى التشبيه من غير ذكر أداة التشبيه أو ما يدل عليه . وفى القرآن هـــذه الأمور كلها مع أنواع المجاز المرسل الذى لم تكن العلاقة فيه بين المعنى الأصلى والمعنى المجازى المشابهة بينهما .

١٠٣ – إن القرآن قد كان فيه التعبير بالحقيقة ؛ وهنا نجد السكاكى يعتبر

التعبير المجازى أبلغ من التعبير عن المدلولات بالألفاظ التى وضعت لها ، وقد يكون ذلك فى غير القرآن ، ولكنه ليس على إطلاقه حتى فى غير القرآن، أما القرآن فليس فيه جزء أبلغ من جزء ولا أبين ، بل كل فى موضعه وفى منهاجه ، بلغ أقصى درجات البلاغة التى لا تسامى ولا تناهد وليس فى طاقة أحد من البشر أن يأتى بمثله .

ولا شك أن بعض الموضوعات القرآنية لا يكون للمجاز أو للتشبيه موضع ، بل إن المجاز والتشبيه فيها يخل بالبلاغة فيها حتى فى كلام الناس ، وليس من النثر الفنى فيها التشبيه إلا أن يكون للتقريب .

وإن الحقيقة تستعمل فى كثير من مواضع القرآن كالأحكام الشرعية التكليفية ، لأن بيانها يحتاج إلى أن تكون الكلمة محدودة المعنى ليتم القيام بموجبها ، وتكون الطاعة محدودة المعالم ، لا احتمال فيها إذ أن المطالبة بعمل توجب تعيينه بما لا يوجد فيه احتمال لمعنى غير المراد ، ليتم التكليف على بينة وعلم واضح بالمطلوب .

وكذلك القصص ، فإن القصص ذكر لحقيقة ما وقع لتكون به العظة الكاملة ، بحيث يتجه التالى للقرآن إلى مغازى القصة . ومراميها من غير تزيد ، كما رأينا فى كثير من القصص القرآنى فيما تلونا من قصص نوح وإبراهيم وموسى ويوسف من قبله ، فإنك ترى فيه الحقائق مجردة إلا من بيان وجه العبرة ، ولا تجد للمجاز والتشبيه إلا قليلا .

وكذلك الاستدلال على الوحدانية بالنظر فى الكون وما اشتمل عليه ، والنظر فى الشمس والقمر والنجوم المسخرات وهكذا ، مما يوجب الاتجاه مباشرة إلى الحقائق .

١٠٤ — وإن بلاغة الحقائق التى تذكر من غير استعانة بمجاز أو تشبيه لا تقل عن المواضع التي كان فيها تشبيه أو مجاز بالاستعارة أو غيرها،

فإن ذلك يكون لمعان مقصودة ، وغايات أخرى وراء فكرة البلاغة التى هى وصف عام للقرآن كله من غير تفاوت ، لأنها تتعلق بكتاب الله العزيز الذى لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله ، ولو كان معه الجن والإنس ، كما قال تعالى ، « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً[1] » .

ويقول فى ذلك الباقلانى ، فى كتابه إعجاز القرآن « إن عجيب نظمه ، وبديع تأليفه لا يتفاوت ، ولا يتباين ، على ما يتصرف فيه من الوجوه التى يتصرف فيها من قصص ومواعظ واحتجاج ، وحكم وأحكام ، وإعذار وإنذار ، ووعد ووعيد ، وتبشير وتخويف ، وأوصاف ، وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة ، وسير مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها ، وتجد كلام البليغ الكامل ، والشاعر المفلق ، والخطيب المصقع يختلف على حسب الأحوال .

وبعد أن يبين اختلاف البلغاء فيما يجددون من أبواب ، ثم يقصرون فى غيرها فيقول : « وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه على حد واحد فى حسن النظم وبديع التأليف والوصف لا تفاوت فيه ، ولا انحطاط عن المنزلة العليا ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا ، وكذلك تأملنا ما ينصرف فيه من وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة فرأينا الإعجاز فى جميعها على حـــد واحد لا يختلف وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتاً وتبيناً . ويختلف اختلافاً كبيراً ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة ، فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت ، بل هو نهاية البلاغة ، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر ، لأن الذى يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير عند التكرار وعند تباين الوجوه .

ونرى من هذا أن الإجماع على أن القرآن كتاب الله لا تتفاوت عباراته[2] لأنه من عند الله الذى لا تفاوت بين الأشياء عنده ولا فرق

---

(١) الاسراء : ٨٨

(٢) الإعجاز ص ٥٥ ، ٥٦

فى البلاغة بين ما كانت الحقائق فيه تذكر مجردة عن التشبيه ، والمجاز .

ولنذكر بعض آيات الأحكام التى تذكر الأحكام مجردة ، اقرأ آية المحرمات قال الله تعالى: «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ، إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا ، حرمت عليكم أمهاتكم ، وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة ، وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن ، فلا جناح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف ، إن الله كان غفوراً رحيما ، والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم ، كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم ، أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ، فما استمتعتم به منهن ، فآتوهن أجورهن فريضة ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ، إن الله كان عليما حكيما ، ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ، ولا متخذات اخدان ، فإذا أحصن ، فإن أتين بفاحشة ، فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ، ذلك لمن خشى العنت منكم ، وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم[1] » .

هذه آية من آيات الأحكام لم يستعمل فيها المجاز ، ولا التشبيه ، ومع ذلك هى بالغة من البلاغة حد الإعجاز القرآنى فالتآخى بين الألفاظ والمعانى ثابت ، حتى إن كل كلمة فيها حكم ، تومىء إلى التى تليها ، مع بيان الحكمة الشرعية ، والتعليل لبيان المحرمات التى حرمها وكانت حلالا فى الجاهلية فى زعمهم ، كزواج من كانت زوجة لأصل من أصوله ، وابتدأ بها سبحانه لما لها من خطر وشأن ، إذ يتبين تحريم ما أحلوا بزعمهم وما يبتدأ به الكلام يكون قوى التأثير ، وقد وصفه سبحانه بأنه فحش فى الواقع ، لأنه أمر

(١) النساء : ٢٢ ـ ٢٥ .

غير مألوف فى الطبائع السليمة ، والأخلاق الكريمة ، وأنه ممقوت عند الناس لا يفعله رجل يألفه الناس ، بل يمقتونه ، ولذلك كان يسمى عند العرب (نكاح المقت) ، فمع أن الجاهلية ما كانت تحرمه بزعمها ، كانت تكرهه وتمقته ، ولا يفعله الكرام .

ولما جاء النص الكريم بتحريم الامهات ، وهن الأصول من عل استشرفت النفس لمعرفة حال البنات ، أتحل أم تحرم ، فجاء التحريم فى وقت الاستشراف إليه ، والتطلع نحوه ، فكان البيان وقت الحاجة إليه وكذلك الأخوات وهن أولاد الآباء والأمهات ، والعلاقة بين تلى العلاقة بالأولاد ، ثم جاء من بعد أولاد الأبوين ، وهن الأخوات ، أولاد الأجداد ، وهن العمات ثم الخالات فكانت كل طائفة ممهدة لذكر التى تليها ، تجذبها إليها بمقتضى تداعى المعانى ، كل معنى يدعو أخاه ، وكل واحدة تلتحم مع أختها فى تآلف لفظى ، وتآخ معنوى .

ولقد كانت المرضع تعد أماً ، كالأم النسبية ، لأن هذه إذا كانت قد حملته فى بطنها ، وغذته من دمها جنيناً فتلك قد وضعته فى حجرها وغذته من لبنها رضيعا وأنشزت عظامه ، وأنبتت لحمه ، كما كانت الأولى ، فكان من تداعى المعانى ، أن يذكر فى إيجاز غير مخل ، الأمهات الرضاعيات من أولادهن ، ومن التقى معه على ثدى واحد .

وكان من مقتضى التناسق المعنوى أن تذكر بعد صلات النسب الصلات السببية ، وهى المصاهرة فابتدأ بأمهات الزوجات ، ثم اتجه الذهن بعد تحريم أمهات نسائكم إلى الربائب ، لأنه إذا ذكرت الأم تطلعت النفس إلى ذكر حكم البنت ، فذكر بعد تحريم أمهات الزوجات ما يتعلق بتحريم بنات النساء ، وهن الربائب ، وذكر حكمة التحريم وهو أنهن فى حجره وكبناته .

وإذا ذكرت أمهات الزوجات ، وبناتهن ، وزوجات الآباء ، يكون لتتميم القول ، ولما يستدعيه قانون تداعى المعانى أن تذكر زوجات الأبناء أهن حلال ، أم لا .

وهكذا نرى أن المعانى كل واحدة تدعوها السابقة فتلاحقها فى اتساق ونسق جامع .

وكل ذلك فى نغم متآخ ، وفى صور بيانية من مجموع القول ، فعندما تقرأ الآيات من أولها إلى آخرها ، تجد صورة بيانية ، لأسرة متكاملة ، ليس فيها تقاطع ، بل فيها تراحم ، وتواصل ومحبة ومودة فما كان ذلك التحريم إلا لتكون المودة هى الواصلة فلا يفحش ابن مع أبيه ، ولا يمقت ولد أباه ، ولا يعتدى أب على ابن .

وإن ما اختص به القرآن من تقابل بين الحقائق فى البيان ، وتوافق فى العبارات من غير منافرة ، ولا معاضلة ، متحقق ثابت لا مجال لإنكاره ، وما اختصت به العبارات من إشراق وضياء ، تجده منيراً حول الكلمات .

وإذا كنا قرأنا آيات الزواج وتكوين الأسرة ، فلنقرأ حكم الله إذا تنافر ودها ، وأصبح التفرق بينهما أمراً لا بد منه ، « وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته » فقد قال تعالى :

« يأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله ، فقد ظلم نفسه ، لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ، فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوى عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر . ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله

بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً ، واللائى يئسن من المحيض من نسائكم . إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن ، وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا . ذلك أمر الله أنزله إليكم ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ، ويعظم له أجرا ، أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ، وإن كن أولات حمل ، فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ، فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ، وأتمروا بينكم بمعروف ، وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه ، فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا »(١) .

وترى من هذه النصوص القرآنية أنها تضمنت أحكاما كثيرة ، تضمنت أحكام الطلاق وأحكام العدة ، وأحكام الرجعة ، وأحوال المعتدات وتضمنت بعض أحكام الرضاعة ، وأحكام النفقات بين الأزواج ، وخروج المعتدات من بيوتهن .

وهنا نلاحظ ملاحظة نفسية قد نبه إليها القرآن الكريم فى ألطف تعبير وأعطف نص وكأنه بلسم لشفاء نفوس مجروحة ، قد أرثتها حرقة الألم بسبب الفراق ، ذلك أن الآيات موضوعها الطلاق وهو لا يكون إلا إذا تعذر الوفاق ، فالنفوس تكون مضطربة ، واليأس يكون مخيما ، والعلاقات تكون فى حال يائسة ، ولذلك نجد فتح باب الأمل لتلك النفوس التى اعتراها يأس من الحياة الزوجية السليمة . إذ يقول سبحانه بعد وضع الحدود ، وأن من يتعداها يظلم نفسه « لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا »(٢) ، ثم يبين سبحانه وتعالى العدة ، ويبين أنها فيصل تفرقة ، أو عودة ، وأن المطلوب إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، ويذكر أن الأمر قد يكون فى طياته ما يخرج

---

(١) الطلاق : ١ — ٧ (٢) الطلاق : ١

النفوس من مضطرب الخلاف إلى متسع الوفاق ، فيقول سبحانه ، « ومن يتق الله يجعل له مخرجا »[1] من ذلك المزدحم الذى تعترك فيه الأحاسيس والمشاعر بين عشرة طيبة أو فرقة لا ظلم فيها ، ويقول سبحانه وتعالى فى ذلك المقام أيضاً «قد جعل الله لكل شىء قدراً »[2] وبعد أن يبين سبحانه وتعالى العدة للآيسة من الحيض ، ومن لم تره ، وهى ثلاثة أشهر ثم يبين عدة الحامل ، بعد أن بين عدة الحائل هنا، ويقول لنفوس محرجة آسفة حزينة عرفت الحاضر والماضى قد فات إن خيرا وإن شراً ، وهى تجهل القابل ، فهى تجهل ما يطويه ، فيقول سبحانه « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا »[3] ويذكر سبحانه وتعالى وجوب النفقة فى مواضع وجوبها ، وأحوال وجوبها ، والإرضاع ، ووجوبه ، ثم يبين مقدار الواجب ، على أن يكون على قدر طاقته ، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره، «لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً »[4] .

وهكذا نجد العبارات القرآنية السامية فيها طمأنة النفس على ما يطويه المستقبل ، فيجعل لهم رجاء بمخرج يخرجهم ، أو يجعل من أمره يسرا ، وإن هـذا النوع من القول هو الذى يقال عندما تتأزم النفوس ، وتتقطع العلاقات بعد ود كان دائما أو كان يرجى له الاستمرار ، ويشترط لتحقق ذلك الذى الأمر فرج الله به الكروب التقوى والعمل الصالح ، وإن هذين إذا تحققا فى تلك الحال طابت النفوس ورضيت بالواقع إن لم يكن منه مناص وغيرته بالإيمان إن كان ثمة محل للتغيير .

وإن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ليعلم الذين يرون أسرة قد ضاقت صدور أهلها حرجا، واستولى عليها من الحياة الزوجية الصالحة يأس وغلبت شدتها ، وذهب رخاؤها أن يفتح باب الرجاء فيها بعد إغلاق الآمال، وأن

---

(١) الطلاق : ٢ (٢) الطلاق : ٣

(٣) الطلاق : ٤ (٤) الطلاق : ٧

يكون ميسراً ، ولا يكون معسرا ، وأن يكون مبشرا ، ولا يكون منفرا .

وإن تلك النصوص القرآنية السامية تجد فيها البلاغة التى تصل إلى أعلى الدرجات فى ذاتها لا فى نسبتها، فابتدأ الله تعالى الخطاب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم خاطبت المسلمين من بعد مواجهته ، وخوطبوا بالجمع للإشارة إلى تكافل جمعهم ، وتضافرهم وتعاونهم على البر والتقوى فى المواطن الحرجة ، والاستعانة بالمشورة والرأى ،وقد أمر بالرفق بالمرأة ، فلا يطلقها إلا وهى متصلة بحال العدة ، لكيلا يرهقها بإطالتها ، فتكون بين اليأس والرجاء فى قلق نفسى ، وهكذا استمرت الأحكام الرفيقة تبين الآيات منها حكما بعد حكم .

وجمال التعبير يشرق دائماً ، وحلاوة النغم تنساب فى النفس انسياب النمير العذب، كما تنطلق الأحكام إلى العقل والقلب فى اتعاظ واعتبار واهتداء إلى الحق وفى انسجام فكرى .

وإذا كان سرد الأحكام خصوصاً فى موضع دقيق كأحكام الأسرة يكون بادى الرأى فى كلام الناس جافا غير مشرق ، فإن ذلك فى كلام الناس أما فى كلام الله تعالى فإنه مشرق طيب الأعراق ، واضح القسمات فى نغم هادىء يطب للقلوب جفاؤها،فيذهب وللنفوس فيتقى الشح ، وهو عظة وهداية وتوجيه إلى العدل المطلق المنظم للأسرة فى سلامتها وبقائها ، وفى فصلها وانتهائها ، وسبحان الله العليم الخبير .

التشبيه فى القرآن

١٠٥ — انتهينا إلى أن التشبيه فى القرآن ليس هو مقياس البلاغة، لأن البلاغة القرآنية العالية كما تكون فى حال التشبيه والاستعارة والمجاز، تكون أيضاً فى الكلام الخالى من كل هذا وأخص ما يكون ذلك فى آيات الأحكام، وقد يكون فى القصص والاستدلال، وغير ذلك مما نعرض له، وقد تلونا عليك آيات من آيات الأحكام، وجدنا فيها النص الكريم فى حقائقه، وفى بعده عن كل المحسنات البديعية أعلى من كل كلام، وهو بديع فى ذاته من غير حاجة إلى البديع الصناعى، أو الاصطلاحى، فإنه فوق قدر البشر، وفوق ما يصطنعه البشر، وما يصطلح عليه العلماء، وإنه يتعلم منه، وإن كان لا يحاكى، ويؤخذ منه، وإن كان الوصول إلى مقامه غير ممكن.

ولنتكلم الآن فى تشبيه القرآن.

لقد ذكر الرمانى فى رسالته النكت فى إعجاز القرآن: «التشبيه هو العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر فى حس أو عقل وإن ذلك التعريف يضع المشبه والمشبه به فى مرتبة واحدة، وإنى لا أرى ذلك، ولا يراه علماء البلاغة الذين جاءوا بعد أبى الحسن الرمانى المتوفى سنة ٣٨٦هـ - فإنهم يعرفونه بأنه جعل أحد الشيئين فى مقام الشىء الآخر لأمر مشترك بينهما. وهو فى ثانيهما أقوى مظهراً أو أبين مخبراً، كما تقول على كالأسد فى الشجاعة، فهو فى الأسد أظهر، ولا يمكن أن يقال: «إن أحدهما يسد مسد الآخر، صورة أو معنى».

ولنترك التعريف مع رأينا فيه، ولننظر فى قوله من بعد، فهو يقول: «وهذا الباب يتفاضل فيه الشعراء، وتظهر فيه بلاغة البلغاء، وهو على طبقات فى الحسن، فبلاغة التشبيه الجمع بين شيئين بمعنى يجمعهما، والأظهر

الذى يقع فيه البيان بالتشبيه على وجوه ، ويذكر وجوه التشبيه وأنواعه فيقول فى ذلك :

« منها إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة ، ومنها إخراج ما لم تجربه عادة إلى ما جرت به عادة ، ومنها إخراج مالا يعلم بالبديهة إلى مايعلم بالبديهة ، ومنها إخراج مالا قوة له فى الصفة إلى ماله قوة فى الصفة ، فالأول نحو تشبيه المعدوم بالغائب ، والثانى تشبيه البعث بعد الموت بالاستيقاظ بعد النوم ، والثالث تشبيه إعادة الأجسام بإعادة الكتاب ، والرابع تشبيه ضياء النهار » .

ولاشك أن هذه الوجوه لا تشمل كل أقسام المقسم ، فمن التشبيهات ما ليس بوجه من هذه الوجوه كتشبيه غير الواضح بالواضح كما ترى ذلك فى كثير من الآيات القرآنية ، وكالتشبيه الذى يقصد به بيان ما أكنه سبحانه وما خلق وما دبر فهو تقريب بالمغيب عنا إلى المعلوم لنا، وماعند الله أعظم وأكبر ، وقد يكون التشبيه لتقريب المعنى الكلى من المعنى الجزئى أو لتصوير المعنى الكلى فى بعض جزئياته ، كقوله تعالى « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون (١) فإنه كان عقد المشابهة بين المعنى الكلى ، وهو المعنى الجامع الذى يوضح به الحقائق بالأمثال التى ضربها وبينها للناس ، ومن ذلك الأمثال التى تضرب لتقريب أصل الخلق والتكوين من عقول المكلفين ، وهكذا وقد يكون هذا يتضمنه مطوى كلامه ، ولكنه غير بين .

ولقد قسم أبو الحسن الرمانى التشبيه بالنسبة للغرض منه إلى قسمين فيقول التشبيه على وجهين تشبيه بلاغة وتشبيه حقيقة ، فتشبيه البلاغة كتشبيه أعمال الكفار بالسراب ، وتشبيه الحقيقة نحو هذا الدينار كهذا الدينار فخذ أيهما شئت» .

---

(١) الحشر : ٢١

ونحن نقول إن ذلك التقسيم يجوز أن يكون بالنسبة لكلام الناس، أما القرآن الكريم، فإن كل تشبيهاته، فيها البلاغة وفيها الحقيقة، والمثل الذى ذكره وإن كان فى أعلى درجات البلاغة هو الحقيقة، فإن التشبيه صادق فى الواقع لأن أعمال الذين كفروا هى السراب الذى ليس له واقع، ولكنه وهم يسيطر بإبصار ضال، فكما أنه لا جدوى والمتعلق به لا يتعلق بأمر واقع، فكذلك إذا رأوا أن أعمالهم فيها خير يعود عليهم فهم واهمون، والصفة المشتركة فى التشبيهين هى أن الوهم وهو ما ليس واقعاً وتصوروه على أنه واقع، فقد تصوروا أن أعمالهم حسنة، إذ زينت لهم أمراً فظنوها أمرا حسنا، كمن يرى السراب فيحسبه ماء وهو ليس بماء.

ولذلك نقول إن الوجهين محققان فى كتاب الله تعالى، ففى التشبيه القرآنى الحقيقة الصادقة، والبلاغة القائمة المعجزة. وقد أتى بالأمثلة على وجه التشبيه التى ذكرها، وتبعه الباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن، فلا ضير علينا إذا تابعناه، كما تابعه من كان عصره على مقربة من عصره.

١٠٦ — وقد ذكر الرمانى، وتبعه الباقلانى مثلا للتشبيه الذى شبه فيه ما لا يقع عليه الحس بما يقع بقوله تعالى «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً»(١).

هذا ما ساقه الرمانى من الآية، ولنتمه ببيان ما فيها من تشبيه، فقد قال تعالى بعد ذلك «ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب، أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور»(٢).

وقد علق الرمانى على التشبيه الأول فى الآية الأولى، فقال: «وهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة، وإن اجتمعا

---

(١) النور: ٣٩ (٢) النور: ٣٩ — ٤٠

فى بطلان التوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة ، ولو قيل يحسبه الرائى ماء ثم يظهر أنه كان على خلاف ما قد رأى لكان بليغاً ، وأبلغ منه لفظ القرآن لأن الظمآن أشد عليه حرصاً ، وتعلق قلب به ، ثم بعد هذه الأمنية حصل على الحساب ، الذى يصيره إلى عذاب الأبد ، نعوذ بالله من هذه الحال ، وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه فكيف إذا تضمن ذلك حسن النظم وعذوبة اللفظ ، وكثرة الفائدة ، وصحة الدلالة » .

ولم يبين لنا الرمانى ، لماذا كان تعبير القرآن فى التشبيه حيث يرى السراب ، أبلغ من أن يقال يحسبه الرائى ماء ، لم يبين بوضوح أوجه ذلك ، ونرى أن قول القائل يحسبه الرائى ماء يفسد التشبيه ، ولا يفيد الحاجة ، لأن النص فيه ما يفيد الرغبة فى طلب الماء وشدة الحاجه إليه ، وذلك محقق فى المشبه ، إذ أن الذين كفروا بآيات الله فى وقت حاجتهم إلى عمل صالح يظنون أن عملهم هذا منه وهم محتاجون إلى ما يتقدمون به إلى ربهم من عمل صالح فهم فى وقت حاجة إلى عمل صالح ، كالظمآن يطلب الماء .

وإن التشبيه يدل على حيرة الكافرين ، حتى يتوهموا ما لا يقبل الوقوع واقعا وقد أكد حيرتهم ما جاء بعد ذلك ، إذ يقول سبحانه وتعالى : « أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور(٢) » .

فإذا كان التشبيه الأول شبه حالهم بحال من يتوهمون فى عملهم خيرا ، فيكونون كالظمآن يحسب السراب ماء لحيرتهم ، واضطرابهم وحاجتهم إلى الماء ، فالمثل الثانى يصور حيرتهم ، بسبب أنهم فى ظلام دامس فقد شبه

---

(١) النور : ٤٠

سبحانه وتعالى حالهم من حيث الحيرة والتباس الأمور عليهم ، وانقطاع الأمل وأنهم يظنون الخير حيث لا مظنة ، أعمالهم بظلمة حالكة فوقها ظلمة مثلها ، وفوق هذه الظلمات سحاب يوجد غمة . فليست أعمالهم خيرا ولكنها شر عظيم عليهم ، وهم يضاعفون من الظلمات بتوالى أعمال الشر فيهم ، وسيرهم في طريق الغى الذى لا حد له ، وقد تكاتف عليهم سوء مافعلوا .

وخلاصة ما يستنبط من التشبيهين أنهم فى حيرة يطلبون ما ينجيهم فلا يجدونه ، وإذا توهموه فى أمر زال الوهم بالحقيقة المبصرة ، وأنهم بسوء أعمالهم فى ظلمات بعضها فوق بعض وهى فى نفوسهم ، ومايحيط بهم ظلمه داكنة لايجدون بصيصا من الأمل يفتحون أعينهم لرؤيته .

والتشبيهان يعطيان صورتين من البيان ، تدلان على كمال الحيرة وكمال الظلمة ، فالمثل الأول يعطى صورة عطشان يطلب الماء ، فيتوهمه فى سراب فيجرى وراءه عطشان صادياً ، حتى إذا أجهدته المشقة وبعد الشقة لا يجد شيئاً ، والثانى يعطى صورة لشخص كانت عليه الظلمات توضع واحدة فوق واحدة ، وإذا كانت فيها فرجة يرجو منها الرؤية لا يصل إليه النور للسحاب الذى به كأنه الغمة ، ومن تشبيه الأمر غير المحسوس بالأمر المحسوس ، كالمثل السابق فى قوله تعالى : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد[١] » .

ويقول الرمانى فى التعليق على التشبيه « فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة ، فقد اجتمع المشبه والمشبه به فى الهلاك وعدم الانتفاع ، والعجز عن الاستدراك لما فات ، وفى ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة » هذا كلام الرمانى ، وهو صدق ، وإنى

(١) إبراهيم : ١٨ .

أذوق من التشبيه شيئاً بيانياً آخر ، ذلك أن أولئك الكافرين كانوا يحسبون أن أعمالهم لها أثر فى الوجود فى زعمهم . ويتوهمون وقوع ذلك وأنهم قدموا ، ولكنهم يفاجئون بريح شديدة فى يوم عاصف ، تبدد ما كانوا عليه من أحلام ، كانوا يتوهمون أن مالهم فى الدنيا ينفعهم ، فلما جاء يوم القيامة بددت أحلامهم ، فتقدموا عاطلين فى حلبة العمل الطيب وكان ذلك هو الضلال البعيد ، لأنهم زعموا باطلا ، ثم رأوا الحقيقة عيانا وفى ضمن القول عبر عن عملهم بأنه سراب ، أى أنه شىء ليست له قيمة ذاتية بل هو هباء فى ذاته .

١٠٧ — وقد جاء الرمانى بمثل فيه تشبيه ما لم تجر به العادة بما تجرى به العادة ، وهو قوله تعالى فى توثيق الميثاق على بنى إسرائيل « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ، خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون[1] ، ويقول فى ذلك الرمانى « وهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما جرت به العادة ، وقد اجتمعا فى معنى الارتفاع فى الصورة ، وفيه أعظم الآيات لمن فكر فى مقدورات الله تعالى عندمشاهدته لذلك أو علمه به ، ليطلب الخير من قبله ، ونيل المنافع بطاعته » .

هذا ما ذكره الرمانى فى معنى التشبيه . وهو تشبيه ما لم تجر به العادة ، إلى ما جرت به العادة ، كأن التشبيه كان لغرض تقريب المعنى ، وتصوير الغريب كأنه قريب ، وذلك فى تشبيه الجبل مرتفعاً كأنه ظلة ، وهذا المعنى فى ذاته صحيح ولكنه فيما أعتقد ، لا يصور معنى التشبيه من كل الوجوه ، لأن رفع الجبل كان لتوثيق الميثاق عليهم ، وحملهم على الأخذ به وإثبات قدرة الله تعالى ، وإلقاء المهابة فى قلوبهم ، فالتشبيه بالظلة للدلالة على الإحاطة وتصويره لهم كأنه نازل بهم واقع عليهم ، ليعرفوا أن ميثاق الله له رهبته وأن عليهم طاعته ، ولذلك قال سبحانه بعد أن رأوا الجبل مرفوعا عليهم

---

(١) الأعراف : ١٧١ .

وأنه محيط بهم « خذوا ما آتيناكم بقوة — أى بعزم شديد — واذكروا مافيه لعلكم تتقون » .

ومن هذا النوع الذى ذكره الرمانى قوله تعالى : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ، وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً ، فجعلناها حصيداً ، كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات ، لقوم يتفكرون »(١).

وقد خرج الرمانى التشبيه كالآية السابقة فى نظره ، فقال : « قد أخرج ما لم تجر به العادة ، إلى ما جرت به العادة ، وقد اجتمع المشبه ، والمشبه به فى الزينة والبهجة ، ثم الهلاك بعده ، وفى ذلك العبرة لمن اعتبر ، والموعظة لمن تفكر فى أن كل فان حقير ، وإن طالت مدته ، وصغير ، وإن كبر قـــدره » .

وما ذكره الرمانى حق فى إيجازه ، ولكنه ناقص ونوضحه بعض التوضيح فنقول إن التشبيه تصوير للحياة ، فإن مثلها فى بهجتها ومسراتها ، وهناءتها والسعادة فيها مهما تبلغ من المظهر البهى ، والزينة الباهرة ليس لها بقاء ، وإنما مآلها إلى الفناء ، كمثل الماء ينزل من السماء فينبت النبات الذى يأكل منه الناس مستمتعين ، والأنعام والدواب ، وإنه إذ يبلغ أقصى زخرفه ونضرته ومتعته ، وامتلاء أهل الأرض بالغرور ، وظنوا أن كل شىء فى قبضة أيديهم جاءهم أمر الله ، فصار النبات هشيما ، والإنسان رميا كأن لم يقم أحد بالأمس .

وإن ما ذكره الرمانى صادق فى إيجازه ، ولكنه لا يصور الصورة التى يدل عليها التشبيه ، وهو يريك الحياة كالعروس فى جلوتها ، ثم كالهشيم فى صغاره .

---

(١) يونس : ٢٤

ومن التشبيهات التى ساقها الرمانى قوله تعالى : « إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر »(١)

ويقول الرمانى فى بيان وجه التشبيه ، وهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ماقد جرت به عادة وقد اجتمعا فى قلع الريح لهما وإهلاكه إياهما وفى ذلك توحد الآية الدالة على عظيم القدرة ، والتخويف من تعجيل العقوبة .

وإن هذا القدر الذى ذكره الرمانى متحقق ، ولكن لا يمكن أن يكون وجه التشبيه هو تشبيه مالم تجر العادة به بما جرت به العادة فقط ، إنما الألفاظ والأسلوب ، وما يثيره من صور بيانية تعلو به عن أن يكون لمجرد إثبات مالا تجرى به العادة إلى ماتجرى . إنما المقصود من التشبيه فيما نحسب تصوير عذاب الله تعالى ، فالله تعالى أرسل عليهم ريحاً شديدة البرد ، فى يوم كله بأس وشدة ، وهو كالنحس عليهم ، طويل فى آلامه ، ومستمر فيها ، ولو كان فى الزمن قصيراً ، ثم يصور الله تعالى نزع المشركين من غرورهم واعتزازهم بمالهم وطغوانهم ، وينزعون بعنف شديد لا يقوون فيه على الامتناع ولا الإصرار على البقاء ، كما تنزع مؤخرات وجذور نخل غاصت جذوره فى أعماق الأرض .

هذا بريق التشبيه المرعد الذى يصور ما ينزل بالمشركين الذين طغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد .

ومن التشبيهات التى ذكرها الرمانى على أنها تقرب مالم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة ، قوله تعالت كلماته « فإذا انشقت السماء ، فكانت وردة كالدهان(٢) » .

---

(١) القمر : ١٩ ، ٢٠

(٢) الرحمن : ٣٧ .

وقال فى التشبيه قد أخرج مالم تجربه عادة إلى ماقد جرت به عادة ، وقد اجتمعا فى الحمرة وفى لين الجواهر السيالة ، وفى ذلك الدلائل على عظم الشأن ونفوذ السلطان لتنصرف الهمم إلى ما هناك بالأمل .

وإن تصوير التشبيه ، وقصره على ذلك الوجه ، وهو تشبيه مالم تجربه عادة إلى ما تجرى به عادة ربما يكون غير مصور لمعنى التشبيه ، وما يثير من صور .

إن التشبيه تصوير لما يقع إذ تقوم القيامة ، فالسماء ذلك البناء الذى تجرى فيه الكواكب والنجوم ، كل فى مساره ، وهى البناء الذى بناه الله تعالى شامخاً عظيماً ذا بروج صار وردة كالدهان .

وفى ذلك تصوير للدنيا إذ تقوم القيامة ، فتكون السماء لينة كالورد الذى يشبه الدهن مبالغة فى ليونته التى تصل إلى حد السيولة .

١٠٨ — ويسوق الرمانى أمثلة أخرى يتبين فيها تشبيه ما لم يعلم إلا بالنظر بما يعلم بالبداهة من غير محاولة نظر واستدلال ، ومن ذلك قوله تعالى: « وجنة عرضها كعرض السماء والأرض[1] » ، ويقول فى التشبيه هنا ، « قد أخرج مالا يعلم بالبداهة إلى ما يعلم ، وفى ذلك البيان العجيب بما قد تقرر فى النفس من الأمور ، والتشويق إلى الجنة بحسن الصفة مع مالها من السعة وقد اجتمعا فى العظم » .

وإنا نجد الآية الكريمة فى تشبيهها ليست من قبيل تشبيه ما لا يعلم بالبداهة بما يعلم بالبداهة ، فإننا نرى أن كليهما لا يعلم بمجرد البداهة ، بل يعلم بالنقل المصدق ، فهما سواء فى صلتهما بالعلم الضرورى ، وإنما إذا قيل إن المراد تصوير المعقول بما يتصور أن يكون مشهوداً محسوساً ،

---

(١) الحديد : ٢١

والجميع بإخبار الله تعالى ، لا بمجرد النظر ، سواء كان الأمر ضرورياً أم نظريا . وإننا إذا تلونا ماقبل هذا النص وما بعده وهو قوله تعالى : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم[1] » .

ونرى من هذا أن المراد السعة فى النعمة ، وإن السعة فى النعمة كالسعة فى المكان ، وهى تدل عليه ، والمراد من الكلام كله الحث على طلب مغفرة الله تعالى ، وإن الكلام كله يصور الجنة ، بأنها خير الوجود كله ، وأنها أوسع ، وأنه إذا كانت النار تسع كل المجرمين ، لأن لها سبعة أبواب لكل باب جزء مقسوم ، فالجنة تسع المتقين الأبرار ، لأنها واسعة عريضة كعرض السماء والأرض .

ومن التشبيه الذى ذكره الرمانى على أنه تشبيه ما لا يعلم بالبداهة إلى ما يعلم بها قوله تعالى « مثل الذين حملوا التوراة ، ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً »[2] ثم قال : « وهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة ، وقد اجتمعا فى الجهل بما حملا ، وفى ذلك العيب لمن ضيع العلم بالاتكال على حفظ الرواية من غير » ولسنا نرى فى الكلام ما يدل على أن المشبه لا يعلم بالبداهة ، والمشبه به يعلم بالبداهة. إن الذى نراه ليس علم الرواية وعلم الدراية ، إنما الذى تتجه إليه الآية الكريمة فى صدرها ونهايتها ، هو تشبيه علم لا يقرنه العمل ، بعدم العلم ، فهم يحملون علماً لا ينتفعون به عملا ، بل يعملون بنقيضه ، يحملون علم الهداية ولا يهتدون ، كمثل الحمار يحمل أسفاراً .

وكان تشبيههم بالحمار الذى يحمل أسفاراً وهو غير صالح

---

(١) الحديد : ٢١ (٢) الجمعة : ٥ .

للانتفاع ، وفى التعبير القرآنى إشارة بيانية تبين أن العمل هو ثمر العلم ، ولا يقال إنه قد ناله من أخذه من غير عمل ، وذلك قوله تعالى « حملوا التوراة ثم لم يحملوها» إن الله حملهم التوراة علماً لأجل العمل ، فعلموها ولم يعملوا بها . فكانوا غير حاملين .

١٠٩ — وقد ساق الرمانى من تشبيهات القرآن تشبيهات فيها المشبه يكون أضعف صفة من المشبه به فيلحق به لأنه أقوى صفة منها ، ومن ذلك قوله تعالى « وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام »[١] ويقول فى ذلك « فهذا تشبيه قد أخرج مالاقوة لهفى الصفة إلى ماله قوة فيها ، وقد اجتمعا فىالعظم إلاأن الجبال أعظم ، وفى ذلك العبرة من جهة القدرة ، فيما سخر من الفلك الجارية مع عظمها ، وما فى ذلك من الانتفاع بها ، وقطع الأقطار البعيدة فيها » وإن ذلك الكلام حق، فإنه إذا كان الجمع بين المشبه والمشبه به القوة ، فالجبل أقوى ، وإذا كان الظهور فالجبل أظهر . ولكن يلاحظ أن المقصود من التشبيه لا يعنى به الرمانى كثيراً ، بل تكون عنايته بالأوصاف الظاهرة ، أو المقاصد القريبة . وإن المقصود فى هذا السياق هو بيان سر الله تعالى فى خلقه وتسخيره للإنسان ، فإنه إذا كانت الجبال والأوهاد وجدها الإنسان كذلك ، وهى رواسى الأرض ، وبها ثباتها ، فإن الجوارى، وهى السفن التى تقارب فى علوها وفى قوتها وأثقالها الجبال تجرى على الماء وهو يحملها مع أنه سائل لا صلابة فيه ، وتجرى فيه ، وتنقلهم إلى بلد لم يكونوا واصلين إليه بغيرها ، فقدرة الله تعالى فيها أظهر ، لأنها منشأة ترى نشأتها ، وهى تجرى بأمر الله تعالى ولا يجرونها .

ويضرب الرمانى مثلا فيما يجرى فى المعنويات ، ومن ذلك قوله تعالى « أجعلتم سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم

---

(١) الرحمن : ٢٤ .

الآخر »(١) . ثم يقول : « وفى هذا إنكار لأن تجعل حرمة السقاية والعمارة كحرمة من آمن بالله وكحرمة الجهاد ، وهو بيان عجيب وقد كشفه التشبيه بالإيمان الباطل والقياس ، وفى ذلك الدلالة على تعظيم حال المؤمن بالإيمان ، وأنه لا يساويه مخلوق على صفته فى القياس . ومثله قوله تعالى « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات »(٢) .

ونجد الرمانى فى المثال يأتى بالتشبيه منفياً مستنكراً ، كما أتى به محققاً موجباً ، فإن الاستفهام هنا لإنكار الواقع ، فهم قد آثروا أن يكونوا عامرين للبيت ، قائمين بالسقاية والرفادة ، وتنافسوا على ذلك زاعمين أن فيه الخير كله ، وأنه قد يغنيهم عن الإيمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيله ، بل يزعمون أنهم بسدانة البيت الحرام ، والقيام على السقاية والرفادة أفضل ممن آمن بالله وجاهد فى سبيله . والحقيقة أنهما لا يستويان ، فالإنكار للمشابهة والتساوى بينهما فضلا عن اعتبار السقاية والعمارة أفضل وأشرف. والله سبحانه وتعالى أعلم .

هذا ماساقه الرمانى من وجوه التشبيه ، وقد نقلناها ، كما نقلها الباقلانى لأنها وجوه لها اعتبارها ، ولأن فيها ضبطاً لأقسام التشبيهات القرآنية ، وإن كانت غير شاملة لكل الأقسام ، بل إنها ذات وجوه شتى .

ولكنه لم يتعرض إلا قليلا لأغراض التشبيهات ومراميها ، وماتصوره من صور بيانية ، وما تتجه من بسط للمعانى النفسية ، وتوجيه للحقائق الكونية والروحية ، ووصف للملائكة الأطهار ، والآدميين الأخيار .

ولنضرب بعض أمثلة لتشبيهات القرآن الكريم التى تجعل فيها المعانى كأنها صور محسوسة لافتة العقول إلى الكون ومافيه ، اقرأ قوله تعالى فى تشبيه المنافقين وترددهم بين الحق والباطل ، وظهور ضوء الحق ، وعمى بصائرهم عنه ، فقد قال تعالى :

---

(١) التوبة : ١٩ . (٢) الجاثية : ٢١ .

« مثلهم كمثل الذى استوقـد ناراً ، فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لا يبصرون [١] » ، وترى هنا تشبيه حال المنافق المضطرب بين الحق والباطل ، ولـكن يريد الحق تابعاً لهواه ، فهو يطلبه ليستضيء بنوره ، ولـكن ماأن يبدو النور ، حتى يصاب بالعمى بسبب الهوى الذى يسيطر على قلبه ، فيضيء النور ماحوله ، ولا يستضيء به ، وهو الذى استوقد النار ، ثم ينتهى أن يصير كالصم الذين لا يسمعون ، لأنه لا يستمع لنداء الحق ويصير كالبـكم ، لأنه لا ينطق بالحق الذى يجب عليه أن ينطق به ، وكالأعمى الذى لا يميز بين الأشياء لأنه وقد طمس الله تعـالى على بصيرته ، فأصبح لا يميز بين باطل استهواه لفساد قلبه ، وحق قامت البينات عليه ، وفى الحـكم عليهم بالصم والبـكم والعمى تشبيهات فردية ، وهى تقوم على التشبيه .

والتشبيه فى هذا النص تشبيه حال بحال ، والآية صريحة فى ذلك لأن الله تعالى يقول : « مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً » أى حالهم كحال الذى استوقد ناراً ، فهو تشبيه تمثيلى شبهت حال المنافقين ، وأكثرهم من اليهود فى كونهم كانوا يتطلعون إلى نبى قدحان حينه ، وأدركهم إبانه ، فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به ، فلما بدا الضوء أضاء من حولهم ، ولم يستضيئوا هم به ، فلم يهتدوا بقول سمعوه ، ولا نطقوا بحق عرفوه ، ولا استرعتهم بينات رأوها فكانوا صما بكما عمياً .

وقد ضرب سبحانه وتعالى فى السياق القرآنى مثلا بتشبيه آخر ، يمثـل جانباً من جوانبهم ، فقال بعـد التشبيه الأول « أو كصيب من السماء فيـه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ، يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظـلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، إن الله

---

(١) البقرة : ١٧

على كل شيء قدير (١) » .

وفى هـذا المثل شبه سبحانه وتعالى حالهم بأمرين : كل واحد منهما تشبيه قائم بذاته ، أولهما : أنه سبحانه وتعالى شبه حالهم بحال قوم أصابهم مطر شديد ينصب عليهم انصباباً ، صحبه غمام بعد غمام فيه ظلمة بعد ظلمة وفيـه رعد وبرق ، وفيه الإنذار بالعـذاب الشديد ، فهم فى خوف ووجل يحسبون كل صيحة فيها الموت ، ويجعلون أصابعهم فى آذانهم حذر الموت ، وفى هذا تصوير لنفس منافقة ، فهى نفس تائهة فارغة دائمـاً لا تستقر على أمر ، ولا تطمئن على قرار ، فهم فى اضطراب ، لأنهـم لا يؤمنون بشيء ، والإيمان هو المطمأن دائماً . ألا بذكر الله تطمئن القلوب ، وإذا كان التشبيه السابق يصور حالهم فى طلب الدليل وعدم الأخذ به لغلبة الهوى ، وسيطرة الشهوة ، والجحود الموروث ، فهذا التشبيه يصور حالهم من هلع مستمر ، وخوف من غير مخوف ، ولذلك يقول بعض علماء النفس : إن النفاق منشؤه ضعف فى النفوس .

والتشبيه الثانى متفرع عن التشبيه الأول ، وإن كان يصلح تشبيهاً قائماً بذاته وهو ما أومأ الله إليه تعالى بقوله « يكاد البرق يخطف أبصارهم . . » وإن هذا تتميم للأول ، وهو أيضاً قائم بذاته ، فإنه إذا كان الرعد يجعلون أصابعهم فى آذانهم به ، فالبرق الذى يصحب الصيب شديد مفزع له بريق يكاد يخطف أبصارهم ، ولـكن كان هو تشبيهاً لحالهم ، وهى أن المنافق متردد دائمـاً . فالبريق يضيء لهم فيمشون فيه ، ولـكن سرعان ما تظلم عليهم نفوسهم فيقيمون حيث هم من نفاق ، ويختم الله تعالى النص القرآنى فى هذا التشبيه المحكم ببيان قدرة الله تعـالى وسيطرته عليهم وأنه سبحانه لو شاء لأفقدهم سمعهم وبصرهم حقيقة ، كما فقدوا سمـاع الحق استماع انصات ، وإدراكه إدراك طالب للحقيقة .

---

(١) البقرة : ١٩ ، ٢٠

والتشبيه فى هذا المثل كسابقه ، تشبيه تمثيلى ، إنه شبه حالهم فى ضعف نفوسهم والبلبال المسيطر عليهم واضطراب أحوالهم بحال قوم أصابهم مطر لم يكن غيثاً منقذاً ، بل كان مرهباً ومفزعاً ، فكانوا فى خوف واضطراب من غمام مظلم ، وريح عاصف ، ورعد قاصف ، وبرق خاطف وصاروا يجعلون أصابعهم فى آذانهم حذر الموت ، فهو تصوير لضعفهم وفى التشبيه الثانى الذى هو فرع بالنسبة لما قبله تصوير لفزعهم من البرق ؛ وتصوير لكون أسباب الهداية بين أيديهم ، وهى فى ذاتها مضيئة ، ولكنها تظلم عليهم فيقيمون على نفاقهم ، ويستمرون فى غيهم ، والله قاهر فوقهم ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم .

١١٠ — وقبل أن نغادر الكلام فى التشبيه إلى الاستعارة ، وهى لون من ألوانه لابد أن نشير إلى أمور ثلاثة .

أولها — أن التشبيه بلاشك من أسرار الإعجاز ، ويعده الباقلانى من أسباب الإعجاز ، ولكن يعد الكلام فى القرآن من غير مجاز ولا تشبيه بأى لون من ألوانه معجزاً بلغ ذروة البلاغة من غير أن تعرف سبباً واضحاً يدرس على أساسه ، وتتعرف أسرار البلاغة فيه من إشعاعه وليس معنى ذلك أن الإعجاز ليس بيانياً ، بل هو بيانى ، ويبدو ذلك فى تساوق المعانى ، وأخذ الألفاظ بعضها بحجز بعض فى إحكام قول . ونغم ورنين يكون أحياناً شديداً يصك آذان المنذرين ، وأحياناً كأنه نسيم عليل يحيى النفوس ويشفى أسقام القلوب وأحياناً يكون وصفاً عميقاً لخواطر النفوس ، وما يستكن فى القلوب ، وهذه هى البلاغة فى القرآن التى تعلو عن أن توضحها الأفهام كما يرى ضوء الشمس ولا يعرف كنهه ، وكما تحس بالحرارة الدافئة ، ولا تعرف ماهيتها ، والله على كل شىء قدير .

الأمر الثانى — أن تشبيهات القرآن أياً كان وجهها صور بيانية ،

تتضح منها الحقائق الظاهرة ، والمعانى العاطفة ، كأنها أمور محسوسة مرئية ، فإذا كان التشبيه بأمر محسوس كانت الصورة البيانية كأنها مرئية واضحة ، فالتشبيه الأول من تشبيهات المنافقين تقرؤه كأنك ترى رأى العين رجلا استوقد ناراً ، والسين والتاء للطلب ، وهما يدلان على أنه بذل مجهوداً فى طلب الضوء ، وعالج الأمور فى طلب الوقود ، حتى وصل إليه بجهد ومشقة ، ولكن ما أن أضاء حتى ثبت أنه لم يكن فى الضوء فائدة له ، لأنه غلبته شهوته ، فغلبت شقوته ، فكان الضوء لمن حوله ولم يكن له ، فلم ير النور الذى طلبه ، وأصم أذنه عن الحق ، وانقبض لسانه فلم ينطق بحق ، والبيان القرآنى الكريم صور ذلك كأنك تراه ، لا تقرؤه تعالت كلمات الله .

والتشبيه بما تضمن من تشبيه فى آخره ، يريك صورة الضعف ، وما يحدثه النفاق فى النفوس من ضعف يجعلها تطير حول كل مطار ولا تطمئن على قرار ، فهى تسير برعونة نحو المطامع ، وتستخذى وتذل وتخنع أمام المفازع ، وقد شبههم بقوم نزل عليهم مطر ينصب انصباباً ، والظلمات قد صارت كسقف مرفوع فوقهم والرعد بهزيمه يزعجهم ، والبرق يخطف أبصارهم ، وذلك تصوير كأنه المرئى ، وتبيين لمعنى الخوف والاضطراب الذى يسكن قلوبهم ، ويجعلهم بين خوف يؤرقهم ، ومطامع تحركهم ، والشر يحوط بهم فى كل احوالهم .

الأمر الثالث الذى نجده فى تشبيهات القرآن أننا نجده يقرب المعانى ، ويأخذ من التشبيهات الأدلة المفرقة بين الحق والباطل ، اقرأ قوله تعالى : « ضرب الله مثلا عبداً مملوكا لا يقدر على شىء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً ، فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم »[1].

---

(١) النحل : ٧٥ ، ٧٦ .

ونرى أن التشبيه الأول من قبيل التمثيل ، وهو تشبيه حال من يعبد الأصنام إذ يسوى بينها وبين الخلاق العليم — بحال من يجعل العبد المملوك الذى لا يقدر على شىء بحال من رزقه الله تعالى رزقا حسنا ، وهما لا يستويان حالا وشأنا ، والنتيجة لا يستوى صنم لا يقدر على شىء بالله تعالى الذى يملك الوجود كله ، وهو على كل شىء قدير .

وفى التشبيه الثانى كان التشبيه بين حال المشركين فى تسويتهم بين الله القادر ، والحجر الذى لا يضر ، ولا ينفع ، وحال من يسوى بين رجل أبكم وهو كل ، وبين رجل ينطق بالحكم ويقيم العدل لا يستويان ، فلا تصح عبادة الأوثان وتسويتها بالله .

وإن الله سبحانه وتعالى يقرب الحقائق بين قوم حسيين بالمحسوسات ، يضرب الأمثال بالتشبيهات لتقريب الحقائق ، وتوضيح الأدلة بما يقربها ، ولو كان ذلك بالأشياء التى يستحقرها المشركون ، وهى فى ذاتها ليست بحقيرة ، ولكنها جليلة ، لأنها من خلق الله تعالى ، ولقد قال الله تعالى فى ذلك : « إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ، يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ، وما يضل به إلا الفاسقين »(١) .

وبعد فإن القرآن غذاء الأرواح ، ومائدة الله للنفوس مختلف ألوانها ، وكلها طيب الثمرات ، نفعنا الله به ، وجعله درعنا فى الأحداث التى تنزل بنا نأوى عنده ونركن إليه ، ولا نعشو إلا إلى ضوئه .

---

(١) البقرة : ٢٦ .

الاستعارة

١١١ — الاستعارة ضرب من ضروب التشبيه وتكون العلاقة بين المعنى الأصلى للفظ بالوضع الأصلى والمعنى فى الاستعمال المجازى المشابهة ، فإذا قال القائل عن رجل شجاع معبراً عنه بكلمة الأسد ، أو قال عن رجل خطيب شجاع إنه على بن أبى طالب فإن العلاقة تكون فى الأول الشجاعة التى يضرب بالأسد المثل فيها ، وفى المثل الثانى الشجاعة والخطابة .

وعلى ذلك يكون بين التشبيه والاستعارة اتصال ، وإن شئت فقل إنها طريق من طرق التشبيه أو هى تشبيه فيه مبالغة فإن المشبه يدعى فيها أنه فرد من أفراد المشبه به ، ولذلك لا بد فيها من أمرين : أولهما ألا تكون ثمة أداة تشبيه كالكاف أو الاستعمال أو أن يكون المشبه محمولا عليه والمشبه محمولا مثلا ، وألا يكون المشبه مذكوراً بأى صورة من الصور ، وثانيهما — أن يكون اللفظ الدال على المشبه به لفظاً عاماً كاسم جنس ، لكى يدخل المشبه فى عموم أفراده بمظهر اللفظ ، كأن يقول تقدم للأعداء أسد له لبد ، فانتقم الله تعالى به منهم ، فإن قرينة القول تدل على أنه إنسان ، وكأنك ادعيت أنه من أفراد الأسد ذلك الرجل الشجاع الذى أطلقت عليه اسم الأسد .

وقد عرف أبو الحسن الرمانى الاستعارة ، فقال : وهى تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على جهة النقل للإبانة ، وهذا التعريف هو فى معنى ماذكرنا ، غير أنه أشار إلى أن الاستعارة نقل اللفظ من المعنى الذى وضع له إلى معنى آخر لعلاقة المشابهة بين المعنيين . وهو فى المعنى ادعاء أن لفظ المشبه به اتسع حتى صار عاما ، فدخل فى عمومه المشبه ، ويفرق بين المعنى بالوضع الأول والمعنى بالوضع الثانى بالقرينة ، فهى مانعة من إرادة المعنى بالوضع الأصلى .

والاستعارات فى ألفاظ القرآن كثيرة منها قوله تعالى: «هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ ، فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب »(١) .

فالتعبير بأم الكتاب تعبير مجازى بالاستعارة ، لأن الأم هى الأصل وهى التى تقوم على أولادها ، ويرجعون إليها فى غذائهم وعواطفهم ، فشبهت بها الآيات المحكمات التى هى أصل الدين ومرجعه ، وإذا كانت متشابهات ، فهى تفسر بالرجوع إلى هذا الأصل ، وهو المحكمات .

ومثل ذلك قوله تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » (٢) والتعبير مجازى بالاستعارة ، والمراد بالأم الأصل ، وهو الشريعة المتفقة فى كل الديانات ، فينسخ الله تعالى ، ويثبت ، ولكن أصل هذه الشرائع لا يتغير ، وهو الذى بينه الله تعالى فى قوله : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب »(٣) ،

ومن الاستعارة فى الأفعال قوله تعالى . « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل ، فيقتلون ، ويقتلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن(٤)» . فقد شبه سبحانه وتعالى

---

(١) آل عمران : ٧ .
(٢) الرعد : ٣٩ .
(٣) الشورى : ١٣ .
(٤) التوبة : ١١١ .

تقديم المؤمنين أنفسهم رجاء ما عنده من نعيم مقيم ، ورضوان من الله أكبر شبه ذلك بمبايعة بينهم وبين ربهم لكمال الالتزام عليهم ، ورجاء ما طلبوه من رضوان ونعيم مقيم ، وهي استعارة تمثيلية ، والاستعارة التمثيلية فيها تشبيه حال بحال ، لا تشبيه ألفاظ مفردة بمثلها ، وإن المشبه محذوف ، ولذا تحقق كونها استعارة .

ومن الاستعارة التعبير عن النفاق بالمرض ، وإن ذلك كثير في القرآن ومنه قوله تعالى في وصف المنافقين : «في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا»(١) وقوله تعالى «وإذا ما أنزلت سورة ، فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون » (٢) .

وفي الآيتين الكريمتين تجده سبحانه وتعالى عبر عن النفاق بالمرض ، وذلك للمشابهة بين مرض الأجساد والنفاق فهو يفسد القلوب ، والعقول والمدارك ، كما يفسد المرض الأجساد ويضعف الحركات وقد يشلها ، ومعه الوهن دائما .

ومن الاستعارات القرآنية التي تعلو إلى أسمى مراتب البلاغة ، ولا يصل إليها بيان إنساني ، إنما هو بيان القرآن فقط قوله تعالى : «وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون »(٣) .

ففي هذا النص السامي تلاقينا عدة استعارات تبلغ أعلى درجات السمو البياني ، ولنأت من آخر النص الكريم فآخره كأوله في اجتذاب النفوس والعقول والمشاعر إلى معانيه ومبانيه . أضاف اللباس إلى الجوع ، وفي ذلك تشبيه اللباس بالجوع من إضافة المشبه إلى المشبه به على سبيل الاستعارة ، فالجوع القائم المستمكن الذي يعم

---

(١) البقرة : ١٠ .
(٢) التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٣) النحل : ١١٢ .

فيه القل ويكثر العدم ، والخوف الذى يفزع النفوس ، ويذهب بالاطمئنان ، ويلق بالاضطراب شبه باللباس السابغ ، لأن اللباس يعم ويكسو الجسم كله ، وكذلك الجوع إذا عم ، والخوف إذا طم ، فإنه لا يبقى فى الجماعة أحد لم ينله ، لأن الأزمات الجائحة ، والخوف من عدو داهم لا ينجو منه أحد ، فكان التعبير عن هذه الحال باللباس ، وفوق ذلك فإن اللباس يلتصق بالجسم ويلازمه ولا يفارقه ، وكذلك الجوع والهم والغم والخوف ، وفى ذلك تصوير للأمة أو المدينة إذا عمها البؤس والشقاء وداهمها الخوف من كل ما يحيط بها .

وهناك استعارة أخرى ، وهى قوله تعالى « أذاقها الله لباس الجوع » فإن اللباس يلبس ولا يذاق ولكن لباس الجوع والخوف لأنه يتصل بالنفس ، وبالنعمة تزول بعد أن كفروا بها ، عبر عنه بالذوق ، فشبه حال النزول بحال الإذاقة ، للنزول الذى ترتب عليه أن أحسوا بمرارة المذاق بعد أن كانوا فى بحبوحة العيش ، فكان التعبير بأذاق أنسب لهذا المعنى .

وهناك استعارة تمثيلية ثبتت من مجموع العبارات ، وهو تشبيه حال جماعة من الناس كانت مؤمنة مرزوقة فلما كفرت بالنعم فلم تقم بحقها ، ولم تؤد الطاعات ، ولم تنته عن المنهيات بحال قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها واسعاً من كل مكان فجحدت نعمة الله تعالى فضاق رزقها ، وبدلت من الأمن خوفا ، ومن الرغد جوعا .

١٠٢ — ومن الأمثلة التى ساقها الرمانى للاستعارة قوله تعالى : «واشتعل الرأس شيبا»(١) ويقول فى التعليق على هذا النص الكريم : «أصل الاشتعال للنار وهو فى هذا النص أبلغ ، وحقيقته كثرة شيب الرأس إلا أن الكثرة لما كانت تتزايد تزايداً سريعاً ، صارت فى الانتشار والإسراع

---

(١) مريم : ٤

كاشتعال النار ، وله موقع فى البلاغة عجيب وذلك أنه انتشر فى الرأس انتشاراً لا يتلافى كاشتعال النار .

وإن هذا التعبير لم يكن معروفا عند العرب ، وذلك أنه شبه انتشار الشيب باشتعال النار ، للسرعة ، وللبياض ، وللملازمة ، ولأنه ينتهى بتدمير ما تتصل به ، وتجعل حطامه تراباً .

ويسوق الرمانى من أمثلة الاستعارة قوله تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ، فإذا هم مظلمون »[1] ، ويقول الرمانى فى ذلك . « نسلخ مستعار ، وحقيقته يخرج منه النهار ، والاستعارة أبلغ ، لأن السلخ إخراج الشىء مما لابسه ، وعسر انتزاعه منه لالتصاقه به ، فكذلك لباس الليل » .

هذا ما قاله الرمانى ، ولكى نتصور الاستعارة ، وما تضفيه من معان على الحقيقة المجردة ، نقول : إن مفردات الراغب الأصفهانى جاء فيها فى مادة سلخ « السلخ نزع جلد الحيوان . وقال تعالى « نسلخ منه النهار » أى ننزعه ومؤدى هذا الكلام أن المسلوخ المنزوع هو النهار ، وأن الجسم الذى انسلخ منه هو الليل ، ولذلك قال تعالى كنتيجة للسلخ « فإذا هم مظلمون » أى أن النزع كانت نتيجته أن صار الناس فى ليل مظلم ، ويكون معنى الاستعارة أن القرآن الكريم شبه فيه النهار بالنسبة لليل بإهاب من النور أحاط بالليل إحاطة الإهاب بالشاة مثلا ، فلما نزع منه كان الليل ، والجامع بين السلخ والنزع ، هو الرفع لشىء ملازم محتك ، ولاشك أن الاستعارة أبلغ كما ذكر الرمانى ، ولكن ما وجه البلاغة المفضلة ، نقول فيما نحسب إن الاستعارة تدل على أن الذى أحاط هو النهار ، ونسلخ لا تدل على أن أيهما هو المحيط بالآخر ولكن المسلوخ هو النهار ، إن هذا يدل ، على أن النور بالنسبة للكرة الأرضية عارض من نور الشمس ، ولذلك ذكر الله سبحانه وتعالى دوران

---

(١) يس : ٣٧

الشمس فقال: «والشمس تجرى لمستقر لها، ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم»[1] .

ومن الاستعارات الواردة فى القرآن التعبير عن العلم والإيمان بالنور وعن الكفر والعناد بالظلمات مثل قوله فى أول سورة إبراهيم «الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد» وقد قال فى ذلك الرمانى : «كل ما جاء ذكر من الظلمات إلى النور، فهو مستعار، وحقيقته من الجهل إلى العلم والاستعارة أبلغ، لما فيه من البيان بالإخراج إلى ما يدرك بالأبصار» .

وإن الظلمات ليست الجهل فقط، بل هى تشمل الجهل والكفر والجحود والعصبية الجاهلية وكل ما يسيطر على الأنفس من غير سلطان من الحق، ولا العقل، ولا الاتجاه إلى الحق فى طريق مستقيم لا التواء فيه، ولذلك عبر عن الباطل بالظلمات، لأن له أسباباً متكاتفة بعضها فوق بعض والنور واحد، وهو الحق وطلبه والإذعان له .

وإن الإخراج من الظلمات إلى النور . نقول إنه استعارتان، إن جعلنا الاستعارة فى معنى الظلمة، فاستعير لفظ الظلمة وهى حسية للجهل والكفر، وتحكم الهوى والجحود، لأن هذه يحدث منها ضلال فى طلب الحق، كما يحدث الضلال من السير فى الظلام، فكان وجه الشبه الضلال فى كل، والإيمان مع الإذعان له يبعد عن الضلال بالنور إذ يبعد عن الضلال، كما يبعد النور عن السير فى الطريق الضال، ويهدى إلى الطريق المستقيم .

أو نقول إن القرآن الكريم يشبه حال الضالين الذين يطلبون الحق، ويجدون الهداية ويأخذون بها، ومع رسولهم الكتاب المبين الذى يهدى بحال أولئك الذين يكونون فى ظلام دامس لا يهتدون معه ويخرجون من الظلمة الحالكة

---

(١) يس : ٣٨

إلى النور فهو تشبيه حال بحال بجامع الحيرة ثم الاهتداء فى كل .

١١٣ — ويذكر الرمانى من الاستعارة البيانية قوله تعالى « وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم »(١) ويقول فى ذلك الرمانى العقيم مستعار للريح ، وحقيقته ريح ليس بها سحاب غيث ، والاستعارة أبلغ ، لأن حال العقيم أظهر من حال الريح التى لا تأتى بمطر ، لأن مايقع لأجل حال منافية أوكد مما يقع من حال منافية وأظهر » والمعنى أن الاستعارة هنا فى لفظ عقيم ، لأن العقيم لا يرجى معها خير قط ولا تنتج ، لأن العقم حال تمنع الإنتاج ، فعدم إنتاج الريح بماء ذكر سببه ، وهى أنها ليست منتجه بذاتها كحال العقيم التى لا تحمل ولا تلد ، والوصف بالعقم مناسب لأنهم توقعوا أن يكون غيثاً ، فكان فيها الهلاك، ولقد بين الله تعالى معنى عقمها فى آية أخرى فقال تعالت كلماته « فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عــــذاب أليم ، تدمر كل شىء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزى القوم المجرمين »(٢) .

وهكذا نجد الاستعارات البيانية فى القرآن كثيراً وذلك لأسباب كثيرة نذكر منها ثلاثة :

أولها : أن اللغة العربية لا تتسع للمعـانى النفسية السامية فى القرآن ، فإنه علم لا تدل على حقائقه ألفاظ ذات دلالة معينة وكانت بلغة العرب الذين لم يصلوا هم ولا غيرهم إلى الحقائق العلمية والنفسية التى يتصدى القرآن الكريم لبيانها ، وكشف عيون الحقائق فيها . فكان لا بد من الاستعانة بالاستعارة من الألفاظ التى وضعت للمعانى الحسية لتكشف بهـا العلوم النفسية والاجتماعية والعقلية ، ولتقرب المعانى إلى ذهن الأعراب ، ومن

---

(١) الذاريات ٤١ .

(٢) الأحقاف : ٢٥ .

هم أعلى منهم إدراكا لأنه الكتاب المبين ، وليخرج الأميين إلى حيث العلم، وإلى الكتاب الذى علم الإنسان ما لم يعلم .

ثانيها : أن القرآن الكريم فيه الأخبار عن الأمور المغيبة التى وقعت فى الماضى ، والأمور القابلة، وخصوصاً ما يكون فى الجنة وفى النار من عذاب أليم ، فنعيم الجنة فيه فاكهة ونخل ورمان ، وفيها أنهار من عسل مصفى ، وفيها أنهار من خمر لذة للشاربين ، وهكذا ، ولكن أهى من نوع خمر الدنيا ، وفاكهتها ، لقد ورد عن ابن عباس أنها ليست كخمر الدنيا ، وما يذكر فيها ليس من نوع ما فى الدنيا ، ولا من جنسه . ولقد قال عليه الصلاة والسلام : فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ونحن نؤمن أولا بأن نعيم الجنة حسى وعذاب النار حسى ، ونؤمن ثانياً ، بأن كل ذلك ليس من جنس ماهو فى الدنيا ، بل هو أعلى وأعظم ، فكان الألفاظ التى تقال عن ذلك مستعارة من ألفاظ الدنيا ، ليمكن تقريبها إلى النفوس والأشخاص الذين لا يرون إلا المحسوس .

ثالثها : أن الاستعارة تثير صوراً بيانية فى الألفاظ والمعانى كالتشبيه، لأنها تربط بين المعانى بعضها مع بعض وفيها نقل ألفاظ من معان إلى القريب منها المتناسب معها ، فوق مايثيره من أخيلة تحلق بالتالى للقرآن فى أجواء من البيان اقرأ قوله تعالى فى تصوير حال من اعتراه الندم ، ولا يجد مخلصاً إلا أن يعترف قوله « ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين »(١) .

فالتعبير بقوله تعالى «سقط فى أيديهم» هو استعارة فى الدلالة على الندم ، لأن النادم يحس بالسقوط ، ويحس بأنه هبط ، فشبه القرآن حالهم فى أن الندم بَرَّح بهم بمن سقط فى يده وهو دال على سقوطه فيما لا يليق ، فشبه المعنى

---

(١) الأعراف : ١٤٩ .

الخاص بالندم من ألم ، ومن ظهور للخطأ ، أو الإحساس بالخطيئة بمن سقط فى يده دليل إثمه ، ولا يجد مناصاً من التخلص من جرمه ، وإن الصورة البيانية التى تصورها كلمة سقط ، وتبين حالهم لا يقوم مقامها كلمة ندموا .

ولقد صور سبحانه وتعالى حال أهل الكهف فى أنهم لا يسمعون ، فقال تبارك وتعالى « فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا »(١) فإن كلمة ضرب تدل على أن الله تعالى منع السماع ، كأنه غلق عليهم باب السمع ، وضرب عليه ، فلا يفتح سنين عدداً ، وذلك يصور حالهم من أنهم لا يسمعون مايجرى ، والناس يحسبونهم أيقاظاً يحسون بما يحس غيرهم ، ولقد قال الرمانى فى معنى الاستعارة هنا ، فقال : « حقيقة معناه منعناهم الإحساس بآذانهم من غير صمم ، والاستعارة أبلغ ، لأنه كالضرب على الكتاب ، فلا يقرأ ، كذلك المنع من الإحساس فلا يحس ، وإنما دل على الإحساس بالضرب على الآذان دون الضرب على الأبصار ، لأنه أدل على المراد من حيث كان قد يضرب على الأبصار من غير ذهاب للبصر فلا يبطل الإدراك رأساً ، وذلك بتغميض الأجفان ، وليس كذلك منع الأسماع من غير صمم فى الآذان ، لأنه إذا ضرب عليها دل على عدم الإحساس من كل جارحة يصح بها الإدراك ، ولأن الأذن كانت طريقة إلى الانتباه ، فلما ضربوا عليها لم يكن سبيل إليه » .

ومؤدى هذا الكلام أن الضرب على الآذان يفيد فقد الإحساس المطلق بعمل الله ، وهو غير الضرب على الأبصار ، لأن عدم الإبصار لا يقتضى فقد الإحساس إذ قد يكون غير مبصر بإغماض ، ولكن الإسماع لا يفقده مع بقاء الآلة سليمة إلا بفقد الإحساس ، فإذا كان الله تعالى قد ضرب على آذانهم ، مع بقاء الآذان سليمة ، فإن ذلك لا يكون إلا بفقد الإحساس والله على كل شىء قدير .

(١) الكهف . ١١ .

المجاز والكناية

١١٤ – المجاز يعم الاستعارة وغيرها من أنواع المجاز ، إذ أن المجاز معناه أن ينقل اللفظ من دلالته على المعنى الذى وضع له إلى معنى آخر ، لعلاقة بينهما ، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى ، مثل قوله تعالى ، «فليدع ناديه»(١) فإن المكان لايدعى إنما يدعى من يحلون فى هذا المكان . والقرينة الاستحالة . والعلاقة هى المحلية ، أطلق المحل وأريدالحال ، ومثل قوله تعالى «يجعلون أصابعهم فى آذانهم»(٢) والآذان لا تدخلها كل الأصابع ، وإنما أريد بعضها والعلاقة هى الجزئية أطلق اسم الكل وأريد الجزء . وهكذا .

وتختص الاستعارة من بين أنواع المجاز بأنها مجاز علاقته المشابهة بين المعنى الأصلى ، والمعنى الذى نقل اللفظ إليه وقد كان التقسيم المنطقى يوجب أن نتكلم فى استعارات القرآن بعد الكلام فى المجاز ذاته ، لأن الكلام فى العام يسبق الكلام فى الخاص ، إذ أن العام جزء من الخاص . والخاص جزئى والعام كلى ، ومن المقررات المنطقية أن كل عام جزء لجزئية ويضربون لذلك مثلا بالحيوان والإنسان ، فالإنسان حيوان ناطق ،فيتكون من جزءين جزء هو الحيوانية ، والثانى النطق بمعنى العقل والإدراك ووزن الأمور ، فالحيوان وهو الكلى جزء من الإنسان ، وهو النوع الجزئى .

ولكن عدلنا عن منطق التقسيم فى التصنيف إلى تقدم الجزئى على الكلى أو إلى تقديم الاستعارة على عموم المجاز لأن الاستعارة من حيث إن العلاقة

---

(١) العلق : ١٨

(٢) البقرة : ١٩

فيها المشابهة كانت ضرباً من ضروب التشبيه دخل فيه المشبه فى عموم المشبه به فكانت المناسبة بينها وبين ماسبقها من تشبيه أقوى من دخولها فى عموم المجاز .

وقدمنا الاستعارة لأنها أشهر وأكثر فى القرآن ، وأكثر تصويراً لمعانى البيان ، والصور البيانية القرآنية فيها أوضح ، وقد ضربنا على ذلك الأمثال ، وقد قصر عبد القاهر فى كتابه دلائل الإعجاز القول على الاستعارة وما يتبعها من تمثيل وضرب للأمثال ، فقد قال رضى الله تبارك وتعالى عنه .

« وأنا اقتصر هنا على ذكر ما هو أشهر منه (أى من المجاز) وأظهر ، والاسم والشهرة لشيئين الاستعارة والتمثيل ، وإنما يكون التمثيل مجازاً إذا جاء على حد الاستعارة .

فالاستعارة أن تريد تشبيه الشىء بالشىء ، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره ، وتجىء إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه ، تريد أن تقول رأيت رجلا هو كالأسد ، فى شجاعته وقوة بأسه سواء ، فتدع ذلك وتقول رأيت أسداً .

واما التمثيل الذى يكون مجازاً لمجيئك به على حد الاستعارة فمثاله قولك فى الرجل يتردد فى الشىء بين فعله وتركه : أراك تقدم رجلا ، وتؤخر أخرى ، فالأصل فى هذا أراك فى ترددك كمن يقدم رجلا ويؤخر أخرى ثم اختصر الكلام ، وجعل كأنه يقدم رجلا ويؤخر أخرى على الحقيقة ..

وكذلك تقول للرجل يعمل فى غير معمل أراك تنفخ فى غير فحم ، وتخط على الماء ، فتجعله فى ظاهر الأمر كأنه يخط .والمعنى على أنك فى فعلك كمن يفعل ذلك ، ويقول فى الرجل يعمل الحيلة ، حتى يميل صاحبه إلى الشىء قد كان يأباه ، ويمتنع منه ، مازال يفتل فى الذروة والغارب ، حتى بلغ منه ما أراد ، فتجعله بظاهر اللفظ كأنه كان من فتل ذروة وغارب ، والمعنى على أنه

لم يزل يرفق بصاحبه رفقاً يشبه حاله فيه حال الرجل يجيء إلى البعير الصعب ، فيحكه ، ويفتل الشعر فى ذروته وغاربه ، حتى يسكن ويستأنس ، وهو فى المعنى مثل الرجل يقول فلان يقرد فلانا ، يعنى به أنه يتلطف له فعل الرجل ينزع القراد من البعير ليلذ لذلك ، فيسكن ويثبت فى مكانه ، حتى يتمكن من أخذه ، وهكذا كل كلام رأيتهم قد نحوا فيه هذا التمثيل ، ثم لم يفصحوا بذلك ، وأخرجوا مخرجه ، وإن لم يريدوا تمثيلا » .

وإن الأمثال كلها من قبيل التمثيل . وهو من باب الاستعارة ، كما قال عبدالقاهر ، ذلك ، لأن الاستعارة ذات شعبتين . إحداهما أن تكون فى تشبيه شيء بشيء ، من غير أداة تشبيه كتشبيه الرجل بالأسد ، وتشبيه شيوع الشيب فى الرأس باستعار النار فى وقودها والشعبة الثانية تشبيه حال بحال ، وهو التمثيل ، وهاتان الشعبتان تجريان فى التشبيه الذى يكون بأداة التشبيه ، كما تكونان فى الاستعارة ، إذ أنهما متلاقيان فى المعنى والاختلاف فى طريق الأداء .

ومن الاستعارة التمثيلية ظهرت الأمثال التى تعد من جوامع الكلم ، فهى ليست إلا تشبيه حال بحال . فهى تشبيه حال مضربها بحال موردها ، تقول العرب الصيف ضيعت اللبن ، فموردها أن شيخا طلب يد فتاة فردته ، وكان الزمان صيفاً لكبر سنه ، ثم احتاجت من بعد إلى قدر من اللبن عنده ، فقال لها الصيف ضيعت اللبن فصار مثلا ، يضرب لمن يرفض أمراً ، ثم يجيء يطلب شيئاً ، ما كان يحتاج إليه لو لم يرفض .

وهكذا ، والأمثال من أبلغ كلام العرب ، لأنها تؤدى معانيها فى اوجز لفظ ، وأروع خيال .

١١٥ — وإن عبد القاهر يعد طرق التعبير ثلاثة ، الحقيقة ، ويدخل فيها التشبيه على طريق علماء البلاغة ، وقد بينا من قبل أننا نعد الحقيقة

ما لا يدخل فى عمومها التشبيه، ولا مشاحة فى الاصطلاح، والاختلاف لفظى.

والثانى من طرق البيان المجاز، وقد أشرنا إلى القول فيه.

والثالث من الطرق الكناية، ويعرف عبد القاهر الكناية بأنها: «أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى، فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة، ولكن يجىء إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود، فيؤتى به إليه، ويجعله دليلا عليه، مثال ذلك قولهم طويل النجاد، (أى طويل علاقة السيف) يريدون طويل القامة، وكثير الرماد يعنون كثير القرى، وفى المرأة نئوم الضحى، والمراد أنها مترفة مخدومة، لها من يكفيها أمرها، فقد أرادوا فى هذا كله - كما ترى - معنى، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر، من شأنه أن يردفه فى الوجود، وأن يكون إذا كان، أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد، وإذا كثر القرى كثر رماد القدر، وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها، ردف ذلك أن تنام إلى الضحى».

ويلاحظ فى الكناية أنه لا مجاز فى المعنى، واللفظ على ظاهره بادى الرأى، ولكن لا يراد ذلك الظاهر، وإنما يراد لازمه وسماه عبد القادر رادفه، أى أنه يفهم تبعاً له، واللزوم ليس هو اللزوم العقلى دائماً، بل قد يكون فى بعض الأحوال لزوماً عادياً يجوز أن يختلف، فمثلا طويل النجاد يلزم عقلا أن يكون طويل القامة، ولكن كثير الرماد، لا يلزم لزوما عقليا أن يكون كثير نار القدر، فقد يكون وقود النار لغير القدر، ونئوم الضحى قد تكون لأنها مترفة عندها من يقوم بحاجاتها، وقد يكون ذلك كسلا، أو مرضاً .. إلى آخره، ولكن الكثير فى العادة أن يكون ذلك عن ترف.

وقد ذكرنا فى الماضى مكان المجاز، بكل صوره فى دلائل الإعجاز، وقد ذكر عبد القاهر مكان الكناية فى الكلام البليغ فقال رضى الله عنه

« قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح . . . إلا أن ذلك وإن كان معلوما على الجملة فإنه لا تطمئن نفس العاقل فى كل ما يطلب به العلم حتى يبلغ فيه غايته ، وحتى يغلغل الفكر فى زواياه وحتى لا يبقى موقع شبهة ، ولا مكان مسألة » .

١١٦ — هذا وإن هذه الطرق البيانية من تشبيه واستعارة وسائر أنواع المجاز ، والكناية ليست فى ذاتها أصل البلاغة ، بحيث إذا وجدت فى أى قول كان بليغا ، إنما البلاغة لا بد أن تكون متحققة ابتداء فى مادة الكلام وفى موضوعه ، وفى صوره البيانية ، وإن هذه طرق تكون جزءاً من بلاغة الكلام البليغ ، وليست هى الخاصة التى تجعله بليغا ، ولو لم يكن ذا موضوع ، أو كان موضوعه من سفساف القول ، وغث المعانى ومبتذلها ، إنما هى تكون مع أخوات لها فى مثل جمالها ، وجلال موضوعها .

وقد ذكرنا ذلك فى ماضى قولنا فى الاستعارة فى قوله تعالى « واشتعل الرأس شيبا » فإنا نجد أنه بلا ريب جمالا واضحا فى تشبيه شيوع الشيب فى الرأس باشتعال النار ولكن فى الحقيقة لا نجد الجمال فى هذه الاستعارة وحدها ، بل فيها وما معها من نظم . وتآخ فى الكلمات وقد بين ذلك عبد القاهر فى دلائل الإعجاز . فقال فى بيان أن الجمال والجلال إنما يكون فى مجموع القول لا للاستعارة وحدها : « إنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى : « واشتعل الرأس شيباً » لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة ، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها ولم يروا للمزية موجباً سواها ، هكذا ترى الأمر فى ظاهر كلامهم . وليس الأمر على ذلك ، ولا هذا الشرف العظيم ، ولا هذه المزية الجليلة ولا هذه الروعة التى تدخل على النفوس لمجرد الاستعارة ، ولكن لأن يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشىء ، وهو لما هو من سببه ، فيرفع به ما يسند إليه ، ويؤتى بالذى هو الفعل له فى المعنى منصوباً بعده مبينا أن ذلك الإسناد ، وتلك النسبة إلى ذلك الأول إنما كان من أجل

الثانى ، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة كقولهم طاب زيد نفساً . وقر عمرو عينا ، وتصبب عرقا ، وكرم أصلا ، وحسن وجها وأشباه ذلك مما نجد الفعل فيه منقولا إلى ما ذلك الشىء من سببه [1] ، وذلك أنا نعلم أن اشتعل للشيب فى المعنى ، وإن كان هو الرأس فى اللفظ كما أن طاب للنفس، وقر للعين ، وتصبب للعرق وإذ أسند إلى ما أسند إليه كان لأنه سلك فيه هذا المسلك وتوخى به هذا المذهب وإن تدع هـذا الطريق فيه ، وتأخـذ اللفظ فتسنده إلى الشيب صريحا . فتقول اشتعل شيب الرأس ، والشيب فى الرأس ، ثم تنظر هل تجد ذلك الحسن » وهل ترى الروعة التى كنت تراها فإن قلت ، فما السبب فى أنه كان « اشتعل . إذا استعير للشيب على هـذا الوجه كان له الفضل ، ولم تأت بالمزية من الوجه الآخر فما وجه هـــذه البينونة ؟ إن السبب أنه يفيـد مع لمعـان الشيب فى الرأس الذى هو أصـل المعنى الشمول ، وأنه قد شاع فيه ، وأخذه من كل نواحيه وأنه قد استقر به وعم جملته ، حتى لم يبق من السواد شىء أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به ، وهذا ما لا يكون إذا قيل اشـتعل شيب الرأس ، أو الشيب فى الرأس ، بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة » .

وقد أجاد عبد القاهر فى بيان وجه البلاغـة فى الاسـتعارة مع أردافها من مجموع الـكلام ، وإذا كانت هى فى ذاتهـــا ، تجمل القول ، فإن سر الإعجاز فيها ، وفى مجموع العبارات .

وقد ضرب الإمام عبد القاهر مثلا آخر مقارباً لقوله تعالى « واشتعل

---

(١) يريد عبدالقاهر إن يقول إن الجمال فى اشتعل الرأس شيبا ليس فى الاستعارة فقط إنما هو ابتداء فى التمييز المحول من الفاعل . ففى ذكر الفعل غير مسند لفاعله بل أسند لما هو فى موضع الفاعل . ثم ذكر بعد ذلك الفاعل الحقيقى . وهو الشيب على أنه تمييز . وفى التعبير بالتمييز بدل الفاعل إشارة إلى سبب اسناد الفعل . وسبب ذكر الاشتعال .

الرأس شيباً ، وهو قوله تعالى . « وفجرنا الأرض عيونا »[1] فقال رضى الله تبارك وتعالى عنه فى بيان أن التمييز بعد التعميم ولو من غير استعارة بلاغة معجزة .

« ونظير هذا فى التنزيل قوله عز وجل : « وفجرنا الأرض عيونا » التفجير للعيون فى المعنى واقع على الأرض فى اللفظ كما أسند هناك الاشتعال إلى الرأس ، وقد حصل بذلك من معنى الشمول ههنا ، وذلك أنه قد أفاد أن الأرض قد صارت كلها عيونا وأن الماء قد كان يفور من كل مكان منها ، ولو أجرى اللفظ على ظاهره فقيل ، وفجرنا عيون الأرض ، أو العيون فى الأرض ، لم يفد ذلك ولم يدل عليه ، ولكان المفهوم منه أن الماء قد فار من عيون متفرقة فى الأرض ، وانبجس من أماكن منها » .

وهكذا يتبين من ذلك الكلام القيم أننا إذا كنا قد ذكرنا التشبيه والمجاز والكناية فليس الإعجاز لها وحدها ، بل لها مع مجموع الألفاظ والأسلوب وتناسق العبارات ، فمن كل ذلك يتكون إعجاز الذكر الحكيم .

الكنايات فى القرآن

١١٧ — قد تكلمنا فى التشبيه والاستعارات ، وسائر أوجه المجاز بكلام مجمل ، واقتبسنا شواهد من القرآن ، وإن لم تكن كثيرة فإنها منيرة ، وإن لم يكن فيها استقراء ففيها غناء .

ولكن لم نتعرض للكنايات فى القرآن بقدر كاف إذا كانت الكنايات كما تدل عبارات اللغويين وعلماء البلاغة هى الدلالة على اللازم عادة أو عقلا بذكر الملزوم ، ، فكثرة الرماد كما مثلوا يلزمها كثرة الضيفان ، وطول النجاد

---

(١) القمر : ١٢

يلزمه طول القامة ، فإن الكنايات فى القرآن كثيرة ، ولكنها تمتاز بإرادة اللازم والملزوم ، وفى ذلك كثرة المعانى مع إيجاز الألفاظ ولنضرب على ذلك بعض الأمثال نقتبسها من كتاب الله سبحانه وتعالى . يقول الله تعالى فى وصف المتقين .

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما »[1] .

هذا وصف حسى لمشيهم ، ولقائهم ، فهم يمشون غير مسرعين ، ولا متباهين بل يمشون مشياً هينا لا سرعة فيه ولا إبطاء ، وإذا خاطبهم الحمق ، لا يمارونهم ولا يجادلون ، فان المراء يخل بالوقار ، وملاحاة السفهاء ليست من دأب العقلاء . هذا هو الظاهر وهو المراد ، ولكن المقصود مع هذا هو وصفهم بتقوى الله وخوفه ، والاطمئنان إلى عفوه ، فيلتقى الخوف بتكبير الذنوب ، مع الرجاء فى العفو والغفران .

والمعانى الثانية ملازمة للأولى ، فكان المراد ابتداء هو اللازم والملزوم فى ذاته ، ولكن السياق كان للثانى .

ومن الإشارات الكنائية التى أريد فيها اللازم ، وذكر الملزوم كان للدلالة عليه قوله تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون[2] » فإن ذلك الكلام السامى فيه حكم على أولياء الله المخلصين له سبحانه بأنهم لا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، وذلك مراد لاريب فيه ، وذلك يلازمه أن يكونوا قريبين من ربهم ، قد أخلصوا له ، واستحقوا رضوانه ومن يكون قريباً من حبيبه ، لا يخافه فى مستقبل ولا يحزن فيه على ماض وقع منه ، لأن المحبة تجعله قريب الرجاء فى

---

(١) الفرقان : ٦٣

(٢) يونس : ٦٢

الغفران ، والطمع فى الرحمة ، وقد بين سبحانه الطريق لمحبة الله تعالى ونيل رضوانه ، وهو التقوى ، فقال تعالت كلماته : « الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة[1] » .

ومن كلام الله تعالى فى التنزيل ما جاء عن وصية لقمان لابنه إذ قال تعالت كلماته :

« يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل ،فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير يا بنى أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور ، ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير[2] » .

وإن هنا عبارتين ساميتين فيهما كناية واضحة ، وقد علمت أن كنايات القرآن تدل على اللازم والملزوم ، ويقصد ان بالعبارة الأولى قوله : « إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله » أنه يراد بها ما تحويه الألفاظ الظاهرة من معان عالية ، وفيها إثبات قدرة الله تعالى بإخراج حبة الخردل من صخرة أو فى السموات أو فى الأرض هذا هو ما تدل عليه الألفاظ ، وهناك اللازم لهذا ، وهو إثبات علم الله الذى لا يخفى عليه خافية ، وإثبات قدرة الله تعالى الذى لا يعجز عن شىء فى السماء ولا فى الأرض ، ولازم لهذا اللازم ، وهو البعث والنشور ، لأنه اذا كان سبحانه وتعالى قادراً على أن يأتى بالحبة من

(١) يونس : ٦٤

(٢) لقمان : ١٦ — ١٩

الصخرة أو من أى جزء فى السماء أو الأرض ، فهو قادر على إعادة ما خلق ويتلاقى ذلك القول الحكيم مع قوله تعالى « قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ، قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون إليك رءوسهم ، ويقولون متى هو ، قل عسى أن يكون قريباً ، يوم يدعوكم ، فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا[1] »

العبارة السامية الثانية حكايته تعالى لقول لقمان : « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض ، إلى قوله تعالى ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير[2]) فإن هذه الأوامر يراد منها ما يدل عليه ظاهر الألفاظ من أنه لا يصعر خده للناس بأن يميله عن شكله ، فلا يقبل عليه بكل وجهه ، ومن أنه يقصد فى مشيه فلا يتباطأ ، ولا يسرع ، بل يسير بتؤدة واطمئنان ، ومن أنه يغضض من صوته ، فلا يتعالى ، ويتكلم صياحا ، ويراد أيضا معنى لازم لها ، وهو التطامن والاتصال بالناس اتصال رفق ومودة من غير كبرياء ، وألا يغمط الناس حقوقهم ، وألا يبطر نعمة الله تعالى ، وألا يدلى نفسه بغرور ، لأن الغرور مطية الشيطان ، والسبيل إلى العصيان.

١١٨ — هذا وإن الكنايات فيها الإشارة البيانية التى تكون لوازم للعبارات ، ولقد قسم علماء الأصول دلالة الألفاظ القرآنية إلى دلالة العبارات ، سواء أكانت هذه العبارات تدل بالدلالة الحقيقية من غير تشبيه أو دلالة فيها تشبيه أو فيها مجاز ، بالاستعارة أو غيرها من أنواع المجاز ، وبجوار ذلك دلالة الإشارات ، وهى دلالة اللوازم ، وإنه كلما كانت دلالة اللوازم كانت البلاغة » .

ولنقبض قبضة من الآيات التى قال الفقهاء فيها إن فيها دلالة على الأحكام بالإشارة ، أى بالكناية أو بدلالة الملزوم على اللازم ، وهى تفهم كنتيجة

---

(١) الإسراء ٥٠ — ٥٢

(٢) لقمان : ١٨ : ١٩ .

لازمة للعبارة ، وقد قالوا فى تعريفها إن الدلالة بالإشارة هى مايدل عليه اللفظ بغير العبارة التى تدل عليها الألفاظ ، ولكنه يكون نتيجة لازمة لما تدل عليه ألفاظ العبارة ، ومن ذلك قوله تعالى : « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى ، فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا[1] » .

وإن عبارة النص يفيد طلب العدالة مع اليتامى ، وإفادة إباحة تعدد الزوجات مثنى وثلاث ورباع ، وإباحة الدخول بملك اليمين ، هذه أحكام علمت من العبارة نفسها .

وهناك أحكام أخرى فهمت من لوازم العبارة ، وهى الدلالة بالإشارة التى هى ضرب من ضروب الكناية : الأول وجوب العدل مع الزوجة ، وأن الرجل لايحل له أن يتزوج إذا لم يعدل مع الزوجة ولو واحدة ، إذا تأكد أنه لا يعدل ، والثانى الذى يدل عليه لازم الآيات أن المساواة بين الأزواج فى الأمور الظاهرة . كالطعام والمسكن ، والكسوة ، والمبيت إذا عدد الأزواج واجبة ، وتدل باللازم أن عليه نفقة زوجته ، وأنه لايتزوج إلا إذا كان قادراً على إعالة زوجته .

وذكروا من الآيات التى تدل بلازم المعنى فيها آية المداينة ، فقد قال تعالى : يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى ، فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولايأب كاتب أن يكتب ، كما علمه الله ، فليكتب ، وليملل الذى عليه الحق ، وليتق الله ربه ، ولا يبخس منه شيئا ، فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا ، أو لا يستطيع أن يمل هو ، فليملل وليه بالعدل . واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا

---

(١) النساء : ٣

رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، ولا يأب الشهداء ، إذا ما دعوا ، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ، ذلكم أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا ، إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ، وأشهدوا إذا تبايعتم . ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم »[1].

وإن الأحكام التى وردت بهذا النص كثيرة ، لا نريد أن نحصيها . ولكن ورد فيها أحكام ليست من النص ، ولكنها لازمة للنص ، منها أن المكتوب يكون حجة على من أملاه وخصوصا أنه موثق بالشهادة ، وهو حجة لمن أثبت الاستدلال بالكتابة فى المرافعات ويفيد باللزوم بأن السفيه أو الضعيف الذى له ولى مال تكون عبارة الولى المالى عبارته ، ويلتزم بما تثبته .

ويفيد ثالثاً بأن شهادة المرأة لا تسمع وحدها ، بل تسمع مع أختها التى تشهد معها ، لأن الله تعالى يقول « أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » وذلك يقتضى أن تحضرا معاً لتسترشد كل واحدة بالأخرى إن ضلت ، وذلك فهم من مقتضى أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، لأنه لا يمكن أن يكون ذلك إلا إذا اجتمعتا فى الأداء ، وسمعت كل واحدة كلام الأخرى ، وذلك بخلاف شهادة الرجل فإنه لابد أن يسمع كل واحد منهما منفرداً ، لكيلا يومىء أحدهما إلى الآخر .

ومن النصوص التى تدل بإشارتها وعبارتها قوله تعالى : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار

---

(١) البقرة : ٢٨٢ .

والدة بولدها ، ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك ، فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما ، وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ، واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير »(١).

قد فهمت الأحكام التى ذكرتها الآية الكريمة بالنص ، وفهم بالإشارة معان أخرى تلازم ما نص عليه كنتيجة له . وما نص عليه فى العبارة هو ملزوم والثانى لازم له .

ومن ذلك أولا — أن المولود ينسب إلى أبيه لا إلى أمه ، لأنه المولود له ، فاللام تفيد ذلك الاختصاص ، وتفيد ثانياً — أن المولود لأبيه له عليه شبه ملكية ، فمال الولد لأبيه عليه نوع ملك فالولد كسب أبيه ، ولقد صرح بذلك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : « أنت ومالك لأبيك » ويفيد ثالثاً — أن الأب لا يشاركه فى نفقه ولده أحد وأن الولد لا يشاركه فى نفقة أبيه أحد ، ويفيد رابعاً — أن الأصل فى الإرضاع أن يكون على الأم ، ويجوز الاسترضاع باتفاقهما وأن أجرة الرضاعة تكون على الأب ، ونفيد خامساً — أن فصل الولد الذى لا إرادة له عن الأم فى رضاعته يكون عن تراض منهما وتشاور .

وهكذا نجد أسرار البيان القرآنى تتكشف عن طريق هذه اللوازم التى تجىء تبعاً للمنطوق ، وتتفاوت فيها الأحكام من غير أن تكلف الألفاظ من المعانى اللازمة مالا تطيق بتكلف التأويل ، وتجىء الأسرار القرآنية العالية التى لا تكون إلا لكلام الله سبحانه وتعالى .

ومن الآيات القرآنية التى تدل فيها العبارات على معان من الألفاظ ، ثم تجىء لازماً لها عن طريق الإشارة كما يعبر الأصوليون . أو الكنايات

---

(١) البقرة ٢٣٣ .

كما يعبر علماء البلاغة — قوله تعالى: «وأمرهم شورى بينهم»[1]، فإن هذا النص الكريم أفاد بالعبارة أن الحكم الإسلامي وإدارة الدولة الإسلامية في اقتصادها ونظمها، وإدارتها تقوم على الشورى. وهذا ما تفيده الآية بالنص.

وتفيد مع ذلك بطريق الإشارة، والنتائج التي تكون ثمرة لهذا النص أو طريقاً لتنفيذها — أولا — أنه لابد أن يكون اختيار الحاكم أو الخليفة برضا المسلمين فلا تصح الخلافة إلا باختيار المسلمين ورضاهم، ولذلك كانت البيعة في الإسلام، وتفيد ثانياً أنه لا ينفذ حكم أو قانون إلا إذا أقرته جماعة المسلمين، أو الصفوة المختارة منهم، وتفيد ثالثا أنه لا بد من وجود جماعة مختارة من الشعب اختياراً أساسه الحرية والرضا، يكون عملها مراقبة الحكام، والنظر بعين فاحصة في أعمالهم وألا يسن قانون إلا برأيهم فكل هذه لوازم لتحقيق معنى الشورى وتنفيذه، وتفيد رابعا أن الأعمال الفنية كقيادة الحرب، والصناعة تكون ثمة تحت رقابة على القائمين بها من صفوة مختارة منهم، يكون عملها التوجيه.

وهكذا تثبت هذه الأمور كنتائج لتنفيذ الأمر بالشورى.

وإن دلالة العبارات التي يمكن معرفتها بالسنة واللغة هي المفاتيح لما تومىء إليه، فلا يمكن أن تعرف أسرار القرآن الكريم إلا إذا عرفت المعاني الأولى، وإن معرفة ما تومىء إليه ألفاظ القرآن من إشارات لا يكون إلا بعد الدخول إلى الساحة العليا، والارتفاع بالعقل إلى أعلى المدركات الإنسانية، ولذلك يقول الغزالي رضي الله تعالى عنه إن معرفة السنة واللغة هي المفتاح الذي يدخل منه العالم إلى علوم القرآن، وفيه علم كل شيء يتعلق بالشرائع والنفس الإنسانية، وعلاج أدوائها، واليوم الآخر، وما أخبرنا به العزيز الحكيم علام الغيوب.

---

(١) الشورى: ٣٨

٤ — نظم القرآن وفواصله

١١٩ — تكلمنا فى ماضى قولنا فى وصف عام لبلاغة القرآن ، وتكلمنا فى ألفاظه ، وبينا بشواهد الآيات أن كل كلمة لها صورة بيانية فى السياق الذى سيقت له ، ثم تكلمنا عن الأسلوب ، وذكرنا مستشهدين بالآيات البينات أن كل كلمة لقف مع أختها ، ويتكون من مجموع الكلمات المتلائمة المتآخية صورة كاملة للبيان تعطيك صورة بيانية ، كل كلمة تعطيك جزءاً منها ، مع كونها فى ذاتها صورة بيانية وحدها ، وضربنا لك الأمثال .

ثم تكلمنا من بعد على تصريف البيان القرآنى ، فبينا كيف كان التصرف فى الاستدلال على وحدانية الديان ، وبطلان عبادة الأوثان ، وكيف كان التنويع فى البراهين التى يسوقها ، والتى تعلو فى دقة الحكم على الأدلة الخطابية ، وتعلو فى النسق البيانى ، والنغم الموسيقى عن البرهان المنطقى ، مع اشتمالها على أدق معناه ، وإن غاير الأشكال .

وذكرنا الاستدلال على الوحدانية فى سياق القصص والعبرة ، ثم بينا من بعد ذلك تصريف القول بطريق القصص ، والتصوير القصصى للوقائع ، حتى كأنك ترى المشاهد ، لا أنك تقرأ القصص .

ثم تكلمنا فى الاستفهام القرآنى ، وخضنا فى التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية والإشارة البيانية لمن يغوص فى علوم القرآن الكريم ، ويتعرف أسرار الحقائق التى اشتمل عليها ، سواء أكانت حقائق كونية أو نفسية ، أم كانت تتعلق بنواميس الاجتماع وتربية المجتمعات .

ذكرنا ذلك فى إجمال يشير ولا يحيط ، ويوجز ، ولا يفصل .

ولكن مع ذلك نرى للقرآن صورة هى فى الإعجاز أبعد مما سبق ، ذلك

أنك إذا قرأت القرآن مرتلا ، أو كاشفاً بالصوت مع الترتيل تحس بأنه ليس من نوع الكلام الذى سمعته وتسمعه وتقرؤه ، وإنك تميز بذوقك القرآن عند سماعه عن غيره ، فله نظم يعلو عن كلام البشر ، وله نغم أعلى من أن تسميه موسيقى ، يذوقه كل فاهم ، وإن كان لا يستطيع وصفه ولا تعريفه ، ولا بيان سره ، كما يذوق الذائق طعاماً طيباً ، ولا يعرف اسمه ، ولا أرضه ، ولا سر طيبه ، ولكنه يحكم بطيبه وإن كان تفصيل السبب لا يعرف .

وليس ما نقوله هو من قبيل ما فندناه من قبل ، وهو ما سمى بالصرفة ، فإن الصرفة على قول الذين يزعمونها ، عجز عن المحاكاة أو المشابهة بصرف الله تعالى . إنما الذى نقوله ، هو أن الإعجاز من خصائص القرآن البيانية وغيرها وإن كانت البيانية أظهرها ، وهى التى تحدى الله تعالى بها العرب أن يأتوا بمثلها ولو مفتريات ، فالنظم والنغم ، والفواصل ، وما يشبه الموسيقى وإن كان أعلى أوصاف ذاتيه ولعلنا نتنزل بالقرآن إن سميناً ما نذكر موسيقى ، فروعة القرآن أعلى ، وذلك سبب من أسباب العجز ، وهو غير الصرفة .

لقد وجدنا للقرآن حلاوة فى الألفاظ والأسلوب والفواصل ، وغير الفواصل — ليست فى غيره ، وهذا ما سميناه النظم تقريباً للفهم ، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى ، وهو ما وصفه الوليد بن المغيرة بقوله :

إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، ما يقول هذا بشر » .

١٢٠ — وبعد هذه التقدمة التى نمهد بها للقول ، نقول إن نظم القرآن ليس من أى نوع من أنواع النظم الذى يعرف عند أهل البيان ، فليس نثراً مرسلا ، وليس نثراً مصنوعاً ، وليس نثراً فيه ازدواج ، كما أنه ليس نثراً مسجوعاً ، وليس فيه فواصل تشبه السجع ، ولكنه شىء غير هذا ، وغير ذاك .

ويقول الباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن عن بديع نظمه « إنه بديع النظم عجيب التأليف ، متناه فى البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه ، والذى أطلقه العلماء هو على هذه الجملة ، ونحن نفصل ذلك بعض التفصيل ، ونكشف الجملة التى أطلقوها ، ثم يتكلم عن الإعجاز فى النظم فيقول :

« فالذى يشمل عليه بديع نظمه وجوه :

منها ما يرجع إلى الجملة ، وذلك أنه نظم القرآن على تصرف وجوهه ، وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد ، وذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع ، ثم إلى معدل موزون غير مسجع ، ثم إلى مايرسل إرسالا ، فتطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعانى المعترضة على وجه بديع ، وترتيب لطيف ، وإن لم يكن معتدلا فى وزنه ، وذلك شبيه بجملة الكلام الذى لا يتعمل فيه ، ولا يتصنع له . وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ، ومباين لهذه الطرق ، ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب السجع ، ولا فيه شىء منه ، وكذلك ليس من قبيل الشعر ، لأن من الناس من زعم أنه كلام مسجع ، ومنهم من يدعى أن فيه شعراً كثيراً ، والكلام عليهم يذكر بعد هذا الوضع .

فهذا إذا تأمله المتأمل ، تبين له بخروجه عن أصناف كلامهم ، وأساليب خطابهم ، أنه خارج عن العادة ، وأنه معجز وهذه خصوصيات ترجع إلى القرآن وتميز حاصل فى جميعه » .

وإن الباقلانى لا يكتفى بذكر ما بين أن القرآن ليس على الصفة التى امتاز بها بليغ الكلام عند العرب ، بل هو أعلى من ذلك يأتى بأبلغ الشعر وأبينه وأجود الخطب وأوقعها ، ثم يأتى بأكمل الكتب . ولا يكتفى بذكر كلام البلغاء ، بل بكلام صاحب جوامع الكلم وهو محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيقرر أنه وإن كان فوق أى كلام للبشر ، دون كتاب الله ، المعجز بكل ما اشتمل عليه ، وبكل ما فيه من لفظ ونغم وأسلوب .

ويذكر رضى الله عنه وجها آخر من وجوه الإعجاز فى نظم القرآن وأسلوبه ، فيقول .

« ومنها أنه ليس للعرب كلام يشتمل على هذه الفصاحة والغرابة ، والتصرف البديع ، والمعانى اللطيفة ، والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة ، والتناسب فى البلاغة ، والتشابه فى البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات محدودة ، وألفاظ قليلة ، وإلى شاعرهم قصائد محصورة (قليلة أو كثيرة) يقع فيها ما نبينه بعد هذا من الاختلال ويعترضها ما نكشفه من الاختلاف ، ويشملها ما نبديه من التعمل والتكلف والتجوز، والتعسف، وقد كان القرآن على طوله متناسبا فى الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به ، فقال عز من قائل : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم، وقلوبهم إلى ذكر الله[١] » وقوله تعالى « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا[٢] » فأخبر سبحانه أن كلام الآدمى إن امتد وقع التفاوت، وبان الاختلال .

---

(١) الزمر: ٢٣ .

(٢) النساء: ٨٢ .

وهذا المعنى هو غير المعنى الأول الذى بدأنا ذكره ، فتأمل تعرف الفضل .

وفى ذلك معنى ثالث ، وهو أن عجيب نظمه ، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التى يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج ، وحكم وأحكام ، وإعذار وإنذار ووعد ، ووعيد ، وتبشير وتخويف ، وأوصاف وتعليم ، وأخلاق كريمة وشيم رفيعة ، وسير مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها ، وتجد كلام البليغ الكامل ، والشاعر المفلق ، والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور » .

ثم يقول رضى الله عنه : « وقد تأملنا نظم القرآن ، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التى قدمنا ذكرها على حد واحد فى حسن النظم ، وبديع التأليف والرصف ، لا تفاوت فيه ، ولا انحطاط عن المنزلة العليا ، ولا إسفاف فيه إلى المرتبة الدنيا ، وكذلك قد تأملنا ما تتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة ، فرأينا الإعجاز فى جميعها ، على حد واحد لا يختلف ، وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتا بينا ، ويختلف اختلافاً كبيراً ، ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة ، فرأيناه غير مختلف ، ولا متفاوت ، بل هو نهاية البلاغة ، وغاية البراعة ، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه[1] .

ويذكر الباقلانى أن من دلائل الإعجاز تفاوت كلام البلغاء فى الوصل والفصل . والانتقال من معنى إلى غيره ، وتقريب المعانى وتبعيدها ، وأن القرآن ليس فيه ذلك النقص الذى يعرو كلام البشر ، ويختلف قوة وضعفا فى ضم المعانى وتفريقها والقرآن فى ذلك النمط المتسق الذى لا يجارى .

---

(١) اعجاز القرآن للباقلانى .

١٢١ — هذه أمور تقريبية تقرب معنى الإعجاز ، ولا تحده ، وتذكر بعض الأسباب ولا تتقصاها ، إنه ككل الأمور التى تحس بها ولا نستطيع تعرف دقائق أسرارها ، فهو كتاب الله الذى يعلم السر وأخفى ، ولكننا نقر بالعجز عن الإتيان بمثله لأننا ندرك علوه ، ولا نعرف الأسباب التى علت به . وليس هذا من الصرفة . كما ذكرنا ، إنما الصرفة أن نعرف قدره وقدرتنا على مثله ، ولكن ننصرف عن ذلك .

وإن القرآن ليس من قبيل ما اصطلح عليه الناس فى علوم البلاغة ، فليس نثراً مرسلا كما ذكرنا ، لأن النثر المرسل ليس له نغم مؤتلف ، وهو فى قدرة كل إنسان بليغ ، وقد تلونا عليك بعض الآيات فى الأحكام الشرعية ، فرأينا ائتلافا فى النغم ، وروعة فى البيان ، لا تجعلانها كلاما مرسلا كسائر الكلام . فإنك واجد التآخى بين الألفاظ والتناسق فى الأسلوب ، والمعانى التى تتداعى ، ويأخذ بعضها بحجز بعض ، وكل كلمة تومىء إلى أختها .

ولنضرب مثلا من الكلام الذى ليس ما يشبه السجع ولا القافية ولا الازدواج ولا الشعر ، اقرأ قوله تعالى :

« إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون ، فالق الإصباح ، وجعل الليل سكنا ، والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون »(١).

إنك واجد فى كل كلمة مع أختها إشراقا . وصورا بيانية ، لقد ذكر سبحانه ، كيف يفلق الحب فيكون زرعا ، إذا أتى حصاده أكل منه الإنسان

(١) الأنعام : ٩٥ — ٩٨

والحيوان ، وازينت به الأرض، وأتت من كل زوج ، وغير ذلك من الصور والأحياء ثم التعبير بفالق النوى ، وكيف يخرج من النوى الدوحة الباسقة الوارفة الظلال ، والأشجار الدانية القطوف ، واليانعة الثمار ، ثم كيف يعطر الوجود بالرياحين والزهور من هذه النواة اليابسة ، وكيف يخرج سبحانه وتعالى من التراب أحياء ومن الحب الجامد ، والنواة الصلبة غصونا حية ، وزروعا رطبة ، وكيف تدور الحياة إلى موت ، فيخرج الميت من الحى وإن ذلك مرئى،وإنما ينبت الزرع ويخضر ، ويستوى على سوقه بعد أن يخرج شطأ ، ثم يصير حطاما .

ثم بين سبحانه أن الذى فعل ذلك هو سبحانه فى إشارات بيانية ، فيها استعلاء ، وفيها توجيه بأبلغ ما يكون التوجيه ، ثم كان الختام باستفهام إنكارى وتعجب ،لأن الأمر يستدعى التعجب فى ذاته، ثم ختم الكلام بختام فيه رنات قوية لائمة فى معناها ، ومنبهة للعقول فى نغمها وفى موسيقاها ، ثم جاء بعد البيان عن الأرض ومافيها من زرع وضرع ، وباسقات — إلى السماء ، وما فيها من بروج وأفلاك ونجوم وشمس وقمر ، وما يصدر عنها من نور وضياء ، وكان الانتقال من الأرض إلى السماء بتقريب فى الألفاظ والمعانى، فعبر سبحانه عن خروج النهار من الليل بالفجر الصادق الذى يشق الظلام ، فقال سبحانه — فالق الإصباح — وفى ذلك مقاربة فى التعبير بين فلق الحب ، والنوى ، وشق النور فى الظلام ، ثم جعل من بعد ذلك نتيجة لهذا الإصباح أن كان الليل سكنا ، ووجه الأنظار إلى الشمس والقمر ، فجعلهما سبيلا لحسبان الأيام والليالى والشهور ، ثم ختم النص بما يفيد أن ذلك كله من حكمة الله تعالى العلى القدير ، وهنا نجد المعنى واللفظ يختمان بختام من القول يدل على انتهاء هذا الجزء ومثله فى ذلك — ولكلام الله تعالى المثل الأعلى ، كمثل من يصور أجزاء كل جزء منه ناطق وحده متميز بوجوده مع الاتصال الوثيق بما يليه ، وقد كانا على مقربة بعضهما من بعض فى نسق

٢٤٧ — والغزالى يقول المعنى الذى يؤخذ من ظواهر الألفاظ العربية ، ويثبت بعضه من السماع عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والصحابة هو الطريق للمعنى العميق الذى يدركه النـــاس كلما تقدم العلم ، واطلعوا على ظواهر الكون وكشفوا من خواصه ما كان مجهولا ، ولا سبيل لمعرفة تلك المعانى العميقة إلا بالمعانى الظاهرة المكشوفة .

ويقول الغزالى فى ذلك ما نصه : « النقل والسماع لا بد منه فى ظاهر التفسير أولا ، ليتقى موضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتتبع للتفهم والاستنباط ، واستخراج الغرائب التى لا تفهم إلا بالسماع ، ولا مطمع فى الوصول إلى الباطن قبل إمكان الظاهر ، ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر ، فهو كمن يدعى البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب ، أو يدعى فهم مقاصد الأتراك من كلامهم ، وهو لا يفهم لغة الترك ، فإن ظاهر التفسير يجرى تعلم اللغة التى لا بد منها للفهم » .

والمعنى الباطن الذى يقصده الغزالى هو تحرى الدقائق التى تكون فى مطوى الألفاظ القرآنية ، والأسرار التى لا يدركها إلا العلماء الراسخون فى الإسلام ، والعلوم المختلفة ، كل بمقدار طاقته العلمية ، بعد فهم ظاهر اللفظ وما فيه من مجاز وحذف وإخبـار ، وعموم ، وخصوص ، وإطلاق وتقييد ، وإن ذلك واضح من كلامه وضوحاً بيناً ، فهو يقول فى معانى القرآن :

« إنما ينكشف للراسخين فى العلم من أسراره بقدر غزارة علمهم ، وصفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدبر وتجردهم للطلب ، ويكون لكل واحد حد فى الترقى من درجة إلى درجة أعلى منها ، فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ، ولو كان البحر مداداً والأشجـار أقلاماً ، فأسرار كلمة الله عز وجل لا نهاية لها ، فمن هذا الوجه يتقارب الخلق فى الفهم، بعد الاشتراك

ولو حاولنا أن نعرف سر ذلك النغم وتلك الموسيقى ، وذلك التآخى لعجزنا أن نعرفه على وجه التحقيق ، إنما نعرف تأثيره فى نفوسنا إذا تهدت ووصلت إلى ذوق ذلك الأسلوب ، وذلك أمر يدرك لذوى الألباب ، ولا يعرف سره .

وإن النظم القرآنى تأليفه كله له رنين الموسيقى ، لقد جرى العرب كتاباً وشعراء وخطباء على أن يجدوا النغم فى فاصلة سجع أو قافية شعر ، لكن نظم القرآن ونغمه ينبعث من كلماته وحروفه وأسلوبه ، فحروفه متآخية فى كلماته لها موسيقى ونغم تهتز لها المشاعر ، وتسكن عندها تطمئن النفوس ، والكلمات فى تآخيها فى العبارات تنتج موسيقى ونغما يختص به القرآن وحده وإن أى كلام مهما يكن علو صاحبه فى البيان لابد أن يكون متخلفاً عن القرآن لا يمكن أن يلحق به ، لأنه كلام الله تعالى وفوق طاقة البشر .

ويعجبنى ما كتبه فى هذا الكاتب المؤمن مصطفى الرافعى إذ يقول: « كان العرب يترسلون فى منطقهم كلما اتفق لهم ، لا يراعون أكثر من تكييف الصوت دون تكييف الحروف التى هى مادة الصوت إلى أن يتفق من هذا قطع فى كلامهم تفى بطبيعة الغرض الذى تكرن فيه ،أو بما تعمل لها المتكلم على نمط من النظم الموسيقى إن لم يكن فى الغاية ، ففيه قرب من هذه الغاية .

فلما قرىء عليهم القرآن رأوا حروفه ، فى كلماته ، وكلماته فى جمله ألحاناً لغوية رائعة ، كأنها لأتلافها وتناسبها قطعة واحدة ، قراءتها هى توقيعها ، فلم يفتهم هذا المعنى ، وأنه أمر لاقبل لهم به وكان ذلك أبين فى عجزهم ، حتى إن من عارضه منهم كمسيلمة جنح فى خرافاته إلى ما حسبه نظما موسيقياً ، وطوى عما وراء ذلك من التصرف فى اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البيانى ، كأنما فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية ، إنما هو فى أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها ، وليس يتفق

ذلك فى شىء من كلام العرب إلا أن يكون وزنا من الشعر أو السجع » .

التلاؤم :

١٢٢ — إن المعنى الذى ذكره المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى هو ما سماه الرومانى بالتلاؤم ، أى تكون نغمات الحروف متلائمة بعضها مع بعض فى الكلمة ، والكلمات يتآلف نغمها بعضها مع بعض ، فى الجمل ، والجمل يتآلف بعضها مع بعض فى القول كله ، لما نرى فى القرآن الكريم ، فإن الآية تتضافر ألفاظها فى نغم هادىء إن كانت الآية فى تبشير أو داعية إلى التأمل والتفكير إن كانت فى عظة ، وتتلاءم نغماتها قوية إذا كانت فى إنذار ، أو فى وصف عذاب اقرأ قوله تعالى « الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ، كذبت ثمود وعاد بالقارعة ، فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ، وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ، فعصوا رسول ربهم ، فأخذهم أخذة رابية [(١)]» .

إنك ترى فى هذه الآيات الكريمات ، وهى إنذار بما يكون يوم القيامة ، وما يستقبل الذين طغوا فى البلاد، وأكثروا فيها الفساد من عذاب شديد يترقبهم ـ ترى فى النغم قوة شديدة قارعة لأسماع الذين يشركون ، ويكفرون بالله تعالى ، ويفسدون ، ويعتدون ، ويظلمون ، ويشترك فى نغمة الترهيب الألفاظ بحروفها ، والجمل بكلماتها ، والخواتم بشدة جرسها ، وقرع الأسماع بها .

ثم اقرأ فى سورة الضحى نغمات الرحمة الواسعة ، إذ يقول سبحانه : « والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك

---

(١) الحاقة : ١ — ١٠ .

من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيما فآوى ،ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث[١] » .

وانظر إلى الآيات الداعيــــة إلى التأمل فى الكون ، وما فيه من أمور هادية تجـد فيها النغمات الهادئة اللافتة الموجهة من غير قرع الأسماع ، بل بتوجيه للأفهام ، اقرأ قوله فى سورة الغاشية .

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ، فذكر ، إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر ، إلا من تولى وكفر ، فيعذبه الله العذاب الأكبر ، إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم »[١] .

وإنك ترى فى هذا النص المبين قد اجتمع التأمل ذو النغمة الهادئة الموجهة من غير عنف فى جرس يسترعى الأسماع ويصرف الأنظار ، واجتمع الإنذار الشديد القوى ، ولم يكن ثمة تنافر بين الإنذار الشديد ، والتأمل السديد بل كان الانتقال من مقام إلى مقام لا يبـدو فيه التباين ، وإن كان المقام الثانى إنذاراً ، ذلك لأن الإنذار كالثمرة للتوجيه بالنسبة لمن لم تهده الآيات ، وتوجهه النظرات إلى الكون وما فيه .

وإنك إذ تنظر فى وصف الجحيم تجده فى نغم كأنما يخرج منه ريح السموم ، وإن وصف الجنة تجده فى نغمه أصواتاً حلوة كأنها ريح وريحان لأنها جنة ، واقرأ بعض السورة التى تلونا منها آنفا ، وصفا للجحيم ووصفا للنعيم ، فإنك واجد لا محالة الفرق فى النغم ، اقرأ قوله تعالى : « هل أتاك حديث الغاشية ، وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية ، تسقى من عين آنية ، ليس لهم طعام إلا من ضريع ، لا يسمن ، ولا يغنى من

(١) سورة الضحى كلها .
(٢) الغاشية ١٧ — ٢٦ .

جوع - وجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية ، فى جنة عالية ، لاتسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة»(١).

تجد فى هذه النصوص وصفين لأمرين متباينين ، أولهما وصف الجحيم وأصلها ، وتجد فيه الألفاظ والمعانى والنغم ، كله يلقى بالألم فى النفس ، والخوف من العذاب الشديد ، والمصير العتيد . والثانى وصف النعيم وأهله ، وترى فيها الراحة ، والاطمئنان والقرار ، والسعادة ، ويشترك فى هذا ألفاظ وجمل ومعان ، ونغم حتى كأنك ترى لاتسمع .

١٢٣ - وإن الكلام الذى يتسم بالبلاغة لا بد أن يكون فيه التلاؤم ، والتلاؤم ضد التنافر ، وعرفه الرمانى . فقال « التلاؤم نقيض التنافر ، وهو تعديل الحروف فى التأليف ، والتأليف متنافر ، ومتلائم فى الطبقة الوسطى ، ومتلائم فى الطبقة العليا ، ثم يضرب الأمثلة على التنافر الذى هو ضد التلاؤم ، ثم يذكر أن التلاؤم الذى يكون فى الدرجة الوسطى هو التلاؤم الذى يكون فى كلام البلغاء وأهل الفصاحة من الناس ، أما التلاؤم فى الطبقة العليا ، فإنه لا يكون إلا فى القرآن الكريم ، ويقول فى ذلك رضى الله عنه :

والمتلائم فى الطبقة العليا فى القرآن كله وذلك بين لمن تأمله ، والفرق بينه وبين غيره من الكلام فى تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم فى الطبقة الوسطى ، وبعض الناس أشد إحساساً بذلك وفطنة له من بعض ، كما أن بعضهم أشد إحساساً بتمييز الموزون فى الشعر من المكسور ، واختلاف الناس فى ذلك من جهة الطباع كاختلافهم فى الصور والأخلاق ، والسبب فى ذلك تعديل الحروف فى التأليف ، فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤماً » .

---

(١) الغاشية : ١ — ١٦ .

ويستفاد من معنى هذا الكلام أنه يرجع السبب في علو التلاؤم في القرآن كله إلى التعديل بين الحروف بأن تكون الحروف متلاقية في النطق، فليس فيها تباعد في المخارج شديد، بحيث يصعب الانتقال من مخرج إلى مخرج، ولا التقارب الشديد الذي يجعل بعض الحروف يندغم في بعض.

وإن ذلك ينطبق على النطق، فالتعديل في المخارج بالبعد عن الاختلاف الشديد أو القرب الشديد، إنما هو يتعلق بالنطق وإنك بلا ريب تجد ألفاظ القرآن الكريم وجمله بعيدة عن هذا كل البعد، بل إنه المثل الأعلى في ذلك.

وإن التلاؤم في ألفاظ القرآن الكريم وجمله وآياته ومواضع الوقف فيه ليس في المخارج فقط، بل هو فيما هو أعلى من ذلك، إنما هو في النغم، وجرس القول وموسيقاه، فلا تجد حرفا ينشز في موسيقاه عن أخيه، ولا الكلمة عن أختها، ولا الجملة عن لاحقتها، والآية كلها تكون مؤتلفة النغم في الغرض الذي سيقت له، فإن كان إنذاراً كان النغم إرعاداً، وإن كان تبشيراً كان نسيماً، وإن كان عظة كان تنبيهاً، وإن كان تفكيراً، كان توجيهاً لافتاً عما سواه، وهكذا.

وقد قال الرماني «والتلاؤم في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد وذلك يظهر بسهولته على اللسان، وحسنه في الأسماع، وتقبله في الطباع، فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان في صحة البرهان في أعلى الطبقات ظهر الإعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام، كما تظهر له أعلى طبقات الشعر من أدناها إذا تفاوت ما بينها وقد عم التحدى للجميع لرفع الإشكال، وجاء على الاعتبار بأنه لا تقع المعارضة لأجل الإعجاز فقال عز وجل: «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله، إن كنتم صادقين، ثم قال: فإن لم

تفعلوا ولن تفعلوا »[1] فقطع بأنهم لم يفعلوا ، وقال تعالى : قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله »[2] ولما تعللوا بالعلم والمعانى التى فيه قال : « فأتوا بعشر سور مثله مفتريات[3] » فقد قامت الحجة على العربى والعجمى » .

وإن هذا يدل على أن العجز لم يكن لأجل المعانى فقط ، وإن كانت معجزة فى ذاتها ، ولكن التحدى كان بالألفاظ والأساليب ، لأنهم أمة بليغة ولكنها أمية .

وقد أدركوا من أول الأمر مافى الألفاظ من جمال ، وما فى تأليف القول من نسق وانسجام ، وما فى جرسها من نغم ، ولما تورط بعض منهم فى أن يحاكوا القرآن ، لم يكن اتجاههم إلا إلى النغم أرادوا محاكاته فى نغمه ، فجاء كلامهم غثاً ، ليس فيه نغم ولكن فيه ما يدل على إدراك سقيم .

الفواصل :

١٢٤ — يعرف الرومانى الفواصل بأنها حروف متشاكلة فى المقاطع توجب حسن إفهام المعانى ، ويقول « الفواصل بلاغة والأسجاع عيب ، وذلك أن الفواصل تابعة للمعانى ، وأما الأسجاع ، فالمعانى تابعة لها ، وهو قلب ماتوجبه الحكمة فى الدلالة ، إذ كان الفرض الذى هو حكمة إنما هو الإبانة عن المعانى التى إليها الحاجة ماسة ، فإذا كانت المشاكلة موصلة إليه فهو بلاغة ، وإذا كانت المشاكلة على خلاف ذلك فهو عيب ولكنة ؛ لأنه تكلف من غير الوجه الذى توجبه الحكمة ، ومثله مثل من رصع تاجاً ، ثم ألبسه زنجياً ساقطاً ، أو نظم قلادة ، ثم ألبسها كلباً ، وقبح ذلك وعيبه بين لمن له أدنى فهم ، فمن ذلك مايحكى عن بعض الكهان : « والأرض والسماء

---

(١) البقرة : ٢٤

(٢) الإسراء : ٨٨

(٣) هود : ١٣

والغراب الواقعة بنقعاء ، لقد نفر المجد إلى العشراء » . وهكذا نجد الرمانى يفرق بين السجع والفاصلة بأن الفاصلة بلاغة ، وأن السجع عيب ، وأن الفواصل الألفاظ فيها تتبع المعانى والسجع الألفاظ فيها مقصودة ، والمعانى تابعة ، ويظهر أنه لم يكن بين يديه إلا سجع الكهان ، ولكن أكل السجع كذلك ، وألا يوجد سجع يزيد المعانى قوة ، وتكون فيه المعانى هى المتبوعة ، وليست تابعة ، وأن السجع يزيد المعانى ، ويعطيها قوة ويسهل قبولها ، ويكون باباً من أبواب تأكيدها .

ولذلك خالف الرمانى فى ذلك الكلام الذين كتبوا البلاغة من بعد ، وقبل أن نخوض فيما قالوه ، نقـــرر أن الفرق ، هو بين الفواصل والسجع ، إن الفواصل معناها أن تكون مقاطع الكلام متقاربة فى الحروف كالنون والميم فى قوله تعالى «الرحمن الرحيم مالك يوم الدين» ، وأما السجع فهو أن تكون المقاطع متحدة فى الحروف ، ونلاحظ أن الرمانى متأثر فى فكرة السجع بسجع الكهان الذى قصد به اتحاد الحروف من غير نظر إلى المعنى ، ومن غير أن تكون المعانى فى ذاتها ذات قيمة ، بل لا يقصدون إلا إلى رص الكلمات متحرين اتحاد المقاطع .

وأنه عند التحقيق نجد أن الفواصل أعم من السجع ، فهى إما سجع تتحد فيه حروف المقاطع أو مجرد فواصل تتقارب فيها حروف المقاطع، وذلك رأى ابن سنان فى كتابه سر الفصاحة[1] فهو يقول : « الفواصل على ضربين : ضرب يكون سجعاً ، وهو ما تماثلت فيه حروفه فى المقاطع، وضرب لا يكون سجعا ، وهو ما تقابلت حروفه فى المقاطع ، ولم تتماثل ، ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين من أنه يأتى سهلا طوعاً وتابعاً للمعانى ، وبالضد من ذلك ، حين يكون متكلفاً يتبعه المعنى ، فإن كان من القسم الأول

---

(١) سر الفصاحة ص ١٦٥ .

فهو المحمود الدال على الفصاحة ، وحسن البيان ، وإن كان من الثانى فهو مذموم .

وإن هذا الكلام معناه أنه ليس كل فاصلة تكون الألفاظ تابعة للمعانى، فيكون الحسن والإفصاح والإحسان وليس كل سجع تكون المعانى تابعة للألفاظ ، فيكون التكلف ، بل التعميم بالحسن فى غير السجع والقبح فى السجع هو الخطأ ، ولا شك أن فواصل القرآن كلها من البليغ الذى تكون فيه الألفاظ تابعة للمعانى .

وأنه بلا ريب فى القرآن مقاطع تتحد فيها الحروف، ومقاطع أيضاً لا تتحد فيها الحروف ، ولكن تتقارب ، ومن المقاطع التى تتحد فيها الحروف قوله تعالى فى سورة الغاشية « هل أتاك حديث الغاشية ، وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية ، تسقى من عين آنية ، ليس لهم طعام إلا من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع ، وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية ، فى جنة عالية ، لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة . وزرابى مبثوثة »[1] . ومن ذلك أيضاً قولة تعالى : « والطور وكتاب مسطور فى رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع والبحر المسجور ، إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع »[2] .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا ، إن الإنسان لربه لكنود، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد »[3] .

---

(١) الغاشية : ١ — ١٦ .
(٢) الطور : ١ — ٨ .
(٣) العاديات : ١ — ٨ .

وهكذا نجد اتحاد حروف المقطع ، فى مقطعين أو أكثر ، ثم تتغير ، إلى اتجاه المقاطع فى حرف آخر . ومن القرآن ماتتقارب فيه المقاطع ، مثل قوله تعالى « ق والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون هذا شىء عجيب ، أئذا متنا ، وكنا تراباً ذلك رجع بعيد ، قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ، بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج ، أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ، ومالها من فروج »[١] .

إننا لا نجد المقاطع متحدة الحروف ، ولكن نجد أموراً ثلاثة :

أولها — تقارب مخارج الحروف فى المقاطع ، فالدال والباء ، والظاء مخارجها واحدة النطق فيها متقارب ، ولا نفرة بينها .

ثانيها — وجود حرف المد قبل الحرف الأخير من كل مقطع ، وهو حرف الياء فى خمسة منها ، وواحد بالواو والوزن فى الخمس الأول منها هو وزن فعيل .

وبهذين الأمرين كان التقارب فى المقاطع ، تقارباً بيناً يجعل نسق القول واحداً ، ولو لم تتحد المقاطع .

والأمر الثالث هو اتحاد النغم والموسيقى فى كل المقاطع ، فهى كلها مؤتلفة فى حروفها وألفاظها ، وجملها ومقاطعها ، حتى كونت صورة بيانية تجعل كلام الله العزيز فوق كل منال .

وقد يكون الكلام فى القرآن خالياً من المقاطع فى بعض الآيات ، ولا ينزل فى نغمه وموسيقاه عن سمته ومستواه الأعلى ، ومن ذلك قوله تعالى « محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا

---

(١) ق : ١ — ٦ .

سجداً ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما » (١)

ومن ذلك كثير من آيات الأحكام مثل آية المواريث ، فالله تعالى يقول : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين ، فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين آباؤكم أبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله ، إن الله كان عليما حكيما . ولكم نصف ما ترك أزواجكم ، إن لم يكن لهن ولد، فإن كان لهن ولد ، فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك ، فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين ، غير مضار وصية من الله والله عليم حليم ، تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم » (٢) .

وإننا لا نجد فى هذا الكلام إلا مقطعين لا يعدان فواصل متقاربة ، ولا فواصل متحدة فى آخرها بحروفها ، إنما هو كلام الله المنثور من غير إرسال ، بل النغم متآخ ، والمعانى متلاقية ، والألفاظ متجانسة ، ومتلائمة مع بيان للأحكام ميسراً سهلا ، فلم ينزل ذكر الأرقام ، بمرتبة الكلام ، عن حد التلاؤم والتآخى .

---

(١) الفتح ٢٩ .
(٢) النساء : ١١ — ١٣ .

أفى القرآن سجع ؟

١٢٥ — الأمر الذى لامراء فيه أن القرآن الكريم فيه فواصل قد تتحد فيها حروف المقاطع ، أحياناً وقد تلونا فيما مضى من القول آيات بينات فيها المقاطع متحدة الحروف ، فهل تعد هذه سجعا ! اختلفت فى ذلك عبارات كتاب البلاغة فى القديم.

ونجد الرمانى يحكم بأن القرآن فيه فواصل ليست من السجع ، وبذلك يعلو القرآن فى نظره عن أن يكون سجعاً ، ويقاربه فى ذلك الرأى أو يوافقه الباقلانى فى كتابه دلائل الإعجاز ، وسنعود إلى الاستدلال لذلك الرأى إن شاء الله تعالى .

ولكن الآن نتكلم فى وجهة نظر الذين أثبتوا أن القرآن فيه سجع ، وإن كان أعلى مما يستطيعه الناس أو يزاولونه .

ومن هؤلاء أبو هلال العسكرى فى كتابه الصناعتين ، فهو يقول:

« وجميع ما فى القرآن مما يجرى على القرآن من التسجيع والازدواج مخالف فى تمكين المعنى وصفاء اللفظ ، وتضمن الطلاوة ، لما يجرى مجراه من كلام الخلق ، ألا ترى قوله عز اسمه « والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا [1] » . قد بان عن جميع أقسامهم الجارية هذا المجرى من مثل قول الكاهن : « والسماء والأرض ، والقرض والفرض والغمر ، والبرض ، ومثل هذا من السجع مذموم ، لما فيه من التكلف والتعسف ، ولهذا قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لرجل أندى من لاشرب ولا أكل ، ولاصاح فاستهل ، فمثل ذلك يطل : « أسجعا كسجع الكهان ، لأن التكلف فى سجعهم فاش ، ولو كرهه عليه الصلاة والسلام لكونه سجعا لقال : أسجعا ثم سكت ، وكيف يذمه ويكرهه ، وإذا

(١) العاديات ١ — ٥ .

سلم من التكلف ، وبرىء من التعسف لم يكن فى جميع صنوف الكلام أحسن منه ، وقد جرى عليه كثير من كلامه عليه السلام» .

ونرى من هذا أن أبا هلال العسكرى يخالف الرمانى فى أن السجع كله مذموم ، بل منه المذموم الذى يظهر فيه التكلف ، ويرهق الألفاظ والمعانى، حتى يحاول القائل أن يكون كلامه رصاً غير متماسك بملاط من المعانى .

ويرى أنه لا مانع من أن يوصف القرآن بأن فيه سجعاً ، ولكنه سجع فى أعلى مراتب الكلام ، بحيث لا يمكن أن يجاريه أحد، ولا يصل إلى علوه أحد من الخلق .

وابن سنان فى كتابه سر البلاغة يسمى ما فيه المقاطع متحدة سجعا ولكن فى درجة العلو القرآنى الذى لا يستطيع أحد أن ينهد فى كلامه إليه .

ويسوق نصوصا قرآنية يعدها من السجع منه ما تلونا ، ومنه قوله تعالى : « والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر ، هل فى ذلك قسم لذى حجر »[١] وقوله تعالى : «ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد[٢] » .

ويقول ابن سنان إن نغم السجع كان مقصوداً ، فقد حذفت الياء فى يسرى ، وحذفت فى الواد ، وذلك صحيح فى اللغة . ويقول قصد إليه طلبا للموافقة فى الفواصل .

ويستدل أيضاً بقوله تعالى : «اقتربت الساعة ، وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر »[٣].

---

(١) الفجر ١ — ٥ .

(٢) الفجر ٦ — ١٢ .

(٣) القمر ١ — ٢ .

ويتكلم ابن سنان فى البواعث التى بعثت الذين ينكرون أن يكون فى القرآن سجع ، فيحمد تلك البواعث مع الإصرار على المخالفة فيقول : « وأظن أن الذى دعا أصحابنا إلى تسمية كل مافى القرآن فواصل، ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعاً ، رغبة فى تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروى عن الكهنة وغيرهم ، وهذا غرض فى التسمية قريب ، فأما الحقيقة فما ذكرناه ، لأنه لا فرق بين مشاركة بعض القرآن لغيره فى كونه مسجوعاً وبين مشاركة جميعه فى كونه عرضا وصوتاً وكلاماً عربيا مؤلفا ، وهذا مما لا يخفى ، فيحتاج إلى زيادة فى البيان ، ولا فرق بين الفواصل التى تتماثل حروفها فى المقاطع وبين السجع .

ويقول فارضاً اعتراضاً ، وراداً عليه ، فإذا قال قائل « إذا كان عندكم أن السجع محمود ، فهلا ورد القرآن كله مسجوعاً ، وما الوجه فى ورود بعضه غير مسجوع ! قيل إن القرآن أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعادتهم ، وكان الفصيح من كلامهم لا يكون كله مسجوعا لما فى ذلك من أمارات التكلف والاستكراه ، والتصنع ، لاسيما فيما يطول من الكلام ، فلم يرد مسجوعاً ، جرياً على عرفهم فى الطبقة العالية من الكلام ، ولم يخل من السجع ، لأنه يحسن فى بعض الكلام على الصفة التى قدمناها ، وعليها ورد فى فصيح كلامهم ، فلم يجز أن يكون عالياً فى الفصاحة ، وقد أخل فيه شرط من شروطها ، وهذا هو السبب ، فأورد القرآن مسجوعاً ، وغير مسجوع » .

ونحن لا نفرض احتمال التكلف فى القرآن قط ، لأنه من عند الله تعالى ولكن نقول هكذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون هكذا كتابه ، وإذا أردنا أن نلتمس حكمة لذلك ، فهى فيما قال سبحانه « ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل» فتصريف القول فى القرآن ، كان من جماله الذى يعلو على كل البشر ، بأن يكون تصريف القول فيه بسجع أحياناً إن ارتضينا مذهب السجع ، أو الفواصل المتقاربة حروفها فى المقاطع أحياناً

أو إطلاق الألفاظ فى القرآن ، من غير مقاطع ، مع ملاحظة أن ذلك كله فى أعلى ذلك درجات البلاغة التى لا يصل إليها أحد من البشر .

وابن الأثير فى كتابه المثل السائر يستنكر قول الذين يذمون السجع، ويستنكر قول الذين لا يسمون ما فى القرآن من اتحاد المقاطع فى الحروف سجعا ، ويقول فى ذلك :

« وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ، ولا أرى لذلك وجهاً سوى عجزهم أن يأتوا به ، وإلا فلو كان مذموماً لما ورد فى القرآن الكريم ، فإنه قد أتى منه بالكثير ، حتى إنه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة كسورة الرحمن ، وسورة القمر وغيرهما ، وبالجملة فلم تخل منه سورة »

وترى أنه يستحسن السجع ، ويرمى الذين لا يستحسنونه بأنهم لا يجيدونه ونقول إنه لا يمكن أن يكون حسناً فى كل الأحوال ، فمثلا بيان الأحكام الشرعية فى أى كلام بليغ لا يصح أن تكون سجعا ، ولكل مقام مقال كما يذكر علماء البلاغة .

وخلاصة ما يقرره المثبتون للسجع فى القرآن أنهم يعتمدون على مايتلونه من اتحاد الحروف فى مقاطع القرآن ، ويقررون مع ذلك أن سجع القرآن أعلى من كلام البشر ، فليس على شاكلة مثله فى كلام الناس ، لأنه أعلى من كلام الناس .

١٣٦ — من هذه النقول التى نقلناها نجد الذين يقررون أن فى القرآن سجعا يعتمدون أولا — على نصوص القرآن التى ثبت فيها أن الفواصل المتحدة فى الحروف كثيرة فى القرآن ، وثانياً على أن السجع ليس عيباً فى القول ، ولكنه من محسنات القول ، وقد وقع كثيراً فى كلام العرب الجيد وإنه لم يكن سجع الكهان هو السائد فقط ، بل كان من بلغاء العرب من

اتجه إلى السجع البليغ ، فقد روى عن أبى طالب عم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال لسيف بن ذى يزن :

« أنبتك الله منبتاً طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه ، ونبت زرعه فى أكرم موطن ، وأطيب معدن » .

وإن الذين نفوا السجع من القرآن قالوا إنه مذموم ، وعلى رأسهم الرمانى ، وجاء من بعده أبو بكر الباقلانى ، فنهج ذلك المنهج وسار على ذلك الخط ، ونسبه إلى الأشاعرة ، فقال :

« ذهب أصحابنا كلهم إلى نفى السجع من القرآن ، وذكره الشيخ أبو الحسن الأشعرى فى غير موضع من كتبه .

وإذا كان الذين ردوا على الرمانى قد بينوا أن السجع ليس مذموماً على إطلاقه ، إنما المذموم منه سجع الكهان ، وما كان فيه اللفظ هو المقصود ، والمعنى تابع له .

وقد أنكر الباقلانى أن يكون فى القرآن سجع ، وما ادعوه من سجع فيه وساقوه ، هو وهم لا أساس له فقال :

« والذين يقدرون أنه سجع هو وهم ، لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع ، وإن لم يكن سجعا ، لأن ما يكون به الكلام سجعا ، يختص ببعض الوجوه دون بعض ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ لا يقع فيه تابعاً للمعنى ، وفصل بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه ، وبين أن يكون السجع منتظماً دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع ، كانت إفادة السجع كإفادة غيره ، ومتى انتظم المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلبا لتحسين الكلام دون تصحيح ،

وإننا هنا نجد افتراقا بين الباقلانى وابن الأثير وابن سنان وأبى هلال العسكرى فى تعريف السجع ، فأولئك يعتبرون السجع ما اتحدت فيه ألفاظ المقاطع ، سواء أكان المعنى هو المقصود ، وجاء الاتحاد تحسينا للقول ، أم كان المقصد هو اللفظ واتحاد ألفاظ المقاطع هو المقصود ، وفى الأول يكون السجع محموداً ، وفى الثانى لا يكون لائقاً بمقام القرآن الكريم .

أما الباقلانى وسائر الأشاعرة ، ومن سلك طريقتهم ، فإنهم لا يذكرون السجع إلا فى الصورة التى يكون فيها اللفظ مقدما على المعنى .

وإن الذى دفع الباقلانى إلى هذا هو تشبيه السجع بالشعر ، فالشعر تقصد فيه القوافى والمقاطع المتحدة فى الألفاظ ثم تكيف المعانى على الألفاظ ليستقيم المقطع ، كما تستقيم القافية ، وإذا كان الشعر منفياً فى القرآن بالاتفاق فكذلك السجع الذى ينهج منهجه ، ويتبع طريقته ، وتجىء المعانى تابعة للألفاظ مكيفة بكيفها ، مأخوذة بطريقها ، وإن الله تعالى عندما استنكر أن يكون قول شاعر ولا كاهن ، أدخل السجع فى النفى ، وهو السجع الذى يكون فيه المقصد الأول للفظ .

وإنه إذا كانت الفكرة نفياً أو إثباتاً قائمة على الاختلاف فى الاصطلاح ، فإنه قد زال الخلاف ، إذ لا مشاحة فى الاصطلاح .

وبذلك ننتهى إلى الاتفاق على أن القرآن فيه فواصل تتحد فيها المقاطع ولعلوها وسموها فى البلاغة كانت المعانى هى المقصد الأول ، وجاءت الألفاظ بجمالها وإشراقها وحسن نغمها ، ورنة موسيقاها تابعة لذلك ، وقد يكون اتحاد المقاطع فى الحروف من مظاهر الجمال وحسن النغم . وانسجام الموسيقى وفى ذلك قوة التأثير ، بما لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله .

وعلى ذلك نقول إن من يفسر السجع بأنه الاتحاد فى حروف المقاطع من غير أن يكون المعنى تابعاً للفظ يحكم بأن القرآن الكريم فيه سجع فوق

قدرة البشر أن يأتوا بمثله ، ومن يقول إن السجع كالشعر يكون المعنى فيه تابعاً للقافية والأوزان يكون القرآن الكريم منزهاً عنه .

ونحن نميل إلى أن اتحاد المقاطع فى القرآن لا يعد سجعاً ، لأننا نرى السجاعين يتجهون إلى الألفاظ أولا ، وقد يكون سهلا وحلواً ولكن الاتجاه فيه أولا إلى الألفاظ ، وذلك غير لائق بالنسبة للقرآن .

١٢٧ — وبذلك يكون الحكم فى أمر اتفق الطرفان المتخاصمان فيه على تقديس القرآن الكريم ، وتنزيهه عن أن يكون مشابها لكلام الناس ، وإن كان من جنسه ، ومكونا من حروفه .

ونختم الكلام بكلام لكاتبين مؤمنين قال أحدهما فى وصف ألفاظ القرآن ونظمه ، وقال الثانى فى فواصله ومقاطعه ، أما الأول فالباقلانى ، فقد قال :

« إن القرآن سهل سبيله ، فهو خارج عن الوحشى المستكره ، والغريب المستنكر ، وعن الصنعة المتكلفة ، وجعله قريبا إلى الأفهام ، يبادر معناه لفظه إلى القلب ، ويساوق المغزى منه عبارته إلى النفس ، وهو مع ذلك ممتنع المطلب عسير المتناول غير مطمع مع قربه فى نفسه ، ولا موهم مع دنوه فى موضعه أن يقدر عليه ، أو أن يظفر به ، فأما الانحطاط عن هذه الرتبة إلى رتبة الكلام المبتذل ، والقول المسفسف فليس يصح أن تقع فيه فصاحة أو بلاغة ، فيطلب فيه . ولكنه أوضح مناره ، وقرب منهاجه ، وسهل سبيله ، وجعله فى ذلك متشابها متماثلا ، وبين مع ذلك إعجازه فيهم » .

أما الثانى فهو الكاتب المؤمن مصطفى صادق الرافعى رحمه الله ورضى عنه فهو يقول فى فواصل القرآن ومقاطعه .

« ما هذه الفواصل التى تنتهى إليها آيات القرآن ؟ ما هى إلا صور تامة للأبعاد التى تنتهى بها جمل الموسيقى ، وهى متفقة مع آياتها فى قرار الصوت

اتفاقا عجيبا ، يلائم الصوت والوجه الذى يساق إليه بما ليس وراءه فى العجب مذهب ، وتراها أكثر ما تنتهى بالنون والميم ، وهما الحرفان الطبيعيان فى الموسيقى نفسها ، أو بالمد ، وهو كذلك طبيعى فى القرآن ... قال بعض العلماء : كثير فى القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين ، والياء والنون ، وحكمة وجودها التمكن من التطريب بذلك . كما قال سيبويه إنهم (أى العرب) إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون لأنهم أرادوا مد الصوت ، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا ، وجاء ذلك فى القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع .. فإذا لم تنته بواحدة من هذه (بالميم والنون والمد) كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى كان ذلك متابعة لصوت الجملة ، وتقطيع كلماتها ، ومناسبته للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه . وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا فى الجمل القصار ، ولا يكون إلا بحرف قوى يستتبع القلقلة أو السفير ، أو الصفير أو نحوهما مما هو صروف أخرى من النظم الموسيقى .

وهذه هى طريقة الاستهواء الصوتى فى اللغة ، وأثرها طبيعى فى كل نفس تفهمه وكل نفس لا تفهمه . ثم لا يجد من النصوص على أى حال إلا الإقرار والاستجابة ، ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضربا من الكلام البليغ الذى يطمع فيه أو فى أكثره ، ولما وجد أثر يتعدى أهل هذه اللغة العربية إلى أهل اللغات الأخرى ، ولكنه انفرد بهذا الوجه المعجز . فتألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره ، أو أقحم معه حرف آخر . لكان ذلك خللا بينا ، أو ضعفا ظاهراً فى نسق الوزن ، وجرس النغمة ، وفى حس السمع وذوق اللسان ، وفى انسجام العبارة ، وبراعة المخرج ، وتساند الحروف ، وإفضاء بعضها إلى بعض ، ولرأيت لذلك هجنة فى السمع كالذى تنكره من كل مرئى لم تقع أجزاؤه على ترتيبها ، ولم تتفق على طبقاتها ،

وخرج بعضها طولا وبعضها عرضا ، وذهب ما بقى منها إلى جهات متناكرة » .

وإن هذا الكلام يفيد فائدتين : إحداهما — أن موسيقى القرآن الكريم ونغماته هى التى استرعت أسماع العرب ، واستهوت نفوسهم ، ورأوا لها حلاوة ، وعليها طلاوة ليست من الشعر ، وإن علت على أعلى ما فيه ، وليست من نوع كلامهم البليغ وإن كانت من جنس كلامهم ، وأن ذلك التأليف فى النغم والجرس مع علو المغزى ، والمعنى ، وإحكام التعبير ، ودقة الإحكام ، لا يمكن أن يصل إليه أحد .

وقد يقول قائل هل هذه الأنغام المؤتلفة مقصودة فى ذاتها ، وهى الإعجاز فنقول إننا مهما نحاول فى رد الإعجاز إلى أسباب لا نجد سبباً واحداً بذاته هو الذى اختص بالإعجاز ، بل تضافرت فى ذلك الأسباب ، وكل واحد منها يصلح سبباً قائماً بذاته . ولكن نؤكد أن جرس المقاطع والحروف والكلمات والجمل ، والفواصل ، وأبعادها كل هذا فيه إعجاز للعرب عن أن يأتوا بمثلها .

وإن الدليل على أن جرس الآيات القرآنية بما حوت من حروف وكلمات هو من الإعجاز أن الله تعالى أمر بترتيل القرآن لا بمجرد القراءة ، فقد قال تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا » وبين سبحانه أن ترتيل القرآن بتعليم من الله تعالى ، فقد قال تعالت كلماته : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة . كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا[1] » فالله تعالى علم نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم الترتيل ، وهو علم أمته ذلك الترتيل ، وليس الترتيل مجرد القراءة ، إنما الترتيل قراءة منغمة تنغيماً يظهر التناسق فى الحروف والجمل والآيات ويكشف معانيها ، ونغماتها ، وتلك هى موسيقى القرآن .

---

(١) الفرقان : ٣٢

الفائدة الثانية التى يفيدها أن إعجاز القرآن لغير العرب هو بنغمه وجرسه الموسيقى ، فإن الموسيقى لغة الإنسانية ، وتهتز لها كل القلوب ، ونحن نوافقه فى اتجاهه إلى أن القرآن معجز للعرب وغيرهم ، ولكن لا نقصر إعجاز غير العرب على الموسيقى وحدها ، بل نقول إن ذات العبارات ، وشرائعه ، والعلم المبثوث فيه ، وكونه من أمى لا يقرأ ولا يكتب ، وقد نشأ فى بلد أمى ليس فيه معهد ، ولا مدرسة - هذا كله فيه الدلالة على أنه من عند الله تعالى .

٥ — الإيجاز والإطناب فى القرآن

١٢٨ — إن القسمة العقلية للكلام كثرة وقلة بالنسبة لمعناه تحصره فى أربعة أقسام ، أولها الإيجازة بأن تكون الألفاظ قليلة والمعانى كثيرة . وثانيها التقصير بأن تكون الألفاظ غير كافية للدلالة على المعانى . وثالثها الإطناب بأن تكون المعانى كثيرة، والألفاظ كثيرة لاحشو فيها. ورابعها التطويل ، وهو أن تكون الألفاظ كثيرة ، وفيها ما لا حاجة إليه وهذه الأقسام الأربعة من الناحية البلاغية متقابلة ، فالإيجاز والتقصير متقابلان ، وأولها باب من أبواب البلاغة وثانيهما عى فى القول ، ونقص فى البيان . والإطناب والتطويل متقابلان ، وأولها بلاغة وحسن أداء ، وثانيهما عى وعيب فى البيان ، يدفع إلى الملل والسآمة ، حتى يتبرم به السامع .

وقد ذكر الرمانى هـــذه الأقسام المتقابلة ، كل مع ما يقابله ، فقال : « والإيجاز بلاغة والتقصير عى ، كما أن الإطناب بلاغة والتطويل عى ، والإيجاز لا إخلال فيه بالمعنى المدلول عليه ، وليس كذلك التقصير ، لأنه لا بد فيه من الإخلال، فأما الإطناب فإنما يكون فى تفصيل المعنى، وما يتعلق به فى المواضع التى يحسن فيها ذكر التفصيل ، فإن لكل واحد من الإيجاز والإطناب موضعاً ، يكون به أولى من الآخر ، لأن الحاجة إليه أشد ، والاهتمام به أعظم ، فأما التطويل فعيب ، وعى ؛ لأنه تكلف فيه الكثير فيما يكفى منه القليل فكان كالسالك طريقاً بعيداً ، جهلا منه بالطريق القريب ، وأما الإطناب فليس كذلك ؛ لأنه كمن سلك طريقاً بعيداً لما فيه من النزهة الكثيرة ، والفوائد العظيمة ، فيحصل فى الطريق على غرضه من الفائدة ، على نحو ما يحصل له بالغرض المطلوب » .

وإنه يستفاد من هذا الكلام أن الإطناب هو فى زيادة المعانى ، لا فى

زيادة الألفاظ ، فإن اللفظ إذا زاد لا يكون الكلام من الإطناب البليغ المستحسن إلا إذا زادت معه المعـــانى ، وذلك يكون بتفصيل القول ، لا بإجماله . اقرأ قوله تعالى : « وما تلك بيمينك يا موسى ، قال هى عصاى أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمى ، ولى فيها مآرب أخرى[1] » إننا نرى هنا إطناباً حلواً تنرطب به الألسنة والأسماع ، كان الإيجاز أن يقول هى عصاى . وبقية المعانى تفهم ، ولكن محبة موسى لربه ، ورغبته فى أن يطيل المحادثة ، صرح بما يفهم ضمناً ، وبما يعلمه الله تعالى من غير بيان .

واقرأ مرة أخرى ما قاله موسى عليه السلام عندما كلفه ربه أن يقوم بحق الرسالة ، فقد قال راغباً فى حديثه مع ربه : « رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى اشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى ، كى نسبحك كثيراً ، ونذكرك كثيراً ، إنك كنت بنا بصيرا ، قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ، ولقد مننا عليك مرة أخرى ، إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه فى التابوت ، فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل ، يأخذه عدو لى وعدو له ، وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ، إذ تمشى أختك ، فتقول هل أدلكم على من يكفله ، فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن ، وقتلت نفساً فنجيناك من الغم ، وفتناك فتونا فلبثت سنين فى أهل مدين ، ثم جئت على قدر يا موسى ، واصطنعتك لنفسى[2] » .

وهنا نجد فى هذا الكلام إطناباً فى خطاب كليم الله تعالى لربه ، فهو لا يكتفى بالملزوم حتى ينطق باللازم ، لأن الخطاب محبب إلى نفسه لأنه يخاطب ربه فيسهب فى القول من غير تزيد .

---

(١) طه ١٧ — ١٨ .

(٢) طه : ٢٥ — ٤١ .

ثم تجد بعد ذلك فى كلامه إيجازاً غير مخل ، قد حذف منه ما صرح به فى آيات أخر من قصة سيدنا موسى مع فرعون ، فذكر أن أخته قالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، ولم تذكر أنه حرم عليه المراضع ، وقد عرف هذا من الآيات الأخرى ، وفهم من هذه الآية ، إذ أنه لا يمكن أن يكونوا فى حاجة إلى من يكفله لهم ، إلا إذا احتاجوا إلى ذلك ، وحذف من قبل كلام امرأة فرعون ، وقد فهم ضمنا من قوله تعالى ، وألقيت عليك محبة منى .

وذكر هنا قتله نفسا ، وطوى ذكر ما كان منه عند ما بلغ رشده ، ورؤيته رجلا من شيعته يستغيثه فأغاثه وقتل الذى من عدوه ، ثم طوى سبحانه وتعالى خبر الائتمار به ليقتله المتآمرون ، ثم خروجه ، والتقاؤه بابنتى شعيب وسقيه لهما ، ومجىء إحداهما تمشى على استحياء ، ثم زواجه ، على أن يكون المهر عمله ثمانى حجج أو عشر ، ثم إيناسه بالنار ثم مكالمة الله تعالى ، وقد ذكر ذلك كله فى قوله تعالى « فلبثت سنين فى أهل مدين ، ثم جئت على قدر يا موسى ، واصطنعتك لنفسى »[1] .

وهكذا نجد أن الإطناب لا يكون بكثرة الألفاظ فقط ، بل بكثرتها مع كثرة المعنى ، والإيجاز لا يكون بكثرة المعانى فقط ، بل لابد أن يكون فى الألفاظ دلالة واضحة على المعانى الكثيرة ، أو أن تكون هذه المعانى ذكرت فى مقام آخر من القرآن ، فإن القرآن الكريم كل كامل لا تنقص معانيه ، ولا تستغلق على قارئيه ، وقد يحذف القول فى مكان ، لأنه يفهم بدلالة الأولى فى مكان آخر .

وبين أيدينا فى هذا الباب آيات فى الميراث .

لقد قال تعالى فى ميراث الأولاد : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت

---

(١) طه ٤٠ ـ ٤١ .

واحدة ، فلها النصف »[1] ، ونرى هنا أن النص الكريم ذكر أن ميراث الواحدة إذا انفردت النصف ، وميراث الأكثر من اثنتين الثلثان ، ولم يذكر الميراث إذا كانتا اثنتين فقط ، ولم تزيدا عن اثنتين ، أيكون النصف أم يكون الثلثين ؟

لقد تبين ذلك فى ميراث الأخوات ، فقد قال تعالى : « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ، إن امرؤ هلك ، ليس له ولد وله أخت فلها نصف ماترك ، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين ، يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم[2] » .

وهنا نجد الإيجاز المحكم ، فنجد فى الآية الأولى تحذف ما يفهم بالأولى من الآية الثانية ، ويحذف من الثانية كذلك ، فقد ذكرت الآية حكم ما فوق الاثنتين ، ولم تذكر حكم الاثنين ، وهو ما بين فى الآية الأخرى لأنها ذكرت أن ميراث الاثنتين هو الثلثان ، وإذا كانت البنت أقرب إلى الميت من الأخت فيكون ميراث البنتين الثلثين بدلالة الأولى ، لأنه إذا كانت الأختان وهما أبعد تأخذان الثلثين ، فأولى أن تأخذهما البنتان الاثنتين ، لأنهما أقرب ، فلا يمكن أن يكون نصيبهن أقل من الثلثين .

والآية الأولى نصت على أن الأكثر من بنتين تأخذان الثلثين ، فلا زيادة عن الثلثين ، فالأولى بألا يزيد عن الثلثين نصيب الأكثر من أختين لأن الأكثر من اثنين من ذوى القرابة القريبة لا يزيد عن الثلثين ، فأولى ألا تزيد عن ذلك ذوات القرابة الأبعد .

وأمثال ذلك كثير فى القرآن ، ومنه قوله تعالى « والمطلقات يتربصن بأنفسهن

---

(١) النساء : ١١

(٢) النساء : ١٧٦

ثلاثة قروء ، ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك[١] ، وهذه حال المطلقة الحامل ، وذلك إيجاز لا تفصيل فيه ، وبينت حال الحامل ، فى قوله تعالى : « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن »[٢] .

١٢٩ — وإن الأمر الذى يجب أن نعرفه ونؤمن به ونؤكده ، وهو الذى يليق ببلاغة القرآن التى لا تسامى ، ولا تناهد ، وتتحدى بها الأجيال كلها ـ فى كل اللغات ـ أن الإيجاز ليس فيه قصور فى الألفاظ بجوار كثرة المعانى ، وليس فيها إبهام أو عدم وضوح ، بل الألفاظ تكون على قدر المعانى مع كثرتها ، فهى واضحة الدلالة ، كما أن المعانى وفيرة غزيرة مغدقة .

وإن الإطناب كذلك فإن المعانى تكون كثيرة ، والألفاظ على قدرها لا زيادة فيها بحيث لا يمكن الاستغناء عن بعضها والاكتفاء ببعضه ، بل إنك لو أردت حذف كلمة ، بل حرف من كلمة لأحسست بأنك قطعت جزءاً من الصورة البيانية : فلا تكون الصورة كاملة بدونها ، بل تحس بفراغ فى مكانها لابد أن يملأ .

وإذا كان الإطناب مع كثرة الألفاظ على قدر المعانى بحيث لا يستغنى بكلمة عن كلمة ، والإيجاز كذلك ، فما الفرق إذن بينهما ، ولم يكن ثمة حاجة . لأن يقسم بيان القرآن إلى إيجاز وإطناب ، وقد اتفق علماء البلاغة على أن فى القرآن الكريم النوعين .

وإننا نقول فى الجواب ، إن الإيجاز والإطناب طريقان للبيان ، كل منهما واف فى موضعه ، يؤدى الغرض الأول فى موضعه ، وهما يتباينان لا يجمعهما إلا البلاغة البينة الواضحة ، وكل له مقامه .

---

(١) البقرة : ٢٣٨

(٢) الطلاق : ٤

ولنوضح الفرق بينهما فى الحقيقة ، ثم نوضح الفرق بينهما فى مواضعهما من القرآن الكريم .

فالفرق بينهما فى الحقيقة أن الإيجاز يكون بحذف كلمة دلت القرائن عليها مع الوفاء فى حذفها ، كالوفاء فى ذكرها ، والبلاغة تكون فى الحذف فى مقام البيان إن كانت الدلالة قائمة ، والقرائن مثبتة ، ويكون فى الحذف فائدة لا توجد مع ذكر المحذوف كقول الله تعالى عن قول أخوة يوسف لأبيهم «واسئل القرية التى كنا فيها،والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون»(١)

وإن القرية وهى مجموع المساكن والطرقات لا تسأل إنما يسأل من فيها، بل يسأل بعض من فيها ، وذلك دليل على أن المسئول هو البعض ، فهذا إيجاز بالحذف ، ولا نقص بذلك الحذف ، بل فيه زيادة معنى ، وهو أن الأمر شائع عام للجميع ، وكأن كل من فى القرية يعرف حتى البنيان ، والمساكن والأسواق ، أى أن ذلك أمر معروف ، لا موضع للكذب فيه .

وحقيقة الإطناب أن المعانى تكون والألفاظ على قدر واحد فى الكثرة ، والألفاظ بناء متكامل لا ينقض منه لبنة ، ولكن الإطناب يكون متجها إلى تفصيل الألفاظ فى الدلالة ، فلا يستغنى بلازم عن ملزوم ، ولا بملزوم عن لازم ، ولا بعام عن خاص ، ولا بخاص عن عام ، ولا بدلالة الأولى عن نص اللفظ ، ولا بالإشارة عن العبارة ، بل كل ما يقتضيه المقام يجىء فى وضوح كامل ، لا يكتفى فيه بالتضمن ، ولا بالإشارة ولا بالالتزام ، ومثال ذلك فى الحسيات ، ولله تعالى المثل الأعلى أن تطلب من شخص وصف قصر ، فيصف أبعاده ، طوله وعرضه ، وارتفاعه وزيناته ، ثم يصف الغرفات غرفة غرفة ، ودعائم بناء القصر . ويسترسل فى وصفه كأنك تراه وهذا إطناب يكون له مقامه إذا كان لمن يريد شراءه أو سكناه .

---

(١) يوسف : ٨٢

وقد يقول فى وصفه أحياناً إنه على أكمل صورة لتصور المترفين طلاء وحلية .

ولا شك أن الأول إطناب لا زيادة فيها مادام غير قاصد إلا لبيان ما فيه والثانى إيجاز لا قصور فيه .

ولنضرب لذلك مثلا سورة الطلاق التى بينت وقت الطلاق، وما يكون بعده ، وما يجب للمطلقة ، وما يجب على المطلق ، مع الإيجاز فى بعض الأحكام التى تشمل حال الطلاق وغيره .

قال الله تعالى : « يأيهـا النبي إذ طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ، فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوى عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به ، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شىء قدراً، واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ، إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ، واللائى لم يحضن ، وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ، ذلك أمر الله أنزله إليكم ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ، أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ، وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن ، حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ، وأتمروا بينكم بمعروف ، وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ، لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق ممـا آتاه الله ، لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ، سيجعل الله بعد

عسر يسرا »(١) .

وإنك ترى فى هذا النص الكريم المعانى الكثيرة ، فهى تكاد تشتمل أحكام المطلقات، وفيها إشارة إلى بعض أحكام عدة المتوفى عنهن أزواجهن ، وإن الألفاظ ليست قليلة ، ومن المؤكد أنه لازيادة فيها ، بل تخلل الإيجاز بعضها .

وإن أكثر آيات الأحكام فيها ذلك الإطناب الذى لا تزيد فيه الألفاظ عن المعانى ، لأنها تتعرض لما يكلف الله تعالى عباده ، ولا بد أن يكون ذلك واضحاً ، للمكلف كل الوضوح حتى لا يكون فى ذلك موضع إبهام تكون فيه معذرة للمكلف ، بل إنه بيان الله تعالى الشامل الذى لا إبهام فيه ، ولا مظنة لإبهام اقرأ قوله تعالى فى تحريم الخمر ، إذ أطنب سبحانه ، فقد قال تعالت كلماته : « يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ، والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة ، والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة . فهل أنتم منتهون ، وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا ، فإن توليتم ، فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ، ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ، إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين »(٢) .

وإننا نرى القرآن الكريم يأتى بالإطناب الذى لازيادة فيه فى آيات الأحكام كما أشرنا بذلك ، وتلونا من كتاب الله تعالى ، فإنك لا تجد أن حكما أصلياً يأتى به القرآن يكتفى فيه بالإشارة عن العبارة ، وباللازم عن الملزوم ، بل كل ذلك صريح فى القرآن الكريم ، ولكن الفقهاء فى استنباطاتهم كانوا

---

(١) الطلاق : ١ — ٧ .

(٢) المائدة : ٩٠ — ٩٣ .

يأخذون أحكاماً من إشارات العبارات وكناياتها ، كما رأينا فيما استنبطوه من قوله تعالى ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن ، فإنهم فهموا منه أن الولد لأبيه ، وأن له حق التربية ، وأخذ الفقهاء من إشارات العبارات كثيراً فى أبواب الفقه ، وعدذلك من بلاغة القرآن الكريم .

وإن أخذ الأحكام بطريق الإشارة دون العبارة لا يمنع أنه لم يكتف بذكر الملزوم فى بيان الحكم الأصلى ، وإن ذلك ثمرات الحكم الأصلى فهمت منه ، وأما الأصل فلم يفهم إلا بالعبارة الواضحة .

هذا ومن مواضع الإطناب الواضح فى القرآن الكريم ، القصص القرآنى فى مواضع العبرة ، وتسلية النبي صلى الله تعالى ببيان ما نزل بالأنبياء السابقين ، وما لاقوا من أقوامهم ، فإن الإطناب فى ذلك يزيد قلب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تثبيتا وأنساً ، وان القصص فوق ذلك يكون مشتملا على مناقشة الأنبياء السابقين لأقوامهم ، وأدلة التوحيد التى جاءت على ألسنتهم ، وفيه بيان أحوال السابقين ، وما كان يسيطر عليهم وعلى بيئاتهم .

وإنه من مواضع الإطناب الذى لا يكفى فيه الإيجاز بطلان عبادة الأوثان ، ومجادلة المشركين ، ورد مطالبهم من معجزات غير القرآن ، وبينات تثبت الرسالة سواه ، فإن القرآن مشتمل على الكثير منه .

ومن مواضع الإطناب توجيه النظر إلى الكون ، وما فيه من خلق السموات والأرض وما بينهما ، فإن هذه مواضع تحتاج إلى الإطناب الذى لا تغنى فيه الإشارة عن العبارة ، وفى القرآن الكريم من ذلك ما يدل على عظمة الخالق من مظهر المخلوق ، ودلالة الأثر على المؤثر والموجود على من أنشأه ، والحاضر على الغائب .

ومن مواضع الإطناب مناقشة أهل الكتاب ، وبيان إنكارهم ، وإثبات ماضيهم الذى امتد فى حاضرهم .

١٢٨ — ويجب أن ننبه هنا إلى أن التكرار ليس من الإطناب ، وهو من الحشو إذا كان فى سياق واحد ، فالسياق الواحد لا يتكرر فيه المعنى ، ولا يتكرر فيه اللفظ ، وإذا بدا للقارىء الذى لا يمحص المعانى والحقائق أن فى الكلام القرآنى تكراراً المعنى ، فإن ذلك عند ذوى الفهم السليم تفكير سقيم ، لأن تكرار المعنى له وصف آخر يؤدى فكرة جديدة ، ومن ذلك قوله فى وصف ميثاق بنى إسرائيل الذى أخذ عليهم وأقروا به ثم أعرضوا عنه ، فقد قال تعالى : «وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل ، لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين ، وقولوا للناس حسنا ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، ثم توليتم إلا قليلا منكم ، وأنتم معرضون ، وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ، ثم أقررتم وأنتم تشهدون »[١] .

ولقد ادعى بعض الناس أن فى الكلام تكراراً فى المعنى فى موضعين ، وإن كان اللفظ لا يتكرر ، ففى الأول يقول تعالى « ثم توليتم إلا قليلا منكم ، وأنتم معرضون» فيدعى بعض الناس أن فى النص الكريم تكراراً ، لأن التولى هو الإعراض ، فما معنى وأنتم معرضون ، إلا أن يكون تكرارا ، وإن النظر العميق يثبت أولا أن التولى هو الانصراف ، والبعد بالجسم ، والإعراض هو الانصراف بالقلب ، فأشبه هذا قوله تعالى « فأعرض ونأى بجانبه[٢] » وفى هذا تصوير حسى للإعراض فهو لم يعرض بالقلب بعدم الإذعان بل قرن المعنى النفسى بالمظهر الحسى ، كذلك هنا قرن الإعراض النفسى بالمعنى الحسى لتصوير الإعراض — وجعل الحق وراءهم حسيا ، ثم قوله تعالى : (وأنتم معرضون) حال وفيه معنى توليتم

---

(١) البقرة : ٨٣ — ٨٤.

(٢) الإسراء : ٨٣.

إن كانت بمعنى الإعراض عامة ، وذلك لأن معنى هذه الجملة الحالية أى أن الإعراض النفسى عن الحق ، وجحودهم حال مستمرة من أحوالهم ، فالحق لا يصل إلى قلوبهم .

والثانى وهو قوله « ثم أقررتم ، وأنتم تشهدون » فإن الذين يدعون التكرار فى المعنى يقولون إن الشهادة هنا هى الإقرار فما معنى ذكرها بعد الإقرار إلا أن يكون تكراراً .

ونقول فى الإجابة عن ذلك إن ذكر وأنتم تشهدون بعد الإقرار ليس تكراراً ، لأن الشهادة هنا ليس معناها الإقرار لأن الإقرار قد يكون عن أمر مغيب ، وإنما معناها الحضور والرؤية ، والمعنى على ذلك أنكم حضرتم الميثاق وأقررتم على ما فيه ، فهو إقرار موثق لا تستطيعون أن تدعوا الغفلة إذ هو قول وحضور، فمن أيهما تغفلون .

ومن الآيات القرآنية التى يدعى فيها التكرار بادى الرأى قوله تعالى قصة فى صالح عليه السلام مع قومه .

« واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم فى الأرض ، تتخذون من سهولها قصوراً ، وتنحتون الجبال بيوتاً . فاذكروا آلاء الله ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين »[1] .

وقد قالوا إن هنا تكراراً فى المعنى لأن العثى هو الفساد ، فمعنى لا تعثوا لا تفسدوا ، فكلمة مفسدين تكون تأكيدا للمعنى ، والجواب عن ذلك إنه لا تكرار ؛ لأن النبى الأمين نهى عن الفساد ، وعن القصد إليه فكلمة مفسدين تدل مع لا تعثوا على عدم القصد إليه ، ومن جهة أخرى فيها إيماء إلى أن الإفساد وصفهم ، فعليهم أن يتخلوا عن الوصف ، وهى كذلك تدل على شناعة حالهم ، وفساد جمعهم ؛ إذ أنه فساد لا صلاح معه ، فهل يقال بعد هذا ان ثمة تكرارا فى المعانى فى أى جملة من آيات كتاب الله تعالى .

(١) الأعراف ٧٤ .

وإنه لا يوجد تكرار لفظى فى جملة واحدة ، ولا فى موضع واحد .

وقد ادعى بعض العلماء التكرار فى مواضع فى القرآن وعلله بما لا يتنافى مع إعجاز القرآن الكريم بل إنه من دلائل الإعجاز ، إذ أن تكرار المعنى الواحد بعبارات مختلفة فى مواضع مختلفة مع جمال الألفاظ والجمل فى مواضعها المختلفة ، كأن يكرر المعنى فى قصة ، فى سور مختلفة ، وكل عبارة معجزة فى ذاتها ، ويتحدى بها فى نغمها وموسيقاها وألفاظها وجملها ، وعجز العرب عن أن يأتوا بأى عبارة منها دليل على كمال الإعجاز فى جملته وفى أجزائه .

ونحن نرى أنه لا تكرار فى عبارات القرآن بمعنى أن يكرر المعنى من غير حاجة إليه بل ذكرنا أنه إذا تكرر لفظ أو معنى ، فإنما يكون ذلك لمناسبة جديدة ، ويكون عدم ذكر ما يدعى فيه التكرار إخلالا ، وذلك مستحيل على كتاب الله تعالى .

وقد ضربنا على ذلك الأمثلة من قصص القرآن ، ومن أنواع الاستفهام وذلك فى صدر كلامنا فى تصريف القول فى القرآن .

اقسام الايجاز :

١٢٩ — يقسم الرمانى الإيجاز إلى قسمين إيجاز حذف ، وإيجاز قصر فيقول رضى الله عنه : « الإيجاز على وجهين حذف وقصر والحذف إسقاط كلمة للاجتزاء فيها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام ، والقصر بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف ، فمن الحذف ، «واسأل القرية» ومنه «ولكن البر من اتقى» ومنه «طاعة وقول معروف» ومنه حذف الأجوبة ، وهو أبلغ من الذكر ، وما جاء منه فى القرآن كثير كقوله جل ثناؤه : «ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى» ومنه قوله تعالى : «وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ، حتى إذا جاءوها

وفتحت أبوابها[١] » ، كأنه قيل حصلوا على النعيم ، وإنما صار الحذف فى مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس فيه تذهب كل مذهب ، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذى تضمنه البيان ، فحذف الجواب فى قولك : « لو رأيت علياً بين الصفين أبلغ من الذكر ، لما بيناه » .

هذا كلام الرمانى فى الإيجاز بالحذف ، ونلاحظ فى ذلك أمرين :

أولهما — أن الإيجاز هنا نسبي فى جزء من الكلام ، فقد يكون الكلام فى مقام الإطناب ، ولكن فى جزء منه يكون الحذف ، وذلك موجود فى بعض ما ذكره من أمثلة ، من ذلك قوله فى آية البر ، فإنها مطنبة بالنسبة لبيان المستحقين للبر . فقد قال تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء ، وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون»[٢] .

ونرى من هذا أن مجموع الآية فى بيانها لا يعد من قبيل الإيجاز ، بل هو إطناب على المعنى الذى بيناه فى الإطناب .

ولكن ذلك لا يمنع أن فى جزء من الآية الكريمة إيجازاً ، وعلى ذلك نقول إن الإيجاز هنا نسبي أو جزئى .

ثانيهما — أن الحذف فى ذاته بلاغة إذ أنه يعطى الكلام قوة ، ويثير الخيال ليتصور المحذوف أعلى من المبين ، وقد بين ذلك فى حذف الجواب فى قوله تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها» .

---

(١) الزمر : ٧٣

(٢) البقرة : ١٧٧ .

ومن ذلك فى معناه الذى يريده قوله تعالى : ولو يرى الذين ظلموا ، إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب(١) فإن جواب لو محذوف يلقى الرهبة فى النفوس ، وتذهب فيه العقول كل مذهب وتقدير ، ولم يذكر البلاغة فى إيجاز الحذف فى مثل قوله تعالى : « واسأل القرية(٢) » وفى مثل قوله تعالى « ولكن البر من اتقى(٣) » وقد تظهر بلاغة الحذف فى قوله تعالى « واسأل القرية » إذ أن فى ذلك إشارة إلى شيوع القول فيها ، وأن القرية كلها تكلمت ، ومثل ذلك قوله تعالى: «فليدع ناديه» وأما قوله تعالى : « ولكن البر من اتقى » فإن فيه تزكية للمتقين بجعلهم البر ذاته ، وأن نفوسهم علت وزكت قلوبهم حتى صارت هى ، وفى ذلك فوق هذا تصوير للمعنى قائما بالذين يتصفون ، فيكون محسوساً معلوماً فيهم .

١٣٠ — ويعد الرمانى إيجاز القصر الذى عرفه بأنه بناء الكلام على تقليل الألفاظ — ويعده أغمض من إيجاز الحذف لأن الحذف فيه غامض يحتاج إلى العلم بالمواضع التى يطبق فيها ، ويقول : « فمن ذلك قوله تعالى : «ولكم فى القصاص حياة(٤) : ومنه قوله تعالى : « يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو »(٥) ، ومنه قوله تعالى : « وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها(٦) » ، ومنه «إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس(٧) »: « إنما بغيكم

---

(١) البقرة : ١٦٥
(٢) يوسف : ٨٢
(٣) البقرة : ١٨٩
(٤) البقرة : ١٧٩
(٥) المنافقون : ٤
(٦) الفتح : ٢١
(٧) النجم : ٢٣

على أنفسكم(١) » ، ومنه « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله(٢)» وهذا الضرب من الإيجاز فى القرآن كثير .

وهو المثل الكامل لجوامع الكلم ، وجل كلام الله تعالى عن أن يكون له مثيل ، ونلاحظ أن الأمثلة التى ساقها تتصل بكلام قبلها ، فليست منقطعة . فهى إما أن تكون حكمة أو أعلى من حكمة أو قضية مستقلة مؤيدة الحكم الذى سبقها ، مبينة حكمته ، كقوله تعالى: « ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب لعلكم تتقون » فهى ختام آية القصاص ، التى يقول الله تعالى فيها « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى « الحر بالحر والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شيء ، فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة . فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب لعلكم تتقون(٣)» .

ونرى من هذا أن الآية الكريمة تتميم لآية قبلها ، لأنها بيان للحكمة والمصلحة الكاملة فى القصاص ، ليقدموا عليه غير نافرين لأنه اتقاء لشر مستطير ، وإذا كان القصاص فى ذاته أمراً لاتقبل عليه النفوس ، لأنه قتل أو قطع فالمصلحة أعظم من المضرة ولا شك أن الألفاظ قصيرة ، والمعانى التى تنطوى تحتها كثيرة ، وخصوصاً أن تنكير كلمة «حياة» يدل على تعظيم هذه الحياة التى تترتب على تنفيذ القصاص ، لأنها تكون حياة آمنة سعيدة لا مزعجات فيها ، وخصوصاً إذا كان مع حق القصاص حق العفو من المجنى عليه فإنه يربى التواد ، ويحل المحبة والمودة محل البغض والعداوة .

والآية الثانية التى ساقها الرمانى هى «إنما بغيكم على أنفسكم» ، ونلاحظ

---

(١) يونس: ٢٣

(٢) فاطر : ٤٣

(٣) البقرة : ١٨٨ — ١٧٩

أن الرمانى قطعها عن سابقها ولاحقها من لفظ ، إذ الآية هى قوله تعالى : « فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ، يأيها الناس : إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون[١] » .

ولا شك أن الجملة التى اختارها من الآية الكريمة فيها إيجاز القصر الذى يعد من أعلى جوامع الكلم ، ولكن يقطعها عما قبلها وما بعدها وما جاءت فيه من أن الظالمين يدعون الله تعالى ضارعين فى حال فزعهم وخوفهم حتى إذا أمنوا بغوا وطغوا ، وفى قطع الكلمات عن أخواتها ، قطع للمعنى عما يكنها ويظلها .

وقوله تعالى : « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله[٢] » هى فى عمومها وشمولها فيها إيجاز قصر ، ويمكن أن تكون مثلا عاليا يستشهد به فى القول ، ويصدق على كل خب لئيم ، ولكنه قطع الكلام عما قبله وما بعده ، فالآية الكريمة بهذا النص السامى . « استكباراً فى الأرض ومكر السيء ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » وكنا نود أن يأتى بالمثل الطيب فى بيئته من كلمات سابقة له ولاحقة .

وقوله تعالى : « وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها ، وكان الله على كل شيء قديرا » هو كلام محكم بالغ أعلى ما تصل إليه بلاغة القول ، وهى آية مستقلة ، ولكنها متممة لما قبلها . فهى متممة بالعطف على قوله تعالى : « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه ، وكف أيدى الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين ، ويهديكم صراطا مستقيما وأخرى لم تقدروا عليها [٣] » .

وقوله تعالى : « إن يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس » [٤] هى حكمة

---

(١) يونس : ٢٣
(٢) فاطر : ٤٣
(٣) الفتح : ٢٠ ، ٢١
(٤) النجم : ٢٣

عالية فى ذاتها ، ولكنها مسبوقة ولها لاحق بها يحدها ، فهى جزء من قوله تعالى : « إن هى إلا أسماء سميتموها ، أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى» وإن إخراجها عما قبلها وما بعدها يكون إخراجاً لها عما يحد أطرافها .

وقوله تعالى « يحسبون كل صيحة عليهم العدو » وصف كامل لكل جماعة يغلب عليها الخور والجبن ، ولكنها وصف للمنافقين ، وإخراجها عما جاءت فيه يعمم معناها ، وهى مخصوصة فى السياق .

١٣١ — وننتهى من هذه النظرات إلى الكلمات السامية ، نجدها فى ألفاظها ذات عموم ، ولكن لها فى حيزها خصوص إلا قوله تعالى : «ولكم فى القصاص حياة » فهى فى حيزها ، ذات عموم ، لأن كونها حكمة لأحكام مقررة يجعل لها عموماً ، ولا يقيدها حيزة ، لأنها منطلقة ، وكذلك مثل قوله تعالى « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » وقوله تعالى لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها » أما الآيات الكريمات الأخرى ، فإنها إذا ذكرت منفردة عن أخواتها كانت مثلا من جوامع الكلمة وكان لها العموم ، وإذا أخذت مع أخواتها قيدت .

وعلى أى حال ، فإن إيجاز الحذف فيها ثابت ، ولا مانع من استعمالها كأعلى مثل سائر ، والله أعلم .

وإن الإيجاز بغير حذف كلمات كثيرة فى القرآن لا تكاد تخلو منه سورة ، بل جزء من السورة ، بل صفحة من صفحاته النورانية ، وقد قلبنا بعض صفحات فى القرآن فوجدنا العبارات الآتية ، وكلها فيها إيجاز قصر ، ومن ذلك :

١ — قوله تعالى : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن

تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا ، وهو شر لكم»[١]
فإن هذا النص له معان كثيرة شاملة يطبق فى كل أمر يحبه الإنسان ، وعاقبته وبيئة أو لا يدرى عاقبته ، ولا مايترتب عليه ، ومثل ذلك قوله تعالى : «فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً[٢]» .

ومنه قوله تعالى : «ولولا دفع الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض»[٣]
فإن هذا النص الكريم يشير إلى المعركة الدائمة بين الخير والشر ، والحق والباطل ، والفضيلة والرذيلة ، وأن سيطرة الرذيلة والشر والباطل فساد فى الأرض ومقاومة الخير للشر دفع للفساد ، وفيه إشارة إلى أن مقاومة الشر بسلاحه من غير انحدار إلى الرذيلة ، رحمة بالناس ، فدفع الشر رحمة ، ورد الاعتداء ، وفى هذه الآية إشارة إلى نظرية الحرب الفاصلة ، والسلم الفاضلة .

٣ — وقوله تعالى : «وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون[٤]» فإن هذه الآية تبين وحدة الأمة الإسلامية مع غيرها بأوجز عبارة ، فتشمل الوحدة الأبيض والأسود ، والأحمر والأصفر ، والبادى والحضرى ، وسكان الوبر ، وسكان المدن ، لاتفرقهم الألوان ، ولا الألسنة ، وإن التقوى يجب أن تكون لباسهم وشعارهم ، وهى التى تعلى ، ومثل ذلك قوله تعالى فى إيجاز «إنما المؤمنون إخوة» .

٤ — ومنها قوله تعالى : «وما أبرىء نفسى ، إن النفس لأمارة بالسوء»[٥]
فهى فى إيجازها اعتذار عما كان من امرأة العزيز ليوسف عليه السلام ،

---

(١) البقرة : ٢١٦
(٢) النساء : ١٩
(٣) البقرة : ٢٥١
(٤) المؤمنون . ٥٢
(٥) يوسف : ٥٣

وإنها لأحداث كثيرة ، فوق مافيه من دلالة على معان نفسية تكون فى الوجدان الذى تحكمه شهوات ، الضمير اللائم ، المحاسب الذى يصوره قول الله تعالى « النفس اللوامة » .

٥ - ومنها قوله تعالى : « وجحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم » فإن هذا النص السامى بكلماته القليلة الموجزة، فيه تصوير لحال المشركين الذين ألزمتهم الحجة ، ولكن لم يذعنوا عصبية وعناداً ، ومحافظة على سيطرتهم الغاشمة .

٦ - ومن ذلك قوله تعالى : « إنا كفيناك المستهزئين »(١) ، وفى هذا النص إيجاز فيه ألفاظ قليلة ومعان كثيرة بمقدار جرائم المشركين فى الاستهزاء بالنبي وأصحابه ، ومضايقتهم فى العبادة ، ومنها الطواف بالبيت فقد كانوا كلما لقوهم سخروا منهم ، فمعنى كفيناك المستهزئين عاقبناهم على مافعلوا فى الماضى ، وخضدنا شوكتهم فى الحاضر ، وشغلناهم فى القابل ، وسلط الله الحق على باطلهم إلى آخر مانالهم فى الدنيا من خزى وما نالهم فى الآخرة من عذاب .

٧ - ومنها قوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً(٢) » فإن هذا النص قليل الألفاظ فيه معان كثيرة ، لأنه سبحانه يشير إلى أن هلاك الأمم إنما يكون إذا شاع الفساد بين آحادها وإنما يشيع الفساد ممن غلبت أهواؤهم وسيطرت عليهم شهواتهم ، وإن ذلك من الذين نشئوا مترفين لايرون حق الحياة خالصاً إلا لهم ، فيعم الفساد فى الأرض ، وتتقطع الأمة وتتنابز ، وكل ذلك من سيطرة المترفين .

ومن ذلك قوله تعالى : « كل امرىء بما كسب رهين » أى أنه(٣) مجزى بعمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ومثله قوله تعالى : « وأن ليس للإنسان

---

(١) الحجر : ٩٥ .
(٢) الإسراء : ١٦ .
(٣) الطور : ٢١

إلا ماسعى ، وأن سعيه سوف يرى[1] ، ومثل قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى »[2] .

١٣٢ — وإن العرب كانوا يميلون إلى الإيجاز فى القول ، ويعدون الإيجاز بلاغة ، وذلك لأنهم لم يكونوا أهل قراءة وكتابة ، بل كانوا أهل بيان باللسان ، وقد صقلت بذلك كلماتهم وهذبت عباراتهم ، وقد قال الجاحظ إن الإيجاز فى القرآن كان عند محاجة العرب الأميين الذين يفهمون القول بالكلمات المشيرة غير المفصلة ، والتفصيل من شأن من يعتمد على الكتاب دون اللسان .

ولقد كانوا يتبارون فى الكلام الذى تدل ألفاظه على معان كثيرة ، وكانوا يعدون من أبلغ كلامهم قول بعض العرب « القتل أنفى للقتل » أى من يريد القتل إذا علم أنه سيقتل ، فإنه لا يقتل ، ولاشك أن ذلك حق وقد اتجه كثيرون من الأدباء والمفسرين إلى الموازنة بين ما يعدونه أبلغ قولهم ، وقوله تعالى « ولكم فى القصاص حياة » والموضوع أيهما أبلغ وأجمل أداء ، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى .

وقد عقد الرمانى فى رسالته موازنة بين الجملتين ، وإن كانت الموازنة ليست بين متماثلين ، بل ليست بين متقاربين وإن كان الموضوع متقارباً فقال :

وقد استحسن الناس من الإيجاز قولهم : «القتل أنفى للقتل » وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت فى البلاغة والإيجاز وذلك يظهر من أربعة أوجه : أنه أكثر فى الفائدة ، وأوجز فى العبارة ، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة ، وأحسن تأليفاً بالحروف المتلائمة ، أما الكثرة فى الفائدة ففيه كل مافى قولهم : « القتل أنفى للقتل ، وزيادة معان حسنة منها إبانة العدل ، لذكره القصاص ، ومنها إبانة القرب المرغوب فيه ، لذكره الحياة ، ومنها الاستدعاء

---

(١) النجم ٣٩ — ٤٠ (٢) الأنعام : ١٦٤

بالرغبة والرهبة لحكم الله تعالى ، وأما الإيجاز فى العبارة فإن الذى هو نظير القتل أنفى للقتل «القصاص حياة» والأول أربعة عشر حرفا والثانى عشرة أحرف وإنما بعده عن الكلفة بالتكرار الذى فيه مشقة على النفس ، فإن فى قولهم القتل أنفى للقتل تكراراً . غيره أبلغ منه ومتى كان التكرار فهو مقصر ، فى باب البلاغة عن أعلى طبقة ، وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرك بالحس وموجود فى اللفظ ، فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة ، وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة ، فباجتماع هذه الأمور التى ذكرناها صار أبلغ وأحسن وإن كان الأول بليغاً حسناً » .

وهناك وجه لم يذكره الرمانى ، وهو أن كلمة العرب مقصورة على القتل أما كلمة الله تعالى ، فإنها تشتمل القتل والاعتداء على الأطراف ، فتشمل النفس بالنفس والعين بالعين ، والأنف بالأنف والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، بل تشمل الجروح ، فمعناها أشمل . وأمر آخر لم يذكره الرمانى ، وهو أن كلمة القرآن إيجابية وسلبية معاً ، فهى إيجابية فى أنها تبين أن ثمة حياة رافهة هادية أمينة بالقصاص ، وفيها معنى النفى ، وهو ألا يكون اعتداء بأى نوع ، أما كلمة العرب فلا تتجاوز المنع ، وهو أن القتل يمنع القتل .

وأيضاً فإن كلمة القصاص فيها معنى المساواة بين الجناية وعقوبتها ، والقتل أنفى للقتل لا تستدعى بظاهر لفظها أن يكون القتل بالمساواة ، بل لا تمنع أن يكون القتل اعتداء ، والنص القرآنى السامى الذى لا يسامى فوق كل ما يدخل من معان على كلمة العرب القتل أنفى للقتل .

هذا ما بدا لنا من زيادة كلمة القرآن من معان على كلمة العرب ، ولنعد من بعد إلى ما قاله الرمانى فى هذا المقام فهو يقول :

« وظهور إعجازه فى الأمور التى نبينها يكون باجتماع أمور يظهر بها للنفس أن الكلام من البلاغة فى أعلى طبقة ، لإيجازه وحسن رونقه ، وعذوبة لفظه ، وصحة معناه ، كقول على رضى الله عنه : قيمة كل امرىء فيما يحسنه فهذا كلام عجيب ، يغنى ظهور حسنه عن وصفه ، فبمثل هذه الشذرات لا يظهر بها حكم ، فإذا انتظم الكلام ، حتى يكون كأقصر سورة أو أطول آية ظهر حكم الإعجاز ، كما وقع التحدى فى قوله تعالى: «فأتوا بسورة من مثله» فبان الإعجاز عند ظهور مقدار السورة » .

ومؤدى هذا الكلام أن الإعجاز القرآنى ربما لا يبدو فى الكلمة أو الجملة مقطوعة عن سابقها ولاحقها ، ولو كانت الجملة إيجازاً إنما يبدو فى السورة أو الطائفة من القرآن ، ونحن نخالف الرمانى فى ذلك ، فإن كلمات القرآن مع أخواتها لها إشعاع من المعانى يثير الخيال والتأمل فى معانيها مادامت الجملة مستقلة فى دلالتها ، تأتى بمعان مفيدة ، مثل قوله تعالى « والصبح إذا تنفس »(١) « والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها »(٢) فكل جملة من هذه الجمل لا يستطيع أحد أن يأتى بمثلها .

ولقد ختم الرمانى كلامه فى الإيجاز بذكر فضله وخواصه ، فقال رضى الله تعالى عنه :

« وإذا عرفت الإيجاز ومراتبه ، وتأملت ما جاء فى القرآن منه عرفت فضيلته على سائر الكلام ، وهو علوه على غيره من سائر الكلام ، وعلوه على غيره من أنواع البيان ، والإيجاز تهذيب الكلام بما يحسن به البيان ، والإيجاز تصفية الألفاظ من الكدر ، وتخليصها من الدرن ، والإيجاز البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ ، والإيجاز إظهار المعنى الكثير باللفظ اليسير والإيجاز والإكثار إنما هما فى المعنى الواحد ، وذلك ظاهر فى جملة العدد

(١) التكوير : ١٨
(٢) الشمس : ١ — ٣

وتفصيله كقول القائل لى عنده خمسة وثلاثة ، واثنان فى موضع عشرة ، وقد يطول الكلام فى البيان عن المعانى المختلفة ، وهو مع ذلك فى نهاية الإيجاز . وإذا كان الإطناب فى منزلة الأمر بحسن أكثر منها ، فالإطناب حينئذ إيجاز كصفة ما يستحقه الله تعالى من الشكر على نعمه فإطناب فيه إيجاز » .

وإن الرمانى يتجه بهذا إلى معان ثلاثة :

أولها — أنه يصف الإيجاز بأن فيه تصفية للألفاظ من الكدرة ودرن القول وحشوه ، وأنه البيان عن المعنى بأقل ألفاظ ، وأن المعنى الكثير يكون فى أقل مقدار من اللفظ ، وأن المتكلم أو الكاتب يجهد فكره عند الاتجاه إلى الإيجاز ليأتى بأوجز لفظ يحمل أكبر معنى ، وقد قال إمام من أئمة عصرنا فى البيان فى كتاب أرسله إلى صديق له وأطنب فيه ؛ اعذرنى فى هذا الإطناب فإنه ليس عندى وقت للإيجاز ، لأنه بالنسبة للبشر ليس سهلا ، لأن الإطناب إرسال الحقائق إرسالا ، أما الإيجاز ، فإنه جمع للحقائق فى أقل الألفاظ وأجملها ، . وأبعدها عن الكدر والدرن .

ثانيها — أن الإطناب نسبى ، فإنه إذا كان المعنى كثيراً واللفظ كثيراً ، فإنه يكون إطناباً ، وإذا كان المعنى الكثير يمكن أن تكون ألفاظه أكثر فإن ذلك يكون إيجازاً مسبباً .

ثالثها — أن كل ألفاظ ذات معان كثيرة ، وقد وضعت على قدرها ، فإن كان الواضح قلة الألفاظ مع كثرة المعنى كان الإيجاز ، وإن كان الواضح الكثرة فى اللفظ والمعنى من غير تزيد ، بل لمقصد ، فهو إطناب .

والقرآن فى حالى الإيجاز والإطناب محكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

طوال السور وقصارها

١٣٣ – ونحن نتكلم فى الإيجاز والإطناب لابد أن نمس موضوع السور الطوال والسور القصار . لقد علمت مما قدمناه جمع القرآن فى عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإعادة جمع ما كان فى عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى مصحف جامع ، وما أعاد به عثمان جمع ما جمع أبو بكر وعمر ، ونشر نسخ مما جمع فى الأقاليم للمسلمين .

وقد قررنا فى ذلك أن الإجماع على أن السور رتبت بوحى إلهى ، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن قرأه على جبريل عليه السلام بذلك الترتيب ، وذلك موضع إجماع ، بل موضع تواتر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإن ترتيب السور فى المصحف العثمانى كانت بهذا الترتيب الذى نقرؤه .

وإن هذا الترتيب فى آيات السورة الواحدة لم يكن على حسب النزول ، بل كان كما ذكرنا بالوحى فكانت الآية إذا نزلت على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال عليه السلام لكتّابه وصحابته : ضعوها فى موضع كذا من سورة كذا ، كذلك لم يكن ترتيب السور فيما بينها تابعاً لنزول الوحى ، بل كان بوحى توجيهى لوضع السور فى أماكنها ، فإذا كانت السور الطوال فى هذه المواضع من القرآن ، والسور القصار فى هذا الموضع من الطرف الأخير فيه ، فإن ذلك بتوجيه من الله سبحانه وتعالى .

وكان من المستحسن أن نتكلم فى هذا لا فى مقدار البلاغة فيها ، فالجميع سواء ، ولكن من حيث الحكمة إن أمكن أن يؤدى تطاولنا إلى معنى ندركه ، فكتاب الله فوق طاقتنا فى إدراك مراميه كلها ، لأنها إرادة الله تعالى ، وهى لا تقبل التعليل ، لأنه لا يسأل عما يفعل ، وعباده هم الذين يسألون .

ولكن مع ذلك نحاول أن نتعرف حكمة الله تعالى ، أو ما نراه من أوصاف للسور الطوال وأخواتها القصار .

إننا نجد فى قصار السور ، وصفين :

أحدهما — أن نظم السور القصار كله يكاد يكون على نسق واحد مؤتلف النغم متآخى الألفاظ متلائم فى نظمه ، اقرأ قوله تعالى : «والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ، كذبت ثمود بطغواها ، إذ انبعث أشقاها ، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ، فكذبوه فعقروها ، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ، ولا يخاف عقباها » .

وإنك لترى النغم متحداً ، والفواصل متحدة ، والتلاؤم بين ألفاظها منهاجه واحد ، وكأنها لقصرها لا تتغير فيها الأنغام ولا مقاطع الكلام .

الثانى — من الأوصاف الواضحة فى الصور القصار إيجاز القصر ، فتجد القصة من قصص القرآن تذكر فى كلمات جامعة ويبعد فيها الأسلوب عن الإطناب فى القصة لحالها فى مواضع من القرآن الكريم ، وكلها معجز ببيانه وبلاغته .

اقرأ قوله تعالى : « والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر ، هل فى ذلك قسم لذى حجر ، ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، إن ربك لبالمرصاد ، فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن » .

وترى من هذا كيف كان الإيجاز المعجز ، لقد أشار سبحانه وتعالى إلى قصة عاد وثمود وفرعون ، وقد وصف طغيانهم كما وصف قوتهم فى صناعتهم ، وصلابة أرضهم ، وكل ذلك فى إيجاز .

والسورة القصيرة كلها فى موضوع واحد ، كما ترى فى قوله : « إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر » وكما ترى فى سورة الفيل فى قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل » وكسورة قريش : « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

وإننا نرى أن الجزء الأخير فى ترتيب القرآن الكريم الذى اختص باشتماله على قصار السور ، والذى يسهل حفظه على الناشئين الذين لا يريدون جمع القرآن كله فى صدورهم ، قد اشتمل على بيان العقيدة الإسلامية ، وعلى معاندة قريش ، وعلى جهود النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وما لاقاه من عنت فى قومه ، وعلى المبادىء الخلقية الإسلامية وما على أن كل مسلم يتحمل التبعية ، وعلى أصول المبادىء الاجتماعية ، وفيه إجمال كامل لقصص القرآن الكريم .

هذا شأن قصار السور وهى جزء من ثلاثين من القرآن الكريم . أما الطوال والمتوسط والأقرب إلى الطول والأقرب إلى القصر فهو يشمل نحو تسعة وعشرين جزءاً من ثلاثين جزءاً من القرآن .

وإن السور المدنية أكثرها ليس من القصار ، وهو يشتمل على الأحكام التفصيلية للتكليفات الشرعية ، فسورة البقرة والنساء والمائدة فيها كثير من الأحكام الفقهية سواء أكانت فى الأسرة أم فى المعاملات المالية ، أم فى الزواجر الاجتماعية ، أم فى العلاقات الدولية ، وأحكام

الجهاد ، وفيها كل ما يتصل بالسلوك الإنسانى الذى فرضه القرآن الكريم وبعض التكليفات المتعلقة بالأسرة أو المعاملات المالية جاء فى السور التى بين القصر والطول كسورة الممتحنة وكسورة الطلاق .

وإن السور الطويلة أو القريبة منها مع أنها ليست مرتبة على حسب النزول بالوحى ، بل هى كما ذكرنا مرتبة بأمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحى عن ربه ، لأن النبى عليه السلام كان يأمر بوضع الآية عند نزول الوحى فى موضعها من السورة التى أمر بوضعها فى موضعها فيها .

ومع هذا الترتيب الموحى به الذى لم يكن على حسب النزول نجد السورة كلها مترابطة الأجزاء متصلة ، يأخذ بعضها بحجز بعض فى نسق بيانى رائع ، وكل آية مرتبطة برباط معنوى وبيانى . فالآية تتبع ما قبلها ، لا فى الموضوع ولكن فى نظام يشبه تداعى المعانى، فالآيات تثير فى النفس المؤمنة المتبعة خواطر تجىء التى تليها لإشباعها وكأنها تجىء فى وقت الحاجة إليها ، فيكون التناسق القرآنى فى الألفاظ والأنغام والفواصل والمعانى . وكل ذلك سر من أسرار الإعجاز الذى لا يمكن أن يكون إلا إذا كان القرآن كله من عند الله العزيز الحكيم القادر على كل شىء ، الذى اختار القرآن معجزة صفيه خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم .

القصار وتيسير الحفظ :

١٣٤ — يأمرنا الله تعالى بأن نحفظ ما تيسر من القرآن ، لأنه سبحانه وتعالى قال « فاقرءوا ما تيسر منه » وإنه سهل سبحانه وتعالى علينا أن نحفظ المتيسر حفظه من القرآن ، فكانت تلك السور القصار الموجزة فى ألفاظها الغزيرة المعانى فى مؤداها وهذا المعنى ذكره المرحوم الأستاذ مصطفى كامل الرافعى رضى الله تعالى عنه فى كتابه إعجاز القرآن ، ولنترك الكلمة له فقد قال : « إن لهذه السور القصار لأمراً ، وإن لها فى القرآن

الحكمة، من أعجب ما ينتهى إليه التأمل حتى لا يقع من النفس إلا موقع الأدلة الإلهية المعجزة ، فهى لم تنزل متتابعة فى نسق واحد على هذا الترتيب الذى تراه فى المصحف ، إذ لم يكن أول ما نزل من القرآن ولا آخره: «قل أعوذ برب الناس» ثم هى (أى القصار من السور) بجملتها وعلى إحصائها لا تبلغ من القرآن أكثر من جزء واحد والقرآن كله ثلاثون جزءاً ؛ وهو يتسع من بعدها قليلا قليلا ، حتى ينتهى إلى الطول ، فقد علم الله أن كتابه سيثبت الدهر كله على هذا الترتيب المتداول ، فيسره للحفظ بأسباب كثيرة ، أظهرها فى المنفعة ، وأولها فى المنزلة ، هذه السور القصار التى تخرج من الكلمات إلى الآيات القليلة ، والتى هى مع ذلك أكثر ما تجىء آياتها على فاصلة واحدة ، أو فواصل قليلة ، لا يضيق بها نفس الطفل الصغير . وهى تتماسك فى ذاكرته بهذه الفواصل التى تأتى على حرف واحد أو حرفين ، أو حروف قليلة متقاربة ، فلا يستظهر الطفل بعض هذه السور ، حتى يلتئم نظم القرآن على لسانه ،ويثبت أثره فى نفسه ، فلا يكون بعد إلا أن يمرفيه مراً ، وهو كلما تقدم وجده أسهل عليه ، ووجد له خصائص تعينه على الحفظ وعلى إثبات ما يحفظ... فهذا معنى قوله تعالى : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين[1] » وهى لعمر الله رحمة وأى رحمة » .

وإذا أردت أن تبلغ عجباً من هذا ، فتأمل آخر سورة فى القرآن ، وأول ما يحفظه الأطفال (أى بعد الفاتحة) وهى سورة « قل أعوذ برب الناس » وانظر كيف جاءت فى نظمها ، وكيف تكررت الفاصلة ، وهى لفظ الناس ، وكيف لا ترى فى فواصلها ، إلا هذا الحرف (السين) الذى هو أشـــد الحروف صفيراً ، وأطربها موقعاً من سمع الطفل الصغير ، وأبعثها لنشاطه واجتماعه ، وكيف يناسب مقاطع السورة عند النطق تردد

(١) الإسرا : ٨٢

النفس فى أصغر طفل يقوى على الكلام ، حتى كأنها تجرى معه ، وكأنها فصلت على مقداره، وكيف تطابق هذا الأمر كله من جميع جهاته فى أحرفها ونظمها ومعانيها ، ثم انظر كيف يجىء ما فوقها على الوجه الذى أشرنا إليه وكيف تمت الحكمة على هذا الترتيب العجيب .

وهذه السور القصار ، لو لم تكن فى القرآن كلها أو بعضها ما نقصت شيئاً من خصائصه فى الإعجاز ، ولكن عسى أن يكون الأمر فى حفظه على غير ماترى إذا هى لم تكن فيه ، فتبارك الله سبحانه « مايجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا » .

ويضاف إلى هذه الحكمة فائدة أخرى، وهى تيسير القرآن ، وأداء الصلاة على العامة ، فإنهم لولا هذه السور الصغار لتركوا الصلاة جميعاً وإنه لا تصح الصلاة (أى كاملة) إلا بآيات مع الفاتحة ، وقد أعانت الصغار ، ويسرت عليهم ، فكانت على قلتها معجزة اجتماعية كبرى » . انتهى كلام الرافعى .

١٣٥ — وإذا كانت ثمة سور طوال وأخرى قصار ، فإنه يجب علينا أن نلتفت إلى أن هناك آيات تطول ، وآيات تقصر مع أن الإيجاز والإطناب يكون فى طوال الآيات وقصيرها ، ففى أثناء الآية الطويلة تقرأ قوله تعالى يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر[(١)] ، وهى كلمات ذات معان غزيرة ، فيها حكمة شرع الله وغايته ، وتكليفاته ، وأنها تتجه إلى التيسير ولا تتجه إلى التعسير .

وأكثر الآيات الطوال تكون فى الأحكام التكليفية التى تحتاج إلى التوضيح ، ولا يكتفى فيها بالإجمال بدل التفصيل كآية المحرمات فى قوله تعالى حرمت عليكم أمهاتكم وأخواتكم ... إلى قوله تعالى : « وأحل لكم ما وراء ذلكم[(٢)] » .

---

(١) البقرة : ١٨٥ (٢) النساء : ٢٤ .

ومثل ذلك آية المداينة ، وهى أطول آية فى القرآن فقد قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى ، فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب ، وليملل الذى عليه الحق ، وليتق الله ربه ، ولا يبخس منه شيئاً ، فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو ، فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا مادعوا ، ولاتسئموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ، ذلكم أقسط عندالله وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ، وأشهدوا إذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شىء عليم[1] » .

وقريب منها فى الطول آية المحرمات كما أشرنا ، ومثلهما آيات المواريث ومن الآيات الطوال المبينة للأحكام التكليفية آيات الصوم . اقرأ قوله تعالى: « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهداكم ، ولعلكم تشكرون ، وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ، أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم ، وعفا عنكم ، فالآن باشروهن ، وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى

---

(١) البقرة : ٢٨٢ .

يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام إلى الليل ، ولاتباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ، تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون[1] » .

وترى أن الآيات الأخيرة فيها بيان جزء من أحكام الصوم ، ولاتعد قصيرة ، بل طويلة ، ومن الآيات الطويلة بعض آيات القصص ، ومن ذلك قوله تعالى فى قصة بنى إسرائيل « وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها ، وفومها وعدسها وبصلها ، قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ماسألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون[2] » .

وإنا إذ نقول إن بعض الآيات فيها طول ، وبعض الآيات الكريمات فيها قصر ، ليس معناه أن ما فيــه طول هو من قبيل التطويل فى الكلام بل هو من قبيل الإطناب الذى لاتجد فيــه كلمة زائدة ، ولاتجد فيه عبارة ليس ثمة حاجة إليها ، بل إن الآية التى يكون فيها تطويل قد تجىء فى جملة ما هو من قبيل إيجاز القصر مثل قوله فى أثناء آية الصوم الطويلة « يريد الله بكم اليسر ، ولايريد بكم العسر » كما ذكرنا آنفاً .

وليس المراد بالطويل أن تـكون الألفاظ أكثر من المعانى ، بل المراد ما لايتجاوز حد الإطناب البليغ المستحسن . فالمعانى مع الألفاظ متكافئة وربما كان فيها إيجاز لا إطناب فيهـا فضلا عن التطويل ، والطول للآية ألفاظ كثيرة ومعان كثيرة ، ربما تـكون أكثر من الألفاظ .

---

(١) البقرة : ١٨٥ ، ١٨٧ .

(٢) البقرة : ٦١ .

وإن الطول لا يبعد عن حلاوة النغم ، وجمال النسق ، وحسن النظم ، وحلاوته وطلاوته ، ومن الآيات ما يكون قصيراً كما ذكرنا والفواصل متآخية ، والمعانى متكاملة . اقرأ قوله تعالى : « وما أعجلك عن قومك ياموسى قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى ، قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى . فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ، قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ، أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ، ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى(١) » .

وترى أن هذه الآيات بعضها قصار ، والأخير كان منها طويلا نسبياً ، لأن فيها عتاباً ، وطبيعة العتاب لا يكون قصيراً ، ولا يكون بالإشارة .

واقرأ قوله تعالى فى هذه السورة « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا ، يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له ، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ، يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ، ورضى له قولا ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً ، وعنت الوجوه للحى القيوم ، وقد خاب من حمل ظلماً(٢) » .

وإننا نجد فى الظاهرة القرآنية العالية أن الآيات القصار تختص عن غيرها بأن لها خاصة وهو الاعتبار والوقوف عند فواصلها المتقاربة غير المتباعدة ، فتكون وقفة يقتضى السكون عندها ، فالجواب عن حال الجبال وهى أوتاد الأرض وبها تتماسك بأمر الله تعالى ، بأن الله تعالى ينسفها نسفاً ، وفى هذه الوقفة الصامتة يتدبر أمر الله فى نسف الجبال ، ويتخيل ذلك ، فيدرك

---

(١) طه : ٨٣ — ٨٧ .

(٢) طه : ١٠٥ — ١١١ .

قدرة الله تعالى على الإعادة ، ويتدبر الأرض وقد نسفت جبالها ليس بها علو بتضاريس ، ولا انخفاض بجوار علو ، وهكذا تتبع الآيات القصير والوقوف عند آخر كل آية ، وكأن الله سبحانه وتعالى يدعوك إلى أن تقف لتتدبر وتتفكر ،وتعرف مآلك، وأنه لا غرابة فى أن تعاد الأجساد يوم البعث والنشور .

وإن الآيات الطوال تكون فى موضوع يحتاج إلى التدبر فى أوله وآخره ، وأخذه جميعاً ، كما رأينا فى آيات الأحكام ، وفى بعض القصص الذى يكون التدبر فى مجموعه لا فى آحاده ، وفيه يتلاحق آخره بأوله ، كما رأينا فى النعم التى أفاض الله بها على بنى إسرائيل ، وكيف لاقوها بالكفران والعتو عتواً كبيراً .

وقد رأينا فى الآيات القصار أن كل آية تصلح وحدها لأن تكون موضع تدبر، بل يلزم فيها التدبر وإن كانت متصلة بما بعدها وثيقة الاتصال.

ولنتل عليك بعض الآيات القصار من ذلك قوله تعالى فى سورة ص «كذبت قبلهم قوم نوح، وعاد وفرعون ذو الأوتاد، وثمود وقوم صالح، وأصحاب الأيكة ، أولئك الأحزاب . إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب. وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق ، وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ، اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ، إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ، والطير محشورة كل له أواب ، وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ، وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ، إذ دخلوا على داود ففزع منهم، قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ، ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط ، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه

وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب ، فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب »[1] .

وهنا نجد الآيات كلها تتلاقى معنى العبرة ، وتثبيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأخبار النبيين ، وما كان من أقوامهم معهم ، وذكرت بعض قصة داود عليه السلام ، وما يتعلق بحكمه ، ومتاعبه من الخصوم ، ثم حكمه وخطأه فيه .

هذا كله معنى متلاحق الأجزاء بعضه يتمم بعضه ، ويتكون من الجميع صورة بيانية تستولى على لب الناظر إليها ، والمتفهم لمعناها ولكن فى الآيات القصار أجزاء كاملة فى ذاتها ، وإن تكون من مجموعها كل كامل غير متقطع فاقرأ من قصة داود عليه السلام أول ما أورد تجد قوله تعالى : « واذكر عبدنا داوود ذا الأيد إنه أواب » فهذه صورة كاملة لنبي من أنبياء الله تعالى ، آتاه الله تعالى السلطان القوى المؤيد الثابت القائم على الحق ، وتلك وحدها صورة بيانية تستدعى التدبر فيها وجاء بها القرآن الكريم مفصولة فى الفاصلة عما وراءها لأنها وحدها يجب تدبرها ، لاجتماع الدنيا والدين فى رسول رب العالمين فلا يحسبن أحد أن الزهد فى الفقر والحاجة ، إنما الزهد فى العفة حيث تكون القدرة ، ثم جاءت الآية التى تليها مبينة مقدار قوته فقال : « إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق » فهى له خاضعة ، ثم الطير محشورة وهكذا كانت الفواصل معلنة أن ما قبلها يدعو إلى تدبره والتفكير فيه .

وقد تكون فى الآية القصار ، آية بين كل آية وأخرى تدعو إلى التفكير بصراحة ، كما دعت فواصل الآيات إلى التدبر ميزات الفاصلة ، اقرأ قوله تعالى فى سورة الرحمن :

---

(١) ص : ١٢ — ٢٥

« الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ، والأرض وضعها للأنام . فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، رب المشرقين ورب المغربين ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان »[1] .

هذه نصوص قرآنية من الآيات القصار تجد كل آية منها تدعو إلى التدبر والتفكر فيما تدعو إليه وما تدل عليه ، وقد كانت الفاصلة منبهة إلى التروى فى معناه ، والتدبر فى مغزاه ، وهى متضامة مع سابقتها ولاحقتها لتأتى بمعنى كلى جامع ، وصورة بيانية رائعة .

وهكذا تكون آيات القرآن ، وألفاظه وجمله ، وكله إعجاز فى إعجاز تدل على أنه من اللطيف الخبير العزيز الحكيم السميع البصير .

---

(١) الرحمن : ١ — ٢١

الإعجاز بذكر الغيب

١٣٦ – هذا باب من أبواب الإعجاز ، فيه جزء من القصص ، والجزء الثانى من الأخبار التى يتحدث القرآن فيه عن المستقبل،فالغيب المذكور فى القرآن نوعان أحدهما غيب مضى ، وهو جزء القصص ، والثانى عن أمور تقع فى المستقبل وكلاهما إعجاز ، أو من دلائل الإعجاز مع البلاغة والبيان ، ومع العلوم القرآنية ، والأحكام التى اشتمل عليها القرآن الكريم .

ووجه الإعجاز فى الماضى وقصصه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نشأ أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولم تكن نشأته بين أهل الكتاب ، حتى يعلم بالتلقين علمهم ، وكان قومه أميين لا يسود فيهم علم من أى طريق كان إلا أن يكون علم الفطرة والبيان ، وإرهاف أحاسيسهم بالشعر والكلام البليغ ، وتذوق الكلمات ، والمعانى .

لم يكن عندهم مدرسة يتعلمون فيها ، ولا علماء يتلقون عليهم ، وكانوا منزوين بشركهم عن أهل الكتاب . والمعرفة فى أى باب من أبوابها ، وكانت رحلتا الصيف والشتاء إلى الشام واليمن تجاريتين، لا تتصلان بالعلم فى أى باب من أبوابه ، ولا منزع من منازعه .

وجاء القرآن الكريم فى ذلك الوسط الأمى يذكر لهم أخبار الأنبياء السابقين ، وأحوال أممهم معهم ، وما حل بالذين كفروا وضلوا ، وهم يرون هذه الآثار فى الأمم التى تصاقبهم .

جاء القرآن الكريم بتفصيله الصادق المحكم عن أخبار هؤلاء النبيين ، وقد وافق كثير منهم الصادق عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وما اختلفوا فيه عما جاء فى القرآن ، فإن الفحص الدقيق يثبت بطلان

تحريفهم ، وصدق القرآن الكريم ، فيما حكاه الله ، فإنه علام الغيوب الذى أحاط بكل شىء علما .

ولقد ذكر القرآن ذلك الوجه من الإعجاز فقد قال تعالى بعد ذكر قصة مريم وكفالة نبي الله تعالى زكريا لها : «ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون»[1] فإن هذا النص يشير إلى الدلالة على أن القرآن من عند الله ، وعلى أن ذلك النوع من العلم ما كان عند العرب ، وليس لهم به دراية .

وإنه لم تذكر قصة مريم البتول فى التوراة ، ولا الإنجيل ولا رسائل الرسل قط ، والقرآن الكريم وحده هو الذى بين اصطفاءها ، وفضلها على نساء العالمين .

ويقول الله تعالى بعد قصة نوح عليه السلام «تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين»[2] .

وفى هذه الآية والتى قبلها إشارة واضحة إلى أن هذا النوع من العلم ما كان معروفا عندهم وما كانوا يتذاكرون به .

وقد قال تعالى فى ذلك أيضا : «ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون»[3] ، فذكر القرآن أدق الأخبار ، وما لا يعلمه أحد إلا الله تعالى .

وكان ذلك القصص الحكيم إخباراً بالغيب ، الذى لا يعلمه إلا علام الغيوب دليلا على أنه من عند الله العزيز الحكيم . وموافقته للصحيح من أخبار النبيين دليل على أن القرآن من عند الله ، وأنه ليس حديثاً مفترى وليس أساطير الأولين اكتتبها ولا يمكن أن تملى عليه . ولا يوجد من يمليها عليه وإذا كانوا قد ادعوا أنه تلقاها من بعض الناس فى مكة ، فهو لم يثبت اتصاله به ،

(١) آل عمران : ٤٤ (٢) هود : ٤٩ (٣) يوسف : ١٠٢

ولسانه أعجمى ، وهذا كتاب عربى مبين . وفوق ذلك فنى القرآن من صادق الأخبار مالم يكن فى كتب أهل الكتاب المسطورة . ولا يأتيه الباطل فيما يقول .

١٣٧ — هذا الإخبار عن الماضى التى يشتمل عليه القرآن الكريم ، وهى فيما احتوت دليل قاطع على أن القرآن من عند الله ، إذ جاء بها أمى لايقرأ ، ولا يكتب ، كما قال تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون[1] » .

وأما الإخبار عن أمور وقعت فى المستقبل كما أخبر القرآن الكريم ، وما كان لأحد أن يعلمها إلا من قبل العليم الحكيم اللطيف الخبير ، الذى لا يغيب عن علمه شىء فى السماء ولا فى الأرض فهو كثير .

ومن ذلك إخبار القرآن عن هزيمة الفرس بعد غلبهم ، فقد قال سبحانه : « ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين[2] » .

وقد حدث ما أخبر به القرآن ، فقد دارت رحى الحرب من بعد ذلك وهزم الفرس فى بضع سنين ، وما كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ممن حضر هذه الحرب ، وعرف سبب الغلب ، وما يتوقع من بعده ، وقد تفاءل المشركون من هزيمة الروم ، وهم كتاب ، وعلوا الفرس ، وهم أهل شرك ، وحسبوا من ذلك أن دعوة محمد مآلها الخسران وشأنهم فى ذلك هو شأن الذين يبنون علمهم على الأوهام ، وتخيل مايحبون .

ومن ذلك أيضاً ما كان قبيل غزوة بدر الكبرى إذ يقول سبحانه : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم[3] » لقد خرجت قريش بعيرها الذى كانت فيه ثروة قريش كلها ،

(١) العنكبوت : ٤٨
(٢) الروم : ١ — ٤
(٣) الأنفال : ٧

وأراد المؤمنون أن يترصدوها مضايقة للكفار، وأن يأخذوها نظير ما أخرجوا المؤمنين من ديارهم وأموالهم، ولكن أبا سفيان التوى عن طريق يثرب، ونجا بالعير، وكان طلب إلى قريش أن ترسل جيشاً يحمى عيرها، ويغزو موطن الخطر، فكانت المعركة، فهم أرادوا ابتداء العير، وليست ذات الشوكة، وأراد الله تعالى الجيش، وكان ذات الشوكة.

وما كانوا يتوقعون النصر على المشركين، ولكنها حرب الفداء للعقيدة، لا ينظر فيها إلى الاستيلاء، بل ينظر فيها إلى الاستشهاد، ولكن الله تعالى أخبرهم بالنتيجة قبل وقوعها، فقال تعالت قدرته: «سيهزم الجمع ويولون الدبر»(١) فكان هذا إخباراً بمغيب لم يكن إلا فى علم الله تعالى.

ومن ذلك إخباره عن اليهود بقوله تعالى «يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر(٢)».

ويقول تعالى عن المشركين إنهم عاجزون عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً(٣)»، وقوله تعالى: «فإن لم تفعلوا، ولن تفعلوا، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة(٤)».

وهكذا تجد فى القرآن إخبارا عن أمور قابلة، وتقع كما أخبر، وصدق فى ذلك كله، وذلك لا يكون إلا من عند الله، ولا يمكن أن يكون بالتقدير الشخصى أو الحدسى، فإن ذلك يصدق أحياناً، ويكذب أحياناً، والأمر هنا كله صدق لا تخلف فيه وكان دليلا على أنه من عند الله العليم الخبير اللطيف البصير، أودعه كتابه الكريم.

---

(١) القمر: ٤٥
(٢) البقرة: ٩٦
(٣) الإسرا: ٨٨
(٤) البقرة: ٢٤

٦ ــ جدل القرآن واستدلاله

١٣٨ ــ القرآن كل ما فيه معجز ، فإيجازه معجز ، وإطنابه معجز ، وألفاظه معجزة ، وأساليبه معجزة ، ونغماته ونظمه وفواصله ، كل هـــذا معجز ، واستدلاله وجدله وبيانه لا يصل إلى درجته نوع من الكلام ، وقد ساق الإمام الباقلانى طائفة من خطب العرب ، وأهل اللسن، وأهل الإيمان طائفة من أبلغها وأقواها ، ووازن بينها وبين إلزام القرآن وإقناعه واستدلاله ، فوجد أن الموازنة غير لائقة بذات القرآن ، والفرق بين القرآن ، وكلام أعلى أئمة البيان يجعل الموازنة غير مستقيمة ، والفرق بينها وبين القرآن هو كالفرق بين الخالق والمخلوق ، لأنه فرق بين كلام الخالق ، وكلام المخلوق .

ولعله مــن الخير أن ننقل تلك الخطبة التى اعتبرها الباقلانى من أعلى ما عرف من بليغ القول ، وهى رثاء على بن أبى طالب كرم الله وجهه لخليفة رسول الله أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه .

« لمــا قبض أبو بكر رضى الله عنه ارتجت المدينة بالبكاء كيوم قبض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجاء علىّ باكياً متوجعاً ،وهو يقول: اليوم انقطعت خلافة النبوة .

رحمك الله أبا بكر ،كنت إلف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنسه ، وثقته ، وموضع سره ، كنت أول القوم إسلاماً وأخلصهم إيماناً وأشدهم يقيناً ، وأخوفهم لله ، وأعظمهم غناء فى دين الله ، وأحوطهم على رسول الله ، وأثبتهم على الإسلام ، وأيمنهم على أصحابه، وأحسنهم صحبة ، وأكثرهم مناقب ، وأفضلهم سوابق ، وأرفعهم درجة ، وأقربهم وسيلة ،

وأشبههم برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سنناً وهدياً ورحمة وفضلا ، وأشرفهم منزلة ، وأكرمهم عليه ، وأوثقهم عنده .

فجزاك الله عن الإسلام ورسوله خيراً كنت عنده بمنزلة السمع والبصر صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، فسماك فى تنزيله صديقاً ، فقال والذى جاء بالصدق، واسيته حين بخلوا ، وقمت معه عند المكاره حين قعدوا ، وصحبته فى الشدائد أكرم الصحبة، ثانى اثنين ،وصاحبه فى الغار ، والمنزل عليه السكينة والوقار ، ورفيقه فى الهجرة ،وخليفته فى دين الله وفى أمته أحسن الخلافة حين ارتد الناس ، فنهضت حين وهن أصحابك ، وبرزت حين استكانوا ، وقويت حين ضعفوا ، وقمت بالأمر حين فشلوا ، ونطقت حين تتعتعوا[1] مضيت بنور إذ وقفوا ، واتبعوك فهدوا . وكنت أصوبهم منطقاً ،وأطولهم صمتاً ، وأكثرهم رأياً ، وأشجعهم نفساً ، وأعرفهم بالأمور ، وأشرفهم عملا كنت للدين يعسوباً[2] . أولا حين نفر عنه الناس ، وأخيراً حين قفلوا[3] وكنت للمؤمنين أباً رحيما ، إذ صاروا عليك عيالا ، فحملت أثقال ماضعفوا عنه ، ورعيت ما أهملوا . وحفظت ما أضاعوا ، شمرت إذ خنعوا ، وعلوت إذ هلعوا ، وصبرت إذ جزعوا ، وأدركت أوتار ماطلبوا ، وراجعوا رشدهم برأيك فظفروا ، ونالوا بك مالم يحتسبوا .

وكنت كما قال رسول الله أمن النـاس عليه فى صحبتك ، وذات يدك ، وكنت كما قال ضعيفاً فى بدنك ، قوياً فى أمر الله ، متواضعاً فى نفسك عظيما عند الله ، جليلا فى أعين الناس كبيراً فى أنفسهم .

لم يكن لأحد فيك مغمز ، ولا لأحد مطمع ، ولا لمخلوق عندك هوادة

---

(١) التعتعة : فى الكلام التردد من حصر أوعى

(٢) اليعسوب: الرئيس المقدم

(٣) رجعوا

الضعيف الذليل عندك قوى عزيز حتى تأخذ له بحقه ، والقوى العزيز عندك ضعيف ذليل ، حتى تأخذ منه الحق ، القريب والبعيد عندك سواء أقرب الناس إليك ، أطوعهم لله ، شأنك الحق والصدق والرفق ، وقولك حكم وحتم ، وأمرك حلم وحزم ، رأيك علم وعزم ، فأبلغت وقد نهج السبيل ، وسهل العسير ، وأطفأت النيران ، واعتدل بك الدين ، وقوى الإيمان ، وظهر أمر الله ، ولو كره الكافرون ، وأتعبت من بعدك إتعابا شديدا ، وفزت بالخير فوزاً عظيما ، فجللت عن البكاء ، وعظمت رزيتك فى السماء ، وهدت مصيبتك الأنام ، فإنا لله ، وإنا إليه راجعون ، رضينا عن الله قضاءه ، وسلمنا له أمره . فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمثلك أبداً ، فألحقك الله تعالى بنبيه ، ولا حرمنا أجرك ، ولا أضلنا بعدك .

وسكت الناس ، حتى انقضى كلامه ، ثم بكوا حتى علت أصواتهم .

١٣٤ — هذه خطبة من عيون البيان العربى ، بل لعلها أبلغ خطبة بعد خطب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن إن وضعناها بجوار القرآن أفلت ، كما تختفى النجوم إذا طلعت الشمس ، وأصبحت لا تساوى بجوار القرآن شيئاً ، وإن الذين يسيئون إلى كل كلام بليغ مهما تكن درجته هم الذين يضعونه بجوار القرآن ، وأنى يكون كلام بجوار كلام خالق البشر وأنى يكون كلام ابن الأرض بجوار كلام الله فى اللوح المحفوظ .

وإننا مهما نحاول تعرف أسرار البلاغة فى القرآن ، فلن نصل إلى كلام محكم ، كمن يحاول معرفة الروح فهى من أمر الله تعالى تعرف مظاهر الحياة منها ، ولكن لا نعرف كنهها ، فنحن نعلم علو القرآن ، وإعجازه وامتيازه ، وأنه لا يحاكى ، ولكن لا نستطيع أن نعرف سر هذه الروعة التى يحسها كل قارىء مدرك .

ولعل من التوفيق للباقلانى أن جاء بأبلغ كلام ووضعه بجوار كلامه سبحانه،فبدا بجواره هزيلا ، مهما تكن درجته فى البيان وذلك أمر ظاهر، لم يجىء الإعجاز بصرف ، ولكن بإدراك المقام البلاغى للقرآن وإن لم يعرف السر كاملا .

ونعود إلى ذات الخطبة نجدها صادقة كل الصدق فى وصف أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنها وصلت إلى أقصى الغاية فى مناقبه ، وفى مقامه من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفى مواقفه فى حياة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومواقفه إذ انتقل عليه السلام إلى الرفيق الأعلى ، فقد أنقذ الإسلام عند الصدمة الأولى ، وهى حالة الردة .

والخطبة العلوية هذه فيها وصف للحاكم العادل ، كيف يكون رحيما برعيته مصدر أمن ، لا مصدر إزعاج ، متضامناً لهم قريباً من أنفسهم ، لا يطمع القوى فى حيفه ، ولا ييئس الضعيف من عدله .

وقد ذكرنا هذه الخطبة أيضاً لنشير إلى الينابيع البيانية التى استقى منها القول فى إعجاز القرآن ، وهى أساس لكل كلام محكم .

ومن معرفة بلاغة القول أن نعرف المواضع التى بنى عليها الاستدلال.

ونحن هنا نريد ابتداء أن نتعرف المنهاج القرآنى للاستدلال، والأصول التى بنى عليها استدلاله فى نظرنا القصير وإن كان فى كل ما يتعلق بالبيان عز عن المثيل ولا يمكن أن يكون له مثيل .

١٣٥ — وإن رجال البيان فى بيان مناهج الخطب واستدلالها يتكلمون فى الينابيع التى يستقى منها الخطيب أدلته أو براهينه ، ونحن مع إقرارنا بأن منهاج القرآن أعلى من الخطابة ، كما هو أعلى من الشعر ومن السجع ، نرى أن نستعير من علماء البلاغة كلاما فى مصادر الاستدلال ، ونريد أن نتعرف المصادر الذاتية التى بنى القرآن الكريم استدلاله عليها ، وإن كان مقامه

أعلى وأعظم ، وهو معجز فى ذاته ، وليس ككلام البشر ، وإن بنى على حروف البشر وألفاظهم ، ومن جنس كلامهم .

ويقولون إن الاستدلال الذى يستمد من مصادر ذاتية ، أى تؤخذ من ذات الموضوع ، وهى أشبه بالبرهان المنطق ، وإن كانت أعلى ، هى ستة مواضع أو ينابيع أولها التعريف أى معرفة الماهية وثانيها ، التجزئة بذكر أجـــزاء الموضوع ، وثالثها التعميم ثم التخصيص ، ورابعها العلة والمعلول ، وخامسها ، المقابلة ، وسادسها التشبيه وضرب الأمثال .

١ — الاستدلال بالتعريف :

١٣٦ — الاستدلال بالتعريف بأن يؤخذ من ماهية موضوع القول دليل الدعوى بأن يؤخذ مثلا من حقيقة الأصنام دليلا على أنها لا تصلح أن تكون معبوداً ، ومن بيان صفات الله تعالى دليلا على أن يكون وحده المستحق للعبادة ، وإذا كان موضوع القول هو الذات العلية تقدست أسماء الله ، فإنه يكون الاستدلال على ألوهيته سبحانه ، ببيان صفاته ، وخلقه للكون صغيره وكبيره ، ولا تعرف الذات العلية إلا بصفاتها ، ومن ذلك قوله تعالى : « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح ، وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ، ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر . قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة ، فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ، وجعلوا لله شركاء

الجن ، وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغـــير علم سبحانه وتعالى عما يصفون »(١) .

ونجد فى هذا الكلام إثباتاً لوحدانيته سبحانه وتعالى ، وأنه وحده المعبود بحق ، وأنه لا إله إلا هو ، وكان طريق الإثبات هو بيان خلقه وتنوعه ، وأنه وحده الخالق لكل شيء ، وإذا كان الله تعالى هو الخالق وحده فهو الإله وحده ، وكان التعريف بالله تعالى هو السبيل لإثبـــات الربوبية له سبحانه ، وقد عرف سبحانه وتعالى بصفاته وأثره سبحانه فى الوجود ، لأن الله تعالى لا يعرف إلا بصفاته وآثاره فى الخلق والتكوين ، لأن معرفة حقيقة ذاته سبحانه وتعالى غير ممكنة فى هذه الدنيا ، وإن الذى نعرفه أنه سبحانه وتعالى منزه عن مشابهة الحوادث ، فليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

ومما يدل على عظمة الخالق ، واستحقاقه للعبودية ، وقدرته على البعث والنشور التعريف بالمخلوق ، وخصوصاً الإنسان ، ومن ذلك قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ، ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ، وما كنا عن الخلق غافلين »(٢) .

ومن هـذا نرى أن التعريف بالإنسان فى خلقه ابتداء دليل على بعثه انتهاء ، ألم تر أن الله سبحانه وتعالى : ذكر أنه خلقه علقة ومن العلقة مضغة ومن المضغة عظاما ، ثم كساها لحماً ، ثم أماتها ، ومن الطبيعى أن يكون قادراً على الإحياء ، لأن الإنشاء على غير الله أصعب من الإعادة ، ولا صعوبة على الله تعالى ، فى إنشاء ، ولا إعادة .

---

(١) الأنعام : ٩٥ — ١٠٠
(٢) المؤمنون : ١٢ — ١٧

ومن تعريف بعض المحرمات يستبين تحريمها ، والأمر القاطع بالتحريم، ومن ذلك قوله تعالى فى تحريم الخمر : « يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ،فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ، وأطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، واحذروا فإن توليتم ، فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين »(١) .

ونرى من هذا أن التحريم الثابت بالنص ذكر أوصاف الخمر وبيان ذاتها وما يترتب عليها ، لمعرفة حكمة تحريمها ، فذكر تعريفها بالحد والرسم أما التعريف بالحد فبيان ذاتها بأنها مع أخواتها من الميسر، والذبح على النصب، هو التعريف بالحد ، وهو ذكر الذات ، بذكر جنسها وفصلها ، وأما فذكر هذا التعريف بالرسم، فهو ذكر مايترتب على الشرب من وقوع العداوة والبغضاء والصد عن الصلاة وعن ذكر الله تعالى . فهى لهو لتزجية الفراغ بما فيه الصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، والانغمار فى اللهو الفاسد .

٢ - الاستدلال بالتجزئة :

١٣٧ — أن تذكر أجزاء الموضوع ، وبتتبعها يكون إثبات الدعوى، ومن ذلك أن المقرر الثابت بالبديهة الذى لامجال للريب فيه الحكم بأن الأثر يدل على المؤثر ، وأن الكون يدل على خالقه ، وأن القوى البشرية والعقول المستقيمة تقر بأن الخالق لهذا الكون صغيره وكبيره قوة واحدة ، وهى قوة الله سبحانه وتعالى .

وقد كان القرآن يذكر ذلك فى آياته الحكيمة أحياناً مجزءاً وأحياناً غير مجزأ، ومن الاستدلال بالتجربة قوله تعالى :« قل الحمدلله، وسلام على عباده

---

(١) المائدة : ٩٠ — ٩٢

الذين اصطفى ، آلله خير أما يشركون . أمن خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله ، بل هم قوم يعدلون ، أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون ، أمن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون ، أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ، أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، (١) .

ونرى من هذا كيف كانت التجزئة فى مادة الاستدلال ، وإن لم تكن الأجزاء كلها مستوفاة مستقراه ، وإنه من منهاج الاستدلال يتبين أن كل جزء يصلح وحده دليلا على أن الله وحده هو المنشىء للكون ، والمدبر له ، والقائم على كل شىء ، ولذلك قرن السياق فى كل جزء نفى أن يكون إله غير الله معه ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

ومن التجزئة أيضاً فى الاستدلال قوله تعالى : « ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزى الظالمين : أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ، ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شىء حى ، أفلا يؤمنون ، وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم ، وجعلنا فيها فجاجاً سبلا لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ، وهو الذى خلق الليل والنهار ، والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون ، وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مت فهم الخالدون ، كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ،

---

(١) النمل : ٥٩ — ٦٤

وإلينا ترجعون »(١) .

ونجد هنا فى هذه الآية الكريمة تجزئة فى الاستدلال بحيث يعتبر كل جزء دليلا قائما بذاته ، ومن مجموعه دليل كلى على أن كل صغير أو كبير من خلق الله تعالى ، وأنها دليل على وجوده سبحانه وتعالى .

٣ — التعميم ثم التخصيص :

١٣٨ — التعميم أن تذكر قضية عامة ، وتؤدى إلى إثبات الدعوى بإجمالها ، ثم يتعرض المستدل إلى جزئيات القضية ، فيبرهن على أن كل جزئى منها يؤدى إلى إثبات الدعوى المطلوب إثباتها ، أو أنها فى مجموعها تؤدى إلى إثبات الدعوى .

ومما سبق ذكره يتبين صدق الدعاوى العامة التى هى صلب الدين ، وهى التوحيد ، وأنه تجب إطاعة الرسول ، وأنه لا خضوع إلا لله سبحانه ، ومن ذلك قوله تعالى فى المجاوبة بين موسى وفرعون : « قال فمن ربكما يا موسى ، قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى ؟ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ، الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم ، إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى » .(٢)

ونرى من هذه القضية العامة الكاملة التى تذكر بجوار الله سبحانه وتعالى وهى التى بها يعرف الله سبحانه وتعالى الذى خلق كل شىء فأحسن خلقه وهو الهادى ، فقال سبحانه كلمة جامعة كاشفة لمعنى الربوبية ، ومع الربوبية العبادة ، وكمال الألوهية ، فقال الله تعالى على لسان موسى « ربنا الذى أعطى كل شىء

---

(١) الأنبياء : ٢٩ — ٣٥ .
(٢) طه : ٤٩ — ٥٥ .

خلقه ثم هدى ، فهو سبحانه وتعالى مانح كل شىء فى هذا الكون الوجود ، وهو مانح الهداية لمن اهتدى » .

ثم أخذ القرآن الكريم بعد هذا التعميم الجامع يبين جزئيات داخلة فى هذا وذكر من هذه الجزئيات ما ينبه فرعون وأهل مصر وهم أهل زرع وضرع وختم النص الكريم بما يناسبهم ، وهو نعمة للجميع : « كلوا وارعوا أنعامكم ، إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » .

٤ — العلة والمعلول :

١٤٩ — أساس الاستدلال الربط بين القضايا التى تصور أجزاء الحقائق فى هذا الوجود ، بأن يكون وجود بعض الأشياء علة لوجود شىء آخر ، وبمقدار قوة الارتباط تكون قوة الاستدلال . وذلك بأن يكون أحدهما علة الآخر ، وإذا وجدت العلة كان المعلول ثمرة لوجودها ، وهما متلازمان من الناحية العقلية ، أو على حسب مجرى الأمور ، وإذا ذكر المعلول ، كان كاشفاً لعلته لأن ذكر النتائج مع إحدى المقدمتين للدليل يدل على المقدمة الثانية ، ولأن المقدمات تطوى فيها ، فإذا ذكر تحريم الخمر ، وحاول العقل أن يتعرف سبب التحريم يستطيع تكشفه من أوصاف الخمر ، فإذا عرف الوصف المناسب للتحريم استيقن أنه السبب ، وهو يكون وصفاً لا يشاركها فيه غيره من المباحات وفى القرآن كثير ، يكون فيه التعليل جزءاً من الدليل الذى يسوقه القرآن الكريم بتنزيل من العزيز الحكيم ، ولنتل آية إباحة القتال ، فإن فيها السبب الذى يبرره ، والدليل الذى يوجبه ، اتل قوله تعالى :

وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ، وقاتلوهم حتى

لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين[1] » .

وإننا نجد فى سياق هذا النص القرآنى الكريم أن السبب الذى برر أمر الله تعالى بالقتال أمران أحدهما الاعتداء ، وثانيهما فتنة المؤمنين فى دينهم فإذا زال الأمران لا يكون ثمة مبرر للقتال ، ثم هذا الاعتداء ، وتلك الفتنة دليل الوجوب وكذلك نجد الأمر فى الإذن بالقتال إذ كان دليله والمبرر له هو الاعتداء ، ولذلك قال تعالى :

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع ، وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور »[2].

ونرى فى هذه الآيات الكريمة أن العلة الموجبة هى الاعتداء وإخراج المؤمنين مفتونين فى أنفسهم وأموالهم ، ثم قامت المعلولات الغائية المترتبة على السكوت ، وعدم دفع المعتدين أن يعم الفساد ويسود الشر ، فلولا هذا الدفاع لفسدت الأرض ، ولهدمت المعابد ، ولم تقم الشعائر ، فاتخذ من هذه النتائج المترتبة على ترك المشركين يعيثون مبررة لمقاومتهم ، وموجبة لحربهم ، فكان هذا من قبيل الاستدلال بالنتائج وهى الغايات الواقعية دليلا على الوجوب وإن هذه الآيات الكريمات صور سامية لما سنه الإسلام من سنة تتفق مع الطبيعة الإنسانية ، وهو إزالة الشر بالعقاب الشديد ومقاومته ، لأن الفضيلة فى الإسلامية ليست سلبية ، ولكنها إيجابية بين سبحانه على السبيل الإيجابى

---

(١) البقرة : ١٩٠ — ١٩٣

(٢) الحج : ٣٩ — ٤١

لرد الرذيلة ودفع شرها ومقاومته ، فكان الاعتداء على الفضيلة سبباً موجباً للقتال ، والقتال فى سبيلها جهاد مثوب .

٥ — **المقابلة :**

١٤٠ — إن المقابلة بين شيئين أو أمرين ، أو شخصين تكون ليعرف أيهما المؤثر فى عمل معين ، وإذا ثبت أن التأثير لواحد منهما كان له فضل التقدم على غيره ، وقد كان ذلك النوع من ينابيع الاستدلال كثيراً فى القرآن الكريم ، لأن المشركين كانوا يعبدون أحجاراً يصنعونها أو مخلوقات لله تعالى خلقها ، وكانوا يعتقدون أن لها تأثيرا فى الإيجاد ، أو فى الشر يمنع ، أو الخير يجلب ، فكانت المقابلة بين الذات العلية وبين ما ابتدعوا من عبادة الأوثان ينبوعاً للاستدلال على بطلان ما زعموا ، ومن ذلك قوله تعالى :

«أفمن يخلق كمن لا يخلق ، أفلا تذكرون ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله لغفور رحيم »[1]

هذا هو النص الكريم ، وفيه مقابلة بين المعبود بحق ، وهو الله سبحانه وتعالى خالق السموات ، وهم يؤمنون بأن الله وحده خالق السموات والأرض «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله»[2] ، وهم يعلمون أن الأحجار التى يعبدونها صنعت بأيديهم ولم تخلق شيئاً ، فالقرآن من هذه المقابلة يأتى بدليل يلزمهم ويفحمهم أو يقنعهم ، إن استقامت القلوب ، وإن الدليل بالتقابل يصح أن يكون عندما ادعيت الألوهية للخالق جلت قدرته مع المخلوق المصنوع بأيدى العباد ، وبالمقابلة بينهما نجد الخالق يحتاج إليه كل ما فى الوجود ، والمصنوع بأيدى العباد لا ينفع ولا يضر ، فالله وحده هو الإله الحق الذى لا يعبد سواه ، لأنه لا يحتاج لأحد ويحتاج إليه كل أحد «قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد »[3] .

---

(١) النحل : ١٧ — ١٨

(٢) لقمان : ٢٥

(٣) الإخلاص .

ومن المقابلة التى كانت ينبوعا للاستدلال قوله تعالى : « قل من رب السموات والأرض قل الله ، قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شىء ، وهو الواحد القهار »(١).

وإن هذا الاستدل قائم على المقابلة ، فكانت المقابلة من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرا ومن هو القهار القادر على كل شىء وهو الواحد الأحد الذى لا يشبهه أحد ، وكان المقابلة بين الأعمى والبصير ، ويشمل الأعمى من لا يدرك الحقائق ، والبصير من يدركها ، وبين الظلمة التى تعتم النفس ، والنور الذى يشرق به القلب ، ومن يخلق ومن لا يخلق وهذه المقابلات ينابيع الإدراك الموجه المسترشد ، والظلام المعتم المحير .

وإن هذه المقابلات تصلح دليلا مثبتاً فى عدة دعاوى ، ويكون فى المقابلات الحكم الفصل الهادى المرشد .

فى الدعوى الأولى ادعاء المساواة بين من يملك كل شىء ومن لا يملك لنفسه النفع والضر ، والحكم الذى ينتجه الدليل أنهما ليسا متساويين ، وإذا كانت دعوى المساواة فى الألوهية باطلة ، فالحكم بالنفى ، والإله هو الله وحده الذى يملك كل شىء وفى الدعوى الثانية نفى التسوية بين من أدرك الحق ، واهتدى ومن ضل وغوى ، والأخير كالأعمى ، والأول كالبصير ، فأيهما يهتدى إلى الطريق السوى ، ولا شك أن الحكم أن الخير فى المبصر المهتدى ، وليس فى الضال المرتدى ، فالفضل لأهل التقوى ولو كانوا ضعفاء يستضعفهم الناس .

وفى الدعوى الثالثة ادعاء الاشتراك فى الخلق والتكوين بالزعم لا بالحقيقة

---

(١) الرعد . ١٦ .

وهذه باطلة بل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ، وبذلك يتحقق الحكم فيما هو صادق واقع ، لا فيما هو مزعوم مختلق .

ومن المقابلات القرآنية التي دلت على البعث ، وكان فيها رد على أوهام الكافرين قوله تعالى :

« أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ، ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ، بلى إنه على كل شيء قدير ، ويوم يعرض الذين كفروا على النار ، أليس هذا بالحق ، قالوا بلى وربنا ، قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون »[١].

ونرى هنا استدلالا على أن البعث ممكن في ذاته ، والتصديق به واجب ، لأن الله تعالى أخبر به على لسان نبيه الكريم وفي كتابه المكنون ، إذ جاء به القرآن الكريم ، ودعا إليه محمد الأمين .

وكان الاستدلال بطريق المقابلة ، وكانت المقابلة بين إنشاء الإحياء ابتداء والخلق والتكوين من غير سابق ، وإن القدرة فيه كانت ، ولم يعي بخلقهن ، وبين الإعادة للأجسام التي خلقت ثم صارت رميما ، وإنه إذا كانت قد وجدت ، فالثانية قد تجيء ، وهي تجيء إذ اخبر بها العزيز الحميد القادر على كل شيء .

وإنه بهذه المقابلة ، بين الإنشاء والإعادة ، وبين الخلق من غير أصل سابق ، والإعادة ينتهي به ذو العقل الرشيد إلى الحكم بأن البعث ممكن في ذاته ، وأنه واجب الاعتقاد لأن الله تعالى أخبر به ، « وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد[٢]» .

ومن الآيات الدالة على أن الله تعالى خالق كل شيء ، واعتمدت الدلالة

---

(١) الأحقاف : ٣٣ — ٣٤

(٢) الرعد : ٥

فيهـا على المقابلة قوله تعالى : « نحن خلقناكم ، فلولا تصدقون ، أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون،أفرأيتم ما تحرثون، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون ، إنا لمغرمون ، بل نحن محرومون ، أفرأيتم المـاء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ، أفرأيتم النار التى تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون، نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين ،فسبح باسم ربك العظيم»(١).

ونجد من هذه المقابلات بين إنشاء الخالق وعجز الإنسان ما يدل على أنه هو الذى خلق فهدى ، وأنه العليم بمـا خلق ، وأنه بهذا المستحق للعبادة وحده ، وأنه ليس كمثله شىء وأنه الواحد الأحد

٦ — الاستدلال بالتشبيه والأمثال :

١٤١ — من ينابيع الاستدلال فى القرآن التى تثبت قدرة الله تعالى ، وصدق ما يطلب الدين الحق ، وما أتى به القرآن التشبيه وضرب الأمثال ، وقد ذكر الله تعالى فى القرآن الكريم أنه يضرب الأمثال ويبين الحقائق عن طريقه ، وضرب الأمثال باب من أبواب التشبيه ، وهى تضرب كما ذكرنا فى باب التشبيه لتقريب الحقائق العليا، ولتشبيه الغائب غير المحسوس بما يقربه من القريب المحسوس ، ولتوضيح المعانى الكلية بالمشاهد الجزئية ، وللاستدلال بحال الحاضر على الغائب .

ومن ذلك قوله تعالى الذى ذكر فيه أن المثل يكون لبيان الحقائق ، سواء أكان بالصغير أم كان بالكبير ، فقد قال تعالى :

---

(١) الواقعة : ٥٧ — ٧٤

« إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ، يضل به كثيراً ، ويهدى به كثيراً ، وما يضل به إلا الفاسقين »(١) .

وفى هـذا النص يثبت الله تعالى أنه سبحانه يقرب الحقائق الثابتة بالأمثال ، ويأتى بالدليل من بيان الأشياء ، واستخراج خواصها ، والإثبات بالأدلة عن طريقها ، وإن الناس فى تلقى هذه الأدلة فريقان ، فريق آتاه الله قلباً نيراً يصغى إلى الحق ، ويأخذ به ، ومنهم من أصاب العناد قلبه ، فإذا قوى الدليل ، فإنه يزيد إصراراً ، وإمعانا فى الضلال ، فيوغل فيه ، وهذا معنى قوله تعالى « يضل به كثيراً ، ويهدى به كثيراً ، وما يضل به إلا الفاسقين » .

فهذا النص يفيد أن الله تعالى فى القرآن الكريم يتخذ من الأمثال تبييناً للحقائق ، وتثبيتاً ، وإقامة للدليل بها .

واقرأ قوله تعالى مثلا فى بيان عجز الأصنام ومن يعبدونها العجز المطلق ، وقدرته تعالى على كل شىء ، فقد قال تعالى :

« يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز »(٢) .

انظر إلى الدليل القاطع الذى يثبت بطلان الوثنية ، ويقيم الدليل على الوحدانية ، فإن الأوثان ، ومن يتبعونها ، ولو تضافرت كل القوى معها .

---

(١) البقرة : ٢٦

(٢) الحج : ٧٣ — ٧٤

لا يمكن أن يخلقوا ذباباً ذلك الطير الضعيف أو تلك الحشرة الضئيلة التي يستحقرونها ، ولو أن الذباب سلب منهم شيئاً ، لو اجتمعوا مع أوثانهم على أن يستردوه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وهم والذباب سواء في الضعف وإن بدوا أقوياء ، وهذا أضعف خلق الله تعالى في زعمهم، فكيف يكون للذين يدعونهم آلهة أمام قوة الله ، وكيف يعبدونهم معه ، وهم لا وجود لهم ولمن يعبدونهم بجواره سبحانه وتعالى علواً كبيراً ، فهذا المثل سيق مساق الاستدلال وكان دليلا قوياً ، إن كانوا طلاب حق يلتمسون الدليل عليه ، وإن كانوا طلاب باطل ضلوا سواء السبيل ، لا يزيدهم الدليل إلا كفرا .

ومن الأمثلة الموضحة التي تثبت كمال سلطان الله وأنه وحده القادر ، وبطلان غرور الإنسان إزاء قدرة الله تعالى قوله سبحانه :

« واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ، وحففناهما بنخل ، وجعلنا بينهما زرعا ، كلتا الجنتين آتت أكلها ، ولم تظلم منه شيئا ، وفجرنا خلالهما نهرا ، وكان له ثمر فقال لصاحبه ، وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ، ودخل جنته ، وهو ظالم لنفسه ، قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ، قال له صاحبه وهو يحاوره ، أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ، لكنا هو الله ربي ، ولا أشرك بربي أحدا ، ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً ، فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك ، ويرسل عليها حسباناً من السماء ، فتصبح صعيداً زلقا ، أو يصبح ماؤها غوراً ، فلن تستطيع له طلبا ، وأحيط بثمره ، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ، وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً ، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان منتصراً ، هنالك الولاية

لله الحق ، هو خير ثواباً ، وخير عقبا »[1] .

وهذا المثل الواقعى التصويرى فيه دليل على إثبات حقيقتين — أولاهما أن المغتر دائماً يدلى به غروره إلى أنه يحكم على المستقبل بما هو عليه فى الحال القائمة ، والقوة الموهومة ، فذو الجنة والنفر ظن أن الحاضر ينبيء عن المستقبل وغره بالله الغرور ، وتعالى من غير علو ، وتسامى من غير سمو ، واستقوى من غير قوة ، فجاء المستقبل ، وخيب الأمل وكشف الحقيقة .

الحقيقة الثانيـة إثبات أن الولاية والنصرة لله سبحانه وتعالى ، وأنه وحده المالك للأمور كلها فى ماضيها ومستقبلها وشاهدها ، وغائبها .

فكان المثل دليلا على وباء الغرور ، وأن الأمر لله وحده .

ومن الأمثال الموجهة إلى الحقائق الخلقية والدينية قوله تعالى فى سورة ن « إنا بلوناهم ، كما بلونا أصحاب الجنـة ، إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك ، وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم ، فتنادوا مصبحين ، أن اغدوا على حرثكم ، إن كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حرد قادرين ، فلما رأوها قالوا إنا لضالون ، بل نحن محرومون ، قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون ، قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين ، عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها ، إنا إلى ربنا راغبون ، كذلك العذاب ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون »[2] .

سبقت قصة أصحاب الجنة الدنيوية ، وهى قصة واقعية تصويرية ، وهى دليل مثبت — أولا — لأن الزكاة تطهر المـال وتحميه لقوله تعالى « خذ من

---

(١) الكهف : ٣٢ — ٤٤

(٢) ن : القلم ١٧ — ٣٢

أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم، بها فهى للمال نظافة ونماء — وهم قد أقسموا ليصرمنها مصبحين ، وأن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وتثبت ثانياً — أن العاقبة الحسية تؤثر فى النفس إن كان فيها قابلية للهداية، وهؤلاء إذا كانت قد ضاعت منهم الثمرات ، فقد عادت إليهم بأعظم العظات ، فما كسبوه من عظة أكثر مما فقدوه من ثمرة ، وثمرات القلوب أطيب من ثمرات تشتهى الأبدان طعمها ، وهى دليل على أن الله تعالى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء وأن الأقدار تحت سلطانه ، ويجريها ، كما يحب وكما يشاء .

ومن الأمثلة التى تساق مساق الدليل قوله تعالى: « ضرب الله مثلا عبداً مملوكا لا يقدر على شىء ، ومن رزقناه منا رزقاً حسناً ، فهو ينفق منه سراً وجهراً ، هل يستوون الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون ، وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء ، وهو كل على مولاه ، أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم »[1] .

والآيات قبل ضرب هذين المثلين كانت فى الأمر بعبادة الله تعالى وحده والاخبار عن عبادة المشركين من لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، إذ يقول سبحانه ، ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون[2]، فجاء سبحانه وتعالى بهذين المثلين ، وهما يبطلان عقيدة الشرك ، وزعم المشركين بأمثلة تقع فى الحياة ، والحكم فيها من البدهيات التى لا ينكرها عاقل ، ولا يختلف فيها فكر عن فكر ، وكل مثل من المثلين دليل قائم بذاته على بطلان الوثنية ، إذ فيه تسوية بين من لا يقع بينهما التساوى .

أما أولهما فقد ضرب برجلين أحدهما عبد مملوك لا يقدر على شىء، لأنه

(١) النحل : ٧٥ — ٧٦ .
(٢) النحل : ٧٣

مملوك لغيره ، فهو ليس له مال ، فهل يستوى هذا مع رجل مرزوق من الله تعالى رزقاً حسناً ، إن التسوية غير معقولة بين من له مال يعطى منه غيره ، أو ينفق منه فى الخير سراً وجهراً ، وبين المملوك الذى لا مال له إذا كانت التسوية غير معقولة فتسوية أولئك المشركين بين الأحجار التى لا تضر ولا تنفع فى عبادتها مع الله تعالى الرزاق ذى القوة المتين المالك لكل شىء الذى له ملك السموات والأرض أبعد عن كل معقول ، وذلك برهان قوى على بطلان الشرك كله ، سواء أكان إشراك حيوان أو إنسان أم كان إشراك حجر .

وثانى المثلين أن الله يضرب مثلا برجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء ، وهو كل على مالكه أو ذى قرابة له يتولى أمره ولا يتجه إلى جهة ويأتى فيها بخير ، بل إن الطرقات مسدودة أمامه إما من جوارحه المئوفة الناقصة فهل يستوى مع رجل موهوب فى عقله وخلقه ، وكيانه الإنسانى والنفسى يسلك الصراط المستقيم يأمر العدل ، ولا يحيد عن سبيله ، فهما إذن بالبداهة لا يستويان .

وإذا كان هذان الرجلان لا يستويان بداهة ، فأولى ألا تتساوى فى العبادة الأحجار مع خالق الكون ، وهادى الخلق ، ومانح النعم ومجريها رب العالمين .

ومن الأمثلة التى تدل على أن العبادة الخالصة لا تكون إلا لله تعالى وحده ، وأنها بغير ذلك لا تكون عبادة ـ قوله تعالى : « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ، ورجلا سلما لرجل ، هل يستويان مثلا ، الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون »[1] إن هذا المثل التصويرى فيه دلالة على صدق التوحيد ، وفساد الشرك ، فإنه سبحانه وتعالى جعل الفرق بين التوحيد والشرك كالفرق بين رجل مملوك لعدة أشخاص هم مختلفون فيه كل يريد أن يختص

---

(١) الزمر : ٢٩ .

بأكبر حظ منه ، وأن يكلف أقل قدر فيه ؛ وهو فى ذاته ضائع بينهما نفسياً ومادياً لا يدرى أيهما يطالبه بحقه ؛ فهو ضائع لا محالة ؛ وهو لا يحس بأمن فى هذه الملكية المتنازعة ، وذلك مثل من يعبد آلهة مختلفة تكون نفسه حائرة بائرة غير مستقرة . ولا مطمئنة، فليست كحالها ، مع رجل سلماً خالصاً لرجل لا يشاكسه أحد فيه ، وهو مستقر يعرف من يخدمه ومن يعتمد عليه ، ومن فوض أمره إليه، وذلك مثل من يعبد الله تعالى وحده ، فإن من يعبد الله وحده تطمئن نفسه ، ويجد المأوى، ويجد الملجأ والمعاذ ، وذلك مثل ، تهتدى به النفوس الشاردة .

ومن الأمثال التى ساقها القرآن الكريم للاستدلال بها على البعث والنشور ، والإماتة والإحياء قوله تعالى : « أو كالذى مر على قرية ، وهى خاوية على عروشها ، قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ، ثم بعثه قال كم لبثت ، قال لبثت يوماً أو بعض يوم. قال : بل لبثت مائة عام ، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر إلى حمارك ؛ ولنجعلك آية للناس ؛ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ، ثم نكسوها لحما ، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير[1] » .

إن هذه قصة واقعية ؛ وليس فى سياق القول ما يدل على أنها تصويرية؛ والأصل أن تكون حقيقية فلابد أن أجزاءها قصة واقعة ، وليست مجرد مثل تصويرى وهذه القصة معها دليل واقعى على البعث والنشور ، وأنه فى قدرة الله تعالى إعادة الموتى فمن أنشأ الكون يحيي الموتى ، وأننا سنموت كما ننام، ونبعث كما نستيقظ ، فهو مثل واقعى ، لبيان كيف يحيي الله، فقد مات الرجل مائة عام ؛ ثم أحياه الله ، ورأى طعامه لم يتغير ؛ ورأى حماره حتى حسب أنه نام يوماً أو بعض يوم ؛ والله على كل شيء قدير .

---

(١) البقرة : ٢٥٩ .

أسلوب جدل القرآن

١٤٢ — ذكرنا فيما أسلفنا من قول بعض ماسلكه القرآن ، ومايعمد إليه من استدلال وما يتخذه من ينابيع ، وقد كانت لإثبات الحقائق فى العقيدة والأحكام وما يقربها به إلى العقول حتى لا يكون موضع ارتياب لمرتاب ، يزيل الريب بالحقائق ، ويبدد الأوهام بالأدلة التى تنبه إلى حقائق الوجود .

وما كان ذلك للجدل مع المخالفين من مشركين وأهل كتاب فقط ، بل كان لإثبات الحقائق فى ذاتها ، من غير محاجة مع منكر ، ولا مجادلة مع جاحد ، والآن نتكلم فى جدله مع المجادلين ، وقطعه الطريق على الجاحدين .

وقبل ذلك نتكلم فى مقام الاستدلال القرآنى ، سواء أكان فى مقام تثبيت وبيان أم فى مقام جدل مع قوم خصمين .

ولقد لاحظنا فى أدلة القرآن أنها قريبة التناول فى الإدراك لكل الناس يفهمها الخاصة ويفهمها العامة ، وإن تفاوت الفهم بمقدار الإدراك ، وسعة الأفق ، وهى واضحة للجميع ، ولقد قرر ذلك ابن رشد الفيلسوف الفقيه فى كتابه فصل المقال ، فقد قسم الطرق لإثبات صدق القضايا والتصديق بها إلى عامة لأكثر الناس بحيث يكون التصديق بها من كل الناس ما داموا قد سلمت عقولهم من الآفات ، ومنها ماهى خاصة بأقل الناس وهى البرهانية ، وجعل الأدلة التى تعم الناس الأدلة الخطابية وتقوم على إثبات الحق بأدلة قطعية ، أو أدلة ظنية ، ولكن بكثير منها ومقارنتها ، وإثارة الخيال يجعل السامعين يقتنعون ، ويجزمون ، وإذا كانت الأدلة فى ذاتها مجردة عما أحيط بها من عرض ، وأسلوب بيانى وإبقاء مؤثر ، وإثارة للأخيلة الموجهة ، تكون ظنية ، ولكن آثارها قطعية ، كما نرى فى آثار البلغاء من الخطباء ، والخطابية أعم أنواع الاستدلال فى البيان ، وأكثرها إنتاجاً ، ودونها

فى العموم الجدلية ، وهى ما يكون الاستدلال مأخوذاً مما يسوقه الخصم من الحجج ، وهى تعتمد على قوة الاستدلال على الخصم . ولأن الفلج على الخصوم لا يكون أمراً مستوراً ، بل يكون أمراً له صفة الشياع بين الناس، ولأنه مأخوذ بحجج المخالف كان مع عمومه وشيوعه أقل من الاستدلال الخطابى الذى يقوم على إثبات الحقائق من غير تقيد بحجة خصم .

والحجة الخاصة بأقل الناس عند ابن رشد ما يلزم فيه المتكلم بالأقيسة البرهانية ، ذلك لأن هذه الأقيسة مجردة خالية من كل تحسين ، وليست متجهة إلى الإقناع وطرائقه من مشاركة وجدانية ، ومن إثارة للمشاعر ، ومن اتجاه إلى ما يأمنون من أمور وإن التجرد كله لا يكون إلا للخاصة الذين يتجهون إلى الحقائق من أى تأثير .

ويقول ابن رشد بعد أن أشار إلى الأدلة الخطابية والجدلية والبرهان . « ولأن أكثر الشرع مقصوده الأول العناية بالأكثر من غير إغفال لتنبيه الخاصة كانت أكثر الطرق المصرح بها فى الشريعة الإسلامية على أربعة أصناف : أن تكون مع أنها مشتركة خاصة بالأمرين جميعاً أعنى أن تكون فى التصور والتصديق يقينية مع أنها خطابية أو جدلية ، وهذه المقاييس هى المقاييس التى عرض لمقدماتها مع كونها مشهورة ومظنونة أن تكون يقينية وعرض لنتائجها أن قصدت أنفسها دون مثالاتها ، وهذا الصنف من الأقوال الشرعية ليس له تأويل ، والجاحد لها أو المتأول لها كافر ، والصنف الثانى أن تكون المقدمات مع كونها مشهورة أو مظنونة يقينية . وتكون النتائج مثالات للأمور التى قصد إنتاجها ، وهذا يتطرق إليه التأويل ، والثالث عكس هذا وهو أن تكون النتائج هى الأمور التى قصد إنتاجها نفسها ، وتكون المقدمات مشهورة أو مظنونة من غير أن تعرض لها أن تكون يقينية ، وهذه أيضاً لا يتطرق إليها تأويل أعنى نتائجها وقد يتطرق لمقدماته والرابع أن تكون مقدماته مشهورة أو مظنونة من غير أن تعرض لها أن

تكون يقينية حملها وتكون نتائجه مثالات لما قصد إنتاجه وهذه فرض الخواص فيها التأويل ، وفرض الجمهور على ظاهرها ، وبالجملة فكل ما يتطرق إليه من هذه التأويل لا يدرك إلا بالبرهان ففرض فيه ، وهو ذلك التأويل ، وفرض الجمهور هو حملها على ظاهرها فى الوجهين جميعاً ، أعنى فى التصوير والتصديق ، إذا كان ليس فى طباعهم أكثر من ذلك ، وقد يعرض للنظار فى الشريعة تأويلات من قبل الطرق المشتركة بعضها على بعض فى التصديق .

وإن كلام ابن رشد هو فى مقام الأدلة القرآنية من حيث التصور المنطق والتصديق وما يترتب على قوة الاستدلال من حيث قبول الحكم الشرعى أو الاعتقادى للتاويل ، وعـــدم التأويل ومن حيث قبول الاعتقاد للنظر أو عدم قبوله .

وخلاصة ما قاله بإيضاح أن المقدمات إذا قامت على المشهور أو المظنون ، ولكن بتضافر أنواع الاستدلال ، وتكاثر الطرق صارت يقينية من حيث النتيجة ، والنتيجة تثبت حقيقة ثابتة ليس لها مثيل ، فإن النتيجة لا يصح إنكارها ، ومنكرها كافر ومحاولة تأويلها كفر ، وإذا كانت المقدمات مظنونة أو مشهورة وليس لها مرادفات ترفعها إلى درجة اليقين ، والنتيجة ليست يقينية ، فالتأويل يجرى فى النتيجة والمقدمة إذا كان له مسوغ أو تعارضت طرائق الاستدلال .

وإذا كانت المقدمات مشهورة أو مظنونة ، ولكنه بتضافر الأدلة تنتج يقينياً ، والنتيجة تحتمل عدة صور متشابهة ، فإن التأويل لا يدخل فى المقدمات ، ولكن يدخل فى النتائج .

وقد تكون المقدمات مظنونة أو مشهورة ولا يقين فيها ، ولكنها تنتج نتيجة واحدة لا مثنوية فيها ، فإنها لا تقبل التأويل فى النتيجة ، وتقبل التأويل فى المقدمات .

١٤٣ — هذه كلمات ابن رشد، وذلك بيانها، وإن كانت فى ذاتها غير بينة واضحة المقصد، ولكن يثار هنا قول، وهو أيصح أن نقول إن أدلة القرآن خطابية أو جدلية أو برهانية، إننا لا نستطيع أن نقول إنها خطابية، كما قد يشير إلى ذلك ابن رشد.

وقبل أن نقطع فى ذلك برأى نذكر تعريف الأدلة الخطابية، كما فى الشفاء لابن سينا، يقول ابن سينا «إن الحكماء قد أدخلوا الخطابة والشعر فى أقسام المنطق، لأن المقصود من المنطق أن يتوصل إلى التصديق، فإن أوقع التصديق يقينا فهو البرهان، وإن أوقع ظنا أو محمولا على الظن فهو الخطابة، أما الشعر فلا يوقع تصديقا لكنه لإفادة التخييل الجارى مجرى التصديق، ومن حيث إنه يؤثر فى النفس قبضا أو بسطا لكنه لإفادة التخييل الجارى مجرى التصديق، ومن حيث إنه يؤثر فى النفس قبضا أو بسطا، عد فى الموصل إلى التصديق».

والتخييل عنده كما عرفه «إذعان للتعجب والالتذاذ تفعله صور الكلام».

وتراه من هذا يضع المنطق والخطابة والشعر فى ثلاث مراتب، فالأول يتجه إلى التعيين، وهو أعلى مراتب التصديق، والخطابة تصل إلى مرتبة الظن الغالب، والاتجاه إليها لا يوصل إلا إلى ذلك. والشعر يتجه إلى إيثار الخيال، والإعجاب والالتذاذ بصورة الكلام. ولا يؤدى فى ذاته إلى تصديق إلا إذا تضمن ما يشبه المنطق، أو يشبه الخطابة فإنه يؤدى إلى يقين أو إلى ظن.

ولا بد لنا من أن نذكر أمرين ثابتين:

أولهما — أن الخطابة فى أقيستها لا تعتمد إلا على الظن، ولا تنتج إلا الظن ولكن يجب أن يعلم أن من الحقائق التى تجىء على ألسنة المتكلمين والتى تجرى فى الأسلوب الخطابى ما هو يقين ينتج قطعا، ولا ينقص القطعية فيها

أنها خلت من صور الأقيسة المنطقية والأشكال البرهانية . فليست العبرة في اليقين بالشكل ، إنما العبرة بالحقيقة أهي مقطوع بها أم غير مقطوع ، والشكل البرهاني لا يمنحها يقينا ، كما أن عدم التمسك به لا ينقص يقينها .

وإن كثيراً من الأدلة الخطابية تعتمد على أقوى المقدمات إلزاما . وأشدها إفحاما ، وإن المنطق مميز لباطل القول وليس موجدا لليقين بذاته ، فإن الأشكال المنطقية أخص خواصها أنها تكشف زور الباطل .

وقد يكون الكلام الخطابي مجملا بالأشكال المنطقية في مقام الرد على حجج الخصوم ، وكشف زيفها . وبيان وجه البطلان فيها ، وكثيراً ما تستخدم الخطب التي تقوم على المحاجة ، والجدال والبراهين والأقيسة المنطقية لبيان وجه البطلان في كلام الخصم .

الأمر الثاني : أنه لا ينطبق ما يقال في الخطابة والجدل من أنهما يقومان على الأدلة الظنية على القرآن .

ونحن نميل إلى أن الاستدلال القرآني له طريق قائم بذاته ، وإذا نظرت إليه وجدت فيه ما امتازت به الأدلة البرهانية من يقين لا مرية فيه ، وما امتازت به الأدلة الخطابية من إثارة للإقناع ، وما امتازت به كل خواص البيان العالي . مع أنه لا يسامى ، وهو معجز لكل الناس عربهم وعجمهم .

أسلوب القرآن في الاستدلال والجدل :

١٤٣ - إن القرآن خاطب الناس جميعا في أجيال مختلفة ، وأقوام تباينت مشاربهم ، ومن أجل أن نعرف بلاغة القرآن في الاستدلال والجدل يجب أن نشير بكلمات موجزات إلى أصناف الناس .

إن طبائع الناس متفاوتة ، ومشاربهم مختلفة ، وأهواءهم متنازعة ، ومسالكهم في طلب الحق متعددة .

(ا) فمنهم من يصدق بالبرهان ، ولا يرضيه إلا قياس تام أو مايجرى مجراه ، وهؤلاء هم من غلبت عليهم الدراسات العقلية والنزعات الفلسفية وكان لهم من أوقاتهم ما أزجوه فى دراسات واسعة النطاق ، وعلوم سيطرت عليهم ، فسادهم التأمل الفلسفى ، والنزع العلمى. والمستقرى لأحوال الأمم المتتبع لشئون الاجتماع يجد أن هذا الصنف قلة فى الناس ، وعددهم محدود بالنسبة لغيرهم ، إذ أن أكثر من فى الأرض قد انصرف إلى المهن من زراعة وصناعة ، فما كان له وقت يزجيه فى تلك التأملات ، ولهذا أمر الله تعالى نبيه أن يدعو بالحكمة فى قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن »

(ب) من الناس من غلب عليه مذهب دينى أو غير دينى قد استأثر بلبه ، وسد مسام الإدراك ، إذ استولت عليه نحلة مذهبية فتعصب لها . والتعصب يعمى ويصم ويجعل النفس لاتستسيغ الحق إلا بمعالجات عسيرة ، وإن باقناع ذلك لا يكون إلا بالطب لأدواء النفوس ، وأدواء النفوس أعسر علاجا ، وأعز دواء من علاج الأجسام .

وهؤلاء لابد لهم من طريق جدلية تزيل مالبس الحق عليهم ، ويتخذ بها قوة مما يعتقدون ، إذ يلزمهم بما عندهم ، ويفحمهم بما بين أيديهم ، ويتخذ مما يعرفون وسيلة لإلزامهم بما يرفضون .

وهذا الصنف من النـاس وإن كان أكثر عدداً من الأول ليس هو الجمهور الأعظم ، ولا الكثرة الغالبة بين الناس ولعله الذى أمرنا الله تعالى بألا نجادله إلا بالتى هى أحسن فى قوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن »

(ح) أما الجمهور الأعظم من الناس فليسوا هؤلاء ، ولا أولئك ؛ بل هو فى تفكيره أقرب إلى الفطرة ، فيه سلامتها ، وفيه سذاجتها وفيه

(١) النحل ، ١٢٥ (٢) العنكبوت . ٢٦ .

إخلاصها وبراءتها ، وهو لا يخاطب بتفكير الفلاسفة ، ولا يخاطب بما يخاطب به المتفكرون تفكراً علمياً ، بل يليق به ما التقى فيه الحق مع مخاطبة الوجدان ، وما اختلطت فيه الحقائق اليقينية بما يجعل الأهواء تابعة لها ، والميول خاضعة لمناهجها ، وما التقت فيه سياسة البيان وبلاغته بقوة الحق ، وليس بما يختص به أهل المنطق ، ولا ما عليه أهل العلوم الكونية ، إنما يخاطب الجمهور الأعظم بالحق ، وبما يغذى الفطرة ، وبما يثيرها ويوجهها إلى السبيل الأقوم .

والقرآن الكريم نزل بتلك الشريعة الأبدية التي جاءت للكافة ، وبعث بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للناس جميعاً بشيراً ونذيراً ، فلا تقتصر دعوته على قبيل ، ولا على جيل ، بل هى لكل الأجيال والقبائل والأقوام ، والألوان ، إلى أن يرث الله تعالى الأرض ، ومن عليها .

١٤٤ — لذلك وجب أن يكون القرآن ، وهو الحجة الكبرى فيه من الأدلة ، والمناهج ما يقنع الناس جميعا على اختلاف أصنافهم وتباين أفهامهم ، وتفاوت مداركهم ، ووجب أن يكون أسلوبه الفكرى والبيانى ، بحيث لا يعلو على مدارك طائفة بعد بيان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه الذين تلقوا من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم علم القرآن ، وبيانه ، ويجد العلماء فيه غذاء نفسيا واعتقاديا وخلقيا وصلاحاً إنسانيا ، بل يصل الجميع إليه ، يجد فيه المثقف بغيته ، والفيلسوف طلبته ، والعامة من الشعوب دواء نفوسهم ، وشفاء قلوبهم ، والحق المبين الهادى لهم الذى يأخذ بأيديهم إلى العزة والرفعة .

وكذلك سلك القرآن الكريم ، فالمتدبر لآياته ، والمفكر فى مناهجه يجد فيها ما يعلم الجاهل ، وينبه الغافل ، ويرضى نهمة العالم اقرأ قوله تعالى: « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ، ففتقناهما ،

وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون[١] ، اقرأ هذا وارجع البصر فيها كرتين ألا ترى أن فيها توجيه الأذهان إلى عظيم قدرة الله تعالى وقوة سلطانه على الوجود كله ، وبين سبحانه كيف اخترع وأبدع على غير مثال سبق ، ويثبت بذلك أنه وحده الأحق بالعبادة ، وإن القارىء للقرآن من دهماء الناس يرى فيها علما بما لم يكن يعلم ، قد أدركه بأسهل بيان وأبلغه . ويرى فيها العالم الفيلسوف الباحث فى نشأة الكون . دقة العلم وإحكامه ، وموافقة ما وصل إليه العقل البشرى لما جاء بذلك النص الكريم مع سمو البيان وعلو الدليل فتبارك الذى أنزل القرآن .

واقرأ قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة . فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون . الخ الآيات الكريمات[٢] .

ثم تدبر هذه الآيات البينات تجد أن الأمى يستفيد منها علماً غزيراً فوق أنه يعرف منها أن الله سبحانه وتعالى سيبعث الناس يوم القيامة ؛ فيزداد إيمانا ، كما علم ما لم يكن يعلم ، ويقرؤها العالم بدقائق تكوين الإنسان والدارس للحيوان جرثومة فجنينا ، فحيوانا على ظهر الأرض حيا ، فيرى فيها دقة العلم والتكوين ، وصدق الحكاية ، حتى لقد قرأها بعض كبار الأطباء فى أوربا ، فاعتقد أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم أعظم طبيب رأته الأجيال السابقة ، فلما علم أنه كان أمياً لا يقرأ ، ولا يكتب آمن بأن هذا من علم الله تعالى بارىء النسم .

---

(١) الأنبياء ٣٠ .

(٢) المؤمنون ١٢ — ١٦

وهكذا يرى القارىء لكتاب الله تعالى ، وما فيه من أدلة أنه قريب من الأمى يفهمه ويعرفه ، ويعلم منه علم ما لم يكن يعلم ، يدرك منه ما يناسب معرفته ، ويسمو إليه إدراكه ، وما يدركه منه صدق يقينى لا شبهة فيه .

ويرى فيه العالم الباحث حقائق صادقة ، ما وصل إليها البحث العلمى الحديث إلا بعد تجارب ، ومجهودات عقلية ، وكلما ازداد المتأمل المتبصر فى الآيات التى تتعلق بالكون ازداد استبصاراً ، ورأى علما أسمى مما يدركه الإنسان بتجاربه ، وأعلى مما يهتدى إليه الإنسان بعقله المجرد .

مسلك القرآن فى سوق الأدلة

١٤٥ — قد شرحنا من قبل الأدلة الخطابية والبرهانية والجدلية، وقد أشرنا إلى أن أسلوب القرآن فوق هذا ، والآن نوضح ما أشرنا إليه من قبل فنذكر بالعبارة الواضحة ، ما ذكرناه بالإشارة اللائحة .

إن أسلوب القرآن أسمى من الخطابة ، وأسمى من منطق أرسطو ، ومن لف لفه ، تراه قد اعتمد فى مسالكه على الأمر المحسوس أو الأمور البدهية التى لا يمترى فيها عاقل ، وليس فيه قيد من قيود الأشكال المنطقية من غير أن يخل بدقة التصوير ، وقوة الاستدلال ، وصدق كل ما اشتمل عليه من مقدمات ونتائج فى أحكام العقل .

وإنك لترى بعض أوصاف الأسلوب الخطابى ، قد أتى فيها بالمثل الكامل فيه ، وهو أعلى من أن يوصف بأنه جاء على منهاج من مناهج الخطابة ، وفيه تصريف القول الذى يلتى بجدة فى نفس القارىء والسامع ، فتصريف فنون القول من إيجاز غير مخل ، وحذف كلمات أعلن الأسلوب وجودها وغزارة فى المعانى مع قلة فى الألفاظ وإطناب مبين، بحيث لو حذفت كلمة لاختل بنيان القول ، إذ أن الكلام القرآنى بعضها مع بعض كالبنيان النورانى المرصوص ، ولكل كلمة إشعاع مشرق فيه بحيث لو لم تكن ،

يكون جزءاً ناقصاً من الأطياف للآيات القرآنية .

ثم من قصص حوى أقوى الأدلة فى ذات القصة وما حوت ، وفى الأدلة التى سيقت فى بيان الأنبياء السابقين لرسالاتهم ، ومجـــادلة المخالفين والمناوئين .

ومهما يكن من قول فى استدلالات القرآن الكريم ، فإن له مناهج فى الاستدلال تعلو على براهين المناطقة ، والأخيلة المثيرة للإقناع ، والأدلة الخطابية .

١٤٦ — ونستطيع أن نذكر بعض مناحى القرآن فى الاستدلال من غير إحصاء ، بل نذكر بعضها ، وبعضها ينبىء عن غيره .

ومن ذلك الأقيسة الإضمارية ، وهى الأقيسة التى تحذف فيها إحدى المقدمات ، مع وجود ما ينبىء عن المحذوف فهو محذوف معلوم مطوى فى الكلام منوى فيه ، وهذا الحذف يكثر فى الاستدلال الخطابى ، بل يقول ابن سينا فى الشفاء : الخطابة معولة على الضمير والتمثيل ، والضمير هو القياس الإضمارى ، والتمثيل هو إلحاق أمر بأمر لجامع بينهما ، ويسمى فى عرف الفقهاء قياساً فقهياً ، بينما هو فى عرف المناطقة تمثيلا ، لأن فيه مشابهة بين أمرين .

وقد يقول قائل إنك قررت أن القرآن أعلى فى إقناعه واستدلاله من الخطابة والمنطق والشعر ، ومع ذلك تقرر أنه ينهج منهاج الخطابة فى الاستدلال !!

ونقول فى الإجابة عن ذلك إننا نعلو بمنهاج القرآن عن الخطابة ، وإن كان يسلك بعض مناهج الخطابة فى الاستدلال ، وعلو القرآن فى هذه الحال بأسلوبه أولا ، فهو كيفما كان من نوع الكلام المعجز ، وثانياً — القرآن يعلو عن الخطابة فى أن كل مقدماته ونتائجه يقينية لا مجال للظن فيها ، فإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ، فكل ما فى القرآن حقائق يقينية ، ولا ينبع

منهاجه إلا من اليقين ، وقد لام على مخالفيه أنهم يتبعون الظن ، وإن هم إلا يخرصون .

ونعود من بعد ذلك الاعتراض الذى يرد على الخاطر ، وإن كان لا يرد على الموضوع فنقول « إن الناظر المستقرى لأدلة القرآن يرى أكثرها قد حذفت فيه إحدى المقدمات ، ولقد قال الغزالى بحق .

« إن القرآن مبناه الحذف والإيجاز (أى فى شكل الأقيسة) واقرأ قوله تعالى يرد على النصارى الذى يزعمون أن عيسى ابن الله ، لأنه خلق من غير أب . « إن مثل عيسى عند الله ، كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون ، الحق من ربك فلا تكن من الممترين[١] »

ولا شك أن المثل الذى ساقه الغزالى ، واضح فيه حذف إحدى المقدمات ، وواضح المقايسة بين خلق آدم عليه السلام وخلق عيسى عليه السلام ، وإنه إذا كان الخلق من غير أب مبرراً لاتخاذ عيسى إلهاً فأولى أن يكون الخلق من غير أب ولا أم مبرراً لاتخاذ آدم إلهاً ، ولا أحد يقول ذلك .

وإننا نجد أنه قد حذفت مقدمة وبقيت واحدة وكأن سياق الدليل لو فى غير كلام الله تعالى يكون هكذا : إن آدم خلق من غير أب ولا أم ، وعيسى خلق من غير أب ، فلو كان عيسى إلهاً بسبب ذلك لكان آدم أولى ، لكن آدم ليس ابناً ولا إلهاً باعترافكم ، فعيسى أيضاً ليس ابنا ولا إلهاً .

وإن الحذف قد صير فى الكلام طلاوة ، وكسبه رونقاً ، وجعل الجملة مثلا مأثوراً ، يعطى الكلام حجة فى الرد على النصارى ويذكر الجميع بأن آدم والناس جميعاً ينتهون إليه ، وإنما خلق من تراب ، فلا عزة إلا لله تعالى .

---

(١) آل عمران : ٥٩ — ٦٠

١٤٧ — وقد يساق الدليل فى قصة ، وقد ذكرنا من قبل مقام القصص القرآنى فى هذا المقام ونقول إن القرآن اتخذ القصص سبيلا للإقناع والتأثير ، وضمن القصة الأدلة على بطلان مايعتقد المشركون وغيرهم . وقد يكون موضوع القصة رسولا يعرفونه ويجلونه إذ يدعى المجادلون أنهم يحاكونه ويتبعونه ، فيجىء الدليل على لسانه فيكون ذلك أكثر اجتذاباً لأفهامهم وأقوى تأثيراً ، وقد يكون مفحما ملزماً إن كانوا يجادلون غير طالبين للحق .

وانظر إلى قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقصته مع قومه (وقد ذكرناهما فى موضوع القصص) ، فإنك ترى فى القصتين أدلة التوحيد واضحة قوية تثبت بطلان عبادة الأوثان ، ولإبراهيم من بين الرسل مكانته عند العرب ، إذ هو شرفهم ، ومحتدهم الذى إليه ينتسبون ، وقد كانوا يزعمون أنهم على ملته ، فإذا جاءهم الخبر بتوحيده ومحاربته للأوثان،وسيق لهم ما كان يحتج به على قومه ، كان ذلك مؤثراً أى تأثير فى قلوبهم .

ومجىء الدليل على لسان رسول يقر بفضله المخالفون كإبراهيم عند العرب ، وموسى عند بنى إسرائيل ، يعطى الدليل قوة فوق قوته الذاتية ، إذ تكون الحجة قد أقيمت عليهم من جهتين ، من جهة قوة الدليل الذاتية، ومن جهة أن الذى قاله رسول أمين يعرفونه ، فيكون هذا قوة إضافية ، وفوق ذلك فيه إلزام وإفحام ، إذ أنهم يدعون أنهم أتباعه .

وقد يجىء الدليل أحيانا فى قصص القرآن على لسان حيوان فى قصة ، فيكون لذلك غرابة تسترعى الذهن ، وتثير الانتباه وتملأ النفس إيماناً بالحقيقة ، كما جاء على لسان الهدهد فى سورة النمل . إذ يقول الله سبحانه وتعالى حاكياً عن سيدنا سليمان عليه السلام «وتفقد الطير ، فقال مالى لاأرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبنه عذاباً شديداً ، أولأذبحنه ، أو ليأتينى

بسلطان مبين ، فمكث غير بعيد ، فقال أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ، ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل ، فهم لايهتدون ، ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض، ويعلم ماتخفون وما تعلنون، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم[1] » .

وترى من هذا أن دليـــل التوحيد جاء على لسان الهدهد ، فى أوجز عبارة ، وأوضح إشارة ألاتراه ينبه إلى بطلان عبادة الشمس من دون الله، لأنها لاتؤثر فى الإبداع ، والإنسان بذاتها، وبين أن ذلك هو الضلال للفطرة، إنما من تزيين الشيطان الفاسد الأفكار . وجعلهم يبتعدون عن حكم الفطرة الإنسانية، وهو أن يسجدوا لله تعالى الذى يخرج المخبوء من البذور، والنوى وكل أسباب الوجود ، وهى مختفية عن الشمس وضوئها ، فإذا كان تأثير ظاهرى فى الظاهر الذى خرج من الخبء ، فما يكون تأثيرها فيما هو خبء، لاتأثير لها فيه لاظاهراً ، ولا حقيقياً .

قياس الخلف :

١٤٨ — قياس الخلف هو إثبات الأمر ببطلان نقيضه ، وذلك لأن النقيضين، لايجتمعان ، ولا يخلو المحل من أحدهما ، كالمقابلة بين العدم والوجود ، والمقابلة بين نفى أمر معين فى مكان معين وزمان معين ، إثباته فى هذه الحال، فإن انتفى بالدليل كان ذلك حكما بوجود نقيضه .

فدليل الخلف أن يبطل النقيض ، فيثبت الحق ، وأن القرآن الكريم يتجه فى استدلاله إلى إبطال ماعليه المشركون فيبطل عبادة الأوثان ، فيثبت التوحيد .

---

(١) النمل ٢٠ : ٢٦ .

ومن ذلك الاستدلال على التوحيد بقوله تعالى: «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون»[1]، وهنا نجد الاستدلال القرآنى اتجه إلى إثبات الوجدان بدليل قياس الخلف، وتقرير الدليل من غير أن تتسامى إلى مقام البيان القرآنى. كما يسوقه علماء الكلام: هكذا: لو كان فى السموات والأرض إله غير الله لتنازعت الإرادتان بين سلب وإيجاب، وإن هذا التنازع يؤدى إلى فسادهما، لتخالف الإرادتين، ولكنهما صالحان غير فاسدين، فبطل ما يؤدى إلى الفساد، فكانت الوحدانية، فسبحان الله رب العرش عما يصفون، ويسمى علماء الكلام هذا الدليل دليل التمانع، أى امتنعت الوثنية لامتناع الفساد، فكانت الوحدانية.

ومن القياس الذى يعتبر قياس الخلف قوله تعالى: «ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله، إذاً لذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض»[2] أى وإن ذلك باطل، فما يؤدى إليه باطل، وبذلك ثبت التوحيد.

ومن قياس الخلف قوله تعالى: «لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا»[3] وهذا أيضاً من قبيل فرض التمانع الذى يؤدى إلى الفساد، ولا فساد، فيبطل ما يؤدى إليه.

ومن قياس الخلف فى إثبات أن القرآن من عند الله سبحانه وتعالى قوله تعالت كلماته: «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً»[4] وإذا ثبت أنه ليس فيه اختلاف، ولا تضارب فى مقرراته، ولا عباراته، فإنه يثبت النقيض، وهو أنه من عند الله تعالى.

ونرى أنه فى كل هذه الآيات البينات كان إثبات المطلوب بإبطال نقيضه، وقد أشرنا إلى ذلك فى كل آية مما تلونا.

---

(١) الأنبياء: ٢٢. (٢) المؤمنون: ٩١.
(٣) الإسراء: ٤٢. (٤) النساء: ٨٢.

ثم إنك ترى مع هذا القياس الذى واجه المخاطبين بإبطال ما يدعون ليثبت ما يدعوهم إليه الرسول ، معنى سامياً قوياً ، وهو مهاجمة المخالفين بإبطال ما عندهم ، وأنه ليس من القول الذى يقـــام له دليل ، وإن ذلك يوهنهم ، وينهنه من قوتهم ، ولذلك كانوا يشكون من النبى يسفه أحلامهم ، ويصغر من أصنامهم .

ومع هذا القياس نجد الإضمار للمقدمات ، وإبراز أوضحها الذى يومىء إلى ما وراءها ، فما يضمره من المقدمات هو المختفى المعلوم ، والظاهر المكتوم .

السير والتقسيم :

١٤٩ — السير والتقسيم باب من أبواب الاستدلال الكاشف للحقيقة ، الهادى إليها ، وهو أيضاً من أبواب الجدل ، يتخذه المجادل سبيلا لإبطال دعوى من يجادله ، بأن يذكر أقسام الموضوع الذى يجادل فيه ، ويبين أنه ليس فى أحد هذه الأقسام خاصة تسوغ قبول الدعوى فيه ، فيبطل دعوى الخصم .

وقد ذكر السيوطى أنه من أمثلته فى القرآن الكريم قوله تعالى : « ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل ءالذكرين حرم أم الأنثيين ، أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، نبئونى بعلم إن كنتم صادقين ، ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل ءالذكرين حرم أم الأنثيين ، أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين »[١] .

وبين السيوطى وجه الاستدلال فقال : « إن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة ، وإناثها أخرى رد الله تعالى عليهم ذلك بطريق السير والتقسيم ،

---

(١) الأنعام : ١٤٣ — ١٤٤ .

فذكر تعالى : « أن الله خلق الخلق مما ذكر زوجين ، ذكراً وأنثى ، ثم جاء به تحريم ما ذكرتم عندكم . ما علته ، لايخلو إما أن يكون من جهة الذكورة أو الأنوثة ، أو اشتمال الرحم الشامل لهما ، أو لا يدرى له علة ، وهو التعبدى بأن يأخذ ذلك عن الله تعالى ، والأخذ عن الله تعالى إما بوحى وإرسال رسول أو سماع كلامه ومشاهدة تلقى ذلك عنه ، وهو معنى قوله : « أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا » ، فهذه وجوه التحريم ، ثم لا تخرج عن واحد منها ، والأول يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراماً ، والثانى يلزم عليه أن يكون جميع الإناث حراماً ، والثالث يلزم عليه تحريم الصنفين معاً ، فبطل ما فعلوه من تحريم بعض فى حالة ، وبعض فى حالة . لأن العلة على ما ذكر تقتضى إطلاق التحريم ، والأخذ عن الله بلا واسطة (وحى) باطل ، ولم يدعوه ، وبواسطة رسول كذلك ، لأنه لم يأت إليهم رسول قبل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدعى وهو أن ما قالوه افتراء على الله تعالى وضلال »[1] .

وخلاصة الاستدلال على بطلان ما ادعوا من تحريم السائبة والوصيلة ، وبعض الماعز والبقر ، أن الله تعالى العلى الحكيم ينبههم إلى أن التحريم يكون لوصف ذاتى فى هذه المحرمات أو لتحريم بوحى أو رسول ، ثم أخذ يبين سبحانه أنه لا يوجد وصف ذاتى فى هذه الأشياء التى يحرمونها فذكر سبحانه أن السبب فى التحريم إما أن يكون فى الذكورة وحدها ، أو الأنوثة . وحدها أو فيهما معاً ، لا جائز أن تكون فى الأنوثة وحدها ، لأنكم حرمتم ذكوراً ، ولأن مقتضى العموم أن تحرم كل أنثى ، وكذلك الأمر فى الذكورة ، لأن ذلك يوجب تحريم كل الذكور ، وكذلك إذا كان وصف التحريم ذاتياً فى كل ما تحمل الأنثى وتلد الأرحام ، فإن ذلك

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن .

كان يوجب تحريم كل الأنعام ، وأنتم اختصصتم بالتحريم بعضها دون كلها .

وإذا لم يكن ثمة وصف ذاتى اقتضى التحريم فهل كان نص من رسول ، أو وحى ، أو من أين جاءكم العلم ، لا شىء من هذا ، وهذا الجزء الأخير كقوله تعالى فى آخر سورة الأنعام « سيقول الذين كفروا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون[1] » .

التمثيل :

١٥٠ — التمثيل أن يقيس المستدل الأمر الذى يدعيه على أمر معروف عند من يخاطبه أو على أمر بدهى لا تنكره العقول ، وتقربه الأفهام ، ويبين الجهة الجامعة بينهما ، وإن القرآن الكريم قد سلك هذا المسلك على أدق وجه وأحكمه مقرباً ما بين الحقائق القرآنية ، والبدائه العقلية وكثير من استدلالات البعث تقوم تقريب البعث وقدرة الله تعالى عليه بما يرون من إنشاء لذلك الكون البديع ، وما خلق به الإنسان وبيان أطواره من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات .

اقرأ قوله تعالى : « يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث ، فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة ، وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ، لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شىء قدير ، وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور »[2] .

---

(١) الأنعام : ١٤٨ (٢) الحج : ٥ — ٧

ونرى من هذا عقد المشابهة بين ابتداء الخلق وإعادته التى لخصها الله سبحانه وتعالى فى قوله « كما بدأكم تعودون » وفى هذه الآيات الكريمات بين سبحانه كيف ابتدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جاءته الأطوار المختلفة حتى آل إلى القبر ثم كيف خلق الأحياء فى الأرض من نبات وحيوان ، واهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، وإن كل ذلك دليل على قدرة المنشيء علام الغيوب ، بديع السموات والأرض ، وأنه على ما يشاء قـــدير .

وإن هذا النسق البيانى قرب فيه البعيد . وسهل على الأفهام دخوله ، والله على كل شيء قدير .

واقرأ فى هذا النوع من الاستدلال قوله تعالى : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ، فإذا أنتم منه توقدون ، أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم[1] » .

ونجد فى هذه الآيات الكريمة عقد المشابهة بين ابتداء الخلق وإعادته فى أبلغ تعبير وأسلم تقرير وإن فى هذه الأمثلة وغيرها مما اشتمل عليه القرآن الكريم قياس ما فى الغيب على المشاهد ، وقياس ما بينه الله تعالى ، وأوجب الإيمان به على ما هو واقع مرئى مشاهد ، فيه الدلالة الكاملة على قدرة الله تعالى ، وأنه المالك لما هو واقع ، والقادر على ما لم يقع الآن ، وسيقع ، كما وعد ، ووعده لا يتخلف .

١٥١ — هذا ويلاحظ القارىء للقرآن التالى لآياته ، المتبصر فى عبره وعظاته ، والدارس لأدلته — أن جدل القرآن لا يتجه إلى مجرد الإفحام

---

(١) يس : ٧٨ — ٨١

والإلزام ، بل يتجه فى الكثير الغالب إلى إرشاد القارئين والمدركين ، والأخذ بأيديهم إلى الحق ، وتوجيه النظر إلى الحقائق ، وما فى الكون من دلائل على القدرة ، كما ترى فى قوله تعالى :

« أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها ، وزيناها ، وما لها من فروج ، والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، وأنزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج[1] » .

فترى فى هذه الآيات البيان فيها ليس مجرد إفحام الوثنيين ومنكرى التوحيد ، بل فيه توجيه إلى الكون ، وما فيه من دلائل القدرة ، وعجائب الصنع وما فيه من سماء زينت ببروجها ونجومها ، والأرض وما فيها من رواسى كأنها تمسكها أن تميد ، وما فيها من نبات يصدق إبانه ، وجنات تونع وتثمر فى وقتها .

واقرأ قوله تعالى فى سورة الرحمن : « الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ، ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ، والأرض وضعها للأنام ، فيها فاكهة ، والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار فبأى آلاء ربكما تكذبان ، رب المشرقين ورب المغربين ، فبأى آلاء ربكما تكذبان» . إلى آخر السورة الكريمة ، وفى هذا ترى الاستدلال القوى متجها إلى الإرشاد إلى ما فى الكون ، وما أنعم الله به على الإنسان من علم

---

(١) ق ٦ — ١١

بما لم يكن يعلم وما علمه من الشمس والقمر ، وما علمه من معاملات كريمة ، وتعاون إنسانى مبنى على الفضيلة ، وعلمه كيف خلق الإنسان ، وهكذا من استدلال حكيم ، وإرشاد وتوجيه وتعلم .

وإنه إذا اتجه القرآن الكريم إلى الإلزام والإفحام ، لا يلبث أن يأخذ بيد المعاند إلى الحقيقة يبينها واضحة جلية لاريب فيها ، كما ترى فى قوله تعالى رادا على المشركين طلبهم أن يكون الرسول ملكا :

« وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لاينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون[(١)] » فإنك ترى أن فى ذلك إفحاماً لهم من ناحيتين : الناحية الأولى أنهم لو أجيبوا إلى ما يطلبون لقضى عليهم ما هددهم الله تعالى به ، ولا ينظرون والثانية أنه لا يزول اللبس الذى يلبسون به الحق بالباطل لأنه لو جعله الله تعالى ملكا لجعله فى صورة رجل ، وبذلك يجىء الالتباس الذى لبس به عليهم .

ومن الاستدلال المفحم الهادى قوله تعالى فى الرد على اليهود ووصفهم: « الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول ، حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات ، وبالذى قلتم ، فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين[(٢)] » .

وكما ترى فى قوله تعالى رَدًّا على الذين ينكرون الرسالات الإلهية ، فقد قال تعالت كلماته : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا ، وهدى للناس»[(٣)] ويظهر أن الذين قالوا هذا القول من اليهود ، قالوا لينكروا رسالة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

---

(١) الأنعام : ٨ — ٩

(٢) آل عمران : ١٨٣

(٣) الأنعام : ٩١

وفى هذه الآيات التى تلوناها ترى الإلزام المفحم ، والحجة البالغة ، والفيصل الفارق بين الحق والباطل ، قد أدحضت به حجة الخصوم وأرشدوا إلى المحجة ، ووضعت الصوا والأعلام ، ليسيروا على الجادة بعد أن بددت الظلمات ، وأذهب ضوء الحق ظلام ماموه به الخصوم ، فمن أبى واستكبر بعد ذلك فهو من الأخسرين ، بعد أن أزيلت من أمامه غياهب الباطل .

١٥٢ — وعند توجيه الله تعالى نظر المجادل إلى الحقائق من غير اتجاه إلى إلزام من أول الأمر ، أو بعد إلزامه وإفهامه يكون تصريف البيان ، ومناحى التأثير ، وتكون العبارات التى تخاطب العقل والوجدان، وتمس مواطن الإحساس ، وتتنوع المناهج وتتضافر المعانى وللألفاظ جدتها وطلاوتها ، ومع التكرار أحياناً تزداد الفائدة ، وتكثر الثمرات ، وتتنوع الأساليب من استفهام إلى تعجب إلى تهديد إلى إخبار ، ويختلف الاتجاه إلى مواضع الاستدلال وينابيعه .

(ا) فمرة يكون الاستدلال برد المسائل إلى أمور بدهية معروفة ، كما أشرنا ، أوحقائق مشهورة مألوفة يخر المجادل أمامها صاغراً كما ترى من إبطال قول من زعم أن لله تعالى ولداً ، إذ يقول سبحانه « بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ، لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » (١) .

ألا ترى أن الاستدلال القرآنى اتجه إلى بطلان مدعاهم إلى أمر معروف مشهور مألوف لا يمارى فيه أحد وهو أنه لو كان له ولد لكان له صاحبة ،

(١) الأنعام : ١٠١ — ١٠٣ .

ولم يدع أحد أن لله تعالى صاحبة ، فبطل أن يكون له ولد ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا .

(ب) وأحياناً يضرب الله تعالى الأمثال ليقرب الحقائق ، ويدنيها ، وقد بينا ذلك وأمثلته عند كلامنا فى ينابيع الاستدلال القرآنى .

(ح) وأحياناً يوجه نظر الناس إلى المخلوقات ، وإلى مافى الكون مما يدل على قدرة الصانع ، وعلم المبدع ، انظر إلى قوله تعالى : « وإلهكم إله واحد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون [١] » .

وهكذا ، وارجع إلى ما قدمنا من مصادر الاستدلال فى القرآن الكريم .

ويلاحظ أن القرآن الكريم فى الجدل الذى يلزم الخصوم ، ويفحمهم ، يجىء إلى الإفحام من أقرب الطرق ، وأقواها إلزاما ، ومن ذلك ما حكاه الله تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام فى مجادلة مدعى الألوهية ، فقد قال تعالى :

« ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيي ويميت . قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم ، فإن الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر . والله لا يهدى القوم الظالمين [٢] » .

وإن وسائل أخذ الخصم بأقرب طريق للإفحام والإلزام كثيرة .

(١) منها التحدى كما تحدى الله تعالى كفار قريش بأن يأتوا بعشر

---

(١) البقرة : ١٦٣ — ١٦٤

(٢) البقرة : ٢٥٨

سور من مثله مفتريات ، وكما تحدى إبراهيم الملك الوثنى .

(ب) ومنها أخذ الخصم بموجب كلامه ، وإثبات أنه عليه وليس له ، ومن ذلك قوله تعالى فى شأن المنافقين ، إذ يقول سبحانه وتعالى عنهم : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين(١) » فسلم لهم أن الأعز يخرج الأذل ، ولكن من هو الأعز لله العزة ولرسوله وللمؤمنين .

(ج) ومنها مجاراة الخصم فيما يقول، ثم التعقيب عليه بما يقلب عليه نتائج قوله ، ومن ذلك قوله تعالى حاكياً عن الرسل مع أقوامهم : « قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى،قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا ، تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسلطان مبين ، قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ،ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون(٢) » .

فترى من هذا النص السامى أن الرسل سلموا بالمقدمة التى بنى عليها الأقوام رفضهم ، ولكنهم نقضوا النتيجة بقولهم « ولكن الله يمن على من يشاء» فكأنهم قالوا لهم ماقلتموه من أننا بشر حق ، ولكن ما تريدون أن تبنوا عليه من إثبات أننا لسنا أنبياء باطل ، لأن الله يمن على من يشاء من عباده ، وهو قد من علينا ، وقدمنا لكم السلطان أى الدليل ، ولا سلطان لنا إلا ما يأذن به الله تعالى .

١٥٣ — هذه قبسة من نور الذكر الحكيم الذى أضاء الله تعالى به الخليقة لتهتدى الأجيال بهديه ، وتسير على ضوئه ، وتعشو إليه إذا أظلمت، وعمتها الجهالات ، وتاه الناس فى مثارات الشيطان .

---

(١) المنافقون : ٨

(٢) إبراهيم . ١٠ — ١١

وما أردنا بذلك البيان إحصاء لطرق الاستدلال فى القرآن ، ولا استقصاء لمسالكه فى جدله ، فدون ذلك تنفق القوى ، وينبت الظهر ، ويقصر الشأو ، ولكن أردنا أن يرى الدارس للقرآن الكريم أمثالا عن طرق جدل القرآن واستدلالاته وكيف كانت أعلى من المنطق فى دقته ، وإن لم تتقيد بأساليب المناطقة . ولا بأشكال أدلتهم ، فى أدلة القرآن التقديم والتأخير ، والإيجاز والإطناب تبعا لروعة البيان ونسقه وجماله ، وليس تبعاً لأشكال البرهان ، وكانت مع ذلك أعلى من الخطابة ، وإن كان بيانه المثل الأعلى الذى لا يستطيع أن يجاريه الخطباء .

ولو أن المتكلمين الذين عنوا بإثبات العقائد ، والجدل فيها سلكوا مسلك القرآن ، وساروا فى سمته لكان علمهم أكثر فائدة ، وأدنى جنى ، وأينع ثماراً ، ولكنهم سلكوا مسلك المنطق وقيوده ، والبرهان وأشكاله، فكان علمهم للخاصة من غير أن يفيد العامة ، فإن العامة يدركون دقائق القرآن على قدر عقولهم ، ولا يدركون شيئاً من أشكال الأقيسة .

وقد وازن الغزالى فى كتابه إلجام العوام عن علم الكلام بين أدلة القرآن وطريقة المتكلمين ، فقال رضى الله عنه : أدلة القرآن مثل الغذاء ، ينتفع به كل إنسان ، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ، ويستضر به الأكثرون ، بل إن أدلة القرآن كالماء الذى ينتفع به الصبي الرضيع ، والرجل القوى ، وسائر الأدلة كالأطعمة التى ينتفع بها الأقوياء مرة ، ويمرضون بها أخرى ، ولا ينتفع بها الصبيان أصلا .

وفى الحق إن الناس لو شغلوا بدراسة القرآن ، وما فيه من استدلال لينهجوا على نهجه ، ويسيروا فى طريقه ، لكان لهم من ذلك علم كثير ، فإن القرآن قد اشتمل على مناهج فى الاستدلال والجدل والتأثير تتكشف عن أدق نواميس النفس الإنسانية ، وتبين شيئاً كثيراً من أحوال الجماعات

النفسية والفكرية وفيها الطب لأدوائها ، والعلاج الناجع لأمراضها ، والدواء الشافى لعللها وأسقامها .

وفى مناهجه البيانية المثل الأعلى للكلام النافذ إلى القلوب والحجج الدامغة واعتبر ذلك بأثره فى المشتركين وأثره فى المسلمين الأولين .

وقد ذكرنا فيما مضى من قولنا أن كل من كان يسمعه من المشركين يناله منه قبس يهتدى به إن آمن ، وإن استمر على جحوده أطفأ الله النور فى قلبه ، وطمس الله على بصيرته وكان على ريب فى الأمر ، وتردد ، فكان كل من داناه منهم مس نوره قلبه ، ونال أثره وجدانه ، حتى لقد تناهى زعماؤهم عن سماعه ، لما رأوه من أثره فى قلب كل من سمعه .

وقد كان من أثر القرآن فى المؤمنين الأولين أن عكفوا عليه يرتلونه ، ويتفهمونه ، ويتعرفوا معانيه ومراميه وجعلوه معلمهم الأول ، ومرجعهم إذا اختلفوا ، ومنهل عقائدهم ، يأخذون منه مايقوى إيمانهم ، ويدفع الشبهات عنهم ويثبت يقينهم ، ولم يعرفوا حجة مع ألسنة سواه ، ولا محجة غير طريقه وهديه . به يجادلون وعن هديه يصدرون ، فاستقام أمرهم ، وحكموا بعدله العالمين .

علم الكتاب

١٥٤ — قال الله تعالى وهو أصدق القائلين ، « ويقول الذين كفروا لست مرسلا ، قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب[1] » فقد جعل الله سبحانه وتعالى من عنده علم الكتاب وهو القرآن الكريم الذى نزل على رسوله الأمين شهادته بجوار شهادة الله سبحانه وتعالى ، وأى شرف أعظم من شرف علم الكتاب بعد هذا ، وأى مقام أعلى من مقام علم الكتاب الكريم ، إنه إذاً مقام عظيم ، وهو مشتق من ذات العليم ، ولابد أن يكون لهذا علم الكتاب خطيراً عظيما وأن يكون كبيراً عزيزاً ، وأن يكون واسعاً بمقدار ماتتسع له طاقة البشر من علوم ، وإن العلماء الذين تقترن شهادتهم بشهادة الله تعالى والملائكة هم العلماء بالكتاب المذكورون ، الفاهمون لمراميه ومغازيه العاملون به ، فقد قال الله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة ، وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم[2] » فأولو العلم الذين تقترن شهادتهم بشهادة الله والملائكة هم أولو العلم بالكتاب .

وأولو العلم بالكتاب هم العلماء الذين ذكر الله سبحانه وتعالى أنه لا يخشى الله غيرهم ، إذ قال سبحانه « إنما يخشى الله من عباده العلماء »[3] .

هذه مكانة العلم القرآنى ، كما صرحت العبارات الســامية عن الله سبحانه وتعالى ، فما هذا العلم الذى يعلو بصاحبه إلى هذا المقام الأسمى ، والمنزلة العليا ؟

نجيب عنه بجوابين أحدهما فيه إجمال ، والثانى فيه بعض التفصيل .

---

(١) الرعد : ٤٣ .
(٢) آل عمران : ١٨ .
(٣) فاطر : ٢٨ .

أما أولها — فنقول إنه علم النبوة ، أى علم الرسائل الإلهية ، فإن القرآن الكريم اشتمل فيما اشتمل عليه على لب الرسالة الإلهية وهو التوحيد، وقد قال تعالى فى ذلك « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب »[1] . وإن القرآن ذكر كل الرسالات التى سبقته ، وما لم يذكره بالبيان ذكره بالإشارة الواضحة ، فقال تعالى « منهم من قصصنا عليك . ومنهم من لم نقصص عليك »[2] ، وما لم يذكر قصصه مطوى فى ذكر من قصص ، فالرسالة الإلهية واحدة ، والحق واحد . والدعوة إليه واحدة .

ولقد صرح النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن من يحفظ القرآن يحفظ النبوة بين جنبيه، فقال عليه السلام فيما يروى عنه الحسن البصرى : « من أخذ ثلث القرآن ، وعمل به ، فقد أخذ ثلث النبوة ، ومن أخذ نصف القرآن ، وعمل به ، فقد أخذ نصف النبوة ، ومن أخذ القرآن كله ، فقد أخذ النبوة كلها » ويروى عن عبد الله بن عمر أنه قال : « من حفظ القرآن ، فقد حفظ النبوة بين جنبيه » فالقرآن فيه قبسة علم من الله تعالى :

ولقد روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن هو حبل الله ، والنور المبين والشفاء النافع عصمة من تمسك به ، ونجاة من اتبعه ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ ، فيستعتب ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق عن رد ، فاتلوه ، فإن الله يأجركم على تلاوته ، بكل حرف عشر حسنات » .

وإن هذه الآثار الواردة تدل دلالة قاطعة على أن القرآن حوى علم النبوة كله ، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من علم النبوة إلا أحصاها ،

---

(١) الشورى : ١٣ . (٢) غافر . ٧٨

وإن الله سبحانه وتعالى مافرط فى الكتاب من شيء من علم النبوة ، كما قال تعالى : «مافرطنا فى الكتاب من شيء»[1] ، مما يتعلق بالشرائع والأحكام وبيان ما يطلب من المكلف ، وما به صلاحه فى الدنيا ، وثوابه فى الآخرة ، لأنه تنزيل من حكيم حميد ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه .

١٥٥ — هذا الجواب مبنى على ماقرره الذين قرءوا القرآن من السلف الصالح ، وما نقلوه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بيان إجمالى لعلم القرآن الكريم مبنى على أنه تبليغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لرسالة ربه ، وأنه التبليغ الخالد إلى يوم القيامة الذى تخاطب به الأجيال بالرسالة العامة التى تعم الإنسانية كلها ، ولا تخص عصراً من عصورها .

ولكن لابد من أن نعرض بالذكر ببعض التفصيل لما اشتمل عليه علم القرآن ، وهذا هو الجواب الثانى الذى لايغنى فيه الإجمال الكلى عن بعض التفصيل الجزئى .

وإن الذى قرره السلف ، وأجمعوا عليه أن القرآن الكريم فيه علم النبوة كله ، وأن من علمه فقد حوى علم النبوة بين جنبيه .

وأول علوم النبوة علم الغيب ، ففى القرآن علم الغيب ، وبيان الغيب ، والغيب هو لب الإيمان ، وفيه علم الحاضر الذى يدل على الغيب المستكن .

فيه بيان الوحدانية ، وبراهينها المستمدة من الكون واستقامة حاله ، والتى يستدل عليها بالآثار القائمة وبما خلق الله سبحانه وتعالى .

وإن العلم بمنشىء الكون هو الفطرة الإنسانية التى لاتضل إلا بما يسيطر على العقل من أهواء وبما يقف دون الإدراك السليم من أوهام ، وبما يحيط بالعقل من غيم يمنعه من الفهم السليم ، فالقرآن يزيل غيهب الضلال ، ويأخذ بالشارد إلى حيث الأمن العقلى .

وإن الفلاسفة يحاولون أن يدركوا المغيب عنهم من حقيقة

---

(١) الأنعام : ٣٨

المنشىء ، ومنهم من ضل فى سبيل ذلك ضلالا بعيداً ، ومنهم من قارب ، ومنهم من باعد ، ولا تجد فى كلام أولئك الفلاسفة ما يهدى للتى هى أقوم ، وما كان عجز الفلاسفة عن أن يدركوا الشىء الأول إلا من سيطرة أوهام سبقت ، عكرت على الفطرة وضللت العقل ، ولنظريات ضالات قد سيطرت عليهم ، وهى نظرية الأسباب والمسببات ، وتوهموا أنها تنطبق على منشىء الوجود ، كما هى ثابتة فى العلة بين الموجودات ، يتوالد بعضها من بعض ، ويكون لكل شىء سبب ، وهو سبب لغيره ، وهكذا تتابع الأسباب والمسببات ، كل سبب يتبع سببا ، وهو نتيجة لسبب ، وتوهموا لهذا أن الأشياء نشأت عن منشىء الوجود نشوء المعلول عن علته ، والمسبب عن سببه ، وتسلسلوا فى الأسباب والمسببات حتى ضلوا ضلالا بعيداً ، وجاءت الأديان السماوية موجهة الأنظار إلى أن الله تعالى خالق السموات والأرض على غير مثال سبق ، وهو المبدع وهو الفاعل المختار ، وهو القادر على كل شىء ، لا يخرج عن واسع علمه شىء ، ولا عن محيط قدرته خارج يفعل ما يشاء ويختار .

وقرر القرآن تلك الحقيقة التى هى هدف العقول ، وأخرجها من تيه الضلال إلى الحق القويم .

وسيقت الأدلة الدالة على ذلك من الكون وتنوعه ، وإن المقرر عقلا أن السبب يكون من جنس المسبب ، ويكون كهيئته لا يختلف عنها ، وإن الاختلاف إنما يكون لأمر آخر لا بمجرد السببية ، فيبين القرآن الكريم ، تنوع الأشياء وتنوع الأحوال ، اقرأ قوله تعالى :

« ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ، ولو شاء لجعله ساكنا ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ، ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا وهو الذى جعل لكم الليل لباسا ، والنوم سباتا ، وجعل النهار نشورا ، وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ، وأنزلنا من السماء ماء طهورا ، لنحيى به بلدة ميتا ، ونسقيه مما

خلقنا أنعاما، وأناسي كثيرا ولقد صرفناه بينهم ليذكروا، فأبى أكثر الناس إلا كفورا[1]» «وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات، وهذا ملح أجاج، وجعل بينهما برزخا، وحجرا محجورا، وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسبا وصهرا، وكان ربك قديرا[2]».

وإنك ترى من هذه الآيات الكريمة، بيان تنوع المخلوقات، ولا شك أن هذا التنوع يتنافى مع كون الأشياء نشأت من المنشىء كما ينشأ المعلول من العلة، لأن المعلول يجب ان يكون مماثلا للعلة، غير مختلف عنها، وهنا نجد اختلاف الموجودات، من إنسان يتفكر ويتدبر، وحيوان ينعق، وطائر يطير ومن شمس وقمر يسيران بحسبان.

فكان التنوع الذى ذكره القرآن إبطالا لما يقرره الفلاسفة من نظرية العلة والمعلول، والسبب والمسبب.

ضاق بهم مسلكهم، فلم يتصوروا غير ذلك، ولو نظروا إلى الكون، وما يجرى فيه من أحوال، لأدركوا بفطرتهم المستقيمة أن المنشىء واحد أحد، ليس بوالد ولا ولد، ولآمنوا بقوله تعالى: «بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة[3]» واقرأ قوله تعالى فى التعريف بالذات الإلهية:

«إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت، ومخرج الميت من الحى ذلكم الله، فأنى تؤفكون، فالق الإصباح وجعل الليل سكنا، والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة، فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون، وهو الذى أنزل من السماء ماء، فأخرجنا به نبات كل شىء، فأخرجنا منه خضرا، نخرج منه حبا متراكبا، ومن النخل من طلعها قنوان دانية، وجنات من أعناب، والزيتون، والرمان مشتبها وغير

(١) الفرقان ٤٥ ــ ٥٠ (٢) الفرقان ٥٣ ــ ٥٤ (٣) الأنعام ١٠١.

متشابه، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ، بديع السموات والأرض أنىّ يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ، لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ، قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ »(1) .

انظر إلى تعريف الذات العلية بخلقها ، وما تنشئه فى هذا الوجود ، وإن هذا يدل على الفاعل المختار دلالة قاطعة بتنوعه ، واختلاف مظاهره ونوع حياته ، ألا تراه يسقى بماء واحد ، وغذاؤه واحد ومع ذلك تتنوع أنواعه ، وتختلف أجزاؤه مما يدل على أنه نشأ بغير العلية ، بل بإرادة مختارة حكيمة تفعل ما تريد ، والله يخلق ما يشاء ويختار .

وإن القارىء الحكيم يرى فيه قدرة الذات العلية ، وإرادتها الخلق ، والعقل لا يقبل غير ما جاء مافيه ، وما يسلكه الفلاسفة من أوهام بالنسبة للسببية ، يؤدى إلى التسلسل إلى مالا نهاية ، فإذا كان الموجود نشأ من موجود، فممّ نشأ الموجود السابق، والسابق على السابق، ويتأدى إلى ما يستحيل العقل تصوره، وإذا كان هناك موجود تنتهى عنده السلسلة فلماذا يفرض أنه الإله ، ويفرض أنه وجدما بعده من إرادته ، لا بالعلية . واقرأ الآيات القرآنية فى إثبات الوحدانية فى الذات والصفات ، وفى الخلق والإيجاد ، وما ينجم عنهما من وحدة المعبود بحق ، فإنك واجد علما كثيرا ، يساير العقل ، ولا يعانده ، لأنه الفطرة المستقيمة التى لم تفسدها نظرية السببية فى المنشىء التى أخذوها من السببية فى الأمور العادية ، وفرق بين واجب الوجود الذى أنشأ الكون ودبره ، وهو القيوم القائم عليه الذى قدر

(1) الأنعام : ٩٥ — ١٠٤ .

كل شيء تقديرا ، وبين توالد الأحداث ، والموجودات ، وهى لاتكون بغير تقديره وتدبيره سبحانه وتعالى إنه فعال لما يريد .

١٥٦ — وفى القرآن علم الرسالة الإلهية ، والمعجزات التى اقترنت بها ، فهو يبين أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ، وخص العالم الإنسانى بالرسل يرسلهم إليه ، ليسير الناس فى الصلاح بدل أن يسيروا فى الفساد ، وليكونوا فى مودة وسلام بدل أن يكونوا فى حرب وخصام ، وليصلوا ما أمر الله به أن يوصل ، لأن الله تعالى الذى خلق الإنسان جعله إما شاكرا وإما كفورا ، فهيأ للشاكر أسباب شكره وجعل الكفوز مسئولا عن فعله بعد إنذار المنذر وتبشير المبشر ، كما قال تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا[١] » ، وكما قال تعالى : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير[٢] » ، فما كانت هذه الرسالات الإلهية إلا لتهدى الناس إلى خير الطرق ، ومن يكفر فإنما يكون عن بينة لئلا يكون للناس على الله حجة .

والقرآن الكريم يبين أن الرسل يكونون من البشر ، ومن أقوامهم ليكونوا أكثر إلفاً ، وعندهم علم بهم ، كما قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه[٣] » ، وقومه هم دعامته الأولى ، فهم الذين يكونون القوة الأولى لدعوته ويكون منهم الحواريون الذين يناصرونه ، ويرعونه حق رعايته .

وعندما طلب المشركون أن يكون الرسول ملكا ، رد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله تعالى : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لاينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم مايلبسون[٤] » .

---

(١) الإسراء : ١٥ (٢) فاطر : ٢٤ (٣) ابراهيم : ٤ (٤) الأنعام : ٨ — ٩

وإن الله تعالى صرح بأن إرساله للرسل لكى يقوم الناس بالحق ، والميزان ، فقد قال تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله قوى عزيز[1] »

وفى هذا النص الكريم ، بين الله سبحانه وتعالى أن الرسل جاءوا بالكتاب من عنده سبحانه ليقوم الناس بالقسط ، ومن لم يقنعه الدليل ، ولم يهتد بهداية الرحمن ، وبمقتضى الفطرة المستقيمة ، والإدراك السليم ، فإن الحديد فيه بأس شديد يقمعه من الشر ، ويبعد عن الناس فساده ، وإفساده .

والآيات تفيد أيضاً أن الله سبحانه وتعالى يبعث الرسل ، ومعهم المعجزات الباهرات الخارقات للعادات التى تثبت أنهم جاءوا من عند الله تعالى ، وأنهم لم يفتروا على الله الكذب ، بل هم جاءوا برسالة ربهم ، ويتحدون الناس أن يأتوا بمثلها ، وهى خارقة لقانون الأسباب والمسببات ، وهى فوق إثباتها لقدرة الله تعالى الفعال لما يريد تثبت رسالة الرسول التى جرت على يديه .

١٥٧ — والقرآن الكريم فيه علم المعجزات بجوار العلم برسالة الله تعالى لخلقه ، ففيه معجزة نوح عليه السلام ، وهى السفينة التى نجا فيها المؤمنون ، وأغرق الله تعالى بعدها الكافرين ، واقرأ قوله تعالى :

« وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ، ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال إن تسخروا منا ، فإنا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم ، حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ، قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من

(١) الحديد . ٢٥

سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل ، وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ، إن ربى لغفور رحيم ، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر . واستوت على الجودى ، وقيل بعداً للقوم الظالمين[1] » .

هذه بينة من بينات الله تعالى تدل على اصطفائه لنوح أبى الإنسانية الثانى وتدل أيضا على أن الله تعالى فاعل مختار، لا يتقيد بالأسباب والمسببات التى نعرفها بل هو القادر المريد المختار «ولا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون» .

وجاء هود عليه السلام إلى عاد ، فقاوموا دعوته ، وناوءوا رسالته ، وقالوا مفترين عليه كما حكى القرآن الكريم عنهم « قالوا يا هود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون »[2] .

وقد كانت الآية عقابا دمر الله عليهم بريح صرصر عاتية ، وقال الله تعالى فى هذه « فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم، قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شيء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزى القوم المجرمين .[3]

وقال الله تعالى فى سورة الحاقة ، « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية[4] » .

وقد أرسل الله تعالى صالحاً إلى ثمود ، وقال الله تعالى فيهم : «وإلى ثمود

---

(١) هود . ٣٦ — ٤٤
(٢) هود : ٥٣ — ٥٤
(٣) الأحقاف : ٢٤ — ٢٥
(٤) الحاقة : ٦

أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب ، قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا فينا هذا ، أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ، وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ، وآتانى منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ، فما تزيدوننى غير تخسير . ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل فى أرض الله ، ولا تمسوها بسوء ، فيأخذكم عذاب قريب ، فعقروها ، فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب . فلما جاء أمرنا نجينا صالحا ، والذين آمنوا معه برحمة منا ، ومن خزى يومئذ ، إن ربك هو القوى العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود . [1]

ونجد من هذه النصوص الكريمة أن معجزة صالح التى تحدى بها ، وكانت بها البينة على رسالته هى ناقة كان لها شرب ، ولكل منهم شرب معلوم ، وكان التحدى ليس بأن يأتوا بمثلها ، ولكن كان التحدى بالهلاك إن مسوها ، فعقروها ، فأنذرهم الرسول المتكلم عن ربه بأن العذاب نازل بهم بعد ثلاثة أيام ، وقد صدق الوعيد عليها .

١٥٨ — ولننتقل إلى المعجزة التى أجراها الله تعالى على يدى سيدنا لوط عليه السلام ، لقد بعثه الله تعالى إلى قوم هبطوا فى مفاسدهم إلى ما لم يهبط إليه الحيوان ، فأفسدوا الفطرة ، وجاءهم لوط بالطهر ، ليحملهم على العودة إلى الفطرة المستقيمة التى فطر الله الناس عليها ، ولما لم تجد معهم دعوة الإصلاح ، بل استمروا فى غيهم يعمهون ، أمر الله تعالى نبيه أن يسرى بأهله بقطع من الليل ، واستثنى امرأته من أهله فقد كانت على شركهم وإن موعد العذاب النازل بهم الصبح ، أليس الصبح بقريب فلما جاء أمر الله تعالى جعل عاليها سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود » .

(١) هود ٦١ — ٦٨

وكان يعاصر لوطا إبراهيم أبو الأنبياء عليهم السلام ، ولذلك جاءت الملائكة التي ذهبت إلى قوم لوط ، وجعلت أرضهم عاليها سافلها ، جاءوا لإبراهيم عليه السلام ، وظهر معهم أمر خارق للعادة ، وهو أن تحمل امرأته وهي عجوز ، ولنتل الآيات الكريمات التي أثبتت هذه الحقائق :

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ، قالوا سلاما ، قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم ، وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ، وامرأته قائمة ، فضحكت ، فبشرناها بإسحق ، ومن وراء إسحق يعقوب ، قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً ، إن هذا لشيء عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيـــد ، فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى ، يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب يا إبراهيم أعرض عن هـذا ، إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود »(1) .

وترى أن خارقا للعادة كان في أول لقاء بين إبراهيم خليل الله ، وبين ملائكته ، وهو أن تحمل امرأة عجوز قد انقطع حيضها من زوج عجوز .

وإن الله أجرى على يد خليله إبراهيم معجزات كثيرة ، منها مسألة الطير إذ يقول الله تعالى في ذلك :

« وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال أو لم تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ، قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم(2) » .

ومن أبرز ما أجرى الله على يديه من خوارق للعادات أنه ألقي في النار ليحرق ، فاطفأها واقرأ قوله تعالى « ولقد آتينا إبراهيم رشـده من قبل ،

(1) هود : ٦٩ — ٧٦ (2) البقرة : ٢٦٠

وكنا به عالمين ، إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ، قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ، قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن ، وإنا على ذلكم من الشاهدين وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم ، لعلهم إليه يرجعون ، قالوا من فعل هذا بآلهتنا ، إنه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ، قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ، إن كانوا ينطقون ، فرجعوا إلى أنفسهم ، فقالوا إنكم أنتم الظالمون ، ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ، قالوا حرقوه ، وانصروا آلهتكم ، إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً ، فجعلناهم الأخسرين »(١)

وإنك لترى أن خوارق العادات التى تنقض التزام الأسباب والسببات والمسببات التى تلزم البشر ، ولكن قدرة الله وإرادته ، فوق ما عليه . وما يجرى من أسباب ومسببات بينهم .

وكذلك الأمر بالنسبة لشعيب الذى دعا إلى مكارم الأخلاق ، وحسن المعاملات الإنسانية ، إذ يقول كما حكى القرآن الكريم عنه : « قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان ، إنى أراكم بخير ، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، بقية الله خير لكم ، إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ ، قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل فى

---

(١) الأنبياء : ٥١ — ٧٠

أموالنا ما نشاء ، إنك لأنت الحليم الرشيد ، قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقاً حسناً ، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيق إلا بالله عليه توكلت، وإليه أنيب ، وياقوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ماأصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وماقوم لوط منكم ببعيد ، واستغفروا ربكم ، ثم توبوا إليه ، إن ربى رحيم ودود ، قالوا يا شعيب مانفقه كثيراً مما تقول، وإنا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز . قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله ، واتخذتموه وراءكم ظهريا ، إن ربى بما تعملون محيط ، ويا قوم اعملوا على مكانتكم ، إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ومن هو كاذب ، وارتقبوا إنى معكم رقيب ، ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها ، ألا بعداً لمدين ، كما بعدت ثمود [١] » .

ونرى من هذا أن الأمر الخارق للعادة كان صيحة عليهم .

وإن الملاحظ أن الخوارق للعادة التى جاءت على يد الأنبياء الذين عاشوا فى البلاد العربية كانت حسية مناسبة للعرب ، وكانت من الناحية التى تناسب الصحراء والبادية ، فمعجزة هود كانت أحجاراً من سجيل منضود ، وقد ظنوه عارضاً ممطرا ، ومعجزة صالح كانت ناقة غريبة بين أهل النوق فى البادية ، ومعجزة لوط كانت جعل الأرض عاليها سافلها ، ومعجزة شعيب كانت صيحة جعلتهم فى ديارهم جاثمين .

معجزات سيدنا موسى :

١٥٩ — قصصنا بعض القصص عن سيدنا موسى عليه السلام ، وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وكنا نذكر ذلك بصدد بيان أنه لا تكرار فى

---

(١) هود : ٨٤ — ٩٥ .

قصة موسى لمن تدبر ، وتفكر فى المغازى والمقاصد ، لا فى ظواهر الألفاظ ، والآن نذكر فقط الخوارق للعادات التى جرت على يد موسى عليه السلام ، وهى تسع آيات كما جاء فى القرآن الكريم ، فقد قال تعالى « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، فاسأل بنى إسرائيل ، إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحوراً (١) .

ولنذكر إن شاء الله تعالى تلك الآيات التى لم تجد مع فرعون وقومه الضالين .

أولها : العصا التى قال الله تعالى فيها « فألقى موسى عصاه ، فإذا هى تلقف ما يأفكون »(٢) وقد نزل موسى ، يباهل بها السحرة من قوم فرعون « قالوا ياموسى إما أن تلقى ، وإما أن نكون نحن الملقين ، قال ألقوا ، فلما ألقوا سحروا أعين الناس ، واسترهبوهم ، وجاءوا بسحر عظيم ، وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك ، وانقلبوا صاغرين ، وألقى السحرة ساجدين(٣) » .

الثانية : أنه يخرج يده من جيبه ، فإذا هى بيضاء من غير سوء ، كما قال تعالى : « وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء(٤) » ، وكما قال تعالى : « ونزع يده ، فإذا هى بيضاء للناظرين» (٥) .

الثالثة: أن الله تعالى أخذ آل فرعون بالجدب، ونقص الأموال والأنفس

---

(١) الإسراء : ١٠١
(٢) الشعراء : ٤٥
(٣) الأعراف : ١١٥ — ١٢٠
(٤) النمل : ١٢
(٥) الأعراف : ١٠٨

والثمرات ، كما قال تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ، ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون[1] .

الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة : ما ذكره الله تعالى بقوله : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين »[2] .

الآية التاسعة أنهم عندما نزل بهم الرجز الشديد طلبوا من موسى أن يدعو ربه ليكشف عنهم الرجز ، كما قال الله تعالى : « ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون »[3] .

وإذ لم تجد هذه المعجزات ، مع أنها قارنت حياتهم ، ومست معيشتهم حتى لم يكن لطالب حق أن يرتاب ، ولا لطالب الهداية أن يمترى . عندئذ كانت الضربة القاصمة لفرعون وملئه ، ولذلك قال تعالى: « فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا ، وكانوا عنها غافلين ، وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها ، التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ، وما كانوا يعرشون[4] » .

هذه إشارات إلى معجزات سيدنا موسى ، وكل خارق للأسباب والمسببات مما يدل بذاته أولا ـ على أن الله تعالى فعال لما يريد ، خلق الأشياء بإرادته وقدرته ، ولم تنشأ عنه كما ينشأ المعلول عن علته ، وتدل ثانيا على رسالة موسى عليه السلام وبعثه إلى بنى إسرائيل ، وفرعون وقومه .

---

(١) الأعراف : ١٣٠

(٢) الأعراف . ١٣٣

(٣) الأعراف · ١٣٤ — ١٣٥

(٤) الأعراف : ١٣٦ — ١٣٧

الخوارق التى جاءت على يد سليمان :

١٦٠ — كان سليمان حاكما ، ونبياً ، ولم يكن حاكماً طاغوتياً ، بل كان حاكما ربانياً . أعطاه الله تعالى علم الحاكم العادل ذى السلطان غير المسيطر ، وأعطاه علما آخر ، أعطاه العلم بلغة الحيوان ، وسخر له الطير ، وسخر له الجن ، وأوتى علم لغة النمل والطير ، ولنتل ماجاء فى سورة النمل من خوارق كانت مع سليمان ، قال الله تعالى ، وهو أصدق القائلين « وورث سليمان داوود ، وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شىء ، إن هذا لهو الفضل المبين ، وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير ، فهم يوزعون حتى إذا أتوا على وادى النمل ، قالت نملة ، يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده ، وهم لايشعرون ، فتبسم ضاحكا من قولها ، وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ، وتفقد الطير ، فقال : مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبنه عذابا شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين ، فمكث غير بعيد ، فقال أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، إنى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شىء ، ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس ، من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل ، فهم لايهتدون ، ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون ، وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ، قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ، اذهب بكتابى هذا ، فألقه إليهم ، ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ، قالت يأيها الملأ ، إنى ألقى إلى كتاب كريم ، إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا على وأتونى مسلمين قالت يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ، ماكنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ، قالوا نحن أولو قوة ، وأولو بأس شديد ، والأمر إليك

فانظرى ماذا تأمرين . قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ، وإنى مرسلة إليهم بهدية ، فناظرة بم يرجع المرسلون ، فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون ، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ، قال يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ، قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وإنى عليه لقوى أمين ، قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر ، فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم ، قال نكروا لها عرشها ، ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لايهتدون ، فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ، قالت كأنه هو ، وأوتينا العلم من قبلها ، وكنا مسلمين. وصدها ماكانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ، قيل لها ادخلى الصرح ، فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقيها ، قال إنه صرح ممرد من قوارير ، قالت رب إنى ظلمت نفسى ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين(١) » .

تلونا هذا الجزء من هذه السورة الكريمة ، وكلها أمور ليست مما يجرى فى عادات الناس ، ولنشر إليها إشارات توجه فيها الأنظار إلى ما اشتملت الآيات الكريمات فى بيان فوق طاقة البشر .

أولها — الأمر الذى لا يعرف ولم يعرف لغير سليمان ، وهو أنه علم منطق الطير والحيوان ، وهذا يدل على أن غير الإنسان ، أمم أمثال الإنسان لها منطق ، ولغة ، وإن كنا لا نعرفها ، وعرف نبى الله سليمان بعضها ، كما قال تعالى فى كتابه الكريم : « وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطير

---

(١) النمل ١٦ — ٤٤ .

بجناحيه إلا أمم أمثالكم مافرطنا فى الكتاب من شىء(١) ، فإذا كان سليمان قد علم منطق بعض الحيوان ، فهو مصداق لقول الله تعالى الخالق الفعال لما يريد .

وثانيها — تسخير الطير له ، فهذا الهدهد كان له من الإدراك الربانى ، ماجعله يعرف الهدى من الضلال .

وثالثها — الإتيان بعرشها بين غمضة عين وانتباهتها ، أو كما عبر القرآن الكريم آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك وهذا من تسخير الله تعالى لسليمان ، ومن العلم الذى أعطاه الله بعض عباده المخلصين ، ونقول إن الآية صريحة فى أن الذى أتى هو عرشها حقيقة ، لاصورته ، كما يقول بعض المتشددين فى المادية ، ومع ذلك إذا كانت هى الصورة فإن الخارق ثابت ، وهو أنه أتى به قبل أن يرتد إليه طرفه .

وفى قصة نبى الله سليمان عليه السلام خوارق أخرى غير ماجاء فى سورة النمل ، فقد جاء فى سورة سبأ ما نصه : « ولسليمان الريح غدوها شهر ، ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ، وجفان كالجواب ، وقدور راسيات ، اعملوا آل داوود شكراً ، وقليل من عبادى الشكور ، فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين(١)» .

العبرة فى خوارق العادات لسليمان :

١٦١ — أطنبنا بعض الإطناب فى النقل من القرآن الكريم عن خوارق العادات فى عهد نبى الله سليمان عليه السلام ، وذلك لأن هذا العصر

---

(١) الأنعام : ٣٨

(٢) سبأ : ١٢ — ١٤

كانت فيه الفلسفة الأيونية مسيطرة فى آسيا الصغرى وتولدت عنها فلسفة اليونان . وكانت الفلسفة الأيونية قائمة على الأخذ بالأسباب والمسببات ، وتولد المعلول من العلة فى انتظام قائم لا تخلف ، فجاء سليمان عليه السلام ، وقام سلطانه كله على خرق للأسباب والمسببات والقيام على إثبات أن الكون كله بإرادة مريد مختار ، لا يفعل إلا ما يريد ، ولا يصدر عنه شىء بغير إرادته الخالدة الثابتة — فقام سليمان بذلك ، وأجرى الله تعالى تلك الخوارق على يديه ، فأجرى الريح التى غدوها شهر ورواحها شهر على يديه ، وعلم منطق الطير ، وسمع حديث النمل ، وجاءه عرش بلقيس بين يديه قبل أن يرتد إليه طرفه ، وسخر الله تعالى له الجن ، وكان كل شىء فى حكمه بخوارق العادات ، أو بخرق نظام الأسباب والمسببات العادية التى بنيت عليها نظرية أن المخلوقات نشأت عن الموجد الأول نشوء العلة عن معلولها فكانت حياة نبى الله تعالى سليمان فى ملكه تجرى على هدم هذا النظر ، وسخر الله له الريح تجرى بأمره حيث أصاب وكذلك كانت الخوارق للأسباب هى المسيطرة فى معجزات من جاء بعده من الرسل .

معجزات عيسى عليه السلام .

١٦٢ — فى هـــذا العصر الأيونى كان مبعث عيسى عليه السلام ، ووجوده ، ولم يكن علم الطب رائجا عند بنى إسرائيل كما توهم عبارات بعض الكتاب فى العقائد من المسلمين ، بل كان بنو إسرائيل أجهل الناس بالطب كما يقرر علماء تاريخ الفلسفة ، ومنهم رينان الفيلسوف المسيحى .

إنما كانت معجزات عيسى لإبطال النظرية الأيونية التى تعتقد أن المخلوقات نشأت عن الموجد نشوء العلة عن معلوله .

وكانت ولادة عيسى إبطالا صارخا لهذه النظرية ، فإن المعتاد فى الحياة الحيوانية ومنها الحياة الإنسانية أن الولد يولد من أبوين ، أب ملقح ببذرة

الوجود ، وأم تتلقى فى رحمها تلك البذرة ، أو الجرثومة كما يعبر العلماء ، أو المنى الذى يمنى كما عبر القرآن .

فجاء عيسى من غير أب ، وكان ذلك خرقا للأسباب الطبيعية الجارية ، وكان غريبا على مريم البتول .

واقرأ قوله تعالى : « واذكر فى الكتاب مريم ، إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ، فاتخذت من دونهم حجابا ، فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا . قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ، قالت أنى يكون لى غلام ، ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ، ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا ، فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا ، وكنت نسيا منسيا ، فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا . وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ، فكلى واشربى وقرى عينا فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا ، فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريا . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ، فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ، قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ، وبرا بوالدتى ، ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم(١) » .

---

(١) مريم : ١٦ — ٣٦

هذه كلها خوارق تنبىء عن أن الله خلق الكون بإرادة سرمدية ، وولادة عيسى نفسها أول خارق للعادة ، ولذا قال الشهر ستانى إن وجود عيسى ذاته معجزة . وأكدت معجزة الإيجاد من غير أب بمعجزات أخـــرى ، أو بخوارق عادات أخرى ، أولها الرطب الجنى من النخل بهزه ومناداته لها ، وهو فى المهد ، وحديثه فى المهد حديث الحكماء ، فكل هذه خوارق ، للأسباب والمسببات تدل على أن الإيجاد والتصوير والتربية كلها بإرادة الله العليم الحكيم خالق كل شيء ، ومنها الأسباب والمسببات ، تعالى الله علوا كبيرا .

ومعجزاته عليه السلام من هذا القبيل الذى هو تحد حسى للأسباب والمسببات ، فقد قال تعالى بعد أن بعثه رسولا لله رحمة للعالمين : « ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرىء الأكمـــه والأبرص ، وأحيي الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون ، وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ، ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم ، فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم »[(١)]

هذه دعوة عيسى عليه السلام ، وفيها البينات الدالة على رسالته ، بما هو خرق حسى واضح يرى بالعين ، وليس خفيا يدرك بالمعنى ، هو يبرىء الأكمه الذى ولد أعمى ، والأبرص الذى عجز الطب إلى الآن عن إبرائه وهو فوق ذلك يحيي الموتى بإذن الله بالفعل لا بمجرد الإمكان كما ادعى بعض المفسرين ، وهو روحانى ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم .

---

(١) آل عمران ٤٨ — ٥١

وهل يسير كل هـــذا على قانون الأسباب والمسببات ، لكى نقول ما يقوله الفلاسفة يجب أن نلغى حكم العقول ، وبدهيات المدارك .

وقد ذكر سبحانه وتعالى معجزات أخرى فى آخر سورة المائدة ، فقد قال تعالى :

« يوم يجمع الله الرسل ، فيقول ماذا أجبتم ، قالوا لا علم لنا ، إنك أنت علام الغيوب . إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك ، وعلى والدتك ، إذ أيدتك بروح القدس ، تكلم الناس فى المهد وكهلا ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى ، وإذ كففت بنى إسرائيل عنك ، إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم ، إن هذا إلا سحر مبين ، وإذا أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ، إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى ابن مريم ، اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك ، وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله إنى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم ، فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين »(١)

وهكذا نرى أن هذه الآيات الكريمات ذكرت بعض المعجزات السابقة ، وأضافت إليها معجزتين أخريين :

---

(١) المائدة ١٠٩ — ١١٥

إحداهما : أنه ينادى الموتى من القبور فتخرج . وذلك فى قوله تعالى « وإذ تخرج الموتى » .

والثانية : أن الله تعالى أنزل عليهم مائدة من السماء .

١٦٣ — ونرى من هذا أن الخوارق للعادات كثرت على يد عيسى عليه السلام، وكان وجوده ذاته خارقا للعادة ، إذ ولد من غير أب كما بينا ، وكلها تدل على أن كل شيء فى الوجود هو بإرادة مختار ، فعال لما يريد .

وما كان ذلك إلا إبطالا لنظرية وجود الأشياء بالفلسفة التى سادت فى العصر الأيونى ، ثم انتقلت إلى اليونان . وأخذت تتسع حتى كانت الأفلاطونية الحديثة التى التقت مع النصرانية المحرفة غير المسيحية الأولى فى نظرية العلية فجعلت العقل الأول هو الآب ، والعقل الثانى هو الابن ، ثم كانت بعد ذلك الروح القدس المنبثقة من الاثنين أو أحدهما .

ووجود المسيح ، وحياته ، وما أجراه الله تعالى من خوارق للعادات ، كانت تحيط بكل تصرفاته ، وأعماله ، كل ذلك كان حججا قاطعة مثبتة أن العالم كله مخلوق بإرادة حكيم قادر قهار سميع بصير مريد مختار .

١٦٤ — وإن قصة أهل الكهف التى أشرنا إليها فى بعض ما قلنا . وقد حدثت بعد المسيحية على ما يبدو من وقائعها كانت فيها إرادة الله ظاهرة فى بيان سر هذا الوجود ، وأن الفاعل له مريد مختار لا يتقيد فى إيجاده لخلقه بأن يكون وجود الأشياء مربوطا بالعلة والمعلول ، بل هو مربوط بإرادة حكيم يفعل ما يشاء ويختار ولنتلها عليكم ، ولا مانع من تكرار تلاوتها ، إن كنا قد تلوناها هى من قبل .

« أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ، إذ أوى الفتية إلى الكهف ، فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيء لنا من

أمرنا رشدا ، فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا ، ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ، نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم ، إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقدقلنا إذاً شططاً . هؤلاءقومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، وإذ اعتزلتموهم ، وما يعبدون إلا الله ، فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقا ، وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ، وهم فى فجوة منه ، ذلك من آيات الله ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ، وتحسبهم أيقاظاً ، وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ، ولملئت منهم رعباً ، وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ، قال قائل منهم كم لبثتم ، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحـــدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما ، فليأتكم برزق منـه ، وليتلطف ، ولا يشعرن بكم أحداً ، إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ، ولن تفلحوا إذا أبداً ، وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لاريب فيها ، إذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ، ربهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً ، سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربى أعلم بعدتهم ، ما يعلمهم إلا قليل ، فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ، ولا تستفت فيهم منهم أحدا ، ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ، واذكر ربك إذا نسيت ، وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا ، ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ، قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات

والأرض ، أبصر به وأسمع مالهم من دونه من ولى ، ولا يشرك فى حكمه أحدا(١) » .

وإن المفسرين والمؤرخين للديانات يقررون أنهم مسيحيون مؤمنون بالمسيحية الحق التى جاء بها عيسى عليه السلام . وأنهم فروا بدينهم من الرومان الذين أرهقوا المسيحيين الصادقين من أمرهم عسراً ، حتى كان نيرون اللعين ، كان يطليهم بالقار ، ويشعل فيهم النيران ، ويسيرهم فى موكبه ، وهو فخور مختال بتلك المشاعل البشرية .

وإذا كان القرآن الكريم ذكر أنهم لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين ، وازدادوا تسعاً ، فإنه يكون ظهورهم ، فى وقت ظهور الأفلاطونية ، التى نسخت النصرانية ، والتى دخل فيها قسطنطين بعد أن ابتدأ بالسير بها فى طريق التثليث الأفلاطونى الذى بنى على أساس أن الكون ظهر من الأول ظهور المعلول عن علته .

فكانت واقعة أهل الكهف ، وظهورهم بعد ثلاثمائة سنة وتسع ، وهى وقت الانحراف المسيحى فى الاعتقاد دليلا قوياً على بطلانه ، وعلى بطلان الأساس الذى قام عليه ، وهو مذهب الأفلاطونية الحديثة الذى يقوم على أن الموجودات علة لمعلول ، وليست من خالق مريد قادر .

١٦٥ — أطنبنا بعض الإطناب فى ذكر الخوارق التى هى بعض ماجاء فى القرآن الكريم ، وذلك لأمرين: أولهما أن التوحيد الذى هو لب العقيدة الإسلامية ، بل هو اللب فى كل الأديان السماوية يقوم على أوصاف ثلاثة . وحدة الخالق فى إنشائه الكون ، ووحدانيته فى ذاته ، فهو منزه عن المماثلة للحوادث ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، ووحدة المعبود ، وهو الله سبحانه وتعالى .

---

(١) الكهف : ٩ — ٢٦

الثانى أن الله تعالى مريد مختار فعال لما يريد ، وأنه أنشأ كل ما فى الوجود بإرادته وقدرته ولم ينشأ عنه نشوء المعلول عن علته .

الثالث ثبوت الرسالة الإلهية المصطفين من خلقه . ولا نثبت الرسالة إلا بأمره .

الأمر الثانى الذى من أجله أفضنا فى ذكر بعض الخوارق ، ولم نضن على القرطاس فيه أن بعض الذين يجعلون أمور الدين خاضعة للتجارب ويحسبون أنهم يخدمون القرآن، يدعون أن رسالة محمد قامت على العقل، ولم تقم على الخوارق ، وأن القرآن الذى هو حجة محمد الكبرى خاطب العقول ، ولم يخاطب بالخوارق ، وجرت عباراتهم بما يفيد أن الإسلام لا يعرف الخوارق ، إلى درجة أن بعض علماء اللاهوت المسيحى سألنا هل القرآن يعارض الخوارق والمعجزات ، فأجبنا سؤلهم بأن القرآن سجل معجزات الأنبيا ، وها نحن أولاء نبين بعض ما فى هذا السجل الخالد .

البعث واليوم الآخر

١٦٦ — إن العالم يتنازع فيه الخير والشر، والشر ربما يتغلب على الخير، وفى الناس الأخيار والأشرار، وقد يغلب أهل الشر على أهل الخير، وعدل الله يوجب أن تكون العاقبة للأخيار، وأن تكون للذين أحسنوا الحسنى وزيادة، والله سبحانه جعل الخير والشر لحكمة أرادها ليبتلى الإنسان إما شاكراً وإما كفوراً، ولم يخلق الإنسان عبثاً، ولم يجعله سدى بل إنه مسئول عن فعله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وإن ذلك يقتضى ألا تكون هذه الحياة هى الحياة الدنيا وحدها، بل لا بد من حياة أخرى تكون للأخيار الذين لم ينتصر خيرهم فى هذه الحياة، ولا تكون للأشرار الذين غلبوا الأخيار ظلما واعتدوا وفتنوا الناس فى أمورهم.

ولذلك كانت الحياة الآخرة وبيانها من مقاصد الأديان السماوية، فلا يوجد دين سماوى إلا كان الإيمان بالبعث والحساب، والثواب والعقاب من أركان الإيمان.

وولذلك جعل القــــرآن الكريم الإيمان بالغيب أول أجزاء الإيمان فقد قال الله تعالى فى أوصاف المؤمنين: «الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك، وما أنزل إليك من قبلك، وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدى من ربهم، وأولئك هم المفلحون»[1].

وترى أن أول وصف للمؤمنين هو الإيمان بالغيب فلا تستولى عليهم مادة الحياة، ولا يسيطر عليهم سلطانها، فإن فرق ما بين الإيمان والزندقة

---

(١) البقرة . ٣ ـ ٥

الإيمان بالغيب ، فمن حسب أنه لا وجود إلا للمادة المشاهدة المحسة ، فهو ليس بمؤمن وليس عنده استعداد للإيمان إلا من رحم ربك .

وقد ختم الله سبحانه وتعالى أوصاف المؤمنين بقوله تعالى « وبالآخرة هم يوقنون » فأوجب الإيمان بالآخرة وأكده بتقديم الجار والمجرور ، أى أن الآخرة وحدها هى الجديرة بالإيمان ، وأنه لا إيمان إلا باليقين الذى لا مجال للريب فيه ، وإن رقى الإنسان فى أن تكون حياته غير مقصورة على الدنيا ، لأن التكليف شرف ، وهو يقتضى تحمل التبعات ولا سبيل لتحمل التبعات إلا أن يكون ثمة يوم يجرى فيه الحساب والثواب والعقاب » .

ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى الذين لا يؤمنون بلقاء الله تعالى بأنهم الخاسرون « قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة ، قالو يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ، وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ، وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون ، أفلا تعقلون(١) » .

نعم خسر الذين لا يؤمنون بالآخرة خسروا إنسانيتهم ، فقد حسبوها عبثا ليس لها غاية ، وخسروا العزاء إذا شقوا فيها ، فإن الإيمان بالآخرة عزاء روحى لمن يؤمن بها فيتحمل شقاء الدنيا لينال نعيم الآخرة ، وإنهم لم يترقبوا اللقاء ، فلم يستعدوا بالعمل الصالح .

وقد قرر الله سبحانه وتعالى أن الإنسان يكون مخلوقا سدى كالهمل إن لم يكن هناك يوم آخر ، حيث قال « أيحسب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى(٢) » .

---

(١) الانعام، ٣١ ـ ٣٢

(٢) القيامة : ٣٦ — ٤٠

١٦٧ — ولذلك عنى القرآن الكريم بإثبات حقيقة البعث، وبيان الحال فى الحياة الآخرة وكان خطاب القرآن لقوم لا يؤمنون بالبعث، ولا يدركون إلا الحياة الدنيا، ويقولون إن هى إلا حياتنا الدنيا، نموت ونحيا، وما نحن بمبعوثين.

وإن عقيدة البعث لب الإيمان، وغايةمن غايات الرسائل الإلهية، ولذلك تجد القرآن يحتفى ببيان حقيقة البعث، وتنبيه العقول إليه، وما من موضع فى القرآن الكريم، إلا ذكر فيه البعث وقيام الدليل عليه، بقياس قدرة الله تعالى على الإعادة على قدرته على الابتداء، وأن البعث تكون الحياة الدنيا من غيره عبثاً لا جدوى فيها كما قال تعالى: «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً، وأنكم إلينا لا ترجعون(١)».

ولنقبس قبسة من الآيات الكريمة التى تدعو إلى الإيمان بالبعث، وتبين أن المشركين فى ضلال اقرأ قوله تعالى: «وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا ترابا أإنا لفى خلق جديد، أولئك الذين كفروا بربهم، وأولئك الأغلال فى أعناقهم، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»(٢).

إنهم يعجبون من أنهم بعد أن يصيروا تراباً يخلقون خلقاً جديداً، بل إنهم يعجبون من أن تدخل أجسامهم بعد البلى فى أجسام أخرى ثم تبعث، فيبين سبحانه وتعالى قدرته على ذلك، فيقول تبارك وتعالى:

«قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم، فسيقولون من يعيدنا، قل الذى فطركم أول مرة، فسينغضون إليك رءوسهم، ويقولون متى هو، قل عسى أن يكون قريبا، يوم يدعوكم، فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا(٣)».

---

(١) المؤمنون. ١١٥.

(٢) الرعد: ٥

(٣) الإسراء. ٥٠ — ٥٢

ولقد يقولون مستغربين «من يحي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ، أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن ، فيكون ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون[١]» .

وترى من هذا أن الذين ينكرون البعث ينكرون مع ذلك قدرة الله تعالى ، بل ينكرون أصل الرسالة الإلهية إلى خلقه ، اقرأ قوله تعالى فى سورة ق «ق والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون هذا شيء عجيب ، أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد ، قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ، بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج[٢]» ، ويقول سبحانه : «أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد[٣]» .

وهكذا نرى المتتبع لآيات القرآن يجد مجادلة فى أمر البعث ، فإنكار البعث مقترن بالكفر ، ومقترن بإنكار الرسل، والقرآن يرد على المنكرين إنكارهم بمنطق العقل والحق ، فإن الله خلق السموات والأرض وما بينهما، وهو الذى يملك الرزق فى السماء والأرض ، وهو الذى أنشأ الحياة والأحياء ، وبقياس الغائب على الشاهد يثبت بلا ريب أن القادر على الإنشاء قادر على الإعادة ، وأن من أفن الإدراك ، وفساد التفكير أن يحسبوا أن ثمة عائقاً يعوق المنشيء الأول عن الإعادة ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

---

(١) يس : ٧٨ — ٨٣ .

(٢) ق : ١—٥ .

(٣) ق : ١٥

يوم القيامة

١٦٨ — هو اليوم الذي يضطرب فيه الكون ، والشمس تكور ، والنجوم تنكدر ، والجبال تسير والعشار تتعطل ، ولقد وصفه الله سبحانه وتعالى : « إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت ، وإذا العشار عطلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجيرت . وإذا النفوس زوجت ، وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت ، وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلفت ، علمت نفس ما أحضرت »(١)

وإن يوم القيامة يقترن بخروج من القبور والبعث ، كما قال تعالى : « إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت . وإذا القبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخرت ، يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك ، فسواك فعدلك ، فى أى صورة ماشاء ركبك كلا بل تكذبون بالدين ، وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين ، يعلمون ما تفعلون »(٢) .

وإن الله سبحانه وتعالى يسمى يوم القيامة الساعة ، لأنه ساعة الهول الأكبر ، وقد قال تعالى فى وصفه :

« يأيها الناس اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد ، ومن الناس من

---

(١) التكوير : ١ — ١٤

(٢) الانفطار : ١ — ١٢

يجادل فى الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد »(١) .

وكما سماه الله تعالى الساعة سماها أيضا الحاقة ، والقارعة ، فقال تعالى : « الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ، كذبت ثمود ، وعاد بالقارعة »(٢) ويقول سبحانه فى وصف الكون ، وقت هذه القارعة : « فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال ، فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء ، فهى يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية »(٣) .

وقال تعالى فى وصفها بالقارعة : « القارعة ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش(٤) » .

وعلم الساعة خفى عن الناس ، وعن الأنبياء والمرسلين ، فهى من علم الغيب الذى استأثر به علم الله تعالى ، حتى يسير الناس فى أعمالهم ، وبإرادتهم ، ويتحملون تبعة الأعمال ، وقد قال تعالى « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل إنما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ، يسألونك كأنك حفى عنها ، قل إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً ، إلا ماشاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون(٥) » .

---

(١) الحج : ١ ـ ٣
(٢) الحاقة : ١ ـ ٤
(٣) الحاقة : ١٣ ـ ١٧
(٤) القارعة : ١ ـ ٥
(٥) الأعراف ١٨٧ ـ ١٨٨

ولقد قال الله تعالى : « يايها الناس اتقوا ربكم ، واخشوا يوماً لايجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً ، إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور . إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير[1] » .

---

(١) لقمان . ٣٣ — ٣٤

الميزان والحساب

١٦٩ — إذا كان يوم القيامة هو اليوم الذى يبعثر فيه ما فى القبور ، وقد حدثنا القرآن الكريم فى علمه عن ذلك بتفصيل واضح تطمئن إليه العقول والقلوب ، فإنه بعد قيام القيامة يكون الحساب على ما قدم المرء من أعمال الخير . ويحاسب الأشرار على ماقدموا من شر ، ولذلك نجد النصوص القرآنية تقرر الحساب والميزان ، وإن الناس منتهون من بعد الحساب إما إلى الجنة وإما إلى السعير ، اقرأ من سورة الواقعة قوله تعالى :

« إذا وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة ، إذا رجت الأرض رجاً ، وبست الجبال بساً ، فكانت هباء منبثاً ، وكنتم أزواجا ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ، فى جنات النعيم ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين ، على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين .. الخ »[1] .

وإنه يجىء كل إنسان ومعه كتابه فيه حسناته وفيه سيئاته قال تعالى :

« وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »[2] ويقول سبحانه وتعالى :

« ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ، يوم ندعو كل أناس بإمامهم ، فمن أوتى كتابه بيمينه ، فأولئك يقرءون كتابهم ، ولا يظلمون فتيلا ، ومن كان

(١) الواقعة : ١ — ١٦

(٢) الإسراء : ١٣ — ١٥

فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا(١) » .

ويقول سبحانه بعد وصف يوم القيامة فى سورة الحاقة « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، فأما من أوتى كتابه بيمينه ، فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه ، إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ، فهو فى عيشة راضية ، فى جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية ، وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ماحسابيه ياليتها كانت القاضية ، ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه(٢) » .

ويقول سبحانه فى سورة القارعة بعد ذكر يوم القيامة وهوله « فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه ، فأمه هاوية ، وما أدراك ماهيه نار حامية(٣) » .

---

(١) الإسراء : ٧٠ — ٧٢
(٢) الحاقة : ١٨ — ٢٩
(٣) القارعة : ٦ — ١١

الجنة والنار

١٧٠ – فصل القرآن الكريم أحوال أهل الجنة ، وما فيها من نعيم مقيم، وأحوال النار ، وما فيها من عذاب أليم ، وبين ما يجزى الله تعالى به عباده المتقين ، وما يعاقب به الذين استحوذ عليهم الشيطان .

ولنضرب لذلك أمثلة مما ذكره من أحوال الجنة ونعيمها ،فقدقال تعالى « مثل الجنة التي وعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات ، ومغفرة من ربهم »(١) .

ويقول سبحانه في وصف أهل الجنة . وهم فيها « والسابقون السابقون أولئك المقربون ، في جنات النعيم ، ثلة من الأولين،وقليل من الآخرين، على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون، بأكواب وأباريق ، وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما ، إلا قيلا سلاما سلاما ، وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، في سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفرش مرفوعة . إنا أنشأناهن إنشاء ، فجعلناهن أبكاراً، عرباً أتراباً ، لأصحاب اليمين ، ثلة من الأولين، وثلة من الآخرين(٢).

وقال تعالى في وصف الجنة ووصف النار : «هل أتاك حديث الغاشية، وجوه يومئذ خاشعة،عاملة ناصبة،تصلى ناراً حامية،تسقى من عين آنية،ليس

---

(١) محمد : ١٥

(٢) الواقعة : ١٠ — ٤٠

لهم طعام إلا من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع ، وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية ، فى جنة عالية ، لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة ، أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ، فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ، إلا من تولى وكفر ، فيعذبه الله العذاب الأكبر، إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم(١) » .

ويقول سبحانه فى وصف الجنة : « ولمن خاف مقام ربه جنتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، ذواتا أفنان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان تجريان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما من كل فاكهة زوجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، متكئين فيها على فرش بطائنها من استبرق ، وجنى الجنتين دان ، فبأى آلاى ربكما تكذبان ، فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، ومن دونهما جنتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، مدهامتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان نضاختان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان فيهما فاكهة ونخل ورمان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهن خيرات حسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، حور مقصورات فى الخيام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام(٢) » .

١٧١ — وقد ذكر القرآن أوصاف النار التى هى جزاء الكافرين ،

---

(١) الغاشية : ١ — ٢٦ (٢) الرحمن : ٤٦ — ٧٨

الذين استكبروا عن أن يؤمنوا بربهم ، واتبعوا إغواء إبليس الرجيم ، ولنذكر بعض أمثلة من أوصاف الجحيم ، يقول الله تعالى :

« إن جهنم كانت مرصاداً ، للطاغين مآبا ، لابثين فيها أحقابا ، لا يذوقون فيها برداً ولا شرابا ، إلا حميما وغساقا ، جزاء وفاقا ، إنهم كانوا لا يرجون حسابا ، وكذبوا بآياتنا كذاباً ، وكل شيء أحصيناه كتابا ، فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا [1] » .

ويقول سبحانه في جهنم أيضاً : « ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ، ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، كلا إن كتاب الفجار لفي سجين ، وما أدراك ما سجين ، كتاب مرقوم ، ويل يومئذ للمكذبين ، الذين يكذبون بيوم الدين ، وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم إنهم لصالوا الجحيم ، ثم يقال لهم هذا الذي كنتم به تكذبون [2] » .

ويقول سبحانه في بعض ما يذوقه الكفار الضالون « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ، إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا تراباً وعظاما أئنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون ، قل إن الأولين والآخرين ، لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ، ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ، لآكلون من شجر من زقوم ، فمالئون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم ، هذا نزلهم يوم الدين ، نحن خلقناكم فلولا تصدقون [3] » .

ويقول سبحانه وتعالى في جزاء اتباع إبليس وذكر ذلك في أصل

(١) النبأ : ٢١ — ٣٠ (٢) المطففين : ١ — ١٧

(٣) الواقعة : ٤١ — ٥٧

عصيان إبليس عندما طلب سبحانه وتعالى منه السجود، فلم يسجد، يقول سبحانه: «وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين، فسجد الملائكة كلهم أجمعون، إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين، قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين، قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون، قال فاخرج منها فإنك رجيم، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين، قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون، قال فإنك من المنظرين، إلى يوم الوقت المعلوم، قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض، ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين، قال هذا صراط علىّ مستقيم، إن عبادى ليس لك عليهم سلطان، إلا من اتبعك من الغاوين، وإن جهنم لموعدهم أجمعين، لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم»[1].

وهكذا نرى وصف الجحيم مبثوثا فى القرآن، لأنه جزاء وفاق على الشر، ولأن جزاء الإحسان على الإحسان، كما قال تعالى «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة[2]».

١٧٢ — وإن القرآن الكريم قد جمع بين ضفتيه بيان العقيدة الإسلامية التى لا يسع مسلماً أن ينكرها، ومن أنكرها يقال له: «تب كما قال الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه».

وإن العقيدة كلها قائمة على الإيمان بوحدانية الله تعالى، وعدله سبحانه وأنه الفاعل المختار، وأنه المجازى بالإحسان إحساناً، ويعاقب من يخرج عن الجادة، ويكون من المفسدين.

وبالبناء على عقيدة الوحدانية، وأن الله تعالى فاعل مختار، وأنه العادل كان بعث الرسل، وكانت المعجزات الخارقات لما يعرفه الناس من الأسباب والمسببات، وكان العدل الإلهى موجباً أن يكون ثمة بعث، وحساب، وعقاب، وثواب، وكل امرىء بما كسب رهين.

---

(١) الحجر: ٢٨ — ٤٤ (٢) يونس ٢٦

البعث والجنة والنار أمور حسية

١٧٣ – يحلو لبعض المتفلسفين من الكتاب فى الماضى أن يقولوا إن البعث والجنة والنار ، والحساب والعقاب والثواب أمور روحية معنوية ، وليست أموراً حسية ، وذلك قد جاء من نقص إيمانهم بالغيب ، وباطل ما يقولون وما يعتقدون فإذا كان البعث معنوياً للأرواح ؛ فلماذا يعجب المشركون من أنهم بعد أن يكونوا تراباً يعودون،فإن عودة الأرواح لا يقتضى أن يكون ذلك الاستنكار ، إذ أن الأجساد التى صارت لاتعود. ولكان الرد عليهم سهلا ، بأن يقال لهم إن أجسامكم لاتعود ، بل أرواحكم هى التى تعود .

وإذا كان البعث مادياً بصريح القرآن الكريم ، فإن الجزاء يكون لأحياء بأرواحهم وأجسادهم، والنتيجة المنطقية لهذا أن يكون نعيم أولئك الذين بعثوا من قبورهم ، نعيما لأجسادهم وأرواحهم، ونعيم الأجساد مادى لا محالة ، ولذلك يجب الإيمان بأن نعيم الجنة وعذاب النار ماديان ، وليسا معنويين فقط ، لأن البعث حق ، ويجب التنبه إلى أن حقائق اليوم الآخر سواء أكانت معنوية أم كانت مادية لاتتسع لها لغتنا ، وأى لغة من اللغات ، لأنها أعلى من مستوى حياتنا ، ونحن نعبر على ماهو من معايشنا ، وفيما هو فى طاقتنا .

ولكن تعبير القرآن عن الآخرة وما فيها هو باللغة العربية ، وإن كانت أعلى مما يستطيعه البشر .

ولذلك كانت تعابير العربية لتقريبها من مألوفنا ، ولكى نتسامى إلى معرفة ماينتظر المتقين من نعيم مقيم ، وما ينتظر العصاة من عذاب مهين .

ولقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: « فيها مالا عين رأت ، ولا

أذن سمعت » . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن عبارات القرآن ، فيما يتعلق بالجنة والنار ، مجازية فى ألفاظها .

ولكن مع إيماننا بهذه الحقائق ، يجب أن نقرر أن ما ذكر من رمان، وعسل مصفى وخمر لذة للشاربين ، هى مما يجوز إطلاق هذه الأسماء عليه ، ولكنه نوع آخر . ليس من جنس الأنواع فى حياتنا هذه ، وإن كان لها اسمها ، ولذا وصفت خمر الآخرة بأنهم لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، ولكن فيها لذة للشاربين .

هذه كلمات نقولها فى ختام بحثنا عن يوم القيامة ، وما يجرى من بعده من حساب وعقاب وثواب .

والقرآن الكريم روضة يانعة مستمرة فيها الحقائق عن الغيب كله بمقدار ماتدركه عقولنا ويقرب إلى أفهامنا ، والحقائق كاملة فى غيب الله ، اللهم اكتبنا من الشاهدين .

علم الحلال والحرام

١٧٤ – علم الحلال والحرام فى الإسلام مصدره القرآن ، وهو الشريعة العملية ، والأحكام التكليفية ومامن أمر شرع بالسنة إلا كان مرجعه إلى القرآن ، فهو كلى هذه الشريعة ، حتى لقد قال العلماء إنه لا يوجد حكم شرعى إلا كان له أصل فى القرآن ، والسنة النبوية الكريمة بينته ، أو شرحته ، ولقد طار بعض الملحدين بهذه الحقيقة . وزعموا أنه يمكن الاستغناء بالقرآن عن السنة وذلك هو الافتيات على الحقائق ، لأن السنة مبينة القرآن ، كما قال تعالى « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم[١] » وكما قال تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم[٢] » .

فإهمال السنة والاقتصار على الكتاب ضلال مبين ، أو تضليل أثيم ، إنما هما يتعاونان فى بيان أحكام الشريعة ، والسنة تفصيل لما أجمل الكتاب ، وتوضيح لما عساه لا تدركه الأفهام .

أمر الله تعالى بالصلاة ، ولم يذكر أركانها ، ولا شكلها ، وترك للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بيانها ، فبينها بالعمل ، وقال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » ، وتضافرت بذلك الأخبار عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وصار العلم بالأركان والكيف من أصول الدين ، والعلم بها ضرورى ، من أنكره فقد أنكر شيئاً علم من الدين بالضرورة ، فهو كافر ، وكذلك الأمر فى الزكاة ، ذكرت مجملة وبينها النبى صلى الله عليه وسلم . وطبقها وجمعها ، حتى إن من ينكرها ، يخرج عن الإسلام .

---

(١) النحل : ٤٤

(٢) النساء : ٦٥

١٧٥ — وقد ذكر القرطبي أن من أوجه إعجاز القرآن علم الحلال والحرام فيه ، وقد وافقناه على ذلك تمام الموافقة ، وذلك لأن ما اشتمل عليه القرآن من أحكام تتعلق بتنظيم المجتمع وإقامة العلاقات بين آحاده على دعائم من المودة والرحمة والعدالة ، لم يسبق به فى شريعة من الشرائع الأرضية ، وإذا وزنا ماجاء فى القرآن بما جاءت به قوانين اليونان والرومان وما قام به الإصلاحيون للقوانين والنظم بما جاء فى القرآن ، وجدنا أن الموازنة فيها خروج عن التقدير المنطق للأمور ، مع أن قانون الرومان أنشأته الدولة الرومانية فى تجارب ثلاثمائة سنة وألف من وقت إنشاء مدينة روما إلى ما بعد خمسمائة من الميلاد ، ومع أنه قانون تعهده علماء قيل إنهم ممتازون منهم «سولون» الذى وضع قانون أثينا ، ومنهم «ليكورغ» الذى وضع نظام اسبرطة .

فجاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه القرآن الذى ينطق بالحق عن الله سبحانه وتعالى ، من غير درس درسه ، وكان فى بلد أمى ليس فيه معهد ، ولا جامعة ، ولا مكان للتدارس وأتى بنظام للعلاقات الاجتماعية والتنظيم الإنسانى ، لم يسبقه سابق ، ولم يلحق به لاحق .

وقد كتبنا فى هذا بما فيه بيان للناس(١) . والآن نكتفى بالإشارة إلى موضوعات الأحكام من غير إطناب تتميماً لأجزاء الموضوع ، والتفصيل فى موضعه مما كتبنا .

---

(١) كتبنا فى ذلك رسالتين إحداهما بعنوان شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله ، ورسالة الملكية بالخلافة فى الشريعة والقانون الرومانى وقد طبعهما مجلس الشئون الإسلامية وترجمهما .

العـــدالة

١٧٦ — كل النظم الإسلامية قامت على العدالة ، إذ كانت الشعارات تدعو إلى التسامح ولو مع الظالم ويقول قائلها : استغفروا لأعدائكم ، فالإسلام يقول اعدلوا مع كل إنسان ولو كان عدوا مبينا . ومكان التسامح فى الأمور الشخصية ، لا فى الأمور التى تتعلق بتنظيم العلاقات الإنسانية ، ولذا يقول الله سبحانه وتعالى : « إن الله يأمر بالعـــدل والإحسان ، وإيتـاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون »[1] .

ولقد قال العلماء إن هذه الآية أجمع آية لمعـانى الإسلام ، ويروى فى ذلك أنه عندما شاعت دعوة النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم فى الأرض العربية ، وتناقلتها الركبان أرسل حكيم العرب أكثم بن صيفى ولده ليسألوا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم عما يدعو فتلا عليهم هذه الآية : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان» الآية فرجعوا إلى أبيهم وذكروا له ماسمعوا ، فقال الحكيم العربى : « إن هذا إن لم يكن دينا فهو فى أخلاق الناس أمر حسن ، كونوا يا بنى فى هذا الأمر أولا ، ولا تكونوا آخراً .

والعدل ليس موالاة الأولياء ، وظلم الأعداء إنمـا العدالة للجميع على سواء، والله تعالى يقول مخاطبا أهل الإيمان « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى»[1] فالعدالة مع الأعداء المبغوضين كحاله مع الأولياء المحبوبين أقرب للتقوى .

ويقول سبحانه وتعالى : « يأيهـا الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً ،

---

(١) النحل : ٩٠ (٢) المـائدة : ٨

فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً »[١] .

وإن هذه الآية تدل على أمور ثلاثة : أولها أن العدالة فى ذاتها مطلوبة لأنها أقرب القربات إلى الله تعالى ، والعدالة فى كل شىء وفى كل عمل ، ولذلك قال سبحانه وتعالى : كونوا قوامين بالقسط ، فى كل أعمالكم سواء أكنتم حكاماً أم كنتم محكومين ، وأن تكونوا شهـــداء لله لا لأنفسكم ، ولا لأوليائكم والأقربين منكم .

الأمر الثانى الذى تدل عليه الآية ، أن الإعراض عن الحكم ظلم ، أو تمكين للظالمين ، فالسكوت عن رد الباطل ظلم ، والمؤمن يجب عليه أن يقوم بالحق ، وأن ينصر الحق ، وأن يؤيد الحق حيثما كان .

الأمر الثالث الذى تدل عليه دلالة صريحة أنه لا طبقية فى الإسلام بالغنى والفقر ، فلا يكرم الغنى لغناه ، ولا يذل الفقير لفقره ، بل الجميع أمام العدالة على سواء ، « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء .

١٧٧ — ولا تفرقة بين العناصر فى تحقيق العدالة ، فالله سبحانه وتعالى خلق الخلق على ألوان مختلفة ، ولكنهم جميعاً خلق الله تعالى ، وإن اختلاف الألوان والألسنة من آيات الله تعالى الكبرى ، فهو يقول سبحانه فى كتابه العزيز الخالد بلفظه وحقائقه ، ومعانيه : « ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين[٢] » ، والجميع عباد الله تعالى ، فلا يصح أن يظلم زنجى للونه ، ولا يحابى أبيض لشقرته ولقد صرح بذلك القرآن ، فقال تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من

---

(١) النساء : ١٣٥
(٢) النحل : ٧١

ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم[1] » .

وإن هذا النص الكريم ينبىء عن ثلاثة معان سامية توجب المساواة بين الأجناس ، لأن الأصل واحد ، وهو الأم ، والأب ، كما قال النبي عليه السلام «كلكم لآدم ، وآدم من تراب لافضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » .

المعنى الثانى الذى دلت عليه الآية الكريمة أن الاختلاف فى الشعوب والقبائل والأجناس يوجب التعارف ، ولا يسوغ التخالف ، والتعارف يقتضى تعاون أبناء الأرض على استغلال كل ينابيع الثروة فى الأرض ، بحيث يفيض أهل كل إقليم على الآخر بفاضل ماعنده ، من غير بخس ولا شطط ، ومن غير منّ ، ولا أذى ، ويقتضى المساواة فى أصل الحقوق الإنسانية الثابتة من اتحاد الأصل ، ويقتضى العدالة ، ولا يرهق جنس آخر بظلم ، أو أذى أو مضايقة أو استعباد .

والمعنى الثالث الذى يدل عليه النص الكريم ، أن الفضل لا يكون بالجنس والعشيرة ، بل يكون التفاضل بالعمل الصالح ، الذى يتقى بهصاحبه وجه الله تعالى ، والذى لا يريد به إلا النفع العام ،ودفع الفساد فى الأرض فالإكرام ليس باللون ، ولا بالسامية أو الآرية ، إنما الإكرام بالعمل لخدمة الإنسانية ،وإن النصوص القرآنية كلها تدعو إلى التراحم بين الناس، فالله تعالى يقول : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً[3] » .

ونص القرآن على الوحدة الإنسانية ، فقال تعالى : « كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين[4] » .

---

(١) الروم : ١٣٥ (٢) الحجرات : ١٣
(٣) النساء : ١ . (٤) البقرة : ٢١٣

العدالة الدولية

١٧٨ — والعدالة كما تكون بين الآحاد تكون بين الجماعات والدول فقد قامت العلاقة بين المسلمين وغيرهم على أساس العدالة . فلا يظلمون شيئاً ، ولا يمنعون من خير ، والناس جميعاً نسبتهم إلى الله واحدة لقد كانت الدول حتى التي بلغت شوطاً من الحضارة فى عهد نزول القرآن كالفرس والرومان واليونان لا تعترف بأى حق لغير المستوطنين معهم ، فغيرهم يعدون برابرة ، وليسوا منهم فى شىء حتى إن الإسرائيليين الذين يعيشون فى حكم الرومان لا يعتبرون رومانيين ، ولا يمنحون هذه الرعوية ، وتلك الجنسية، باعتبار أن الجنسية الرومانية شرف لا يحوزه إلا الرومان ، وكذلك كان الفرس .

وإن من يعيش فى بلد آخر يسترقونه ، حتى إن أفلاطون جرى عليه الرق ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه قبل الإسلام قد ذهب إلى أرض الروم فاسترقه قسيس رومانى ، وأظهر عمر الاستسلام ، حتى اطمأن إليه القسيس وخرج معه إلى الصحراء فى أرض الشام ، فلوى عمر رقبته ـ وكان قوياً فى بدنه ، كما صار من بعد قوياً فى دينه ـ وقتله ، وهرب بحريته .

جاء القرآن الكريم فحارب التعصب القبلى ، والتعصب الجنسى، والتعصب الإقليمى ، وجعل الناس كما رأيت أمة واحدة ، لا فرق بين عربى وغير عربى ، كما أشرنا .

وقامت بذلك العلاقة الدولية على أسس العدل ، قال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين[1]» وقال جل وعلا « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين[2]» .

---

(١) البقرة : ١٩٠ (٢) البقرة : ١٩٤

وقال تعالى : « وإن عاقبتم ، فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين[1] » .

وقد نهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن العصبية الجاهلية ، وبالأول كان النهى عن العصبية الإقليمية ، ولقد سئل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : أمن العصبية أن يحب الرجل قومه ، قال : لا ، وإن من العصبية أن يعين قومه على الظلم .

وسيكون لذلك شيء من البيان عندما نتكلم عن العلاقات الدولية التى نظمها القرآن .

ومهما يكن من إيجاز فى هذا المقام ، فإنه يجب أن نشير إلى أن شرائع القرآن قسمان عبادات ومعاملات مالية واجتماعية ، وأساس العلاقات المالية والاجتماعية العدالة .

---

(١) النحل : ١٢٦

الأحكام الفقهية فى القرآن

١ — العبادات :

١٧٩ — قد ذكر القرآن الأوامر التكليفية فى العبادات بالإجمال ولم يتعرض لها بالتفصيل كما أشرنا من قبل ، فالصلاة ، تعرض النص القرآنى لها بالأوامر بالتكليف بها ، والغاية منها ، وهو إصلاح النفوس ، وتزكية القلوب ، وتربية الوجدان ، كما قال تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر[١] » ، وكما قال تعالى فى وجوبها ووجوب الوضوء والاغتسال « إذا قمتم إلى الصلاة ، فاغسلوا وجوهكم ، وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين . وإن كنتم جنبا فاطهروا ، وإن كنتم مرضى أو على سفر ، أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء ، فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا[٢] » .

وجاء الأمر المؤكد بالصلاة فى قوله تعالى « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، وقوموا لله قانتين[٣] » .

وكذلك كان الأمر بالزكاة مجملا ، ولم يبين القرآن شيئاً من أحكامها ، ونصابها ومقاديرها ، ولم تذكر إلا مصارفها فى قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين وفى سبيل الله ، وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم[٤] » .

والحج من العبادات التى لم تبين أحكامها كلها تفصيلا ، بل ذكر القرآن بعضها ، وإن لم يكن قليلا ، وبين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سائرها ،

---

(١) العنكبوت : ٤٥

(٢) المائدة : ٦

(٣) البقرة . ٢٣٨

(٤) التوبة : ٦٠

وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم « خذوا عنى مناسككم » لقد بين القرآن أركان الحج وأشهره وموقفه ، وهديه ، والنبي عليه الصلاة والسلام فصل واجباته ، وكان بيانه أكثره عملى .

ومن العبادات الصوم ، وقد طالب القرآن به إجمالا ، وذكر وقته ، والأعذار التى تبيح الفطر فى الجملة ، وأشار سبحانه إلى حكمة اختيار شهر رمضان لفرضية الصوم،كما قال تعالى : «شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر ، فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفر ، فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العـــدة ، ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون »[1] .

وهنا يرد على الخاطر سؤال لماذا بينت العبادات بالقرآن إجمالا مع تأكيدطلبها، والتفصيل فيها إن استثنيت الحج، كان قليلا ، ولا يمكن أن تقام العبادة على وجهها مع ذلك الإجمال .

والجواب عن ذلك أن العبادات هى لب الدين ، وهى قوام اليقين ، وهى ذكر الله الذى به تطمئن القلوب ، وهى التى تربى الضمير وتنيره ، وتقيمه،وهى التى تربى الضمير الجماعى ،والوجدان الإنسانى،وروح التعاون بين الناس بعضهم مع بعض .

والعبادات هى قوام الجماعات ، لأن تكوين الجماعات لا يكون إلا بأمر معنوى يؤلف بينهم ، ويزيل النفرة ، وذلك بأن يكون المؤمن ربانياً يتجه إلى رب الخلق ، ويسير على ميزان الحق .

ولهذه المعانى فى العبادات ، وعموم تطبيقها على كل المؤمنين ، كان لابد من تربية عملية عليها ، وقدوة حسنة فى تنفيذها ، وأسوة من الرسول

---

(١) البقرة : ١٨٥

فى القيام بها ، وأن تتوارث تلك الأسوة الأجيال ، وتكون مع القرآن اتصال الرسالة المحمدية ، ولذلك تثبت أحكام العبادات التفصيلية بسنة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المتواترة التى عرفها المسلمون جمعاً عن جمع باقية إلى يوم القيامة .

ولا شيء من العبادات يثبت بالقياس ، بل يثبت بإيجاب القرآن، وعمل الرسول عليه السلام .

٢ — الكفارات .

١٨٠ — الكفارات ، وهى تأخذ جانبين : جانب العقوبة المادية على ذنب ارتكب ، أو خطأ ترتب عليه أذى غيره ، وكان يجب الاحتراس من ذلك ، والجانب الثانى فيها معنى التقرب إلى الله تعالى بالتوبة مقرونة بذلك الجزاء ، ولقربها من العبادات ذكرناها بجوارها ، وفوق ذلك هى دره لتقصيرات فى العبادات نفسها ، فهى فى هذه جزء منها .

وعلى ذلك نقسمها من هذه الجهة إلى قسمين أحدهما تعويض عن التقصير فى بعض العبادات ، أو استعمال الرخص ، أو العجز الكامل عن أداء الفرض ، ومن هذا القبيل رخصة الإفطار للمريض بمرض مزمن، والشيخ الفانى والشيخة إذا عجزا عن الصيام أو كانا لا يصومان إلا بمشقة فوق الطاقة، وقد ثبتت هذه الفدية بالقرآن الكريم، قال تعالى فيه «وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين»(١) أى الذين يبلغون فى صومهم أقصى الطاقة التى لا يمكن المداومة على تحملها ، ولذا قال ابن عباس إنها نزلت فى الشيخ والشيخة إذا شق عليهما الصوم، ومن الفدية التى تعد كفارة لبعض التقصيرات فى العبادات الهدى فى حال عدم القيام ببعض الواجبات التى لا تعد ركناً من أركان الحج ، وقد ثبت ذلك بالقرآن الكريم ، وعمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومن ذلك كفارة الصيد فى

---

(١) البقرة : ١٨٤

الحرم ، وقد ثبتت بالقرآن أيضاً ، إذ قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ، ليعلم الله من يخافه بالغيب ، فمن اعتدى بعد ذلك ، فله عذاب أليم ، يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمداً ، فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مساكين ، أو عدل ذلك صياماً ليذوق وبال أمره ، عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام ، أحل لكم صيد البحر ، وطعامه متاعاً لكم وللسيارة ، وحرم عليكم صيد البر ، مادمتم حرما ، واتقوا الله الذى إليه تحشرون »[1] .

وهكذا ترى أن الكفارات هنا ثابتة بالقرآن الكريم ، وهى فى موضوع وهى سد لنقص ، أو لاعتداء فى عمل ما نهى الله تبارك وتعالى عنه .

وبجوار هذا النوع من الكفارات التى كانت درءاً النقص أو لرخصة أو لعدم الاستجابة لأمر ، وموضوعها العبادة هناك كفارات أخرى هى فى معنى العبادات فى ذاتها ، ولكنها شرعت لمعنى خلقى أو اجتماعى أو لحقوق العبادات وهذا هو القسم الثانى .

ومن ذلك كفارة اليمين ، وهى عتق رقبة ، أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم ، وقد ثبت ذلك بقوله تعالى « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ، واحفظوا أيمانكم[2] » .

---

(١) المائدة : ٩٤ — ٩٦

(٢) المائدة : ٨٩

وترى أن هذه الكفارة شرعت لمعنى خلقي ، وهو صيانة الألسنة عن كثرة الأيمان وإخلافها ، والتعرض للمهانة ، كما قال تعالى : « ولا تطع كل حلاف مهين[1] » وأيضاً ، لكيلا يتخذ المؤمنون يمين الله حاجزاً بينهم وبين فعل الخير ، إن حلفوا ، وبدا الخير في غير ما حلفوا عليه ، فشرع لهم تلك الكفارة تحلة لأيمانهم ، كما قال عليه السلام : « من حلف على شيء فرأى خيراً منه ، فليحنث وليكفر » .

وإن الكفارة ذاتها عبادة بدليل أنها كانت صوما في بعض أحوالها .

ومن الكفارات التي ذكرت في القرآن علاجا إحياء الأسرة ، ولمنع الظلم عن المرأة كفارة الظهار ، وهي كفارة من يحرم امرأته على نفسه ، ويجعلها كأحد محارمه من غير إرادة طلاق ، وما كان لشريعة القرآن أن تترك المرأة المظلومة فريسة لكلمات ينطق بها اللسان إيذاء . وظلما ، ولا يترك المتكلم بها من غير عقاب لغواً عابثاً ، بل لا بد من رد الحق ، وعقاب العابث ، فكانت الكفارة ، وتثبت بقوله تعالى : « والذين يظاهرون من نسائهم ، ثم يعودون لما قالوا ، فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير فمن لم يجد ، فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع ، فإطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب إليم »[2] .

ونرى أن هذه الكفارة فيها إقامة للحياة الزوجية على دعائم من المودة والأنس النفسي من غير إيحاش ولا إعنات ، لأن النطق بهذه الكلمات وأشباهها ، يلقي بالجفوة في قلب الزوجة فلا تطمئن إلى زوجها ، ولا إلى

---

(١) القلم : ١٠

(٢) المجادلة : ٣ — ٤

الحياة الزوجية الكريمة المتوادة ، ولهذا كانت تلك الكفارة محافظة على هذه المعانى .

ومن الكفارات التى نص عليها القرآن الكريم كفارة القتل الخطأ ، فإن الله أوجب الدية تعويضاً لأسرة المقتول وأوجب الكفارة إذا كان القاتل المخطىء من أهل التكليف ، وذلك لتعويض جماعة المؤمنين ، ولتربية النفس على الاحتراز من الخطأ ، والاحتياط له ، ولقد قال سبحانه وتعالى فى ذلك :

« ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله ، وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، توبة من الله ، وكان الله عليما حكيما »[1] .

وواضح أن الدية لتعويض الأسرة ، وهى تجب على أسرة الجانى لأسرة المجنى عليه ، وفى وجوبها على أسرة الجانى معنى التعاون الاجتماعى بين الأسرة فى دفع الأذى ، والحمل على المعاونة فى التأديب النفسى .

والكفارة فيها تعويض لجماعة المؤمنين ، لأنه بقتله المؤمن قد نقص عدد المؤمنين ، فكان الواجب أن يعوض ما نقص بعتق رقبة مؤمنة ، لأن العتق ، إعطاء الحرية ، والحرية كالحياة .

وفى الجملة إن الكفارات كلها التى جاء بها القرآن ، وبينتها السنة النبوية فيها معنى العبادة ، وفيها صلاح ، وفيها تعاون اجتماعى إنسانى .

---

(١) النساء : ٩٢

٣ - فى الأسرة

١٨١ - قبل أن نتلو الآيات الكريمة التى تصدت لأحكام الأسرة وتنظيم العلاقات بين آحادها ، أو نشير إلى بعض تلك الآية الكريمة لا بد أن ننبه إلى أمرين :

أولهما ما ذكرناه آنفاً من أن العبادات قد ذكرت فى القرآن إجمالا وترك أمر بيانها للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأشرنا إلى ما أدركنا حكمته لعمل الله تعالى فى شرعه وبيان أحكامه .

الأمر الثانى - أن الأسرة ذكرت أحكامها تفصيلا من وقت تكوينها بعقد الزواج إلى أن يقرر الله تعالى التفريق بالموت ، أو الطلاق ، وذكر أحكام الأسرة الممتدة غير المقصورة على الزوجين ، وما بينته السنة لا يعد كثيراً بالنسبة لما بينه القرآن الكريم .

ثم ذكر القرآن الكريم توزيع المال فى آحاد الأسرة ، وفى الميراث ، ويكاد القرآن الكريم يستغرق كل أحكامه فى تفصيل لا إجمال فيه .

وهنا يسأل سائل ، لماذا كان التفصيل فى أحكام الأسرة ، ولم يترك أمرها لبيان النبي عليه السلام فقط ، ونقول فى الجواب عن ذلك إن هذه حكمة علام الغيوب ، وإننا نتلمس معرفة بعض هذه الحكمة ، راجين ألا نكون داخلين فى النهى فى قوله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا »[١] .

وإن هذا بلا ريب من عناية القرآن الكريم بالأسرة ، إذ جاء النص على أحكامها بآيات محكمة ، وإذا كانت عناية الإسلام بالعبادات ، جعلت أحكامها عملية يتولى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لتربى النفوس عليها بالدربة

---

(١) الإسراء : ٣٦

والتهذيب ، لا بمجرد التلقين، فعناية الإسلام بالأسرة كانت بالنص الكامل على نظامها ، لكيلا ينحرف الناس بأهوائهم عنها، ولكيلا ينكروا تطبيقها ويجعلوا لعقولهم سبيلا للتحكم فى أموالها ، ونظامها ، ولأنها متصلة بالرضا والغضب بين الزوجين والأقارب ، فكان لابد من ميزان مقرر ثابت يحكم الأهواء ، ويضع الأمور فى مواضعها.

وإن أحكام الأسرة مؤثرة فى المجتمع وموجهة له لأن الأسرة هى دعامة البناء الاجتماعى يضطرب باضطرابها ، ويقوى بقوتها ، ولأن الإسلام جاء لإقامة مجتمع فاضل تربطه المحبة ، وتوثق روابطه المودة ، كانت عنايته بأحكام الأسرة ، وأن تكون مستقرة يتصل فيها ماضى الأمة بحاضرها .

ومن الناس من ظنوا أنهم يستطيعون إقامة بناء صالح للأسرة من غير أن يتقيدوا بأحكام القرآن الكريم باسم مايسمونه « تطور الزمان » يقلبون فيه الأوضاع ، فتضطرب الموازين ، ومن الناس من يبالغون فى إعطاء المرأة حقوقاً لاتقتضيها فطرتها ، ولا النظام الاجتماعى ، ويحسبون أنهم يسيرون بالجماعة إلى الأمام ، وهم يرجعون بها إلى الوراء ، حيث تفسد الطبائع وتخالف الفطرة .

ولقد يقول بعض علماء الاجتماع إن النشأة الأولى فى جاهلية الإنسان كان فيها السلطان على الأولاد للمرأة كأنثى الحيوان ، أو أكثره ، حتى إذا عرف البيت ، وانتظمت العلاقة بين الرجل والمرأة ، وكان لكل واحد منهما ، ماهيأته الفطرة له ، فالمرأة ترأم الأولاد ، وتقوم على رعايتهم ، والأب يكدح ويعمل ليوفر لهم الرزق .

والآن يحاولون أن يقلبوا الأمور ، ويضعوها فى غير مواضعها حتى لقد قال بعض المفكرين إننا لو سرنا خطوات بعد ما ابتدأنا السير فيه ،

وأوغلنا ، فستعود الأمور إلى سيطرة المرأة على البيت ، ويكون الرجل غير مستقر فى بيت ، ويكون نظام المسافدة

من أجل هذا فيما ندرك وعلى قدر إدراكنا نص القرآن الكريم على أحكام الأسرة بالتفصيل ، حتى لا يتهجم المنحرفون ليشرعوا لأنفسهم مالم يشرع الله ، ويفسدوا الفطرة .

ولقد كان سبحانه وتعالى بعد ذكر بعض أحكامها يقول جل شأنه : « تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار[1] » ومن ذلك قوله تعالى بعد بيان المواريث : « يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم »[2] .

١٨٢ — وأحكام الأسرة التى تعرض لها القرآن تبتدىء من وقت إنشاء الزواج أو التفكير فيه ، فأوجب الإعلان فى الزواج ، فقال تعالى « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ، أو أكننتم فى أنفسكم ، علم الله أنكم ستذكرونهن ، ولكن لا تواعدوهن سراً إلا أن تقولوا قولا معروفاً ، ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله ، واعلموا أن الله يعلم مافى أنفسكم فاحذروه ، واعلموا أن الله غفور حليم »[3].

وبين سبحانه وتعالى فى كتابه أن المهر واجب على الرجل ، لأن كل الواجبات المالية على الرجل ، حتى لا تبتذل المرأة فى كسب المال فتتدلى الى الهاوية ، وقد قال تعالى فى ذلك : وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا ، فكلوه هنيئاً مريئاً »[4] وقرر أن المرأة مستحقة للمهر كاملا بالدخول بها . وقد قال تعالى فى ذلك :

---

(١) النساء . ١٣
(٢) النساء . ١٧٦
(٣) البقرة . ٢٣٥
(٤) النساء . ٤

« وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ، وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً »[١] .

وإذا لم يتم بينهما عشرة زوجية ، وكان تفرق قبل الدخول ، فإن المرأة لا تحرم من المهر حرماناً كاملا ، بل يبقى لها نصفه ، ولأن الرجل لم تقم بينهما حياة زوجية يشتاران عسلها ، فإنه يسقط عنه النصف وذلك ما قاله سبحانه فى القرآن الكريم ، إذ يقول : « لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن ، أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين ، وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، وقد فرضتم لهن فريضة ، فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ، وأن تعفوا أقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم ، إن الله بما تعملون بصير »[٢] .

والقرآن الكريم بين من يحل الزواج منهن ، ومن لا يحل بالنص وبعض البيان كان مستغلقا على بعض الأفهام ، فبينه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اقرأ قوله تعالى :

ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ، إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا . حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم ، وبنات الأخ وبنات الأخت ، وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم ، وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن ، فلا جناح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف ، إن الله كان غفوراً رحيما ، والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم ، كتاب الله عليكم ، وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ، فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ،

---

(١) النساء : ٢٠ — ٢١

(٢) البقرة : ٢٣٦ — ٢٣٧

ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ، إن الله كان عليما حكيما ، ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ماملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ، ولا متخذات أخدان ، فإذا أحصن ، فإن أتين بفاحشة . فعليهن نصف ماعلى المحصنات من العذاب ، ذلك لمن خشي العنت منكم ، وأن تصبروا خير لكم ، والله غفور رحيم ، يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم[1] » .

ولأن الإسلام يريد مجتمعاً فاضلا طاهراً ، لا تشيع فيه الفاحشة أباح تعدد الزوجات إلى أربع فقط ، وقد كان من قبله إلى غير عدد محدود ، كما ذكرت التوراة فقال تعالى :

« وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى ، فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا[2] » أى لا تظلموا .

وشرط إباحة الزواج فى الأحوال كلها العدالة سواء أكان الزواج الأول أم الزواج الثانى ، ولقد أجمع الفقهاء على أن من تأكد أنه سيظلم امرأته إن تزوج يكون آثما لأن الزواج حينئذ يكون موصلا للظلم فيأخذ حكمه ، ولكن الزواج لا يبطل ، وليس للحاكم أن يقرر بطلانه ، أو يمنعه ، لكن إذا وقع الظلم بالفعل كان للقاضى أن يفرق بينهما إن طلبت الزوجة ذلك . وذلك لمقام النهى فى قوله تعالى: « ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولا تتخذوا آيات الله هزوا[3] » .

---

(١) النساء : ٢٢ — ٢٦

(٢) النساء : ٣

(٣) البقرة : ٢٣١

١٨٣ — والإسلام إذ جعـل دعامة العلاقات الاجتماعية الأسرة فقد دعمها القرآن بوصاياه الحكيمة التى يأثم كل الإثم من خالفها، وتجانف لإثم فى العلاقة الزوجية.

أولا: أمر الأزواج بالعدل وحسن المودة، والعشرة الطيبة التى تقرب القلوب وتدنيها، ولا تنفرها وتجنبها. فقال تعالى: «وعاشروهن بالمعروف، فإن كرهتموهن، فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً[1]» وقال تعالى: «فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف»[2] وقد تلونا ذلك آنفـاً.

وأمر سبحانه وتعالى ثانيا: كلا الزوجين أن يعمل على إصلاح الآخر، إن بدا منه اعوجاج، فيقول سبحانه فى القرآن العظيم «ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن، وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء التى لا تؤتوهن ما كتب لهن، وترغبون أن تنكحوهن، والمستضعفين من الولدان، وأن تقوموا لليتامى بالقسط، وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما، وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً، فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير، وأحضرت الأنفس الشح، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا، ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء، ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل، فتذروها كالمعلقة، وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيما، وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته. وكان الله واسعا حكيما.

وأمر ثالثاً: بعلاج نشوز الزوجة، وعلاج نشوزها إن لم يتمكنا من الإصلاح بينهما من غير إطلاع غيرهما عليهما الا أن يكون من أهل الخير أو الجيران الصالحين، فقال تعالى:

---

(١) النساء: ١٩

(٢) البقرة: ٢٣١

«الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتى تخافون نشوزهن ، فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع وأضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان علياً كبيرا[١] .

وأمر سبحانه فى القرآن رابعاً : لإخراج حكمين إن كان الشقاق متوقعا ، ويخشى استمراره ، فقال تعالى :

« وإن خفتم شقاق بينهما ، فابعثوا حكما من أهله ، وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا[٢] .

والإسلام وزع واجبات الحياة الزوجية بين الزوج والزوجة توزيعا عادلا يتفق مع الفطرة من غير ظلم للمرأة ، ولا إرهاق ولا إذلال لها ، فجعلها قوامة على البيت تديره وتدبره ، وتربى ثمرة الزواج ، وعلى الرجل الإنفاق ، ولقد قال تعالى فى ذلك « أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ، وإن كن أولات حمل ، فأنفقوا عليهن ، حتى يضعن حملهن ، فإن أرضعن لكم ، فآتوهن أجورهن ، وأتمروا بينكم بمعروف ، وإن تعاسرتم ، فترضع له أخرى ، لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه ، فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا[٣]» .

١٨٤ — ولقد تعرض القرآن لثمرات الزوجية ، وهى الأولاد ، وقد تعرض لبيان حالها ومدة الحمل ، والرضاع ، وحال الأم فى حال الحمل ، فقال تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ، حتى إذا بلغ أشده ، وبلغ أربعين

---

(١) النساء : ٣٤

(٢) النساء : ٣٥

(٣) الطلاق : ٦ — ٧

سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك ، وإنى من المسلمين[١]» . وإن القرآن الكريم بين وقت إرضاعه وعلى من تجب ، وعلى نفقة الولد ، وعلى من تجب ، فيقول سبحانه .

«والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ، لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها ، لا تضار والدة بولدها ، ولا مولود له بولده ، وعلى الوارث مثل ذلك ، فإن أراد فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما ، وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ، واتقوا الله ، واعلموا أن الله بما تعملون بصير[٢]» .

ولقد عنى الإسلام بالمحافظة على الأولاد ، إذا فقدوا آباءهم ، وهم اليتامى ، وعنى منهما بأمرين .

أولهما : المحافظة على أموالهم ، فيقول تعالى : «ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن»[٣] ويقول سبحانه «وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ، إنه كان حوبا كبيراً[٤]» ولحرص الإسلام على أموال اليتامى من أن تتبعثر أو أن تذهب ، نهى الأوصياء عن أن يعطوهم أموالهم قبل أن يدربوهم على إدارة أموالهم ، فقال تعالى : «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ، التى جعل الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها ، واكسوهم ، وقولوا لهم قولا معروفا ، وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ، ولا تأكلوها

---

(١) الأحقاف . ١٥
(٢) البقرة . ٢٣٣
(٣) الأنعام . ١٥٢
(٤) النساء . ٢

إسرافا وبداراً أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ، فإذا دفعتم إليهم أموالهم ، فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيبا ، للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه ، أو كثر نصيبا مفروضا ، وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين ، فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا ، وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم ، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً ، إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً »[1] .

وهكذا نجد القرآن حث على المحافظة على أموال اليتامى ، ونظم طريق المحافظة عليها ، بعد أن تسلم إليهم .

الأمر الثانى الذى حث عليه القرآن الكريم بالنسبة لليتامى أنه منع قهرهم ، وإذلال نفوسهم ، لكيلا تكون لهم عقد نفسية تحول بينهم وبين الاندماج فى الأمة ، ولذلك أمر الله نبيه بألا يقهر يتيما ، فقال تعالى : «فأما اليتيم فلا تقهر »[2] .

وقد أمر المؤمنين الصادقين أن يضموا اليتامى إلى أسرهم ، ويكونوا كأولادهم ، حتى لا يشعروا بذل اليتم ، فقد قال تعالى «ويسألونك عن اليتامى ، قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ، ولو شاء الله لأعنتكم »[3] .

وعنى الإسلامى باليتامى لكيلا ينشئوا نافرين من الجماعة فيكون منهم المشردون ، وقطاع الطرق ، ويكونون حرباً على أمنها ، فيكونون ذئاب الجماعة ، وهم إن أحسنت تنشئتهم يكونون قوة عاملة ، نافعة .

---

(١) النساء : ٥ — ١٠

(٢) الضحى : ٩ (٣) البقرة : ٢٢٠

وكذلك الأمر في كل مسكين أذلته الحاجة وقهره الفقر ، فإنه يكون قوة إن أكرم وعاملا هداما إن قهر ومنع ، وهؤلاء هم العقبة إن لم يكرموا ولذلك قال تعالى « فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة فك رقبة ، أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا ، وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة »(١) .

وكما أوجب الإسلام رعاية اليتامى ، والقيام على شئون الأولاد ، وتربيتهم على المودة والرحمة والنزوع الاجتماعي أمر الأولاد بإكرام الوالدين ، والإحسان إليهما ، ولو كانا كافرين ، ولذلك ترى ، أن الأمر بالإحسان إلى الوالدين يقترن بالأمر بعبادة الله وحده ، ومن ذلك قوله تعالى : «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا » .

ويذكر الله تعالى من وصايا لقمان لابنه : «وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ، ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن ، وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب إلي ، ثم إلى مرجعكم ، فأنبئكم بما كنتم تعملون »(٢) .

ولقد حرص القرآن على الوصية بالوالدين عندما يصيبهما الضعف ، ويكونان في حاجة إلى النظرة الرفيقة الطيبة ، فيقول سبحانه في كتابه الكريم : وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما »(٣) .

---

(١) البلد : ١١ — ١٧

(٢) لقمان : ١٣ — ١٥

(٣) الإسراء : ٢٣

وهكذا يربى القرآن الكريم الأسرة ، ويقيمها على دعائم من المودة ، والرحمة ، ورعاية القوى للضعيف ورحمة الكبير بالصغير ، وإكرام الصغير للكبير ..

انهاء الحياة الزوجية غير الصالحة :

١٨٥ — تقوم الحياة الزوجية فى الإسلام على أساس المودة الواصلة والرحمة بين الزوجين ، وتنشئة الأولاد على نزوع الرحمة والتآلف ، والائتلاف بالمجتمع ، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك فى قوله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة »(١) .

ووصف سبحانه وتعالى العلاقة بين الزوجين بقوله تعالى : «هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهن» ، وأثبت أن التزاوج للإنسال والرحمة بين الناس ، فقال تعالى فيما تلونا من قبل : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا »(٢) .

وإذا كانت العلاقة الزوجية تقوم على المودة والتفاهم ، لا على المباغضة والتنافر ، فإنه إذا تنافرت القلوب ، وأصبحت غير قابلة للالتئام ، فإن بقاء هذه الحياة ليست فى صالح الأسرة . ولا فى مصلحة المجتمع المتواد المتراحم ، ولقد عالج القرآن كما رأينا هذه الحال عندما تنشعب القلوب ، فإذا لم يجد علاج بينهما ولا علاج من ذويهما ، فإن الإنهاء أولى من الإبقاء ، ولذلك قال تعالى فيما تلونا ، « وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته(٢)» فعندئذ يكون الطلاق أمراً غير محظور .

---

(١) الروم : ٢١

(٢) النساء . ١

(٣) النساء ١٣٠

ويلاحظ أنه عند الطلاق الذى يكون بيد الرجل عندما تحل البغضاء محل المودة أنه لا بد من تحقيق أمور ثلاثة :

أولها — التسريح يكون بإحسان من غير مشاحة ، ولا معاندة ، فقد تلونا قوله تعالى : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ، فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا»(١) .

والإحسان يوجب أن يعمل على أن تكون نفسها طيبة بإنفاق مال عليها ويكون متعة طلاقها ، وقد أوجبها القرآن فى قوله تعالى : «وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون »(٢) .

ولقد أوجب الشافعى وأحمد بمقتضى هذه الآية المتعة لكل مطلقة مدخول بها . وذلك نص كتاب الله تعالى .

الأمر الثانى الذى أوجبه القرآن الكريم أن يكون الطلاق رجعياً ، بحيث يكون للمطلق الحق فى أن يرجع زوجه إليه قبل انتهاء عدتها ، وهى فى الغالب تقدر بنحو ثلاثة أشهر تقريبا ، هى مقدار ثلاث حيضات ، وقد ثبتت الرجعة بقوله تعالى : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر ، وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك ، إن أرادوا إصلاحا ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة ، والله عزيز حكيم ، الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان»(٣) .

وإن هذه الآيات الكريمة صريحة فى أن الطلاق يكون رجعياً ، وأن الأجل للرجعة هو ثلاثة قروء أى ثلاث حيضات ولكن تحتسب الطلقة

---

(١) البقرة : ٢٣١
(٢) البقرة . ٢٤١ — ٢٤٢
(٣) البقرة . ٢٢٨ — ٢٢٩

من ضمن ثلاث الطلقات التي يملكها . وإن الرجعة تثبت فى الطلاق الأول والثانى ، أما الثالث فلا رجعة فيه .

ولقد قال تعالى فى ثبوت الرجعة أيضاً : «يأيها النبي إذا طلقتم النساء ، فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله، ومن يتعد حدود الله ، فقد ظلم نفسه ، لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ، فإذا بلغن أجلهن ، فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف ،وأشهدوا ذوى عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله ، ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومن يتق الله يجعل له مخرجا، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدراً »[1] .

وهذه الآيات تدل على ثلاثة أمور : أولها ـ أن الطلاق لا يكون إلا رجعياً ، وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله تعالت كلماته : « لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » وأن الطلاق حيث يمكن الرجوع من حدود الله التى لا يجوز أن يتعداها المكلف .

وثانيها ـ أن الإشهاد على الرجعة واجب حتى تكون المرأة على علم بالرجعة ، وحتى تشتهر بين الناس إعادته الحياة الزوجية ، ولأن شرط صحة الزواج الشهادة . فيكون شرط إعادته الشهادة أيضاً .

وثالثها ـ أنها لا تخرج من بيت الزوجية ، ولا يخرجها منه .

وذلك هو الأمر الثالث الذى قررنا أن القرآن أوجبه .

الخلع :

١٨٦ ـ واضح من هذا أن الرجل إذا نفر من زوجته ولم يكن سبيل

---

(١) الطلاق : ١ ـ ٣

لإزالة نفرته كان له أن يطلق فى الحدود التى بيناها . ومع الواجبات التى أوجبها القرآن ، فإذا نفرت المرأة من عشرة الزوج ، فهل تبقى مع هذه النفرة ، التى حاول الزوجان ، وذووهما إزالتها ، فلم يستطيعوا ، هنا تجلت العدالة التى قررها الله تعالى فى قوله تعالى : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف »(١) وكما أن الرجل له أن يوقع الطلاق إذا نفر من زوجته وتأكدت النفرة ، وشدد فى أن يكون الطلاق رجعياً . لأنه عسى أن تكون النفرة لأمر عارض وقد زال ، فهو أحق بامرأته .

إذا كان الأمر كذلك فى الطلاق عند نفرة الرجل ، فإنه يفرض أن هذه النفرة قد تكون منها وتكون العشرة مباغضة ، ومع المباغضة العنت ، لذلك شرع الخلع ، وكان الخلع بالاتفاق بينهما ، وقد يكون بحكم القاضى إن ترافعا إليه .

ولماذا كان الخلع فى حال نفرة المرأة ؟ الجواب عن ذلك أن الرجل ينفق فى سبيل الزواج مالا ، وقد يكون كثيراً ، وذلك بحكم القرآن ، وقد يكون كل ما يملك ، ويستقبله زواج آخر يقيم به حياة زوجية ، بدل هذه الزوجية التى أبغضت فيها المرأة ، ولا يمكن العشرة مع بغضها ، فكان لابد من أن يأخذ ما أنفق أو بعضه .

وهذا هو الخلع ، وقد شرعه الله سبحانه وتعالى بقوله : « ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فإن خفتم ألا يقيما حدود الله ، فلا جناح عليهما فيما افتدت به ، تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله ، فأولئك هم الظالمون »(٢) .

الطلاق ثلاث مرات :

١٨٧ — شرع الله الطلاق ثلاث مرات . سواء أكان بإيقاع الزوج

---

(١) البقرة : ٢٢٨ .

(٢) البقرة : ٢٢٩

منفرداً ، أم كان باتفاقهما فى الخلع ، أو بحكم القاضى فإذا وقعت الطلقات الثلاث بثلاث مرات ، فإنها لا تحل له إلا بعد أن تتزوج زوجاً غيره بزواج شرعى صحيح على نية البقاء ، لا على نية التوقيت ، ثم طلقت من بعد لأمر عارض أو توفى عنها زوجها ، فإن لهما أن يتزوجا من بعد ، ذلك ما بينه سبحانه وتعالى بقوله تعالت كلماته ، وتسامت أحكامه « فإن طلقها ، فلا تحل له من بعد ، حتى تنكح زوجاً غيره فإن طلقها ، فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله . وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون (١) .

وكان تحريمها بعد الطلقة فى المرة الثالثة ، لأنها تدل بعد التجربة على أن الحياة لا تستقيم بينهما على ما هما عليه ، من أخلاق ، أو تنافر ، فكان لا بد من تجربة تكون شديدة عليهما إن كان ثمة محل للصلاح ، أو احتمال له . وكانت تلك التجربة أن تتزوج آخر . فإن كانت الإساءة من جانبها كانت عشرة الآخر مهذبة لها أو مقررة لما كان منها ، وإن كانت الإساءة من جانبه ، فإنه يراها فى أحضان رجل آخر ، فيثير ذلك أسفه على ما كان منه .

فإن انتهت التجربة ، وتلاقيا من بعد ، كان ذلك بعد تهذيب فى تجربة شديدة .

العدة :

١٨٨ — إذا تم الافتراق بين الزوجين سواء أكان المفرق هو الموت أم كان المفرق هو الطلاق ، فإنه لا بد من عدة تنتظر المرأة فيها ، فلا تتزوج زوجاً آخر ، استبراء لرحمها من مظنة الحمل ، وإحدادا على الزواج السابق وليتمكن الرجل فيها من مراجعة نفسه إذا كان الطلاق رجعياً .

وإذا كانت المرأة حاملا ، فالعدة تكون بوضع الحمل ، لقوله تعالى : « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن (٢) » ، سواء أكان الفراق

---

(١) البقرة : ٢٣٠ (٢) الطلاق : ٤

بالطلاق أو الخلع ، أم كان بالموت ، ورأى ابن عباس وعلى رضى الله عنهما أن تكون العدة بوضع الحمل بشرط مرور أربعة أشهر وعشرة أيام ، إعمالا لآية العدة «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشر ، والآية السابقة .

وعدة المطلقات ثلاث حيضات لما تلونا من قوله تعالى : «والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء» [1] والقروء هى الحيضات .

وإذا كانت المطلقة قد بلغت سن اليأس ، وقد يئست من الحيض ، أو لم تر الحيض أصلا فعدتها تكون بثلاثة أشهر ، وقد نص على ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : «واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن» (٢) .

ولا بد قبل ترك الكلام فى العدة كما ورد منها فى نصوص القرآن الكريم لا بد من التنبيه إلى ثلاثة أمور : أولها : أن العدة بالنسبة للمطلقات إنما تكون لمن دخل بها ، وذلك لقوله تعالى : «يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ، ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، فما لكم عليهن من عدة تعتدونها» (٣) . أما المتوفى عنها زوجها فإنها تعتد عدة الوفاة ، ولو لم يدخل بها ، لأن النص الكريم «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا» لم يفرق بين مدخول بها وغير مدخول بها .

الثانى : أن المطلقة تبقى فى بيت الزوجية فى مدة العدة ، ولا تخرج منه ولا يجوز إخراجها ، وقد تلونا فى ذلك قوله تعالى : «لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة» (٤) .

---

(١) البقرة : ٢٢٨

(٢) الطلاق : ٤

(٣) الأحزاب : ٤٩

(٤) النساء : ١٩

والمتوفى عنها زوجها صرح القرآن بأنها تبقى فى بيت الزوجية حولا لا يجوز للورثة وأولياء الميت أن يخرجوها منه ، وذلك بصريح القرآن الكريم ، فقد قال تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج ، فإن خرجن ، فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم »(1) .

فهذا النص الكريم يدل على أن المتوفى عنهازوجها لها أن تبقى فى بيت الزوجية الذى مات به الزوج حولا على أن يكون ذلك متاعاً وحقاً ، فلا يجوز إخراجها ، لأنه يكون انتزاعا لحقها ، ولكن يجوز لها أن تخرج ، وإن ذلك بلا ريب حفظ للمرأة من الضياع ، وصيانة لحرمة الزوج المتوفى .

الأمر الثالث : أن نفقة الزوجية تبقى فى العدة ، لقوله تعالى : « وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن» والحمل لا يعرف إلا بعد الولادة ، فيفرض وجوده فى كل معتدة من طلاق ، وخصوصاً أن قوله تعالى : « لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله»(2) هو عام للحامل والحائل على سواء .

تنبيهان :

١٨٩ — يلاحظ أن المرأة فى الزواج لها حقوق ، وعليها واجبات ، وأن الزواج لا يفرض عليها من وليها ، بل لابد من اختيارها ورضاها فى أصل العقد وفى المهر ، وقد نص على ذلك القرآن الكريم فى المهر ، فقال تعالى : « وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ، فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة »(3) .

---

(1) البقرة : ٢٤٠ (2) الطلاق . ٧
(3) النساء : ٢٤

ومنع القرآن الكريم بصريح اللفظ عضل المرأة بمنعها من الزواج، أو تزويجها بمن لا تريد، وقال تعالى: «وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن، فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف، ذلك يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، ذلك أزكى لكم وأطهر، والله يعلم وأنتم لا تعلمون»(١).

والتنبيه الثانى: أن المرأة تأخذ نصيبها كما يأخذ الرجل نصيبه من المال مع التفاوت: «للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً(٢)».

وإن هذا النص فوق دلالته على وجوب توقير ميراث النساء يدل على أن ذمة المرأة منفصلة عن ذمة الرجل، سواء أكان زوجاً أم كان أباً أو أخاً أو قريباً بأى درجة من درجة القرابة.

الأسرة فى الإسلام ممتدة

١٩٠ — هذا لفظ استعرناه ممن يكتبون فى علم الاجتماع فى هذه الأيام، فهم يقسمون الأسرة إلى قسمين، قاصرة وممتدة، ويقصدون بالقاصرة الزوجين، وأولادهما، ويقصدون بالممتدة مايشمل ذوى القربى جميعاً من أصول وفروع، وحواش قريبة وبعيدة بحيث يشمل الأقربين وغيرهم.

وقد جاء الإسلام منظما العلاقة بين النوعين، والقرآن فى محكم آياته تعرض لأحكام الزوجين والأولاد ولم يترك أحكام بقية ذوى القربى، وقد حث بالنسبة لذوى القربى الذين يشملون الأسرة القاصرة أو الممتدة على مراعاة الرحم، وذكر الواجبات إجمالا بالنسبة لصلة الأرحام، فأوجب مراعاة

---

(١) البقرة: ٢٣٢ (٢) النساء: ٧

هذه الصلة التى أوجدتها الفطرة ، مهما تشعبت الفروع ، وتكاثرت ، فقال تعالى: « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله »[1] وجعل سبحانه من أقرب القربات إلى الله تعالى إعطاء ذوى القرابة بسبب القرابة فقال تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى ، واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا، وأولئك هم المتقون »[2] .

ونرى أنه سبحانه جعل من أول أبواب البر إعطاء ذوى القربى بسبب القرابة ، لا لفقرهم ، ولا لحاجتهم ولكن صلة لهم ، وإبقاء لحبل المودة فى القربى أن يبقى .

والوصية بأولى القربى كثيرة فى القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: « وبالوالدين إحساناً وذى القربى »[3] ، وقوله تعالى فى قسمة الميراث : « وإذا حضر القسمة أولو القربى ، واليتامى والمساكين فارزقوهم منه ، وقولوا لهم قولا معروفاً »[4]، وقوله تعالى: « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى[5] » فالمودة فى القربى أجر يعطيه العبد لربه . وهكذا نجد نصوص القرآن .

١٩١ — وقد ذكر القرآن الكريم حقوقاً وواجبات متبادلة فى القرابة ، نذكر منها ثلاثة :

أولها — أن الدية فى القتل الخطأ تجب على الأسرة ، وتعطى الأسرة ،

---

(١) الأنفال : ٧٥ (٢) البقرة : ١٧٧ (٣) البقرة : ٨٣
(٤) النساء : ٨ (٥) الشورى : ٢٣

فهى تجب على الأسرة بمعناها الممتد ، وقد قال تعالى : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ، ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة إلى أهله ، إلا أن يصدقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم، وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة »[1] .

وبهذا نجد وجوب التعاون بين الأسرة بمعناها الممتد ، فهى تتعاون فى غرم الجرائم تدفعه ، وفى تعويضها تأخذه ، ولذلك لا يجب إلا إذا كانت الأسرة مؤمنة ، أو كان بينها وبين المسلمين ميثاق تجب بمقتضاه الديات ، ولا تسقط إلا إذا كان من قوم عدو للمؤمنين ، فإن الدية تكون إعانة لهم على الاعتداء .

ثانيها — أن الله أوجب للفقير العاجز عن الكسب نفقة على قريبه الغنى وقد ذكر القرآن ذلك فى قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ، ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم، أو بيوت إخوانكم ، أو بيوت أخواتكم ، أو بيوت أعمامكم ، أو بيوت عماتكم ، أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم ، أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ، ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ، فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون »[2] .

ونجد أن الله سبحانه وتعالى ذكر فى القرآن الحكيم أنه لا إثم على من يأكل فى بيوت هؤلاء عند الاحتياج ونفى الإثم يشير إلى أنه حق ، إذ أن تناول الحقوق لا إثم فيها .

---

(١) النساء : ٩٢

(٢) النور : ٦١

وقد يقال إن ذلك لم يكن مقتصراً على القرابة ، بل ذكر الصديق ، فدل على أن الحق ليس سببه القرابة . ونقول إن ذلك الحق سببه العجز ابتداء ، ولذلك ذكر فى أول الآية ذوى العجز عن الكسب ، فكان الكلام كله فى أهل العجز ، ولكن الأخذ كان للقرابة ابتداء ، فإن لم تكن له قرابة يلزمها الشرع ، كانت المودة التى توجبها الصداقة مبرراً للأكل ، وإن كان لا يلزم الصديق بذلك قضاء ، فإنه يجب عليه ديناً ويأثم فيما بينه وبين الله ، إن كان قادراً ، ومع ذلك يترك صديقه يتضور جوعا ولذلك كانت المؤخاه

وفى ذلك إرشاد خلقى اجتماعى حكيم لواجبات الأصـــدقاء نحو أصدقائهم .

الحق الثالث حق الميراث :

ولذلك بعض التفصيل ، فقد ذكره القرآن مفصلا .

الميراث

١٩٢ — تولى القرآن الكريم بيان الميراث بالتفصيل ، ولم يكن فى السنة النبوية تفصيل لمجمل فى القرآن ، ولكن فيها تطبيق لأحكامه ، وتوضيح لما عساه يستغلق على بعض الأفهام ، أو لما يحاول به بعض الناس من انحراف عن أحكام القرآن ، وتأثر ببعض أحكام الجاهلية ، كحرمان النساء من الميراث .

والآن نتلو أكبر آية فى بيان المواريث . وهى قوله تعالى :

« يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة ، فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد ، وورثه أبواه ، فلأمه الثلث ، فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى

بها أو دين ، آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما ، ولكم نصف ماترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد ، فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين، ولهن الربع مما تركتم ، إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين ، وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت ، فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين ، غير مضار وصية من الله ، والله عليم حليم ،تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله يتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها . وله عذاب مهين »(١) .

فى هذه الآيات الكريمات بين الله تعالى ميراث الأولاد والأبوين ، والزوجين ، وميراث أولاد الأم ، فالكلالة هنا أولاد الأم ، كما ذكر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تطبيقه لأحكام القرآن فى الميراث .

وهناك كلالة أخرى ، وهى كلالة الإخوة والأخوات الشقيقات أو لأب ، وقد بينها الله سبحانه وتعالى بقوله : « يستفتونك ، قل الله يفتيكم فى الكلالة ، إن امرؤ هلك ليس له ولد ، وله أخت فلها نصف ما ترك ، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد . فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين ، يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم »(٢) .

ولا ننسى قوله تعالى « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله »(٣) ، فإنها كما تدل على المودة بين أولى القربى تدل على أولوية الميراث

---

(١) النساء : ١١ — ١٤ .
(٢) النساء : ١٧٦ .
(٣) الأنفال : ٧٥ .

أيضاً . ولذا اقترن بها قوله تعالى « فى كتاب الله تعالى » .

وبهذا نرى أن القرآن الكريم تولى الأحكام فى الملكية بالخلافة الإجبارية بعضه بالتفصيل وبعضه بالإجمال الذى يغنى عن التفصيل .

وقد كان عمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تطبيق أحكام الكتاب ، ولنضرب لذلك مثلا ، أن عبد الله بن مسعود سئل عن بنت وأم وأخت شقيقة فجعل الأخت الشقيقة قائمة مقام الأخ الشقيق تأخذ الباقى ، وقال ذلك قضاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وطبق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله (١) » فقرر صلى الله تعالى عليه وسلم أنه بعد أن يستوفى أصحاب الفروض فروضهم ، ولم يكن أب أو ابن أن الميراث يكون لأقرب رجل ذكر ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : «فإن بقى بعض أصحاب الفروض ، فلأقرب رجل ذكر » ، ولاشك أن ذلك الحديث النبوى تطبيق دقيق ، لقوله تعالى « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » فالأولوية تقتضى أن يكون الأقرب أحق بالميراث ، أو بما يبقى منه .

وقد ثبت بالسنة أن المتوفى إذا ترك بنتاً وبنت ابن مات أبوها . فإن البنت يكون لها النصف ، ولبنت الابن السدس تكملة للثلثين اللذين يكونان للبنات ، فإذا أخذت البنت الواحدة النصف ، فإنه لا يذهب باقى الثلثين ، بل يكون لبنت الابن ، لأنها بنت للمتوفى مجازاً ، وذلك تطبيق للنص القرآنى .

وقد ثبت أيضاً أنه إذا كان المتوفى أم، وأخت شقيقة استحقت النصف فقط ، وهناك أخت لأب، فإنها تأخذ السدس تكملة للثلثين ، حتى لا يذهب

---

(١) الأنفال : ٧٥

ما فوق النصف ، وذلك بتطبيق رسول الله لقول الله تعالى ، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك .

وبهذا يتبين أن القرآن تولى أحكام الميراث بالتفصيل فى أصحاب الفروض ، والعصبة فى الأولاد والآباء وبالإجمال فى باقى الأحكام ، والسنة النبوية طبقت القرآن ، وكانت بياناً للناس .

ما يلاحظ على توزيع القرآن العادل :

١٩٣ — يلاحظ على ذلك التوزيع العادل الذى تولاه القرآن ما يأتى :

أولا : أنه جعل للنساء ميراثاً . ولم يكن العرب فى الجاهلية يعطون للنساء ميراثاً ، وإنه فى سبيل تكريم الأمومة ، وقرابتها جعل لأولاد الأم ميراثاً لا يقل عن السدس ، ولا يزيد على الثلث ، وجعلهم يستحقونه بوصف أنهم كلالة . أى لا يوجد ميراث بأصول وفروع ، ومع ذلك جعلهم يرثون مع وجود الأم .

ثانياً : أن يكون الميراث للأقرب فالأقرب ، لأن العبرة فى استحقاق الميراث أن يكون لمن بعد وجودهم امتداد الحياة المتوفى فى الوجود ، ولذلك كان أكبر الأسرة حظاً فى الميراث الأولاد ، وأولادهم الذين ينتسبون إليه .

ومع أنهم أكثر الأسرة حظاً فى الميراث لا ينفردون به ، بل يشاركهم فيه الأبوان والزوجان . وإنهم ليشاركونهم بمقدار قد يصل إلى النصف أو إلى قريب منه .

وإن مشاركة غيرهم هو لمنع تركيز المال فى ورثة بأعيانهم ؛ فالأبوان إذ يأخذان مع الأولاد الثلث يكون من بعدهما لأولادهما ، وهم غالباً إخوة المتوفى ، فيكون الاشتراك فى المال بدل الانفراد ، وإذا لم يكن أب فقد

يأخذ إخوة مع الأولاد إن كانوا إناثاً . وبذلك يتبين أن كون الميراث للأقرب لا يمكنه من الاستئثار بالتركة وحده .

والثالث : مما يلاحظ فى الميراث مقدار الحاجة ، فكلما كانت الحاجة أشد كان قدر الميراث أكبر ، ولعل ذلك هو السر فى أن نصيب الأولاد كان أكبر من نصيب الأبوين مع أنه من المقرر شرعا أن للأبوين فى مال أولادهما نوع ملك ، كما ورد فى الحديث « أنت ومالك لأبيك » ، ولكن حاجة الأولاد إلى المال أشد لأنهم فى غالب الأحوال ذرية ضعاف يستقبلون الحياة ، ولها تكليفاتها المالية ، والأبوان يستدبران الحياة ولهم فضل من المال فحاجتهما إلى المال ليست كحاجة الذرية الضعاف، وفوق ذلك ما يرثانه يكون لأولادهما . ولا يكون منه لهذه الذرية الضعاف .

وإن ملاحظة الأكثر احتياجا هى التى جعلت نصيب الذكر ضعف نصيب الأنثى ، وذلك لأن التكليفات المالية على الذكور ، وتكليفات الرجل المالية أكثر من تكليفات المرأة ، فهو المطالب بنفقة المرأة نفسها، وهو المطالب بنفقة الأولاد ، وإصلاح حالهم وهو الذى يمد الأسرة بكل حاجاتهم ، وإن الفطرة الإنسانية هى التى جعلت المرأة قوامة على البيت ، والرجل كادحا عاملا لتوفير القوت ، فكانت قاعدة أن العطاء فى الميراث على قدر الحاجة موجبة لجعل حق الرجل أكبر من حظ المرأة ، فالأخ يحتاج إلى المال أكثر من أخته، وإن ملاحظة الحاجة هى العدل، والمساواة عند تفاوت الحاجة هى الظلم، فأولئك الذين يطالبون بمساواة المرأة فى الميراث مع الرجل لا يطلبون المساواة العادلة .

والرابع : أن الشارع الإسلامى كما لاحظنا فى ميراث الأولاد اتجه إلى التوزيع بين الأقارب بدل التجميع ، فهو لم يجعل وارثا يستبد بالتركة كلها ، لم يجعل الميراث للولد البكر، دون غيره، ولم يجعل التركة كلها للأولاد

دون الآباء ، ولم يجعل يد المورث مطلقة يختص بتركته من يشاء ، ويحرم من يشاء ، بل جعل نظام الميراث إجباريا فى ثلثى التركة ، ووزع الثلثين من التركة ، بين عدد من الورثة ، والصورة التى يختص بالتركة فيها واحد فقط نادرة ، وهى تكون حيث يقل الأقارب ، وفى هذه الحال تكون ثمة وصية للأقارب غير الوارثين ، على ماسنبين فى الوصية إن شاء الله تعالى .

وإذا انتقل الميراث إلى الحواشى كالأخوة والأخوات ، والأعمام - يوزع بينهم من غير أن يستبد بعضهم بالميراث كله ، بل من غير أن تستبد قرابة دون قرابة ، فإذا كان هناك أشقاء وإخوة لأم كان الميراث للجميع ويكون للأخوة الثلث .

وهكذا نجد الميراث فى القرآن ، وفى بيان السنة للقرآن وتطبيقه نجد الميراث يتوزع ولا يتجمع ، وإن التجمع فى وارث واحد يكون فيه بلا ريب ظلم للباقين ، ولا يكون المال دولة بين ناس من الأسرة ، والآخرون محرومون محدودون ، بل لا يكون المال فى الأمة كلها دولة بين الأغنياء ، والحرمان للباقين .

١٩٤ - إن من المقررات الشرعية أن الميراث يدخل ملكية الوارث فى الثلثين جبراً عنه ، وبغير إرادة المورث ، بل بإرادة الله سبحانه وتعالى ، ويسمى التوريث الخلافة الإجبارية ، وهى تكون فى ثلثى التركة ، ويقولون أيضا إن الثلث يكون للوصية ، وقد فرض القرآن الوصية ، بل إن صيغته فى التحريض كانت صيغة إيجاب ، فقد قال تعالى : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين . فمن بدله بعد ماسمعه ، فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم ، فمن خاف من موص جنفا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه ، إن الله غفور رحيم »(١).

---

(١) سورة البقرة : ١٨٠ — ١٨٢ .

وإن هذا النص يستفاد منه جواز الوصية ، بل وجوبها عندما تكون فى موضع بر بأن تكون فى الأقربين ، فهى سد لما عساه يكون فى توزيع الميراث من حرمان بعض ضعفاء الأقارب من الميراث ، إذا لم يكونوا فى نظام التوزيع ، فهى فى وضعها بجوار الميراث تكميل لأحكامه . فقد تكون الأخت الفقيرة لا يصل إليها الميراث لوجود الأبناء ، فكانت الوصية التى كتبها الله تعالى فى الثلث سداً لخليتها .

وإنه بمقتضى هذا النص تكون الوصية واجبة لفقراء الأقارب غير الوارثين ، وذكر الوالدين لأنهما قد يكونان غير وارثين ، لاختلاف الدين، كما كان الأمر فى صدر الإسلام، إذ كان الرجل يكون مشركا والمرأة كذلك ، وولدهما قد هداه الله تعالى إلى الإسلام ، فيكون عليه أن يوصى لهما ، لأن ذلك من الإحسان ، والمصاحبة لهما بمعروف ، كما قال تعالى : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفاً »(١) .

ومن العلماء من قال : إن نصيب الأبوين من الميراث إن كان قليلا تصح الزيادة عليه بالوصية ، وكذلك الأقربون من الورثة إن كان نصيب أحدهم ضئيلا ، لا يسمن ، ولا يغنى من جوع ، جاز زيادته بالوصية من الثلث . وذلك ما تفيده الآية ، وقوله تعالى بالمعروف معناه بالأمر المعقول فلا يزيد القادر ذا المال على ماله ، ولكن يعطى الضعيف ذا الحاجة الذى لم يأخذ شيئاً من الميراث .

ودلت الآية الكريمة على جواز التدخل فى الوصية إذا كان فيها ظلم للورثة بالميل الظالم أو كان فيها إثم كالوصية لخليله ، أو الوصية لحانة ، فإنه يجوز فى

(١) لقمان : ١٥

هذه الحال الدخول للإصلاح وتحويل الوصية إلى خير ، ولذلك قرر بعض الفقهاء أخذاً من هذه أن إبطال الوصية الظالمة ، أو إصلاحها بحكم القضاء جائز .

ومن التابعين من قرر أن الميت إذا ترك الوصية لأقاربه الضعفاء غير الوارثين . كانت لهم وصية ، وأوجبها ابن حزم ، والله سبحانه وتعالى يعلم المفسد من المصلح .

١٩٥ — هذا هو نظام الملكية بالخلافة جعله القرآن إجبارياً فى الثلثين كما بينت السنة ، وجعله اختيارياً للوارث فى الثلث ، وأوجب أن يكون فى غير إثم ، وأنه يجب إبطاله إن كان إثماً .

واختص القرآن الكريم الأقارب الضعفاء الفقراء بإيجاب الوصية لهم بالمعروف ، وقد وضحنا ذلك آنفاً .

وإذا وازنا نظام الملكية بالخلافة بأى قانون من قوانين العالم فى الماضى والحاضر ، ما وصل إلى العدالة فيه نظام مهما يكن إحكامه .

ولقد تضافرت كلمة القانونيين من علماء الغرب الذين اطلعوا على الشريعة أن أعدل نظام للملكية بالخلافة هو نظام الإسلام ، فكل نظام للتوريث غير نظام الإسلام ظالم أو ناقص ، وبذلك يعترف كل دارس منصف .

وإن هذا النظام جاء به القرآن الكريم ، ونادى به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الذى لم يدرس على معلم . ولم يكن إلا فى بلد أمى ، ليس فيه معهد ولا جامعة ، أفليس هذا دليلا قاطعاً على أنه من عند الله تعالى .

١٩٦ — وقد يقول قائل أطلت فى ذكر نظام الأسرة فى القرآن ، وربما يكون ذلك خروجاً عن الكلام فى القرآن إلى الكلام فى الأسرة .

ونقول فى الجواب عن ذلك ، إننا نتكلم فى علم الكتاب ، فمهما نتكلم

فى الأسرة ، فإننا نتكلم فى موضوع علم القرآن الذى علمنا الله تعالى إياه ، وإننا لم نأت بكل ما جاء فى القرآن عن الأسرة ، ولكن اكتفينا ببعض ما جاء ليكون دليلا على ما وراءه وإشارة لما بعده .

وقد ذكرنا الأسرة فى القرآن ، وتكاد كل أحكامها تكون ثابتة بالقرآن الكريم ، والسنة مبينة لبعض ما يحتاج إلى بيان كلفظ القروء فى قوله تعالى : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء »(١) . فالسنة هى التى بينت أن القروء هى الحيضات على أصح الروايات فى السنة .

ولقد قررنا من قبل ما نتلمسه حكمة لتصدى القرآن لكل أحكام الأسرة .

ونقول الآن إن أحكام الأسرة فى الإسلام كانت موضع تهجم من بعض الذين ليس للدين حريجة فى صدورهم من الرجال والنساء ، فأرادوا أن يجعلوا الأسرة الإسلامية خاضعة لما سموه تطوراً ، وما تطورهم إلا تجانف لناحية المسيحية ، فالمسيحية فى زعمهم تحرم تعدد الزوجات ، والمسيحية فى زعمهم تمنع الطلاق ، فيجب أن تكون الأسرة فى الإسلام تمنع التعدد ، وتمنع الطلاق (٢) وهكذا دفعهم التقليد ، والإسلام يجعل للرجل قوامة على المرأة ، وهم لا يريدون ذلك ، ويريدون أن يكون البيت فوضى ، وهكذا .

ولقد وصل بهم الإنكار لحقائق الإسلام أن تهجموا على نظام الميراث ومنهم من يتمرد عليه ، اتباعاً لأهوائهم ، ونحن نقول لهم : دعوا التقليد الأعمى ، ودعوا التفكير الأعوج واعلموا أن الأمر فى ذلك أمر القرآن

---

(١) البقرة . ٢٢٨

(٢) وقد كتبنا بحثاً فى بيان أن التعدد كما جاء فى القرآن ، والطلاق أمثل نظام لتكوين أسرة فاضلة نشر فى السنة الخامسة عشرة من مجلة القانون والاقتصاد .

ومن علم غير القرآن فقد كفر ، فإن تمردتم باسم التطوير ، وهو عمى التقليد فاعلموا أنكم على شفا جرف من الكفر ، لأن من أنكر أحكام القرآن ، أو من خالفها جاحداً ، فهو كافر ، فكونوا كما تشاءون ، فإن كنتم مؤمنين فخذوا بالقرآن ، وإن كنتم غير ذلك ، فلكم دينكم ولى دين » .

٤ ــ الزواجر الاجتماعية

١٩٧ ــ هذا هو القسم الرابع من الأحكام التى اشتمل عليها القرآن الكريم ، وقد شرع القرآن من العقوبات الرادعة ما تتطهر به المجتمعات من الرذيلة ، وتتجه ناحية الفضيلة ، ويتحقق الخير فى كل مظاهر الحياة خالياً من أدران الشر .

والعقوبات فى الإسلام قسمان عقوبات مقدرة ، وعقوبات غير مقدرة والعقوبات المقدرة تعد أعلى العقوبات فى نوعها ، وغير المقدرة تعد دون الأعلى ، وقد تولى القرآن الكريم بيان أكثر العقوبات المقدرة، والعقوبات غير المقدرة ترك تقديرها للقاضى أو ولى الأمر إن رأى أن تقيد القضاة ، فالإسلام يذكر الحد الأعلى للعقوبة وترك للقاضى تقدير ما دونها على ما قررنا.

والعقوبات المقدرة قسمان: قسم فيه حقوق العباد واضحة ، كالقصاص ، وقسم كان لحماية المجتمع من شروره ، وحق العباد فيه ليس فى وضوح الأول .

وفى الأول كان للمجنى عليه أوليائه حق العفو ، كما سنبين . أما الثانى فلا عفو فيه ، لأنه حق الله .

وأول نص فى العقوبات التى كانت لحق العبد أو حق العبد فيها أوضح من غيره من عقوبة القصاص وهى عقوبة تومىء إليها الفطرة ؛ لأن العقوبة مساوية للجريمة ، ومن جنسها ، وقد نص عليها فى القرآن فى عدة آيات ، منها

قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ، ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون »[1].

وفى هذه الآية نجد القصاص فى الأنفس ، وآية أخرى تعمم القصاص فى الأنفس والأطراف ، بل الجروح ، ويقول سبحانه وتعالى فى ذلك مبيناً ما كان فى التوراة ، وهو فى الشرائع السماوية كلها : «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس ، واخشون ، ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليــــلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فاولئك هم الكافرون ، وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الظالمون »[2] .

وهــــذه الآيات الكريمات تدل — أولا — على أن القصاص شريعة النبيين أجمعين، طبقه النبيون على الذين هادوا ، وطبقه من بعدهم الربانيون والأحبار ، ويطبقه أهل الإيمان من أمة محمد كما قال سبحانه وتعالى : «وأنزلنا الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون »[3] .

(١) البقرة : ١٧٨ — ١٧٩
(٢) المائدة : ٤٤ — ٤٥
(٣) المائدة : ٤٨

وإن هذا النص الكريم يدل - أولا - على وحدة الشرائع السماوية فيما يتعلق بالقصاص ، فهو شريعة عامة ، مشتقة من الفطرة الإنسانية ، فهى عقوبة طبيعية لامراء فيها .

وتدل ثانياً على أن القصاص كما يقع فى الأنفس ، لأن فيه حياة الجماعة حياة آمنة مطمئنة ، يقع أيضاً على الأطراف ، لأن فيه حفظ سلامة الإنسان ومنع التشويه ، إذ أن التشويه الإنسانى يكثر إذا لم يكن عقاب رادع يجعل الجانى عندما يقدم على جريمته يتوقع أن يقع عليه مثلها ، وذلك أمنع للجريمة ، كما قرر بعض علماء القانون الذين درسوا النفس الإنسانية فى الآحاد والجماعات .

وتدل ثالثاً — على أن الجروح يجرى فيها القصاص ما أمكن ، وقد استنبط من هـــذا بعض الفقهاء أن القصاص يجرى فى اللطم والضرب بالسوط وغيره .

وتدل رابعاً — على أن الترغيب فى العفو إبعاداً لأحن القلوب ، وتقريباً للنفوس ، ولذلك اعتبر العفو فى موضعه من غير تشجيع للجريمة صدقة ، وقال سبحانه ، « فمن تصدق به فهو كفارة له » .

وإن القصاص فى موضعه إحياء للنفس المجنى عليها ، وإحياء للجماعة ، وهو القضاء على الأحقاد والضغائن المستكنة فى القلوب ، إن لم يكن سبيل لردعها ، فقد قال تعالى بعد أن اعتدى قابيل على أخيه هابيل شفاء لغيظه وحسداً وحقداً : « من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها ، فكأنما أحيا الناس جميعاً ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ، ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون »[1] .

وإن هذا يدل على أن القصاص إحياء للنفوس ، وتهذيب للجماعة .

---

(١) المائدة : ٣٢

١٩٨ – وإن القصاص فيه حفظ للنفس ، فإن حفظ النفس يقتضى حفظ الأطراف وحفظ كل الأجزاء ، وهو حق للعباد لأنه عقوبة إعتداء مباشر عليهم ، ولذلك كان قابلا للعفو ، كما ذكرنا وكما تلونا .

وأما حقوق الله أو حقوق المجتمع ، كما يجرى التعبير فى هذا الزمان ، فإن العقوبة المقررة فيها تختص بخاصيتين إحداهما : أنها حماية للفضيلة ، وحماية للمجتمع من أن تتغشاه الرذائل ، والخاصية الثانية أنها غير قابلة للعفو ، لأنها إصلاح ليس فيه أى معنى من معانى الانتقام أو شفاء الغيظ ، كما هو الحال فى الدماء ، ولأن إقامة الحدود عبادة ، وهى العقوبات المقررة حقا للمجتمع فيعد عبادة ، فإذا كان العفو فى القصاص يعد أحيانا صدقة كما عبر القرآن الكريم ، فإقامة الحدود من ولى الأمر القائم على رعاية مصالح المجتمع ، وإقامة الفضائل ومحاربة الرذائل تعد عبادة ، بل هى أعلى العبادات بالنسبة له ، وأى عبادة أعلى من تطهير المجتمع من الشر .

وإن الحدود شرعت محافظة على المصالح المقررة الثابتة ، وهى المحافظة على النفس وأمنها ، والمحافظة على النسل والمحافظة على العقل والمحافظة على المال .

وأشد الحدود تكون لأقصى أنواع الاعتداء ، وهو الاتفاق على الجرائم التى يكون فيها اعتداء على النفس وعلى المال ، بل وعلى الأعراض والعقول ، وهو مايسمى حد الحرابة .

والحرابة اتفاق طائفة من المجرمين على الخروج على الجماعة بارتكاب مفاسد من أنواع الاعتداء المختلفة من قتل أو اغتصاب أموال ، وارتكاب جرائم أخرى كما قرر الإمام مالك فى تفسير معنى الحرابة ، وقد سماهم القرآن الكريم محاربين ، لأنهم يحاربون الأمن والنظام بقوة يدرعون بها وقال الله تعالى فيهم : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون

فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم . إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ، فاعلموا أن الله غفور رحيم[1] » .

ونلاحظ فى النص الكريم أمورا ثلاثة :

أولها — أن الآية الكريمة سمتهم محاربين لله ورسوله . وذلك لأنهم يحاربون أحكام الشرع ، وينتقضون على الحكم المنفذ لأحكام الله تعالى ورسوله الحكيم صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسماهم ساعين فى الأرض بالفساد ، لأن معاندة الشرع ، والإخلال بأحكامه ومحاربة الفضائل ، وإزعاج الناس ، وقطع الطريق عليهم هو عين الفساد .

وثانيها — أن العقوبة هى التقتيل أو القتل والصلب ليكونوا عبرة لغيرهم ، أو قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو تفريق جمعهم ، ونفيهم من الأرض بإبعادهم حيث لا يستطيعون أن يجتمعوا .

وقد قرر مالك من بين الفقهاء أن ولى الأمر مخير فى هذه العقوبات يختار منها ما يناسب حالهم .

ثالثها - أن الجريمة الأساسية فى اجتماعهم واتفاقهم مع قوة تمكنهم من جرائمهم ، فإن تابوا من تلقاء أنفسهم ، فقد ذهب أصل الجريمة وهو الاتفاق الجنائى ، والخروج بقوة لتنفيذه ، وما داموا قد تابوا فقد عدلوا عن الارتكاب ، وهو جريمة مستمرة ، فإذا أنهوها ، لا تستمر عقوبة الحد .

ولكن يحاسبون على ما ارتكبوا قبل التوبة ، وللفقهاء كلام طويل فى هذا وفى توزيع العقوبات على الجرائم فليرجع إليه فى كتب الفقه ، ففيها ما يشفى غله الصادى المتطلع .

---

(١) المائدة : ٣٣ — ٣٤ .

ومن الناس من يلهجون باستغلاظ هذه العقوبة ، ويحسبون آثمين أنها ليست إنسانية وأولئك ينظرون إلى العقوبة ، ولا ينظرون إلى الجناية ، ويرحمون الجانى ، ولا يرحمون المجنى عليه ، والمجنى عليه هنا الجماعة ، أولئك يخرجون بقوة واتفاق ، لا ليقيموا حقاً أو يخفضوا باطلا بل لمجرد أذى الجماعةوينتهكون كل حرمة ، يقطون الطريق على السابلة ، ويزعجون الجماعة ، فلابد أن تكون العقوبة كفاء لما يرتكبون ورادعة ، والعدالة الإنسانية توجب المساواة بين مقدار الجريمة ومقدار العقاب ، وكلما عظمت الجريمة كان لابد من عقوبة تناسبها ، وكما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « من لا يرحم لا يرحم » وذلك هو منطق العدل ، ومنطق العقل .

ولو أن تلك العقوبة عوقبت بها العصابات الأمريكية التى لا تبقى على شيء إلا انتهكت حرماتها ، ولها ميزانية من السرقات تبلغ أحياناً ميزانية الولاية التى تكون فيها « فاعتبروا يا أولى الأبصار » .

١٩٩ — وإن الجريمة التى تقترب من جريمة الحرابة — جريمةالسرقة بيد أنهما يفترقان ، فالسرقة أخذ المال فى خفية من حرز مثله ، بينما الحرابة أخذ المال بقوة لا يلاحظ فيها الاختفاء ، ولكن يلاحظ الأمن من الاستغاثة وإجابة المستغيث ، فهى فى خفاء عن المجتمع ، لافى خفاء عن صاحب المال ، ويفترقان فى أن هذه جماعية تخرج بقوة تقاوم قوة الدولة ويفترقان فى أن الحرابة تتعدد فيها أنواع الجرائم ، والسرقة لا تتعدد فيها أنواع الجرائم ، ولذلك تتعدد فيها العقوبة .

ويتفقان فى أمرين أحدهما أن فى الجريمتين إفزاع الناس وإزعاج الآمنين ، فلا يأمن أحد على نفسه أو ماله ويتفقان أيضاً فى أن التوبة تقبل من قطاع الطريق ، قبل القدرة عليهم ، وتقبل فى السرقة على قول كثيرين من الفقهاء وهذا يتفق مع نص القرآن.

وعقوبة السرقة نص عليها فى قوله تعالى : «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ، فمن تاب من بعد ظلمه ، وأصلح ، فإن الله يتوب عليه ، إن الله غفور رحيم»(١) .

وقد اشترط فى التوبة فى هذه الحال أن يصلح ، لا أن يتوب بلسانه ، ولا شك أنه إذا سرق من بعد التوبة فإنه تقطع يده .

ولهذا التشابه بين السرقة والحرابة قالوا إن الحرابة هى السرقة الكبرى وتلك التسمية صحيحة ، وإن كان معها جرائم القتل .

وقد يقول الذين يرحمون المجرم ، ولا يرحمون الآمن معترضين على ذلك متعللين بأمرين :

ـ أحدهما ـ أن العقوبة ليست متكافئة مع الجريمة مهما يكن نصاب السرقة ، فهل تقطع يد فى سرقة عشرة دراهم أو ربع دينار كما قال الإمام مالك ، ويرددون قول أبى العلاء .

يد بخمس مئين عسجد وديت　　ما بالها قطعت فى ربع دينار

والثانى أن العقوبة فى ذاتها غايظة تكثر من المشوهين الذين تقذى الأعين برؤيتهم .

ونجيب عن الأمرين ، فنقول فى الإجابة عن الأمر الأول ، إنه ليس التساوى بين العقوبة فى الحدود بين الفعل والعقاب ، إنما التساوى بين العقاب ، وآثار الجريمة ، فبالنسبة للسرقة لا يكون التساوى بين المال الذى سرق ، وبين قطع اليد ، إنما ينظر إلى الإفزاع وإزعاج الآمنين فى سرقة تقع فى حى أو قرية ، فكم من حراس يقومون ، وكم من مغالق يحترس بها من السارقين ، فجريمة السرقة ليست آثارها واقعة فقط على المسروق منه ، بل تتعداه إلى كل من يكونون معه فى الحياة .

والجواب عن الأمر الثانى أن هذه العقوبة لا تقع إلا إذا كان التكرار

---

(١) المائدة : ٣٨ — ٣٩

إذ أنه إذا سرق ابتداء وتاب وأصلح ، فإنه لا يسرق ، فلا تقطع يده .

وإن قطع يد واحدة تمنع السرقة ، فلا يكون ثمة من بعد ما يوجب القطع ، وهنا دولة عربية تقيم حد السرقة ، لا تقطع فى العام يداً أو اثنتين فالقطع يمنع سبب القطع .

وفوق ذلك ، فإن القطع لا يكون إلا حيث تنتفى الشبهات ، فالشبهات تسقط الحدود وإن عدد السرقات التى تنتفى فيها الشبهات ، ويجب فيها الحد يقدر بنحو خمسة فى الألف من السرقات التى تقع ، ومن الشبهات التى اعتبرها السلف أن يكون السارق فى حال جوع أو مظنة جوع ، كأن يكون ثمة مجاعة فإنه لا يقام الحد للشبهة ، كما فعل الإمام عمر عام المجاعة .

وعلى ذلك يستغلظون عقوبة السرقة فى الحدود التى بينا أن يبينوا لنا كم من السرقات قطعت فيها أيدى نساء ورجال لأجل الوصول إلى غاية السارق ، وكم من النفوس أزهقت فى السرقات بالإكراه أو فى إخفاء الجريمة وعدم معرفتها .

إنكم إن وازنتم بين هذه الجرائم التى ترتكب فى سبيل السرقة وجدتم أن قطع اليد لا يساوى فى عدده عشر معشار هذه الجريمة ، واعتبر ذلك بالبلاد التى طبقت حد السرقة ، فإن الأيدى التى تقطع فى البلاد كلها لا يتجاوز إن تواضعنا عدد أصابع اليد .

لقد عجزت القوانين عن علاج جريمة السرقة ، فهلا تستعين بحكم الله تعالى ، ولكن آفة الجماعات فى هذه الأيام أولئك الذين تذهب أنفسهم حسرات على المجرمين ، ولا تنظر نظرة عطف على الذين كانوا فريسة للعابثين والمجرمين ، وذلك فساد منطق غريب ، ومع ذلك يعدون أنفسهم اجتماعيين .

الاعتداء على النسل

٢٠٠ — أوضح جريمة فى الاعتداء على النسل جريمة الزنى ، فإنها إذا شاعت فى قوم ضعف نسلهم ، وانحدروا إلى الفناء كما رأينا فى أمم حاضرة ، وجماعات ماضية .

وقد تعرض القرآن الكريم لبيان هذه الجريمة وعقوبتها ، أو بالأحرى لبيان هذه العقوبة مع التعرض الإجمالى للجريمة ، مفصلا العقوبة ، فقد قال تعالى : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ، فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت، أو يجعل الله لهن سبيلا ، واللذان يأتيانها منكم فآذوهما ، فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما ، إن الله كان تواباً رحيما»[1]

وإن هذا النص الكريم دل على أمور ثلاثة :

أولها — أن الشهادة على الزنى لا تكون إلا بأربعة ، فلا تصح الشهادة بما دون ذلك، وقد أكد هذا المعنى قوله تعالى فى حدالقذف «والذين يرمون المحصنات ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة » [2] .

ثانيها - أن الرجل والمرأة إذا ارتكبا الفاحشة ، وهى الزنى فى الآية الأولى والثانية ، كان لابد من عقوبة مناسبة ، إذا لم تكن توبة يكون معها إصلاح أمورهم ، وأنهم إن كرروا لا تقبل التوبة ، وكذلك قرر كثيرون من الفقهاء كما قيل فى السرقة .

الثالث: أن النساء يختصصن بعقوبة لا تمنعها التوبة ، وهى أن يمسكن فى البيوت حتى الوفاة أو يجعل الله لهن سبيلا بالزواج ، وهذه فى الحقيقة

---

(١) النساء : ١٥—١٦
(٢) النور : ٤

ليست عقوبة ، ولكنها سياسة وحمل على التوبة ، فإن كان منهن من بعد فاحشة كان الإيذاء .

وقد ذكر هنا الأمر بالإيذاء مجملا ، وفصل فى سورة النور ، فقال تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ، الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين »(١)

وإن هذا النص يدل على ثلاثة أمور . أولها — أن عقاب الزانى والزانية مائة جلدة قوية شديدة رادعة لا رأفة فيها . وثانيها — أن هذا العقاب الشديد الرادع يكون علنا يشهده طائفة من المؤمنين . ثالثها — أن الزانى الذى يعلن زناه لا يرضى به إلا زانية أو مشركة ، وأن الزانية لا يرضى بالزواج منها إلا زان أو مشرك ، وأنه من المحرم على المؤمنين أن يتزوجوا من الزناة ، ومفهوم النص أن ذلك التحريم إن لم تكن توبة .

عقوبة العبد على النصف من الحر

٢٠١ — هذا التقدير للعقوبة فى الزنى إنما هو على الأحرار من الرجال والنساء ، أما العبيد والإماء فعقوبتهم نصف هذه العقوبة ، فلا يجلدان إلا خمسين جلدة ، وقد ثبت ذلك بنص القرآن الكريم بالنسبة للإماء وثبت بقانون المساواة بين الرجل والمرأة أن العبد تنصف عنه العقوبة ، وهذا نص القرآن الكريم الحكيم ، إذ يقول سبحانه وتعالى : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض ، فانكحوهن بإذن

---

(١) النور . ٢ — ٣

أهلهن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ، ولا متخذات أخدان ، فإذا أحصن ، فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ، ذلك لمن خشي العنت منكم ، وأن تصبروا خير لكم ، والله غفور رحيم ، يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم »(١)

وإن هذا النص يدل على أن الأولى بالمؤمن ألا يتزوج إلا حرة ، ولا يتزوج أمة إلا إذا عجز عن الزواج بالحرة ، حتى لا يعرض أولاده للرق ، وأن الإماء أولى بهن مالكهن يدخل بهن ، فيكون أولاده منها أحرارا ، وتعتق هي بولدها من مالكها ، فيكثر الأحرار .

وتدل الآية ثالثا على أن الأمة المتزوجة عقوبتها خمسون جلدة .

وبمقتضى المساواة فى الأحكام كما أشرنا تكون عقوبة العبد أيضا منصفة كعقوبتها .

ونظرة صغيرة فى الموازنة بين شريعة القرآن ، وشريعة الرومان ، لقد كان الرومان يضاعفون عقوبة العبد إن ارتكب جريمة ويخففون العقوبة على الحر ، فهم يقولون إن العبد إذا زنى بحرة يقتل ، وأما الشريف الرومانى فإنه إذا زنى يغرم غرامة بسيطة ، فمنطقهم الظالم يسير سيرا عكسيا تصغر العقوبة عندهم بكبر المجرم وتكبر بصغره ، أما الإسلام فإنه ينظر فى الأمر بمنطق مستقيم ، فالجريمة تكبر بكبر المجرم ويكون العقاب على قدرها وتصغر بصغر المجرم ، ويكون العقاب على قدرها ، وذلك لأن الجريمة هوان وإن الهوان يسهل على الضعيف ، إذ لا قوة نفس تعصمه وتنهاه ، وإن العبد والأمة فى ذل وهوان ، فالجريمة منهما قريبة ، فيعذران ، ويخفف عليهما العقاب ، وذلك هو منطق العدل المستقيم ، وهو شرع الله العظيم .

---

(١) النساء : ٢٥ — ٢٦

حـد القذف :

٢٠٢ — القذف هو رمى المحصنات والمحصنين بالزنى ، من غير دليل مثبت ، بل بمجرد الظن الواهم ، أو الإيذاء الآثم ، وفى ذلك تهوين للجريمة وإشاعة للفاحشة فى الذين آمنوا ، ولذلك كان العقاب الصارم على من يقذف ، ويرمى المحصنين والمحصنات من غير تثبت ولا تحرج ، ولقد قال الله تعالى فى ذلك مبينا له بعد حد الزنى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فى فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم »(١) .

وهذا النص السامى دل على أمور ثلاثة :ـ أولها أن الرمى بالزنى لا بد أن يكون ثابتا بشهادة أربعة من الشهداء ، وإلا عد قذفا باطلا ، وكان له عقوبة قاسية ، وهو الجلد ثمانين جلدة ، وهى عقوبة مادية لا هوادة فيها .

ويدل ثانيا على أن هناك عقوبة أدبية أو تبعية كما يقول علماء القانون ، وهو ألا تقبل لهم شهادة أبدا ، لأنهم دنسوا ألسنتهم بقول الفحش الباطل ، فيعاقبون على ذلك بألا يقبل منهم قول فى قضاء ، والتأبيد يقتضى أن التوبة لا تسوغ سماع شهادتهم .

ويدل ثالثا على أن التوبة تقبل عند الله إذا تابوا وأصلحوا ، وذلك لا يمنع نزول العقاب الأصلى والتبعى ، لأن التبعى ابدى .

وإن هذه العقوبة لمنع إشاعة الفاحشة ، لأن الاتهام بالزنى وخصوصا للأبرياء يسهل ارتكابه ولقد قال تعالى فى ذلك : «إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة (٢) .

---

(١) النور . ٤ — ٥

(٢) النور . ١٩

ولقد ضرب الله مثلا للذين آمنوا بحال أم المؤمنين عائشة ، وهى الطاهرة بنت الطاهر ، وزوج أطهر من فى هذا الوجود ، تطاول المفترون عليها بالإفك ، وقال الله تعالى فيهم « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ، لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين ، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء ، فأولئك عند الله هم الكاذبون ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة ، لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ، إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ، ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ، إن كنتم مؤمنين ، ويبين لكم الآيات ، والله عليم حكيم »(١)

هذا توجيه عظيم لمن يسمع إفكا على طاهر من الطاهرين ، أو طاهرة بينة الطهارة ، فأول واجب على المؤمن إذا سمع إفكا أن يظن خيرا بالمؤمن ويجعل حال الصلاح هى الظاهرة ، وهى الحاكمة ، فإن كان ممن يظن الظنون فعليه أن يتثبت حتى يجىء الدليل ، وهو أربعة شهداء ، ليكون الدليل مقابلا لظن الخير بأهل الإيمان ، فإن لم يكن الدليل كان على المؤمن أن يقول هذا بهتان عظيم ، وإنه لا يسوغ لمؤمن أن يتلقى قولا يرمى من غير دليل ، ولا تثبت ، ثم يزيد الظن به ، فيقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، ويحسبونه تسلية ، وأمرا هينا وهو عند الله عظيم .

وفى هذا النص السامى بيان للمستهينين الذين يشيعون القول الفاسد ، وما ينبغى أن يكون عليه المؤمن ، وإن الإسلام يريد جماعة طاهرة عفيفة لا يسودها إلا الكلام الطيب النزيه العف .

---

(١) النور : ١١ — ١٨

اللعان :

٢٠٣ — جاء رجل إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يبثه شكواه ، ويقول : « إن الرجل يجد الرجل مع أهله ، فإن قتله قتلتموه ، وإن تكلم ضربتموه ، وإن سكت سكت على غيظ اللهم بين ، فكان اللعان .

وهو يكون فى حال رمى الرجل زوجته بالزنى ، فقد جعل الله تعالى حكما خاصاً ، مخصصاً لمن يرمى أى محصنة غير زوجته ، لأنه لا يمكن أن يرمى زوجته إلا وهو فى عذر غالباً ، فكان اللعان للتثبت من الواقعة التى تتضمن الوقوع فى الفاحشة من الزوجة ، وقد بين الله تعالى اللعان بقوله تعالت كلماته :

« والذين يرمون أزواجهم ، ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم ، فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها ، إن كان من الصادقين . ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وأن الله تواب حكيم »[١] .

والشهادة هنا هى الحلف بالله تعالى ، لأن الحلف فيه إشهاد لله سبحانه وتعالى ، فالرجل يحلف أربع مرات أنه صادق فيما رماها به من الزنى ، أو نفى الولد ، إن كان الرمى بعدم نسبة الولد إليه ، ويتضمن ذلك الرمى بأنها حملت به من زنى ، فإذا حلف هذه المرات الأربع ، حلف الخامسة بأن يحلف بالله أن لعنة الله تعالى تنزل به إن كان من الكاذبين.

والمرأة ينزل عليها العقاب ، وما حده القرآن الكريم ، فتحلف أربع مرات إنه لمن الكاذبين ، وتحلف الخامسة بأن عليها غضب الله إن كان من الصادقين .

---

(١) النور : ٦ـ١٠

وإن التحالف إن تم على هذا الوجه رفع عن الرجل عقوبة القذف ، وهو ثمانون جلدة ، وعن المرأة عقوبة الزنى ، ولقد حكم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك .

ولكنه صلى الله تعالى عليه وسلم فرق بينهما فرقة أبدية ما داما على هذه الحال ، لأن الحياة الزوجية تقوم على المودة ، والمودة تقتضى الثقة بين الزوجين ، وبعد هذا التزامى ، وتكذيب كل واحد لصاحبه ، ذهبت الثقة ولا مودة مع فقد الثقة ، فلا يتحقق معنى الزوجية الذى نص عليه فى كتابه الكريم « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة[1] » ولا تراحم بين زوجين يشك أحدهما فى صاحبه ، ولا يطمئن إليه .

٢٠٤ — وإن ما ذكرناه من نصوص القرآن فى الزنى والقذف واللعان ، يتجه بالمؤمن إلى أن يكون طاهرا نزها عفيفا ، ويتجه بالجماعة الإسلامية إلى أن تسودها الفضيلة ، فلا تترامى برفث القول وفسوقه لأن فسوق القول يؤدى إلى فعله ، والترامى بالفاحشة يؤدى إلى ارتكابها .

وإن الرذائل لا تنمو إلا فى أجواء فاسدة ، والفضائل لا تخبو إلا فى أوباء الرذائل .

ولعل فساد مجتمعاتنا الحاضرة سببه الترامى بالفحشاء صراحة ، أو بلحن القول إذ يحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

---

(١) الروم ٠ ٢١

الخمر

٢٠٥ — ذكرنا حدودا أقيمت لحفظ النفس والمال ، وحدودا أقيمت لحفظ النسل وحفظ البيئة الاجتماعية ، والآن نذكر مايفسد العقل وقد ترك الله لنبيه تقدير العقوبة لها . وإن كانت الجريمة قريبة من جريمة القذف ، ومن جنسها ، ولذلك فهم فقيه الصحابة علىّ كرم الله وجهه عقوبتها من عقوبة القذف وقد جاءت النصوص القرآنية مشيرة إلى مضار الخمر ، وأنها شراب مذموم ، وجاءت بالنهى عنها ، وأول آية نزلت مشيرة إلى أنها أمر غير حسن قوله تعالى :

« ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسنا ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »(١) .

وقد كان ذلك النص متضمناً استهجاناً لها . وهو استهجان ببيان أنها شىء غير مستحسن فى ذاته ، فهو مقابل للأمر المستحسن، والمقابل للمستحسن لا يكون إلا مستهجناً .

وكان ذلك أول تنبيه للعرب باستهجانها ، لأنهم كانوا يألفونها فى جاهليتهم ، ويتفاخرون بشربها كما يفعل أهل الجاهلية فى هذا الزمان الذى نعيش فيه .

وهذه الآية نزلت فى مكة ، فلما كانت الهجرة ، وأشرب المسلمون حب الإسلام أشار القرآن إلى ما يوجب تحريمها ، فقال تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما »(٢) .

وقلنا إن هذا النص السامى يوجب تحريمها ، لأن كل أمر غلبت مضاره

---

(١) النحل : ٦٧ .

(٢) البقرة : ٢١٩ .

على منافعه يوجب العقل أن يحرمه الإنسان على نفسه ، لأنه ما من شيء إلا فيه نفع نسبي ، وضرر نسبي ، والعبرة بما يغلب ، ولكنه ليس تحريماً صريحاً ، ولذلك بعد هذا النص كان عمر رضى الله عنه يقول : اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً .

وإن النفس العربية كانت قد ألفت شربها ، وتعودته ، فلابد من تربية تخلع هذه العادة غير الحسنة فجاء النص الآخر الكريم ليربى النفس على البعد عنها ، فقال تعالى . « يأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون »[1] .

وإنه لا يتصور إيمان من غير صلاة ، فالصلاة أمر محتوم ، وقد نهى عن أن يقربها ، وهو سكران ، حتى يعلم ما يقول ، والعلم بما يقول هو العلم بما ينبغى قوله وما لا ينبغى ، ونتائج القول ، وتحرى الصدق ، وكل هذا لا يكون إلا من ذوى وعى كامل مدرك لحقائق الأمور ، وغاياتها ، ولا يكون ذلك إلا إذا كان على بعد من الشرب بوقت طويل ، وقال سبحانه لا تقربوا الصلاة ، ولم يقل لا تدخلوا فى الصلاة ، لأن النهى عن المقاربة أبلغ من النهى عن الدخول .

وإذا كانت الصلوات خمساً موزعة فى النهار وزلفاً من الليل ، فإنه لابد أن يكون على صحو كامل من قبل الفجر حتى لا يقرب صلاة الفجر ، وهو لا يعلم ما يقول ، ولابد أن يكون فى صحو قبل الظهر ، ولابد أن يكون الصحو مستمراً إلى العصر ، لقرب ما بينهما ، ومثل ذلك المغرب والعشاء ، وبذلك يذوق المسلم حلاوة البعد عنها ، كما تعودها من قبل ، وهى شراب غير مرىء .

فكان ذلك النص الكريم تربية للنفس المؤمنة ، وعلاجا لترك أمر مذموم ألفوه بأمر حسن عرفوه وذاقوا حلاوته .

---

(١) النساء : ٤٣ .

ولم يجد عمر المدرك بنور الله فى ذلك بياناً شافياً ، لأنه يرغب فى نهى قاطع ، لا تردد فيه .

ولقد نزل بعد ذلك الأمر الحاسم القاطع الناهى نهياً لازماً فقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ، والأنصاب والأزلام ، رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله، وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » (١) .

وقد قال علماء البلاغة إن قوله تعالى « فهل أنتم منتهون » هى أبلغ صيغ النهى ، ويجدر بنا هنا أن ننبه إلى أمرين .

ـــ أولها ـــ أن أهل الجاهلية فى هذا العصر يقولون إنه لم يكن ثمة نص على النهى مثل قوله : « لا تشربوا » وإن ذلك القول التافه كان غير جدير بالالتفات إليه ، ولكن كثر ترداده ، فحق علينا البيان فنقول :

إن النص الكريم شدد فى النهى من وجوه كثيرة ـ أولها ـ أنه قرن الخمر والميسر بالعبادة بالذبح على النصب ، وتلك قرينة التحريم فى ذاتها .

ـــ وثانيها ـــ أنه وصفها بأنها من عمل الشيطان ، وأنها رجس ، أى أمر قـــذر فى ذاته ، فهى ضارة ، ولا تتقبلها النفس الفطرية ، ومضارها الجسمية معلومة لكل مدرك أريب .

ـ وثالثها ـ أنه طالب باجتنابها ، والاجتناب يقتضى البعد عنها ، وعن مجالسها ، وعن شاربيها ، وذلك أبلغ من قولك : لا تشربها .

ورابعها ـــ أنها تدفع إلى العداوة والبغضاء ، وهما أمران مفسدان ، مقوضان لبناء المجتمع .

وخامسها ـــ أنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، والصلاة فرض لازم

---

(١) المائدة : ٩٠ — ٩١

هو شعار الإسلام ، والصد عنه أشد الأمور فى الإسلام فهو حرام ، فكل ما يؤدى إليه يكون حراماً مثله ، لأن ما يفضى إلى الحرام يكون حراماً .

وسادسها ـ قوله تعالى ، « فهل أنتم منتهون » ، وقد قلنا إنها أبلغ صيغة فى النهى عن الفعل .

— الأمر الثانى — الذى يجب التنبيه إليه هو أن الخمر كل ما يخامر العقل ، ويستره ، ويمنعه من الإدارك المستقيم ، سواء أكان النىء من ماء العنب ، أم كان المطبوخ منه ، وسواء أكان من العنب أو البلح ، أو غيرهما .

وعندما نزل ذلك النص القاطع فى التحريم أراق الصحابة كل ما عندهم من أدنان الخمر ، ولم يكن فيها النىء من ماء العنب ، بل كانت كلها أنبذة .

فكل شراب من شأنه أن يسكر أو يؤدى إلى السكر يكون حراما سواء أكان نبيذ العنب أو التفاح أو البلح أو البصل أو نىء القصب ، وسائر ما يخترعه ابن الإنسان ليفسد عقله ، وسواء أكان سائلا أم كان جامداً .

ولقد عرضنا لهذا الأمر لأن بعض الفقهاء الكبار ظن أن الخمر هى النىء من ماء العنب إذا غلا واشتد وقذف بالزبد ، فتعلق به الجاهلون ، وحسبوا أنه يبيح الأنبذة ، وهو يعلم أنها مسكرة ، وطاروا بذلك القول ، ليستبيحوا الخمر ويبيحوها ، ونقول إن ذلك الإمام الجليل قد أخطأ ، وما كان عليهم أن يقلدوه فى الرأى ليتمكنوا من شربها ، بل كان عليهم أن يقلدوه فى فعله ، فقد قال رضى الله عنه وعفا عنه : « لو غرقت فى الفرات على أن أتناول قطرة من هذه الأنبذة ما تناولتها » .

٢٠٦ ـ وإن القرآن إذ شدد فى تحريم الخمر ، فإنه يعتبر ارتكابها جريمة تستحق العقاب ، ولكن ليس فى القرآن نص على عقوبة لها ، وفيه

نص على جريمة هى فى كثير من الأحيان نتيجة لها ، فإن السكران لا يدرى ما يقول فينطق برفث القول وبالفسوق وهى جريمة القذف ، ولقد قال على ابن أبى طالب فى الارتباط بين الجريمتين قال فى عقوبة الشرب : «إذا شرب افترى ، فيحد حد الافتراء ، وهو حد القذف» .

وقد ترك تقدير العقاب بالنص الصريح ، أو بالعمل المبين للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال فى الشارب «إذا شرب فاضربوه ، فإن عاد فاجلدوه ، فإن عاد فاقتلوه» .

وقد قيل له عليه السلام إننا بأرض بردنستدفىء بالخمر ، فقال عليه السلام لا تشربوها ، فقال القائلون إنهم لا يستطيعون ، فقال عليه السلام . فقاتلوهم .

البغى

٢٠٧ — جريمة البغى تعرض القرآن الكريم لبيانها ، والبغى معناه الخروج عن طاعة الإمام العادل بقوة لتأويل تأولوه ، فيشترط لتحقق جريمة البغى ثلاثة شروط :

أولا — أن يكون الإمام عادلا .

وثانيها — أن يكون البغاة لهم قوة تعسكر مناوئة لحكومة الإمام .

وثالثها — أن يكون خروجهم لإقامة العدل لا لمجرد الخروج ، والمحاربة والسعى فى الأرض بالفساد ، وبذلك يفترقون عن قطاع الطريق ، لأن قطاع الطريق يخرجون على الحاكم من غير تأويل للإفساد ، وانتهاك حرمات العباد .

وقد كانت عقوبة أهل البغى قتالهم من غير أن يكفروا ومن غير أن يعتبروا محاربين ، بل يقاتلون حتى تفل شوكتهم ، وأن على المؤمنين أن ينصروا الإمام العادل .

وهذا نص ما جاء فى كتاب الله تعالى خاصاً بذلك : «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله، فإن فاءت، فأصلحوا بينهما بالعدل، وأقسطوا إن الله يحب المقسطين، إنما المؤمنون إخوة، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون»[1].

ويستفاد من هذا النص الكريم أنه قبل القتال يجب العمل على رأب الصدع بجمع القلوب المتفرقة ، وتحرى أسباب التقاتل بين الطائفتين ، فإن أمكن إزالة أسباب الخصام ، فإنه بهذا يستقر السلام ، وإن تبين الظلم من إحدى الطائفتين كانت الباغية ، وحل قتالها ، وكان القتال فرضاً كفائياً على المؤمنين ، يعاونون العادل ، ويدفعون الآثم .

وتدل ثانيا على أن القتال له غاية ، وهو أن تعود إلى أمر الله تعالى ،

---

(١) الحجرات ٩ — ١٠ .

ويستقيم أمرها على جادة العدل فلا يؤسر منهم أسير ، وبالتالى لا يسترق منهم ، ولا تنهب أموالهم ، ولا يجهز على جريحهم .

وتدل ثالثاً على أنها إن عادت إلى صفوف المؤمنين تعامل بالعدل ، ولا تعامل بالانتقام ، فليست بينها وبين الحاكم خصومة ، إنما بينهما الأخوة الجامعة ، ولذلك عقب ذكر العقوبة بقوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون[1] » .

وقد ذكر حكم البغاة مجملا ، ولم يكن بغى فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن الخروج على حكمه كفر ، وليس ببغى يكون أساسه التأويل ، فلا تأويل ، وعمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صريح .

وكذلك لم يحدث بغى فى عهد أبى بكر ، بل حصلت ردة ، وكفر ، وكذلك لم يحصل بغى فى عهد الفاروق ، وفى عهد عثمان كان بغى ،ولم تكن مقاومة للبغاة ، حتى قتل الشهيد ذو النورين رضى الله عنه قتلة فاجرة وفى عهد على فارس الإسلام ، والمجاهد الأول بعد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان البغى ، بشروطه .

فقد خرج الخارجون على الإمام العادل على رضى الله عنه وكرم الله وجهه ، وزعموا أن لهم تأويلا . بدعواهم أن الذين أيدوه هم قتلة عثمان .

وتصدى على رضى الله عنه لمقاومتهم ، بعد أن حاول رتق الفتق ، وإصلاحه بالموعظة ، حتى أرادوه على القتال ، وخرجوا إليه فى صفين .

ثم خرج الخوارج من بعد ، وهم أشد البغاة تطرفا فى بغيهم ، وكان القتال بين أهل العدل ، وأهل البغى ، ويلاحظ أن علياً رضى الله عنه لم يجرد سيفه للقتال مهاجماً إلا بعد أن قتل معاوية عمار بن ياسر ، عندئذ تجرد على ، وهجم بجنده لأنه علم أنهم بغاة حقاً ، إذ قال عليه السلام لعمار تقتلك الفئة الباغية ، ولا نريد أن نخوض فيما قاله الفقهاء فإننا نذكر الحكم من غير تفصيل

---

(١) الحجرات : ١٠ .

٥ – المعاملات المالية

٢٠٨ – اشتمل القرآن الكريم على بيان الحلال والحرام في الأموال وطرق كسبها، لكن بيانها كان إجمالياً ولم يكن تفصيلياً كالأسرة لأن المعاملات مختلفة في تفصيلها وطرقها ويجمع أحكامها قواعد عامة تعرض القرآن لبيانها . وذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بيانه فيها .

وأول ما أمر به القرآن بالنسبة للمعاملات عدم أكل أموال الناس من غير أساس من التعامل المشروع أو الإنتاج مما أخرجت الأرض . ومن التحويل في الصناعات المختلفة . فقد قال تعالى :

يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل . إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم . ولا تقتلوا أنفسكم . إن الله كان بكم رحيما[١].

وإن هذا النص يدل على أمور ثلاثة: أولها- النهي عن أكل مال الناس بالباطل أي بغير حق موجب. وثانيها- أن أساس التعامل بين الناس هو التراضي فيما أباح الله تعالى به . وثالثها – أن أكل الناس بالباطل وشيوعه مثل شيوع الرشا والربا ، وغيرهما من المعاملات الفاسدة التي تتضمن في ذاتها أكل الأموال بالباطل يؤدي إلى ضياع قوة الأمة ، وقتل روح التعاون في الجماعات ، ولذا كان قوله تعالى : «ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما» .

ولقد صرح القرآن الكريم بالنهي عن الرشوة ، وخصوصاً رشوة الحكام التي تذهب بالثقة ، وتفسد العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وتجعل أمور الناس فوضى ، فقد قال تعالى : «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون»[٢].

وإن هذا النص الكريم يدل على حرمة الرشوة ، وقد سماها في موضع

---

(١) النساء ٢٩ (٢) البقرة: ١٨٨ .

آخر السحت ، ويدل على أن الرشوة أكل لأموال الناس ، وإفساد للحكم ، وضياع للعدل ، وقد أشرنا إلى ذلك عند الكلام فى أن الأصل للعلاقة بين الناس ، وهو مراعاة العدالة .

وقد ذكر القرآن أن من أسباب ضياع اليهود . وفساد الحكم فيهم السحت وقد قال تعالى فيهم : « سماعون للكذب أكالون للسحت . فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين[1] » .

ومن الأكل المال بالباطل تطفيف الكيل أو الميزان أو تقدير الأشياء بأى نوع من التقدير فقد قال تعالى : « ولا تقربوا مال اليتيم حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل ، والميزان بالقسط ، لا تكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون »[2] .

وقال تعالى : « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين ، كلا إن كتاب الفجار لفى سجين وما أدراك ما سجين ، كتاب مرقوم ، ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين وما يكذب به إلا كل معتد أثيم . إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون[3] » .

وترى من هذا الوعيد الشديد للذين يطففون ، الذين يظلمون الناس فى الكيل .

وقد يقول قائل لماذا اختص القرآن من بين المعاملات المادية إيفاء الكيل والميزان بالذكر .

ونقول إن الوفاء فى الكيل والميزان صورة حسية لعدالة المؤمن فى

---

(١) المائدة : ٤٢ (٢) الأنعام : ١٥٢ . (٣) المطففين : ١ — ١٤ .

المعاملات ، ويتحقق فيها بالحس معنى قوله عليه السلام « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » .

فالأمر بوفاء الكيل والميزان أمر بالعدالة النفسية والأدبية فى كل العلاقات الإنسانية . وقد اهتم القرآن بذلك .

٢٠٩ — وإن الإسلام لحرصه على أن يكون التعامل على أساس سليم من العدالة، والرضا الصحيح . أمر بكتابة الديون والعقود ، والإشهاد عليها لكيلا تكون مشاحة ، والمشاحة تؤدى إلى المنازعة، بله أكل أموال الناس بالباطل ، ولذا قال سبحانه :

« يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب ، وليملل الذى عليه الحق ، وليتق الله ربه ، ولا يبخس منه شيئا فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل، واستشهدوا شهيدين من رجالكم . فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، أن تضل إحداهما ، فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ، ولا تسئموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ، ذلكم أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ، إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شىء عليم . وإن كنتم على سفر ، ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة ، فإن أمن بعضكم بعضا ، فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه ، ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ، والله بما تعملون عليم »(١)

هذا نص شامل من نصوص القرآن الكريم معجزة هذا الوجود وهو يدل على أمور :

---

(١) البقرة ٢٨١ — ٢٨٣

أولها — لزوم كتابة الدين ، وأن تكون هذه الكتابة يتولاها كاتب عدل مأمون تحريف القول ، أو تغييره ، وأن على هذا الكاتب أن يجيب إذا دعى إلى الكتابة . والكتابة مطلوبة فى كل الأحوال سواء أكان الدين صغيراً أم كبيراً بشرط أنه مقدار يدخل فى معنى عرفا .

ثانيها : أن الذى يملى الدين هو من عليه الدين . فإن كان ضعيفا لايدرك العقود . أو سفيها لايحكم التصرف . أو كان لايستطيع أن يملى لضعف فى بيانه . أو فى تعبير : يملى ولى يختاره . أو يكون مختاراً له من قبل القضاء المهيمن او الشرع .

ثالثها : أنه لايستثنى من الكتابة إلا التجارة الحاضرة التى تدار بين التجار . كألا تكون سلعة عند تاجر . فيأخذها من جاره . أو متعامل معه على أن يرسل إليه الثمن لهذه التجارة الحاضرة إن باعها فلتسهيل التعامل استثنيته من الكتابة .

رابعها : أنه إذا كان الدائن والمدين على سفر . ولم يجدوا كاتبا . فإن الرهان التى تقبض تقوم مقام الكتابة فى الاستيثاق من وفاء الدين .

خامسها : أنه لا بد من الشهادة بأن يكون ثمة شاهدان يحضران الإملاء ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان على أن يكونوا جميعا من العدول ، والشهادة لأجل الأداء عند الارتياب أو المشاحة ، ولذلك قال تعالى : « أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » أى عند الأداء .

هذا تفصيل محكم جاء فى محكم التنزيل ، وإذا علمنا أن مشاحات الناس أكثرها فى المداينات والمبايعات ، سواء أكانت فى داخل الإقليم ، أم فى أقاليم علمنا لماذا عنى القرآن الكريم المنزل من عند الحكيم العليم بالمداينات والعقود تلك العناية .

وإن تعجب فاعجب من قول كثيرين من الفقهاء أن الأمر هنا للإرشاد لا للإلزام ، وعجبنا من أن يتصوروا أن ذلك التفصيل إرشاد ، وليس حكما تكليفياً . والله أعلم بكتابه .

الربا في القرآن :

٢١٠ — من وقت البعث المحمدى والإسلام لايرى التعامل بالربا علاقة مالية صالحة ، بل إنه فى الآية التى نزلت بمكة كان فيها استنكار ، وعده عملا غير صالح اقرأ قوله تعالى فى سورة الروم المكية :

« وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله . وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله . فأولئك هم المضعفون[1] .

وهذا النص يفيد أن الربا لا يرضى عنه الله . وإن كان فيه زيادة ، فهى زيادة آثمة . وإذا كان المتعاملون يريدون أن يتضاعف مالهم فسبيل ذلك هو إعطاء شطر من المال للسائل والمحروم . فإن المال ينمو بذلك وتكون الزيادة خيراً لأن ذلك السبيل هو التعاون وجاءت من بعد ذلك فى المدينة الآيات المحرمة للربا تحريما قاطعا حاسما . منها قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون ، واتقوا النار التى أعدت للكافرين ، وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون »[2] .

والربا المذكور هنا ، وفى الآية التى تلوناها من قبل ، وفى الآية التى سنتلوها من بعد هو الزيادة فى الدين نظير الأجل ، فليس هو الدين ذاته ، إنما هو الزيادة ، ونذكر هذا تصحيحاً لفهم بعض الذين يبيحون الربا أو بعضه ، فقد قال قائل منهم عفا الله عنه إن المحرم هو مازاد على ضعف الدين . وسارع إلى تصديقهم بعض القانونيين الذين يؤمنون بما فى هذا الزمان أكثر من إيمانهم بالقرآن .

والوصف بالمضاعفة للزيادة فى هذا الزمان هو لبيان قبح ما يؤدى إليه الربا . إذ تتضاعف الزيادة مضاعفة كثيرة : وفى ذلك ما فيه من إرهاق المدين . وقبح حال الدائن . وأكله المال بالباطل من غير عمل ولا كد . ولا تعرض للخسارة .

---

(١) الروم : ٣٩ .

(٢) آل عمران : ١٣٠ — ١٣٢ .

ولقد نزلت آية فى تحريم الربا تحريماً لا يقبل أى تأويل . ولو كان فاسداً . كالذى قيل فى معنى الربا فى الآية السابقة ، فقد قال تعالى : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا . وأحل الله البيع وحرم الربا . فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف . وأمره إلى الله . ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم . ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يأيها الذين آمنوا اتقوا الله . وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله . وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . وإن كان ذا عسرة فنظرة إلى ميسرة . وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون . واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله . ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون »(١) .

هذا نص صريح قاطع فى التحريم .

٢١١ — ولكن قوماً ممن تعلموا علم الإسلام لم يأخذوا بظاهر معناه . بل لأنهم عودوا المناقشة اللفظية فى الألفاظ . وإلقاء ظلال من الإبهام على معانيها الواضحة البينة . وقد لانت نفوسهم . وأخضعوها لحكم الزمان . لا لحكم القرآن . وكأنهم تعلموا ليخرجوا الكتاب على غير مخارجه ، ويتأولوه بغير متأوله . ومرنوا على ذلك . وأضلوا كثيراً بعد ضلالهم .

أإذا جاءك رجل وقال لك أشك فى أن هذه الشمس التى هى السراج المنير هى الشمس المذكورة فى القرآن أتصدق له قولا . أم تحسب لكلامه وزناً . أم تجعله فى ظل العلماء المشتغلين بالدراسات الإسلامية أياً كان لونهم ، وأياً كان زيهم .

---

(١) البقرة : ٢٧٥ — ٢٨١ .

إن رأيت ذلك فى المتفيهقين من الذين يتكلمون فى القرآن وعلوم الإسلام من قال إن عمر قال « إن للربا تسعة وتسعين وجها » ثم يردفون ذلك بأن يقولوا إن لفظ الربا فى القرآن كان غير معروف لعمر . فكيف يكون واضحاً لدينا . كبرت كلمة تنطق بها أفواههم التى أثمت بالقول فى كتاب الله تعالى بغير علم .

من هؤلاء تجدنا مضطرين لأن نشرح معنى كلمة الربا . وإن كنا نقول إن الشمس التى نراها هى التى فى القرآن .

يقول أبو بكر الرازى الشهير بالجصاص فى كتابه أحكام القرآن إن الربا قسمان ربا لغوى يعرف من اللغة . وهو ربا القرآن . وهو ربا الجاهلية وهو أن يزيد فى الدين فى نظير الزيادة فى الأجل . والقسم الثانى هو الربا الاصطلاحى . وهو الذى جاء فى الحديث « الذهب بالذهب مثلا بمثل يداً بيد والفضة بالفضة مثلا بمثل يداً بيد والتمر بالتمر مثلا بمثل يداً بيد والبر بالبر مثلا بمثل يداً بيد . والشعير بالشعير مثلا بمثل يداً بيد . والملح بالملح مثلا بمثل يداً بيد . فمن زاد أو استزاد فقد أربى . فهذا النوع من التعامل سماه النبي ربا فكان ربا بمعنى الاصطلاح . وهو الذى فيه الوجوه الكثيرة .

أما ربا القرآن فهو ربا الجاهلية . وهو الذى قال فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى حجة الوداع : « ألا إن ربا الجاهلية موضوع وإن أول ربا أبدأ به هو ربا عمى العباس بن عبد المطلب . فإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون » .

والربا الجاهلى معروف وهو الزيادة فى الدين فى نظير الأجل . فإن سدد فى عام كانت الزيادة واحدة وإن لم يسدد ضاعف الزيادة وهكذا مما نراه فى المصارف فى هذه الأيام .

ولكن الذين يثيرون الشك حول الشمس والقمر المذكورين فى القرآن

يثيرون الشك فى ربا الجاهلية . فيقولون ، ليس ربا الجاهلية هو الربا الذى يكون فى القروض الاستغلالية ، لأن المقترض يستغل الدين فيكتسب فيكون من عدلهم المزعوم أن يجعلوا للدائن سهما محدودا فى الدين سواء أخسر المقترض أم أكتسب ، ويقصرون ربا الجاهلية على الربا الذى يكون فيه قرض استهلاكى يقترض المدين ليدفع حاجات ضرورية ، ويكون الربا فى هذه الحال منافياً للمروءة والخلق الكريم ، ذلك تأويلهم الذى لا سند له من نص ، أو قياس معقول ، ولكنه تفكيرهم الذى يخرجون به عن حدود النص.

٢١٢ — إن التأويل بتخصيص لفظ عام فى القرآن يكون بتخصيص من القرآن نفسه ،أو بتخصيص من المفسر الأول للقرآن وهو النبى ، فكل تخصيص لعام القرآن الكريم من غير ذلك يكون حكم الهوى فى القرآن ، ويكون رداً على صاحبه ولفظ القرآن عام يعم الربا فى القرض الاستهلاكى والاستغلالى على سواء ، وهذا فوق أن ذلك التأويل الشاذ عند علماء الشريعة فيه مصادمة للنص القرآنى ، من غير دليل ، فإن النص القرآنى فيه ما يدل على بطلان ذلك التأويل الذى دفع إليه الهوى ، والحال التى كانت عليه البلاد الحجازية تناقضه. والحوادث التى كانت فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تقاومه لما يأتى:

أولا — أن المشركين قالوا مقالة أولئك الذين يحكمون هواهم فى القرآن ذلك أنهم برروا أكلهم الربا بأن شبهوه بالبيع . وقال الله فيهم « ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا » ومؤدى كلامهم أنهم يعقدون مشابهة بين ما يكسبه المقترض بالبيع والشراء ، والاتجار فى الشام وفارس ، بما يأخذه المرابى من ربا ، أى إنهم يقولون إنه بعض مما يكسبه المقترض بالبيع والشراء . وهو جزء منه . فرد عليهم بأن البيع حلال ؛ لأن الكاسب بالبيع يتحمل كسباً وخسارة . وحرم الربا لأنه الكسب من غير تعرض للخسارة . وبذلك يكون الكسب من البيع طبيعياً . والكسب بالربا يكون غير طبيعى لأن النقد لا يلد النقد .

وثانياً — قوله تعالى : « فإن تبتم فلكم رءوس أموالكم » فإن التعبير عن الدين برأس المال إنما يكون فى المال المتخذ للاستغلال . ولا يقال رأس المال للمال المتخذ لاستخدامه فى الضرورة . فكان هذا دليلا من النص يفيد أن التحريم وارد فى القرض الاستغلالى ابتداء . والاستهلاكى تبعاً . ذلك أن النص بعمومه يحرم كل زيادة . لأن أى زيادة تنقض التوبة وتكون ظلماً .

وثالثاً — أن أحوال أهل مكة والطائف تجعل القرض للاستغلال هو الغالب بينهم وأن القرض للاستهلاك لم يكن شائعاً بينهم . فقد كان أهل مكة وما حولها تجاراً . ينقلون بضائع الروم إلى الفرس عن طريق الشام واليمن . وينقلون بضائع الفرس إلى الروم عن هذه الطريق أيضاً . ولذلك كانت لهم رحلتان تجاريتان إحداهما رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام . كما قال تعالى « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع . وآمنهم من خوف »[1] .

وإذا كانت مكة والطائف بلدين تجاريين ، فلابد أن نتصور أن منهم من كان يتجر بنفسه بائعاً مشترياً ، ومنهم من كان يتجر بطريق غيره . فيعطى لمن يتجر بنفسه على أن يكون الربح بينهما بنسبة معلومة ، والخسارة تكون على صاحب رأس المال ، كما كان يفعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى مال خديجة بأمانة الأمين صلى الله تعالى عليه وسلم .

ومنهم من كان يدفع المال إلى غيره على أن يكون له كسب محدود مما يئول إلى التاجر ، كسب التاجر أو خسر ، وقد روى ذلك من معاملات قريش ،

---

(١) قريش : ١ — ٤

فقد كان ذو المال يدفع المال إلى التاجر على قدر من المال هو الربا . فإن سدد أخذ رأس المال مع الزيادة ، وإن لم يأخذه أبقى المال وضاعف الزيادة ولذلك أثر عن الربويين أنهم كانوا يقولون للمدين ادفع أو ضاعف والمراد مضاعفة الزيادة .

وقد قال أصحاب السيرة فى مقدمات غزوة بدر أن قريشاً كلها خرجت بكل مالها للتجارة حتى حلى النساء . فأرادها أهل الحق كما صادروا من أموال المؤمنين . فاستنفر أبو سفيان قريشاً ، وخرج الجند لحماية العير ، فكانت الغزوة ، ولابد أن يكون فى هذا المال . ما كان من مال المتاجرين، وما كان من مال غيرهم أخذ للتجارة وما كان ديوناً مأخوذة ليستغلها المدينون .

ورابعا — أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال فى تحريم ربا الجاهلية وأول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، ولا يتصور من العباس رضى الله عنه أن يكون عربى محتاجا لقدر من المال فى أموره الضرورية . فيأبى إلا أن يقرضه ربا . وهو الذى كان يسقى الحجيج فى موسم الحج نقيع الزبيب والتمر .

وخامسا — أنه لوحظ فى بعض أخبار العرب أن الأثرياء كانوا يقترضون . فكان أبو جهل عليه دين لرجل ليس من قريش وماطله . فاستعان بقريش لتحمله على الوفاء . فسخروا منه ، وأشاروا عليه بأن يستعين بمحمد بن عبد الله ورسول الله ، فأعانه . فقد قال الرسول القوى الأمين . بعد أن صك الباب صكة أرعدت مفاصله : أد للرجل دينه فأداه صاغراً غير كابر .

ويروى أن بنى المغيرة قد استدانوا من ثقيفة قبل أن يسلم الفريقان فلما جاء القرآن بالنهى عن الربا ، وأنه موضوع ، اختلف الدائن الثقفى مع المدين من بنى المغيرة، أيحتسب من رأس المال ما أخذ من ربا من قبل التحريم

أم لا يحتسب . أراد المدين أن يحتسب ، وأراد الدائن ألا يحتسب ، فاحتكموا إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم . فحكم بينهم بمقتضى النص القرآني .

وإن بني المغيرة لم يكونوا فقراء . بل كانوا قوما من الأثرياء ، وفيهم من قال الله تعالى فيه « ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا ممدوداً وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً » (١) .

ومنهم من يدعي أن النبوة لا تكون إلا في رجل ثري عظيم في منظره ، وقال سبحانه عنه « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » الآيات (٢) .

وإذا كان ما بين الاغنياء من تفارض بزيادة . فدعوى إخراج القرض الاستغلالي من نطاق الربا دعوى باطلة ، وهي تدل على أن القائلين أخضعوا حكم القرآن لحكم الزمان . فضلت مداركهم ؛ وزاغت قلوبهم « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة . إنك أنت الوهاب » (٣) .

وسادس الأمور التي تثبت أن ربا القرآن يعم القرض الاستغلالي، والقرض الاستهلاكي أن العرب في حياتهم البداثية كانوا يقومون على أدنى معيشة من المادة . فما كانت لهم مطالب متعددة . وما كانوا يحتاجون إلى جهاز لابنة يجهزونها ، ولا لأنواع من الأطايب يطلبونها . بل يكتفون بالقليل ، وهؤلاء لا يكون فيهم قرض للاستهلاك أبداً . إن تعدد ألوان المطالب التي قد تضطر للاقتراض لقضائها ، وليد حياة متحضرة ، ولم يكن هنا حضارة عند أهل البادية .

---

(١) المدثر : ١١ – ١٤

(٢) الزخرف : ٣١

(٣) آل عمران : ٨

ولذا نقول إن ربا الجاهلية ، وهو الربا المحرم فى القرآن يكاد ينصب على قرض الاستغلال ابتداء . والثانى يجىء من عموم النص ، وفى التعاون بالزكاة غنى عن الاقتراض للاستهلاك .

شيوع الربا .

٢١٣ — لقد شاع التعامل بالربا ، حتى صار يسيطر على النظام الاقتصادى ، ويقول اقتصاديو هذا الزمان كيف يسوغ ترك التعامل بالربا وهو قوام الاقتصاد الحاضر .

ونقول : إن هذا الزمن هو الذى تحققت فيه نبوءة رسول الله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، إذ يقول : «يأتى زمان على الناس يأكلون فيه الربا ، قيل الناس كلهم يا رسول الله . قال من لم يأكله ناله غباره» .

وإن الذين أدخلوا هذا النظام فى كل قارات العالم هم اليهود ، وأذكر منهم آل روتشيلد ، الذين وزعوه فى القارات ، ونشروه ، وسيطروا به على العالم الاقتصادى ، وكان الربا سبيلا للاستعمار فى البلاد الإسلامية ، وخصوصاً العربية .

ومهما يكن مصدر الربا ، ومهما يكن الذين أشاعوه ، فإننا نقرر حقيقتين :

أولاهما — أن تحريم الربا ليس بسبب خلق ، حتى يقصر التحريم على القروض الاستهلاكية ، كما يتوهم بعض المتفقهة ، إنما الأساس فى تحريمه اقتصادى ، فالإسلام يدعو إلى نظام اقتصادى يقوم على منع الربا ، لأن الربا من شأنه أن يجعل رأس المال منتجاً من غير عمل عامل ، بل من غير تحمل لتبعة العمل ، وإذا ساد وجدت طائفة من الناس يتخذون التعطل سبيلا ويأكلون ثمرات غيرهم من التجار والزراع والصناع ، ولقد قرر المحققون من الذين درسوا الاقتصاد الحقيق أن الكسب بالانتظار

لا ينمى الأمة اقتصادياً ويفسدها اجتماعياً ، إذ أن الكسب بالانتظار لا ينتج ، إنما الذى ينتج هو الذى يعمل زارعا ، أو تاجراً ، أو صانعاً . وإنك إذا درست ما أحله الله تعالى وما حرمه من المكاسب ، تجد أن المكاسب التى أحلها الإسلام ، هى التى تزيد ثروة الأمة ، وتنمى إنتاجها أو تنفع الناس ، والمحرم من المكاسب ما لا ينمى ثروة الأمة ولا ينفع الناس ولاشك أن الكسب بالربا . ليس فيه تنمية للثروة . ولا عمل لنفع إنما الذى يكون منه هذا هو المقترض ، فبأى حق يأخذ المتعطل منه ثمرة عمله من غير تحمل لخسارة إن كانت .

الحقيقة الثانية — أن التعامل فى الإسلام يقوم على أساس التعاون . وأن يفيض ذو المال على من لا مال عنده ويتعاونا على الاستغلال . بأن يكون ثمة مشاركة فى الكسب والخسارة . ولذلك كانت المضاربة الشرعية . أو مايسمى شركة مساهمة ومعناها أن يدفع المال لمن يستغله على قسمة الربح بينهما . بأسهم شائعة ، كالثلث والربع على أن تكون الخسارة على صاحب رأس المال . وهو المبدأ الذى تقوم عليه الشركات المساهمة وان هذا النوع هو الذى يتفق مع مبدأ التعاون الذى دعا إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى: « وتعاونوا على البر والتقوى . ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » (١).

وهذا غير الربا لأنه استغلال من جانب المرابى ، والعمل على غيره من غير أن يتعرض للخسارة ، وهو يؤدى الى التنابز .

وقد قرر المجددون من علماء الاقتصاد أن سبب الآفات ، التى تقع هو من نظام الفائدة ، وان ذلك النظام سبب بقائه مع فساده ، وإدراك الناس لهذا الفساد أنه لا يوجد نظام يحل محله .

٢١٤ — وأخيراً نقرر أن النظام الاقتصادى فى الإسلام لا يقوم

---

(١) المائدة . ٢

على الربا ، بل إنه يناقضه ، لأنه يجعل صاحب رأس المال يكسب من غير عمل ، ومن غير تعرض للخسارة .

وإن الذى يلاحظ أن العالم الآن يحكمه نظامان :

— أحدهما يجعل رأس المال كاسباً دائماً ، من غير أن يقوم صاحبه بعمل يتحمل تبعاته ، ويؤدى به خدمة عامة تنفع الناس ، وتمد الجماعة بالخير فعملهم فى الحياة أن يملكوا رأس المال وغيرهم يعمل ويستغله كاسباً ، وخاسراً ، ثم يجىء إليهم المال رزقاً رخيصاً ، ليس مكسواً بجهد عامل .

وثانيهما — نظام يلغى رأس المال ، ويجعل العمل وحده هو طريق فى مصنع بصنع . أو فى حقل يزرع . أو أى عمل ينفع الجماعة .

والنظامان يتناحران . وقد يؤدى التناحر إلى أن يأخذ بعضهما من الآخر قليلا أو كثيراً . أفلا يتسع الوجود الإنسانى فى ذلك المضطرب لنظام يحترم رأس المال على أن يعمل فيه صاحبه يكسب من حلال وينتج ما ينفع الناس . فيكون نعم المال الصالح فى يد العبد الصالح ، ويمنع أن يكون كسب لأى مال من غير أى عمل وتحمل الخسارة . أى أنه يمنع الكسب بالزمن . إنما يكون الكسب بالعمل ، وبرأس المال الذى يعمل فيه صاحبه .

ذلك هو نظام الإسلام الذى سينتهى إليه العالم إن عاجلا أو آجلا .

ولو أن الذين يعملون فى الاقتصاد من المسلمين يؤمنون بالقرآن كإيمانهم بنظم هـــذا الزمان لكانوا الدعاة إلى اقتصاد القرآن . وعساهم يفعلون .

٦ — العلاقات الدولية فى القرآن

٢١٥ — القرآن يذكر أن الإنسانية كلها أمة واحدة . ويقول سبحانه وتعالى فى ذلك :

« كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم »(١).

وإن النصوص القرآنية تدل على وحدة الإنسانية فى خلقها وأصلها ، فالله تعالى يقول :

« يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً »(٢) .

فالرحم بين بنى الإنسان موصولة ، وإذا كانت الألوان مختلفة والألسنة مختلفة ، والأجناس متباينة ، فإن الأصل واحد ، ويجب أن تكون العلاقات مبنية على الأصل الموحد ، لا على التخالف الظاهر . يجب أن تبنى الأمور على الجذع لا على الغصون المتفرعة .

ولقد حد الله تعالى فى كتابه الكريم حدود العلاقة الإنسانية ، فقال تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير »(٣) .

فبهذا النص يبين القرآن الكريم أن العلاقة التى يجب أن تكون السائدة

---

(١) البقرة : ٢١٣ (٢) النساء : ١
(٣) الحجرات : ١٣

التعارف ، والتعارف تكون معه المودة ، والتعاون وإقرار السلام ، وإحياء التراحم .

٢١٦ - وإذا كان التعارف هو الأصل الجامع للشعوب والقبائل والأجناس، فالسلام لازم من لوازمه وهو الأساس لكل تعارف. فلا تعارف يوجب المودة مع الخصام والتناحر ، والتحارب .

ولذلك كان الأصل فى علاقات الدول بعضها مع بعض أو بعبارة أدق العلاقة بين المسلمين وغيرهم السلم لا الحرب، فالمسلم ينظر إلى من يخالفه نظرة الود الراحم ، لا العداوة القاطعة . ولذلك يقول سبحانه وتعالى : « يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ، فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات ، فاعلموا أن الله عزيز حكيم »[1] .

وإذا قامت الحرب بين المسلمين المؤمنين بالقرآن ، فإن الإسلام يتشوف للسلم يبتغيه ، ولا يريد الاستمرار فى مذبحة بشرية، فإن مالوا للسلم أجابهم المسلمون ، ولو كانوا يتوقعون الخديعة ، ما دامت لم تظهر أماراتها . ولذلك يقول سبحانه : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله، إنه هو السميع العليم ، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره ، وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم »[2] .

وقد تربت النفس المؤمنة على المحبة ، فكانت تكره القتل والقتال إلا أن يكون ذلك جهاداً ، ولذلك قال تعالى : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً ،

---

(١) البقرة : ٢٠٨-٢٠٩ (٢) الأنفال : ٦١ — ٦٣

وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون »(١) وكان القتال بالجهاد لدفع الشر وتعميم الخير ، لأن الإسلام يدعو إلى الخير ، وإلى الفضيلة ، وفضيلة الإسلام إيجابية وليست سلبية ، فهى تدافع الرذيلة ولا تستسلم .

وإذا كان الوجود يتنازع فيه الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، فإنه لا بد من دفاع الخير ، لقد أراد الإسلام للناس المحبة ، ولكن أراد إبليس لهم البغضاء ، فكان لا بد من النزاع بين مبدأ المحبة والبغضاء وإلا يدفع الشر ساد الفساد ، وعمت الرذائل ، لذلك شرع مبدأ الجهاد لدفع الشر ، ومنع الفساد ، ولقد قال تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين »(٢) .

لذلك شرع الجهاد فى الإسلام . وأول الجهاد كان عقب الاعتداء وفتنة المسلمين وإيذائهم ليرجعوا عن دينهم . عندئذ أذن الله تعالى بالجهاد وأوجبه ، فقال تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً . ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز »(٣) .

ولقد قال تعالى آمراً المؤمنين بالقتال : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم . وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل . ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه . فإن قاتلوكم فاقتلوهم . كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة . ويكون الدين لله : فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين(٤) » .

---

(١) البقرة : ٢١٦
(٢) البقرة : ٢٥١
(٣) الحج : ٤٠
(٤) البقرة : ١٩٠–١٩٣

ويقول سبحانه مبينا أن القتال لأجل الاعتداء ، وأنه ينتهي بنهايته : « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ، وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير »(١) .

فما كان السبب ليستبيح دماء المخالفين لأجل المخالفة ، بل يستبيحها ؛ لأنهم استباحوا دم أهله ، ولأنهم أرادوا حمل المؤمنين على تغيير دينهم ، وفتنوهم فى ذلك ، والفتنة كما قال تعالى أشد من القتل .

٢١٧ — ولأن الإسلام فى مشروعية الحرب هو دفع الاعتداء ، والفتنة فى الدين ، فإن الإسلام أباح الهدنة إذا أرادها المخالفون ، وحسنها ، ودعا إليها ، وقال تعالى فى ذلك وقد أذن بالقتال العام :

وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم ، فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، إلا الذين عاهدتم من المشركين ، ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحدا ، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، إن الله يحب المتقين »(٢) .

وفرض الإسلام هدنة إجبارية على المسلمين إن التزم بها المخالفون ، وهى ألا يكون قتال فى الأشهر الحرم ، وهى ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان» .

وواجب ألا يبتدىء فيها المسلمون قتالا ، إلا أن يكون امتداداً لقتال والسكوت يضر ولقد قال تعالى فى ذلك : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم . ذلك الدين القيم . فلا تظلموا فيهن أنفسكم . وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة . واعلموا أن الله مع المتقين »(٣) .

---

(١) الأنفال . ٣٨ — ٤٠ (٢) التوبة . ٣ — ٤ (٣) التوبة . ٣٦

ولا قتال فى الأشهر الحرم ، مادام المخالفون يحترمونها فإن انتهكوها .
فلا يصح لأهل الإيمان أن يظلموا فيهن أنفسهم . ويقول سبحانه وتعالى فى ذلك «الشهر الحرام بالشهر الحرام . والحرمات قصاص . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم . واتقوا الله . واعلموا أن الله مع المتقين» [١] .

ويقول سبحانه «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير . وصد عن سبيل الله ، وكفر به والمسجد الحرام . وإخراج أهله منه أكبر عند الله . والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم . حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر . فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة . وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» [٢] .

والإسلام إذ يقر الهدنة والعهود والمواثيق كما تلونا من كتاب الله، يحترم هذه المواثيق ما احترمها المخالفون المناوئون واستقاموا عليها .

٢١٨ — ولا يبيح الإسلام القتل والقتال بالنسبة لمن يريد السلام .
والله تعالى يقول فى ذلك «يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا . إن الله كان بما تعملون خبيراً» [٣].

ولقد أمر القرآن الكريم أن يحترم الميثاق بالنسبة لأهله . ولمن لهم به صلة .
ولذا قال تعالى «ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء . فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله . فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث

---

(١) البقرة : ١٩٤
(٢) البقرة : ٢١٧
(٣) النساء : ٩٤

وجدتموهم . ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم . فإن اعتزلوكم . فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم . فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ، ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم . ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها . فان لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم . وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً »(١)

إن هذا النص يدل — أولا — على ضرورة احترام المواثيق . وكف القتال عن أهل الميثاق . والذين له بهم صلة قومية . ويكون سلمهم سلما لهم . وحربهم حربا .

ويدل ثانياً — على أن الذين يكونون ذوى صلة بقوم بينكم وبينهم عداوة ، وحصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ، أى أنهم لم يريدوا أن يكونوا مع المؤمنين على قومهم ، ومع قومهم على المؤمنين ، فهؤلاء لا يقاتلون .

ويدل ثالثاً — على أن الذين يترددون فى موقفهم فهم يريدون السلامة لأنفسهم بمداهنة قومهم الذين يقاتلونهم ومداهنة المؤمنين فهؤلاء يحكم عليهم بالواقع ، فإن لم يقاتلوا المؤمنين فلا سبيل عليهم ، وإلا كان قتالهم حقاً بذلك الموقف البادى .

وإن هذا التقسيم يدل على أن القرآن الكريم يقرر نظرية الحياد . ويحترم المحايدين . فلا يرفع عليهم سيفاً . فالناس على ذلك فى نظر القرآن الكريم ثلاثة أقسام :

محاربون للمسلمين ، وهؤلاء يجب قتالهم لرد اعتدائهم . والأخذ بالنواصى والأقدام من غير هوادة . وهؤلاء هم المعتدون بالقتال أو بفتنة

---

(١) النساء ٨٩ : ٩١

المؤمنين كما قال تعالى : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين »[١].

والقسم الثانى أهـــل الميثاق الذين بينهم وبين المؤمنين ميثاق عدم الاعتداء . وهؤلاء يحترم ميثاقهم . بل يمتد احترام الميثاق إلى الذين لهم به صلة . بحيث يكون سلمهم واحدة وحربهم واحدة .

والقسم الثالث المحايدون الذين لايكونون مع المؤمنين . ولا مع أعدائهم واقعاً . لأنه ما دام الأصل فى العلاقات هو السلم إلا إذا حدث ما يوجب القتال . فمن لم يكن منهم ما يوجبه فإنه لا سبيل لأحد عليهم .

وقد فهم بعض الذين لايدرسون المسائل دراسـة فاحصة مستقرية أنه لا موضع للحياد فى الفقه الإسلامى وذلك كلام من لم يمحص الحقائق لأن القرآن الـكريم كما ترى جعل للحياد موضعاً . وهم الذين يعتزلون الحرب مع المسلمين أو ضـدهم . فقال لا سبيل عليهم . فكان الحياد ثابتاً بنص القرآن الـكريم .

٢١٩ — وإذا تلونا بعض آيات القرآن الـكريم التى فتحت باب القتال جهاداً فى سبيل الله نجدها صرحت بأن القتـــال كان للاعتداء من غيرنا بطريقين : قتل المؤمنين . والاعتداء عليهم ، وإخراجهم من ديارهم . والثانى بفتنتهم فى دينهم ، كما قال تعالى « وقاتلوهم حتى لا تـكون فتنة ويكون الدين كله لله[٢] » أى كل إنسـان يعتنق مايعتنق لا رقيب على قلبه إلا الله تعالى ، فلا إكراه فى الدين . ولا فتنة فيه .

وهنا يسأل سائل ألم يبح القرآن القتال إلا دفاعاً ، أو رداً للاعتداء ، ولم يبح الهجوم ، ونقول فى الجواب عن ذلك إن القرآن صريح فى أنه لا يباح القتال مع من ألقى السلام ، وبذلك يكون من المؤكد أن الإسلام

---

(١) التوبة : ١٤ (٢) الأنفال : ٣٩

لا يبيح الهجوم على الآمنين الذين يلقون السلام وإن ذلك حق لا ريب فيه . لأنه لا يباح الهجوم على من لا يعلن العداوة على المؤمنين ولكن هل يمنع الهجوم مطلقاً ؟ وللجواب عن ذلك نقول :

إن الذى استنبط من صريح الآيات التى تلوناها أننا لا نحارب إلا من اعتدى علينا أو فتننا عن ديننا . ومن الفتنة فى الدين أن يمنع المتدين من إقامة شعائر دينه ، وأن يحال بين الحق والدعوة إليه .

إنه فى هذه الحال يكون القتال ، ولكن يزاد عليها إذا قامت العداوة التى ابتدأها غير المؤمنين بالاعتداء على المؤمنين ، ومحاولة غزوهم فى ديارهم ، أو فتنتهم فى دينهم . فإنه عندئذ قتال يتعين العدو المترصد الذى لا يألو المؤمنين إلا خبالا ويودعنتهم ، وإرهاقهم ، فلا يكون الاقتصار فى الحرب على الدفاع بأن ينتظر المؤمنون حتى يهاجمهم الأعداء ، وقد بدت عداوتهم وأعلنوها صريحة لا إبهام فيها ، إنه كما قال بطل الجهاد على بن أبى طالب (ماغزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا) .

وبذلك نفسر قولنا إن المؤمنين ماقاتلوا إلا رداً للاعتداء بمثله أو توقعه . ولقد تلونا الآيات التى تنهى عن قتل من لا يعتدى علينا . ومن يعتزل قتالنا ، ومن يلق علينا السلام .

وإذا ظهر الاعتداء ، وما يسكت عنه إلا للاستعداد لمثله . كان القتال مشروعاً بكل ضروبه لهؤلاء الأعداء بالهجوم على مآمنهم . وبالقصد إلى مكامنهم . ولذلك يقول الله تعالى : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم . فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم . وخذوهم واحصروهم . واقعدوا لهم كل مرصد . فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم »[1] ، « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله

---

(١) التوبة : ٥ .

ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ، كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون اشتروا بآيات الله ثمناً قليلا . فصدوا عن سبيله . إنهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة . وأولئك هم المعتدون[١] » ؛ ويقول تبارك وتعالى : « ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم . وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة . أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه . إن كنتم مؤمنين ، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم . ويخزهم . وينصركم عليهم . ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم . ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم »[٢] .

ونرى من هذا النص أن الأساس هو الابتداء بالاعتداء فإذا ابتدأ الاعتداء وجب القتال بكل ضروبه دفاعاً وهجوماً بل إن خير الدفاع ما كان هجوما . ولا سبيل لإنهاء القتال مع المعتدين إلا بإحدى خصال ثلاث: إما الإسلام ، وأن يتوبوا ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، ويكونوا إخواناً ، وإما بالعهد يعاهدونه ، ويوفون به فما استقاموا فالعهد قائم ، وإلا فإنه ينطبق عليهم قول الله تعالى « وإما تخافن من قوم خيانة . فانبذ إليهم على سواء »[٣] . وإما الاستسلام . وأن يخضعوا لأهل الإيمان .

وقد قال تعالى فى ذلك : « يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم . ويثبت أقدامكم . والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم »[٤] .

---

(١) التوبة : ٦ ـ ١٠

(٢) التوبة : ١٣ ـ ١٥

(٣) الأنفال : ٥٨

(٤) محمد : ٧

ويقول سبحانه : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم . فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم »[1] .

٢٢٠ — وننتهى من هذا التتبع إلى حقيقتين ثابتتين : إحداهما — أن محاربة المؤمنين لأى قوم لا يكون إلا عند اعتدائهم بإخراج المسلمين من ديارهم ، أو إيذائهم فى دينهم . ومن الإيذاء أن يمنع الدعاة إلى الإيمان من أن يلاقوا الشعوب ، ويعرفوهم بالحق ، من شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، لأنه لا إكراه فى الدين ولكن بعد أن يتبين الحق من الباطل ، والغى من الرشد ، وذلك لقوله تعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى »[2] .

الحقيقة الثانية أنه إذا كان الاعتداء بأى ضرب من ضروبه ، فإن باب الجهاد يفتح دفاعا وهجوما وغزوا والتقاء ، لا يمنع مانع إلا ما توجبه الفضيلة .

وقد فهم بعض الناس أن القتال فى الإسلام لا يكون إلا دفاعا ، ولا يكون هجوما ، وذلك خطأ . والحق أن القتال لا يكون لقوم إلا إذا اعتدوا ، فإن كان الاعتداء حل قتالهم دفاعا وهجوما ، وهم فى الحالين المعتدون إلا أن يتوبوا أو يعاهدوا ويستقيموا .

وليس قتال المؤمنين ليكون باب الدعوة إلى الإسلام مفتوحا يعد اعتداء من المؤمنين ، بل هو رد للاعتداء ، لأن القتال لأجل الدعوة لا يكون إلا بعد أن يرسل المؤمنون دعاة للإيمان ، فإن أجاب بعضهم ، ولم يضطهد فى اعتقاده فإنه لا قتال ، ومن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما

---

(١) محمد : ٤

(٢) البقرة : ٢٥٦

يضل عليها ، وإن اضطهد كان الاعتداء بالفتنة ، فوجب القتال رداً للاعتداء بمثله .

وقد جاء الإسلام فى عصر الملوك المتجبرين الذين كانوا يؤذون رعاياهم ، فكان منهم الاضطهاد لكل من تبلغه الدعوة ويؤمن ، وما أرسل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الجيوش إلى الشام إلا بعد أن اضطهد الروم المسيطرون المسلمين الذين أسلموا فى الشام وقتلوهم ، وما حارب الذين جاءوا من بعده الفرس إلا لأن كسرى حاول أن يرسل من يقتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويلاحظ من يتلو آيات الأمر بالقتال أن فيها النهى عن الاعتداء . فالله تعالى يقول : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين »(١) .

والاعتداء المنهى عنه قسمان — أحدهما — الاعتداء بالقتال على قوم لم يعتدوا على المؤمنين وهم الذين ما جعل الله عليهم سبيلا .

ثانيهما — الاعتداء فى القتال فيقتل من لا يقاتل ، فيقتل مثلا الشيوخ ، والنساء والذرية ، فإن هذا اعتداء فى القتال منهى عنه ، ولذلك يقول تعالى : « فمن اعتدى عليكم ، فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين(٢) .

وإن من مقتضى هذه التقوى ألا يقاتلوا من لا يقاتل ، وألا يقطعوا الأشجار ، وألا ينتهكوا الأعراض ، وألا يستبيحوا الأموال بغير حقها .

ويلاحظ أن القتال فى الماضى كان لا يتجاوز معسكر الحكام والجيوش والعلاقة بين المسلمين وشعوب الملك أو الرئيس القاتل قائمة ، كأنه لاحرب والسلام قائم .

---

(١) البقرة : ١٩٠ (٢) البقرة : ١٩٤

إنما الحرب لمن يحادون الله ورسوله ، إذ يقول الله تعالى : «لاتجدقوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولوكانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم» [١] .

وأولئك الذين يحادون الله ورسوله هم الذين حاربوا المسلمين ، وأعلنوا العداوة وأخذوا يتربصون بهم الدوائر لا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة .

وما عدا هؤلاء فإن السلم هي العلاقة الدائمة والمودة إن وجدت مقتضياتها ، وقد نص القرآن الكريم على ذلك ، فقال تعالى : «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم ، وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم ، فأولئك هم الظالمون» [٢] .

« فالمودة موصولة مالم يكن الاعتداء ، إذ عسى الصلة أن تعود حتى بين الأعداء ، كما يقول تعالى : «عسى الله أن يجعل بينكم ، وبين الذين عاديتم منهم مودة . والله قدير والله غفور رحيم» [٣] .

---

(١) المجادلة : ٢٢
(٢) الممتحنة : ٨ — ٩
(٣) الممتحنة : ٧

العلاقة فى السلم والحرب

٢٢١ — الإسلام هو دين الوحدانية . ودين الوحدة الإنسانية . وقد تلونا من قبل الآيات القرآنية التى تقرر الوحدة الإنسانية بين الناس أجمعين ورأينا أنه بمقتضى هـــذه العلاقة يكون الأصل هو السلم ، ولكن الناس مختلفون أجناساً وقبائل وألسنة وأقاليم : وتلك آيات الله تعالى فى الأرض . فقد قال تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم . إن فى ذلك لآيات للعالمين »[1] .

وقد نظم الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم هذه العلاقة على أساس المساواة . كما صرحت الآية الكريمة : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا »[2] والمساواة أساس التعارف . كما أن التعارف يقتضى المودة والتعاون فى كل أمور الحياة وقد أشرنا إلى ذلك من قبـل .

والعدالة أساس العلاقات الإنسانية . كما قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً »[3] .

ويقول سبحانه فى العلاقة الإنسانية العامة : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون[4] » والأمر بالعدالة عام فى قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان[5] » .

---

(١) الروم : ٢٢ (٢) الحجرات : ١٣
(٣) النساء : ١٣٥ (٤) المائدة : ٨
(٥) النحل : ٩٠

وإن العدالة توجب المعاملة بالمثل ، فان اعتدوا قاومنا الاعتداء . وقد قال تعالى فى ذلك : «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به . ولئن صبرتم لهو خير للصابرين[1] » .

ومع أن الله تعالى أمرنا برد الاعتداء بمثله فى قوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم . فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، أمرنا بالتقوى فقال « واتقوا الله . واعلموا أن الله مع المتقين[2] ولذلك يجب علينا عند المعاملة بالمثل أن نستمسك بالفضيلة . فإن الفضيلة هى القانون العام فى كل معاملة إنسانية فإذا كان العدو يقتل الذرية لا نقتلها وان كان ينتهك الأعراض لا ننتهكها وإن كان يخرب ديار الآمنين لا نخربها ما وسعنا ذلك . وهكذا .

وإن الإسلام قرر مبدأ الوفاء بالعهد وشدد فيه القرآن . فقال تعالى « وأوفوا بالعهد ؛ إن العهد كان مسئولا[3] .

ولقد قرر القرآن الكريم أن الوفاء بالعهد فى ذاته قوة ، فقال تعالى : «وأوفوا بعهدالله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون ؛ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون . ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها ، وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله . ولكم عذاب عظيم »[4] .

وإن هذا النص الكريم يدل على أربعة أمور :

---

(١) النحل : ١٢٦ (٢) البقرة : ١٩٤
(٣) الإسراء : ٣٤ (٤) النحل : ٩١ — ٩٤

أولها — أن نقض العهد يؤدى إلى الزلل ، ومع الزلل الضياع ، فهو ليس حكمة ، ولا تدبيراً ، ولكنه خطل

وثانيها — أن العهد الذى يوثق بيمين الله أو بإشهاد الله تعالى عليه هو عهد الله إذ اتخذ الله كفيلا ، فمن ينقضه فإنما ينقض عهد الله تعالى الذى وثقه بكفالته .

وثالثها — أن العهد فى ذاته قوة ، والتزامه قوة ، ولذا شبه من ينقضه بحال الحمقاء التى تغزل غزلا وتفتله ، ثم تنقضه أنكاثاً أى أجزاء صغيرة . فالعهد يثبت السلم ، وفى السلم قوة وقرار ، والنقض إزالة له .

ورابعها — أنه لا يصح أن تكون سعة الأرض ، وزيادة السلطان سبباً فى الغدر ، ولذلك قال سبحانه فى بواعث الغدر أن تكون أمة هى أربى من أمة أى أوسع أرضاً ، وأكثر عدداً ، وأقوى سلاحاً ، فلا يصح أن يكون التوسع باعثاً للغدر ، لأنه يؤدى لا محالة إلى الضعف .

وهذا التشدد فى الوفاء بالعهد لأنه فى ذاته عدالة ، ولأن العهد فيه حد للحقوق ، وخصوصاً إذا كان بين متكافئين ، ولا يصح أن يكون الاستعداد وأخذ الأهبة سبباً فى ذاته للنقض ، ولكن إذا قامت أمارات تدل على أن استعداد المعاهد وأهبته نذير خيانة ، وعلى المؤمنين أن يأخذوا حذرهم كما قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم »(١) . وفى هذه الحال ينطبق قوله تعالى : « وإما تخافن من قوم خيانة ، فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين »(٢) .

وإذا كان هناك ما يجب الاحتياط له فإنه يكون عند عقد العهد ، فلا يصح الاطمئنان إلى عهد من عرفوا بالخيانة . فإن العهد معهم نوع من الاغترار ، ولذلك كان يجب تعرف حال الطرف الذى يعاهده قبل العهد .

---

(١) النساء : ٧١ . (٢) الأنفال : ٥٨

ولذلك حذر الله تعالى من العهد بعض المشركين الذين يقول سبحانه فيهم : «كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون ، اشتروا بآيات الله ثمناً قليلا ، فصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون ، لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون» (١) .

٢٢٢ — هذا ما أردنا أن نقتبسه من آى الذكر الحكيم فى أحكام الحلال والحرام ، وما نقلنا كل ما اشتمل عليه القرآن العظيم . ولكن نقلنا ما يرى التالى للقرآن المقتبس من نور ، وما فصلنا الأحكام التى تعرضنا لنقلها من كتاب الله ، فإن تفصيلها يحتاج إلى نقل ما جاء فى السنة ، وما اختلف الفقهاء فى ظل النور القرآنى فى دلالة بعض الألفاظ ، فإن الكلام فى ذلك يخرجنا عن مقصدنا . وهو الإشارة إلى علم الكتاب الكريم الذى يدل على إعجازه . والله سبحانه الهادى إلى سواء سبيل .

---

(١) التوبة : ٨

٧ — علم الكون والإنسان فى القرآن

٢٢٣ — القرآن الكريم الكون قد فيه تكرر ذكره ، لأنه كما بينا أتخذ من خلق كل من فى الوجود دليلا على من أنشأه ، فكان بمقتضى النهج النورانى لا بد أن الكون وما فيه من خلق عظيم يدل على منشئه وحده سبحانه وتعالى ، ولا تكاد تجد سورة من القرآن مكية كانت أو مدنية خلت من ذكر الكون ، وما يتصل به .

وإن ذلك فيما نحسب يوجه نظر الإنسان إلى أنه جزء صغير من هذا الكون ، ليربطه به ، وليتعرف أسراره ، وأحواله ، وليعرف أنه وهو الصغير قد سخر الله تعالى له هذا الكون الكبير ، ولقد قال تعالى « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس» .

وإن ثمة حقائق مذكورة فى القرآن يستبصر بها كل متعرف لهذا الكون دارس له فالله تعالى يقول : « ومن آياته خلق السموات والأرض ، وما بث فيهما من دابة ، وهو على جمعهم إذا يشاء قدير »[1] .

وفى القرآن الكريم ما يومىء إلى محاولة الإنسان الارتفاع فى الفضاء ، فالله تعالى يقول : « يامعشر الجن والأنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان يرسل عليكما شواظ من نار ، ونحاس فلا تنتصران ، فبأى آلاء ربكما تكذبان[2] .

واقرأ آيات القرآن فى السحاب ، وإرساله ، وأحواله ، فإنك تجد توجيها إلى ما لم يكن الناس من قبل يتجهون إليه ، ودلت المشاهدات على أنه واقع ، اقرأ قوله تعالى فى وصف السحاب « ألم تر أن الله يزجى سحابا ، ثم يؤلف بينه ، ثم يجعله ركاما ، فترى الودق يخرج من خلاله ، وينزل من

---

(١) الشورى : ٢٩ (٢) الرحمن : ٣٤ — ٣٦

السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار »(١) .

وترى من هذا تشبيه السحاب الذى أزجاه الله تعالى بالجبال ، وهذا لا يبدو للسائر على سطح الأرض ، ولا للواقف على آكامها ومرتفعاتها وما كان ذلك معلوما عنـــد العرب ، ولـكن الذى يرتفع فوق السحاب فى الطائرات التى تقطع أجواز الفضاء يرى السحاب جبالا .

وإن هذا بلا شك نوع من العلم بالـكون فوق ما فيـه من دلالة على إعجاز القرآن ، إذ أن ذلك الوصف لا يمكن أن يكون من محمد ، لأنه لم يرتفع حتى يكون فوق السحاب ، فلابد أن يكون الوصف بعلم الله تعالى ، والـكلام كله من عنده سبحانه ، لا من عند محمد .

وأنت ترى أوصافا كثيرة للأرض والسماء لا تـكون إلا من الأمى ﷺ الذى لا يقرأ ولا يكتب ، أو لا يعلم علوم الـكون وما يجرى فيه ، وما كانت معروفة عند العلماء فى عصر نزول القرآن ، كالعلم بطبقات الأرض والسماء ، ذكرها القرآن والباحثون لا يزالون دائبين فى البحث عنها ، وعلمهم يصدق بالقرآن ، اقرأ قوله تعالى : « الله الذى خلق سبع سموات ، ومن الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما »(٢) .

واقرأ قوله تعالى : « هو الذى خلق لـكم ما فى الأرض جميعاً ، ثم استوى إلى السماء ، فسواهن سبع سموات ، وهو بكل شىء عليم »(٣) وقوله تعالى « تبارك الذى بيده الملك ، وهو على كل شىء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، وهو العزيز الغفور ، الذى خلق سبع سموات طباقاً ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر ، هل ترى من

---

(١) النور : ٤٣ . (٢) الطلاق : ١٢

(٣) البقرة : ٢٩

فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ، ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير »(١)

واقرأ قوله تعالى « ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ، وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا(٢) » .

وترى النص الكريم يفرق بين الشمس والقمر ، فيجعل الشمس هى السراج الذى يضىء ، والقمر نوراً مقتبسا من غيره ، وهو الشمس .

واقرأ قوله تعالى : « تبارك الذى جعل فى السماء بروجا ، وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً ، وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً(٣) » .

ويقول سبحانه فى خلق السموات والأرض ، وأدوار خلقهن « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين(٤) » .

ولقد بين القرآن أن السموات والأرض كانتا شيئاً واحداً ، وأن الأرض انفصلت عن السماء وتكونت فيها القشرة الأرضية ، وكان عليه الماء ، ومنه كانت الأحياء التى خلقها الله تعالى ، واقرأ فى ذلك :

« أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ، ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون ، وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم ، وجعلنا فيها فجاجاً سبلا لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفاً محفوظا ، وهم عن آياتنا معرضون(٥) » .

---

(١) الملك : ١ — ٤
(٢) نوح : ١٥ — ١٦
(٣) الفرقان : ٦١ — ٦٢
(٤) الأعراف : ٥٤
(٥) الأنبياء : ٣٠ — ٣٢

وترى أن النص الكريم صريح فى أن السموات والأرض كانتا كونا واحدا ، وفصل الله تعالى جزءا منه وهو الأرض ، وكانت فيهاهذه الحياة التى يحياها الحيوان والطير فى السماء ، والسمك فى الماء ، والزرع فى الفيحاء.

وإذا كان العلماء اليوم يقررون أن الكون ابتدأ خلقه بالسديم ، وهو يشبه الدخان ، فقد صرح القرآن الكريم قبل ذلك ، وقبل أن يعلموا ، فقال تعالى فى خلق السموات والأرض : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ، وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء ، وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أوكرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح ، وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم[1] ».

ونقف وقفة قصيرة عند هذه الآيات البينات ، فنرى الله سبحانه وتعالى بين لنا أن الأرض خلقها فى يومين ، واليوم هنا كما أشرنا من قبل ليس هو اليوم الذى نعرفه ، إنما هو الدور فى التكوين ، وهو كونها مع السموات رتقاً ، وهذا دور ثم انفصالها وهذا دور ثان ، ودوران آخران للأرض جعل فيها رواسى عالية ، وهى الجبـــال، وخلق فيها الماء وماتبعه من خلق للأحياء من حيوان ونبات ، فكانا أربعة أدوار .

ويبين سبحانه أن السماء والأرض كانتا دخاناً ، وهو مانحسب أنه السديم الذى يقوله العلماء .

٢٢٤ — وإن القرآن الكريم فيه إشارات بينات إلى علم الكون ، ونعتقد أن الذين درسوا علوم الكون فى السموات والأرض وما بينهما لو تتبعوا آيات القرآن الكريم التى تعرضت لذكر الكون لوجدوا حقائق كثيرة مما وصل إليه العلم الحديث قد تعرض لها القرآن بالإشارة الواضحة

---

(١) فصلت : ٩ — ١٢

التى تجمل ولا تفصل ، وهى فى كلتا الحالين صادقة كل الصدق بينة لمن يطلب الحقائق الصادقة . وإن بضاعتنا فى علوم الكون محدودة لا تسمح لنا بالخوض فى كلام تفصيلى فى هذا ، وقد رأينا كثيرين من العلماء المخلصين المحققين قد تعرضوا لهذا ، فمنهم من بين طبقات الأرض ، كما أشار القرآن ، ومنهم من بين غير ذلك .

ونحن نرحب ببيانهم ، ولكن لا بد من ملاحظتين :

الملاحظة الأولى : أنهم يحاولون أن يحملوا القرآن نظرياتهم ، وعليهم أن يفهموه كما تبين ألفاظه ، وكما تومىء إشاراته ، وذلك لأنهم أحياناً يحملون القرآن مالا يحتمل ، ويرهقون ألفاظه بالتأويل ، وأحياناً يأتون بنظريات لم تكن قد حررت من بعد من الشك ، والنظر ، وقد تتغير ، ولا يصح أن يبقى القرآن تتردد معانيه باختلاف النظريات ، بل إن الواجب أن ندرس ما فى القرآن على أنه حقائق ، فما وافقه من العلوم قبلناه .

الملاحظة الثانية : أن يدرس الكون فى القرآن على أنه حقائق ثابتة هى مواضع التسليم من المؤمن بالله تعالى وبالقرآن ، فلا تجعل حقائقه موضع نظر ، بل إن الإيمان بالقرآن يوجب الإيمان بكل ما اشتمل عليه ولا يصح لنا أن نترك ظاهر القرآن ، ونتجه إلى تأويله إلا أن يكون الظاهر يقبل التأويل ، وتكون حقائق العلم الثابتة تقتضى الأخذ بالتأويل الذى يحتمله القرآن من غير تعسف ، ولا خروج بالألفاظ إلى غير معانيها .

وإننا بهذه الدراسات العميقة المسلمة بحقائق القرآن نفتح مغاليق فى العلم ، ونتكشف الحقائق الكونية بهداية من القرآن ، على أنه المرشد لها ، وليس التابع ، ولا الخاضع ، وكتاب الله تعالى هو كتاب الحق ، والصدق والعلم لأنه من عند الله الذى لا يخفى عليه شىء فى السماء ولا فى الأرض ، وهو كتاب الوجود ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

الإنسان فى القرآن

٢٢٥ – ذكر الله تعالى خلق الإنسان من طين ، وخلق الجن من نار ، وقد بين ذلك فى أصل الخليقة ، وقد ذكر الله تعالى فى آيات وسور مختلفة وكلها سيقت بالبيان المتناسق فى موضعها وموضوعها ، ولنذكر من غير اختيار آيات كريمات فى موضع منها ، قال تعالى فى سورة البقرة :

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم مالا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ، إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون ، وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر ، وكان من الكافرين وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغداً حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو . ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين[1] .

وإن هذا النص الكريم يبين ثلاث حقائق كانت مع الإنسان :

(أولاها) أنه أوتى استعدادا لعلم الأشياء أى علم الكون وما فيه ، لأن الله تعالى سخرها له ، ولا يتحقق ذلك التسخير إلا إذا أودع الله تعالى نفسه القدرة على العلم بها ، ولذلك أنبأ الملائكة بأسمائها .

(الثانية) أن فى طبيعة الإنسان الاستعداد للإغراء ، ومن هذه الناحية جاء إبليس ، فأغرى أبوى الإنسان بالأكل من الشجرة ، وقد نهاهما الله

---

(١) البقرة : ٣٠ – ٣٦

تعالى ، ولكنهما تحت تأثير ذلك الإغراء نسيا نهى الله كما قال تعالى فى وصف آدم أبى الخليقة « فنسى ، ولم نجد له عزما[١] » .

الحقيقة الثالثة : أن آدم نزل هذه الأرض ، وقد تلقى كلمات الله تعالى ليكون للفضيلة، ويستمسك بها ، ولكن كان معه فى الأرض إبليس يغرى ذرية آدم ، ويغويها ، كما قال تعالى عنه « لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين »[٢].

هذا بيان الله تعالى فى ابتداء خلق الإنسان .

ولقد بين سبحانه من بعد ذلك خلق الإنسان بالتناسل ، فقال تعالى :

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين »[٣] .

ويقول سبحانه وتعالى : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ، إنا هديناه السبيل إما شاكراً ، وإما كفورا »[٤] .

ويقول تعالى فى خلق النفس الإنسانية فى الإنسان « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها »[٥] .

ويقول سبحانه فى القوة المدركة فى الإنسان التى بها يكون التكليف ، والحساب والثواب والعقاب « أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى »[٦] .

ويذكر سبحانه خلق القوى الإنسانية فى القرآن ، فيقول تعالت قدرته

---

(١) طه : ١١٥ (٢) ص : ٨٢ — ٨٣
(٣) المؤمنون : ١٢ — ١٤ (٤) الإنسان : ٢ — ٣
(٥) الشمس : ٧ — ٨ (٦) القيامة : ٣٦ — ٤٠

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » (١) .

ويذكر سبحانه فى كتابه الكريم أدوار الإنسان فيقول تبارك وتعالى : « والله خلقكم ، ثم يتوفاكم ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم بعد علم شيئاً ، إن الله عليم قدير ، والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون ، والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ، ورزقكم من الطيبات . أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون » (٢) .

وذكر الله خلق الإنسان ، وما عهد إليه من تكليفات فى ثنايا القرآن الكريم ، وقد ذكر الكون على أنه مسخر للإنسان يكشف منه أسرار الوجود التى يكون فى طاقته أن يعلم بها ، ويذكر خلق الإنسان ، وما أودعه الله تعالى من قوى ليعبد الله تعالى وحده .

ويذكر سبحانه أنه بمقتضى ذلك التكوين النفسى والعقلى وكل القوى التى خلقها سبحانه قد أخذ عليه عهداً أن يكون ربانياً لله سبحانه وتعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، قالوا بلى ، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل . وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ، وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون (٣) » .

وبذلك يبين سبحانه أن المواهب الإنسانية التى خلقها الله فى الإنسان عهد بينه وبين ربه ، فإن استجاب لفطرته ، ارتفع وإن خالف واتبع الشيطان هوى ، ويبين سبحانه كيف يهوى فيقول سبحانه بعد الآية السابقة :

---

(١) النحل : ٧٨ (٢) النحل : ٧٠ — ٧٢

(٣) الأعراف : ١٧٢ — ١٧٤

«واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان، فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ، ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا ، وأنفسهم كانوا يظلمون من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ، ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل أولئك هم الغافلون (١) » .

النفس الإنسانية فى القرآن

٢٢٦ — إذا اتجه التالى للقرآن إلى دراسة النفس الإنسانية من خلال آياته ، فإنه بلا ريب فى مكان فسيح للدراسة ، يعطى مجموعة من المعلومات الحقيقية المصورة للنفس فى إيمانها . وفى فجورها . ويمكن أن يجد الإنسان فيها قواعد علمية تكشف عن نواميس النفوس ، وما تتأثر به ، وما تتجه إليه فى إيمانها . وفى انحرافها . ولنتجه إلى بعض هذه المعانى فى كتاب الله تعالى ، ولا ندعى أننا نستطيع الإحاطة بها علما ، ولا إحصاءها ، ولو بالتقريب . فإن ذلك يحتاج إلى تفرغ لا قبل لأخذ به إلا أن يكون ممن يعنون بدراسته ، أو من المتخصصين فى علم النفس . ولنضرب بعض الأمثال ، وكثير منها فى قصص القرآن وبعضها فى شرح أحوال المؤمنين . وأحوال الكافرين .

(١) من هذه الأمثلة أن النفس التى تسارع إلى الاعتقاد من غير دليل سابق ، ولا لحص لقول لاحق من شأنها أن تقع فى الخطأ . وإذا أصرت بعد البيان كانت فى ضلال . وأصابها الصمم عن الحقائق . والعماء عنها : اقرأ قوله

(١) الأعراف : ١٧٥ — ١٧٩

تعالى : « تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد . وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين »(١) .

إن الذى وهبه الله الهداية لفهم القرآن الكريم بعباراته وإشاراته تبدو بين يديه الحقيقتان الآتيتان :

أولاهما — أنه سبحانه يقرر أنه ليس من شأن الذين سارعوا إلى التكذيب من غير أن يفحصوا ويدرسوا - وأن يؤمنوا ، لأن الإيمان يقتضى قلباً مذعناً لما يأتى به الدليل ، لا أن يكون سابقاً بالحكم قبل الدليل ، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله تعالت كلماته : « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل » وواضح أن العلة فى سد باب الإيمان هو مسارعتهم بالتكذيب من غير برهان ، ومن يكذب بالبرهان لا يؤمن بما جاء به البرهان .

الحقيقة الثانية — أن المسارعة بالتكذيب تؤدى إلى تغليق القلب عن أن يصل إليه النور . وبتوالى التكذيب من غير دراسة للأدلة يكون منع الهداية ، ولذلك يقول الله تعالى : كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين(٢) ، أى بهذه الحال ومثلها يطبع الله تعالى على قلوب الكافرين ، ويتحقق فيهم قول الله تعالى : «صم بكم عمى فهم لا يعقلون »(٣) .

(ب) ولننتقل إلى مثل آخر من كتاب الله ، وإنه المعين الذى لا ينفد فى دراسة النفس الإنسانية ذلك المثل هو قوله تعالى : «إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ، إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا »(٤) .

فهذا النص الكريم يبين لنا قاعدة فى النفس ، يسترشد بها المربى والمهذب ، والذى يحاول معالجة النفوس المريضة ، إذ يعرف سبب المرض فيطب له .

---

(١) الأعراف : ١٠١ — ١٠٢ (٢) الأعراف : ١٠١

(٣) البقرة : ١٧١

(٤) آل عمران . ١٥٥

إذ يبين الله سبحانه وتعالى ، أن الذين أعرضوا عن الوقوف يوم التقى الجمعان ، سبب توليهم أنهم أصابتهم ذنوب ، وإن الذنب يسهل الذنب ، والمخالفة تجر المخالفة ، وإنه لأجل الطب لهم لابد أن يعالج الذنب الأول بالحمل على الإقلاع عنه ، وقد يكون ظهور مغبته السيئة علاجاً له ، ولذلك قال الله تعالى : « ولقد عفا الله عنهم » ؛ لأنهم أدركوا سوء ما كان لهم .

(ح) ومن هذه الأمثلة ما قرره الله تعالى من أن النفس غير المؤمنة لاتنضبط ، ولا تستقر على حال ، والنعمة تبطرها وتطغيها ، والنقمة تؤيسها وتشقيها ، ولا ضبط ولا انضباط ، ولا علاج لذلك إلا بالصبر : اقرأ قوله تعالى : « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ، ثم نزعناها منه ، إنه ليئوس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى ، إنه لفرح فخور ، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير (١) » .

وإن هذه الآية الكريمة تشير إلى أن ذلك الفرح الطاغى فى حاله ، واليأس المميت فى وقته مرض إنسانى ، وإن علاجه الصبر ، لأن الصبر ضبط النفس ، فلا تنزعج للألم ، ولا تطغى بالنعم .

(د) ولقد بين الله تعالى أن سلوك غير الحق هو اتباع للظن غير الناشىء عن دليل ، بل عن الهوى ، وقد قال تعالى فى ذلك : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ، وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لايغنى من الحق شيئاً (٢) » .

فهذا النص الكريم يبين مرض النفس التى تضل . ويذهب بها الضلال إلى متاهات من الباطل . وذلك المرض هو الوهم . فهم يتوهمون . ثم يهوون ثم يظنون . وليس عندهم دليل يكون علماً . بل عندهم أوهام وظنون . وإن دارس علم النفس التربوى يجد فيه باباً من أبواب التربية العقلية بأن يباعد بين الناشئة والأوهام .

---

(١) هود : ٩ — ١١ (٢) النجم : ٢٧ — ٢٨

(هـ) ومن الأمثلة لبيان أحوال النفوس بيان أحوال النفوس التي لا تفكر إلا في دائرة نفعها أو ضررها . ومن شأن هذه النفوس أن تكون أثرة متقلبة ، لا تذعن للحق ولكن تذعن لنفعها وضررها .

اقرأ قوله تعالى : « وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً . فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه . كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » (١).

وهذا تصوير للنفس التي فقدت الإيمان ، وحرمت الخير ، ولا تفكر إلا في محيطها ، وهي بلا ريب غير الذين قال الله تعالى فيهم «ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة » (٢) .

(و) ولنكرر مثلا ذكرناه فيما تلونا من قبل ، ونذكره هنا من ناحية البيان النفسي فيه ، وهو مثل ولدي آدم فالله تعالى يقول : « واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق ، إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين . فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين . من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا» (٣).

هذه الآيات البينات فيها كشف عن النفس المؤمنة المطمئنة الراضية ،

(١) يونس : ١٢
(٢) الحشر : ٩
(٣) المائدة : ٢٧ — ٣٢

وكشف عن النفس الحاسدة الحاقدة .

(ا) وهى تدل على أمور نفسية تصور مصدر الشر والخير ، فالنفس المؤمنة تعرف الأمور على وجهها وتدرك الحق ، وما أوجبه ، فهى ترد سبب قبول القربان إلى التقوى والخوف من الله .

(ب) والنفس التقية هى التى تمتلىء بذكر الله وتستشعر خوفه دائماً ، وأن الاعتداء إنما يكون حيث يختفى الخوف ويظهر الطغيان ، ولذلك علل عدم رد الاعتداء الذى بادره به أخوه بأنه يخاف الله رب العالمين وأن القتل إنما هو جريمة فى حق من خلقهم الله تعالى ،وهو ربهم .

(ح)وتشير الآية إلى النفس منطوية على الخير ، وإن الشر عارض لها ، ولذا رد المؤمن التقى قول أخيه وتهديده بالقتل بقوله « ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك » وفى هذا إشارة إلى النفس التى لم تدنس بشر ليس من شأنها أن تبسط يدها بالقتل .

(د) والآيات تدل على أن الحسد هو أساس الاعتداء ، فلو انخلع من القلوب ما كان شر ولا اعتداء فى الأرض .

(ه) وتدل الآيات أيضاً على أن الاعتداء بالأذى ليس هو الأصل بالنفس الإنسانية ، فهو عندما اتجه إلى قتل أخيه عالج نفسه ليحملها على مطاردته فى قتله ، ولذا عبر الله سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله تعالت كلماته « فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين » لأنه خسر أخاه وخسر نفسه ، فأفسدها.

(و) وتدل ثالثاً على أن رؤية المعتدى عليه ، والاعتداء قائم يبعث على الندم ، والآيات من بعد ذلك تبين أن أساس الكثير من الجرائم هو الحسد فلو اجتث من النفوس ما كان اعتداء ، ولكن الله تعالى يبلو به الناس ليعلم الخير والشر .

ولاشك أن الدارس للنفس الإنسانية يجد فى القرآن معيناً لا ينضب ، ولو أن الناس عكفوا عليه لوجدوا فيه أعظم مصدر للدراسات النفسية والاجتماعية .

قصة يوسف فى سورته :

٢٢٧ — إن المتتبع لقصص الأنبياء فى القرآن يجد أنه يتجه إلى بيان دعوة النبي الذى يذكر خبره بالتوحيد ، ومنع الإشراك بالله ، والإصلاح ودفع الفساد ، وكيف لاقى قومه دعوته ، وما احتج به من أدلة ، وماساق لهم من براهين ، وأنواع المعجزات المختلفة التى أمد الله تعالى النبي الذى يقص خبره ، وما آل إليه أمر الأقوام الذين دعاهم إلى الهدى وإلى طريق مستقيم فأبوا واستكبروا ، هذا شأن القصص القرآنى الذى يسوقه الله تعالى فى كتابه ولكنا نجد ذلك يتخلف فى قصة نبي الله يوسف عليه السلام . حتى يتوهم القارىء لها أن نبي الله يوسف ما كانت له دعوة يدعو إليها ، ولا قوم يخاطبهم حتى تهجم المنحرفون يقولون زوراً من القول .

ولكن الدارس للسورة الكريمة يجد أنها طراز آخر من القصص ، وفيها كشف عن النفس فى ناحية من نواحيها ، ودراسة لها فى علاقتها بالمجتمع الذى تعيش فيه ، إذ هو توجهها . وإن الدارس لها يجد فيها بياناً للأسرة فى علاقاتها بعضها ببعض مع علاقة الآباء بالأبناء ، وعلاقة الأبناء بعضهم مع بعض وعلاقات أبناء العلات ، كيف يختصمون وكيف يجتمعون ، ومايؤدى الحسد بين أبناء العلات . بسبب ماتثور به النفوس المثوقة ، وكيف تتصور ما ليس واقعاً على أنه واقع . ثم مايؤدى إليه الاندفاع بدائع الحسد المقيت .

ولنبتدىء بإيجاز القول فى القصة من أولها . كان يوسف وأخوه الشقيق من أم غـــير أم سائر الأخوة ، والأب الحانى نبي الله يعقوب . يرى كل أولاده فى منزلة واحدة ، ولكنه بنظره العميق الشفيق يرى فى الأخوة الكبار نظرات إلى الصغيرين مالا يطمئن به فيعمل على ألا يكون منهما مايثير ،

ويؤجج النظرات الماقتة ، يرى يوسف رؤيا صادقة « إنى رأيت أحدعشر كوكباً ، والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين» ، فيخشى الأب الحانى أن يؤرث ذلك عداوة إخوته، فينهاه: «لا تقصص رؤياك على إخوتك ، فيكيدوا لك كيداً » .

ولكن الحسد يوهم الكبار أن أباهم يؤثر يوسف وأخاه بمحبته لما يكون من فضل عطف على الصغير من الإيثار . قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة » . وهنا يصل الحسد الشيطانى إلى غايته : « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين » . ولكن الشر لا يكون موضع إجماع ، فلم يكن إجماع على قتله . بل قال قائل منهم لا تقتلوه ، وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين» ارتضى الإخوة ذلك الحل الذى ينزل من القتل إلى إبقائه فى الجب وهو صغير لا يعلم مآله، ولكنهم يحتالون ليأخذوه من أبيه برضاه ، «قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف ، وإنا له لناصحون أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون» ، ولكن الأب الكريم بإلهام الأبوة يتوجس خيفة على ولده ، ويخشى عليه السوء ، ولكنه يخفى فى نفسه سوء الظن بهم . أولا يكون سوء ظن ، ويذكر أنه يحزن إذا غاب عنه مستوحشاً بغيبته ، فيقول: «إنى ليحزننى أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب ، وأنتم عنه غافلون» . أخذوه ونفذوا ما دبروا وألقوه فى غيابة الجب ، ولكن نفس يوسف ألهمها الله بأنه سيكون الأعلى ، وسينبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون. عادوا إلى أبيهم يبكون . قالوا «إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ، وأحسوا فى أنفسهم بالظنة تعروا أباهم ، فقالوا ، « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ، وجاءوا على قميصه بدم كذب » ، ولكن الأب بفراسته وبإلهام الأبوة ماصدقهم . بل قال لهم : « بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

٢٢٨ — هذه قصة ساقها القرآن الكريم لا لمجرد الاتعاظ والعبرة فقط ، بل فيها كشف عن النفوس يجد فيها الدارس النفسى مكاناً للفحص يهديه إليه كتاب الله تعالى .

(ا) فهى أولا : تبين أن علاقة أبناء الأعيان ، وهم الأشقاء لا تماثلها علاقة أبناء العلات وهم الإخوة والأخوات من الأب من غير الأم ، وتصور الغيرة الشديدة التى تكون بين الأبناء ولو كانوا كباراً ماداموا فى ميعة الصبا ، وأن هذه الغيرة تدفع إلى الحسد ، والحسد يدفع إلى البغضاء ووراء البغضاء .. الجريمة .

(ب) وهى أيضاً تصور لنا أن الأبوة الشفيقة توحى بالتظنن ، وبالاحتراس ، فقد تظنن نبى الله تعالى يعقوب عليه السلام فى أن قصص يوسف على إخوته خبر الرؤيا قد يدفع إلى أن يكيدوا له كيدا ، ولذا أوصاه بألا يخبرهم بها وتظنن عندما أرادوا أن يخرجوا به ، ولكنه لم يتمكن من منعه عنهم .

وأنه إذ لم يتمكن من منعه عنهم أبدى مخافته من أن يأكله الذئب ، وقد كانت منه هذه الكلمة ، وكأنها كانت توجيهاً لهم ليبدو العذر الذى يعتذرون به ، فجاءوا واعتذروا بأن الذئب أكله ، فمن كلامه ابتدعوا قولهم ابتداعا .

(ج) ولكنهم جاءوا أباهم عشاء يبكون ، فما سر هذا البكاء ؟ ذلك أنهم إذ فعلوا فعلتهم كان فيهم بقية من شفقة فكان هذا البكاء ، كما ندم أحد ابنى آدم عندما قتل أخاه .

(د) وإن يعقوب عليه السلام لم يصدق كل التصديق قولهم ، بل لم يصدق مطلقاً ، واستعان بالصبر الجميل ، وهو الصبر من غير أنين ، وجدير أن يكون من النبيين .

ولا شك أن فى هذا كله توجيهات نفسية لمن يتدبر ويعتبر ، ويستبصر ،

وكان حقاً على الذين يدرسون مجتمع الأسرة أن يجعلوا من هذا مثابة للدرس يدرسونه ، ويبنون عليه ، ويسترشدون به .

وإن قصة أسرة يوسف لم تنته عند هذه النهاية ، بل إن الإخوة من بعد سيلتقون ، وسيتعاتبون أو يتلاومون ، لقد وصل يوسف فى علوه عليه السلام إلى أن مكن من عرش مصر ، فقد مكن الله تعالى له فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء .

جاء إليه إخوته فعرفهم ، ونسى بما أنعم الله به عليه مساءتهم ، ولعله استأنس بلقائهم ولم يستوحش ، ولكنه طلب أخاه شقيقه ، وقال لهم : « ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ، فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون ، قالوا سنراود عنه أباه ، وإنا لفاعلون » ولكن شفقة الأخوة ، وشفقته بأبيه وقومه تغلب طلبه ، فيجعل بضاعتهم فى رحالهم وهم لا يعلمون ، فكانت ثمة محبة الأخوة ، ومحبة الشقيق .

رجعوا إلى أبيهم ، وفى هذه الحال كانوا صادقين « قالوا يا أبانا منع منا الكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون » ولكن ذكراه الأليمة تتحرك ، فيقول : « هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

ثم اكتشفوا من بعد ما جهله عليهم يوسف الصديق « فتحوا متاعهم فوجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا . ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير » وفى هذه المرة كان يعقوب عليه السلام أحرص من المرة الأولى ، فأخذ موثقاً ليأتنه به إلا أن يحاط بهم ، فآتوه موثقهم .

وتحركت الشفقة الأبوية عليهم جميعاً ، وخشى عليهم العين ، فقال عليه

السلام لهم : يا بنى لا تدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة، وما أغنى عنكم من الله من شىء ، إن الحكم إلا لله عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون » .

دخلوا مصر من حيث أمرهم أبوهم ، والتقوا بأخيهم . وآوى يوسف إليه أخاه ، وفاضت نفسه إليه قائلا له : إنى أنا أخوك ، فلا تبتئس بما كانوا يعملون » .

وأراد أن يبقى أخاه معه ، فلما هموا بالرحيل ، وضع المكيال المصرى فى رحل أخيه . ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ، قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ، قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير ، وأنا به زعيم ، قالوا تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض ، وما كنا سارقين ،قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين فبدأوا بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، ثم وجده فى وعاء أخيه ، وبحكمهم أخذ أخاه وأبقاه عنده وتحركت فيهم الحال التى كانوا فيها عندما رموا بيوسف فى الجب ، وقالوا : « إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » وبذلك ثارت فى نفوسهم الغيرة القديمة ، وإذا كانت فى أول أمرها قد دفعتهم إلى القتل ، أو السير فى سبيله ، فقد دفعتهم هذه المرة إلى الكذب ورمى البرىء بالسرقة ، فأسرها يوسف فى نفسه ، ولم يبدها لهم ، فقال أنتم شر مكاناً ، والله أعلم بما تصفون ، فأحسوا بالتبعة عند لقاء أبيهم، وأرادوا أن يتشفعوا بحال أبيهم الشيخ. فقالوا : «إن له أباً شيخاً كبيراً ، فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين . قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذاً لظالمون » . يئسوا من أن يعودوا بأخيهم لأبيهم الشيخ ، وتعرضوا للظنون التى لها فى ماضيهم ما يؤيدها ، وهموا بالعودة ، ولكن كبيرهم كان إحساسه بالتبعة أشد من سائرهم فقال لهم « ألم تعلموا أن أباكم

قد أخذ عليكم موثقاً من الله ، ومن قبل ما فرطتم فى يوسف ، فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين ، ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق ، وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ، واسئل القرية التى كنا فيها ، والعير التى أقبلنا فيها ، وإنا لصادقون » .
عادوا إلى أبيهم ، وقالوا ما لقنهم إياه أخوهم الكبير الذى تخلف عنهم استحياء من لقاء أبيه ، ولكن الأب الشيخ لم يطمئن إلى ماقالوا ، وقال لهم بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل » .

وإن الأمر إذا تأزم كان من لطف الله بعباده أن يفتح نافذة من الأمل فى وسط التأزم فكانت تلك النافذة ، وقال نبى الله الشيخ : « عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً ، إنه هو العليم الحكيم » وفى وسط هذه الحال استيقظ الماضى فتذكر ابنه المفقود يوسف الذى لا يعلم حاله ، أهو حى يرزق أم ميت قبر ، وقد برح به الحزن ، ويقول الله تعالت كلماته فى وصف حاله : « وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف ، وابيضت عيناه من الحزن ، فهو كظيم » رأوا أن أباهم لايزال يذكر يوسف ، ولا ينى عن ذلك حتى يتلف جسمه أو يموت ، وصارحوه بذلك ، فقال الشيخ الجريح القلب : « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ، وأعلم من الله مالا تعلمون » .

وفى وسط هذه الغمة عادت إليه بارقة الأمل كما عادت أولا ، فقال بحنان الأب الشفيق : « يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيئسوا من روح الله إنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

استجابوا لطلب أبيهم وذهبوا يبحثون ، وإن مكان الأخ معروف عندهم ، وأما الأخ الذى غيبوه ، فهم لا يعلمون حاله ولا مآله .

ذهبوا إلى المكان الذى تركوا فيه الأخ الأخير ، فدخلوا على عزيز مصر « يوسف » ، وقالوا « يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزى المتصدقين » .

هم جاءوا للبحث عن أخيهم ، ولكنهم جعلوا المدخل إليه أن يقولوا إنهم جاءوا ببضاعة مزجاة، وهنا نجد يوسف الصديق يحن إلى جمع الشمل بعد إذ تفرق ، فيقول لهم عاتباً ، معتذراً عنهم إذ فعلوا ما فعلوا جاهلين . يقول الأخ المحب لإخوته : «هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون» وهنا تلهمهم عاطفة الأخوة الحبيبة إلى أنه يوسف ، وإن تغيرت الأحوال ، واختفت سيمى الطفولة وبدت سمة الرجولة : « قالوا أئنك لأنت يوسف . قال أنا يوسف ، وهذا أخي قد من الله علينا . إنه من يتق الله ويصبر . فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين » .

وهنا تظهر الأخوة المحبة المتغاضية عن الإثم من الجاهلين ، فيقول الكريم ابن الكريم ، « قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

وقد علم حال أبيه وطب لعلاجه،قال : « اذهبوا بقميصى هذا ، فألقوه على وجه أبى يرتد بصيراً وأتونى بأهليكم أجمعين .

كان الأب العطوف يحس ، وهم فى الطريق إليه بأن ريح يوسف تهب نحوه « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه ، فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون ، قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربى ، إنه هو الغفور الرحيم » .

ولا نقف طويلا عند ارتداد البصر إلى نبى الله يعقوب عليه السلام بعد أن ابيضت عيناه من الحزن أهو بسبب الفرحة الشديدة ، أم هو أمر خارق للعادة ، وما ذلك بغريب على الأنبياء ، ونحن نميل إلى الثانى ، فإن يوسف عليه السلام كان متأكداً ، ولم يكن متظنناً له .

جاءت الأسرة إلى مصر حيث سلطان يوسف عليه السلام ، والتقت

على المحبة ، بعد أن فرقتها غيرة الجهل ، فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ، ورفع أبويه على العرش ، وخروا له سجداً ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل ، قد جعلها ربى حقاً ، وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن ، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى ، إن ربى لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم » .

٢٢٩ — لم نتتبع قصة الصديق نبى الله يوسف من وقت أن رموه فى الجب ، وأردنا أن نربط بين أجزاء الأسرة لنعرف مقدار ما يتبين من القرآن من حال النفوس فى ميعة الشباب وجهالته ، وما يكون منها بعد أن تسكن عواصف الغيرة ، وتتوافر بواعث الرحم .

ذهب إخوة يوسف إلى أبيهم عشاء يبكون ، ورجحنا أن يكون بكاء حقيقياً ، وليس كدموع التماسيح ، كما يقولون وقلنا إنها انفعالة الرحم ، وإن لم يكن لها أثر عملى ، إذ كانوا يستطيعون أن يعودوا ، ويستنقذوه من الجب الذى ألقوه فيه . ويظهر أنهم كانوا بين عاطفتين متضاربتين : عاطفة الرحم الجامعة ، والغيرة الملحة ، الباعثة على البغضاء ، فذرفت عيونهم بالعاطفة الأولى ، وأقعدتهم الثانية عن أن يزيلوا مافعلوا ، وما ارتكبوا فى حق أخيهم .

ونترك أولئك الإخوة فى حيرتهم ، واضطراب عواطفهم ، ولنتجه إلى الأب المكلوم الذى فقد ولده فإنا نلاحظ فيه ثلاث عواطف ، كل واحدة تجرى على لسانه .

أولاها — ألم الفراق الذى أصاب نفسه ، لقد كان ولده الحبيب المقرب الصغير ، والصغر ذاته يجلب المحبة ويجعله أكثر قرباً ، وآثر بالمحبة من غير أن يفقد أحد من أولاده محبته ، فالحب الأبوى يقبل الاشتراك ، ولكن فى تفاوت بالسن ، وبالقرب ، وبالخلق ، وبالمخايل التى تدل على الانفراد بمزايا دون غيره .

والثانية — أن الذين كرثوه بهـذه الكارثة التى هدت كيانه ، وجعلت عينيه تبيضان من الحزن ، هم أولاده ، وأفلاذ كبده ، فلا يمكن أن يكونوا أعداءه ، ولا يمكن أن يبغضهم ، لأن بغضهم يكون ضد الفطرة وتلك حال لا يصبر عليها إلا أولو النفس القوية التى هى نفوس الأنبياء والصديقين وفى الموقف الذى وقفه الشيخ من إحساسـه بالألم من أولاده ، مع إحساسه بعاطفته مجال للدرس والتحليل ، وجه القرآن الكريم إليه أنظار الدارسين والفاحصين .

الثالثة — أن يعقوب عليه السلام كان فى قلبه إحساس عميق بأنه سيلاقى ابنه فى المستقبل إن لم يكن فى القريب العاجل ، ففى البعيد الآجل ، فهو إذ يتهم أبناءه ، ويقول لهم : « بل سولت لكم أنفسكم أمراً » يقول أيضاً صابرا « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » ، ويقول وقد غاب عنه ابنه الثانى بعد أن تباعد الزمان ، وأن يكون قد غمى على الموضوع النسيان : « بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً ، إنه هو العليم الحكيم » .

وإن ذلك الإحساس الكريم الذى يتغلغل فى النفس المؤمنة موضع تحسن دراسته ، وتعرفه ، ولا شك أن هـذا ليس من خواص الأنبياء ، بل طبيعة فى النفوس المؤمنة الطاهرة الملهمة من غير وحى ، إنما هو الصفاء النفسى .

وإن قصة إخوة يوسف مع أخيهم وأبيهم وموقف أبيهم ، وهو الحامل للأسى من غير أن يقف من أبنـائه موقف تنبيه للواجب الذى يتخذ عند ما تصاب الأسرة ، فيكون على كبيرها أن يجمعها ولا يفرقها ولا يذهب به فرط محبته وأساه ، إلى تبديل المحبة بالعداوة .

٢٣٠ — نعود إلى الأولاد الذين آذوا أخاهم ، ولجت بهم الغيرة ، لقد اعتراهم الندم ابتداء وإن لم يظهر له أثر عملي .

ولكنهم علموا مقدار خطئهم عندما بلغوا أشدهم ، أدركوا مقدار ما فقدوا من أخ ، وإن لم يكن كإحساس أبيهم بل إحساسهم تشوبه بقايا الغيرة وقدتبينت عند ما أحسوا بأن أخاهم الثانى تسبب فى تأخير بضاعتهم .

وإن الغيرة كما نرى فى كلامهم تثير النفس ، فلا تندفع إلى البغضاء فقط بل إلى الكذب ، ولكنهم على كل حال كانوا فى كبرهم يغلب عليهم حنان الأخوة ، ولشد ما كانت فرحتهم عندما علموا أن عزيز مصر هو أخوهم ، وقد قالوا وهم فى طريقهم نمير أهلنا ونحفظ أخانا .

إن قصة يوسف فى أسرته هى قصة أسرة ، فرقت الغيرة بعض عناصرها ، فكانت حكمة الأب الحانى هى التى منعت المأساة من أن تسير إلى غاية من الضلال . بل وقف بها فى أقصر حدودها ، وهى تبين كيف تعود المحبة بسيادة العقل ، وفعل السن ، وإثارة المودة .

وفى ذلك درس حكيم للأسر التى تصاب بمثل هذه ، وفيه أيضاً دروس نفسية عميقة لمن يطلبها .

المجتمع المصرى فى عصر يوسف :

٢٣١ — ألقى يوسف فى الجب ، وصارت حياته عرضة لكل مفترس . وقد ذكرنا آخذين مما تلونا أنه لم تصبه رعدة الخوف ، وألقى فى قلبه الاطمئنان . وألهمه الله تعالى أنه ناج ، وأنه سينبىء إخوته بأمرهم ، فى وقت يكونون فيه فى البأساء ، وهو فى السراء ، ويكون هو العزيز بعناية الله تعالى ، وهم الأذلاء .

ولم يمكث فى الجب طويلا ، بل جاء جماعة ممن يسيرون فى الصحراء ، وألقوا فى الجب دلوهم ليستنبطوا ماء ، فرأوا غلاماً استبشروا به ، وكان

فى ذلك الزمن وما قبله وما بعده يفرض الرق على كل غريب ، حتى جاء الإسلام فألغى هذا وغيره ، وقد أخذوه بضاعة ، وباعوه بثمن بخس دراهم معدودة ، ولم يكونوا راغبين فى بقائه .

وقد توسم الذى اشتراه من مصر فيه الخير ، وقال لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخـــذه ولداً وبذلك ربى فى كلاءة ربه كما صنع من قبله موسى ، إذ ألقاه إخوته فى الجب حسدا وإيذاء ، كما ألقت أموسى ولدها وقد وضعته فى التابوت حرصاً أو فراراً به من الموت .

وبهذه المحبة التى أضفاها الله على من اشتراه مكن الله ليوسف فى الأرض، وألهمه الحكمة . وعلمه تأويل الأحاديث والرؤى . ولما بلغ أشده آتاه الله تعالى حكمة وقدرة على الحكم على الأشياء والأشخاص ، وصبراً وإدراكا .

آل أمره إلى أن يكون فى بيت حاكم مصر . وأن يكون خازن أسراره ، ومتصلا بامرأته ، على أن يكون خادماً خاصاً .

وهنا نجد القرآن فى تلك القصة الواقعة يصور لنا نفس المرأة المترفة الفاكهة فى العيش والنعيم .

رأت على القرب منها فتى جميلا ذا فتوة وقوة ، فراودته عن نفسه ، وغلقت الباب ونادت طبيعته البشرية ، قالت له أقبل ، ولكنه فى خلق النبوة يقول لها معاذ الله ، إنه ربى أحسن مثواى ، فالخلق يمنعه والوفاء يصده .

ولكنها أخذت فى الإغراء ، وأرادت أن توقظ فيه الغريزة ، ولعلها أيقظتها ولكن غلبه نور الهداية على الغريزة الدافعة ، إذ رأى نور الحق ، وهو نور ربه .

وفى هـذه الصورة الواقعة صورة الحيـاة المترفة كيف تفسد النفوس ، وكيف يغرى بالرذيلة وجود الخدم الأقوياء فى خدمة ذوات الخدر ، وكيف

تكون الإرادة الصابرة كابحة للغريزة الجامحة وحائلة بينها وبين الشر .

تلك حال جديرة بالدرس على ضوء القرآن .

وتجىء من بعد تلك المعركة بين الهوى الجامح ، والحكمة والإرادة القوية هو يذهب إلى الباب فاراً من الرذيلة ، وهى تذهب وراءه تجره إليها ، وتكون المفاجأة لها ، وسرعان ما تكشف عن خلق المرأة وهو مسارعتها إلى اتهام البرىء إذا لم يحقق رغبتها ، بل شهوتها ، فتستعدى عليه زوجها وتثير فيه الحمية ، لقد وجد سيدها لدى الباب الذى يتسابقان إليه ، هو ليفر ، وهى لتشده إليها .

قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم ، شكت ظلما ، وحكمت ظلما ، ولكنه حكم ليس فيه الموت ، لأنها ترجوه لها بعد ذلك .

ولكن يوسف يدفع التهمة الكاذبة بالقول الصادق « قال هى راودتنى عن نفسى » .

صارت القضية موضع نظر ، وقد وجد الشاهد الحسى الذى يشهد له ، فقد قد قميصه ، وقت الاستباق إلى الباب .

فاستشهدا ذلك الشاهد ، فقال الحكم الذى حكم «إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين » ، لأنه يقد وهو مقبل عليها ، وهى تدفع عن نفسها ، «وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين» ، فرأوا القميص قد من دبر ، فهو كان يفر وهى تجذبه بشد قميصه ، فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم .

عرفت البراءة . وأن يوسف كان فريسة كيد النساء ، وتلك حال يوجه القرآن الكريم إليها لدراستها .

وهنا نجد السيد يبدو متسامحا . ولعله وجد معذرة لها فى جمال يوسف

وكماله . فاكتفى بأن قال « يوسف أعرض عن هـذا ، واستغفرى لذنبك . إنك كنت من الخاطئين » .

ونجد فى هذا الموقف توجيها للدراسـات النفسية فى المرأة وفى الرجل العفيف ، وفيما ينبغى ملاحظته فى داخل البيوت وأكنانها .

إذا خرج الخبر عن اثنين شاع ، ولو تواصوا بالإسرار فإن الخبر قد شاع فى المدينة . وتناولته جماعات النساء . وإنهن ليهمهن أمر الحب والمحبين « وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها فى ضلال مبين » .

شاعت الأقوال فى المدينة ، وتناولته الجماعات . وعلمت امرأة العزيز بما يقلن . وما يدبرن وينشرن من أقوال ، وهى تعلم قلوبهن . وما يستهويهن .

أعدت لهن متكئاً ولعله كانت وليمة اذ أعطت كل واحدة منهن سكيناً . وقالت اخرج عليهن « فلما رأينه أكبرنه ، وقطعن أيديهن ، وقلن حاشا لله : ماهذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم قالت فذلكن الذى لمتننى فيه » وأعلنت هواها ، ورغبتها الشديدة ، وإصرارها ، وقد رأتهن يعذرنها : « وقالت لئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين » وهنا نجد النفس المؤمنة تقاوم طغيان المرأة وتحكمهـا فيقول « رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين » .

تشايع القول وكثر ، وصارت امرأة العزيز قالة الجماعات ، فكان لا بد أن يستر الموقف ، وستره فى الجماعات الظالمة ، أو الجماعات المستترة تكون على المظلوم دائماً ، ولا تكون على الظالم أبداً . وذلك أن يسجنوه تخفيفاً للشائعة ، أو توجيهاً لها لغير أهلها « ثم بدا لهم من بعد ما رأوا من الآيات ليسجننه حتى حين » .

٣٣٢ — هذه قصة فيها تكشف النفوس عن خبيئاتها ، وهى توجيهات

لتالى القرآن إلى حقائق النفوس ، رجالا ونساء أتقياء وفجارا .

دخل يوسف ، فى حياة جديدة ، بعيدة عن كل مظاهر الزينة وبهجتها ، وإذا كان الشاب الغلام ردف النعمة بعد أن ذاق البلاء ، ابتداء ، فقد جاءه البلاء مرة أخرى ، ولكنه فى هذه المرأة ينزل إلى الضعفاء ويعاشرهم ، ويتصل بنفوسهم ، وعلمه الله تعالى تأويل الرؤيا .

يدخل معه السجن فتيان ، وقال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً ، وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين ، وهنا تبدو خوارق العادات والدعوة إلى الله على يد نبى الله يوسف عليه السلام يقول : لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمنى ربى إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ، ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، ياصاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يا صاحبي السجن أما أحد كما فيسقى ربه خمراً ، وأما الآخر ، فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ، وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث فى السجن بضع سنين »

لاشك أن علم يوسف من غير معلم ، وتأويله للأحلام من غير ملقن بل بالإلهام المجرد من خوارق العادات التى تجرى على أيدى الأنبياء .

خرج السجين الناجى من السجن ، وصار ملازماً للملك ، ولكن فرحة الخروج والاتصال أنسته زميله فى السجن فزادت المدة ليزداد تعلماً من أحوال الناس ، حتى وجد حاجة الملك إلى من يؤول رؤياه ، فتذكر صاحبه

عند الحاجة إليه ، وهذه كلها أحوال نفسية ينبه القرآن إليها وكان تأويل الرؤيا ، والتنظيم الاقتصادى الذى استلهمه يوسف الصديق من الرؤية ، ولنذكر الأمر كما جاء فى القرآن ، « وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله ، فأرسلون ، يوسف أيها الصديق ، أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر ، وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ، قال تزرعون سبع سنين دأباً ، فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » .

كان ذلك التأويل الصادق مصحوباً ببيان الترتيب الاقتصادى سبباً فى أن الملك رغب فى الاستعانة به قال ائتونى به ، فامتنع السجين الأبى عن الذهاب حتى تثبت براءته ، « فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله : ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، إن ربى بكيدهن عليم ، فعرف الملك حالهن ، فسألهن « ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه . قلن حاش لله ، ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين ، ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ، وما أبرىء نفسى ، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى ، إن ربى غفور رحيم ، وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم »

٢٣٣ - هذه وقائع وقعت من وقت أن دخل يوسف السجن إلى أن خرج منه مستولياً على خزائن يديرها بحكمته ، ويسير نظامه بإرادته ، وتعلمه من ربه ، وهو نبى يوحى إليه وكل واقعة من هذه فيها تنبيه إلى ناحية من نفس الإنسان ، وارتباطه بالمجتمع الذى يعيش فيه ، فدخوله السجن لكمال خلقه ، وكمال جسمه ، وما كان حوله ، وما يفعله الحكام ليدرءوا عن سمعتهم ،

ما ينالها من سوء أساسه صادق ، ويكشف فيه عن نفس المرأة وسيطرة العاطفة عليها ، وكيف دفعتها عاطفتها فى موقفها الأول من مراودته ، ثم موقفها من إصرارها بعد أن أخذت المعذرة المسوغة من النسوة ، ثم ما كان من عاطفة المحبة التى انتقلت من مراودة إلى اعتراف ، وإلى استغفار .

وفى الحقيقة إن الدارس الذى يريد معرفة أطوار النفوس ، وما يعروها ، سواء أكانت نفوس رجال أم نفوس نساء يجد فى القرآن معيناً لا ينضب من الحقائق النفسية التى تكون محور دراسته .

ولكنا لا نريد أن يطبقوا ما يعلمون من علم النفس على القرآن ويحملوا ألفاظه ما لا يحتمل ، ولكن أن يجعلوه مرشداً يحكم على علمهم ، لا أن يكون علمهم الحكم عليه ، والله سبحانه هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

تفسير الكتاب

٢٣٣ — كان بعض أساتذتنا رحمه الله يرى أن القرآن الكريم لايحتاج إلى تفسير إلا فى بعض الألفاظ الغريبة على القارىء ، فإنه يستعين عليها بالمعاجم تبينها ، أو بالأحرى تقربها للقارىء ، وإلا بعض آيات الأحكام والمجملات المبينة بالسنة ، فإنها تفصلها وتوضح بالعمل والقول مراميها وغايتها ، وما عدا ذلك ، فإنه بين لايحتاج إلى بيان . إلا أن يكون متشابها لم يعرف بيانه بسنة ثابتة السند فإن هذا لا تفسير له ، ومن الحق أن يقول فيه التالى لكتاب الله سبحانه وتعالى : آمنا به كل من عند ربنا ، كما قال تعالى فى الراسخين فى العلم « يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنامن لدنك رحمة إنك أنت الوهاب »(١) . هذا نظر أستاذنا الكبير بلل الله تعالى ثراه .

ولاشك أن قول هذا له سند من القرآن الكريم، فقد وصف بأنه مبين أى بين ، والبين لا يحتاج إلى تبيين ، ووصفت آياته بأنها بينات ، فقد قال تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم »(٢).

وقال تعالى : « الر تلك آيات الكتاب المبين »(٣) .

وقال تعالى : « الر تلك آيات الكتاب ، وقرآن مبين »(٤) .

وقال تعالى : « وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين »(٥).

---

(١) آل عمران: ٧ — ٨

(٢) المائدة : ١٥ — ١٦

(٣) يوسف: ١

(٤) الحجر : ١

(٥) الشعراء : ١٩٢ — ١٩٥

وقال تعالى : « طس تلك آيات القرآن ، وكتاب مبين »(١) .

ويقول تعالى . « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا »(٢) .

وقال تعالى : « ولقد أنزلنا إليكم آيات بينات »(٣) .

وإن هذا كله يدل على أن القرآن بين ، وكيف يحتاج الكلام البين إلى من يبينه ، إنه يبين نفسه ، وهذا بخلاف المجمل من آيات الأحكام، فإنه قد جاء النص ببيان أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم . فقد قال تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم »(٤) .

٢٣٤ — هذه نظرة خاطرة لأحد شيوخنا ، ولعل الذى دفعه إلى ذلك القول ما تورط فيه بعض المفسرين من نقل إسرائيليات قد تفسد المعنى الذى يبدو بادى الرأى من الآيات الكريمات ، وإن بعض كتب التفسير التى تأخذ ذلك المأخذ ، وتتجه إلى الإكثار من القصص ، والأساطير الإسرائيلية تضع ستاراً كثيفاً بين الآية الكريمة ونورانيتها المشرقة ، فهو رحمه الله تعالى وجزاه عن العلم خيراً يريد أن يجد التالى للقرآن الإشراق والنور من غير حجب يحجبها من روايات ما أنزل الله بها من سلطان .

وإن لذلك القول وجاهته ، وإنك بلا شك لو تتبعت أكثر آيات القرآن الكريم التى لم تتعرض للأحكام العملية، تجدها واضحة بينة ، وإن استبهمت علينا بعض الكلمات لبقايا العجمة فينا ، فإن المعاجم تحل لنا إشكالنا ، وهو لعيب فينا وليس لإبهام فى القرآن ينافى وصفه بأنه مبين ، وآياته بينات .

(١) النمل : ١
(٢) الجاثية : ٢٥
(٣) النور : ٣٤
(٤) النحل : ٤٤

وإذا كان ثمة موضع للتفسير ، فإنه يكون بتوجيه الأنظار لأسرار القرآن البيانية ، والمرتبة العليا البلاغية التي لا تناهد ، ولا تسامى وليس في قوة أحد من البشر أن يأتوا بمثلها .

وإن الزمخشري حاول ذلك في تفسيره ، ووصل في كثير من الآيات إلى توجيه القارىء إلى الأسرار البلاغية ونهج من بعده من سلك ذلك المسلك ، وحاول محاولته .

ونحن نرى أن هذه محاولات ناجحة في جملتها . وفي كثير من آيات الكتاب ، ولكننا لا نحسب أنها وصلت إلى الغاية أو أدركوا نهايته ، فإنه كتاب الله العزيز الحكيم ، ولا تتناهى معانيه ، ولا يحاط بكل مغازيه ، وإن تلك المحاولات مفاتيح للنور ، ولكنها ليست النور .

٢٣٥ — بعد هذه المقدمة التي لا بد أن نذكرها لنعرف مدى الجهود التي تبذل ، والغاية التي تغيا عند محاولة التفسير ، وإن كنا نؤمن بأن القرآن كتاب مبين ، لا يحتاج إلى بيان ، ولكنا نحتاج إن كان في قدرتنا إلى أن نتعرف أسرار بلاغته . وموضع فصاحته ، ونقارب ، ولا نحد ، ونسدد وإن كنا لا ندرك ، ولا تصيب سهامنا ، ولا نصل إلى حال يكون معها يقين بأن ما وصلنا إليه هو سر الإعجاز ، وغاية البيان .

وبجوار الذين قالوا إن القرآن مبين بذاته لا يحتاج إلى من يبينه ، ويفسره كان من يرى أن القرآن يتعبد به ، ويتلى تلاوة ، ولا تتعرف معانيه إلا بتعريف من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

ولا شك أن ذلك القول غريب ولكن وجدناه في كتب المعتزلة ، وجدنا القاضي عبد الجبار يذكره في كتابه المغني ، ويستدل على بطلانه فيقول : « الذي قدمناه الآن يدل على فساد قولهم ، أي أننا لا نطلب دلالة القرآن ، لأنا قد بينا أنه يقع منه تعالى على وجه يدل على المراد كوقوعه من أحدنا إذا تكامل على شرط

دلالته ألا يصح منه تعالى أن يخاطب به وهو موضوع لفائدة إلا وهو يريدها ، وإلا كان فى حكم العابث ، وقد ذكر شيخنا أبو هاشم رحمه‌الله أنه لو كان كذلك لوجب ألا تنفصل حاله ، وهم عرب بين أن يكون عربيا أو أعجميا ، لأنه إذا لم يكن معنى يستدل به عليه ، أو به وبغيره ، فلا فرق بين كونه على هاتين الصفتين ، وبين أن يكون الكلام من المخاطب بهذه الصفة ، أى أنه إذا لم يكن له دلالة ، فلا فرق بين أن يكونه عربياً أو عجمياً من يقرؤه .

ثم يقول : « ولا خلاف بين المسلمين أن القرآن يدل على الحلال والحرام ، والكتاب قد نطق بذلك ، لأنه تعالى قال : « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، وقال تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن[1] ، وقال تعالى :

« ما فرطنا فى الكتاب من شىء[2] ، وقال تعالى : ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء[3] ، وقال تعالى : « هدى للناس إلى غير ذلك مما بين به أنه يفيد ، فكيف يصح مع ذلك ماقالوه[4] » .

ويفهم من هذا الكلام أن ثمة من الناس من يرى أن القرآن للتلاوة والتعبد بتلاوته ، وقراءته فى الصلاة ، كما يفعل الأعاجم الذين لا يعرفون العربية ، وإنه يسوق الأدلة لبطلان هذا القول فيقول : « وبين شيوخنا أنه لو لم يكن له معنى لا يكون معجزا ، لأن إعجازه هو بما يحصل من المزية والرتبة فى قدر الفصاحة ، ولا يكون الكلام فصيحا إلا بحسن معناه وموقعه واستقامته كما لا يكون فصيحا إلا بجزالة لفظه ، ولو أن واحداً من المتكلمين ألَّفَ الكلام المهمل جملة ، وتكلم بها من غير مواصفة لم يعد من الكلام الفصيح ، كما لو كان

---

(١) النساء : ٨٢ .
(٢) الأنعام : ٣٨
(٣) النحل : ٨٩
(٤) الجزء السادس عشر من كتاب المغنى ص ٣٥٦

فى معناه ركاكة لم يكن منه ، وكالورك لفظه لم يعد فى ذلك ، فكيف لمن أقر أنه معجز أن يزعم أنه لا معنى له ، وأنه لا فائدة منه[1].

هذا كلام القاضى عبد الجبار ، ولولا نقله لهذا الكلام ما تصورنا أن يوجد من يقول إن القرآن لا يطلب معناه ، وأن القصد منه التعبد بالتلاوة فى الصلاة ، وخارج الصلاة .

ولعل الذى دفع هؤلاء إلى ذلك القول إن صح نقله أنهم يتوقفون خشية أن ينحرف بهم الفكر ، فيصرفوا معانى القرآن إلى غيرها لانحراف فى التفكير ، أو تزيد عليه ، فرأوا أن يكتفوا بالتلاوة والتعبد بها واقفين عند ذلك ، حتى لا يقولوا على الله بغير علم .

ومهما يكن مقصدهم فإن ذلك الرأى إذا قاله قائل لا يؤخذ به ، ولا نعلم أحداً قاله إلا ما تعلمنا من المغنى .

٢٣٦ — إن القرآن مقصود بمعانيه ، وبتلاوته ، وترطيب الأسماع به ، وبالتعبد به وبألفاظه ، فكل ما اشتمل عليه مقصود لذاته ، لا بالتبعية لغيره ، فهو مأدبة الله تعالى .

وقد يقول قائل إذا كان القرآن بينا ، وإنه لكذلك فما مكان التفسير فى ذلك ، لأن التفسير لا يكون إلا عند حاجة للتبيين ، والقرآن الكريم ، كما تلونا من قبل كتاب مبين ، وقرآن مبين ، وبلسان عربى مبين ، وهل يستغنى عنه .

ويبدو لى أن العربى الذى لم تشُب لغته برطانة غير عربية ، ويفهم العربية لا يحتاج إلى تفسير إلا فيما يتعلق بآيات التكليف العملى والأحكام العملية وما يستنبط من القرآن ، وأنها لتتفاوت فى ذلك تفاوتاً كبيراً .

ومهما يكن فإن التفسير علم يدرس ، وهو مفيد ، وهو قائم منذ عهد التابعين إلى اليوم .

---

(١) الكتاب المذكور ص ٣٥٧

وله بلا ريب فوائده ، وله غاية إن سلك المفسر الطريقة المثلى ، وأن جعل المفسر مرامى القرآن هى المقصودة ، ولا يتجه بكتاب الله إلى تحريف المعانى ، والانحراف عن المقاصد ، وإنه لابد من التفسير لأمور كثيرة .

(ا) العمل على ربط معانى القرآن بما ورد فى السنة الصحيحة من بيانه ، وفى ذلك استعانة بالمبين للقرآن وهو الحديث ، ووضعه فى مواضعه ، حتى لاتضل الأفهام فى فهم معانى الأحكام ، ولأن بعض ألفاظ يشترك بين عدة مدلولات والسنة النبوية هى التى تحد المدلول المراد .

(ب) وإن الذين يقرءون القرآن ليسوا جميعاً فى مستوى العربى الذى يدرك معانى الألفاظ بمجرد استماعها، ومن الألفاظ مافيه بعض الغرابة حتى على بعض العرب ، بل بعض كبارهم ، ولقد روى أن عمر بن الخطاب ، وهو أمير المؤمنين لم يتعين عنده معنى لفظ «أبا» فى قوله تعالى : «وفاكهة وأباً»[١] فقد سأل عن معنى الأب ، واستكثر رضى الله تعالى عنه على نفسه ألا يغيب عنه معنى لفظ من ألفاظ القرآن .

هذا عمر رضى الله عنه يغيب عنه معنى لفظ من ألفاظ كتاب الله تعالى ، فكيف تكون حال من دونه من الصحابة علماً ، وكيف تكون حالنا نحن الذين دخلنا العربية وفينا العجمة التى غلبت الفصحى فى كل مكان .

(ح) ولابد من بعد ذلك من تفسير يترجم إلى اللغات غير العربية ، أو يفسر القرآن ابتداء بغير العربية على أنه تفسير فسره واحد ، أو اشترك فيه جماعة ، ويكون المترجم هو التفسير الذى يذكر معنى القرآن على وجهة نظر المفسر ، لأن القرآن أعلى كلام بليغ فى الوجود ، والكلام البليغ لا يمكن ترجمته من لغة إلى لغة محتفظاً ببلاغته ؛ لأن البلاغة تتضمن إشارات بيانية ، ونغمات فيها موسيقى ، وحلاوة ألفاظ ، وتآخيها ، وجمال

---

(١) عبس : ٣١

أسلوبه ، وتساوق معانيـــه ، ولا يتوافر لأحد من الناس أن ينقل كل الصفات البيانية والبلاغية للألفاظ القرآنية ، وقد حاول فى اللغه الفرنسية بعض العلماء الأوربيين المتخصصين فى العربية ترجمة القرآن برتبته البلاغية فقضى فى محاولة ترجمة آية مدة طويلة وانبت دون ذلك .

(د) وإن القرآن الكريم له عدة قراءات متواترة ، وكل قراءة قرآن ، وهى متلاقية فى معانيها ، وليست يقيناً متضاربة ، بل إن بعض القراءات تزيد معانى عن القراءة الأخرى ، أو توجه معناها فى اتساق محكم دقيق لا خلل فيه ، بل لا يتصور قط أن يكون فيـه خلل . وإن التفسير المحكم هو الذى يذكر ذلك التلاقى . فمثلا قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » (١) فقد قرئت بضم الفاء ، وهى تدل على أن الرسول عليـه السلام من العرب أنفسهم ، وليس غريباً عنهم ، وقرئت بفتح الفاء ، وهى تدل على أنه من أعلاهم نسباً وخلقاً ومكانة وشرفا ، وبضم القراءتين يكون المعنى أن الرسول عليه السلام من أعلى العرب .

هذه بعض الأسباب التى توجب أن يكون للقرآن تفسير ، وإن كان بيناً مفهوما ، وهناك وجه للتفسير لا بد من الإشارة إليه ، وهو بيان الأسرار التى تضمنتها ألفاظ القرآن ، وتضمنها علم الكتاب من خير إرهاق للألفاظ ، ولا إعنات لمعانيه .

وإن من كتب التفسير ما حاول الكاتبون لها بيان الأسرار البلاغية فى بعض ألفاظ القرآن كالزمخشرى كما أشرنا ، ومن جاء بعده من المفسرين الذين نهجوا منهاجه وزادوا عليه ، وقالوا فى آيات مثل قوله ، وثمة آيات لم يتعرض لبيان أوجه البلاغة فيها .

---

(١) التوبة : ١٢٨

مناهج التفسير :

٢٣٧ – إن المناهج فى التفسير تختلف باختلاف ما يستعين به المفسر من مصادر التفسير ، وإن الذى يمكننا أن نحصيه من مصادر التفسير للقرآن أربعة : (أولها) المأثور عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، (ثانيها) المأثور من أقوال الصحابة الكرام ، وتلاميذهم الذين اتبعوهم بإحسان ، ونقلوا تفسيرهم كمجاهد الذى نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما ، (ثالثها) اللغة ، إذ هى فى ذاتها أداة التعبير ، ولا يمكن الاستغناء عنها فى أى منهاج من مناهجه ، فهى لا تعد مصدراً مستقلا ، إذ هى تدخل فى كل المصادر .

(رابعها) الرأى وهو يعتمد ابتداء على اللغة ، وعلى مصادر الشريعة ومواردها ومراميها ، وغاياتها وأسرار القرآن ، وتعرف وجوهه .

ولاشك أن اللغة هى الأساس الأول لكل هذه المصادر ، ولا نقصد باللغة ماتومىء إليه المعاجم فقط ، فإن تفسير النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يمكن أن يكون مخالفاً للعربية ومعانيها ؛ لأنه العربى الذى ينطق بجوامع الكلم ، وليس فى الكلام العربى ما يكون أصدق مصدر للاستعمال العربى الصحيح من أقوال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

٢٣٨ – ولننتقل من بعد إلى الكلام فى المصادر الثلاثة الأخرى .

فأولها – وهو أعظمها السنة لأنها الشارح الأول للكتاب الكريم ، وإن أحكام الحلال والحرام لا تفصيل لها إلا فى السنة ، وهى المصدر الوحيد لها ، ومن خالف تفسير السنة للحلال والحرام فى القرآن ، فهو من المفترين على القرآن الكريم . ويكون داخلا فى نهى قوله تعالى «ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب[1]» . وذلك لأن هذا القسم من القرآن الكريم تكفلت به السنة النبوية ، لأن هذا من تبليغ الرسالة المحمدية وهو معناها ، ومن يعارضها إنما يعارض

(١) النحل : ١١٦ .

تبليغ الرسالة النبوية ، ويفترى على الله الكذب فكل ما فى القرآن من أحكام فقهية سواء أكانت تتعلق بالعبادات أم كانت تتعلق بتنظيم المجتمع الإنسانى الذى يبتدىء بالأسرة ، ويتدرج إلى الجماعات ثم الأمة وعلاقة الحاكم بالمحكوم وعلاقة المسلمين بغيرهم من الأمم فى السلم والحرب — كل هذا بيان النبى صلى الله عليه وسلم وهو حجة علينا يجب اتباعه .

والصحاح التى بين أيدينا فيها بيان الأحكام الشرعية بياناً كاملا كما وردت فى السنة .

هذا ويجب التنبيه إلى أن الاتجاه إلى تفسير القرآن من غير اعتماد على السنة والاستعانة بها فى هذا الباب خروج على الشريعة ، فقد قال الله تعالى : «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم»[1] والذين يتركون السنة زاعمين أنهم يأخذون بالقرآن يهجرون القرآن والسنة معاً، ويحاربون تبليغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لرسالة ربه .

ويلاحظ أن السنة قسمان سنة متواترة رواها جمع عن جمع حتى تصل الرواية إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا النوع من السنة يجب الأخذ به فى بيان الأحكام ، وبيان معانى العقائد التى اشتمل عليها القرآن الكريم لأنها ثابتة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بسند قطعى لا شبهة فيه ، والعقائد لا تثبت إلا بدليل قطعى الدلالة وقطعى السند ، ولذلك يقول للشافعى لن يخالف الأحاديث المتواترة ، ويسميها أحاديث العامة يقال له «تب» .

والقسم الثانى أحاديث الخاصة كما يسميها الشافعى رضى الله تعالى عنه ، وهى التى لم يبلغ سندها حد التواتر ، ويسميها علماء السنة أحاديث الآحاد ،

---

(١) الأحزاب : ٣٦ .

ولو رواها اثنان أو ثلاثة ما دام رواتها لم يبلغوا حد التوتر التي يؤمن تواطؤهم على الكذب .

وهـــذا النوع من الأحاديث يعمل به فى تفسير الآيات التى تتعلق بالأحكام، لأنها تفيد غلبة الظن بالنسبة للصدق، وقد ثبت ذلك عن الصحابة رضى الله عنهم ، ولأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يرسل رسله إلى الأقاليم آحاداً ، ولا يرسلهم جماعات .

ولا يلزم الأخذ بأحاديث الآحاد فى تفسير الآيات التى تتعلق بالعقائد من ضرب الأمثال ، وذكر أسرار الكون من خلق السموات والأرض ، ومن سير الشمس والقمر ، وخلق السموات والأرض ، وتسخير الرياح والأنهار والبحار وغير ذلك ، فإن ما يتعلق بذلك وكل ما ورد فيه من السنة أخبار آحاد أو رواتها غير ثقات لا يعتبر حجة فى تفسير القرآن وفهمه . بحيث يجب الأخذ به ، ومخالفته تكون مخالفة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فإنه من الثابت أن ما يجيء فى السنة مخالفاً للمقررات العلمية القاطعة ، ويكون من أحاديث الآحاد يرد وتبطل نسبته إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فليس معنى رده تكذيب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إنما معنى رده أنه لم تصح نسبته إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو الصادق، ونقول مقالة الصديق خليفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم التى رددها الشافعى ، وهى قوله (أى أرض تقلنى ، وأى سماء تظلنى ، إذا قلت فى القرآن ما لم أعلم) .

وإن دراسة الآيات الكونية للعقل والاستقراء والتتبع ، مقامه فى إدراكها ، ما لم تخالف نصاً قرآنياً أو حديثاً نبوياً متواتراً ، وليس فى الأحاديث المتواترة ما يعارض هذه الدراسة قط ، والله أعلم .

وهنا أمر آخر يتعلق بالقصص القرآنى ، ونقول فيه إن القرآن يفسر

بعضه بعضاً فى هذا القصص ، ومايجىء من السنةمن زيادة على القرآن فىهذا يقبل منه ما لا يناهض القرآن ، وما يزيد يقبل ما دام السند صحيحاً وليس ثمة مايرده سنداً أومتناً ، ولايجب الإيمان بالزيادةبحيث يكفر من ينكرها ، ما دامت أحاديثها لم تصل إلى مرتبة التواتر . ولكن ما لم يكن مطعن فيهما يؤخذ بها على أساس الاطمئنان إليها .

هذه هى السنة ، وهى تعد المرتبة الأولى فى تفسير القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

٢٣٩ ـ أما المرتبة التى تلىمرتبة السنة فهى أقوال الصحابة فى فهم معانى القرآن الكريم ، فكلامهم فى هذا له اعتبار فى فهم الكتاب العزيز لما يأتى :

(ا) أن الصحابة هم الذين سمعوا القرآن الكريم ابتداء ، وهم الذين شاهدوا وعاينوا ، وتلقوا التفسير عن النبيصلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان ما يبهم عليهم يسألون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عنه ، ويروى عن ذى النورين عثمان رضى الله تعالى عنه ، أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان كلما تلا عليهمطائفة من الآيات تولى تفسيرها لهم،فكان تفسيرهم أقرب إلى السنة ، بل يعده الكثيرون من السنة ، ما دام لا يمكن أن يكون للرأى فيه مجال .

(ب) أنهم الذين شاهدوا أسباب النزول، وعلموا فى أى موضع نزلت آى الكتاب الكريم ، وأسباب نزولها ، ولاشك أن أسباب النزول طريق معبد لفهم الكثير من الآيات الكريمات ؛ لأن أول ما ينطبق عليه المعنى للآية القرآنية هوما كان سبباً لنزولها ، ثم يعمم الحكم بعموم اللفظ ، جرياً على قول الفقهاء فى محكم قواعدهم (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) .

(جـ) وإن الصحابة أعلم الناس بمعانى الألفاظ القرآنية ، لأنهم من العرب . ومن أعلم الناس بلغة العرب ، وما يكون غريباً بالنسبة لنا ، لا يكون غريباً بالنسبة لهم ، والألفاظ معروفة معانيها لهم .

وإن المتتبع للمأثور عن الصحابة فى تفسير القرآن الكريم يرى الرائى بادى النظر أنه قسمان :

أحدهما — ما اعتمد فيه على المأثور عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا يكون سنة نبوية وتفسيراً للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا مجال للريب فى نسبته إذا كان السند إلى الصحابى صحيحاً ، وذلك فى تفسير الآيات التى ليس للرأى فيه مجال ، فتفسيرهم يكون حديثاً إذا نسبوه مرفوعاً للنبى عليه الصلاة والسلام ، ويكون موقوفاً إذا لم يسندوه للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن لا يمكن أن يكون للعقل فيه مجال ، ولا يمكن أن يقولوا فى موضع لا مجال فيه للعقل فيه إلا بقول المبلغ صلى الله تعالى عليه وسلم ، آخذين بقوله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا »[١] .

والقسم الثانى ما يكون للرأى فيه مجال ولا يسندونه للنبي صلى الله عليه وسلم ، بل هو مجرد الرأى منهم وإنهم فى هذا قد يختلفون ، وذلك فى بعض الأحكام الفقهية التى لم يرد فيه نص من الكتاب ببيان الحكم ، ومن ذلك قولهم فى عدة المتوفى عنها زوجها إذا كانت حاملا ، فقد اختلف فى تفسير آيات العدة الصحابة ، ففريق منهم ، وعلى رأسهم على بن أبى طالب أعمل الآيتين الواردتين وهما قوله تعالى ، والذين يتوفون منكم ، ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا[٢] ، والآية الثانية هى قوله تعالى فى

(١) الإسراء : ٣٦ .

(٢) البقرة : ٢٣٤ .

سورة الطلاق « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن »[1] فقال هذا الفريق من فقهاء الصحابة إنها تعتد بأبعد الأجلين أى تعتد بوضع الحمل إذا كان بعد مضى أربعة أشهر وعشر وتعتد بالأشهر إذا كان وضع الحمل قبل انتهاء المدة .

وقالت طائفة أخرى ، وعلى رأسهم عبد الله بن مسعود إنها تعتد بوضع الحمل ، أخذاً بعموم اللفظ «وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن»لأنه يشمل المتوفى عنها زوجها الحامل ، كما يشمل المطلقة .

واجتماع فقهاء الصحابة على رأى فقهى يكون حجة،وكذلك إذا لم يرد عنهم فى تفسير الآية التى تتعلق بالحلال والحرام إلا رأى واحد ، وإذا اختلفوا جاز الفقهاء المجتهدين أن يختارون من آرائهم ،ولا يخرجون عنها .

٢٤٠ — وإن الموضوعات التى أثرت عن الصحابة آراء فيها مختلفة من حيث قوة الأخذ برأى الصحابى فيها .

وأولها ما يتعلق بالحلال والحرام ،وقد علمت القول فيه ،إذا كان مبناه الرأى ، والقبول المطلق إذا لم يكن للرأى فيه مجال .

ومهما يكن الأمر بالنسبة لآيات الأحكام ، فإن أقوال الصحابة وأعمالهم تتبع فى فهم الآيات الخاصة بالحروب والصلح ، والمعاهدات والأمان ، وأحكام الذميين والمستأمنين ، وجمع الغنائم وتوزيعها ، وفرض الخراج والجزية .

وكان عهد الفاروق عمر رضى الله عنه عهداً خصباً لبيان الأحكام الشرعية فقررت فيه المبادىء الإسلامية المستفادة من القرآن ، وتعد معيناً للفقهاء استقوا منه آراءهم فى نظم العلاقة الدولية بين المسلمين وغيرهم فى السلم والحرب ، وقد استقاها هو من فهمه لكتاب الله تعالى ، وإدراكه لمراميه .

---

(١) الطلاق : ٤ .

ولذلك نجد كتب السير أخذت من ذلك المعين ، فكتاب الخراج للإمام أبي يوسف — الأصل الأول الذى اعتمد عليه هو عمل عمر رضى الله عنه الذى نفذ ويفهمه من القرآن الكريم .

وكذلك الإمام محمد بن الحسن الشيبانى فى كتابه «السير الكبير» قد أخذ أكثره من عمل الصحابة ، وخصوصاً عمل عمر الذى استنبطه من القرآن الكريم » . ويعد كتاب السير الكبير أول كتاب ألف فى القانون الدولى الذى يقوم على قواعد العدل والرحمة ، والكرامة الإنسانية ، وكذلك كتاب السير للأوزاعى ، وغيره من الكتب كان اعتمادها على ما عمل به الصحابة آخذين ذلك من فهمهم لمرامى القرآن الكريم .

ومن الموضوعات التى أثر عن الصحابة أقوال فيها فى تفسير القرآن وفهم معانيه آيات القصص فى القرآن الكريم ، وليس المروى عنهم فى ذلك كثيراً والصحيح النسبة إليهم رضى الله عنهم قدر ضئيل .

وذلك لأنهم ما كانوا يعنون إلا بما له أثر عملى يتعلق بالحلال والحرام وما له أثر فى أعمالهم ، وتنظيم جماعتهم وإقامة الحق ، والعدل فى الأرض .

وكانوا يعتمدون فى فهم القصص القرآنى على السنة الصحيحة ، وعلى تفسير القرآن نفسه لبعضه ، وكانوا يكتفون بما جاء فى القرآن والسنة ، ولا يزيدون عليه ، لأنه هو الصحيح ، ولا يحاولون أن يعرفوا ما عداه .

ولكن لما دخل فى الإسلام اليهود والنصارى ، وبثوا فى المسلمين ما عندهم من قصص وأساطير ، وجد بين المسلمين من يعنى بالقصص غير مقتصر على القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وظهر ذلك فى آخر عصر الخلفاء الراشدين ، ولم ينظر الصحابة إلى ذلك نظرة راضية أو متغاضية ، بل نظروا إليه نظرة غير متساهلة ، لما قد يجر إليه من نشر أساطير ما أنزلها الله ، وربما أوجدت غياماً على معانيه .

لقد ظهرت فى آخر عصر الصحابة طائفة من التابعين سموا القصاص ، وقد جاء على رضى الله عنه وكرم الله وجهه ، وأخرج أولئك القصاص من مسجد الكوفة ، وكانوا قد انتشروا فى العراق ، فكان رضى الله عنه يمنعهم إلا إذا التزموا فى قصصهم ما اشتمل عليه القرآن ، وما صح فى السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم .

ويروى أنه دخل المسجد ، فأخرج كل من فيه من القصاص ، ووقف عند الحسن البصرى ، فرآه لم يخرج فى قصصه عن القرآن ، والدعوة إلى هدايته .

ومن الموضوعات التى أثر عن الصحابة رضوان الله تبارك وتعالى عليهم كلام فى الكونيات التى اشتمل عليها القرآن الكريم ، وعده الرواة التى نسبوه إليهم تفسيراً للآيات الكونية ، ونقول فيه إنه لا يؤخذ به على أنه حجة إلا إذا كان صريح كلام الله تعالى ، أو قد ثبت عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بسند قطعى ، أما ما يقال فيما عدا ذلك مما يتصل بالكون ، وخلق الله تعالى ، فإن خالف علماً قطعياً لا اختلاف فيه بين أهل العلم بالكون ، فإنه يرد إلى صاحبه .

التابعون والاسرائيليات :

٢٤١ — التابعون هم تلاميـــذ الصحابة الذين نقلوا إلى الأخلاف أقوالهم فى التفسير ، وإن ما ذكر على أنه أقوال للتابعين عن الصحابة فيما يتعلق بالأحكام الفقهية مقبول النقل ، ويعتبر نقلهم عن الصحابة حجة عند أكثر الفقهاء على ما قررنا فى اعتبار أقوال الصحابة حجة .

ولكن التابعين إذا قالوا فى الحلال والحرام مفسرين للقرآن برأيهم ، فإنا إذا استثنينا أحمد بن حنبل وبعض المالكية ، فإن باقى الأئمة لا يعتبرون قولهم حجة فى ذاته ، إنما يكون ما أيده من دليل هو الحجة . ويقول فيهم أبو حنيفة ، إذا آل الأمر إلى الحسن وإبراهيم ، فهم رجال ونحن رجال .

ولكن الكلام فى القصص والكونيات ، وبعض ما يتعلق بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم دخله الإسرائيليات ، وكثرت فى كتب التفسير وتجاوزت الحد ، وردد بعض التابعين كثيراً من الإسرائليين .

بل إن بعض الصحابة نقل عن الإسرائيليين ، فإنه يروى أن عبد الله ابن عمرو بن العاص أصاب فى واقعة اليرموك حمل زاملتين من كتب أهل الكتاب (١) .

ولا يمكن أن يكون كل ما فى هذه الحمولة صحيحاً عن أهل الكتاب الذين تمسكوا بالتوراة أو الإنجيل من بعدها ، ولا نعلم على وجه اليقين أكان ابن عمرو بن العاص لا يختار منها إلا ما يوافق الكتاب والسنة الصحيحة ، أم كان يتجاوزها إلى مالا يناقضهما ، أم يسير وراء ذلك .

ولكن من المؤكد أن ما فى الزاملتين لا بد أن تناقله التابعون ، وليسوا جميعاً ممن يلتزمون ، ولا يسرفون فلا يمكن أن نقرر سلامة ما يأخذون .

ولقد توقف العلماء فى قبول الإسرائيليات التى راجت حول التفسير فى قبولها ، وقد قسموها إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول ما علم صدقه ، لأن القرآن يوافقه ، ولا تجافيه ألفاظه المحكمة ، أو لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم نقل عنه بسند صحيح ما يوافقه ، وهذا بلاشك لا يكذب، ولكن لا نجد فيه غناء عن السنة ، ولا نجده يسد حاجة وخللا لو لم يوجد لا تسد ، ولذلك نرى الأولى ألا يلتفت إليه ، لأن السنة والقرآن يغنيان ، وسداً للذريعة لا يعتمد عليه ، لأن قبول بعض المروى عن اليهود الذى لا زيف فيه ، يسهل قبول الزيف ، وهو الأكثر ، وهو الذى تعمدوا به أن يفسدوا علينا أمر ديننا ، وإذا كانوا لا يستطيعون تحريف القول فيه عن مواضعه ، فإنهم يجدون فى التفسير طريقاً لإفساد العقول حول معانى القرآن الكريم .

---

(١) مقدمة التفسير لابن تيمية ص ٢٦ طبـ دمشق سنة ١٩٢٦ .

القسم الثانى ما ثبت كذبه بيقين ، وهو يناقض معانى القرآن الكريم ، ويخالف الصحيح المتواتر من السنة ، أو يخالف منطق الإسلام ، وإن هذا يرد بالاتفاق .

وإن المستقرىء لكتب التفسير المشتملة على الإسرائيليات يرى أن أكثر ما دس فيها من هذا القبيل .

القسم الثالث الذى لا يأتى بما يخالف النصوص القرآنية، ولا الأحاديث النبوية، ولكنه فى جملته أخبار تحتمل الصدق والكذب؛ ويقول ابن تيمية فى هذا القسم لا نؤمن به ، ولا يمكن أن يكون فيه فائدة إسلامية ، ومن ذلك ما يذكرون حول أسماء أهل الكهف ، ولون كلبهم ، ومن ذلك أيضاً وصف عصا موسى (١) .

---

(١) رسالة مقدمة التفسير المذكورة .

تفسير القرآن بالرأى

٢٤٢ – ذكرنا من مصادر التفسير اللغة ، والسنة ، والصحابة مع تلاميذهم التابعين ، وما دخل عصر التابعين من إسرائيليات دخلت التفسير وتناقلتها كتبه مع تمحيص أحياناً ، وسكوت فى كثير من الأحيان .

والمرتبة الرابعة فى التفسير تفسير القرآن الكريم بالرأى ، أى بالنظر المجرد الذى لا يخالف اللغة ، بل يستعين بمناهجها ، ولا يخالف السنة بل يعتمد على الصحيح من أسانيدها إن صحت عنده ، ولا يناقض تفسير الصحابة المأثور ، ولا أسباب النزول التى صحت بسند صحيح .

والتفسير بالرأى على هذا النحو تضاربت فيه أقوال العلماء ، فبعضهم توقف ، ومنع أن يفسر القرآن بالرأى ، بل لابد لبيانه من علم السنة ، ومنه علم الصحابة ، وما يجتمع عليه التابعون .

وقد ناصر ذلك الرأى وشدد فى التمسك به شيخ الإسلام ابن تيمية . فهو يقول : « تفسير القرآن بالرأى حرام » .

ويستدل على ذلك بأخبار منسوبة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وبأخبار عن الصحابة رضى الله تعالى عنهم .

(ا) ومن ذلك ما روى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « من قال فى القرآن بغير علم ، فليتبوأ مقعده من النار » .

ويعد ابن تيمية أن من يفسر القرآن برأيه يقول بغير علم، ونحن نقول إن الحديث خاص بمن لم يؤت أدوات التفسير من علم باللغة ، ومصادر الشريعة ومواردها ومرامى الإسلام وغاياته. والعلم بأساليب البيان، والعلم بجملة المأثور عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهو الذى يقول بغير علم

أما من أوتى علم اللغة والبيان وعلم الآثار وعلم الإسلام فإنه إذا قال فى التفسير معتمداً على رأيه إن لم يكن نص يعارضه ، فإن الخبر لا ينطبق عليه .

(ب) ومن ذلك أيضاً ما روى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « من أخذ فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » .

ولقد قال الترمذي فيه إنه غريب ، وقد تكلموا فى بعض رواته، فليس سنده سليما ، ومتنه غريب .

(ح) ومن ذلك ما يروى عن كبار الصحابة من نهيهم عن القول فى القرآن إلا إذا كانت سنة صحيحة يستأنسون بها،ورميهم بالتكلف من يحاول علم كل ما فى القرآن ، ومن ذلك ما روينا عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنه قال : (أى أرض تقلنى ، وأى سماء تظلنى إذا قلت فى القرآن ما لم أعلم) . وقد روى عن أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: (كنا عند عمر بن الخطاب وفى ظهر قميصه أربع رقاع، فقرأ « وفاكهة وأبا » فسأل بعض الحاضرين « ما الأب » ثم عدل عن السؤال وقال إن هذا هو التكلف فما عليك ألا تدريه) .

وإن الناظر إلى ما روى مسنداً لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعضه ضعيف لا يصلح أن يكون حجة ، وبعضه لا يدل على منع الاجتهاد بالرأى فى فهم القرآن إن لم تكن سنة مسعفة ، وما روى عن أبى بكر إنما يدل على أن الممنوع أن يقول فى القرآن بغير علم ، وعمر رضى الله تبارك وتعالى عنه أراد أن يضرب الأمثال للناس بأن يبين لهم أن القرآن بحر عظيم عميق مملوء بالمعانى ، فلا يصح لأحد أن يدعى أنه تقصاه وعرف أطرافه ، وخشى أن يظن أحد أنه يحاول ذلك عندما سأل عن معنى كلمة (الأب) فعدل عن السؤال .

ونحن لا نرى فيما ساقه ابن تيمية جزاه الله تعالى عن الإسلام خيراً ما يدل على المنع ، ولكن يدل على وجوب الاحتياط فى فهم القرآن ، وأن يكون بين يديه من دلائل العلم وبيناته ما يجعله يقول عن بينة ، ولا ينطبق عليه النهى فى قوله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم »(١) .

وإذا كان ابن تيمية قد عد التفسير بالرأى منهجاً مهجوراً أو يجب أن يهجر فعلى أى شىء اعتمد ! إنه اعتمد على أربعة مصادر :

أولها — القرآن ، إذ أن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، فهو يبين أحياناً فى موضع ما أجمله فى موضع آخر ويوضح أحياناً فى موضع ما يبدو بادى الرأى أنه مبهم فى موضع آخر ، وبجمع آيات القرآن بعضها على بعض إذا تصدت لموضوع واحد يستطيع القارىء المتفهم أن يفهم بعض القرآن ببعضه .

وإن ذلك بلا شك نوع من الرأى والاجتهاد ، ولكن ابن تيمية لا يمنعه بل يوجبه كخطوة أولى .

وثانيها — السنة ، إذا لم يستطع القارىء أن يفهم القرآن من القرآن ، فإنه يتجه إلى السنة كما أسلفنا تحقيقاً لقوله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم(٢) » . وقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « ألا إنى أوتيت علم الكتاب ، وأوتيت مثله معه » .

وثالثها — ما قاله الصحابة فى تفسير القرآن ، كما ذكرنا من الأسباب فى موضعه . وقد روى أن عبد الله بن مسعود قال : « والله الذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت ، وأين نزلت » .

---

(١) الإسراء : ٣٦ (٢) النحل : ٤٤

ورابعها — أقوال التابعين فى التفسير يتعرف ما قالوه نقلا عن الصحابة.

وتتعرف فى هذا - السنة بكل طرائقها ، وإن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو المبلغ للرسالة والمفسر للقرآن لا يمكن أن يترك شيئاً من القرآن قابلا للبيان ، ولم يبينه .

٢٤٢ — هذا منهاج المتوقفين الذين يرون أن تفسير القرآن بالرأى غير جائز ، وإنما يعتمد فى بيان القرآن على السمع وحده ، إما عن الرسول أو عن صحابته أو عن تلاميذهم ، وإن الخروج عن هـــذه الدائرة خلع للربقة ، وتهجم على القرآن الكريم بغير علم ، وإن النبي عليه السلام لم يترك للقرآن من غير بيان .

وإن هـذا الكلام ينطبق كل الانطباق على الذين لا يعرفون السنة بياناً للقرآن ولا يأخذون به بل يتركونه . وإن مثلهم فى هذا كمثل الذين يعرفون الحكم الشرعى الثابت بالنسبة ،ويتركونه نسياً منسياً .

وإنه فى آيات الأحكام يجب الاتجاه إلى السنة ابتداء ولا يتجه إلى غيرها إلا على ضوء منها وتعرف لأمراء الأحكام ، وغاياتها منها . وإذا كان ثمة رأى فعلى ضوئها ويقبس من نورها .

وإن الذين أخذوا فى تفسير القرآن بالرأى فى مقابل الذين توقفوا سلكوا مسلك الفقهاء الذين أخذوا بالقياس إن لم يجدوا فى الموضوع نصا ، فهم لا يتركون السنة ، ولكن يأخذون بالرأى إذا لم يجدوا سنة مفسرة ، وهم لا يقتصرون على الأخذ فى غير موضع السنة ، بل إنهم عند وجود السنة لا يناقضونهـا ، ولا يغايرونها ، بل يأخذون بها ويسيرون فيما وراء ما ثبت بالسنة إلى ما تدل عليه الألفاظ من إشارات بيانية ، ويحاولون أن يتعرفوا من وراء ذلك الأسرار البلاغية فى القرآن الكريم .

ولذلك كان هـذا المسلك مسلك الذين حاولوا تعرف إعجاز القرآن ،

وعلى رأسهم الإمام جار الله الزمخشرى ومن قبله كان الإمام الطبرى عند ما كان يبدى رأيه بعد أن يسرد من الروايات الصحيح والسقيم .

والإمام حجة الإسلام الغزالى كان ممن سلكوا ذلك المنهاج ، وأثبت بالأدلة العلمية أن التفسير بالرأى من غير مناقضة للسنة ، جائز ، ويستدل على ذلك :

أولا — بأن القرآن فيه كل علوم الدين ، بعضها بطريق الإشارة ، وبعضها بالإجمال ، وبعضها بالتفصيل الذى يفتح الباب للفكر المستقيم ، والاستبصار فى حقائقه ، وذلك لا يكفى فيه الوقوف عند ظواهر الآيات ، ولا ظواهر أقوال السلف ، بل لابد من التعمق من غير تكلف ، واستخراج المعانى ما دامت لا تخالف المأثور ، وهناك أمور وراء المأثور ، يسير المفسر على ضوء المأثور ، ولقد قال عبد الله بن مسعود : « من أراد علم الأولين والآخرين ، فليتدبر القرآن » وإن ذلك لا يكون بغير التعمق فى الفهم ، من غير تكلف ، وتعرف الغايات بالإشارة والمرامى .

وثانياً — أن القرآن الكريم فيه بيان صفاته تعالى وأفعاله ، وذكر ذاته القدسية ، وأسمائه الحسنى ، وإن فهم ذلك مع التنزيه عن المشابهة للحوادث يحتاج إلى تدبر وفهم من غير الوقوف عند الظواهر ، وجمع بين المؤتلف ونفى للقول المختلف .

ثالثا — أنه قد وردت الآثار تدعو إلى الفهم والتدبر فى معانى القرآن ، فقد قال على كرم الله وجهه « من فهم القرآن فسر به جمل العلم ، وذلك لا يكون إلا بالتعمق فى الفهم » .

ورابعاً — إن عبارات القرآن الكريم تدعو إلى التعمق فى الفهم ، فقد قال تعالى : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً[1] » ، ويقول مفسر والسلف إن

---

(١) البقرة : ٢٦٩

الحكمة هى فهم القرآن ، وإذا كان الله تعالى قد وصف فهم القرآن بأنه خير كثير ، فإنه سبحانه وتعالى يدعو القادر على إدراك هذه الحكمة لينال من علمها خيراً كثيراً .

وخامساً — أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم دعا لابن عباس رضى الله عنهما بالفقه فى القرآن ، فقال عليه السلام « اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل» وليس التأويل إلا التفسير العميق الذى يتعرف به القارى ما وراء العبادات من معان دقيقة عميقة ، ولو كان كل علم التفسير مأثوراً عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لقال عليه السلام «اللهم علمه التأويل» .

وإن الغزالى لا يكتفى بسوق ما تؤدى إليه الأدلة من جواز التفسير بالرأى ، بل يتجاوز فيقول إن المأثور من التفسير بالسنة قليل لا يشمل القرآن كله ، ويذكر أن : ما يؤثر عن الصحابة فى التفسير ، إنما هو رأيهم ، وعلينا أن نتبعهم بإحسان ، فنجتهد فى تفسير القرآن مثل اجتهادهم من غير معارضة ، ولا مناقضة .

ثم إن الصحابة فيما بينهم قد اختلفوا ، وكذلك التابعون من بعدهم ، واختلافهم دليل على أن بعض هذه الأقوال بالرأى لا محالة ، ويجوز أن يكون بعضها بالسمع ، ولكنه غير معروف ، ولو كان واجبنا أن نختار من أقوالهم عند اختلافهم ، فالاختيار أساسه الترجيح بالرأى بقبول بعضها ورد بعضها وذلك فى ذاته أشد من الأخذ بالرأى ابتداء ما دام غير معارض المأثور .

٢٤٣ — هذا ما ساقه الغزالى من أدلة فى جواز الفهم بالرأى الذى لا يعارض السنة ، ولا يتزيد عليها بما يخالفها . وإن أدلته مستقيمة منتجة لما يقول ، بيد أن قوله إن المأثور عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى التفسير محدود وقليل ، إنما هو فى غير الحلال والحرام ، أما ما يتعلق بتفسير القرآن فى الحلال والحرام ، فإن ما ورد عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى ذلك

كثير وليس قليلا ، لأنه بيان الشريعة ، وتبليغ رسالة الله ، إذ أن التكليفات لا بد أن يبينها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم . ولا يتركنا إلا وقد بين ما يجب على المكلفين فعله ، وما يجب عليهم تركه ، إما بالنص عليه ، وإما بذكر ما يدل على أصل الشرع الذى يقاس عليه ، وتناط به الأحكام ، وتقام عليه مصالح الأنام ، وأحاديث الأحكام أكثرها فى تفسير الآيات المتعلقة بالأحكام ، وأكثر الأحاديث المروية فى هذا المقام ثابتة بسند صحيح تبنى عليه الأحكام بالتحليل والتحريم .

٢٤٤ — والغزالى وغيره من العلماء الذين سوغوا تفسير القرآن بالرأى ، بل إن عباراتهم تومىء بوجوبه فى غير موضع الأثر المروى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بسند صحيح ، هؤلاء قد منعوا التفسير بالرأى فى موضعين يكون الرأى فيهما مذموماً :

أول هذين الموضعين أن يفسر القرآن بهواه ، أو أن يحاول حمل الآيات على مذهبه أو رأيه بأن يكون له فى موضوع الآية رأى معين ، وله ميل له بطبعه ، فيتأول القرآن على وفق رأيه ليحتج به ، ولو لم يكن له ذلك المذهب ما كان يظهر له ذلك التفسير ، وإنه ليتجه ذلك الاتجاه ، ويؤول ظاهر الآية لتساير مذهبه ، وينزلها من علياء بيانها إلى حيث رأيه .

وأحياناً يفعل ذلك غير قاصد حمل الآية على مقتضى رأيه ، ولكن امتلاء عقله وقلبه بهذا الرأى يجعله يتجه إليه غير قاصد مجرد ترجيح مخيلته ، ويلبس عليه الأمر فيظن ما قاله ظاهراً ، وما هو بظاهر .

فهذا بلا ريب تفسير بالرأى مذموم ، ويكون من المنهى عنه ، لأن القرآن الكريم فوق الآراء والمذاهب وليس خاضعاً لها .

وإنه من نوع تفسير القرآن بالهوى لا بالرأى المبنى على النظر الخالص لوجه الحقيقة .

الموضع الثانى — الذى يكون فيه التفسير بالرأى مذموماً — يكون فى المسارعة إلى تفسير القرآن بظواهر الآيات ، والاقتصار على هذه الظواهر من غير تعرف المنقول فى موضوعها ، ومن غير مقـــابلة الآيات بعضها ببعض ومن غير تعرف للعرف الإسلامى الذى خصص بعض الألفاظ العربية ، ومن غير علم دقيق بأساليب الاستنباط من القرآن من حمل المطلق على المقيد ، والعام على الخاص . ومن غير إدراك مواضع الإضمار والحذف والتقديم والتأخير ، وغير ذلك من الأساليب البيانيـة القرآنية المعجزة . فإن ذلك يكون مذموما ، لأنه تفسير بالرأى من غير إدراك لمعانى الألفاظ فى عرف الإسلام ، وبغير مؤهلات ، واجتهاد فى الفهم من غير التسلح بأدواته وحينئذ يكون الخطأ . ويكون السقط .

فهذان هما الموضعان اللذان يذم الرأى فيهما .

وفى الحق إن هذا ليس تفسيراً بالرأى المجرد ، إنما هو من الهوى أو التهجم ، والتهجم على مالا يحسن ، والعمل فيما لا يتقن ، وذلك قبيح فى كل شىء .

الظاهر والباطن

٥٤٢ – يدعى بعض فرق الشيعة أن للقرآن ظاهرا وباطنا، وأن الباطن له باطن حتى يصل العدد إلى سبعة بواطن وأن معرفة القرآن معرفة صحيحة كاملة لاتكون إلا بمعرفة هذه البواطن، وليس علمها عند كل إنسان، بل أوتى العلم بالبواطن كلها الإمام المعصوم، والأصل أن علم هذه البواطن كلها كان عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد أودعها من بعده على بن أبى طالب، وعلى أودعها عند موته الإمام من بعده، وهكذا توالت النفوس فى أخذ هذه الوديعة إماما عن إمام حتى وصلت إلى الإمام المستور المغيب.

وقد تولى القاضى عبد الجبار إدحاض ذلك الرأى، وبين أنه لا أساس له من العقل ولا النقل، فقال عن هذا الرأى، حكى ذلك عن قوم من الأوائل، لأنهم زعموا أنه ينطبع فى النفس مثل المدركات، فيعرفه المدرك على أن هذه الطبقة خارجة عن حد من يناظر ويتكلم، لأنها تبنى أمرها على الحيل، وإنما تقع المناظرة من أهل الديانات، دون من يجعل من يبتدئه ويعيده مبنيا على الخديعة والاستشكال، والتوصل إلى استباحة المحذور، ويرى أن المذاهب كلها واحدة وإن الواجب أن يظهر لكل فرقة مايقرب به إليها، ولا ينفر بالمخالفة إلى سائر مايحكى عنهم ولو بنوا الأمر على طريقة النظر ما أقدموا على هذا القول مع وضوح فساده، ولكنهم توصلوا بذلك إلى الاحتيال على الناس، فقالوا إن القرآن له ظاهر وباطن، وتنزيل وتأويل، وإن الأثر قد ورد بأن تنزيله مفوض إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وتأويله إلى على رضى الله عنه ثم إلى سائر الحجج (أى الأئمة) وأنه لابد من معرفتهم ليصح أن يعرف مراد الله

تعالى ، فجعلوا ذلك طريقا إلى القدح فى الإسلام والدين ، لأنه مبنى على القرآن والسنة ، فإذا أخرجوا من القرآن يعرف به شىء وكذلك السنة وجعلوهما ظاهرين ، وجعلوا المرجع إلى الباطن الذى لا يعلم إلا من جهة الحجة (الإمام) ولا حجة فى هذا الزمان فقد سدوا باب معرفة الإسلام ، وطعنوا فيه ، فعظمت مضرتهم[1] .

ويسوق بعد ذلك عبد الجبار الأدلة على بطلان ذلك المذهب ، وإن كان لا يحتاج بطلانه إلى دليل، ويناقش القول الذى قالوا، لأنه يلغى اعتبار الألفاظ ، وعلى فرض بقائها يجب أن يكون علم الإمام مبينا لها وإن قولهم هذا يؤدى إلى أن يلتبس أمر القرآن على الأمة ، لأن الإمام مستور ، وأن القول بأن له باطنا، لا يعرف للناس مناف لقول الله تعالى فى وصفه الله تعالى للقرآن بأنه هدى للناس وبأن فيه تبيان كل شىء ، وأن الناس مأمورون بالفكر فى آياته ، وتدبره وهكذا .

وفى الحق إن ذلك الكلام لا موضع له من النظر ، وقد حكيناه ليتبين أوهام أولئك الناس التى لا سلطان لها من حجة أو برهان، ولكنها مخاوف الشيطان .

٢٤٦ — ويجب هنا أن ننبه بأن بعض العلماء يقولون إن للقرآن ظاهراً وباطناً ، لا بهذا المعنى ، بل بمعنى أن القرآن يحوى من العلم ما يخفى على بعض الناس . فأولئك لهم ظواهر الألفاظ، أما ما عدا هذه الظواهر مما تشير إليه من علم ، فإنه لا يعرفه إلا خواص العلماء ، والراسخون فى العلم ، ولا تناقض بين الظاهر والباطن .

---

(١) المغنى ج ١٦ ص ٣٦٤ والذين يقولون لا فرق بين المذاهب والديانات بعض الصوفية الذين يدعون الوصول إلى الحقيقة ،ولعلهم من أصل باطنى .

فالغزالى يسلم بأن للقرآن ظاهراً يفهمه كل قارىء للقرآن يعلم بأساليب البيان العربى ، مطلع على المأثور عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وله باطن عميق يفهم من الإشارات البيانية ، وما وراء الألفاظ من معان علمية لا يدركها إلا الراسخون فى العلوم المختلفة .

والغزالى على هذا ينتهى إلى أنه لا يصح الاعتماد على العقل وحده فى فهم القرآن بل لا بد من الاستفادة بالنقل، ويصح الأخذ بالنقل فى الأحكام الشرعية ، بل يجب الأخذ به ، وفى غيرها من النصوص تكون الطريقة المثلى أن يعتمد على النقل والعقل معاً فإن ظاهر القرآن لا بد فى معرفته من نقل اللغة والسنة إن كانت سنة صحيحة .

وفى ظل النقل الصحيح إن كان ، وفى كل الدلالات اللغوية للألفاظ والأساليب البيانية ، والعرف الإسلامى لألفاظ القرآن يعمل العقل فى استخراج معانى القرآن الكريم ، المتسعة الأفق البعيدة المدى ، وفى القرآن آيات كثيرة توجه العقل إلى عمق فى الحقائق الكونية والنفسية، وكلما تفتح العقل، وأدرك ظواهر كونية إدراكا صحيحاً وجد فى القرآن ما يشير إليها وإنه كلما اتسع أفق العقل البشرى فى فهم الكون والحقائق والشرائع اتسع فهمه للقرآن الكريم .

ولعل ذلك هو الذى أشار إليه بعض الصحابة فى أقوالهم مثل قول أبى الدرداء فيما نسب إليه « لا يفقه حتى يجعل للقرآن وجوهاً » ، ومن ذلك ما روى عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « إن للقرآن ظاهراً وباطناً وحداً ومطلعاً » وليس الباطن المذكور فى ذلك النص الباطن الذى لا يعلمه إلا الأئمة كما يدعى الشيعة ، إنما الباطن هو الإشارات البيانية إلى الحقائق الكونية والنفسية، وغير ذلك من المعانى التى تدركها العقول ، ويصل إليها العالم ذو البصيرة المنيرة الذى آتاه الله تعالى نفاذ عقل واستقامة فكر .

٢٤٧ — والغزالى يقول المعنى الذى يؤخذ من ظواهر الألفاظ العربية ، ويثبت بعضه من السماع عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والصحابة هو الطريق للمعنى العميق الذى يدركه النـــاس كلما تقدم العلم ، واطلعوا على ظواهر الكون وكشفوا من خواصه ما كان مجهولا ، ولا سبيل لمعرفة تلك المعانى العميقة إلا بالمعانى الظاهرة المكشوفة .

ويقول الغزالى فى ذلك ما نصه : « النقل والسماع لا بد منه فى ظاهر التفسير أولا ، ليتقى موضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتسع للتفهم والاستنباط ، واستخراج الغرائب التى لا تفهم إلا بالسماع ، ولا مطمع فى الوصول إلى الباطن قبل إمكان الظاهر ، ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر ، فهو كمن يدعى البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب ، أو يدعى فهم مقاصد الأتراك من كلامهم ، وهو لا يفهم لغة الترك ، فإن ظاهر التفسير يجرى تعلم اللغة التى لا بد منها للفهم » .

والمعنى الباطن الذى يقصده الغزالى هو تحرى الدقائق التى تكون فى مطوى الألفاظ القرآنية ، والأسرار التى لا يدركها إلا العلماء الراسخون فى الإسلام ، والعلوم المختلفة ، كل بمقدار طاقته العلمية ، بعد فهم ظاهر اللفظ وما فيه من مجاز وحذف وإخبـار ، وعموم ، وخصوص ، وإطلاق وتقييد ، وإن ذلك واضح من كلامه وضوحاً بيناً ، فهو يقول فى معانى القرآن :

« إنما ينكشف للراسخين فى العلم من أسراره بقدر غزارة علمهم ، وصفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدبر وتجردهم للطلب ، ويكون لكل واحد حد فى الترقى من درجة إلى درجة أعلى منها ، فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ، ولو كان البحر مداداً والأشجـار أقلاماً ، فأسرار كلمة الله عز وجل لانهاية لها ، فمن هذا الوجه يتقارب الخلق فى الفهم، بعد الاشتراك

فى معرفة ظاهر التفسير ، وظاهر التفسير لا يغنى »[١] .

٢٤٨ — هذه إشارات إلى مناهج التفسير تكلم فيها العلماء ، وعندى أنه لا يمكن الاستغناء عن الآثار فى فهم آيات الأحكام ، أما ما عداها فإن العقل له فيه مجال كبير بشرط ألا يهيم على غير نور من الشرع . ولا بد لكى يكون التفسير بالعقل مقبولا من ثلاثة شروط :

أولها — العلم باللغة علماً سليما لكى يدرك معانى التصريف البيانى فى القرآن .

وثانيها — ألا يخالف المأثور عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، إذ يكون مخالفاً للمبين الأول للقرآن وهو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

والشرط الثالث — ألا يتعصب لفكرة أو مذهب ، ويخضع القرآن لما يتعصب له ، فيكون تفسيره خالياً من تأثير الهوى ، والله أعلم .

---

(١) إحياء علوم الدين جـ ١ ص ٢٦٣—٢٦٤ .

تَرجَمَة القرآن

٢٤٩ – أجمع العلماء على أن القرآن هو اللفظ ، والمعنى ، وإن من خالف ذلك يعد قد خالف فى أمر عرف من الدين بالضرورة ، وليس المعنى وحده يعد قرآناً ، لأن التحدى كان باللفظ والمعنى ، ولما تحداهم الله تعالى طالبهم أن يأتوا بعشر سور من مثله مفتريات ، وواضح أن التحدى هنا باللفظ .

وإن جبريل عليه السلام نزل على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بلسان عربى مبين ، ولقد وصف القرآن الكريم بأنه عربى ، فقال تعالى « إنا أنزلناه قرآناً عربياً » وقال تعالى : « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون » فالقرآن بلفظه ومعناه عربى ، ولا يصح أن يقال عن كتابة بعض معانيه بغير العربية إنها قرآن .

ومع وضوح هذه الحقيقة البدهية التى لا تختلف فيها العقول عند أهل الإيمان ، ولا تتباين فيها الأنظار ، وجد من الناس من ادعى أن معانى القرآن قرآن ، وأنه على هذا الاعتبار تجوز ترجمة القرآن الكريم على أن يكون المترجم قرآناً له كل خواص القرآن ، ويتعبد به كما يتعبد بالقرآن الذى نزل به جبريل بلسان عربى .

بل وصل التهافت فى القول إلى أن يدعى بعض الذين لا حرج على ألسنتهم ولا على قلوبهم أن يقول إن الذى نزل به جبريل على النبى عليه الصلاة والسلام هو المعنى فقط .

وذلك كله هراء من القول ، وانحراف عن الدين ، أو خروج عنه .

وفى وسط ذلك المضطرب كان من بين الذين يتجنون على القرآن من ادعى أن الإمام الأعظم أبا حنيفة النعمان يرى أن القرآن هو المعنى فقط ، وبنوا على هذا جواز ترجمة القرآن عند أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه ،

وأكرم مثواه ، والأصل الذى بنوا عليه دعواهم أنه رأى فى صدر حياته طوائف من الفرس قد دخلوا فى الإسلام ، وقد علموا العربية ، ولكن ألسنتهم لم تطوع للنطق بها من غير رطانة أعجمية ، بل كانت تتلوى فى مخارج الحروف العربية ، كما نجد اليوم الأعاجم الذين يعلمون اللغة العربية ، ولا تطاوعهم ألسنتهم فى النطق السليم بها ، فسوغ أبو حنيفة لهؤلاء أن يقرءوا معانى الفاتحة بلغتهم الفارسية ، وقد روى فى هذا أن أهل فارس فى عهد الصحابة قد صعب عليهم مخارج الحروف العربية ، فطلبوا إلى سلمان الفارسى أن يعبر لهم بالفارسية عن معانى الفاتحة ففعل ، حتى لانت ألسنتهم وقرءوا القرآن باللغة العربية، وقد اشترط أبو حنيفة لجواز ذلك ألا يكون الشخص مبتدعا بهذا العمل ، أى أنه يترك القراءة بالعربية مع القدرة على النطق الصحيح بها ، وإخراج الحروف من مخارجها، ليقرأ معانيه بلغة أخرى فارسية أو أوربية .

وقد روى عن أبى حنيفة أنه رجع عن هذا الرأى ، روى هذا نوح ابن أبى مريم الجامع ، وهو الذى رجحه الأكثرون، وإن النظرة التاريخية الفاحصة تجد ترجيح هذه الرواية له سبب واضح ، وهى تساير الحقيقة التاريخية ، وهو أن أبا حنيفة الفقيه المدرك ، قرر جواز قراءة المعانى بالفارسية على أنها دعاء مقارب للفاتحة فى معانيه ، فلما لانت الألسنة ، ودخل الناس من أهل فارس وغيرها فى دين الله أفواجا أفواجا ، ورأى أن المبتدعين هم الذين يتخذون القرآن مهجوراً وهم الذين يستبيحون تلك الرخصة التى رخصها ، حرم ما كان قد استحسن .

٢٥٠ — ومهما تكن الفتوى من الناحية التاريخية فإن الفقهاء اختلفوا فى أصل هذه الفتوى أمؤداها أن أبا حنيفة اعتبر الترجمة دعاء ، وليست قرآناً ، أم أنه اعتبرها قرآناً ، وهل مؤدى ذلك أن يكون أبو حنيفة قد اعتبر القرآن هو المعنى دون اللفظ .

ونقول فى الإجابة عن هذا السؤال إن من المقطوع به أن أبا حنيفة لم يعتبر القرآن الذى نزل على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو المعنى فقط ، فذلك ما لم يقله أحد من أهل الإيمان ، لأن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم أقرأه جبريل اللفظ ، ولم يوح إليه بالمعانى وحدها ، اقرأ قوله تعالى مع ما تقدم «ولا تحرك به لسانك لتعجل به ،إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآناه ، ثم إن علينا بيانه »[1] .

فهل بعد هذا النص القاطع يستطيع أحد أن يدعى على أبى حنيفة الورع التقى أنه يقول إن الذى نزل على محمد ، وتلقاه عن جبريل الأمين، وهو روح القدس هو المعنى فقط ، إن ذلك غير معقول .

وبقى السؤال الأول هل يمكننا أن نفهم من هذا أن أبا حنيفة أقر قراءة القرآن بغير العربية ممن يعرف العربية ، ولا يجيد إخراج الحروف من مخارجها ، أنه يعتبر المعنى ذاته قرآناً مع إقراره بأن الذى نزل على محمد اللفظ والمعنى.

نقول إن الأكثرين من الفقهاء المتقدمين والمتأخرين يقولون إن أبا حنيفة اعتبر المترجم مجزئاً للصلاة فى الحدود التى رسمناها . فى دور من أدوار اجتهاده الفقهى ، ولكنه لا يعده قرآناً قط ، ولذا لم يقل إنه تجب سجدة التلاوة بالجزء المترجم إذا كان فى معنى آية لها سجدة تلاوة ، وأجاز أن يمس غير المتوضىء الجزء المترجم ، ولا حرج عليه ، وتقرأ الحائض النفساء المعنى المترجم ، ولا إثم فى ذلك ، لأنه ليس قرآناً .

ولذلك يقول الأكثرون من فقهاء المذهب الحنفى إن ماقرره أبو حنيفة إن هو إلا ترخص الذين لم تقوم ألسنتهم تقويماً عربياً سليما ، فسوغ لهم

---

(١) القيامة : ١٦ — ١٩

أن يقرءوا المعانى حتى تقوم ألسنتهم ، وعلى أنها دعاء . لا على أنها قرآن ولم يعرف عنه قط أنه سوغ ذلك فى غير الفاتحة .

وعلى هذا لا يجوز لأحد أن يبنى على ما روى عن أبى حنيفة جواز ترجمة القرآن إلى لغة من اللغات على أن يكون المترجم قرآناً ، ومهما يكن ، فإن الرأى الذى ينسب إلى أبى حنيفة قد رجع عنه ، وهو خارج عن رأى الفقهاء أجمعين ، فلم يسوغ أحد قراءة معانى الفاتحة بالفارسية أو غيرها ، بل أجازوا الدعاء لمن لا يعرف العربية ، ولم يجد من يأتم به ليغنيه عن القراءة .

وتكرر القول بأنه رجع عنه ، وقلنا إنه الذى يتفق مع السياق التاريخى ، إذ أن أبا حنيفة عاش سبعين سنة ابتدأت سنة ٨٠ وانتهت سنة ١٥٠ والمعقول أنه رأى الألسنة الفارسية لم تقوم ، فسوغ لهم من قبيل الرخصة الدينية فقط أن يقرءوا المعانى لسورة الفاتحة على أنها دعاء حتى تقوم ألسنتهم ، فلما رأى الألسنة قومت ولانت واستقامت ، وخشى البدعة ، إذ يجد المبتدعة السبيل لبدعتهم ، فرجع عن رأيه ، ولا يصح الاعتماد على رأى رجع عنه صاحبه .

٢٥١ — ولو تركنا فتوى أبى حنيفة ، وقد علمنا من الفتوى أنه لم يعتبر ترجمة القرآن قرآناً لها قدسية القرآن يجب أن نتجه إلى موضوع الترجمة فى ذاته ، ولكى نقرر الحق فيه يجب أن نجيب عن هذه الأسئلة الثلاثة .

السؤال الأول : أيمكن ترجمة القرآن .

السؤال الثانى : أتسوغ الترجمة على أن الترجمة قرآن أو ليست بقرآن .

السؤال الثالث : ما السبيل لتعريف غير المسلمين بالقرآن ، وإطلاعهم على معانيه .

وإنا نجيب عن هذه الأسئلة جملة : إن ترجمة القرآن غير ممكنة ، وقد تصدى لذلك العلماء الأقدمون ، فقرر ابن قتيبة وغيره من العلماء أن كل كلام بليغ لا يمكن ترجمته ببلاغته من لغة إلى أخرى ، ذلك أن الكلام البليغ له معنيان يجتمعان أحدهما أصلي ، وهو المقصد الذى انبنى عليه الكلام وما سيق له من قصة أو حكم أو عظة .

والثانى بلاغى ، وهو إشارات الكلام ومجازاته ، وما يثيره من صور بيانية ، وما يحيط به من أطياف ، كالتى تحيط بالصور الحسية ، وبهذا كله تعلو الرتب البلاغية ، ويسمو البيان .

وبتطبيق هذه القاعدة على القرآن الكريم . وهو فى درجة من البلاغة لا ينهد إليها أى كلام إنسانى قط ، فإن ترجمته مستحيلة على أن يكون قرآناً فيه كل خواصه البلاغية .

ولذلك قال العلماء الأقدمون بالإجماع ، إنه لا يمكن ترجمة القرآن بمعانيه الأصلية ، والمعانى البيانية اللاصقة لها ، فما فيه من أوامر ونواه وأخبار وقصص يمكن ترجمته ، فيترجم أصل النهى والأمر ، ووقائع القصة ، ولكن العبارات التى سيق بها القول وما فيه من صور بيانية ، وإشارات تعلو بالكلام إلى أسمى المنازل حيث لا يكون له شبه ولا مثيل ، فإن ذلك لا يمكن ترجمته .

ولقد قال الشاطبي فى هذا المعنى بعد أن قسم معانى الكلام البليغ إلى معان أصلية ومعان خادمة هى ما تشير إليه المجازات والتشبيهات والإشارات البيانية ، ومطويات الكلام ومراميه البعيدة . قال بعد هذا التقسيم : « إذا ثبت هذا لا يمكن من اعتبر هذا الوجه أن يترجم كلاماً من الكلام العربى بكلام الأعاجم فضلا عن أن يترجم القرآن ، وينقله إلى لسان غير عربى إلا مع فرض استواء اللسانين فى اعتباره عيناً ، فإذا ثبت

ذلك فى اللسان المنقول إليه مع لسان العرب أمكن أن يترجم أحدهما إلى الآخر ، وإثبات مثل ذلك بوجه بين عسير جداً » .

ونزيد على الشاطبى أنه إذا توافق اللسانان فإنه مع بعد ذلك لا يوجد فى اللسان الآخر من تكون عبارته كعبارة القرآن المعجز للبشر أجمعين الذى إن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

وقد نفى ابن قتيبة إمكان ترجمة القرآن على الوجه الثانى ، أما الوجه الأول فقد قال فيه : « فأما عن الوجه الأول فهو ممكن ، ومن جهة صح تفسير القرآن ، وبيان معناه للعامة ، ومن ليس له فهم يقوى على تحصيل معانيه ، وكان ذلك جائزاً باتفاق أهل الإسلام ، فصار هذا الاتفاق حجة على صحة الترجمة بالمعنى الأصلى »[1] .

وبهذا يتبين أن ترجمة القرآن غير ممكنة .

ولا تسوغ ترجمة القرآن ، واعتبار هذه الترجمة قرآناً ، فإن ذلك يؤدى إلى ألا يحفظ القرآن من التحريف والتبديل بل يعتريه ما اعترى التوراة والإنجيل من تحريف وتبديل ، فالأناجيل ضاع أصلها العبرى ، ولم يبق إلا ترجمتها اليونانية ، أو بالأحرى ترجمة بعضها ، والسبب فى ذلك هو ترجمتها من العبرية ، وهكذا يكون القرآن الكريم لو سوغنا ترجمته ، ولكن الطريق مسدود ابتداء لأن الترجمة غير ممكنة ، فكان القرآن محفوظاً « إنا نحن نزلنا الذكر : وإنا له لحافظون[2] » .

٢٥٢ — وهنا يرد أمران منبعثان من السؤال الثالث الذى ذكرناه ، وهو كيف نوصل علم القرآن إلى أهل الألسنة الأخرى ، ذانكم الأمران

---

(١) المعارف لابن قتيبة .　　(٢) الحجر : ٩

أولها أن كثيرين من الأوربيين والأمريكان وغيرهم ، والمغرضون فيهم أكثر من طالبي الحقائق - كتبوا معانى القرآن بغير العربية وسموها قرآناً وحرفوا فيها الكلم عن مواضعه ، والأجانب يعتبرونها قرآناً ، ومن الواجب أن تصحح هذه التراجم بترجمة صحيحة سليمة للقرآن ترد الحق إلى نصابه .

والأمر الثانى : أن عند بعض الأوروبيين والأمريكان نزعات تتجه بهم إلى تعرف القرآن وما يشتمل عليه ، وإن كثيرين من الشرقيين المسلمين لا يعرفون معانى القرآن وإن كانوا غير فاهمين لما يتلون .

ومن الواجب أن نعرف المسلمين بمعانى القرآن معجزة الإسلام ، ومنهم من يحفظه كله ، وكلهم يحفظون بعضه ليصححوا صلاتهم ، وإن هؤلاء من حقهم على المسلمين الذين يجيدون العربية ، ويفهمون لغتهم أن ينقلوا إليهم معانى القرآن ليفهموا معنى ما يتلون من كتاب الله تعالى .

ونقول بالنسبة لهؤلاء الأعاجم من المسلمين إنهم يتلون القرآن الكريم ، ومن السهل أن يكتب لهم فى هامش المصاحف التى بأيديهم معانى الألفاظ القرآنية ، فيقرءون القرآن ، ويستطيعون أن يفهموه ، وقد فعل كثيرون منهم ذلك ، وما يكون بالهامش لا يعد ترجمة ، بل يكون تفسيراً للمفسر .

وأما بالنسبة لغير المسلمين الذين يريدون أن يعرفوا مافى القرآن ، ونحن نقرر أن من الصد عن سبيل الله تعالى ألا نطلعهم على مافى القرآن من تكليف وعظات وإرشاد ، ولكن السبيل إلى ذلك ليس ترجمة القرآن ذاته ، فإن ذلك متعذر ، لأن القرآن له معان رائعة تختلف فى إدراكها على الوجه الأكمل العقول ، وكل عقل يدرك منها بمقدار ثقافته ، وما يدلى به من حبال المعرفة وطاقة الفهم .

وإنما السبيل هو الاتجاه إلى أحد أمرين ، إما بيان المعانى الأصلية

التى اشتمل عليهـــا القرآن مبينة بأقوال النبى صلى الله عليه وسلم ، وبذلك يعرفون حقائق الإسلام ، ويستضيئون بنور القرآن .

والاتجاه الثانى: أن يفسر القرآن تفسيراً موجزاً مختصراً موضحاً لمعانى الآيات ، وأن يتولى كتابة هذا التفسير جماعة علمية معروفة بأنها من أهل الذكر ، ويذكر التفسير منسوباً إليهم ، ومسمى بأسمائهم مضافاً إليها ، ويترجم ذلك التفسير على أنه ترجمة تفسير فلان ، وفلان ، وأن نحتاط عند النشر ذلك الاحتياط لكيلا يفهم أحد أن هذه الترجمة هى القرآن ، أوهى معانى القرآن ، بل يشار إلى أنها ترجمة لمعـانى القرآن على ما ذكره وفهمه أولئك المفسرون ، فإن معانى القرآن على الحقيقة لا يعلمها كاملة إلا منزل القرآن ، ومن نزل عليه الفرقان ، ومن بعد يدرك كل عالم بمقدار طاقته ، وإن القارىء المتفهم للقرآن الطالب لمعاينه يجد أمامه نوراً ، كلما قوى بصره واستفادت بصيرته ، وكلما علا إدراكه علا فهمه للقرآن ، وعلم منه مالم يكن يعلم ، وفهم من بعض أسرار إعجازه ما لم يكن يفهم من قبل .

وأنه لكمال الاحتياط يجب أن يكون النشر بحيث لا يفهم أنه ترجمة لآى القرآن مباشرة ، بل يكون الطبع على الوجه الآتى :

(ا) يطبـع المصحف فى وسط الصفحة وترقم آياته بأرقام أفرنجية ، ويكتب حوله تفسير كل آية مرقماً برقمها الذى رقمت به الآية ، بحيث يكون القرآن مكتوباً بلغة القرآن ، والتفسير مكتوباً باللغة العربية .

(ب) يكتب تفسير باللغـة التى ترجم إليها التفسير مرقماً بالأرقام التى رقمت بها آيات المصحف ، بحيث يفهم القارىء غير العربى أن ما يقرؤه هو ترجمة تفسير للقرآن ، وبحيث يفهم تفسير كل آية من رقمهـا الذى رقمت به فى المصحف ، وفى التفسير ، وإن هذا النظـام الفـكرى ، والطابعى يحقق مقاصد ثلاثة :

أولها — وضع تفسير موجز باللغة العربية يمكن طبعه مع المصحف من

غير ترجمته ، وذلك مقصد سليم مطلوب في ذاته ، يسهل على القارىء العربي فهم القرآن ، وهو يتلوه أو يستمع إلى من يتلوه ، وبذلك تتحقق العظة ، ويتحقق الاعتبار ، ويكون الانتفاع كاملا لمن يعرف العربية .

ثانيها — أن يقرأ القارىء الأعجمي القرآن الذي يحفظه من غير أن يفهم ، وبإيجاد التفسير بلغته يتمكن من فهم القرآن ، ويسهل عليه ذلك أن يعرف العربية إن اتجه إلى معرفتها ، لأنه حفظ كثيراً من عباراتها القرآنية وفهم معناها ، وقد نفذت ذلك فعلا بعض البلاد الإسلامية ، فالإيرانيون قد كتبوا تفسيراً للقرآن باللغة الفارسية طبع في هامش المصحف الشريف ، وكذلك فعل الأفغانيون ، والباكستانيون .

ولو كان التفسير العربي الذي تكتبه طائفة من أهل الذكر ، ترجم إلى لغات أولئك لكان العمل أسلم وأتقن وأجدى .

المقصد الثالث — الذي يحققه ذلك العمل الجليل هو تصحيح ماسموه تراجم للقرآن في اللغات الأوربية ، وبيان وجه الخطل فيها وإبطال التحريفات لمعانيه الجليلة ، فإن بعض الذين تولوا الترجمة لم يكن مقصدهم العلم لذات العلم ، بل كان مقصد الكثيرين منهم تشويه معاني القرآن الكريم ، وفوق ذلك فإن الأوربيين يجدون السبيل لرؤية القرآن ، فإن أرادوا أن يمشوا فيه مخلصين أدركوه ، وآمنوا به واهتدوا .

وإن قصدوا إلى النور بعيون ضالة ، وقلوب مريضة ، ونفوس أركست في الهوى ، فلن يزدادوا إلا عمى ، قال تعالى «فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» .

هذا هو العمل الذي نعتقد أنه العمل السليم الذي يحقق كل المقاصد من غير أن يتعرض القرآن لعبث العابثين ولهو الضالين .

وإنا نعتقد أن الله حافظ كتابه في الانتهاء ، كما حفظه في الابتداء ، إنه عليم قدير .

الغناء بالقرآن

٢٥٣ — تلونا من قبل قوله تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه ، فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه[1] » .

هذا النص الكريم يدل على أن تلاوة القرآن بتوجيه من الله ، لأنه سبحانه وتعالى يقول : فإذا قرأناه ، فاتبع قرآنه» أى إذا تلونا عليك القرآن، واستحفظته ، فاتبع القراءة التى علمك الله تعالى ، وهو ما يدل عليه قوله تعالى « فاتبع قرآنه أى اتبع طريقة القرآن التى قرأناه ، ولا تبتعد عنها ، فإن القرآن يراد به القراءة أحيانا كما قال تعالى : « وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً » .

والقرآن فى أصله كتاب كريم مبين ، وعبر عنه سبحانه وتعالى بقرآن إيماء إلى أنه كتاب نزل بنصه وبطريقة قراءته ، وبذلك لا يستحفظ باقياً فى الأجيال بمجرد الكتابة ، بل بالقراءة وحفظه فى الصدور متلواً بما علّمه الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، فالنبى عليه الصلاة والسلام فى تلاوته ، إنما يتلو بتعليم من الله تعالى فى مده وغنه ، وتشديده ، وتسهيله ، فإنه إذ نزل على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نزل متلواً» .

وعلى ذلك تكون القراءة الكاملة للقرآن الكريم هى القراءة التى التزمها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر ربه وتعليمه ، ولذلك يقول العلماء إن القراءة سنة متبعة ، لا يصح لمؤمن أن يحيد عن طريقة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد علم النبى أصحابه هذه القراءة كما علمه ربه ، وعلم الصحابة تلاميذهم من التابعين تلاوة النبى عليه السلام ، وتواترت قراءة النبى الكريم،

---

[1] القيامة : ١٦ — ١٩ (٢) الاسراء : ٨٧

كما تواتر القرآن الكريم فكان محفوظا بطريق تلاوته ، كما كان محفوظا بذاته ، بل إن الفصل بين طريقة التلاوة ، وذات القرآن الكريم فصل بين متلازمين ، وإن السلف الصالح ، والخلف من بعدهم ما كانوا يعتمدون على المكتوب فى استحفاظ القرآن الكريم ، إنما يقرأ طالب القرآن على مقرىء يقرئه ، ولا يعتمد على مكتوب كتب ، لأن المكتوب قد يجرى فيه التصحيف والتبديل أما ما حفظ فى الصدور فإنه لا يعروه تغيير ولا تبديل ، ولا تحريف.

ولقد أمر الله تعالى نبيه بأن يرتل القرآن ترتيلا فقال تعالى: «ورتل القرآن ترتيلا[1]» ولقد نسب سبحانه وتعالى الترتيل إلى ذاته المقدسة فقال تعالى: «ورتلناه ترتيلا».

ولقد وضع العلماء المقاييس والضوابط التى تميز الترتيل المطلوب فى تلاوة القرآن الكريم ، ولم يتركوا الأمر فرطاً بل وضعوا ميزاناً يميز الترتيل المطلوب عن القراءات البعيدة عن الترتيل ، وهو علم التجويد ، وعلم القراءات ، ففى هذين العلمين يتميز المنهاج المطلوب فى الترتيل عن غيره مما يبتدعه الناس .

٢٥٤ — ولقد كان التابعون تلاميذ الصحابة يتبعون فى قراءة القرآن الترتيل الذى تعلموه من الصحابة كما أشرنا ، وهو الترتيل الذى قرأ به الصحابة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو الترتيل الذى علمه الله تعالى لنبيه ، فكان السند متصلا اتصالا وثيقا ، وتواترت القراءة ، تواتر القرآن كما نوهنا .

ولكن حدث فى العصر الأموى ، وهو عصر التابعين ، ومن امتد به الأجل من الصحابة رضى الله تعالى عنهم أن دخل الغناء الفارسى ، وتشايع ذلك الغناء بألحانه .

---

(١) المزمل : ١٤

ويظهر أن هذا الغناء تسامى بألحانه إلى القرآن الكريم ، فالتوت بعض الألسنة عن الترتيل المتبع فى عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن كان حيا من المعمرين من الصحابة استنكر ذلك . يروى فى هذا عن زياد النميرى أنه جاء مع بعض القراء إلى أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقيل له اقرأ ، فرفع صوته ، وطرب ، وكان رفيع الصوت ، فكشف أنس عن وجهه ، وكان على وجهه خرقة سوداء ، فقال يا هذا ما هكذا كانوا يقرءون ، وكان إذا رأى شيئا ينكره كشف الخرقة عن وجهه .

وإن هذا الخبر عن ذلك الصحابى الجليل يدل على أمرين :

أولها — أن التطريب بالقرآن برفع الصوت وخفضه مسايرة لنغم أو نحو ذلك ما كان فى الترتيل الذى تلقاه الصحابة عن الرسول .

والثانى — أنه يدل على ذلك التطريب بقراءة القرآن قد حدث فى العصر الأموى بعد أن دخل الغناء الفارسى ، فهو بدعة ابتدعت ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار ، وذلك فوق أن القرآن لا بد أن يرتل ترتيلا ، وذلك ليس ترتيل القرآن ، والقراءة كما قلنا سنة متبعة .

وإن التلاوة الحق كما حد العلماء حدودها ، وقرروا مقياسها فى علم يدرس قد ذكر القرآن خواصها ، وهى فى آثارها فى نفس القارىء ، وفى نفس من يسمعها ، وفيما تدل عليه من منزلة القرآن ، ومكانته فى هذا الوجود .

فالله تعالى يقول فى مكانته « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعا »[1] أى أن هذا القرآن له قوة فى النفوس وفى الوجود ، بحيث أنه يمكن أن تسير به الجبال ، أو تكلم به الموتى أو تقطع به الأرض ، فله فى النفس كمال الرهبة ، وله كمال التأثير ، وله فى الآذان جمال التعبير . فلو كانت الجبال تسير أو الأرض تقطع ، أو الموتى يسمعون

---

(١) الرعد ٣١

القرآن فإنه يكون لقراءة القرآن ، فهل يتأتى هذا التأثير مع تلوى الألسنة والأصوات بنغماته يترنح بها القارىء ذات اليمين وذات الشمال ، والآهات تتعالى ، ويكون المكاء والتصدية .

والقرآن وصفه الله تعالى بأنه ذو الذكر ، وأقسم به تعالى ، فقال سبحانه ، «والقرآن ذى الذكر» أى القرآن الذى يصحبه ذكر الله تعالى ، وهو الذى تطمئن به قلوب المؤمنين ، كما قال تعالى : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » وسمى القرآن ذكراً فقال جل وعلا : « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون » ، فهل تلوية الأصوات والنبرات بغير الترتيل المنزل من عند الله تعالى يكون الذكر لله تعالى ، والاتعاظ بقرآنه أم هى النغمات بين التطرية، والتعلية ، هى التى تهتز لها النفوس طرباً ، وتعلو بها الأصوات إعجاباً بالمغنى، وعجباً .

والقرآن قد وصف الله تعالى المؤمنين عند تلاوته ، فقال تعالى « إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيا[1]» فهل تكون التلاوة المؤمنين الذين سمعوا القرآن تكون بهذه الأصوات الذى تحدث الضجات المتوالية .

ويصف الله تعالى القرآن الكريم فيقول : «إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين[2]» .

ويبين سبحانه قوة تأثير القرآن فى قلوب المتعظين ، وفى قلوب من يتفهمونه « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعا من خشية الله[3]» فهل يرى أى مدرك للمعانى القرآنية أن ذلك يتفق مع التغنى والتطريب الذى يصنعه قراء العصر . إن القارىء يكون مشغولا بالطرب عن معنى القرآن وهدايته وعظاته فلا يتدبره ، ولا يدرك معناه ، ويكون على القلوب

---

(١) مريم : ٥٨ (٢) الاسراء : ٩ (٣) الحشر : ٢١

أقفال بما يحدثه التغنى ، والتطريب ، والاجتهاد فى إثارة النفوس لا لتتعظ ولكن لتضع ستاراً بينها وبين ما فى القرآن . والله تعالى يصف القرآن الكريم بقوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد[1] » .

وإن هذه الآيات التى تلوناها قبسة من نور القرآن الكريم ، وهى تدل على أنه ليس شعراً يُتغنى به ، ويتنزل على لحون الأعاجم قديمها وحديثها ، ولكنه كتاب هداية للعظة ، والاعتبار ، وتوجيه النفوس ، وكل تطريب بالألحان قديمة وجديدة هو إلهاء عن ذكر الله تعالى ، وإبعاد عن مراميه ومغازيه ، فتكون النفس مشغولة بالنغم الملهى عن معنى القرآن ومرماه .

٢٥٥ — وإننا لا نبعد بهذا الكلام عن حقيقة مقررة ثابتة ، وهى اتباع السلف فى التلاوة ، وهى تنتهى فى أصلها إلى منزل القرآن الكريم الذى جعله حجة وبرهاناً ومعجزة ، وقال فيه : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »[2] كما تلونا من قبل .

فكل مخالفة لمنهاج السلف الصالح فى التلاوة ، مخالفة لما أمر الله تعالى به فى قوله تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا » ولكن وردت آثار عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يوهم ظاهرها جواز التغنى بالقرآن ، والتطريب به والترجيع فيه وكان لنا وقد تلونا ماتلونا أن نحكم بعدم صحة نسبتها إلى الرسول ، ولكن ذلك يكون إذا كانت تدل قريباً أو بعيداً على جواز الغناء الذى نراه الآن من بعض القراء ، وعلى ما يريده الذين لم يعرفوا بأنهم أرادوا ألإسلام وقارا ، بل يريدونه بورا ، أو كما يبدو فى كتاباتهم ، والله علم بضمائرهم .

(١) الزمر : ٢٣ (٢) الإسراء : ٨٨

ولكنا إذا تفهمنا هـذه الآثار عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعن صحابته ، وما ترمى إليه، إن صحت النسبة ، وجدنا أننا لسنا فى حاجة إلى رد صحيح السند منها ، لأن متنه لا يخالف الترتيل الذى جاء به رب القرآن ورب محمد ، ورب العالمين .

١ — لقد روى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال فيما رواه عنه البراء بن عازب « زينوا القرآن بأصواتكم » .

٢ — وأخرج مسلم «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» .

٣ — ولقد كان عليـه السلام يسره أن يسمع القرآن من أبى موسى الأشعرى ، حتى روى أنه قال فى سرور بقراءته : «لقد أعطيت مزماراً من مزامير داود» وأنه سمعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاستطاب ما يسمعه من صوته وأبو موسى لم يشعر . فلما شعـــر قال : « لو أعلم أنك تستمع لقراءتى لحبرت لك تحبيراً » .

٤ — وروى عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « تعلموا القرآن ، وغنوا به ، واكتبوه ، فوالله إنه لأشد تفصياً من المخاض من العقل » .

٥ — قرأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عام الفتح فى مسيرته سورة الفتح على راحلته فرجَّع ، والترجيع فى القراءة ترديد الحروف .

هذه الأخبار واردة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهى فى ظاهرها تدل على جواز التغنى بالقرآن والترجيع فيه والتطريب به ، وقد طار بهذه الآثار أولئك الذين يروجون قراءة القرآن بألحان الأعاجم ، وكان لنا أن نردها لمخالفتها المتواتر عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

فلننظر إليها فهل تؤدى فى مدلولها إلى جواز اتخاذ القرآن سبيلا للتطريب فى عصرنا ، لتحدث القراءة طرباً ولا تحدث عظة واعتباراً ،

وخشية من الله . وإحساساً من المؤمن بأن الله تعالى يخاطبه بهذا القرآن .

ولننظر فيها خبراً خبراً نتعرف ما يدل عليه فى ظاهره ، وفى حقيقته .

أما الخبر الأول : وهو ما نسب إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أنه قال : « زينوا القرآن بأصواتكم» فإنه لا يفسر بظاهره ، لأن القرآن زين بذاته . ولكن المتأمل يرى أن القراءة المرتلة التى يلاحظ فيها المأثور من القراءات ، وملاحظة المعانى فيها ، فيرفع الصوت فيها نسبياً فى آيات التهديد والإنذار ، ويخفضه نسبياً فى آيات التبشير ، ويقرأ قراءة المتأمل فى الآيات الكريمة الداعية إلى التفكير ، فإن هذا بلاشك موافق للترتيل الذى أخذناه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومصور للمعانى القرآنية من غير أن تكون القراءة صياحاً نمطياً ، ومن غير أن تكون تلحيناً أعجمياً ، ولينا فى الإلقاء لا يسوغ .

وإنا نحسب أن تزيين القراءة لا يكون إلا بالترتيل ، فالتزيين فى كل شيء بما يناسبه ، وذلك واقع فى المعنويات كما هو واقع فى الحسيات ، والأشياء والأشخاص ، ولاشك أن القراءة تكون بما يناسب معانى القرآن ، وموضع العظة والاعتبار والتأمل فيه . ولا يمكن أن يفسر التزيين بالتلوى فى الحروف والكلم ، فإن ذلك شين ، وليس بزين .

ولنرجع إلى تفسير البراء الذى روى هذا الخبر ، فقد قال فى تفسيره له زينوا القرآن بأصواتكم ، أى الهجوا به ، واشغلوا به أصواتكم ، واتخذوه شعاراً وزينة ، وقيل إن معناه الحضّ على قراء القرآن ،

وإن هذين التفسيرين ، وإن كانا غير ما فسرنا به الخبر ، يتلاقيان مع تفسيرنا ، ولا ينافرانه ، وهما يتفقان مع غيره من الأحاديث فى هذا الباب .

٢٥٦ — ولننظر فيما أخرجه مسلم من قول للنبي عليه السلام إذ قال «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» ، فقد فسره بعض العلماء بأن التغني هنا تحسين الصوت بقراءة القرآن ، بأن يعود لسانه النطق السليم من قراءة القرآن بإخراج الحروف من مخارجها ، واتباع الترتيل المحكم عن النبي عليه الصلاة والسلام في المد والغن والإدغام، والفصل والوصل، والوقوف في موضع الوقف، ووصل القراءة في مواضع الوصل ملاحظاً المعانى ، ومدركا مايقرأ ، وهذا يتلاقى مع ماروى عن ابن عمر أنه قال حسنوا أصواتكم بالقرآن ، وماروى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال «زينوا أصواتكم بالقرآن» .

ولا شك أن الوهم الذى دخل على الذين يقرءون القرآن بألحان الأعاجم ، والذى استنكره أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا الحديث هو العماد الذى يقوم عليه عمل هؤلاء ، ونحن لا نرى فيه ما يؤيد كلامهم .

إن التغنى مصدر غنى يغنى تغنية ، وهو فيما أعتقد غير الغناء ؟ لأن الغناء القصد إلى إسماع غيره ليطرب ، ويتطرب لا ليتعظ ويعتبر ، أما التغنى فهو استمتاع المتكلم بما يتكلم به مترنما بالنطق ، مستحبا له مستملحاً ، مستطيباً للكلمات ذواقا لها ولمعانيها ، ولننزل من مرتبة القرآن السامية إلى منحدر الشعر ، فإن إنشاد الشعر من الشاعر استمتاع بالألفاظ ، ورنة الموسيقى فى الشعر ، يهتز بها مترنماً ، يفعل ذلك ولو لم يسمعه أحد ، ولو لم يقصد إلى سماع أحد ، وكذلك المؤمن القارىء للقرآن يتذوق ألفاظه ، ويدرك الصور البيانية التى تصدر عن أساليبه ، ويخشع لما يشتمل عليه من عظات وعبر ، ويحس بأن الله تعالى يخاطبه ، وتعتريه روحانية من الألفاظ ونغمها وجلال معانيها .

هذا هو التغنى الذى نفهم أنه خاصة من خواص المؤمنين ، ويفعله

الصديقون ، وليس منه ما نسمعه الآن من القراء الذين يطربون ، ويرجعون الحروف ، ويلوون بها الألسنة ، فإن هذا غناء وليس مجرد تغني ، وإن هذا النظر يتلاقى مع بعض الروايات ، فقد روى أبو سعيد الخدري في قوله عليه السلام ، «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» قال : كانت العرب تولع بالغناء والنشيد في أكثر أقوالها ، فلما نزل القرآن أحبوا أن يكون القرآن هجيراهم مكان الغناء فقال عليه السلام : «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» أي يشبع نفسه بحسن ترتيله وتلاوته ليكون هو الذي يستمتع به من كلامهم .

وقد روى سفيان بن عيينه عن سعد بن أبي وقاص إن تغنى هنا بمعنى استغنى ، وإن بعض المعاجم يفسر التغني بمعنى الاستغناء فقد جاء في الصحاح تغنى الرجل بمعنى استغنى ، فمعنى النص الشريف . ليس منا من لم يستغن بالقرآن عن أساطير الأولين ، وأقاصيص القصاصين .

وقد أنكر الشافعي تفسير التغني في الحديث بالاستغناء ، وتابعه في ذلك ابن جرير الطبري ، وقال الطبري إن التغني هو حسن الصوت بالترجيع ، وهذا التفسير يتلاقى مع قولنا الذي أسلفناه ، وهو التمتع بحلاوة الألفاظ القرآنية ، ورنين أساليبها بترجيع بعض الجمل والكلمات من غير قصد إلى التطريب ، وإيقاظ المشاعر بغير نغم القرآن ، بل بنغم الألحان الذي يمنع ذكر الله تعالى ، والخشوع الذي وصف الله القرآن به إذ قال سبحانه : «مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم[1]» .

ومهما تكن الأقوال في معنى التغني . فمن المتفق عليه بين الموسعين ، والمتمسكين كابن المسيب ومالك وابن حنبل ، وغيرهما ، أن القراءة بالألحان والتطريب والغناء لا تجوز لأنه يخل بمقام القرآن ويوجه الناس إلى الطرب بالألحان بدل الاستفادة بمواعظ القرآن ، وهدايته ، وتعرف أحكامه ، وما فيه من أدلة التوحيد . وأحوال الأقوام مع الرسل السابقين .

---

(١) الزمر : ٢٣

وإنه يجب فهم التغنى على ضوء قوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعلى ضوء ماعرفناه من قراءة النبي عليه السلام وترتيله الذى علمه الله تعالى إياه ، وعما أثر عن السلف الصالح .

ولقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « أحسن الناس صوتاً من إذا قرأ رأيته يخشى الله تعالى » فهل هذا يتفق مع التلوى بالألفاظ ، وعدم مراعاة المعانى ، وإنما تراعى الألحان ، والناس فى طرب بسماعها ينصتون إليها ويطربون ، ولا تنالهم الخشية من خطاب الديان لهم بالقرآن الكريم، كلام الله تعالى بيانه .

٢٥٧ — ولننتقل بعد ذلك إلى حديث أبى موسى الأشعرى وثناء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد روى بعبارات مختلفة منها هذه العبارة التى قالها بعد أن عبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم باستحسانه بقراءته ، فقد قال رضى الله تعالى عنه للنبي عليه الصلاة والسلام « لوأعلم أنك تستمع لقراءتى لحبرته لك تحبيراً » ، والتحبير التزيين وهو كما قلنا فى كل شيء بما يناسبه ، فالذى يناسب القرآن الكريم الترتيل المصور للمعانى القرآنية المربى للخشوع ، والعظة والاعتبار ، والذى يجعل المعانى القرآنية تنساب فى النفوس .

وقد رويت عبارة أبى موسى الأشعرى بنص آخر يوضح الرواية الأولى، ولا يخالفه ، أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى لو علمت أنك تستمع لقراءتى لحسنت صوتى بالقرآن ، وزينته ورتلته » .

فهذه الرواية تدل على أن التحبير والتحسين كان فى الصوت ، لا فى القرآن الكريم ، وأن ذلك التحسين كان فى دائرة الترتيل ، ولا شك أن حسن الصوت ، إذا اقترن بالترتيل ، ولم يتخالفا ، ولم ينحرف القارىء إلى ألحان الأعاجم ، وإلى الغناء وتطريب السامعين ليتمايلوا يمينا وشمالا ، ويقرنون ذلك بآهات مهوشة ، تشبه المكاء والتصدية كما كان أهل الجاهلية.

ولننتقل من بعد ذلك الى ما روى عن عقبة بن عامر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « تعلموا القرآن وغنوا به ، واكتبوه »

وقد قالوا إنه صحيح السند ، وإن التغنى المذكور فى الحديث السابق ، هو مصدر غنى ، وقد فسرنا التغنيه فى الحديث بأنها ليست الغناء الذى يقصد به القارىء أن يعتبر القرآن أغنية يطرب بها السامعين ، إنما التغنى عمل نفسى للقارىء التالى للقرآن ، بأن يشبع الكلمات ، ويستمتع بها ، وينغمها ، ويراجع فى كلماته متذوقا لها ، مدركا لكل معانيها ، متفهما ، محبا للقرآن ، غير متململ ، ولا متكلف . وقد شرحنا ذلك من قبل .

وكتابة القرآن الكريم أمر مطلوب ، وقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يملى على الكتاب ما حفظ من ربه ، وما أن انتقل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى إلا كان القرآن الكريم كله مكتوباً مسطوراً ، ومحفوظا ومرتلا متلواً ، تلاوة نبوية .

وإن الأمر بالكتابة لا يدل على الاستغناء بها ، فإنه إن حفظ الحروف والكلمات لا يروى الترتيل الذى نزل على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك كان لا بد من الإقراء على مقرىء ليحفظ المتواتر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الذى علمه ربه الترتيل ، كما تواتر القرآن المحفوظ ، وكما قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون[1] » .

٣٥٨ — من هذا كله يتبين أن القراءة الصحيحة تكون بترتيل القرآن الكريم ، لما علمه الله تعالى لنبيه فى قوله تعالت كلماته « فإذا قرأناه ، فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه[2] » .

وإن الاعتبار فى القراءة التى يكون فيها التزيين يثبت بأن يمتلىء قلب القارىء بالخشوع ، ويلق به فى نفوس السامعين ، فهذا هو القياس المستقيم ،

(١) الحجر : ٩ (٢) القيامه : ١٨ — ١٩

ولقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما روينا من قبل : «أحسن الناس صوتاً من إذا قرأ رأيته يخشى الله تعالى .

وإن قراءة القرآن لا تجوز إلا بإخراج الحروف من مخارجها ، والمد فى موضعه ، والغن فى موضعه ، والوصل حيث يقتضيه المعنى ، والوقف حيث توجبه المعنى ، فذلك هو الترتيل .

ولقد روى حذيفة بن اليمان أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « اقرءوا القرآن بلحون العرب ، وأصواتها ، وإياكم ولحون أهل الفسق ، ولحون أهل الكتاب ، وسيجيء بعدى قوم يرجعون القرآن ترجيع الغناء والنوح ، لايجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم ، وقلوب الذين يعجبهم شأنهم» رواه الترمذى فى نوادر الأصول من حديث حذيفة .

ولقد سمع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مؤذناً يطرب ، ويردد فى الحروف ،فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :« إن الأذان سهل سمح ، فإذا كان أذانك سمحاً سهلا ، وإلا فلاتؤذن» رواه الدارقطنى فى سننه

وإذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد منع الغناء فى الأذان ، فأولى ثم أولى أن يمنعه فى القرآن ، فهو كتاب الله تعالى وخطابه ، وهو الذى رتله ، كما صرح بذلك ، إذ قال فيما تلونا من قبل : «ورتلناه ترتيلا[1]».

ويظهر أن مصر من قديم الزمان حملت بدعة القرآن بألحان الأعاجم، فقد قال القرطبي فى كتابه أحكام القرآن : بعد أن بين أن الترديد ، حيث يكون على مقتضى المعنى ، وما يومىء إليه النص القرآنى ، قال : «فإن زاد على ذلك حتى لا يفهم معناه فذلك حرام ، كما يفعل القراء بالديار المصرية الذين يقرءون أمام الملوك والجنائز ، ويأخذون على ذلك الأجور والجوائز ،ضل سعيهم ، وخاب عملهم ، فيستحلون بذلك تغيير كتاب الله ،

---

(١) الفرقان : ٣٢

ويهونون على أنفسهم الاجتراء على الله بأن يزيدوا فى التنزيل ما ليس فيه جهلا بدينهم، ومروقاً عن سنة نبيهم ، ورفضاً لسير الصالحين فيه من سلفهم ونزوعاً إلى ما يزين لهم الشيطان من أعمالهم ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، فهم فى غيهم يترددون ، وبكتاب الله يتلاعبون ، وإنا لله ، وإنا إليه راجعون ، لكن قد أخبر الصادق أن ذلك يكون ، .

وإن العدوى قد انتقلت من مصر إلى البلاد العربية ، وما زالت العدوى تسرى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

اللهم اغفر لنا ولا تؤاخذنا بما فعل ، ويفعل السفهاء منا ، وألهمنا المحافظة على قرآنك الكريم من عبث العابثين ، ولهو اللاهين ، وافتراء المفترين ، إنك أنت وحدك الحافظ لكتابك ، وإنه لمحفوظ إن شاء الله تعالى .

﴿ تم بحمد الله وعونه ﴾

بيان ما اشتمل عليه الكتاب

٢٠ — القسم الأول

٤٩ — قراءات القرآن

الباب الثانى

٦٣ — إعجاز القرآن

٧٦ — سر الإعجاز

٩٠ — وجوه الاعجاز

٩٧ ــ الإعجاز البلاغى

١٢٩ ــ الكلمة مع أخواتها والعبارات مع رفيقاتها

١٦٤ — تصريف البيان

١٧١ — التكرار فى القرآن

قصص القرآن من الناحية البيانية

٢٠٣ — قصص القرآن لون من تصريف بيانه

١٣٠ — التصرف فى صور العبارات البيانية

٢٥١ — الحقيقة والتشبيه والاستعارة فى القرآن

٣٢٨ — الإيجاز والإطناب فى القرآن

٣٥١ — طوال السور وقصارها

٣٦٣ — الإعجاز بذكر الغيب

٣٦٧ جدل القرآن

٤١٣ — علم الكتاب

٥٤٨ — علم الكون والإنسان

تفسير الكتاب

ترجمة القرآن

٦٢١ — الغناء بالقرآن